المجلس الأعلى للثقافة

قل لى كم مضى على رحيل القطار

تأليف : جيمس بولدوين

ترجمة: على عبد الأمير صالح

مراجعة وتصدير : ماهر شفيق فريد

المشروع القومى للترجمة

671

المشروع القومى للترجمة

قل لى كم مضى على رحيل القطار

تأليف : چيمس بولدوين

ترجمة : على عبد الأمير صالح

مراجعة وتصدير : ماهر شفيق فريد

المجلس الأعلى للثقافة

٢٠٠٣

المشروع القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٦٧١
- قل لى كم مضى على رحيل القطار
- چيمس بولدوين
- على عبد الأمير صالح
- ماهر شفيق فريد
- الطبعة الأولى ٢٠٠٣

هذه هى الترجمة الكاملة لرواية :

Tell me how long the train's been gone

By : James Baldwin

© 1968, by James Baldwin

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel. : 7352396 **Fax :** 7358084.

تهدف إصدارات المشروع القومى للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة .

تصدير المراجع

ماهر شفيق فريد

على امتداد السنوات الماضية قدم المشروع القومى للترجمة نماذج من الرواية الإنجليزية (صمويل جونسون ، أوسكار وايلد ، هكسلى ، بكيت) ، والرواية الروسية (ڤالنتين راسبوتين) ، ورواية جنوب إفريقيا (بيتر آمبرامز) ، والرواية الهندية (طاغور) والرواية الفارسية والتركية (صمد بهرنجى ، إسماعيل فصيح ، بزرج علوى) ورواية أمريكا اللاتينية . واليوم يقــدم المشروع رواية مهمة من أدب الأمريكـيين السود هى : « قل لى كم مضى على رحيل القطار » (١٩٦٨) للروائى والكاتب المسرحى وكاتب المقالة الأمريكى چيمس بولدوين (١٩٢٤ - ١٩٨٧)[١] نقلها إلى العربية القاص المترجم الطبيب العراقى الدكتور على عبد الأمير صالح بقلم الأديب مع دقة فى النقل وإخلاص للأصل .

وربما كانت أول محاولة فى النقد العربى لتقديم نماذج من الأدب الأمريكى الذى يعالج قضايا الزنوج (إذا استثنينا مقالة طه حسين الرائدة عن رتشارد رايت على صفحات مجلة « الكاتب المصرى » فى أواخر الأربعينيات ، وقد أعاد طبعها فى كتابه « ألوان ») هى كتاب مازن الحسينى « أنت أسود ، وقصص أخرى » وقد ضم ، إلى جانب مقدمة يسارية المنزع حارة النبرة ، قصصا لرتشارد رايت وستاينبك وكالدويل وألبرت مالتز (دار النديم ، القاهرة ١٩٥٥) . ثم تعاقبت الترجمات العربية لأعمال روائية ، من تأليف روائيين بيض أو سود ، تعالج نفس القضية : لمارك توين ، وفوكنر ، وألكس هيلى ، وتونى موريسون ، وغيرهم . ورواية بولدوين هذه - وهى ثمرة طفولته فى حى هارلم بمدينة نيويورك - وثيقة مهمة فى هذا السياق .

تدور أحداث الرواية فى زمن إلقاء أمريكا قنابلها الذرية على مدينتى هيروشيما وناجازاكى باليابان، والإرهاب المكارثى ، وتمتزج فيها خيوط السياسة والجنس والفن ،

إذ تبدأ بالراوى – ليو برودهامر – يصاب بأزمة قلبية فى غرفة تبديل الملابس بالمسرح الذى يعمل به ممثلا ، ثم ترتد بنا إلى الوراء فنرى لمحات من طفولته ومراهقته وشبابه . وعلاقته بأبيه وأمه وشقيقه كالب وصديقته باربارا ، وتقبله بين مختلف المهن . وعالم المسرح هو الخلفية التى تدور إزاءها أحداث هذه الدراما على نحو يذكرنا بنوڤيلا نجيب محفوظ « أفراح القبة » (وإن تكن رواية محفوظ أشد قتامة وأكثر إمعانا فى الغوص على قرار الجحيم الأخلاقى والمعنوى) وتتردد فيها أصداء من « عُطيل » شكسبير و « مس چوليا » سترندبرج و « فى انتظار لفتى » ككيفورد أودتس وغيرها .

اختلف النقاد – كما يختلفون دائما – فى تقييم أعمال بولدوين ولكنهم لا يختلفون على أهمية هذه الرواية – فنيا وسوسيولوچيا – من حيث هى تصوير لأثر القهر المدمر فى القاهر والمقهور على السواء . إن التفرقة العنصرية تحط من قدر ممارسها قدر ما تحط من قدر من تمارس عليه . ورواية بولدوين إنما هى صرخة من قلب المعاناة ضد الظلم الاجتماعى والتابو الجنسى معا . يقول كنث ماكليش إنها : « حكاية تجريبية عن شخصية آخذة فى التفكك »[٢] .

ويقول الدكتور آدم فيركلف إنها « تعالج الحيرة العرقية للأمريكيين السود والمآسى الشخصية التى كثيرا ما تقترن بها »[٣] .

ويقول إريك موترام إنها « كانت مؤذنة بتغير جدى فى طرائقه فى الكتابة : فبدلا من التوازن والاستمراريات على طريقة هنرى چيمس أصبح أسلوبه أكثر اتساما بالطابع الفضفاض ، مفتقرا إلى الاتصال ، بما يلائم خيوط التبديد الجنسى والذهنى : إن المركز هنا هو إرساء ممثل زنجى لقواعد وجوده فى مواجهة العنصرية فى عالم المسرح»[٤] .

وحتى النقاد الذين لا يحسنون الظن بالرواية – مثل مارشال وكر – لا ينكرون عليها جدية الهدف : « إنها تكرارية من حيث التأثير الذى تولده ، مطنبة إلى حد يثير الدهشة ، وإن أحسسنا فيها دائما بجهاد المؤلف من أجل استخدام القصة وسيلة لإيضاح الخبرة »[٥] .

« قل لى كم مضى على رحيل القطار » – بخيرها وشرها – رواية لا تحقق فى أن تترك فى نفس قارئها أثرًا باقيا لأنها تعالج قضية حقيقية من قضايا الوجود الإنسانى ،

ويرفدها تعاطف عميق مع أزمة الشخصية الرئيسية ، دون جنوح إلى إضفاء الطابع المثالى عليها رغم ذلك . فهى صورة صادقة للطبيعة البشرية فى سياقها التاريخى والحضارى مع واقعية (تكاد تشفى على حد الناتورالية أحيانا) فى التصوير ، ونقلات فعالة فى السرد ، ورسم محكم للشخصيات (انظر شخصية كالب ، مثلا ، وما طرأ عليها من تغير وعلاقتها بالراوى) ، وحوار نابض بالحياة ، وابتعاث للمكان والزمان ، وتناول لانهيار « الحلم الأمريكى » ذلك الذى بدأ فى ١٦٢٠ مع إبحار السفينة « ماى فلاور » من ميناء بليموث بإنجلترا حاملة على متنها مائة من « الآباء الحجاج » ورسوها ، بعد رحلة دامت سنة وستين يومًا ، على ساحل أمريكا الشمالية ، لتبدأ بذلك التجربة الأمريكية - المستمرة حتى يومنا هذا - بكل ما فيها من ثراء وتعقد ونقائض .

الهوامش

(١) من الكتابات العربية السابقة عن بولدوين :

- د. عبد العزيز حمودة ، « سلام على مستر تشارلى » مجلة المسرح ، أغسطس ١٩٦٤ . أعيد طبعها فى عدد خاص من مجلة «دراسات فى اللغة الإنجليزية وآدابها» تكريما للأستاذ الدكتور عبد العزيز حمودة، قسم اللغة الإنجليزية وآدابها ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ديسمبر ٢٠٠٠ .
- د. نبيل راغب ، « جيمس بولدوين » فى : موسوعة أدباء أمريكا ، الجزء الأول ، دار المعارف ١٩٧٩ .

وثمة مقالة مترجمة تحمل عنوان « رسالة من نيويورك : أول مسرحية للكاتب چيمس بولدوين» فى عدد خاص عن المسرح والدراما من مجلة «الثقافة الأمريكية» ، العدد الثالث ، المجلد الثانى ، خريف ١٩٦٥ ، مكتب الاستعلامات الأمريكى بالقاهرة ، دار المعارف بمصر .

(٢) رفيق بنجوين إلى الفنون فى القرن العشرين ، تحرير كنيث ماكليش ، كتب بنجوين ١٩٨٦ ص ٦٠ .

(٣) انظر مقالة آدم فيركلف عن بولدوين فى : معجم الثقافة الحديثة ، تحرير چوستين ونتل ، كتب آرك ، لندن ١٩٨٤ ، ص ٢١ .

(٤) انظر مقالة إريك موترام عن بولدوين فى : رفيق بنجوين إلى الأدب ، المجلد الثالث ، الولايات المتحدة الأمريكية ، تحرير إريك موترام ومالكولم برادبرى، كتب بنجوين ١٩٧١ ، ص ٢٦ .

(٥) مارشال وكر ، أدب الولايات المتحدة الأمريكية ، ماكميلان ١٩٨٥ ، ص ١٦٦ .

مقدمة المترجم

على عبد الأمير صالح

(١)

احتل چيمس بولدوين – ومايزال – مكان الصدارة بين روائيي أمريكا المعاصرين . وهو من ذلك الطراز من الكتاب الذين لا يكفون عن تشريح النفس البشرية والتوغل داخل أحراشها . فهو يتخذ من الرواية أداة « حاسمة » لمواجهة الواقع بكل بشاعته وقسوته . فالجنس والموت والشذوذ والتفرقة العنصرية والفقر والجريمة والبؤس ، كلها نغمات رئيسية تتردد فى جنبات رواياته . وهو لا يخجل من معالجة أى مضمون طالما أن هدفه هو اكتشاف الإنسان بكل صراعاته وتناقضاته .

إلا أن النقاد ظلموا بولدوين كثيراً فمنهم من اتهمه بالبورنوجرافية، وخاصة عندما يعالج المواقف الجنسية الصريحة التى تقترب كثيراً من الأدب المكشوف . لابد أن ناقداً مثل ستانلى إدجار هيمان أكد أن انكباب بولدوين على وصف الجنس المكشوف لا يهدف إلى تشريح النفس البشرية ولكنه يرمى أساساً إلى الرواج التجارى . إن نظرة بولدوين القاتمة والقاسية هى التى حدت بالنقاد إلى اتخاذ هذه المواقف غير العادلة تجاه واحد من أهم كتاب أمريكا المعاصرين .

إن الجديد فى أسلوب بولدوين الروائى هو أنه لا يتعرض للجنس والشذوذ الجنسى فحسب ، بل يلجأ فى الوقت ذاته إلى اتخاذ أسلوب متزمت يتميز بالقسوة والصرامة التى لا ترحم كل الأفكار التقليدية التى تقسم البشر إلى عناصر وألوان . فهو يذهب بالقارئ إلى عالم وحشى رهيب تتحول فيه الرغبات الجنسية إلى آلام مروعة وكوابيس مستمرة . وذلك أن بولدوين يجبر قارئه على مواجهة حقائق الحياة المرة بكل رهبتها وعنفها . فعلى الروائى أن يواجه عنف الواقع بعنف أشد منه .

من هنا كانت نظرة بولدوين الفنية والفكرية تتميز بالجدة والحداثة والبعد عن التقليدية والتكرار . فالفن الروائي - في نظره - هو السلاح الذي يشهره الإنسان في مواجهة الواقع المرير .

ومما يمتاز به بولدوين أنه لم يلجأ إلى الوعظ الحماسي برغم أن المضمون قد يومئ إليه بالخطابة المباشرة دفاعًا عن حقوق أبناء جلدته . فقد وجد هو في الدفاع عن السود دفاعًا عن البيض في الوقت نفسه لأن الحياة والحب والجنس ، كلها عناصر لا تحتمل التجزئة أو التفرقة . وقد تميزت تجربته الروائية بالخصوبة الإنسانية والثراء الفكري .

وبرغم القسوة الصارمة التي يعالج بها بولدوين الواقع المرير ، فإننا نلمح عذوبةً خفية وراء المواقف والشخصيات ، فالحياة - برغم كل شيء - شيء رائع يستحق أن نمتلكه وأن نحرص عليه بقدر الإمكان .

(٢)

ولد الكاتب الزنجي الأمريكي جيمس بولدوين في الثاني من آب (أغسطس) عام ١٩٢٤ . وهو الابن الأول لعائلة فقيرة تضم تسعة أبناء . كان والده كاهنًا بروتستانتيا ، وقد منع الفقر بولدوين من متابعة دراسته الجامعية فاكتفى بالتخرج في المدرسة الثانوية في حي هارلم بنيويورك .

أمضى ستة أعوام في مهن عديدة ، ففي عام ١٩٤٤ عمل نادلاً في أحد مقاهي نيويورك ؛ كانت هذه المهنة محطة بارزة في حياة الكاتب ، وتركتْ بصمات واضحة في شخصيته الاجتماعية والأدبية فيما بعد . ففي خلال هذه الحقبة الزمنية ارتبط بعلاقة وثيقة بالكاتب الأمريكي الزنجي ريتشارد رايت الذي يعد رائدًا من رواد الأدب الزنجي الأمريكي .

عندما بلغ بولدين الرابعة والعشرين من عمره سافر إلى أوروبا ، وأقام في باريس قرابة عشرة أعوام متواصلة .

وعن هذه المرحلة الباريسية ، قال بولدوين فيما بعد : « لقد تعلمت في باريس كيف أنضج وكيف أكتشف نفسي وأحدد هويتي » .

والإقامة فى باريس جعلت بولدوين يكرس نفسه نهائيًا للكتابة والأدب والنضال بالكلمة . خلال هذه المدة الزمنية كتب روايته : « اذهب وأعلنها فوق الجبل » و « غرفة جيوفانى » إضافة إلى كتابه : « ملاحظات ابن البلد » ، الذى يضم مقالات عدة .

هذه الكتب الثلاثة رسخت مكانتة الأدبية بين صفوف الكتاب الأمريكيين الشباب . وفى عام ١٩٥٧ ، عاد إلى نيويورك .

عام ١٩٦١ أصدر بولدوين كتابه الرابع - وهو مجموعة من المقالات اللامعة - الذى حمل عنوان « لا أحد يعرف اسمى » . هذا الكتاب جلب له سمعة كبيرة وأمسى معروفًا لدى جماهير القراء كما أنه استرعى اهتمام النقاد .

وفى العام التالى أصدر روايته « بلد آخر » التى نالت استحسانًا مماثلاً ، ولقيت هى الأخرى رواجًا كبيرًا ، كما أثارت جدلاً منقطع النظير لما حوته من مشاهد جنسية .

كتب بولدوين روايات أخرى منها : «النار فى المرة القادمة» ، «قل لى كم مضى على رحيل القطار» ، و «مجازر فى أطلانطا» .

كما أصدر بولدوين مجاميع قصصية عديدة ؛ منها : « ذاهب للقاء الرجل » التى نشرت عام ١٩٦٦ . إضافة إلى عدد من المسرحيات .

فى أواخر عام ١٩٨٧ مات چيمس بولدوين ، وبوفاته خسرت أمريكا والعالم واحداً من أبرز أدباء هذا العصر .

مات بولدوين ، خذله قلبه ؛ هذا القلب نفسه كاد يميت بولدوين منذ عشرين عامًا . عندما تعرض لذبحة قلبية حادة وهو فى لندن ، فى العام ١٩٦٧ ، ويومها خرج بولدوين معافى من المستشفى ليصوغ تجربة الذبحة القلبية فى رواية : « قل لى كم مضى على رحيل القطار » ، فجاءت واحدة من أروع القصص العالمى(*) .

(*) استفدنا فى المقدمة من كتاب : «موسوعة أدباء أمريكا» - الجزء الأول تأليف الدكتور نبيل راغب . دار المعارف . مصر - ص ١٢١ - ١٢٥ ، ولهذا اقتضى التنويه .

إهـداء

إلى

ديڤيد ليمنج

وديڤيد بولدوين

وانچين سيزار

لم أرَ مثيلاً له منذ ولادتي ،

الناس مازالوا يأتون ،

والقطار غادر من زمان .

– شعر تقليدي

الكتاب الأول

زنجي المنزل

فى سجن أيامه ،

علَّم الإنسان الحر كيف يسبح .

و . هـ . أودن

كانت النوبة القبلية غريبةً – كان الرعبُ غريبًا . عرفتُ أننى عملتُ دونما كلل . حذرونى . لكننى عملتُ دومًا بجد ومثابرة . أصبحتُ بعيدًا عن أنظار الجمهور عند نهاية المشهد الثانى. أحسستُ بالحرارة وبشىء ما يَحبس أنفاسى. عرفتُ أننى متعب . ومضيتُ إلى الغرفة التى أبدل فيها ملابسى ، جرعتُ كأسًا من الشراب ، ورفعتُ قدمىَّ . ثم شعرتُ بالتحسن . أدركتُ أن أمامى خمسًا وعشرين دقيقة قبل ظهورى على المسرح ثانيةً . شعرتُ بغثيان مُر ، مضيتُ إلى الحمام ، لكننى لم أتقيأ . بدأتُ أشعر بالخوف ، لا أدرى هل أجلس أم أستلقى ثانيةً ، جرعتُ كأسًا أخرى ، وغادرتُ غرفة تبديل الملابس كى أقف فى جانب خلفى من المسرح . رحتُ أتصبب عرقًا وشعرتُ بأننى أتجمد من البرد . عاودنى الغثيان ، جعلنى أشعر بأن معدتى تكاد تصعد إلى يافوخ رأسى . نظر إلىَّ مدير المسرح حين سمعتُ تلميحًا بالدخول إلى الخشبة . أخذتُ وجهه معى إلى الخشبة . بدا وجهه أبيضَ ، مرعبًا ، غير واضح ، فى الضوء الخلفى لما وراء الكواليس . ساءلتُ نفسى عن سبب خوفه . أدركتُ أننى فى حيرة وقلق ، فأنا لا أتذكر المواقع التى ينبغى لى أن أقف عندها ، شعرتُ بالحرج حين سمعتُ كلمات الدور المسرحى للممثلة . قالت بربارة كلماتها . عرفتُ الكلمات ، عرفتُ ما قالته ، غير أنى لم أعرف كيف أتصرف إزاءها، استغرقتُ وقتًا طويلاً جدًا قبل أن أتمكن من الرد عليها . بدأت أشعر بالهلع وهذا ، بطبيعة الحال ، خلق الكابوس وضاعفه ، جعلنى أدرك أننى فى وسط كابوس . تحركتُ على الخشبة ، لا أدرى كيف ، مستلاً كلمات دورى من ثنايا ذاكرتى ، مبتهلاً إلى البارى أن تكون حركاتى صحيحة – ذلك أننى فقدتُ كل إحساسٍ بالعمق أو المسافة – شعرتُ أننى أغوص شيئًا فشيئًا فى فجوة باردة . « هل نسدل الستار » ؟ همستْ بربارة ، هتفتُ أو همستُ لها «لا !» . خلال المشهد كان يجدر بى أن أضحك ، حين فعلتُ ذلك شرعتُ أسعل . خفتُ ألا يتوقف السعال ، أحسستُ بشىءٍ ذى مذاق كريه فى فمى، مما أرغمنى على بلعه ، بعدها ، بغتة ، مر كل شىء

بسلام ، أمسى كل شيء واضحًا ، هادئًا ، مضيئًا كالنهار . لفظتُ سطورًا قليلةً أخرى ، فكرتُ مع نفسي : « تبًا ، انتهى كل شيء ، أنا الآن بخير » ، بعدها ضربني شيء ما في صدري ، اخترقه ، وصل إلى عمودي الفقري ، كاد أن يصرعني . لم أستطع التقاط أنفاسي كي ألفظ سطور دوري . بدا لي أن شيئًا ما يحجب عني السطور . كنتُ أعرف إننا نكاد نبلغ نهاية الفصل . دعوتُ ربي أن يمدني بالقوة حتى نهاية الفصل. قمتُ بحركات أخرى ، تلفظتُ سطورًا أخرى . سمعت كلمات السطر قبل الأخير لبربارة : « إذًا أتيت إلى البيت لكي تمكث فيه » ؟ فأجبتها : « هذا ما أظنه ، يا سيدتي العزيزة – غير أني لا أود أن أحزنك – ربما أتيتُ إلى البيت كي أموت فيه » . لاح لي هذا القول، لحظتئذ ، مضحكًا جدًا . أسدل الستار . سمعتُ ضجيج التصفيق ، كان أشبه بهدير شلال بعيد، لأول مرة سمعتُ أنفاسي ، كانت أعلى من هدير الشلال . خطوتُ خطوةً وهويتُ على ركبتيَّ ، وقعت على الأرض ، بعدها حملوني ، أصبحتُ في حجرة تبديل الملابس . حاولتُ الكلام ، لكنني لم أقدرْ . وجه بربارة فوقي هو الذي أخبرني كم أنا مريض . انهمر شعرها البني فوق وجهها ، غطى نصفه ، عيناها الرماديتان حدقتا في عينيّ بغية إبلاغي بشيء ما ينبغي لي أن أعرفه ، لكنني لم أكنْ أعرفه . قالت : « اهدأ . لا تتحرك . لا تتكلم » .

وددتُ أن أطلب منها المعذرة بسبب الأغلاط الكثيرة التي ارتكبتها ، وبسبب المخاوف الكثيرة التي سببتها لها . أخذتْ يدي . قالت : « اهدأ . اهدأ » . بقيتْ يدها ممسكةً بيدي . بدا كل وزني ، الوزن الذي يقيسه الميزان ، والوزن الذي لا يقيسه الميزان ، كأنه يسحب تلك اليد إلى الأسفل . بدوتُ كأنني معلق وسط الهواء العدواني ، متأهبًا للسقوط المميت ، لا تحملني سوى يد بيضاء هزيلة لامرأةٍ بيضاء ضئيلة البدن . بدا لي ذلك مضحكًا جدا . نويتُ أن أضحك . لعلي ضحكت ، لا أُدري ، كل شيء يوجع كثيرًا . لم تتبدلْ تعابير وجه بربارة ، لم ترتخ يدها القابضة على يدي . عيناي لم تغادر وجهها ، الذي سلط عليّ من كل حدب وصوب . خلف وجهها وجوه أخرى ، أجسام ، أصوات ، حركات ، إلا أنها جميعًا لا شأن لها بي . شاهدتُ وجه پيتي ، الرجل الذي يلبسني الثياب ، كان وجهه داكنًا ، شرقيا بنحو غامض ، يتطلع إليّ بالتركيز نفسه الذي ألفته لديه حين يراقب تغير إنارة دورٍ ما أو تحوير حركةٍ ما .

كانت نظرته تتساءل : « إذا استمروا فى معالجة المشكلة بهذه الصورة ، فكم من المشاكل سيخلقونها » ؟ أكن لبيتى حبًا عميقًا ، هو رجل طيب جدًا ، عملنا معًا سنوات عدة ، وددتُ أن أخبره بأن لا يقلق علىَّ . إنما ، لاح لى وجهه مضحكًا جدًا . غريبًا أو لعله لم يكنْ غريبًا على الإطلاق. لا أدرى - لم أكنْ خائفًا، أو ربما ما كنتُ أعرف بأننى خائف. فكرتُ مع نفسى : « يا إلهى ، هذه ليست طريقة صحيحة لتمثيل مشهد وفاة ، لن يكون الجمهور قادرًا على رؤيتى ثانيةً » . بعدها قررتُ أن مشهد الوفاة لا ينبغى تمثيله على خشبة المسرح بل أمام الكاميرا ، خيل لى أن الكاميرا معلقة فى السقف ، فوق رأسى مباشرةً - لقطة كبيرة ، قريبة وطويلة ، مصحوبة بالأضواء ، فى الختام تنداح الموسيقى كى تعمق صوتى الخافت ، الذى لا يوصف . لم أفكرْ بأن أقول شيئًا ما ، مع أننى التفتُ إلى بربارة فاغرًا فمى . ازداد قليلاً ضغط يدها . أحسستُ بالدموع تنحدر من مآقى عينىَّ ، تصل إلى أذنى ، تسيل على عنقى . سمعتُ أنفاسى من جديد ، كانت عاليةً ، مصحوبةً بالصرير ، كأن كل محاولة لاستنشاق الهواء تتسبب فى هبوب عاصفة رملية . ثمة حركة بعيدة عنى ، حركة فى كل ما يحيط بى ، الوجوه كلها تلاشتْ ، عدا وجه بربارة ، ظهر فوقى وجه غريب ، معزول تمامًا فى الضوء . كان وجهًا عريضًا ، ذا شعر بنى وعينين زرقاوين ، أنف كبير ، عدوانى ، وشفتين مكتنزتين . عرفته حالاً . إنه الطبيب . ذكرنى - أو بالأحرى ، أنفه الذى ذكرنى - بحلاق فى هارلم كان يحلق شعر رأسى غالبًا إبان سنوات طفولتى ، هذا الحلاق يملك أضخم يدين ، وأضخم الأصابع التى رأيتها طوال حياتى . أحد أصابعه ، أو ربما كل إصبع من أصابعه ، يبدو لى أضخم من عضو ذكورتى . بدأت أشعر بالخوف من قطعة اللحم الصغيرة المهينة هذه التى كانت فى بداية رحلتها الطويلة فى التهديد .

أخبرنى الطبيب بأن علىَّ أن أمتنع عن الحركة ، طلب منهم أن يضعوا قدمىّ على مجموعة وسائد ؛ طلب أن يخرج الجميع من الغرفة . سمعتُ كل هذا ، أو بالأحرى ، تنبأتُ به من بعيد. غادر الجميع الحجرة عدا بربارة . وقفتْ هى وراء الطبيب مباشرةً . تركت يدى ، الآن أمسك بها الطبيب ، أرختْ هى حزامى ، نظرتْ إلىَّ وكأنها تقول لى : « إنه والله لأمر سيئ ، لكن لا تقلق » . لم أستطعْ الكلام ، الممثل الذى يسكننى أراد أن يبرهن بأننى لستُ شخصًا بكّاءً كالأطفال ، وأننى لستُ خائفًا ، لذا ابتسمتُ .

راقبتُ الطبيب وهو يجهز الإبرة ؛ شاهدتُ وجه بربارة . منتصبة القامة ، ساكنة ، بعيدة عنى ؛ عرفتُ أنها لم تَزلْ مساحيق الوجه ، لم تلبسْ ملابسها الاعتيادية ، هى مازالتْ بملابس الدور المسرحى، وددتُ أن أوبخها على ذلك. عادتْ نظراتى إلى الإبرة . عرفت أنه ليس ثمة مبرر يجعلنى أسأل عن محتواها . تذكرتُ هارلم وكل الإبر التى شاهدتها هناك . قال لى الطبيب : « اجمع أصابعك فى قبضة » ، كأنه يقول لى : « هيا ، كنْ رجلاً » . تذكرتُ كل الأولاد الذين صنعوا قبضاتهم . صنعتُ قبضةً . مسح ذراعى بدواء ما ثم أدخل الإبرة . بقيتْ الإبرة فى ذراعى وقتًا طويلاً . سحبها فجأة ، وضع قطعةً من القطن فوق الوريد، وضع قبضتى إلى أعلى ، إلى صدرى. قال : « الآن ، لا تتحرك » . قال لبربادة : « ينبغى له أن يمتنع عن الحركة نصف ساعة على الأقل . بعدها سنرى ماذا سنفعل » كانت لهجته غريبة . « سوف أهاتف مستشفاى . هل يمكنك البقاء معه » ؟ هزتْ بربارة رأسها بالإيجاب . خاطبها الطبيب قائلاً : « تذكرى جيداً ، لا تسمحى له بالحركة . عليه أن يمتنع عن الحركة تمامًا » . هزتْ بربارة رأسها ثانيةً . جلستْ ، أمسكتْ بيدى من جديد ، يدى المتجهة إلى صدرى . غادرنا الطبيب .

الآن ، لأول مرة ، بدأت أنتبه إلى قلبى ، قلبى بالذات : مع هذا الانتباه ، بدأ الذعر الذى رحتُ أتحسسه . أدركتُ أننى لا أعرف شيئًا البتة عن الطريقة التى جمعتنا معًا ، أدركتُ أن الشىء الذى لا أعرفه هو جزء من عملية قتلى . بدا قلبى – (إذا) كان قلبى فعلاً – كأنه يرتفع ويغوص فى داخلى ، بدا كالسبَّاح الذى ضلله شىء ما ، التيار القوى يجرفه بعيداً ، والجاذبية القوية تجعله يغوص إلى الأعماق ، إلا أنه لما يزل يكافح ، يكافح من أجل الصعود إلى السطح ، هو ما يزال يكافح مرةً أخرى . لكن البحر أقوى من السبّاح . كم مرة أخرى يحدونى فيها الأمل أن أسمع وجيب قلبى ثانيةً ؟ – ذلك الوجيب الذى أحدث هديراً فى أنفاسى . كم مرة سيهوى فيها قلبى بعيداً عنى ، يغوص إلى أعماقى ، بحيث صرتُ أتنفس بمشقةٍ لم أشهدها من قبل ، برعبٍ هائل ، قبل أن أتمكن من رفعه ثانية ؟ كانت أنفاسى هى الصوت الوحيد فى الغرفة . كان رعبى خانقًا كالقناع ، نائيًا كالريح ، ذلك الرعب جعلنى أدرك كم كانت بربارة مرتعبة ، وكم هى شهمة. لم أرغب باستبدال موقفى معها . عرفنا أحدنا الآخر سنوات عدة ، جعنا معًا ، عملنا معًا ، أحببنا أحدنا الآخر ، عانى كل منا من أجل

الآخر ، مارسنا الحب ، غير أن الاكتمال العظيم جداً لحبنا يتم الآن ، بينما تحمل بربارة يدى بصبر ، بحبٍ ممزوج بالخوف . ساءلتُ نفسى بمَ تفكر هى الآن . أظنها لم تكنْ تفكر بشىء محدد ، لا تفكر قط ، تركز انتباهها علىَّ . قررت ألا تجعلنى أموت .

« بربادة ... » .

« اهدأ يا ليو . سيكون لنا وقت كافٍ للتحدث فيما بعد . لا تجرِّب الكلام الآن » .

« عندى شىء أود قوله » .

« فيما بعد ، عزيزى ، فيما بعد » .

هزمت ثانيةً . أنا وقلبى هزمنا ثانيةً . شعرتُ بيد بربارة . شعرتُ بأنفاسى . لم أعد قادراً على رؤية وجهها ، غير أنى وعيتُ به .

« بربارة ، بربارتى العزيزة » .

« يا أعز من روحى ، يا ليو . أرجوك لا تتحرك » .

فكرت : إنها على حق . ما من شىء آخر يمكن قوله . كل ما بوسعنا أن نفعله الآن هو الانتظار . لهذا السبب ظلت هى تمسك بيدى . عرفت أن هذا هو الحب – عرفته بهدوء شديد ، لأول مرة ، دونما خوف . بدتْ لى حياتى ، تلك المتاهة الغادرة الباعثة على اليأسْ ، لحظتئذ ، كأنها تنفتح خلفى ، بدا لى أن ضوءاً سقط فى الموضع الذى لم يكنْ فيه ضوء قبلاً . صرتُ أرى نفسى فى الآخرين . بدأتُ أدرك لحظةً ما شعر به كريستوفر غالباً. الجميع يتمنون أن يكونوا محبوبين، إنما فى حالة وقوع الحب ، ما من أحد ، تقريباً ، يتحمله . كل إنسان يريد الحب لكنه حين يتحقق لا يصدق أنه يستحق هذا الحب . مهما تكون الكوارث الشخصية التى يؤدى إليها الحب هائلة ، يبقى الحب نفسه موضوعياً بصورة مدهشة ، مبهمة ، إنه واقعٌ لا تغيره أفعالنا . يأتى المرء أفعالاً كثيرةً ، يدير المفتاح فى القفل مراراً ، آملاً أن يغلقه ويمنع أحداً من الدخول ، لن يرغم المرء على أن يلقى فى عينىْ غريب مغرم به الحقيقة المبهمة ، المتعلقة بالغريب ، نفسه ، الذى وقع فى حبه . مع ذلك فضل المرء ألا يكون قلبه مقفلاً . يفضل المرء ، حصراً ، أن يفتح المفتاح باباً غير اعتيادى ، أقل سحراً .

« الباب إلى نضوجى ». تذكرتُ هـذه العبارة . الضوء الذى سقط على الماضى من حياتى ، كشف عن رجل جد خائف – صبى خائف جداً . لم يسقطْ الضوء علىَّ ، حيث أرقد الآن . تُركت فى العتمة ، وجهى غير مرئى . فى تلك العتمة ، صادفتُ مشهداً من كابوس آخر ، كابوس رأيته حين كنتُ طفلاً . فى هذا الكابوس ، ثمة كتاب – كتاب ضخم ، ثقيل ، ذو غلاف مصوّر . يكشف الغلاف عن زقاق مظلم ، قذر ، ذى علب نفايات وقطط ميتة ، شبابيك شبيهة بمحاجر عيون خالية . حزمة الضوء الوامض تنير الزقاق ، فى نهاية الزقاق ألوح أنا مغادراً الزقاق متشبثًا بشىء ما . عنوان الكتاب فى الكابوس هو : « لا ينبغى لنا أن نجده ، لأنه مفقود » .

حين انتزعوا منى شقيقى الأكبر كاليب وأرسلوه إلى السجن ، راقبتُ من سلم النجاة مبنانا الواقع شرقى هارلم الذى كنا نسكن إحدى شققه ، جدران ذلك المبنى الكبير ، الضخم ، البعيد جداً ، الرابض على تلٍ من التلال ، تكسو جدرانه المتسلقات الخضر ، نوافذه تتوامض كإشارات المرور فى ضوء الشمس ، راقبتُ المبنى بانتباه طفل مبتلى ، لا حول له ولا قوة ، منتظراً خروج شقيقى منه . لم أعرف طريقة الوصول إلى المبنى ، لو قُيض لى الوصول إليه لرقدتُ فى ظلال تلك الجدران ، لن أخبر أحداً من أترابى أو معارفى بأن أخى سجين هناك . راقبتُ المبنى سنوات عدة . غالبًا ، حين ينعكس ضوء الشمس على النوافذ ، كنت متيقنًا أن أخى يومئ لى من بعيد لذا كنتُ أرد عليه بتلويحةٍ من يدى . حين انتقالنا من ذلك المبنى السكنى إلى مبنى آخر ولولتُ ، صرختُ لأننى كنت متيقنًا أنه لن يستطيع رؤيتى ثانيةً . وا حسرتاه ، أخى أيضًا لم يمكثْ هناك ، فقد أصبح السجن « كلية المدينة » ، أخذوا أخى إلى حقل السجناء فى «أقصى الجنوب» ، وأصبح يعمل فى الحقول .

أحسستُ أن يدى طليقة ، لم يعدْ يمسك بها أحد . عاد الطبيب . ضرب كتلةً معقدةً من اللحم ضرباً خفيفًا ، دفعها ، نخسها . أرسل ضوءاً داخل مقلتىَّ ، أرسل ضوءاً إلى حنجرتى ، أرسل ضوءاً فى داخل منخرىَ . تمنيت أن يكونا نظيفين . تذكرتُ إصرار والدتى بأنه ينبغى لى أن ألبس دومًا سراويل داخلية نظيفة ، فلربما تدهسنى سيارة ، أثناء ذهابى إلى المدرسة أو عودتى منها ، فيلحق العار بى وبعائلتى حتى وأنا فى حفرة القبر ، إذا كان سـروالى الداخلى قذراً . ساورنى القلق ، والحق يقال ،

حين شرع الطبيب يشم ويتحسس المنطقة المحيطة بسروالى الداخلى القصير الذى كنتْ أرتديه . هذا الأمر جعلنى أرغب بالضحك . لكننى لم أكن قادرًا على التنفس .

فقدتُ الوعى لحظة . حين عاد إلىَّ رشدى ، كان الطبيب قد وضع إحدى يديه تحت ظهرى ، رفعنى قليلاً ، قرب من شفتىَّ كأسًا صغيرةً من البراندى .

أردف الطبيب قائلاً : « اشربه . اشربه ببطء » .

حمل الطبيب الكأس ، حاولتُ أن أحتسى البراندى . فى الغرفة رجلان يرتديان ثيابًا بيض ، يبدوان أشبه بجلادين ، وراءهما بيتى ، إلى جانب بيتى بربارة . أفزعنى الرجلان بالثياب البيض ، أدرك الطبيب هذا .

كرر الطبيب : « ببطء . ببطء » . ثم قال : « سنأخذك إلى المستشفى . هناك سترتاح . أنت بحاجة ماسة إلى الراحة » .

بخوفٍ شديد ، أجلتُ البصر فى أنحاء غرفة الملبس ، بيتى الوحيد . مازلتُ أرتدى بدلة الدور المسرحى ، أما ملابسى الشخصية فكانت معلقة على الجدار . لم أغتسلْ بالدش ، لم أزلْ مساحيق الوجه ، لم أسترجعْ وجهى الحقيقى بعد . مساحيق الوجه سببتْ لى الحكة والحرقة . وددتُ أن أزيلها . شعرى لما يزل مشبعًا بـ (الكريم) الذى استعملته كى يغدو أشيب رماديًا . أردتُ الصراخ ، نظرتُ إلى بيتى وبربارة طالبًا المساعدة ، كانا أخرسين . أى حطام ، أى رفات ذلك الذى ينتزعاه من قاعدته ، هذان الرجلان بالثياب البيض ، كيف يقدر بيتى وبربارة أن يطيقا رؤيتى وأنا أتحطم بلا شفقة . تطلعتُ إلى الأضواء فوق المرآة الطويلة ، إلى الأنابيب ، القوارير ، العصى ، المناديل الورقية ، الأقداح الفارغة ، قنينة الويسكى ، منفضة السجائر ، علبة السجائر نصف الفارغة . لا أحد سيعرفنى فى المكان الذى سأذهب إليه ! سأضيع . « أوه ، بيتى » لا أحد سيعرفنى فى المكان الذى سأذهب إليه ! سأضيع . « أوه ، بيتى » دمدمتُ ، بكيتُ ، لم أستطعْ أن أحبس دموعى . « هلا غسلتَ وجهى » .

لم يقلْ بيتى كلمة . مضى إلى منضدة الزينة الطويلة ، التقط علبة المناديل الورقية و (الكريم) البارد ، وأقبل إلى حيث أرقد . غطى وجهى بالكريم ، برفقٍ مسح الخطوط

والتشوهات التي رسمتُها قبل ثلاث أو أربع ساعات . « انتظر ، الآن » قال لي . رمى المناديل الورقية المتسخة في سلة المهملات ، أعاد برفق علبة المناديل الورقية وعلبة الكريم البارد إلى منضدة الزينة الطويلة . ذهب إلى الحمام ، عاد بمنشفة وجه مبللة ومنشفة أخرى جافة . مرر المنشفة المبللة فوق وجهي وشعري ، بعدها مرر فوقها المنشفة الجافة. خاطبني قائلاً : «هذا أفضل ما أستطيع فعله الآن ، يا زميلي القديم» . أمسك بكلتا يديّ ، حدّق في عيني قليلاً وقال : « أأنتَ جاهز الآن » ؟

أجبتُه : « نعم . شكراً » .

ابتسم بيتي : « سأفخر حين أغسل وجهكَ وقتما تشاء » . أمسك بكتفي قليلاً . «لا تخفْ . ستكون على ما يرام . علينا أن نأخذك خارج هذا المكان ، كي يستطيع الرجل أن يغلق مسرحه» .

نهض بيتي . جلب الرجلان بالثياب البيض نقالةً بجانب السرير . حملني بيتي من الخصر إلى الأسفل ربما كي يجعلني قادراً على رؤيته ، وحملني الطبيب من الخصر إلى الأعلى ، ثم أخذوني إلى النقالة . غطوني ببطانية . ازداد الألم في صدري . كدتُ أصرخ . بدأنا نتحرك . واصلت الغوص إلى الأعماق والصعود ثانيةً ، أفقد الوعي وأستعيده . شعرتُ بالهواء البارد . رأيتُ النجوم لحظةً . أحسستُ أنهم يرفعونني إلى مكان مظلم. بعدها لم أرَ شيئاً غير وجه بربارة ووجه الطبيب . سمعتُ صفارة الإنذار ، شعرتُ بالأنوار تتوامض ، شعرتُ بالعجلات تحتي وهي تبدأ بالدوران ، وعرفتُ أننا كنا نهبط بسرعة خطيرة تلاً شديد الانحدار ، شعرتُ بتوقف سيارة الإسعاف ، ثم انعطافها - كانت بربارة تمسك يدي وتحملها - عرفتُ أننا نجتاز طرقات سان فرانسيسكو بسرعة لأنه ما من أحد متأكد من أن حياة ليو برودهامر الممثل ربما لا تقاس الآن بعقرب الثواني .

شيء غريب جرى لي ، جرى في أعماقي . تذكرتُ إفريقيا . تذكرتُ أن الأفارقة يعتقدون أن الموت هو عودة إلى الأسلاف ، والتوحد ثانيةً مع الأحبة . قفزوا بسرعة من سفن الرقيق ، شاكرين الماء الذي غمرهم ، شاكرين أيضاً أسنان سمك القرش التي جعلتْ رحلتهم البحرية إلى الوطن سريعة جدا . ثم تذكرتُ رجلاً عظيماً جدا

وجميلاً جدا عرفته أحببته حبا جما . كان هو رجلاً أسود قتل على مسمع من زوجته وأطفاله في شوارع مدينة بائسة من مدن أقصى الجنوب . ثمة وفيات ووفيات ، وفيات لا يمكن ، بل من الحقارة ، أن تغفرها للعالم ، ثمة وفيات لا يمكن أن ترضى بها . غير أني ، الآن ، على مدى لحظة واحدة ، شعرتُ بالرضا . ذلك أني فكرتُ : « حسناً ، سأراه . سنجلس معاً . نتجاذب أطراف الحديث حول كل شيء ، نحتسي الشراب حتى الثمالة ، كما قررنا » . أسعدتني هذه الفكرة بصورة مدهشة ، بصورة لا توصف . شاهدتُ وجه صديقي ، شعرتُ بابتسامته ، سمعتُ صوته . فكرتُ : « لكنني لن أرى كاليب بعد الآن » . عاودتني الآلام . أحسستُ أن ثقل الأهرامات يجثم على صدري ، كانت أنفاسي كالهدير يتردد صداه في تلك السيارة الضيقة .

كان كاليب في السابعة عشرة حين كنتُ في العاشرة . في تلك السنة أودعوه السجن . كنا صديقين حميمين . في الحقيقة ، كان كاليب أفضل أصدقائي ، وصديقي الوحيد طوال سنوات عدة .

لا أعني أنه كان لطيفًا معي على الدوام . كنتُ أزعجه وأجعله يغدو عصبيًا ، يستاء من مرافقتي له ، إذ يتوجب عليه أن يكون مسئولاً عني حين تكون لديه مشاغل كثيرة . اعتاد أن يصفعني على جانب رأسي ، حين تنهمر دموعي يتعرض هو للعقاب . إلا أنني كنتُ أعرف بصورة ما ، بشكلٍ من الأشكال ، أنه حين يعاقب بسبب الدمع الذي أسكبه لم يكنْ عقابه على شيء فعله بي ، بل لأننا كنا نحيا بتلك الطريقة ؛ وإن معاقبته ساعدتْ بصورة غريبة في توحيدنا . بصورة غريبة أيضًا ، حين تجعل كفه الكبيرة رأسي يضطرب ويسدل الستار الناري أمام أنظاري ، أدركتُ أنه لم يكن يضربني . قفزتْ يده لأنه لم يقدرْ أن يتحملها ، تلقيتُ الصفعة لأنني كنتُ قريبًا منه . يحدث ، أحيانًا ، قبل أن ألتقط أنفاسي كي أولول ، أن تأخذني اليد التي صفعتني وتحملني ، من العسير حقًا أن يعرف المرء من منا الذي كان يبكي . كان يضرب ، ويضرب ، ويضرب ، يده تطلب مني أن أصفح عنه . أحسستُ أيضًا بأنه يحاول أن يلقنني شيئًا . لم يكنْ لي - والله أعلم - معلم سواه .

أما والدنا – ماذا عساى أقول عن والدنا ؟ – كان ريفيًا محطمًا من باربادوس ، نفى إلى هارلم التى يشمئز منها، حيث لم يرَ الشمس أو السماء التى علقت بباله دومًا، حيث تنعدم الحياة فى داخل الأبنية وخارجها ، حيث ينعدم الفرح . أعنى ذلك الفرح الذى علق بباله . هل يمكن أن تكون الأمور خلاف ذلك ، هل كان قادرًا على أن يجلب معه إلى السجن الذى مات فيه ، شيئًا من السعادة التى أحس بها فوق تلك الجزيرة النائية، وذلك أن نسيم البحر ، والحافز للرقص، يغيران أحيانًا شكل حجراتنا المرعبة . كانت حيواتنا مختلفة تمامًا . لكن ، لا ، فقد جلب معه من باربادوس شراب الروم الأسود وكبرياءً أكثر سوادًا ، تعاويذ سحرية لا تشفى ولا تنقذ أحدًا . لم يفهمْ الناس الذين وجدهم حوله، كانوا يبدون له عديمي التماسك ، عديمي القيمة ، عديمى الكبرياء . انحدر والدى من سلالة ازدهرت فى بدء الخليقة – سلالة أعظم وأنبل من روما وموطن اليهود ، أعظم من مصر – انحدر من سلالة ملوك، ملوك لم يذهبوا إلى ميادين القتال ، ملوك لم يكونوا عبيدًا فى وقتٍ من الأوقات . حكى لنا والدى عن قبائل وإمبراطوريات ، معارك ، انتصارات ، ممالك لم نسمعْ بها أبدًا – لم تذكرْ فى كتبنا المدرسية – غرس فينا الفخر والزهو ، شعرنا باننا أكثر بشاعةً مما كنا عليه ونحن نلبس الأحذية القديمة فى حجرة طموحاته وآماله الخانقة ، نتعثر بصورةٍ بائسة ، ندوس بأصابع أقدامنا على الياقوت ، ندعك عظام سيقاننا[1] فوق عليبات (جمع عليبة) الجواهر ذهبية اللون ، ساحبين إلى الأسفل ، بصراحة طفولية ، النسيج الأرجوانى الرائع الذى نقشت عليه دونما كلل رسوم وأشكال ذهبية وقرمزية ، تصور مصائدنا وميراثنا . لم يكن فى المستطاع غير ذلك ، طالما أن اهتمام الطفل الرئيس يتركز حول كيفية انسجامه مع العالم ، الذى يكشف لنا مع مرور كل ساعة كم هو عديم الشفقة . إذا كان الدم الملكى يجرى فى عروق والدى وكنا نحن الأطفال من أصل ملكى فإن والدى هو بالتأكيد الإنسان الوحيد فى العالم الذى عرف ذلك . كان مالك الشقة لا يعرف ذلك ، لاحظنا أن والدنا لم يذكرْ له شيئًا عن الدم الملكى الذى يجرى فى عروقه . حين نتأخر عن تسديد بدل الإيجار ، وهذا شيء مألوف ، يهددنا صاحب الشقة ، بكلمات نابية ،

(١) فى الأصل : عظام قصباتنا ، وهى العظام الكبرى فى السيقان . (المترجم)

لا تليق بملك ، بأن يرمينا في قارعة الطريق . كان صاحب الشقة يشكو من كسلنا الذي لا يتردد في اعتباره صفةً مميزةً لعرقنا . فكسلنا أرغمه ، وهو الرجل كبير السن ذو القلب الضعيف ، على ارتقاء كل هذه السلالم كي يطلب منا تسديد بدل الإيجار . هذه هي المرة الأخيرة - يود أن يؤكد لنا أن هذه هي آخر مرة يسامحنا فيها على هذا التأخير . في المرة القادمة سنجد أنفسنا في قارعة الطريق. كان والدنا أصغر سناً من السيد رابينووتز صاحب الشقة ، أكثر نحولاً منه ، أقوى منه ، وأطول منه . إذا ما سدد والدي لكمةً إلى كرش رابينووتز الهائل ، لجعله يزرق ألمًا ، يجثو على ركبتيه ، في وسعه أن يقذفه إلى السلم فيتدحرج إلى الأسفل . كنا نعرف مبلغ كرهه لرابينووتز .

في الأيام الأخيرة . كان الفصل شتاءً ، تجمعنا حول المدفأة الغازية في المطبخ لأن رابينووتز قطع عنا التدفئة . ولما نفد الغاز ، تجمعنا حول المدفأة النفطية . وحين تكسر زجاج النوافذ تأخر في إصلاحها ، كانت الريح تجعل ورق الكارتون المحشو في الشبابيك يخشخش طوال الليل ، حين هطل الثلج دفع ورق الكارتون إلى الداخل وألقاه على الأرض . لم يكنْ رابينووتز ولا سلطات المدينة تبالي بجمع النفايات أو جرف الجليد جانباً ، حالما يتسلم المبنى السكني طبقةً جديدة من الدهان ، نشتري الدهان ، ونصبغ الشقة بأنفسنا : أمسكنا بالفئران وقتلناها ، ذات شتاء ، سقطت قطعة كبيرة من سقف المطبخ ، وكدنا نفقد أمنا. كنا جميعًا نمقت رابينووتز ، كانت كراهيتنا شديدة ، كبيرة لذلك اليهودي الخسيس - كانت كلمة اليهودي فظيعةً في فم والدنا ، بل كانت تقطر سماً كما يقطر العصير من ثمرة المانجو - كنا سنسر لو رأينا والدنا الفخور بنفسه يقتله . كنا مستعدين لإبداء العون له . لكن والدنا لم يكنْ من الطراز الذي يطلب عون أحد . يقف أمام رابينووتز ، قلّما ينظر إليه ، ينحني أمامه ، رابينووتز يلقي خطبةً مسهبة عنيفة ، الرذاذ يتطاير من فمه ، العرق يتصبب من والدي ، تبدو على محياه أمارات الإرهاق بشكل لا يوصف . كان يقدم له الأعذار . يقسم له أنه لن يكرر ذلك (كنا نعرف أنه سيكررها). كان يعتذر عن التأخير . في الختام ينزل رابينووتز السلالم ، ليجعلنا نحن والجيران نعرف كم هو طيب القلب ، يدخل والدنا المطبخ ، يصب لنفسه كأساً من الروم . كنا نعرف أن والدنا لن يسمح لأي رجل أسود أن يكلمه مثلما يفعل رابينووتز ، أو مثل رجال الشرطة ، أمناء المخازن ، المسترهنون ، وعمال

الترفيه . لن يسمح للسود أن يكلموه ولو لحظة من الزمن - وإلا رماهم خارج البيت ، مؤكد ، سيجعل الرجل الأسود يعرف جيداً أنه ليس سليل العبيد ! جعلهم يعرفون دوماً أنه لم يكن له أصدقاء بينهم ، وإذا حذونا حذوه فلن يكون لنا أيضاً أصدقاء . إنه لشيء قليل الأهمية أن تكون سليل الملوك إذا كان هؤلاء الملوك سود البشرة ، وغير معروفين ، وبخاصةٍ أن المنزلة الملكية لا تشبع البطن الخاوية ولا تمنع رابينووتز من أن يرمينا ويرمي حوائجنا في قارعة الطريق ، كما فعل في النهاية . بعد ذلك ، لا أدرى كيف ، انتقلنا إلى الشقة التى قبضوا فيها على كاليب وأخذوه إلى المعتقل .

ربما بسبب والدنا ازدادت الألفة بيني وبين كاليب، برغم الفارق الكبير بين عمرينا، ربما بسبب هذا الفارق الكبير أصبح تقاربنا ممكناً. لا أدرى . إنه أمر لا يصدقه أحد . أعتقد أنه من الأسهل أن تحب شقيقك الأصغر الذى لا حول له ولا قوة لأنه لا يقدر أن يتنافس معك على أرضك ، أو على أية أرض أخرى ، كما أنه لا يستطيع أن يسألك عن شغلك أو يزعزع نفوذك . بالنسبة لي ، بالتأكيد ، لم يحدث لى أبداً - أو لم يحدثْ لى حتى وقت متأخر جدا - أن تنافست مع كاليب ، لم أجرؤ أن أسأله عن شغله أو نفوذه لأنني كنتُ بحاجة إلى الاثنين . كان كاليب هو محكّي ، طرازى المفضل ، ومرشدى الوحيد . من جهةٍ أخرى سوف يمتعض منك أخيراً شقيقك الأصغر سناً ، ويحل اليوم الذى يرغب فيه بتحطيم شقيقه الأكبر لأنه ببساطة اعتمد عليه فترةً طويلةً . لسوف يحل اليوم الذى يدرك فيه أن أى مزيج من الضعف والروية عديمة الرحمة يشتركان فى خلق دور ما ويدرك فيه إلى أى مدى يكون النفوذ تمريناً رقيقاً ، عسيراً ، مميتاً فى فرصة العمل .

على أية حال ، كان والدنا يحلم بمرارة بموطنه بربادوس ، خدعه جارفى الذى لم يفلح فى إعادتنا إلى إفريقيا ، سخر منه الجيران والناس جميعاً واحتقروه ، تجاهله أطفاله ، احتفظ بمهنته الوضيعة في أحد المعامل ، في عطل نهايات الأسابيع ينشر تعاليم إنجيله الأسود ، يحتسي مشروب الروم المفضل لديه . لا أعرف إن كان والدنا يحب أمنا . أظنه يكن لها الحب . كان لهما خمسة أطفال - كاليب وأنا ، الأول والأخير اللذان بقيا على قيد الحياة . كلانا ذو بشرة داكنة السواد، على غرار والدنا ، غير أن اثنتين من شقيقاتنا الثلاث اللاتى فارقن الحياة كانتا شقراوين ، على غرار أمنا . تنحدر والدتى من ولاية نيو أورليانز . لم يكنْ شعرها كشعرنا . شعرها أسود ، لكنه

أنعم وأجمل وطويل جداً . أما لون بشرتها فيذكرني بلون الموز. بشرتها براقة كالموز، واعدة ، لها نمش صغيرة جداً حول أنفها، وخال أسود صغير فوق شفتها العليا تماماً. لا أدري لماذا جعلها ذلك الخال تبدو جميلةً . بدون ذلك الخال، ربما يبدو وجهها حلواً . الخال يبدو مضحكًا . تلك الشامة جعلتنا ندرك أن والدتنا تحب الأشياء المضحكة ، وتحب الضحك . ترغم الشامة المرء على النظر إلى عينيها – الواسعتين ، الرائعتين ، السوداوين ، عيناها تبدوان دومًا مسرورتين بشيء ما ، تبدو عيناها ثاقبتين ، تبدوان وكأنهما تشاهدان كل شيء ، وكأنهما خائفتان من لا شيء . كانت أمنا امرأةً رقيقة ، ممتلئة الجسم . تهوى الثياب الجميلة ، والحلي المتدلية ، التي لم تملكها أغلب الأحيان، تحب أن تطهو لأعداد غفيرة من البشر ، كما كانت تحب والدنا . كانت تعرفه – تعرفه جيداً . لستُ خجولاً ولا مبتذلاً ، ولكنها حقيقة فظة ومحزنة حين أقول أنني لا أعرف ماذا رأت فيه . إن ما رأته لم تره عيون الآخرين ، ما رأته يتضمن أسبوع عمله واستراحة الأحد ، ما رأته أنقذه من الخطر والأذى . اكتشفت أنه رجل حقيقي . كان هو بالنسبة لها ، على الأرجح ، رجلاً عظيمًا . مع أن والدتنا تعتقد أن كل رجل يطمح أن يكون رجلاً حقيقًا هو رجل عظيم : يعني هذا أن والدنا من الطراز النادر جداً ، وهو رجل بكل ما فى الكلمة من معنى . إنى لأعجب كيف تقبلتْ هى ، كيف تحملتْ هى نوبات غضبه ، دموعه ، جبنه . فى ليالى السبت ، يغدو دومًا شريراً و ثملاً ، الخمرة تجعله يهذى ويسكب الدمع. يعود إلى المنزل أول العصر، يسلّم والدتى مبلغًا من المال . لم يكن ذلك المبلغ كافيًا ، بطبيعة الحال ، لمصروفات البيت ، لكنه يحتفظ لنفسه بمبلغٍ كافٍ للذهاب إلى الحانة واحتساء مشروبه المفضل . لم تحتجّ والدتى قط ، على الأقل بحدود معرفتى . ثم تذهب والدتى للتبضع . أرافقها عادةً ، أما كاليب فيكون فى معظم الأحيان فى مكان ما . لم تكنْ والدتى تحبذ بقائى وحيداً فى المنزل . كانت تخشى من اندلاع النار فى المنزل حين تكون هي خارجه – الحرائق شائعة الحدوث فى منطقتنا ، الله وحده يعرف سبب تلك الحرائق . حينما يكون والدى واقفًا بثبات وكآبة في حانةٍ لا تبعد عن منزلنا كثيراً ، أسكره الروم ، كاليب وأصدقاؤه في قبو أحد الأشخاص ، ثمل هو الآخر من خمرةٍ رديئة ، نكون أنا ووالدتي في شوارع هارلم . لعل ذلك هو أفضل ترتيب ممكن . الذين كرهوا والدنا هم بالتأكيد (للسبب نفسه) أحبوا والدتنا ؛ الناس الذين شعروا بأن كاليب سيكبر ليغدو على غرار والده تماماً ربما شعروا بأنني سأشب

لأغدو شبيهًا بوالدتي . علاوةً على ذلك ، كقاعدة عامة ، ليس من السهل أن يكره المرء طفلاً صغيراً . سيبدو المرء سخيفًا ، بخاصة ، إذا كان الطفل بصحبة أمه .

وبخاصة إذا كانت تلك الأم هي السيدة برودهامر . تدرك السيدة برودهامر جيدًا ما هو رأى الناس بزوجها . تعرف ، أيضًا ، كم هي مدينة بالضبط إلى كل مخزن تدخله ، وكم تقدر أن تسدد من تلك الديون ، وماذا يتعين عليها أن تبتاع . تدخل المخزن باسمة وتبادر قائلةً : « طاب مساؤك ، سيد شابيرو . هلا أعطيتني شيئًا من تلك اللوبياء الحمراء » .

« طاب مساؤك . أنت تعرفين أن قائمة حسابكم قد ازدادت قليلاً » .

« سأعطيك الآن قسمًا من الدين . أحتاج إلى شيء من جريش الذرة وإلى الطحين والرز » .

« أنت تعرفين ، يا سيدة برودهامر ، أن قوائمي جاهزة » .

« ألم أقل لك الآن إنني سأدفع الدين ؟ لا أدرى لم لا تصغي إليَّ . لابد أنك أصبحت رجلاً عجوزًا . أود الحصول على رقائق الذرة أيضًا ، وعلى كمية من الحليب » .

حين تتسلم والدتي الحاجيات تضعها على النضد فوراً . ينظر إلى السيد شابيرو بحزن ويتنهد .

«متى تعتقدين ، أنك ستكونين قادرةً على تسديد القائمة؟ أعني القائمة بأكملها» .

« سيد شابيرو ، أنتَ تعرفني من سنوات عدة . أنت تعرف أنني سأسدد الدين حالما يتسنى لي ذلك . لن يطول الأمر . لن ننتقل إلى منزل آخر » .

غالبًا ، حين تقول هي هذا يكون في محفظتها اليدوية بلاغ بإخلاء المنزل . يتأمل شابيرو وجهي بين الفينة والفينة كما لو أن وجهي يكشف أسرار أمي (لكن وجهي لم يكنْ كذلك) . يتطلع شابيرو إلى والدتي ، أحيانًا . كأنه يسائل نفسه كيف أوقعت امرأة لطيفة ، بيضاء تقريبًا ، نفسها في شركٍ بمكان كهذا .

« كم أصبح الحساب ؟ ناولني تلك العلبة الأخيرة من مسحوق كيك الشوكولاته الجاهز في تلك الزاوية » .

كان كيك الشوكولاته لكاليب ولى .

« حسنًا ، أضف ذلك إلى قائمة الحساب » .

تضع والدتى دولارين أو ثلاثة دولارات على النضد بأسلوبٍ متعجرف ، كان ذلك أمر طبيعى جدا فى العالم .

« أنتِ محظوظة ، يا سيدة برودهامر ، فأنا رجل رقيق القلب » .

« كن على يقين أن هذه السلع ، لا تكلف هذه الأسعار فى مركز المدينة .. أو تظن أننى لا أعرف ذلك » ؟ تدفع له ثمن مشترياتها . « شكراً لك يا سيد شابيرو ، كنت جد لطيف معى » .

نغادر المخزن . أشعر دوماً أننى بغية مساعدتها يلزمنى أن أملأ جيوبى بالسلع ، بينما تتكلم هى مع صاحب الدكان ، لكننى لم أفعلْ ذلك البتة ، ليس لأن المخزن يكون مكتظًا بالزبائن عادة ، أو لأننى أخشى أن ينتبه إلىَّ صاحب الدكان ، بل لأننى كنتُ أخشى أن أذلها ، حين بدأتُ أسرق ، بعد ذلك بوقت قصير ، كنتُ أسرق فى المخازن التى لم تكنْ فى منطقة سكنانا ، حيث لا يعرفنا أحد .

لم يكن من السهل أن يخدع المرء أصحاب المخازن مثل السيد شابيرو الكئيب . القصاب ، على سبيل المثال ، رجل مختلف تماماً ، لم يكنْ كئيباً بالمرة ، بل كان يبدى كراهيته لجميع الأطفال ، مع ذلك كانت والدتى تتدبر أمرها معه فى معظم الأحيان ، مع أن ذلك يتطلب مجهوداً واضحاً . لكنها فى بعض الأحيان ، تشعر أنها غير قادرة على بذل مثل هذا المجهود ، فلا نمر حتى أمام محله . نجتاز الشارع المشجر فى الطريق الذى يحمل الرقم (١٣٣) . نمر بالبلوكات الطويلة الواقعة غربى الشارع المشجر الثامن ، ثم نعرج على المحل الكبير للقصاب فى الشارع (١٢٥) . لأن هذا المحل أوسع بكثير يكون اللحم أرخص نوعاً ، مع ذلك ، لم نحاولْ الذهاب إلى هناك لأن معظم الناس الذين يقدمون لكَ الخدمة كريهون جداً ، لا يستطيع المرء أن يتحمل السرقة والإهانة فى أن ، مع ذلك ، أظن أن والدتى روضتْ نفسها ، وهى تبتاع حاجياتها بصمت ، كانت لا تنسى أبدًا أنها قضية منزلة اجتماعية .

حين ننوى تبضع سلع كثيرة وبكميات كبيرة ، نمضي للتبضع من المخازن الواقعة تحت الجسر في « بارك أفينو » . نذهب أنا وأمنا وكاليب ، في أحيان نادرة يوافقنا والدنا .. السبب المعتاد للتبضع « الثقيل » هو أن يكون عندنا ضيوف من أقارب والدتنا ، أو أصدقاء قدامى لأبينا وأمنا . مؤكد أننا لا نجعلهم يغادرون منزلنا جائعين - هذا لا يعنى أن ننفق أكثر مما نملك من مال ، مع أن ذلك يحصل عادةً . كنا ، أنا وكاليب نحب أن نسمع بقدوم ضيوف إلينا ، فذلك يعنى أنه ستكون هناك مأدبة في منزلنا . يكون عندنا ضيوف عادةً في عيد الشكر أو عيد الميلاد (الكريسماس) ، ضيوف يجلبون معهم أفخاذ الخنازير ، الفراخ ، الفطائر ، ليضيفوها إلى طعامنا الذى أعددناه لهم ، غير أن الناس يزوروننا أيضًا في أعياد الميلاد الشخصية أو الذكريات السنوية أو بدون مناسبة على الإطلاق، ببساطة يأتون إلينا لأن مزاجهم حثهم لزيارتنا. بالرغم مما ذكرته عن مزاج والدنا وبغض النظر عن كونه صعب المراس معنا ، فإنه يفخر بأنه لم يخطرْ بباله أبداً أن يجرح مشاعر أىَ من ضيوفه . على العكس ، كان هاجسه الوحيد أن يدفعهم للاحساس أنهم في بيتهم ، علاوةً على ذلك ، هو الوحيد بينهم الذى له ماضٍ مجيد ، الوحيد بينهم الذى يحمل وجهه شهادةً على ماضيه العريق . يدعى أحيانًا أن والدتنا لا تعرف كيف تتبضع وأنه سيرافقنا إلى المخازن الواقعة تحت الجسر ليعلمها . يرتدى والدنا قميصاً بكمين طويلين ، مما يجعله صغير السن نوعًا ، أما والدتنا فلا تبدى أية رغبةٍ في تلقى دروس التبضع منه ، يحولُ انتباهه إلينا ، أنا وكاليب . « انظرا إلى تلك المرأة » يقول هو، مشيراً بإصبعه إلى امرأة تحمل شيئًا ثقيلاً . يضيف قائلاً : « ألا ترى تلك المرأة أن تلك اليد اليهودية فوق ذلك الميزان؟ هل تريان ذلك » ؟ نرد عليه بالإيجاب سواء رأينا الميزان أم لم نره . يقول بصراحة : «عليكما أن تراقبوهم طوال الوقت . ألا إن قومنا لن يتعلموا أبدًا . لا أدرى ما الذى جرى لهم . يلزمنا نبى يقوم عقولنا ويصحح أفكارنا وينتشلنا من هذا الجحيم » . يلتقط السمكةَ ، يفتح خياشيمها ، يقربُها إلى أنفه. « هل تشاهدان تلك السمكة ؟ تلك السمكة تبدو طازجة ، أليس كذلك ؟ طيب ، أنا أكثر طراوةً منها ، وأنا أيضًا خرجتُ من الماء . لقد تلاعبوا بها كي يوهمونا بأنها طازجة . هيا ، لنذهب من هنا » . نسير ، يتطلع إلينا بائع السمك ، شاعراً بحرج قليل. على أى حال ، البائع مسرور لأن والدنا في غاية

التائف . في غضون ذلك تكون والدتنا قد تبضعت ما تحتاجه . أمنا تكون سعيدة جداً في مثل هذا اليوم لأن والدنا سعيد . كان يسعد بمرافقة زوجته وولديه . لو كنا معه في الجزيرة التي شهدتْ ولادته بدلاً من جزيرة منهاتن التي لا توصف . لشعر والدنا ، وهكذا بدأتُ أشعر أنا أيضًا في الختام ، أنه ليس من العسير علينا جميعًا أن نثق ببعضنا ونحب أحدنا الآخر . شعر والدنا - أحسب أن شعوره صحيح - بأنه فوق تلك الجزيرة التي لن تسترد عافيتها ، سوف ينظر إليه ولداه نظرةً مختلفة وسينظر إليهما هو أيضًا نظرةً مختلفة . الحياة شاقة هناك . أيضًا - هو يعرف ذلك - لهذا السبب غادر الجزيرة وللسبب نفسه أيضًا أحس بأنه مخدوع، خدع ذاته ، ولربما حاربنا هناك، أيضًا ، ولربما عانينا بتهور ومتنا بتهور . لكننا لن نكون (أو هكذا خيل لنا دومًا) مهددين بنحو خطير بحقيقة علاقتنا ، ولن نكون خائفين من التوغل إلى حقائق حيواتنا الجوهرية ، الأكثر جمالاً ، الأكثر قيمة . ولربما نضحك معًا ، يشتم بعضنا بعضًا ، نتصارع في الماء بدلاً من التخبط تحت الجسر : ولربما سنعرف أقل عن الممالك الإفريقية الفانية ، ونعرف أكثر عن أحدنا الآخر . أو نعرف أكثر عن الممالك وعن أنفسنا ، وهذا شيء غير مستحيل أبداً .

إذا كان الوقت صيفًا ، نبتاع الرقي(*) الذي يحمله كاليب أو والدنا ، يتخاصمان مع أحدهما الآخر من أجل هذا الامتياز . كان شيئًا مدهشًا أن نراهما يتخاصمان بتلك الطريقة . أحدهما يتهم الآخر بكونه كبير السن . في الأيام الخوالي كان الوالد يصر على القول لو أن ابنه حمل الرقية إلى البلوك التالي بتلك الطريقة فإن الفتيات في حيهم السكني سوف يأسفن عليه . يقول له الأب : « بالله عليك ، يا رجل ، ومن أجل اسم عائلتنا . ومن أجل ألا يضمحل ، دعني أحمل الرقية ، يا كاليب . سوف تدمر أعصابك » . . « يعتقد ليو الصغير أنا سنواصل حمل الاسم » . يقول كاليب أحيانًا ، في أحيان أخرى يلمح بصورة واضحة إلى أنه يحمل الدم حتى إذا لم يكنْ مستعداً لحمل الاسم . مما يؤدي هذا في بعض الأحيان إلى أن يتسابقا ركضًا إلى سلالم مسكننا . والدنا عادةً هو الذي ينال قصب السبق ، طالما أن ثقل الرقية يعيق كاليب

(*) البطيخ . (المراجع)

عن الفوز . حينذاك كانا شبيهين ببعضهما – كلاهما ضخم البدن ، كلاهما أسود ، كلاهما كثير الضحك. كاليب يبدو ضعيفاً جداً حين يضحك . كان يضحك بكل جسده ، وربما يسند كتفه على كتفك ، أو يريح رأسه على صدرك هنيهةً ، ثم يعدل من جلسته . وهو في وسط الغرفة ، أو في البلوك السكني . أسمع قهقهاته دوماً. كان كاليب فرحاً دوماً يومذاك. إذا كان والدنا بحاجة إلى ابنه، فإن كاليب هو الآخر بحاجة ماسة إلى والده . على أية حال ، كانت تلك أياماً نادرة – لعل ذلك أحد الأسباب التي جعلتني أتذكرها الآن . ضحكة أبي شبيهة بضحكة كاليب، عدا أنه لا يتحرك قط ويكون في غاية اليقظة. في الختام نرتقي كلنا درجات السلم المؤدي إلى ذلك الكوخ ، الذي كنا نعدّه – يومئذ – قصرنا الواسع . وحين يقفل والدنا الباب نكاد نشعر أن الجسر المتحرك قد صعد خلفنا إلى أعلى .

قبل امتلاء حوض الاستحمام بالماء البارد نضع البطيخ الأحمر (الرقي) في الحوض لأن اليوم هو السبت ، عند حلول المساء نستحم كلنا . نغطي البطيخ ببطانية ، نضعه على سلم النجاة . نفرغ حمولتنا مما اشتريناه متأثرين نوعاً بثروتنا ، مع أن والدنا ، آنذاك ، كان يرتعب من المال الذي أنفقناه والنوعية التي اشتريناها . كنتُ ، دوماً ، أدرك أنه ما إن ينتهي اليوم التالي حتى تنفد كل مشترياتنا ، بل إن معظمها يذهب إلى بطون الآخرين . لماذا كنا نفعل كل ذلك للآخرين وليس لأنفسنا ؟ إنني أعرف أفضل من النطق جهاراً بسؤال كهذا . تعدُ أمنا البنسات التي تحتاجها خلال أيام الأسبوع : أجرة السيارة لوالدنا ولكاليب الذي التحق بمدرسة ثانوية خارج حينا السكني ، في مركز المدينة ، ثمن التأمين على الحياة . ثمن الحليب الذي أشربه من مدرستي ، ثمن زيت كبد القُد ، ثمن الإنارة والغاز ، وتدخر هي مبلغاً من المال – جهد الإمكان – لإيجار الشقة . كانت تعرف فقط المبلغ الذي بقي في جيوب والدي ، تعتمد هي عليه في إعطائي النقود اللازمة للذهاب إلى دار السينما . يعمل كاليب في مهنة تستغرق بضع ساعات بعد دوامه في المدرسة لذا تكون لديه النقود اللازمة لمشاهدة الأفلام السينمائية . على أية حال ، لم يكنْ كاليب متلهفاً للذهاب معي إلى السينما ما لم يكنْ مزاجه رائقاً جدا أو يحتاجني في شيء ما .

أمنا لم تكنْ تلح لمعرفة أين يقضي كاليب أوقاته ، ولم تستفسر منه عن الكيفية التي ينفق بها المال الذي يكسبه . فهي تخشى أن يكذب عليها ، كما لم تكن ترغب

بإجباره على الكذب . تفترض هي أنه شاب مرهف الإحساس ، وجدير بالاحترام وأنه الآن وأكثر من أي وقت مضى ، بأمسّ الحاجة إلى أن يتصرف بحرية دون أن يتدخل أحد في شئونه . مع ذلك ، كانت هي شديدة الحزم معه . « لا أريدك أن تأتي إلى هنا الثالثة صباحاً . أريدك أن تكون هنا وقت العشاء، وأنت تعرف أنه يلزمك الاستحمام » .

« أجل ، ماما . لم لا أستحم صباحاً » ؟

« لا تكنْ مضحكاً . كاليب ، أنت تعرف أنك لن تستيقظ في الوقت المناسب كي تستطيع الاستحمام صباحاً ؟ » .

« يا رجل ، لا أحد يرغب برؤيتك تعبث بالحمام طوال الصباح » .

يقول والدنا ، ثم يستطرد قائلاً : « ما عليك إلا أن تعود إلى البيت مبكراً مثلما أخبرتك أمك » .

قلت : « فضلاً عن ذلك ، إنك لا تنظف حوض الاستحمام مطلقاً » .

نظر إليَّ كاليب في دهشةٍ مليئةٍ بالسخرية ومن ارتفاع شاهق ، أنزل ذقنه وأسبل جفنيه في الوقت نفسه وأشاح بوجهه عني . ثم قال :

« الآن ، فهمت . كل فرد من أفراد هذه العائلة يهاجمني وكأنه فرد في عصابة . حسن يا ليو . كنتُ أنوي اصطحابك معي لمشاهدة الفيلم ، لكنني الآن غيّرتُ رأيي » .

هذا الاقتراح كان له التأثير الذي تمناه شقيقي كاليب . ارتاح والدي ليس لأنني ساكون ، كما ظنا ، محكاً لكاليب ، وليس لأن كاليب سيكون حمايةً لي - فهذا يقلل من وضوح الذنب القلق الذي أحسا حين كنتُ أقضي أوقاتي متسكعاً في الطرقات ، بل شعرا بالارتياح لأنهما سيكونان في خلوةٍ قصيرة ، ودية ، خالية من القلق ، في ضوء النهار . كنتُ نادماً ومسروراً .

قلتُ بلباقة : « إني جد أسف . إني أسحبه » .

« تسحب ماذا » ؟

« أسحب ما قلته بشأن عدم تنظيفك حوض الاستحمام » .

« ما من حاجة لسحب كلامك » . قال والدنا بعناد . « إنها حقيقة . الرجل لا

يسحب الكلام الحقيقي » .

« إذاً هذا هو رأيك » . قال كاليب باستخفاف ، مل تلميحة ساخرة . وقبل أن يتصرف أى منا بشيء ، يرفعني كاليب عالياً ، معبساً بوجهي الذي يعلو وجهه . « إذاً ، أنتَ تسحب كلامك » ؟

قال والدنا : « لن يسحب ليو كلامه » .

كنتُ في حيرةٍ من أمري . يراقبني كاليب ، تكشيرةٌ صغيرة تبدو على وجهه .

« أتسحب كلامك » ؟

قالت أمنا : « كف عن مضايقة الولد وإذلاله . ليست المسألة إذا كان كاليب لا ينظف الحوض .. إنه فقط لا ينظفه جيداً » .

يرد والدنا : « هو لا ينظف الحوض إلا إذا كنتُ واقفاً خلفه » . « حسناً ، كلكم لا تبالون بأمور المنزل » . قالتْ أمنا في النهاية ثم أتمت قولها : « وهذه هي الحقيقة » .

ضحك كاليب ، أنزلني إلى الأرض . ثم قال : « أنتَ لا تسحب قولك » .

لم أجبْ .

« أعتقد بأنني سأذهب إلى السينما بدونك » .

لم أردْ عليه ، أيضاً .

« ستجعل الولد يجهش بالبكاء في لحظـــات » . قالتْ أمنا ثم استطردتْ قائلةً : « إذا نويتَ اصطحابه فافعل الآن . لا تعذبه بهذه الشاكلة » .

قهقه كاليب ثانيةً . « سأصحبه معي . عيناه توشكان أن تذرفا الدمع . خير لي أن آخذه معي إلى مكان آخر » . سرنا نحو الباب فخاطبني قائلاً : « عليك أن تصر على قول ما تعتقد أنه صحيح » سأل والدنا : « أيّ فيلم ترغب أن يراه أخوك » ؟

أجاب كاليب : « لا أدري . سنرى ماذا يعرض في سينما لنكولن » .

« ألا تعرف أني لا أود أن يفسد عقله » .

« إن مشاهدة الأفلام لن تفسد عقله » .

« أنتَ لا تعرف اليهود ، كما أعرفهم أنا » .

قالت أمنا : « دعهما يذهبان ، كي يستطيعا العودة إلى المنزل وقت العشاء » .

« اليهود هم الذين يصنعون الأفلام كي يفسدوا عقولنا . ولهذا السبب أمتنع أنا عن مشاهدتها » .

علقتْ أمنا قائلةً : « أنتَ لا تذهب مطلقًا لمشاهدتها ، لأنك كسول جدًا وهـــرم . ما من أحد يقدر أن ينتزعك من مشروب الروم . دع الولدين يذهبان ... » .

قال والدنا بتجهم : « سترين ذات يوم كيف تفسد الأفلام عقليهما وسوف تكرهين ما تشاهدينه » .

ردتْ أمنا : « صه ، لستُ خائفة من رؤية ما سيحدث في المستقبل . أنا أعرف ما الذي رأيته حتى الآن » .

أمسكتُ يد كاليب ، علامة نزول الجسر المتحرك . راقبتنا أمنا بمرح ونحن نخطو نحو الباب ، بينما راقبنا والدنا بحزن . مع ذلك ، لاحتْ السخرية على وجهه ، كما لاح على وجهه شيء من الكبرياء . « عندي لك ملاحظة ساخرة فيما بعد » . قال كاليب مخاطبًا والدنا وأغلق الباب وراءنا .

كان الرواق معتمًا ، يفوح بروائح الطبخ ، وروائح حفاظات الأطفال المغلية ، رائحة بول الرجال والأولاد هناك آخر الليل ، رائحة الخمرة الرخيصة ، ورائحة النفايات المتعفنة . كانت الجدران مليئة بالمعلومات التي لاقيتُ صعوبةً بالغةً في قراءتها ، ولم أعرفْ كيفية الإفادة منها . هبطنا درجات السلم ، ينزل كاليب درجتين معًا ثم يتوقف هنيهةً عند كل منبسط ليلقي نظرةً قصيرةً عليَّ . كنتُ أنزل الدرجات وراءه ، بأقصى سرعتي . حين يكون كاليب في مزاج سيئ فإن كل أفعالي يعتبرها خاطئة . أما حين يكون في مزاج جيد فلا يبالي حتى إذا كانت أفعالي خاطئة . عندما أصل مستوى الشارع ، يكون كاليب قد وصل مدخل المبنى ، يضحك مع أصدقائه الواقفين هناك – تجدهم دومًا في مدخل المبنى ، في أي وقت تمر من هناك تجدهم في المكان نفسه . لم أحبْ أصدقاء كاليب : لأنني كنتُ أخشاهم ، أعرف أن السبب الوحيد الذي منعهم من

تحويل حياتي إلى جحيم كما حولوا حيوات أولاد كثيرين إلى جحيم هو خوفهم من كاليب . مررتُ من الباب بين شقيقي وأصدقائه ، مشيتُ حتى رصيف المشاة ، شعرتُ حين ألقوا عليَّ نظرةً قصيرةً واستمروا في الضحك مع كاليب بما شعروا به مراراً هو ذا كاليب المندهش ، وشقيقه الصغير ، المخنث ، سهل الانقياد ، يشفقون على كاليب لأنه يصحبني معه ، من جهة أخرى ، هم أيضاً ، يرغبون بمشاهدة الفيلم لكنهم لا يملكون المال ، كان بوسعي أن أتبجح بامتلاكي المال حتى لو احتقروني . لكن ذلك أمر محفوف بالمخاطر دوماً ، فمن المحتمل أن يغير كاليب رأيه ، في أية لحظة ، فيطردني ، ويتخذ أصدقاؤه موقفاً عدائياً مني . عصر كل يوم سبت ، أقف هناك . يساورني الرعب ، ترتعد أوصالي ، وأنا أحتفظ بالترس الصغير للشجاعة التي أتظاهر بها ، فيما أنا أنتظر كاليب وهو ينزل درجات مدخل المبنى ، مبتعداً عن أصدقائه ، قادماً نحوي. كنتُ مستعداً، دوماً ، لمجيء اللحظة التي يلتفت بها إليَّ قائلاً : « حسناً ، يا ولد ، اذهب الآن ، سأراك فيما بعد » .

يعني هذا أنه يلزمني الذهاب بمفردي إلى السينما ، أتسكع أمام شباك التذاكر ، منتظراً أحد البالغين أن يدخلني معه ، لم أجرؤ على العودة إلى مسكننا إذ إن والدي سيعرفان أن كاليب قد ذهب إلى مكان ما بعد أن وعدني بمرافقته لمشاهدة الفيلم ، كما لم يكنْ في مقدوري التسكع على مقربة من بلوكنا السكني، واللعب مع أولاد الحي ، ذلك أن سلوكي ، حال مغادرتي المنزل ، في أيام السبت ، يكشف بصورة جلية أن عليَّ أن أفعل شيئاً أكثر نفعاً من اللعب معهم ، كما أنهم غير تواقين للعب معي ، والسبب الأخير ، إن بقائي في البلوك له التأثير نفسه لو أنني ارتقيت الدرجات المؤدية إلى منزلنا ، حتماً سيبلغ أحدهم أبي وأمي ، أو لعلهما يشاهدانني من النافذة ، أو ينزل أحدهما السلّم كي يبتاع شيئاً نسي ابتياعه خلال التبضع ، أو يمر والدي بالبلوك في طريقه إلى الحانة ، بإيجاز ، إن بقائي في البلوك بعد أن يصرفني كاليب يعني أنني أغدو تحت رحمة البلوك ويغدو كاليب تحت رحمة والدينا .

هكذا كنتُ مستعداً، أيام السبت ، لتقبل جملة «حسناً ، سأراك فيما بعد» ببرود ، وأن أتأهب للعودة دون اكتراث ، وأغذ الخطى بمفردي ، حتماً تلك أكثر اللحظات فظاعةً ، فما إن أستدير على عقبيَّ حتى يقبضوا عليَّ ، يوقعوني في شباكهم ، ويتعين

عليّ أن أقطع الأميال ، هكذا يبدو لي ، قبل أن أتلاشى عن الأنظار ، قبل أن ينتهي البلوك ، بعدها يكون في مقدوري أن أنعطف إلى الشارع المشجر ، كم وددتُ أن أبتعد عن ذلك البلوك ، لكنني لم أفعلْ. لم أنظر للوراء ، أرغمتُ نفسي على أن أمشي الهوينى ، لا أتطلع لا يميناً ولا شمالاً ، أحاول ألا أنظر لا إلى أعلى ولا إلى أسفل - مكافحاً من أجل أن أبدو ذاهلاً وفظا في آنٍ واحد ، مركزًا انتباهي على الشقوق فوق رصيف المشاة ، أسير عليه باضطراب ، أحاول جاهداً أن أصفّر ، أشعر أن كل عضلةٍ من عضلات جسمي ، بدءاً بأصابع قدمي المعقوفة إلى الداخل حتى عجيزتي الزجراجة ، حتى عنقي المحترق ، أن البلوك بأكمله يراقبني ، كما أحس إحساسًا غريبًا بأنني أستحق ذلك . بعدها أصل إلى الشارع المشجر ، فأنعطف إليه دون أن ألتفت للوراء ، متحرراً على الأقل من تلك العيون، لكنني الآن أواجه عيونًا أخرى ، عيونًا قادمة نحوي . عيون الأولاد الأقوى مني ، الذين ينوون سرقة ثمن بطاقة السينما ، عيون رجال الشرطة البيض ، الذين أخافهم ، وأبغضهم بغضاً قاتلاً بكل ما في الكلمة من معنى ، تلك هي عيون البالغين الذين يعتقدون أيضاً أنني غلام مخنث ولعلهم يساءلون أنفسهم ماذا أفعل وحدي في هذا الشارع المشجر . تلك هي عيون الرجل والنساء الداخلين إلى الحانات والخارجين منها ، أو الواقفين في ملتقيات الشوارع ، الذين لا يلقون عليّ أية نظرة ، لكنهم يحتلون جلّ انتباهي المرتبك لأنهم يبدون ، في وقتٍ واحد ، دنيئين وأحراراً .

من ثم أذهب إلى العرض السينمائي . يصادف تارة ، أن يأخذني أحدهم معه إلى الصالة ، وتارةً أخرى يلزمني الانتظار . كنتُ أتطلع إلى الملصقات التي بدت لي يومذاك ساحرةً . الألوان تجذب انتباهي . وجوه ممثلي وممثلات السينما بالألوان الحمراء ، والخضراء ، والزرقاء ، والأرجوانية ، لا تشبه البتة ألوان الوجوه الحقيقية بل تبدو هي أكثر واقعية من الوجوه الحقيقية . أو بالأحرى ، بدت كالوجوه البعيدة عني ، الوجوه التي لا أقدر على كشف أسرارها ، وجوه يمكن رؤيتها لكن لا يمكن تغييرها أو لمسها ، وجوه حاضرة فقط خلف هذه الأبواب . لا أدري ما الذي فكرتُ به . وحصل هجوم واسع على مخيلتي ، على إحساسي بالواقع . كاليب يجيد الرسم . كان يعلمني الرسم ، أسائل نفسي هل هو قادر على أن يعلمني رسم وجوه كوجوه نجوم السينما .

كنتُ أنظر إلى صور مأخوذةٍ من الأفلام، أرى الناس في حالات الخطر ، حالات الحب ، حالات الحزن والهجران . لم يكونوا على غرار الناس الذين رأيتهم لذا بدوا في حالٍ أفضل بصورة لا جدال فيها . عرفتُ ، بجزء من عقلي ، طبعًا ، أن هذا هو جيمس كاجني يحمل بندقيته كما يحمل المرء جائزة، وهذا هو كلارك جيبل، ورأيت كل غمازاته ، أسنانه، عينيه، عينيه الطافحتين بالذكريات الساخرة، المفعمة بدخان رجولته التي لا تقهر ، وهذه هي جوان كراوفورد ، تشع بدهشة ، وها هي ذي كاترين هيبورن الفخورة بنفسها ، المرتعشة، التي لا تندهش أبداً ، وهذه هي سيلفا سيدني البائسة ، المضطهدة ، تنتحب وقد وقعتْ في قبضة عضو آخر من أعضاء العصابة . لكن الوجوه والحالات وحدها هي التي كانت واقعية ، أكثر واقعيةً من الحياة التي نعيشها ، أكثر واقعيةً من نهاراتنا ولياليها ، كانت أسماء الأفلام هي علامات تجارية حصراً مثل « فاصولياء كامبيل المحمصة » ، أو « رقائق ذرة كليو » . ذهبنا لمشاهدة جيمس كاجني لأننا اعتدنا تلك النكهة كما كنا نعرف أننا سنتلذذ بها . لكن ، إذ ذاك ، كان يلزمني أن أحول انتباهي من وجوه نجوم السينما وصورهم إلى مراقبة الوجوه الآتية إلى شباك التذاكر . لم يكنْ هذا بالأمر اليسير ، طالما أنني وددتُ ألا يعرف أحد من أبناء حينا بأنني أتسكع خارج دار السينما منتظراً أحدهم أن يصحبني كاليتيم إلى داخل الصالة . لو شاهدني والدنا هناك سيشبعنا ضرباً ، أنا وكاليب . في الختام أرى وجهاً حساساً لا أعرفه من قبل . أسرع إلى جنبه أو جنبها – لكنه يكون رجلاً عادةً . فالرجال يكونون أقل رفضًا – وأهمس بأذنه : « خذني معك إلى الصالة » . أناوله السنتات العشر . تارةً يأخذ الرجل السنتات العشر ويختفي في داخل السنما . وطوراً يعيدها إليَّ ويأخذني معه . أحياناً ينتهي بي الأمر إلى التجوال في الطرقات – لكنني لا أستطيع التجول في حي غريب لأنهم سيشبعونني ضرباً – حتى وقت انتهاء العرض . إن العودة إلى المنزل في وقت مبكر أمر محفوف بالمخاطر ، وبطبيعة الحال ، إنه لأمر قاتل أن أصل البيت متأخراً جدا . إذا سارت الأمور على ما يرام ، عندئذ أستطيع خلق الأعذار لغياب كاليب ، قائلاً بأنني تركته مع شلة من أصدقائه في مدخل المبنى السكني . أما إذا عاد في وقت متأخر جدا ونال توبيخاً ، فإن ذلك ليس غلطتي .

لم يكن تجوالي بتلك الطريقة خاليًا من المخاطر ، ولا خاليًا من الاكتشافات

والمباهج . اكتشفتُ قطارات الأنفاق - اكتشفتُ أن بمقدوري ركوب هذه القطارات بمفردي ، والأكثر من ذلك ، يمكنني ركوبها مجانًا . غالبًا حين أنحني تحت الباب الدوّار يمسكونني ويصفعونني ويعيدونني من حيث أتيت ، وفي أحيان أخرى ، تمسكني سيدات سوداوات ضخمات الأبدان ، يتخذن ذلك حجةً كي يلقين عليّ بصوتٍ عالٍ محاضرات أخلاقية ، مسهبة ، تفوق الوصف ، عن الأطفال المتمردين الذين يحطمون أفئدة آبائهم ، وفيما يتعلق بهذا الأمر ، نجد أن النساء عادةً يختلفن فيما بينهن بصوتٍ عالٍ جدا ، ويؤكدن أن الأطفال المشاكسين هم نتاج لآباء مشاكسين ويبتهلن إلى الباري أن تقع على رأس والدي العقوبات الشديدة التي يوصي بها سبحانه . ولعل الله يفعل ما يشاء مما يفوق خيالهن . غالبًا ، أفعل كل ما في وسعي كيلا أجذب انتباههن ، أحاول أن أظهر أنني في رعاية رجلٍ ذي مظهر محترم أو امرأةٍ ذات مظهر محترم ، أدخل القطار النفقي خلفه أو خلفها مباشرةً ، أجلس بجنبهم أو جنبهن بلا حراك . من الأفضل الجلوس بين اثنين أو اثنتين ، إذ يحسب كل منهما أنني مع الآخر . أجلس هناك ، دونما اسم محدد ، وهو أمر غير مضمون ، أراقب الناس ، مصغيًا للجلبة المتواصلة ، متأملاً الأضواء والقابلوات (جمع القابلو = الكيبل) وأضواء المحطات الأخرى الراجعة للوراء . بدا لي أن لا شيء أسرع من القطار النفقي ، أحببتُ سرعته لأنها محفوفة بالمخاطر . خلال تلك الرحلات الاستكشافية ، كنتُ أجلس لأتأمل الناس . كثيرون يرتدون أبهى ملابسهم ، لأن تلك هي ليلة السبت . شعور النسوة مسرّحة ومموجة ، الحمرة على شفاههن المكتنزة يبدو أرجوانية وبارزة مقارنةً ببشرات سحناتهن الداكنة . يلبسن (كابات)[1] أو سترٍ ذات أشكال غريبة ، بألوان مدهشة ، وفساتين طويلة ، تارةً يضعن الحلي في شعرهن وطوراً يزين فساتينهن بالزهور. كن ، تقريبًا ، جميلات مثل نجمات السينما . الرجال الذين برفقتهن يعتقدون ذلك أيضًا . شعر الرجال أملس متموج ، مرفوع من الجبين إلى الوراء ، أو يعتمرون قبعات أنيقة جدا ، ذات حافة مائلة بنحو خطير إلى إحدى العينين ، غالبًا يضعون وردة واحدة في طيات صدور السترِ متعددة الألوان ، دبابيس زينة تلمع وسط أربطتهم البراقة . أكفهم كبيرة

(١) كابات : جمع كاب ، وهو رداء خارجي بلا كمين يطرح على الكتفين . (المترجم)

ونظيفة جدا ، بخواتم فى أصابعهم الضخمة ، أظافرهم لماعة . يتبادلون الأحاديث والضحكات الخافتة مع صويحباتهم فثمة أناس بيض معهم فى عربة القطار . البيض نادراً ما يرتدون ألبسة فاخرة ، لم يكونوا متأنقين كالملونين . هم يرتدون بزّات وقبعات وستراً اعتيادية ، لا يتكلمون فيما بينهم إطلاقًا - بل يكتفون بقراءة صحفهم متطلعين إلى الإعلانات . البيض كانوا يفتنونني أكثر من الملونين لأننى لا أعرف عنهم شيئًا قط ولم يخيل لى أبداً ماذا تشبه سحناتهم . فقد بدت لى غريبة كالسحنات التى تظهر فى ملصقات الأفلام وصور المشاهد السينمائية . لكنها أقل جاذبية ، لأنها تبدو غامضة ومهددة ، وتحت ضوء القطار النفقى عديم الشفقة ، انكشفت بجلاء تام بألوانها الحقيقية ، لم تكنْ خضراء ، حمراء ، زرقاء ، أو أرجوانية ، بل كانت حصراً سحنات مثابرة ، مستثارة ، صفراء مائلة إلى الوردى والأحمر . ساءلتُ نفسى لم يدعوهم الناس بالبيض - فهم فى الواقع ليسوا بيضًا . السود أيضًا ليسوا سوداً - إن رأى والدى خطأ . فى الأنفاق ، فهمتُ أول مرة حقيقة أحياء نيويورك . وفى الأنفاق أيضًا أدركتُ ما معنى الرعب المدنى . أدركتُ فوراً أنه ما إن يجتاز القطار نقطةً معينة ، سواء أكان منطلقًا إلى خارج المدينة أم إلى مركزها ، يختفى الملونون تمامًا . حين اكتشفتُ ذلك أول مرة ارتعبتُ وتهتُ ، نزلتُ من القطار بسرعة . فزعتُ حين فكرتُ ما سيفعله بى البيض حيث لا يوجد إنسان ملون يمكنه حمايتى - أو حتى تأنيبى أو ضربى . فعلى الأقل إن لمسات الملونين مألوفة لى ، وأعرف مسبقًا أنهم ، بالرغم من كل شىء لا ينوون قتلى : ركبتُ قطاراً آخر لمجرد رؤيتى لرجل أسود فيه . غير أن جميع الركاب الآخرين تقريبًا كانوا من البيض . لم يتوقفْ القطار فى أىّ من المواقف التى أتذكرها . تعاظم خوفى رويداً رويداً ، كنتُ خائفًا من النزول وخائفًا من البقاء فى القطار ، خائفًا من التحدث بأىّ شىء إلى الرجل الأسود ، وخائفًا من أنه ربما ينزل من القطار قبل أن يتسنى لى أن أكلمه . كان ذلك الرجل هو خلاصى الوحيد . كان واقفًا بهيئة مخيفة ، صعبة المنال ، وهى الهيئة التى يتخذها الخلاص عادةً . فى كل موقف ، أتأمله بيأس . الأنكى من ذلك ، عرفتُ فجأةً أننى يجب أن أتبوّل . حالما عرفتُ ذلك أصبحت هذه الحاجة عذابًا مريراً: الخوف من أن أبلل سروالى الداخلى أمام أنظار كل هؤلاء الناس، جعل عذابى يتعاظم . فى الختام سحبتُ كم الرجل . نظر إلىّ بقلق فظ ومضحك - كان ينظر إلى ما وراء النافذة المعتمة ، مستغرقًا فى أفكاره الخاصة . ثم استجاب ،

بلا ريب ، لليأس البادي على وجهي ، فانحنى قريبًا مني ، سألته عن وجود حمّام في القطار . ضحك الرجل .

أجابني قائلاً : «لا . لكن يوجد حمام في المحطة » . نظر إليَّ ثانيةً وسألني قائلاً : « إلى أين أنتَ ذاهب » ؟

أخبرته أنني قاصد البيت . لكن الضغط على مثانتي جعل التكلم شيئًا عسيرًا .

« وأين بيتكم يا ترى » ؟

أجبته . لم يقهقه هذه المرة .

« أتعرف أين أنتَ الآن » ؟

هززتُ رأسي نفيًا . في تلك الأونة دخل القطار المحطة وبعد بضع دقائق بدت لي بضع ساعات بدأ القطار يتوقف . بعد وقتٍ أطول نسبيًا ، فتحت الأبواب المغلقة وقادني الرجل الأسود إلى الحمام . دخلتُ فورًا . أسرعت لأنني كنتُ أخشى أن يتلاشى هو عن الأنظار . سررتُ لأنه لم يدخل معي إلى الحمام .

حين خرجتُ ألفيته واقفًا ينتظرني . قال لي : « الآن . أنتَ في بروكلين .. هل سمعتَ ببروكلين من قبل ؟ ماذا تفعل هنا وحدك » ؟

« أنا تائه » . أجبته .

« أعرف أنك تائه . ما أريد معرفته هو كيف تهت ؟ أين هي أمك ؟ وأين أبوك » ؟

كدتُ أقول له أن ليس لي أب ولا أم لأنني أحببتُ وجهه وصوته وكنتُ أطمع نوعًا أن أسمعه يقول لي بأنْ ليس له ولد صغير وهي ذي فرصته كي يتبناني . لكنني أخبرته أن والديَّ في البيت .

« وهل هما يعرفان أين أنت » ؟

أجبته بالنفي . ران صمت .

« طيب . أعرف أنهم سوف يشبعونك ضربًا وتقريعًا حين يرونك » . أخذ يدي وخاطبني قائلاً : « تعال معي » .

قادني عبر الرصيف ، نزلنا بضع درجات ، مشينا عبر ممر ضيق ثم ارتقينا بضع درجات فأصبحنا على الرصيف المقابل . تأثرتُ جداً بهذه المناورة ، وذلك أنه لكي أنجز ذلك الفرض نفسه، كنتُ أغادر دومًا محطة القطار النفقي وأجتاز الشوارع . الآن انتهت حالة الطوارئ (وعرفت أنه لن يمر وقت طويل حتى أصل إلى البيت) ، ما من حاجة إلى العجالة في توديع منقذي ، لكنني لم أعرفْ كيف أقول هذا ، وبخاصةٍ يبدو الرجل مسليًا تارةً وسافرًا طورًا . سألته إن كان له ولد صغير .

أجابني : « أجل . لو كنت أنت ولدي الصغير لركلتك على مؤخرتك بحيث إنك لن تستطيع الجلوس أسبوعًا كاملاً » .

سألته عن عمر أنانه الصغير ، عن اسمه وما إذا كان في البيت ؟

« خير له البقاء في البيت ! » نظر إليَّ ضاحكًا . ثم أضاف قائلاً :

« اسمه يوناثان . عمره خمس سنوات فقط » . ركز بصره فيَّ ثانيةً .

« كم عمرك » ؟ قلتُ له أنني في العاشرة . أكاد أبلغ عامي الحادي عشر .

« أنتَ ولد صغير سيئ بصورة ظريفة » .

حاولتُ أن أبدو نادمًا ، غير أنني لم أحلم قط أن أنكر سوء أفعالي . قال لي : « الآن ، انظر هنا . هذا الجانب تمر به القطارات المنطلقة إلى خارج المدينة .. هل تستطيع القراءة أم أنك لم تلتحق بالمدرسة » ؟ أكدتُ له أن بمقدوري القراءة . « الآن ، كي تصل إلى مبتغاك ، عليك أن تبدِّل القطارات» . أخبرني أين أفعل ذلك. « سأكتبها ، هنا ، لك » . عثر على ورقة صغيرة في جيبه لكنه لم يجد قلمًا سمعنا صوت القطار القادم . نظر في ما حوله بانزعاج ضعيف ، نظر إلى ساعة معصمه ومن ثم إليَّ . « طيب سوف أخبر قاطع التذاكر » .

كان قاطع التذاكر واقفًا بين عربتين من عربات القطار ، وجهه وردي مألوف نوعًا . نظر إليه منقذي بتردد . «ربما هو رجل طيب . لكن الأفضل استغلال جميع الفرص » . دفعني أمامه إلى داخل القطار . « أتدرى أنك محظوظ لأن لي ولدا صغيرا ؟ لو لم يكنْ لي ولد مثلك ، أقسم لك ، بأنني كنتُ سأجعلك تذهب وتضيع . أنت لا تعرف أية مشكلة ستخلقها لي في البيت . فزوجتي لن تصدق هذه القصة أبداً » .

طلبت منه أن يعطيني اسمه وعنوانه كي أكتب رسالةً إلى زوجته وابنه الصغير ، أيضًا . طلبي هذا جعله يضحك ضحكةً أقوى . « قلت ذلك لأنك تعرف سلفًا أنني لا أملك قلماً . أنتَ ولد صغير داهية أورثني العذاب » .

أخبرته بأنه ربما يلزمنا أن نترجل معًا من القطار فأعود معه إلى البيت . هذا القول جعله وقوراً .

« ماذا يعمل والدك » ؟ قلقتُ وخفتُ لدى سماعي لسؤاله . نظرتُ إليه طويلاً قبل أن أرد عليه .

« إنه يعمل في .. » لم أستطعْ لفظ الكلمة .. « لديه مهنة » .

هز الرجل رأسه . « هل هو في البيت الآن » ؟

لم أكنْ أعرف ذلك ، أجبته بأنني لا أدري بالضبط .

« وماذا تعمل أمك » ؟

« إنها تمكث في البيت . لكنها تخرج للعمل .. أحيانًا » .

هز رأسه من جديد . « هل لديك أشقاء أو شقيقات » ؟

أجبته أن لا .

« فهمت . ما اسمك » ؟

« ليو » .

« ليو ماذا » ؟

« ليو برودهامر » .

رأى شيئًا ما في وجهي .

« ليو ، ماذا تود أن تكون في المستقبل » ؟

« أود أن أكون » – لم أقل ذلك من قبل – « أود أن أكون .. ممثلاً سينمائيًا . أود أن أكون .. ممثلاً » .

« أنتَ الولد النحيل تصير ممثلاً » ، قال لي .

لكنني ، الآن ، صرتُ ممثلاً .

قلتُ له : « طيب . سيعلمني كاليب السباحة . السباحة تجعلك ضخماً » .

« من هو كاليب » ؟

فتحتُ فمي ، حدّقتُ فيه ، رحتُ أتكلم ، ثبتُ إلى نفسي – حين شرع مدير القطار يتعالى في المحطة. نظر عبر النافذة، لكنه لم يتحرك . قلتُ له : «إنه يجيد السباحة» .

قال الرجل : « أوه » بعد فترة صمت طويلة ، أغلقت خلالها الأبواب بقوة ، شرع القطار يتحرك . « هل هو سباح ماهر » ؟

أجبته أن كاليب هو أفضل سباح في العالم .

قال منقذي : « طيب ، طيب » ، وضع كفه على رأسي ثانيةً وابتسم لي . سألته عن اسمه . فأجاب : « چارلس . چارلس وليمز . يفضل أن تناديني بـ العم چارلس ، أنت أيها الشيطان الصغير ، أفسدتَ عليَّ ليلة السبت » .

أخبرته (كنتُ أعرف ذلك) أن الوقت ما يزال مبكرًا .

رد عليَّ : « حين أصل داري لن يكون الـقـــوت مـــبكرًا » . دخل القطار المحطة فخاطبني قائلاً : « هنا ، تبدِّل القطار » .

نزلنا من القطار ، عبرنا الرصيف ، وانتظرنا .

قال لي : « الآن ، هذا القطار يقف بالضبط في المكان الذي تقصده . قل لي أي مكان تقصد » .

نظرتُ إليه .

قال لي : « أطلب منك أن تخبرني بالضبط عن المكان الذي تروم الوصول إليه . ليس في مقدوري أن أبدد ليلتي معك » .

أخبرته .

« أمتكد أنت هذا هو عنوان المكان » ؟

أخبرته أنني متيقن من ذلك .

قال لي : «ذاكرتي ممتازة. أعطني عنوان المسكن. أخبرني بالعنوان. سأتذكره» .

أخبرته بالعنوان ، حدقتُ في وجهه فيما كان القطار يدخل المحطة هادراً .

قال لى : « إن لم تذهب إلى البيت مباشرةً ، سآتى إلى بيتكم وأرى أباك وحين نجدك ستكون نادماً جدا » . دفعنى إلى داخل القطار ، استند بإحدى كتفيه على الباب وهتف بصوتٍ عالٍ سمعه جميع من فى العربة .

« اذهب ، الآن ستلاقيك أمك فى المحطة التى أخبرتك أن تترجل فيها » . كرر على سمعى المكان الذى يقف فيه القطار النفقى ، دفع البـــاب القوى بكتفه ، ثم قال برقة : «اجلس يا ليو» . بقى فى الباب حتى جلستُ : «وداعًا يا ليو» قال لى وسار إلى الوراء ، خارجًا من القطار . أغلقت الأبـــواب . ابتسم لى ابتسامة عريضـــة ، لوَّح لى مودعًا وبدأ القطار يتحرك . لوحت له . ثم ابتعد عنى ، ابتعدت عنى المحطة ، كنتُ فى طريق الأوبة إلى البيت .

لم أرَ ذلك الرجل ثانيةً ، بيد أننى تخيلتُ قصصًا كثيرة عنه ، رأيته فى منامى ، بل كتبتُ رسالةً له ولزوجته ولابنه الصغير ، بيد أننى لم أرسلها بالبريد . كنتُ أشعر بأنه لا يحب والدى ووالدى هو الآخر لا يحبه . وبما أن كاليب لا يحب أى إنسان أكن له الحب ، لذا لم أحدثه عن منقذى .

لم أخبر كاليب قط برحلاتى الفردية . لا أعرف السبب . حسبتُ أنه يود معرفة شىء عن تلك الرحلات ؛ أو لعلى كنتُ أتفاعل مع إحساسه بالذنب ، فيما بعد ، بأنه يلزمه معرفة شىء عنها ؛ لكننى ، أظن ، فى الختام ، أنى فى الواقع لم أقلْ له شيئًا لأن تلك الرحلات تخصنى . يبدو من غير الممكن أن أكون صامتًا ووحيدًا ، متميزًا بضبط النفس بشكل خطير . كما أظهرتنى سمة الكآبة . مؤكد أننى بكيت ، صرخت ، غضبت . مؤكد أننى ثرثرت على غرار ما يثرثر الأطفال . زملاء اللعب ، هؤلاء ، بالرغم من حجمى وغرابتى ، وغموضى البائس ، سيطرت عليهم فى الختام – دون أن أعرف بالضبط كيف حصل ذلك ، كنتُ قادرًا على فعل ذلك ، وهذا هو كل ما فى الأمر ، لذا ، كنتُ مدانًا بسلوكى هذا . عرفتُ ذلك ، حين تقدم بى العمر ، غدوتُ مستبدا . لم يكنْ أمامى خيار آخر ، كانت حياتى فى الميزان . مهما كان عدد المهزومين فلن أكون واحدًا منهم – عرفتُ هذا منذ مطلع حياتى . أن أهرب يعنى أن أدير ظهرى عن العوائق ؛ أن أهرب يعنى أن عدة الهروب هى التى ستذلنى ؛ لكن أهرب إلى أين ؟ مؤكد ليس إلى أبى وأمى ، وليس إلى كاليب . إذًا يتوجب علىَّ أن أتحمل وأصبر . كى أتحمل يعنى

أننى يجب أن أكون مجنونًا . الناس الذين يتصورون أنهم ، بعقولهم « السليمة » على حد تعبيرهم ، لا يملكون أدنى رغبة فى الاشتباك مع المجانين ، بل يتحاشونهم أو يتملقونهم ويجارونهم . أدركتُ ذلك فى غفلةٍ من الزمن . استخدمت ما أعرفه . عرفت أن ما يعتبره الآخرون رياضة أعتبره أنا مسألة حياة أو موت . لذا توجب علىّ أن أجعلها فعلاً مسألة حياة أو موت بالنسبة لهم أيضًا . قليلون هم المهينون لبلوغ هذه الدرجة البعيدة ، على الأقل ليس بدون الموافقة على بذلة رسمية . لكن هذا الإخلاص المطلق والقسوة المرعبة قد أخفيتهما من خلال كونى عرضةً للسقوط بيد الأعداء ، ومن خلال عجزى الحقيقى والمتناقض ظاهريًا . أخفيتُ حاجتى الماسة لأن أستلقى ، وأتنفس بعمق ، وأن أبكى طويلاً وبصوتٍ عال ، أن تضمنى ذراعان آدميتان ، أىّ ذراعين آدميتين ، أن أخفى وجهى فى أى صدر بشرى ، أن أقول كل شىء ، أن أفصح عن كل شىء ، أن يجيئوا بى إلى العالم ، وبعاطفة بشرية ، وأولد من جديد . أى حلم هذا : هل هو حلم حقا ؟ لا أدرى . إنى أعرف فقط ماذا جرى – إن كان باستطاعتى أن أدعى المعرفة . أمست كبريائى هى بلواى . ألفيتُ نفسى سجين الحصن الذى بنيته . حل اليوم الذى وددتُ فيه أن أكسر صمتى فوجدت أننى غير قادر على الكلام : لا يمكن تمييز الممثل عن الدور الذى يلعبه .

فى مرةٍ أخرى ، كانت الدنيا تمطر والوقت مازال مبكرًا جدا للعودة إلى المنزل . أحسستُ ذلك اليوم أننى فى غاية الوهن . تلك هى إحدى المرات التى رفض فيها لسانى وجسدى أن يطاوعانى – يحصل هذا دومًا : حين كنت ضحية لفانتازياتى ، أو مسحوقًا بواقعى : لم أجرؤ على أن أطلب من أحدهم أن يأخذنى إلى الصالة . وقفتُ هناك أرقب الداخلين . أرقب الخارجين . بين آنٍ وآخر حين تفتح الأبواب . ألقى نظرةً خاطفة على الشاشة – ضخمة ، سوداء ، فضية . تتحرك طيلة الوقت – قاطع التذاكر يراقبنى : أو هكذا ظننت، بارتياب عدائى ، كأنه يفكر ، بأنك تحاول العثور على شخص يأخذك إلى داخل الصالة ، إنى أتحداك ! ستكون حماقة منك لو حاولت . فى الواقع ، من المستبعد أن يفكر قاطع التذاكر فى هذا الأمر ، مؤكد هو لم يفكر بى . غادرتُ دار السينما لأننى لم أستطعْ تحمل نظراته أو نظرات أى إنسان آخر .

اجتزتُ البلوك الطويل شرق دار السينما . الشارع خالٍ ، مظلم ، تتألق فيه الأضواء هنا وهناك. بيت لى كرات مصابيح الشارع مع الماء المنهمر أمامها وخلفها كم كان المطر

شديداً. تسرب الماء عبر سترتي عند الكتفين . نزلتْ قطرات المطر على عنقي عبر القبعة . بدأ الرعب يتسلل إلى قلبي . لا أستطيع البقاء في المطر؛ لأن أبي وأمي سيعرفان أنني تسكعتُ في الشوارع . سوف أنال « علقة » . ولأن كاليب أكبر سناً من أن ينال «علقة» مثلي . سوف يتخاصم هو ووالدي خصاماً شديداً . وسوف يلقي اللوم عليّ ولن يكلمني أياماً معدودات . بدأتُ أكره كاليب . ساءلتُ نفسي أين يذهب هو . لو كنتُ أعرف أين يمكنني العثور عليه لذهبت إليه وأرغمته . بالنواح والصراخ . أن يعيدني إلى البيت أو يأخذني معه أينما يذهب . ما كنتُ أبالي إن ضربني . أو دعاني بالمخنث . ثم طرأ على بالي أنه ربما يكون قد وقع في مشكلتي نفسها . وبما أنني كنت غير قادر على الذهاب إلى البيت بدونه . كان هو أيضاً . بالتأكيد . غير قادر على الذهاب إلى البيت بدوني . لعله يتجول أيضاً تحت المطر. فكرتُ لو كان فعلاً يتسكع تحت المطر فسوف ينفعه ذلك. سوف ينفعه إن أصيب بذات الرئة ومات . استقر في بالي . بصورة مفرحة . هذا الاحتمال . وأنا أتمشى على طول البلوك . بعد نهاية البلوك أدركتُ أنه ربما لا يتجول في المطر – أنا الذي أتجول في المطر . أنا . أيضاً . ربما أُصاب بذات الرئة وأهلك . شرعتُ أسير نحو البيت لأنني لم أكنْ أعرف ماذا أفعل غير ذلك . عسى أن ألقى كاليب ينتظرني في مدخل المبنى السكني .

كان الشارع المشجر . هو الآخر . طويلاً جدا وهادئاً . بصورةٍ ما . بدا لي . قديماً مثل صورة في كتاب . يمتد . إلى ما نهاية . أمامي . لا تنيره أضواء الشارع بنحو كافٍ بقدر ما تكشف لنا كم كان معتماً . الأبنية المألوفة معتمة . الآن . أجسام صامتة . كتل هائلة من الصخر الندي . رجال متكئون على الجدران . أو واقفون في مداخل الأبنية . بدوا عديمي الوجوه بفعل الضوء في الرواق الواقع خلفهم . اشتد هطول المطر. خاضت السيارت في الماء مرسلةً صفحاتٍ من المياه. ومتمايلة كالزوارق . من الحانات بلغتني موسيقى خافتة . وأصوات أخرى . أمامي مباشرةً تمشي امرأة على عجل من أمرها . منكسة الرأس . تحمل حقيبة التبضع . وصلت منطقتنا . عبرتُ الشارع المشجر الواسع . لم يكنْ في مدخل مبنانا السكني أحد .

الآن . لا أدري بالضبط كم هو الوقت ؛ كل شيء ساكن . جامد بصورة غريبة وفاجعة وما من ضرورة للحدس . لكنني عرفت أن عرض الفيلم لم ينته بعد . دخلتُ إلى رواق مبنانا السكني . انتزعتُ قبعتي . شعرت بالندم لأن أحداً لم يأخذني إلى داخل

الصالة . الآن ، لا أدرى ماذا يتعين عليّ أن أفعل . في مقدوري أن أرتقي درجات السلم وأقول إننا لم نحب الفلم وغادرنا السينما باكراً أما كاليب فهو مع شلة من الأولاد في مدخل البناية . غير أن قولاً كهذا سيبدو غريباً على مسامعهم – لم يسبقْ لي أن أعربت عن كرهي لأيَ من الأفلام ؛ وإذا كان والدنا في المنزل ، فربما ينزل السلم باحثاً عن كاليب ، الذي لا يعرف بالضبط القصة التي رويتها ، في كل الأحوال ، سوف يشبعونه ضرباً وتقريعاً حال وصوله . حسب علم كاليب أنا في صالة العرض . كان ذلك هو اتفاقنا ، فحتى المطر لم يجعلني أتخلى عنه . خانتني أعصابي ، لكن كاليب ليس له أية معرفة بذلك . لم أستطعْ البقاء في رواق مبنانا؛ لأن والدنا قد لا يكون في المنزل وربما يدخل المبنى بين لحظةٍ وأخرى . كما لم أستطعْ الدخول إلى رواق مبنى آخر لأنّ أياً من أولاد المبنى إن عثروا عليّ هناك يحق لهم ضربي وإيذائي . لم أستطعْ العودة إلى المطر ثانيةً . وقفت جنب جهاز التدفئة المركزية (المشعاع) ، الضخم ، البارد ورحتُ أبكي . لم ينفعني حتى البكاء ، وبالأخص ، لا يوجد من يسمع صراخي .

خرجتُ إلى مدخل مبنانا ثانيةً ، رحتُ أتفحص البلوك السكني من الأعلى إلى الأسفل . لم أرَ فرداً واحداً . حتى كنيسة (هولي رولر) الواقعة في الناحية الثانية من الشارع كانت ساكتة أيضاً . اشتد هطول المطر بشكلٍ لم يسبق له مثيل ، يصاحبه صوت هامس – مثل رفيقين قديمين غير سويين يتهامسان معاً . لم يكنْ بوسع أحد رؤية السماء المعتمة . وقفتُ هناك وقتاً طويلاً ، سائلاً نفسي ما الذي يتعين عليْ أن أفعله . بعدها تذكرتُ منزلاً مهجوراً ، بالقرب من ملتقى الشارعين القريب منا . لعبنا هناك غالباً ، مع أننا من المفروض ألا نفعل ذلك ، كما كان الأمر محفوفاً بالمخاطر . كان الباب الأمامي مكسواً بألواح خشبية ، هذه الألواح خلعت من مواضعها وأصبحت غير ثابتة ، نوافذ القبو مكسورة ، احتشد الأولاد في هذا القبو ، وتجولوا في الدار المهجورة . لا أدرى بالضبط ما الذي تملكني كي أذهب إلى هناك ، إذ لم يخطر ببالي قط أي مكان عديم المطر في العالم بأسره غير تلك الدار . فكرتُ بأنني سأجلس هناك ، بعيداً عن المطر ، إلى أن يحين الوقت الذي أعتقد فيه أن الذهاب إلى البيت قد أصبح آمناً . رحتُ أهرول شرقاً ، باتجاه بلوكنا السكني . انعطفت حول زاويتين فوصلتُ إلى الدار المهجورة ذات الفراغات السود التي كانت تحتلها النوافذ فيما سبق ، وأكداس النفايات المتجمعة حول الدار والمطر لما يزل يعولُ ويصفر ، يرن فوق المعدن ويقرع

الزجاج . كانت الدار مظلمة تماماً. نسيتُ كم كنت أخاف الظلام ، لكنني نقعت بالمطر . نزلتُ درجات القبو ، تسلقتُ بجهد إلى الدار . قرفصتُ هناك دون حراك ، في هلع واضح ، في بؤس ، دون أن أجــرؤ على النظر إلى داخل المنزل لكنني تطلعتُ إلى الخارج حيث المنطقة السوداء الصافية المسيجة ومن ورائها العاصفة. حبستُ أنفاسي . أصختُ السمع إلى جرى لا نهائي في الظلام ، نشاط سرمدي ، تذكرتُ الفئران ، تذكرتُ أسنانها ، ضراوتها ، حجمها المخيف ، وشرعتُ أبكي ثانيةً . لو أقبل امرؤ ليرديني قتيلاً ما كنتُ أحسب أنني سأتحرك قيد أنملة أو يند عني أي صوت آخر .

لا أدري كم بقيتُ مقرفصاً بتلك الصورة ، لا أعرف ما الذي جال في خاطري - أظنني لم أفكر بشيء معين على الإطلاق - كنتُ مشدوهاً ، دائخاً ، كالمصاب بوجع الأسنان . أصغيتُ للمطر والفئران . ثم انتبهتُ إلى صوتٍ آخر ، سمعته برهةً لكنني لم أستطع تمييزه . كان ذلك صوت أنين ، صوت تنهيد ، صوت اختناق يختلط بصوت المطر وبصوت بشري يتعذب ويلعن . سمعت الأصوات من الباب المؤدي إلى الفناء الخلفي . أردتُ الوقوف غير أني بقيتُ مقرفصاً ؛ وددتُ الهروب لكنني لم أستطعْ الحركة . تارةً تبدو لي تلك الأصوات وكأنها تدنو مني رويداً رويداً فأدركتُ أن ذلك يعني مصرعي ، وطوراً تضعف أو تتلاشى تماماً بكل ما في الكلمة من معنى عندئذ أدركتُ أن مهاجمي يبحث عني . أوه ، كم كرهتُ كاليب لأنه وضع نهايةً لحياتي في وقتٍ مبكر جداً . كم تمنيتُ أن أعرف مكانه ! نظرتُ إلى باب الفناء الخلفي ويبدو أنني رأيتُ هيئةً مظلمةً مرسومةً على المطر الذي يهطل بغزارة ، هيئة نصف منحنية ، تئن ، مستندةً إلى الجدار ، في عذابٍ لا يوصف ؛ ثم ظهر أن هناك هيئتين ، تتنهدان ، تتصارعان ، تتحركان بسرعة شديدة بحيث لا يمكن تمييزهما - لو كان ذلك يجرى في فيلم ، وأنا أحمل مسدساً ، فلربما أخشى إطلاق النار ، بسبب خشيتي من إطلاق النار على الشخص الذي لا أود قتله ! راقبتهما وأنا أجلس القرفصاء . امتزجتْ الاستثارة الشديدة جداً ، والغريبة ، برعبي وجعلته يتعاظم . لم أستطعْ الحركة . لم أجرؤ على الحركة . المخلوقان هدأ قليلاً . بدا لي أن أحدهما امرأة ويبدو أنها كانت تنتحب - مدافعةً عن حياتها . لا يرد على نحيبها سوى دمدمة . بدأ ، ثانيةً ، التعذيب المغمغم ، السار ، وبدأت ، ثانيةً ، الضراوة القاتلة ، أكثر مرارةً من أي وقت مضى . شرع النحيب يتعالى بدرجة نغمية وكأنه أغنية . كان للحركة صوت نفخات عديدة

كسولة . ثم هدأ كل شيء ، توقفتْ الحركات كلها - ارتعشت أذناي . ثم بدأت النفخات من جديد وأصبح التعذيب دمدمة ، نواحًا ، تنهيدةً ممطوطة . بعدها لم أسمعْ سوى صوت المطر وركض الفئران . انتهى الأمر - أحدهما ، أو كلاهما ، يتمدد على الأرض ميتًا أو يعاني سكرات الموت . في هذا المكان القذر ، تجرى مثل هذه الأمور في هارلم ليلة كل يوم سبت . لم أستطعْ التقاط أنفاسي كي أصرخ . ثم سمعتُ قهقهةً ، قهقهة ضعيفة ، سعيدة ، كريهة ، واستدار الشخص نحوي وبدا أنه سوف يمشي إليّ . بعدها صرختُ ونهضتُ واقفًا ، فاصطدم رأسي بإطار النافذة وفقدتُ قبعتي ، وتسلقتُ درجات القبو بعجل ، وأصبحتُ تحت وابل المطر . هرولتُ مطأطئ الرأس ، كالثور ، بعيداً عن ذلك المنزل وخارج ذلك البلوك السكني ، ولحسن حظي لم يكنْ في طريقي إنسان أو مركبة . ارتقيتُ درجات مدخل مبنانا السكني واصطدمتُ بكاليب .

« أينَ كنتَ بحق الجحيم ؟ هي ! ما هي قضيتك » ؟

ذلك أنني قفزتُ عليه ، كنتُ أضربه بقوة ، مرتعشًا ومنتحبًا .

« أنت منقوع بالماء ، ليو ، ما هي قضيتك ؟ أين قبعتك » ؟

بيد أنني لم أستطع إجابته . طوقتُ عنقه بكل ما أُوتيت من قوة ، ولم أتمكنْ من التوقف عن الارتعاش .

قال لي كاليب بنبرةٍ مختلفة : « هيا ، ليو ، أخبرني بالقضية وما فيها . لا تستمر على هذه الحال » . أرخى ذراعي وأبعدني قليلاً عنه كي يستطع رؤية وجهي .

« أوه ، ليو الصغير ليو الصغير . ما هي القضية يا غلام » ؟ بدا لي كأنه يكاد يبكي هو أيضًا ، الأمر الذي جعلني أبكي بصورة أشد من أي وقت مضى . استل منديله وراح يمسح وجهي وجعلني أتمخط . بدأ نشيجي يقل شيئًا فشيئًا . لكنني لم أستطع التوقف عن الارتعاش . خيل إليه أنني كنتُ أرتعش بسبب البرد فراح يفرك ظهري بكفيه صعوداً ونزولاً ويفرك كفي بين كفيه . « ما هي القضية » ؟ لم أعرف كيف أحكي له .

« هل حاول أحدهم ضربك » ؟

هززتُ رأسي بالنفي وقلتُ : « لا » .

« ما هو الفيلم الذي شاهدته » ؟

« لم أدخلْ . لم أستطع إيجاد شخص يصحبني معه إلى الصالة » .

« أكنت تتسكع تحت المطر طوال الليل » ؟

هززتُ رأسي وأجبته : « نعم » .

تطلع إليّ وجلس على درجات الرواق .

« أوه ، ليو » ثم أردف قائلاً : « أأنت غاضب عليّ » ؟

أجبته : « كلا . كنتُ خائفاً » .

هز رأسه . « حسبتُ أنك رجل . حسبتُ أنك رجل » . قال ومسح وجهي ثانيةً .

« أأنتَ مستعد للصعود إلى منزلنا ؟ الوقت متأخر » .

« نعم » .

« كيف فقدتَ قبعتك » ؟

« دخلت رواق أحد الأبنية كي أعصرها من ماء المطر .. ووضعتها على الشماع وسمعتُ وطء أقدام أنسان آتٍ .. و .. هرولت خارجاً من المبنى ناسياً قبعتي » .

« سنقول لوالدينا أنك نسيتها في السينما » .

« طيب » .

شرعنا نرتقي درجات السلّم .

خاطبني قائلاً : « ليو . أنا آسف لما جرى لك هذه الليلة . أنا آسف حقا . لن يحدث ذلك ثانيةً . أنتَ تصدقني . أليس كذلك » ؟

« يقيناً . أنا أصدقك » .

« ابتسم لي إذاً » .

ابتسمتُ له . جلس القرفصاء .

« قبلني » .

قبلته .

« طيب . اصعد . سأحملك على ظهري . الآن . أمسكني جيداً » . حملني على ظهره وصعد بي درجات السلّم .

بعد ذلك ، وضعنا نظاماً لا بأس به . حين لا تسير الأمور على ما يرام وحين لا يسعني إيجاده أترك له رسالةً في متجرٍ ما في الشارع المشجر . لهذا المتجر سمعة سيئة : إذ تباع فيه أشياء أخرى غير الحلويات وسندوتشات السجق الساخن والمشروبات الغازية . أخبرني كاليب نفسه بذلك ونصحني أن لا أتجول قريباً من ذلك المخزن . قال أنه على يقين بأنهم سوف يحسنون معاملتي . آنذاك لم أكنْ أعرف ما الذي يعنيه بالضبط ، وكان ينبغي لي اكتشاف المعنى بنفسي . تعين عليّ أن أنتظره في ذلك المخزن ليالٍ عدة : وتمنيتُ طوال سنوات عديدة ألاّ أكون قد رأيتُ المخزن ، أو سمعتُ به : عليّ أن أتحاشى خريجي الجامعة العاملين في المخزن سنوات عدة ، الذين كانوا لأسباب معينة لا يرغبون بمواجهتي .

لم يكنْ هذا المخزن المكان الوحيد الذي أنتظر فيه كاليب أو ألقاه فيه غالبًا . دخلتُ المخزن ، ليلة سبت ، تطلع إلي غلام كان حاضراً هناك على الدوام ، في عمر كاليب تقريباً ، وابتسم قائلاً : «أنت تبحث عن شقيقك ؟ تعال معي . سآخذك إليه» .

لم تكنْ تلك هي الصيغة المتفق عليها ، بل كانوا يأخذونني إلى كاليب في الحالات الاضطرارية فقط ، وليس كما في حالة تلك الليلة . لم يكنْ الفيلم متكاملاً ، فغادرتُ الصالة في وقت مبكر قليلاً ، وذهبت إلى المخزن : والحق يقال فإن كاليب لم يتأخر حتى الآن ، طالما أن الوقت ما يزال في الحادية عشرة والربع ليلاً . ظننتُ أن عليّ انتظاره زهاء نصف ساعة . لكنني عرفتُ أيضًا أن مدير المتجر وهو رجل أسود ، صارم جداً ، وصامت - كلامه يقصر على الشتائم - قد يغلي غضباً حين يجدني في المتجر ، وبخاصة في ساعات وجودي ، كان يجعلني أجلس وحيداً في الحجرة الخلفية .

الحق يقال ، بخلاف ذلك كانوا يعاملونني دومًا بأسلوب حكيم (كنتُ ببساطة عنصراً آخر ينبغي لهم التعامل معه) وكانوا لطيفي المعشر معي . لم يحادثوني كثيراً ، طالما هم يعتقدون أن ليس بيننا أشياء مشتركة - وحتى إذا كانت بيننا أشياء مشتركة فالأسلم ألا نحاول وصفها - لكنهم باعوا لي غالبًا قضبان (هيرشي) الحليب المملت والمشروبات الغازية . أما هم فكانوا يحتسون الخمر والجين والبيرة ، والويسكي في أحيان نادرة جداً .

في ليلة السبت تلك ، حين دعاني الغلام ، حسبتُ أن ذلك بسبب ترتيب مسبق مع المدير - الذي حدّق في من وراء نضده ، ماضغًا بصوت طاحن عود الأسنان دون أن يفوه بكلمة . في المخزن غلامان فقط ، يلعبان الورق بصمت .

قلتُ : « حسنًا » . فقال لي الغلام الذي يحمل اسم آرثر بتحبب : « تعال معي ، أيها الولد الصغير ، سآخذك إلى حفلة » . ابتسم لي ابتسامةً عريضة حين قال هذا ، لوّح بصورة عشوائية تقريباً للمتجر قائلاً : «سنراك فيما بعد !» . خرجنا ، أخذ يدي ، قادني عبر الطريق المشجر ، مشينا عبر بلوك طويل ومظلم ، سرنا صامتين طوال البلوك ، عبرنا طريقًا مشجراً آخر ، آرثر يمسك كفي بقوة ، مررنا بشرطيين أبيضين حملقا فينا بنظرات ثاقبة. دمدم آرثر بصوت هامس : « أنتم أيها البيض ، أولاد الزنا ، أتمنى أن تموتوا جميعًا » . باطأنا خطانا قليلاً ، شعرتُ ، لا أدري لماذا ، أن ذلك بسبب الشرطيين ، ثم أردف آرثر قائلاً : « تعال ، أيها الغلام الصغير » . دخلنا منزلاً واسعاً في وسط البلوك. أصبحنا في مجاز كبير ذي أربع أبواب مقفلة لإحدى الشقق ، تبعد كل منها عن الأخرى. لم يكنْ المجاز نظيفًا فعلاً، بل نظيفًا بدرجة متوسطة. صعدنا ثلاث مجاميع من درجات السلم. طرق آرثر الباب ، كان طرقه مضحكًا جدا ، كما لم يكنْ عاليًا . بعد لحظة ، أرهفتُ السمع إلى صرير ، ثم صوت خشخشة سلسلة ومزلاج يدفع إلى الجانب . فتح الباب ، أمسكتْ لنا الباب سيدة ، في غاية السواد ، بدينة تقريبًا ، ترتدي فستانًا أزرق ذا فتحة عريضة حول النهدين. قالت لنا : «ادخلا .. الآن ، ماذا تفعل هنا مع هذا الطفل» ؟

« خطر ببالي أن أصحبه معي ، حسن ، إنه شقيق كاليب » .

سرنا عبر رواق طويل ، مظلم ، ذى حجرات مغلقة على الجانبين ، متجهين صوب غرفة المعيشة. كانت إحدى الحجرات مطبخًا. شممتُ رائحة شواء فادركت أننى جائع . كانت غرفة المعيشة فى الواقع غرفتين ، إحداهما تلى الأخرى . تطل الغرفة الأبعد على الشارع . فى الغرفة حوالى ستة أو سبعة أفراد ، رجالاً ونساءً . يبدون جميعًا كالرجال والنساء الذين زرعوا الخوف فى صدرى حين كنتُ أراهم فى ملتقيات الشوارع ، يقهقهون ويطلقون النكات أمام المشارب . لكنهم فى هذا المكان لا يبدون مخيفين . آلة تسجيل تعمل ، صوتها ليس عاليًا جدا . كانوا يحملون أقداحًا مترعة بالشراب ، ثمة أطباق فارغة وأطباق نصف فارغة من الطعام فى أنحاء الغرفة . كاليب يجلس على كنبة مطوقًا جسد فتاة تلبس فستانًا أصفر اللون . « هذا أخوك الصغير » ، قالت السيدة السوداء البدينة بالفستان الأزرق .

نظر إلىَّ كاليب ، بعدها ، مباشرةً ، نظر إلى آرثر . قال آرثر : « كان من الأفضل له ألا ينتظرك هناك هذه الليلة » . وخاطب السيدة بالفستان الأزرق قائلاً : « القطار فى المحطة ، وكل شيء على ما يرام . سأتذوق بعض الطعام » .

ابتسم لى كاليب . أحسستُ بارتياح كبير لأنه لم يغضب منى . سررتُ بتلك الحفلة بالرغم من شعورى بالخجل . تمنيتُ لو أنى حضرتها فى وقت مبكر .

سألنى كاليب قائلاً : « كيف حالك يا ليو ؟ تعال هنا » . مضيتُ إلى الكنبة . أكمل حديثه : «هذا أخي الصغير. اسمه ليو. ليو هذه هي دولوريس. قل أهلاً لدولوريس» .

ابتسمتْ لى دولوريس – أظنها جميلة جداً : لها فم كبير . لثتان زرقاوان ، شعرها غزير براق – صافحتنى قائلةً : « أنا سعيدة جدا بلقائك يا ليو . كيف حالك » ؟

« على ما يرام » . أجبتها .

قال لى كاليب وهو يبتسم ابتسامةً عريضة : « ألا تود معرفة كيف هو حالها » ؟

قالت السيدة السوداء البدينة : « لا . أنا متيقنة هو لا يود معرفة ذلك » . كانت لها ضحكة عالية جدا ، نابعة من صفاء سريرتها . وضحك كاليب ودولوريس معًا ،

سألت دولوريس : « هم لا يحسنون معاملتي . أليس كذلك يا ليو . لا أظنك تسمح لهم أن يضحكوا عليّ بهذه الطريقة » .

لم أكنْ أعرف ماذا أقول . حدقتُ فقط في شفتيها الحمراوين وعينيها البراقتين وشعرها اللامع . في وسط ثوبها ، عند ملتقى النهدين ، دبوس زينة (بروش) أحمر ، منور ، وبراق . لم أستطعْ أن أحول بصري عنه . كان كاليب وأرثر يضحكان . قالتْ دولوريس لكاليب : « أحسب ، يا حبيبي العزيز ، إنكما اكتسبتما هذه الصفة بالفطرة ، أعتقد أن ذلك أمر تتوارثونه من العائلة » . فأجابها كاليب : « يا إلهي ، لآخذه من هنا قبل أن يسرق فتاتي » .

هرعتْ السيدة ذات الفستان الأزرق لنجدتي . « لا تدفعه بعجل هكذا . أنا على يقين من أنه جائع . أنتَ أتخمت نفسكَ هذه الليلة ، يا كاليب . دعني أعطيه قليلاً من مشوياتي وقدحاً من جعة الزنجبيل » .

وضعتْ كفًا على ظهري وشرعتْ تقودني خارج الغرفة . نظرتُ إلى كاليب . قال لي : « تذكر يا ليو أن الليل لم ينصرمْ بعد . ليو ، هذه هي الآنسة ميلدريد . هي تجيد كل أنواع الطبخ . إنها صديقتي الحميمة . ماذا تقول ، ليو ، للآنسة ميلدريد » ؟

غمغم أرثر ضاحكًا : « الطالب المجتهد كاليب هو الأخ الكبير » .

قلتُ : « شكرًا لك يا آنسة ميلدريد » .

قالت لي : « تعال معي إلى المطبخ . ودعني أحاول أن أضع بعض اللحم على هذه العظام . كاليب ، حريٌ بك أن تخجل من نفسك ، فأنتَ بدين وضخم الجسد وشقيقك مجرد جلد على عظم » . قادتني إلى داخل المطبخ . قالتْ لي : « الآن ، اجلس هنا . لن أجعلك تنتظر أكثر من دقيقة واحدة كي أسخن هذا » . سمحتْ لي بالجلوس إلى مائدة المطبخ . ناولتني منديل المائدة وصبتْ لي قدحًا من جعة الزنجبيل . سألتني : « في أيّ صف مدرسي » ؟ أجبتُها . قالت لي فيما ارتسمتْ ابتسامة لطيفة على ثغرها : «حتمًا أنتَ غلام ذكي . هل تحب المدرسة يا ليو» ؟

أخبرتها أننى أحب اللغة الإسبانية والتاريخ والإنشاء الإنجليزى وأفضلها على بقية الدروس . حين سمعتْ جوابى بدا عليها الفرح أكثر من أى وقت مضى . « ماذا تحب أن تكون في المستقبل » ؟

لم أستطعْ أن أخبرها بما أخبرت ذلك الرجل - صديقى - الذى صادفته فى القطار . قلتُ لها لا أدرى بالضبط . فلربما ساكون معلماً فى المستقبل .

قالت بفخر : « وهذا ما تمنيتُ أن أكونه أيضًا . واظبتُ من أجل ذلك وكان بوسعي أن أصبح معلمة لكنني خالطتُ زنجيًا نكرة . يمكنك أن تأكل هذا » ؟ قهقهتْ ، وضعتْ طبقى أمامى . « هيا ، كلْ الآن . أنا امرأة حمقاء . هل تعرف أن لى غلاماً صغيراً مثلك ؟ لا أدرى إلى أين يذهب . له نفس عينيك الواسعتين وغمازة هنا بالضبط » . مستْ زاوية شفتها . « تظهر حين يبتسم . لكننى أعطيته إلى شقيقتى ، إنها تسكن فى فيلادلفيا . لأننى لا أستطيع تربيته لوحدى . كما أن أختى متزوجة من مقاول وهما ميسورا الحال . بالطبع أنا وأختى غير منسجمتين . أنت تعرف كيف هو حال بعض الناس .. هما يقولان أنهما يربيانه على غرار أولادهما . أحسب أنهما بذلا كل مساعيهما فى ذلك . لكنه هرب منهما ذات يوم - فى اعتقادى كان آنذاك فى السادسة عشرة تقريبًا - ما عرف أحد على الإطلاق أين ذهب . لما أزال أتوقع قدومه بين لحظة وأخرى ، يأتى عبر هذا الباب . الآن . أخوك » . قالت فجأةً : « هو غلام لطيف . يرغب أن يكون ذا شأن . له طموح . هذا ما أحبه : الطموح . لا تدعه يكون أحمق . مثلى . هل أعجبك لحمى المشوى » ؟

أجبتُها : « أجل . سيدة . إنه طيب المذاق » .

« لكننى على يقين أنك تحب مشويات أمك أكثر » .

أجبتها : « مشويات أمى مختلفة . غير أنى أحب مشوياتك . أيضاً » .

قالت لى : « دعنى أسقيك مزيداً من جعة الزنجبيل » . صبتْ لى . بدأتُ أشبع . لم أود الذهاب مع أننى كنتُ أعرف حينها أن الوقت بدأ يصبح متأخراً . بينما كانت الآنسة ميلدريد تتحدث فى أنحاء المطبخ . أصغيتُ للأصوات الآتية من الغرف الأخرى . أصوات وموسيقى . كانوا يعزفون نمطًا من الموسيقى الراقصة الرفيعة

البطيئة ، موسيقى ساكنة في عظامي تصاحبها موسيقى أكثر صخباً انبعثت منها الموسيقى الرفيعة. لم تكنْ الأصوات كالموسيقى ، مع أنهم استحسنوها أرهفت السمع لصوت فتاة ، كان صوتاً واطئاً ، أجش ، حافلاً بالضحك . الغرفة تعج بالضحك . الضحك ينفجر بين الفينة والفينة ، يتدحرج عبر غرفة المعيشة ، يقرع جدران المطبخ ، لكنه لم يتجاوز المطبخ إلى مكان أبعد . لا ريب أن المستلقي في سرير بإحدى غرف الرواق، يمكنه أن يسمع الضحك ، لكنه يسمعه خافتاً، كأنه آتٍ من بعيد ، يسمعه بنوع من الغضب بحيث لا يستطيع الصوت اختراق الرواق، ولا دخول حجرة منعزلة ومعتمة. بين آنٍ وآخر أسمع صوت كاليب الهادر كالبوق ، يحجب صوت الموسيقى ، بوسعي رؤيته تقريباً ، يرفع رأسه عن كتف دولوريس ، واثباً كالنابض من الكنبة ، يطوي جسده ويستقيم عبر الغرفة . الآن ، ثمة شخص يروي قصة عن رجل أحمق يعمل في مكتب البريد . لم أسمع سوى صوت الراوي وصوت الموسيقى . يغدو صوته أجش حين يصل إلى موضع فيه توقع ويغدو عذباً في موضع الحيوية . رنتْ ضحكته وترنح الجميع ضاحكين . « قال .. قال .. لا أدري ما هي قضيتكم أنتم الزنوج إنكم لا تملكون إدراكاً جيداً . أنا أعمل من أجل فندقي العائلي . وقال شورتي ، قال هو ، نعم يا غلام ، سوف يبتاع لك صاحب الفندق ما يكفيك من الفاصولياء كي تخرج حياتك مع الريح ! هو .. هو ! هو .. هو ! ها .. ها ! » شرعت الأصوات تعلو تارةً وتنخفض تارةً أخرى ، بعدها تغلب صوت الموسيقى ثانيةً . تساءلتُ كم مرةً جاء كاليب إلى هنا ، وكيف التقى بهؤلاء القوم المختلفين تماماً ، على الأقل كما يبدو لي ، عن أولئك الذين يأتون إلى منزلنا .

وضع كاليب كفه على رقبتي . كانت دولوريس واقفةً في المدخل ، الابتسامة مرتسمة على محياها . قال لي كاليب : « هل أشبعت نفسك يا أخي الصغير ؟ لأننا سنغادر الآن » . نهضت واقفاً . قال كاليب : « امسح فمك . إنك غير متحضر على الإطلاق » .

قالت الآنسة ميلدريد : « لا تكنْ غير مكترث به . هو غاضب فقط لأن دولوريس تعتقد أن لك عينين أجمل من عينيه » . قالت دولوريس : « تلك هي الحقيقة . شعرت بأنني آسفة لأنني لم أرَ شقيقك الصغير أولاً » .

عرفت أنها تسخر مني لكنني أحببتها بأية حال من الأحوال .

خاطبها كاليب قائلاً : تابعي الكلام . سأعطيه لك . ألم تلاحظ أي منكما كم يستطيع ليو أن يأكل . هيا ، ليو . البس سترتك . إحدى هاتين الفتاتين قادرة على اختطافك وعندئذ لا أعرف ماذا سأقول لأمك .

اجتزنا الرواق على مهل ، الآنسة ميلدريد ودولوريس وكاليب وأنا . وددتُ أن أقول ليلة سعيدة لكل الآخرين غير أنني أدركتُ عدم إمكانيتي اقتراح ذلك . وصلنا الباب الذي كان مزوداً بدعامة حديدية مثبتة بداخله كيلا يفتح من الخارج وبسلسلة ثقيلة حول قمة الأقفال الثلاثة . شرعتْ الآنسة ميلدريد تفتح الباب بصبر . قالت : « ليو . لا تكنْ كالغريب . حث أخاك على أن يأتي بك إلى هنا ثانيةً كي تراني ، أسمعتني » ؟ رفعتْ الدعامة عن الطريق ثم حلتْ السلسلة . لم تشعل ضوء الرواق : سألت نفسي كيف يمكنها الرؤية . وجهتْ كلامها إلى كاليب : « أتِ به في عصر يومٍ ما . ليس ثمة ما يشغلني . سأكون في منتهى السعادة إن توليتُ رعايته.. ليأخذ أبوك وأمك يوم إجازة ، ويصطحبانكما إلى السينما أو إلى مكان آخر » . فكرتُ أن هذا اقتراح رائع من لدن الآنسة ميلدريد ، سألتُ نفسي كيف يمكنني إقناع كاليب بذلك . ما من حاجة للتساؤل عن إمكانية إقناع أبوينا . فُتح القفل الأخير وفتحتْ الآنسة ميلدريد الباب . واجهنا أنوار الرواق الساطعة ، لا ، لم يكنْ المبنى نظيفاً جداً . ودعتنا الآنسة ميلدريد قائلةً : « ليلة هانئة يا ليو » . ثم تمنتْ ليلة هانئة لدولوريس وكاليب . أغلقت الباب . سمعتُ الصرير ثانيةً ، هبطنا درجات السلم . قلتُ : « هي فتاة لطيفة » . قال كال متثائباً : « نعم ، هي سيدة جد لطيفة » . ثم قال : « الآن أطلب منك ألا تخبر أحداً في البيت حول مجيئك إلى هنا ، أسمعتني » ؟ أقسمتُ له إنني لن أخبر أحداً . قال كاليب : « إنه سر بيننا » .

كانت الطرقات أكثر برودةً من قبل دخولنا المنزل ولم يكنْ فيها سابلة كثيرون .

أخذ كاليب ذراع دولوريس قائلاً : « لنوصلك إلى قطارك » . رحنا نمشي في الطريق المشجر ، الواسع ، المعتم . وصلنا إلى كشك تسطع فيه الأضواء ، ظهر لنا الكشك من رصيف المشاة مثل ظلة حاقدة بشكل لا يصدق أو أشبه بجهاز السحب في مكنسة كهربائية هائلة .

« وداعًا » قـال كـاليب وقبّل أنف دولوريس . « عليّ أن أهرول . أراكِ يوم الاثنين بعد المدرسة » .

« وداعًا » قالت دولوريس . انحنت وطبعت قبلة سريعة فوق خدى .

« وداعًا يا ليو . أتمنى لك الخير » . نزلتُ الدرجات على عجل . شرعنا أنا وكاليب نغذ الخطى . اجتزنا الطريق المشجر ميممين وجهينا شطر البيت . محطة قطارات الأنفاق قريبة من دار السينما . كانت دار السينما معتمة . كنا نعرف أننا قد تأخرنا - لكننا لم نعتقدْ أننا تأخرنا كثيرًا .

قال كاليب : « كان العرض السينمائي طويلاً جدًا . أليس كذلك » ؟

أجبته : « أجل » .

« ماذا شاهدنا » ؟

أخبرته .

« ماذا تناول الفيلمان ؟ أخبرني عنهما كلاً على انفراد . من باب الاحتياط » . حكيتُ له عن الفيلمين بتفصيل دقيق وقدر استطاعتى . بينما كنا نغذ الخطى عبر الطريق المشجر يقودني كاليب من يدى، كنتُ ألهث لأن كاليب يسير أسرع مني بكثير . يمتاز كاليب بقدرة عظيمة على التركيز فيستشف كفايته مما أقوله كي يعرف ما الذى يقوله إذا ما دعتْ الضرورة . لكن مشاكلنا . تلك الليلة . جاءت من مصدر مختلف وليس من والدينا . كنتُ أحكي له قصة الفيلم لاهثًا وحين وصلت إلى النقطة التى تقتل فيها الفتاة الطيبة على يد الهنود ويأخذ البطل على نفسه عهداً بالانتقام . كنا نحث الخطى عبر البلوك الطويل شرقي منزلنا . حين سمعنا صوت كوابح (فرامل) سيارة . فقدنا الرؤية بفعل الأضواء المتوهجة . اندفعنا ناحية الجدار .

قال صوت : « استدرْ . وارفعْ يديك » .

ربما يبدو ذلك مضحكًا . لا أدرى . ولكنني شعرتُ . فورًا . كأنني وشقيقي كاليب نستحضر لقطـة فيلم . وإذا لم أصفْ له فيلمًا ما كنا لنجـد نفسينـا فجـأةً وسطه . هل كان ذلك نهاية الفيلم ؟ لم أعرف رعبًا في حياتي كالذى أحسستُ به في تلك اللحظة .

فعلنا ما طلبوا منا . شعرتُ بالطابوقة المحببة تحت أصابعي . أخذتْ كف توسعني ضرباً في أوصالي كلها من الأمام والخلف . كان ضرباً خفيفاً . كانت اللمسات كلها مخزية وفاحشة . كاليب يقف جنبي حابساً أنفاسه .

قالتْ الأصوات : « استدر » .

انطفأتْ أضواء سيارة الشرطة ؛ صار بوسعي أن أرى السيارة عند الحاجز الحجري في حافة الطريق . فُتحتْ الأبواب . أظنني كنتُ قادراً على رؤية رجل ملون عبر الشارع، في الظلال، لكنني لستُ متأكداً من ذلك . لم أجرؤ على النظر إلى كاليب ، فقد أحسستُ أنهم سوف يستغلون هذا ، بشكل من الأشكال . ضدنا . حدقتُ إلى الشرطيين . كانا شابين ، أبيضين ، مزمومي الشفاه ، فخورين بنفسيهما . ألقيا ضوءاً وامضاً على كاليب أولاً ثم عليّ .

« أين وجهتكما يا أولاد » ؟

رد كاليب : « البيت » . سمعتُ أنفاسه . « نحن نسكن في البلوك المجاور » ، وأعطى لهما العنوان .

انطفأ الضوء الوامض . تمكنت من رؤية وجهيهما . حفظتُ صورتي وجهيهما في ذاكرتي .

« أين كنتما » ؟

ارتعشت أوصالي . لم أعرفْ أيهما وجّه لنا هذا السؤال .

الآن بدأت أنتبه للجهد الذي بذله كاليب كيلا يستسلم للغيظ أو الرعب . « أوصلتُ صديقتي إلى محطة القطار النفقي . كنا في السينما » . بعدها خرجتْ من بين شفتيه كلمات كئيبة . جافة ومريرة . « هذا أخي . عليّ أن آخذه إلى البيت . عمره لا يتجاوز عشرة أعوام » .

« أي فيلم رأيتماه » ؟

أجابهما كاليب. أذهلتني ذاكرته. كنتُ أعرف أن العرض انتهى منذ ساعة تقريباً . كنتُ أخشى أن يعرفا هذه الحقيقة أيضاً . لكنهما ، بالطبع ، لم يعرفا : فهذه المعلومة فوق مستواهما .

« هل بحوزتكما هوية شخصية » ؟

« أخي لا يملك . أما أنا فلدى » .

« دعنا نراها » .

استل كاليب محفظته الجلدية وسلمها لهما . لاحظت أن كفيه ترتعشان راقبتُ الوجهين الأبيضين . حفظتُ كل خال وندبة وبثرة وشعيرة منخر : حفظتُ عن ظهر قلب العيون الراشحة بالازدراء .

نظرا إلى محفظة كاليب الجلدية ، نظرا إلينا ، وأعادا المحفظة إليه . « اذهبا إلى البيت » قال الشرطي ذو الخال (الشامة) . دخلا سيارتهما وانطلقا مسرعين .

قال كاليب : « شكراً شكراً لكم أيها البيض ، أولاد الزانيات يا براز الكلاب شكراً لكم جميعاً يا حثالة المجتمع » . تحدث كاليب بلهجة الجُزر غير القابلة للتجديد وهي لهجة والدنا . لم أسمعْ من قبل أبداً هذه النبرة في صوته . رفع وجهه إلى السماء مبتهلاً : « الحمد لك والشكر إلهي . الحمد لك ربي ، فبفضلك سنذهب إلى البيت . أعرف أنك على كل شيء قدير . لو شئت ما فعلت ذلك . لو شئت لجعلتهم يدوسون على أدمغتنا . تذكرني ، يارب ، ارزقني بقطعة نقد إضافية توضع في الطبق يوم الأحد القادم » . ثم ، بغتةً ، تطلع إليَّ وضحك وعانقني . « هيا ، فلنذهب إلى البيت قبل أن يغير ابن الزنا رأيه . ليو الصغير ، هل ألقيا في قلبك الرعب » ؟

قلتُ : « نعم وأنت » ؟

« صحيح ، كنتُ خائفاً .. لعنة الله عليهما ! حتماً لاحظا أنك مجرد غلام صغير في العاشرة من عمره » .

قلتُ له : « لم تظهرْ عليك علامات الخوف » .

« كانت تلك هي الحقيقة . لكنني شعرتُ أيضاً . لا أعرف كيف ، ولا أدرى لماذا ، بأنه يلزمني ألا أجعله يشعر ، حتى ولو لحظة واحدة ، بأنني لا أعبده ، ولا أكنّ له الاحترام ، ولا أضمر له الحب والإعجاب » . كنا في بلوكنا السكني ، على مقربة من مدخل مبنانا . قال لي : « حسن . مؤكد أصبح عندنا الآن عذر جيد للتأخير » . ابتسم ابتسامةً عريضة . بعدها قال : « ليو ، سأقول لك شيئاً . أنا سعيد بما حدث . ما حدث لنا اليوم كان محتملاً . كان لابد أن يحدث يوماً ما . أنا سعيد لأنه حدث اليوم . أنا مبتهج لأنه حدث وأنا معك .. بالطبع . أنا مبتهج ، لأنك معي ، أيضاً . أيها الطالب المجتهد . فلولا وجودك إلى جنبي لأخذاني وضرباني بالسوط على مؤخرتي ... » .

« لم يضرباك » ؟

أجاب كاليب : « لأنني أسود . هو ذا السبب . لأنني أسود وبما أن الحكومة تدفع لهم الأجور كي يضربوا المؤخرات السود . لكن مع غلام صغير مثلك لعلهما سيواجهان مشكلة حقيقية . لهذا السبب أخليا سبيلنا . هما يعرفان أنك مجرد غلام . لكنهما لا يكترثان لهذا الأمر . هم يعتبرون السود جميعاً مجرد براز . تذكر ذلك يوماً . أنتَ أسود مثلي وهم سيكرهونك مادمت حياً لمجرد كونك أسود . هم غير طبيعيين . هم مصابون بمرضٍ معين . أتمنى أن يهلكهم الله جميعاً » . رحنا نصعد درجات السلم المؤدي إلى منزلنا . « لكن يبدو أن الله سوف يهلكنا قبل أن يهلكهم » .

لم أقلْ كلمة . لم أقلْ كلمة لأن ما قال كاليب حقيقة لا ريب فيها . حقيقة عرفتها جيداً . يبدو لي ، الآن ، أنني عرفتها دوماً ، بالرغم من أنني لم أكنْ قادراً على التحدث بها . لكنني لم أكنْ أفهمها . كانت تملؤني الدهشة الهائلة التي تؤذي صدري وتشل لساني . « ذلك لأنك أسود » . حاولتُ التفكير فلم أستطع . رأيتُ فقط رجال الشرطة ، رأيتُ تلك العيون القاتلة ثانيةً ، تلك الأيدي ذات اللمسات الشبيهة بلمسات الحشرات الطفيلية . هل كانوا بشراً ؟ استفسرت : « كاليب ، هل البيض بشر » ؟

« ماذا عساك تقول يا ليو » ؟

« أعني .. هل القوم البيض .. بشر . هل هم بشر مثلنا » ؟

نظر إليَّ . وجهه غريب جد . وحزين . كان وجهًا مختلفًا لم أره من قبل أبدًا . ارتقينا درجات قلائل أخرى ، ببطء شديد . ثم أجابني قائلاً : « كل ما أود أن أخبرك به يا ليو هو .. حسن ، هم لا يظنون أنهم بشر مثلنا » .

تذكرتُ السيد رابينوويتز والسيد شابيرو . تذكرتُ معلمتي السيدة نيلسون . أحببتها حبا جماً . أظنها كانت جميلة جداً . لها شعر طويل ، أصفر ، كشعر إحدى نجمات السينما ، لها ضحكة جميلة . نحبها جميعًا ، نحن طلبة الصف . تمنى أولاد الصفوف الأخرى أن يكونوا معنا في الصف . أحببتُ أن أكتب لها الإنشاء ، لأنها تبدو مولعة بالتدريس وتوجه لنا أسئلة عديدة . غير أنها بيضاء . هل تكرهني هذه المعلمة مادمتُ حيا لأنني أسود ؟ يبدو هذا أمراً غير محتمل . هي تكرهني الآن : أنا على يقين من ذلك . مع هذا ، ما قاله كاليب حقيقي .

سألتُ أخي : « كاليب ، هل البيض متشابهون » ؟

« ماذا تعني ، متشابهون » ؟

« أعني هل هم متشابهون في كراهيتنا » ؟

أجابني كاليب : « لم أصادف إنساناً طيباً منهم » .

سألته من جديد : « حتى في طفولتك ؟ في المدرسة » ؟

رد كاليب: «ربما . لا أذكر» . ابتسم لي. « لم أصادفْ ، ليو ، إنساناً طيباً منهم . هذا لا يعني أنك لن تصادف أبداً أبيض من الأخيار . لا تكنْ خائفاً » .

أصبحنا أمام باب منزلنا . رفع كاليب يده ليطرق الباب .

همستُ : « ماذا بشأن ماما » ؟

« ماذا تقصد ، ماذا بشأن ماما » ؟

«حسنًا ، ماما ...» تطلعتُ إليه ، راقبني بحزن شديد. « ماما بيضاء تقريباً .. » .

تطلعتُ إليه .

« أمنا بيضاء تقريباً » . قال كاليب . « غير أنها ليستْ بيضاء . عليك أن تكون أبيض تماماً كي تعتبر أبيض » . ضحك كاليب : وتناهى إلينا من الداخل صوت سعال والدي . « ليو المسكين . لا تُسئ الظن . أعرف أنك لا تفهمني الآن . سأحاول شرحه لك شيئاً فشيئاً » . صمت هنيهة ثم قال : « أمنا امرأة ملـونة . يمكنـك القول إنها امرأة ملونة لأنها متزوجة من رجل ملون . ولها طفـلان مـلونان . تعرف إن المرأة البيضاء لا تتـزوج رجـلاً ملـوناً » . تأملني باسماً . « أفهمـت » ؟ هـززت رأسي . « حسن . هل ستجعلني واقفاً هنا طوال الليـل لتمطرني بأسئلتك أم يمكننا دخـول البيت الآن » ؟

أخبرته أن يطرق الباب . فعل هذا . فتحتْ أمنا الباب .

« في الوقت المحدد تقريباً » . قالتْ أمنا بطريقة جافة - كانت تمضغ قطعة لحم خنزير . شعرها مربوط بعقدة فوق قمة رأسها . أحببتُ تسريحة شعرها تلك . « لابد أنك شاهدت الفيلم أربع أو خمس مرات . سوف تدمر عينيك . هذا أمر سيئ للغاية فنحن كما تعرف لا نملك مالاً كي نبتاع لك النظارات الطبية . ليو . ادخل وتهيأ للاستحمام » .

« ليأتِ إليَّ دقيقة » . قال والدنا . كان جالساً في كرسي وثير . قرب الشباك . ثمل . ليس ثملاً بالدرجة التي بدا بها لي . وهذه ثمالة المزاج الجيد . في هذا المزاج . لا يتكلم عادةً عن مهنته . أو عن زملائه البيض في المهنة . أو رئيس العمال . أو البيض . أو الملوك الأفارقة . في هذا المزاج . يحكي هو عن الجزر . عن أمه وأبيه . عن أقاربه وأصدقائه . عن أيام الأعياد الدينية . الغناء . الرقص والبحر .

دنوتُ منه . جرني إليه باسماً وضمني بين فخذيه . « كيف هو رجلي الكبير » ؟ سألني باسماً . راح يفرك كفيه برقة . ثم جعل يمررها فوق شعري بدهشة .

« هل استمتعت بليلتك » ؟

جلس كاليب على كرسي مستقيم قريباً منه . منحنياً إلى أمام . « دع ليو يخبرك لم تأخرنا كثيراً هذه الليلة . قل له . يا ليو . ماذا جرى لنا » ؟

« كنا في طريقنا إلى البلوك » . بدأتُ الحديث - وراقبتُ وجه والدي . فجأةً راودتني رغبة أن أمتنع عن سرد الحكاية . شيء ما في نبرة كاليب جعلتْ والدي ينتبه ، فراح يتأملني بخوفٍ وتجهم . أقبلتْ أمي ووقفت جنبه، وضعت إحدى كفيها على كتفه . تطلعتُ إلى كاليب قائلاً : « لعلك تحكي القصة أفضل مني » .

« هيا . ابدأ الحكاية . سنساعدك في ملء الفراغات » .

« كنا في طريقنا إلى البلوك » . قلت .. وأخبرته أي بلوك هذا .

« ... بعد عودتنا من دار السينما » .. تطلعتُ إلى كاليب .

قال كاليب : « لم يكن الطريق الذي اعتدنا سلوكه » .

والدي وأنا تبادلنا النظرات . فجأة ، ساد بين الجميع الوجوم . أقبل الوجوم والحزن من حيث لا ندري . «أوقفنا رجال الشرطة» . قلتُ . لم أستطعْ إكمال الحديث . نظرتُ بوهن إلى كاليب فروى هو الحكاية . حين كان كاليب يتحدث ، تأملت وجه والدي . لا أعرف كيف أصف ما رأيته. شعرتُ أن إحدى ذراعيه اللتين يطوقني بهما قد توترت ، توترت . شفتاه أمستا مريرتين . وغامت عيناه . ويبدو ، بعد كل هذا المجهود الذي لا يوصف ، القاتل تقريباً بعد تلك السنين العجاف من الصلاة والصيام ، بعد فقدانه لكل ممتلكاته ، بعد أن وعده الله بأنه قد دفع الثمن وما من حاجة للمزيد من روحه ، التي أخفيت الآن : يبدو كما لو أنه في خضم احتفاله الديني البهيج ورقصه ، متوجاً ولابساً رداءه ، وإذا برسولٍ يصل ليخبره أن خطأ فادحاً قد وقع ، وعليه أن يعيد الكرّة ، أن يفعل الأشياء كلها ثانيةً . أمام عينيه المأدبة وخمور المأدبة وضيوف المأدبة المغادرين ، خلع التاج والرداء ، أمسى وحيداً ، جمده الحلم ، كل ما كان يتطلع إليه ويفكر به أمسى وراءه . بدا والدي منذهلاً ، بلا حراك ، على حافة الجنون ، ذراعه التي تطوقني راحت تؤلمني، لكنني لم أشكُ. وضعتُ راحتي على وجهه . التفت إليَّ ، تغيرت ملامحه . ابتسم - أصبح وجهه جميلاً جداً ! - وضع يده الضخمة فوق يدي . التفت إلى كاليب .

« هل هذا هو كل ما حدث ؟ ألم تقل شيئاً » ؟

« ماذا بوسعي أن أقول ؟ لو كنتُ وحدي فلربما حدث شيء مختلف . إنما ليو معي ، خفتُ أن يفعلا شيئًا لليو . أنت تعرف أولاد الزانيات هؤلاء . لن تكون أقل منهم منزلةً ما لم يذلوك ويهينوك » .

« كلا ، حسنًا فعلت ، يا رجل . لم ترتكبْ خطأ . ألم تأخذ رقم (الباج) الذي يحمله كل منهما » ؟

ضحك كاليب ضحكةً نصف مكبوتة . « لم تسألني ؟ هل تعرف قاضيًا تربطك به علاقة صداقة ؟ هل نملك مالاً كافيًا كي ندفع أجر المحامي ؟ هل ثمة أحد يصغي إليك ؟ كلانا يعرف جيداً أنهم يضربون المؤخرات السود طوال الوقت ، طوال الوقت، يا رجل ، يأخذوننا إلى ذلك البيت الواقع في ضاحية المدينة كي نعترف بكل شيء ، بل هم أحيانًا يقتلوننا وما من أحد يلعنهم . ما من أحد يبالي بما يحدث للإنسان الأسود . لولا حاجتهم إلينا في العمل لقتلونا جميعًا من زمن طويل . على غرار ما فعلوا بالهنود » .

قالت أمنا : « تلك هي الحقيقة . أتمنى أن أقول شيئًا مختلفًا . لكنك لم تقلْ إلا الحقيقة » . ضربتُ كتف والدي . « الحمد لله فحالنا ليست سيئة جداً » .

قال والدنا : « في ميسورك أن تشكري الله وتحمديه . أما أنا فلا » .

قالت أمنا : « طيب . أنتَ على صواب . إنه تعبير فحسب . كفانا تفكيرًا في الموضوع . علينا أن نقول : حسن ، عاد الولدان إلى البيت سالمين . هذه هي خلاصة القول » .

سألتُ : « بابا ، كيف أصبحوا يعاملوننا بهذه الطريقة » ؟

نظر والدي إليَّ وقتًا طويلاً . في الختام قال : « ليو ، لو عرفت كيف ، فلربما استطعت أن أجعلهم يكفون عن ذلك . لا تجعلهم يلقون في قلبك الرعب . أسمعتني » ؟

أجبته : « نعم سيدي » . لكنني كنتُ خائفًا على الدوام .

قالتْ أمنا : « لنكتف بهذا القدر من الحديث. هذا يكفي الليلة. إذًا أنتما جائعان ، عندي القليل من اللحم مع الضلوع » .

ابتسم لى كاليب ابتسامةً عريضة . « ربما ليو الصغير جائع . هو يتخم نفسه كالخنزير . أنا غير جائع . هى ، أيها الرجل العجوز .. » دفع كتفى والدى برفق : هذه الليلة ما من شيء حرمنا منه .. » لم لا نتذوق قليلاً من شرابك الروم ؟ حسن » ؟

ضحكت أمنا . « سأجلب قنينة الشراب » قالت وخرجت من الغرفة . « أتعتقد أن بوسعنا أن نعطى ليو ، أيضاً ، قليلاً منه » ؟ سأل والدنا . وسحبنى إلى حضنه .

قالتْ أمنا ضاحكة : « فى قدح الماء الكبير » . ألقت نظرةً أخيرة علينا قبل أن تغادرنا وتذهب إلى المطبخ . قالتْ : « مى ! يقيناً حولى رجال لطيفون ! مى ، مى ، مى » !

أفقتُ ، فجاةً ، من النوم . انبثقتُ من الظلام بصورة مفاجئة . واجهتني ورود موضوعة على منضدة بعيدة عني . عنفوان عظيم ، صخّاب ، عنفوان النصر ، ذكرني بغرفة تبديل ملابس بربارة في ليالي الافتتاح . المنضدة موضوعة أمام نافذة واسعة ، عالية ، تنسدل فوقها ستائر صفر . الستائر مزاحة قليلاً ، ويمكنني رؤية الشمس في الخارج . ما تبقى من الغرفة أبيض – جدران بيض ، باب أبيض مغلق . بُردى الأزرق معلق على حائط قريب جدا من سريرى . جاهدتُ أن أرفع بدنى كى أرى بقية الغرفة . فاكتشفت أننى لا أملك أية قوة على الاطلاق . أحسستُ أننى خفيف ، فارغ ، يابس مثل عظم معرّض للشمس ملقى فى الرمال . بشرتى بدتْ مكسوة بالقشرة . أحسستُ بالشعر فوق رأسى وكأنه بلوى . مكيدة مبهمة ، أحسستُ بشعرى ثقيلاً جداً ، ربما كنتُ فى القبر أياماً معدودات . سألتُ نفسى أى يوم هذا ، كم يوماً مضى علىَّ هنا . الصمت يسود الغرفة – الصمت والبياض يسودان الغرفة . حاولتُ تخمين الوقت من خلال الشمس : قررتُ ربما يكون الوقت الحادية عشرة صباحاً . لا يهمنى شيء – غير العبء الثقيل لشعر رأسى : لا أبالى إذا استمر السكون . لا أبالى إذا بقيتْ الغرفة خاليةً من الناس إلى الأبد . مططتُ ساقىْ . بدتا كأنهما ليستا لى ، فهما عديمتا الوزن تماماً . أحسستُ بسلام واطمئنان عظيمين لم أحس بهما من قبل . تلفعتُ بالملاءات البيض وأغمضت عينىَّ .

يبدو أني فتحت عينيَّ في غفلةٍ من الزمن. الآن الشمس أصبحت في موضع آخر . قررتُ حتماً أن الوقت هو الرابعة عصراً . المرضة في الغرفة . « هاى ، هو ذا الرجل النائم ! » هتفت المرضة بمرح - مرح المرضات الذى يثير الأعصاب فعلاً : لا يجرؤ المرء على أن يخمن أية معلومة مرعبة تختفي وراء ذلك المرح .. » مؤكد ، نلت قسطاً جيداً من الراحة . كيف تشعر الآن » ؟

كانت شابةً فائقة الجمال ، لها وجه صاف ونظيف ، وشعر أحمر قصير تحت القبعة المنشاة .

قلتُ : « أشعر بتعب طفيف . من فضلك .. هل أستطيع » ؟ مدتْ المحرار(*) نحوى .

« كم لبثتُ هنا » ؟ سألتها .

«يوماً وليلة فقط .. حسناً، ليلة ويوماً وليلة. هل تشعر بأنك أمضيت وقتاً طويلاً» ؟

أجبتها : «لا أدرى. أشعر أن شعرى قد نما كثيراً وكأننى لبثتُ هنا شهراً كاملاً» .

ضحكتْ ، وقالت : « حسناً ، أظن بوسعنا معالجة الأمر في بحر يومين » ، مدت المحرار ثانيةً، بهدف واضح، وأدخلتْ المحرار تحت لساني . نظرتُ إلى جدول الحرارة ، سحبتْ الستائر ، سقتْ الورود ماءً . عملتْ بصمت ، بحركات قصيرة ، طفولية . تأملتُ ردفها الجميل ، ذراعيها المبرومتين ، نهديها المغامرين ، الضعيفين في الوقت نفسه . أحسستُ أنه لم يمض وقت طويل على فقدانها لشحم الحمل . فتحتْ الباب وعادتْ بسلة كبيرة من الفاكهة ، وضعتها على المنضدة المجاورة لسريرى . أردفت قائلةً : « بعض أصدقائك أرادوا إرسال صندوق شمبانيا . لا أظن أن التعليمات تسمح بذلك . كان يعجبني كثيراً أن أسمح لهم . أوه ! ألم تكنْ بعض الفتيات مصابات بالغيرة ! منى ! لأنني أداوى ليو برودهامر ! ما كدن يأكلن طعامهن حتى رحن يمطرنني بالأسئلة . قلتُ لهن ، حسن ، إنه نائم . لا أستطيع أن أفرّق بين مريض وآخر حين يكونون نائمين » .

(*) ميزان الحرارة (ترمومتر) . (المراجع)

« طيب » . قلتُ لها حين أخرجتْ المحرار من فمي ونظرتْ إليه بأسى ، وأضفت : « الآن بوسعك أن تخبريهم بأنني مستيقظ . مع أنني مازلتُ لا أفرق كثيراً عن المرضى الآخرين » .

قالت : « أوه ، لكن ، نعم ، أنتَ تختلف عنهم » . لاحظتْ بعناية حرارتي المثبتة في الجدول ، ووضعت المحرار في قارورة زجاجية . « سيحضر الطبيب إلى الغرفة ليراك فيما بعد . سنجري لك بعض الفحوصات . الآن أنتَ على ما يرام » . قالتْ بتوكيد ، «من فضلك، أحتاج منك الآن إلى نموذج إدرار». سلمتني قارورةً من القرون الوسطى ، مغطاة بمنشفة ، وضعتْ الستار أمام سريري : « سأعود حالاً » قالتْ وسمعتُ صوت الباب ينغلق وراءها .

ضحكتُ فيما أنا أتأهب لطاعتها . كيف تعلمتْ هي التحدث بتلك الطريقة ؟ تلك الطريقة الحازمة المعصومة من الخطأ ، الطريقة التي ليس لها علاقة بالشعور الشخصي. يبدو ، جليا ، ما من طريقة أخرى للتحدث ، عدا – ربما – الطريقة السائدة بين الأحبة ، أو بين الآباء والأبناء . « من فضلك ، نحتاج إلى عينة من المخاط » . أما نحن فنقول : « انفخ أنفك . أقوى . هكذا أفضل » . إنه الجسد المقلق ، الاستبدادي ، غير الملائم . الجسد المقدس . ملأتُ القارورة بالإدرار . بدا اللون طبيعيًا ؛ ليس ثمة رائحة . فجأةً بدأتُ أرتجف . شعرتُ بالبرد . وراح العرق يتصبب مني . بدوتُ وكأنني هرولتُ ساعة كاملة . بغتةً بدأ جسدي يؤكد دعاواه ضدي ، يعلن بحزن أنه مرهق ، ويطلب بوقاحة أن آتي عملاً ما . لم أكدْ أملك القوة الكافية كي ألف المنشفة حول القارورة وأضعها في الرف السفلي من المنضدة . مكثتُ راقداً هناك . سلة الفاكهة قريبة من رأسي . أردتُ أن أعرف من بعثها لي . لكنني سأشعر بوجع هائل لو رفعتُ يدي لأتناول البطاقة . بدأتُ أدرك أنني عاجز – رجل ضخم البدن ، نتن ، لكنه كالطفل لا حول له ولا قوة . ربما كانت حالتي أسوء من حالات معظم المرضى ، حالة لا أقدر أن أطيقها . شيء مرعب أن تعتمد على الآخرين ، على إنسانٍ ما من أجل تنفيذ أبسط الوظائف ، شيء مرعب أن يرى المرء كتاباً يود قراءته في الطرف البعيد من الغرفة بينما هو لا يقوى على الوصول إليه. هذا الأمر يجعل المرء يبغض نفسه . في الحقيقة ، عاودني – فيما كنتُ راقداً هناك – الاشمئزاز . هذا الشعور الحقير . المفزع ، اللزج ،

عارفًا أنه يتوجب عليَّ الذهاب إلى الحمام . يمكنني استعمال قصرية الفراش ، غير أنني لستُ قادراً على الجلوس ، وما من أحد يسندني . تمنيتُ أن أموت ، أن ألقى بجسمي الأسود في مكان ما كيلا أتعرض إلى المزيد من الذل والهوان . ظننتُ أنني فارقتُ هذا الشعور من زمن طويل ، لكنه عاودني الآن ، قويًا ، أقوى من أي وقت مضى : فيما كنتُ أتخيل وجه الممرضة الصافي ، المتورد ، وهي تسند ظهري بينما جسمي يتوتر ، يتصبب عرقًا ، رائحتي الكريهة تملأ الغرفة . أمسكتُ شعري الشبيه بالصوف ، ذلك الزرع النتن ، وكأنني أنتزعه من جمجمتي . عرفت أنني شعرت بذلك ، بصورة ما ، مراراً خلال سنوات حياتي . لكنني تناسيتُ هذا ، وقررت ألا أكون عاجزاً أبداً . بما أنني شعرتُ بذلك مراراً ، إذاً ، مؤكد ، أنني أظهرتُ هذا الشعور . ظهر أكثر مما يمكن ، ربما ، حينما لم أكن منتبهًا إليه . مع ذلك ، جسدي - حدثتُ نفسي - ليس أكثر نتانةً من أجساد الآخرين ، رائحتي الكريهة ليست أصيلة . ليس لها رنين أعظم ، ستجدني الفئران والديدان طيب المذاق كالآخرين . قلتُ : «آه، يا ليو، يا لك من طفل» . هذه الفكرة لم تخفف من قلقي . رجعتْ الممرضة ، التقطتْ القنينة . ما من عون لي . قلت لها : « يا ممرضة ، أريد الذهاب إلى الحمام » .

قالتْ : « لا أستطيع السماح لك بالحركة . انتظرْ لحظة » . ابتسمتْ ابتسامة حقيقية . « أعرف أنه شيء مرعب . أرجوك ، لا تجعله يقلقك . أرجوك لا تقلق » . تلاشتْ عن الأنظار ، ثم عادت بوعاء مثير للاشمئزاز . ما كادتْ تساعدني . مع ذلك أحسب أنها ساعدتني قليلاً . على أية حال ، كنا ما نزال صديقين حين انتهى الأمر . اضطجعت ثانيةً . سألت نفسي لماذا بدا الذل ، في الأصل ، هو حالتي الطبيعية .

دخل الطبيب الغرفة ، الممرضة ضئيلة البدن بجنبه . كان هو الآخر ، في غاية المرح ، بدا أنه جلب معه إلى الغرفة هواء الخليج القارص . وجهه متورد ، نظيف ، من شعره البني ، الأملس ، اللامع إلى حذاءيه البنيين ، اللامعين . قال : « قررتَ أن ترجع إلينا . ظننت أنك سترجع حالما تنال قسطًا بسيطًا من الراحة . أنتَ تعرف ، لم أرَ قط إنسانًا مرهقًا مثلك . هذا شيء غير حكيم إطلاقًا » . جلس وجس نبضي أرته الممرضة جدول الحرارة . نظر إليه هنيهةً ، وتطلع إليَّ. قال لي : « آه ، نعم . كيف تحس اليوم ؟ هل ثمة ألم » ؟ تأملني بعناية تامة .

« لا . أحس فقط أنني ضعيف مثل هريرة مولودة تواً » .

« هذا شيء طبيعي . إنها معركة وعليك أن تخوضها . سنجعلك تقف على قدميك ثانيةً » . أخرج سماعته الطبية وجعلني أتنفس بطرق مختلفة . نخسني . نقرني . قلبني مرةً أو اثنتين . كالطفل . أو الكعكة . قاس ضغطي . حدثني قائلاً : « سنجري لك بعض الفحوصات . على مدى أيام قلائل .. الدم . الكبد .. أو مئات العناصر المقيتة . لكنني لا أنوي أن أزعجك بالتفاصيل الملحة . على الأقل . ليس الآن. وهذه ». قال وهو يجهز إبرة . « لعلها مؤلمة نوعاً » .

حين أدخل الإبرة . جمعتْ الممرضة الإبر . الصواني والمناشف وانصرفت . قرب الطبيب كرسيه من السرير . قال لي : « الآن . أصغ إلي . لا أعرف بالضبط ما ينبغي لي أن أعرفه – من الجائز أنني سأكتشف أكثر في الأيام القليلة المقبلة – ربما كل شيء » . ضحك . « من يدري ؟ أنتَ مصاب بأزمة قلبية خطيرة . ليست خطيرة جداً .. لكنها خطيرة بدرجة معتدلة . سببها الإرهاق العصبي والجهد الشاق . الآن . قلبك على ما يرام – حتى الآن – مع ذلك . من الغرابة أن أقول لك أن كبدك سليم . أنتَ في التاسعة والثلاثين . يا برودهامر .. لستَ صبياً . من الآن فصاعداً لن تكون صحتك مثلما كانت عليه في صباك . لو أنك غيرّت مشيتك . كما تقولون في المسرح . أعتقد أنك ستحيا وقتاً طويلاً . سأكون قادراً على رؤيتك وأنتَ تمثل المسرحيات مرات كثيرة . أعتقد أنك فنان مذهل . بالمناسبة . زوجتي وابنتي لزمتا الصمت حين ذكر اسمك .. إذاً ثمة أنانية فيما قلته . إنه أسف عظيم أن يفقدك الجمهور . أنا أعني ذلك . إنه شيء حقيقي . أنتَ تفهم . إذا لم تغير مشيتك .. تشرب أقل . تدخن قليلاً جداً . تنظم جدول أعمالك بحيث تستطيع نيل قسط من الراحة – لا أقصد بالراحة خمس دقائق في غرفة تبديل الملبس – وإلا أصبت بنوبة جديدة وبعدها نوبة أخرى، عندئذ تتحطم بنحو خطير وبعدها .. » كشر بوجهي وقال : « سيكون الأوان قد فات . وتهلكك إحدى النوبات . سيكون ذلك أمراً سيئاً جداً . خسارة فادحة . لا لزوم لها . أفهمتني » ؟

قلتُ له : « أجل . فهمت » .

« لا حاجة بك لإرهاق نفسك . عندك ما يكفي من المال . أوه ! نحن لا نكتفي من المال » . ضحك ، ثم قال بنبرة مختلفة : « على أية حال ، أنتَ لا تبالي بالمال . إنها مسألة خارج موضوعنا . لكن ما الذي يجعلك ترهق نفسك ؟ أريد أن أعرف . لقد حققتَ نجاحاً منقطع النظير على مدى أكثر من عقد من الزمن .. أعرف أنك تدرك ذلك جيداً . لم أسمع عنك بالأمس . أظن أن التحيز نحوك كان رائعًا . لذا .. تساهل معي ، إذا قدرت ، من فضلك ؟ أود أن أعرف » . لم أعرفْ كيف أجيبه . لم أوجه هذا السؤال إلى نفسي – على الأقل بتلك الصورة . أجبته : « لا أدري إن كنت أعرف أم لا . أنا ممثل .. أظنني ممثلاً جيداً .. » . أصغيتُ إلى نفسي ، بدوتُ وكأنني في وضع ضعيف جداً ومدافعاً عن نفسي قلت : « سعيتُ ، يومًا ، ألا أكدر ذاتي . أعني .. إنني سعيتُ إلى فعل أشياء لم أكنْ متأكداً من قدرتي على فعلها . إذا كنتُ عارفًا بقدرتي على عمل شيء ما فلن يكون له أية أهمية . حين تفعل الشيء ذاته المرة تلو الأخرى ، تفقد في الحال صفتك كممثل ، تغدو كنوع من (المنكين) يتسلم راتبًا عاليًا » . سعلتُ . «إنسان ميكانيكي» . ثم قلتُ ، متدهشاً نوعًا ، من الطريقة التي خرج بها قولي ، رغماً عني : «بالنسبة لي إنه أيسر وأصعب . حين أقول أيسر أظنني أعني بأنني لستُ جذاباً على الإطلاق، لذا حين أكون على خشبة المسرح ينتبه إلى الجمهور . أنا من الطراز الذي يصعب إيجاد دور مناسب له .. وعلى ممثل من هذا الطراز أن يكون أفضل من الباقين ثلاثة وسبعين ألف مرة .. كي يستطيع الوقوف على خشبة المسرح . بعدها ، حين تنال أدواراً عديدة .. حين يبدءون بإيجاد أدوار مناسبة لك » – غصتُ في السرير – « حسن ، تنال نوعًا من الفائدة ، لكنك لا تتحمل فقدانها » .

قال الطبيب باسمًا : « فهمت . أنتَ من الطراز الذي يسميه أحد أصدقائي بالمغالي » . أوحى لي وجهه ، أنا أيضاً أحسستُ إحساساً ضعيفًا ، بأن في خاطري أشياء أود قولها ، لم أقلها للطبيب . لكنني لم أعرف كيف أزيد : أحسستُ ، بصورة يتعذر تفسيرها ، بأنني عليّ الابتسام ، أرغمتُ نفسي على الاندماج . « دكتور ، هل المغالات حالة غير سوية » ؟

قال بتحفظ : « إن معظم الفانين هم من الطراز المغالي . ما من شيء نستطيع أن نفعله لهم . سأتركك الآن . وسآتي لرؤيتك صباح غد » .

« عليك أن تفكر بما قلته لك » .

« أعدك بأنني سأفعل . شكراً . طابت ليلتك » .

« طابت ليلك يا برودهامر » .

انصرف الطبيب . لكنه عاد على الفور . « صديقتك وزميلتك الآنسة كتك ، تأتي إليك يوميًا ، وتتصل هاتفيًا كل ليلة . ستكون هنا هذا المساء . أخبرتها أنه لا ينبغي لها أن تمكث وقتًا طويلاً معك » .

« شكراً ، دكتور » .

« ليلة هانئة » .

« ليلة هانئة » .

الآن ، بدأت حمرة الغروب تغمر الغرفة . اكتشفت مصباحًا قرب سريري ، فأضأته. تطلعتُ إلى سلة الفاكهة والتقطت البطاقة. لم تكنْ في الواقع بطاقة بل برقية . كتب فيها : « كفاكَ مزاحًا مع الجمهور وعدْ إلينا . أنتَ تعرف جيداً : لا يجدر بك أن تمرض » . البرقية موقعة من قبل : « حبيبك ، كريستوفر » . البرقية مؤثرة ، مع أنها قليلة الكلمات بصورة غريبة – كل شيء ، يلوح قليلاً – لأن كريستوفر وأصدقاءه لا يملكون مالاً . حتمًا تطلب ذلك براعة معينة ، من نيويورك ، للتيقن من وصول سلة فاكهة إلى حجرتي في أحد مستشفيات كاليفورنيا . لو صدرتْ براعة كهذه من لدن شخص كريستوفر من زمنٍ ليس ببعيد جداً لغمرتني بالبهجة .. لكن الآن ، وضعتُ البرقية مطويةً على المنضدة ، سألتُ نفسي ما إذا سأشعر بإحساس آخر ، نحو أي فرد . كريستوفر الأسود: كان أسود في أمور عديدة : أسود اللون ، أسود الكبرياء ، أسود الغضب . فكرتُ : « لا عجب من إصابتي بأزمة قلبية » . ثم تذكرتُ ما قاله لي الطبيب. قالت لي بربارة مرات كثيرة : «ليو ، أنتَ أيضًا ، لك الحق بالحياة . لك الحق . ما من حاجة للبرهنة عليه» .

تذكرتُ السنوات التي التقيتُ فيها بربارة أول مرة . في « القرية » – تلك السنوات العجاف ، المرعبة ، القذرة . لم يخيلْ لي أبداً أنني سأشعر بالحنين إلى تلكم السنوات ،

أو أنني سأرى فيها ، وفي نفسي ، بصورة مفاجئة وكئيبة ، جمالاً متلاشياً ، جمالاً كُفر به ، جمالاً لم أميزه من قبل ، بل حطمته بنفسي . وقتذاك لم تكنْ أيّ سنةٍ من تلكم السنوات جميلةً ، على الأقل بالنسبة لي . آنذاك ، كما أكثر بذاءةً من الفجر ، أكثر فقراً من الشحاذين ، أفواهنا مفتوحة بقذارة للدودة ، للقمة ، لكسرة الخبز ، التي لم يسقطها العالم لنا - العالم يلقي لنا أشياء أخرى تسبب لنا الغثيان ونتقيؤها على الفور ، كنا نخشى الإصابة بالتسمم ! التسمم بكتبنا المسروقة ، بأشرطتنا « المستعارة » ، بغرورنا الضعيف ، بجهالتنا ، بطعامنا المسروق . في وقتٍ ما ، أربعة أو خمسة منا - أو في الواقع ، والحق يقال ، كل من شاركنا الطابقين في منزلٍ آيل للسقوط في «الجانب الشرقي» . كان المنزل محجوباً عن الشارع من أجل الحشمة ؛ يدخل المرء عبر البوابة ، فيجد نفسه في فناءٍ يميل فيه بجنون مبنيان الواحد نحو الآخر ؛ مبنى ثالث في نهاية الفناء ، يبدو مائلاً فوق ذينك المبنيين - ثلاثة أصدقاء ، مخمورون ، طائشون ، كل ما يشغلهم هو أن ينزلوا معاً . كنا ندعو ذلك المكان « زقاق الجنة » - شيء غريب أن أتذكر الآن أننا كنا مغرمين به بصورة ما . لم يكنْ فيه شيء يُغلق ، تخلينا عن محاولة غلق أي شيء ، وألفنا عادة الدخول والخروج من نوافذ أحدنا الآخر ، نجتاز أبواب أحدنا الآخر . ما من شيء يعود لواحدٍ منا ، لذا كل الأشياء الموجودة (أو أياً كانت الأشياء) نجدها هناك ، ولعلها تتجمع في أي مكان من المبنى . في هذا المبنى ، غدتْ بربارة حبلى أول مرة - بعد أن ضاجعها حبيب طفولتها في مسقط رأسها ، والذي التحق بالبحرية الأمريكية ، يزورها ويلفت نظرها إلى آرائه بالفتيات اللاتي يهربن من البيوت المحترمة ويفقدن أخلاقهن . عليها إجراء عملية إجهاض ، ساعدتها في جمع المال اللازم لذلك - من خلال عملي كنادل ، من خلال الكسب غير المشروع - بعدها توعكتْ كثيراً وتقاربنا أكثر . كنا « نتبضع » فجراً ، سالكين طريقاً طويلاً ، غير مباشر . الموز يُلفظ خارج مخزن أي وبي وضعنا الموز في حقيبة التبضع (كنا «نتبضع» دورياً ؛ إذ ليس من الممكن أن يلقوا القبض علينا جميعاً مرةً واحدة) ، كنا نلتقط الخبز والحليب والخضار التي تلفظها المخازن على طول شارع بليكر . غالبًا كنا نحصل حتى على البيض . نعود إلى البيت قبل السادسة ، مهيئين الإفطار . اللحم هو مشكلتنا الوحيدة ، لنا صديق يعمل في كشك كبير لبيع اللقانق في الشارع الرابع عشر ،

حتى يومنا هذا مازلتُ لا أميل إلى اللقانق . احتسينا البيرة فى مشارب «القرية» ، نتحلق دون خجل غرباء قادمين من ضواحي المدينة ، يحتسون الويسكي .. يطلبون لنا الويسكي ، وربما يشترون لنا وجبة طعام ، ربما - لم لا ؟ حدث ذلك غالبًا - يشترون لنا وجبات عديدة ؛ ربما ، مقابل سماحنا لهم بأن يستندوا إلى شمعة غيرتنا وشبابنا ، مقابل إبقائهم لنا (نحن الذين كنا يائسين من أن يبقينا أحد) بين حلول الظلام وبزوغ الفجر في ليالي السبت ، فيقترحون أن نأكل اللحم . يا إلهي ، كيفَ كان حالي فى تلك السنوات ؟ إنني أتذكر بربارة . مرةً كنا موديلين للرسامين من « جماعة طلبة الفن » فى الشارع السابع والخمسين . عملتْ بربارة مدةً أطول مني . كانت ، وقتذاك ، ذات وجه أكثر استدارة تقريبًا ، بشرتها ذات لون رفيع جداً ، شعرها بني ، جد طويل ، مجعد ، على شكل ضفائر طويلة ، أو يكون شعر ناصيتها مقصوص قصاً مستقيماً . كانت لها ضحكة عجيبة - تبدو مثلما كانت عليه بالفعل ، طالبة مدرسة لاجئة من كنتوكي . كانت لها هيئة صبيانية ، نهدان صغيران، عجيزة غير بارزة، كانت ماتزال فى سن المراهقة ، لها ساقان طويلتان رائعتان . تلبس السراويل فى الأعم الأغلب ، مما سبب لها بعض المتاعب فى عددٍ من الأحياء السكنية ، غالبًا ، بين آنٍ وآخر تعقص شعرها الطويل فوق رأسها ، تضع أحمر الشفاه ، تلبس فستانًا ، فتبدو بهيئة مختلفة مثيرة للدهشة . غدتْ جميلةً رائعة ، مغرية ، ومتوهجة . ثم غدتْ شبيهة بابنة فخورة بنفسها نوعًا لأصحاب العقارات فى كنتوكى الفخورين بأنفسهم . كنتُ مسروراً على الدوام ، ويداهمني خوف سري حين ترتدي هي أبهى ثيابها ، لأنني لا أستطيع أن ألتقي بها على ذلك الأساس أبداً . جعلتني أسائل نفسي : ما هي فكرتها عني التي تحتفظ بها سرا فى قلبها ، ما هو رأيها بنا جميعًا . العالم الذي نعيش فى كنفه يهددنا ، كل ساعة ، بأن يطبق على ما تبقى منا إلى أبد الآبدين . ليس بحوزتنا أدوات نستطيع بواسطتها أن نخرج إلى النور - على الأقل ، أن أخرج أنا . أما هي فكان بوسعها أن تخترقه فى أية لحظة تشاء .

تذكرتُ ذهابي مع بربارة إلى حفلةٍ فى ضواحي المدينة ليلة صيف . فى الواقع ، كانت تلك أول حفلة مسرحية لي - من المفروض أن لا أذهب إليها . صديقنا جيري ، الذي يسكن أيضًا فى « زقاق الجنة » ، كان من المفروض أن يصحبها معه . أن الأوان لكننا لم نعثر على جيري . كنتُ جالسًا فى مسكني (قسمي) - ربما ينبغي لي أن

أدعوه كذلك – حتى آخر ساعة سبقت الحفلة ، أطالع ، وأصغى إلى بربارة في الغرفة الواقعة عبر الرواق ، وهي تدندن ، وتغلق الأدراج بقوة . سمعت صوتها وهي تتخيل وقع أقدام شخص ما .

« جيرى » !

كان صوتها عاليًا بالقياس إلى عمرها ، فهي ماتزال فتاةً صغيرةً . ما من جواب . هتفتْ ثانيةً . هذه المرة أجاب صوت النحاتة الروسية كبيرة السن الساكنة في الطابق العلوى .

« بربارة ، هو غير موجود هنا . ليس ثمة أحد في الأعلى غيرى » .

قالتْ بربارة : « شكرًا ، سونيا » . وبعدها أردفت : « اللعنة ! » طرقت بابى ، وفي الوقت نفسه فتحته ، استندتْ عليه وحدّقتْ فيَّ بانشداه : « ألم تر جيرى » ؟ كانت تلبس فستانًا أزرق فاتحًا ، وتنتعل حذاءين بكعبين عاليين .

« لم أره طوال اليوم . إلى أين أنت ذاهبة » ؟

« إلى حفلة . حفلة في ضواحي المدينة . من المفروض أن يأتي جيرى معى » .

« حسنًا .. لعله مع شارلى » .

صراحةً ، كنا نعمل بهيئة أزواج . يصبح المرء زوجًا من خلال اشتراكه في المسكن نفسه – بالنسبة لى ، فراش على الأرض ، وفونوغراف قديم – النفر الذين في الخارج من المفروض أن يتذكروا النصف الذى بقي في البيت هم جائعون حتمًا . كنتُ جائعًا . لم يرَ أحد شارلى منذ يوم أمس . « لا أظن هذا . ربما ذهب هو لزيارة أمه . يبدو أنه لا يستطيع أن يتحمل بقاءه بعيدًا عنها ، مع أنه يسهرنى طوال الليل ، كل ليلة ، ليحكى لى عن مقدار كراهيته لها » .

« يبدو أننا مبعدون . أنت محظوظة . ستذهبين إلى حفلة . هل سيقدمون لك الطعام » ؟

« سيكون هناك طعام وفير . تعالَ معى » .

« لا أستطيع المجيء معك » !

« لم لا ؟ ليو ، قسمًا بالشرف ، بحوزتي مال كاف كي نأخذ سيارة أجرة . يمكنني ، أيضًا ، أن أستدين بعض المال هناك . تعال معي ، حقًا ، ليس عندك شغل هنا . كما أنك بقدومك ستسدي لي معروفًا » .

ذكرتُ في سيارة الأجرة لأننا واجهنا مصاعب رهيبة مرات كثيرة ونحن نحاول اجتياز شوارع مدينتي معًا ، أسود مع بيضاء . ما من شيء يجعلنا نأخذ معًا قطارًا نفقيًا مرةً أخرى . إنني معجب ببربارة بسبب وضوحها اللاوجداني . فتيات كثيرات غيرها كن وجدانيات جداً وكدن أن يقتلنني . « البس فقط قميصًا نظيفًا وربطة عنق ، وسترتك داكنة اللون » .

« ما رأيك بهذا السروال » ؟

« جيد . هو ليس ممزقًا ، أو شيئًا من هذا القبيل . وهو بحاجة فقط إلى الكي . واصل الابتسام لأن لك ابتسامة مدهشة . لا تقف طويلاً في مكان ما . لن ينتبه إليك أحد الآن . أسرع . من المفروض أن نكون هناك الآن » .

جلستْ على فراشي ، فليس ثمة مكان آخر تجلس عليه . تصفحت كتابي . « ليو ، لم أخذت تقرأ سوينبورن بصورة مفاجئة » ؟

أجبتُ مدافعًا : « لأنني لم أقرأ له من قبل . هذا هو السبب » . كنتُ خجلاً من نقص ثقافتي . في تلكم الأيام كنتُ أطالع أي كتاب يقع في يدي .

« حسن . أظنه شاعرًا سخيفًا . إليوت هو الشاعر العظيم الوحيد . ليو . يبدو شعرك جيداً . دعه على حاله والبسْ قميصك » .

« يلزمني فقط أن أمشطه . هو يحتاج إلى حلاقة » .

دندنتْ بربارة بفلسفة : « لماذا . أوه لماذا لا نحب أنفسنا كما هي عليه ؟ أنا أحب شعرك . هو مناسب لوجهك . لعلك تود أن يكون شعرك ليفيًا مضحكًا كشعري » .

« اخرسي » . لبستُ قميصي . « من الذي يقيم الحفلة » ؟

« حسناً ، أحد الدرسين من "الجماعة" اعتاد أن يضع التصاميم منذ بضع سنين خلتْ ، للناس الذين يقيمون الحفلة. هو مسرح صيفي ليس بالواسع – بل هو، صغير ، كما تعرف – حسن ، هو يعرف أنني أتمنى أن أغدو ممثلة ، يعتقد هو أن هذا العرض المسرحي ربما يزودني ببعض الأفكار حول البداية .. بخاصةٍ المكان الذي أدرس فيه . تلك هي مشكلتي . أوه ، أنت تعرف أن بعض أصدقائه سيصبحون أعضاءً في "ورشة الممثلين" . لذا .. من الجائز أن يكون العرض المسرحي ممتعاً » .

« ممتعاً بالنسبة لك . هو لا يعرف أنني سأحضره » .

« هو يعرف أنني سأصحب أحد أصدقائي . إذا صدمهم وجودك ، حسن ، لا تبال بهم ، وليذهبوا إلى جهنم . إنهم أحرار ، لعنة الله عليهم ، مهما يكن ، إنهم يجعلونني أشعر بالغثيان . اللهم ، أرجع لي بيتي القديم في كنتوكي ، حيث كان عندي مجرف (مسحاة) » . – شرعتْ تضحك ، بادلتها الضحك – « يدعى مجرف ! » .

نزلنا درجات السلّم ، اجتزنا الفناء الهادئ ، عبرنا بوابة منزلنا ، وأصبحنا في الشوارع . كنتُ أرغم نفسي دومًا على المرور عبر البوابة ، بخاصة إذا كنت برفقة بريارة . اليوم ، في الشوارع أناس قليلون – غالبيتهم كبار السن – في النوافذ ، أو عتبات المداخل ، لم يبدُ أنهم شاهدوني . الشارع المشجر (أ) مهجور تمامًا ، سرنا إلى الشارع الرابع عشر قبل أن نحصل على سيارة أجرة . الوقت السابعة مساءً ، مساء صيفي رائع . أعطت بريارة العنوان إلى السائق . مالتْ إلى الخلف ، كانت يدي بيدها . قالت : « في اعتقادي أنني سأقطع علاقتي مع جيري » .

سحبتُ يدي ، راقبتُ الشوارع التي كانتْ تنهبها السيارة . قلتُ : « لم أكن متيقنًا من أنك وجيري صديقان حميمان » .

« حسنًا ، لماذا تعتقد أنه كان يأتي دومًا ، يدخل ويخرج من بابي ، طوال الأسابيع الستة الماضية » ؟

« لم أكنْ في حجرتك يا حبيبتي . كان يدخل ويخرج من بابي ، أيضًا » .

« يبدو كلامك أشبه بكلام جيرى ، بدأتُ أظن أنه ليس مستقلاً تماماً بالنسبة لأبوابه » .

قلتُ : « لكنك مستقلة ، أو مؤكد يلزمك أن تكونى كذلك » . تطلعتُ إليها ، نظرتْ فى عبر نافذة السيارة ، ثانيةً . « يا للجحيم ، لا أدرى » .

عضتْ شفتها . كنا نقترب من المتنزه في الطريق الثالث والعشرين ، ومن الشارع المشجر الخامس . « هل تعرف أحداً يسكن في جراسيرسى بارك » ؟

سألتنى . « لأننى أعرف . جنوب » جراسيرسى بارك » .

« هذا شيء جيد لك يا أميرة . هل تنوين التوقف لزيارتهم » ؟

« لا . والله . هم مجرد أصدقاء لأسرتي . أقبلوا إلى هنا منذ أسبوعين . كتبتْ لى أمى عنهم ، وطلبتْ منى أن أزورهم » .

« هل تفترضين أنهم جاءوا لزيارتك » ؟ اعتدلتُ في جلستى .

قالتْ : « حسناً . لا أظنهم قادرين . أظنهم مازالوا يعتقدون أننى أقيم فى الـ (واى) . أكتب لهم دوماً على ورق رسائل كتب عليه حرف واى » .

« ماذا يحصل حين يكتبون إليك على العنوان القديم » ؟

« نعم . حصل هذا . لكننى ، بعدها ، شرحتُ لهم أننى أقيم في فرع آخر .

الآن أخبرهم أن يكتبوا لى على عنوان 'جماعة طلبة الفن' » .

قلتُ : « أعتقد من الأسهل أن تعطيهم عنوانك فقط » .

قالت : « عندها سيواصلون إرسال هؤلاء القوم لزيارتى فى الأعلى . سيكون ذلك مرعباً » .

« هم حتماً يتمتعون بلياقة بدنية » .

« أجل . أنا جد مرهقة من الخصام معهم » .

« هم لن يحبوا جيرى ، أو شارلى . كما لن يحبونى » .

« صحيح . هم لا يحبونني » .

تابعتْ سيارة الأجرة سيرها . لم أقلْ كلمة .

سألتني : « هل ودعتَ عائلتك » ؟

قلتُ لها : « كلا . في الواقع ليس لي أية عائلة . ليس مثلك » .

تنهدتْ . « ليو المسكين . بربارة المسكينة . ماذا حل بنا » ؟ نظرتُ إلى الخارج من نافذة السيارة القريبة منها . بغتةً ، انفجرتْ ضاحكةً . قهقه السائق ، أيضاً . « أوه ، ليو . إنكَ لم ترَ المشهد . هذه السيدة كبيرة السن وسط الشارع .. والحافلة قريبة جداً منها – ليس لها شغل هناك ..إنها تمد يدها بهذه الطريقة » – رفعتْ بربارة يدها في إيماءة مشابهة لتحية هتلر العسكرية – « توقفت الباص حالاً . يا لها من فرامل ؛ أو يا لها من يد . يلزمك أن تراها . يوم الأحد في نيويورك . يا سلام . كنتوكي ليستْ مثل هذه المدينة » .

ذهبنا إلى الحفلة في أحد الشوارع التي تحمل رقماً في الثمانين ، غربي البارك . أتذكر بهواً واسعاً ، القرميد البني ، الأنوار تسطع في السقف ، المرايا ، الأعمدة الإغريقية المزيفة. هناك مستويات، ينبغي عليك أن تنتبه إلى طريقك ، وإلا لحقك الأذى . نظر بواب إلينا ، أو بالأحرى ، نظر إليّ ؛ وقفنا جنبه حين نودي عليه من الأعلى . حتى ذلك الوقت لم يكنْ هو مقتنعاً بل ترك موقعه ورافقنا إلى الطابق العلوي . كان الباب مفتوحاً وفي الحجرة عدة أشخاص . قرع البواب الجرس وظل ينتظر هناك . كانت بربارة مسرورة . أمستْ الآن غاضبة ، هذا يجعلني ، دوماً ، بارد الأعصاب . راح البواب ينقل نظراته من بربارة إليّ ، وتطلع من فوق رؤوس القوم ، منتظراً ظهور المضيّف . واصلتْ النظر إليه : لكن – كلهم جبناء ! – رفض البواب مواجهة أيّ من العيون . قالت بربارة : « الفوهرر فخور بك . فأنتَ أديتَ واجبك العسكري مثل جندي صغير جيد . غداً سوف تتم ترقيتك إلى ضابط للمهمات الخاصة . هيا . ليو » . أخذتْ ذراعي ، رقص البواب ، كما لو يلزمه أن يتبول : ظهر المضيّف . والحمد لله . هتف بنا : « لم أنتما واقفان هنا ؟ هيا ادخلا » !

قلتُ : « يبدو أن بوابك لا يرغب أن يسمح لنا بالدخول » .

رد البواب : « وددتُ فقط ، يا سيد فرانك ، أن أتأكد من أن الأمور على ما يرام . فهمتنى » .

« ماذا ؟ ماذا تعنى بقولك أتأكد من أن الأمور على ما يرام . ما هذا الذى تتحدث عنه ؟ يا أولاد » . بسط ذراعيه وهتف : « هيا ، ادخلوا » .

ارتسمتْ البسمة على ثغر السيد فرانك . كانت بربارة متحفظة . قالت : «هذا سيد فرانك . سيد فرانك ، هذا صديقى ، سيد برودهامر» .

« نحن مسروران بلقائك » . قلنا . تصافحنا بالأيدى وتبادلنا البسمات . واصلنا الدخول .

الآن أستعيد ذكرى تلك الحفلة – أنظر إليها عبر وشاح السنين – بطريقة رومانسية يتعذر تبريرها . على ضوء ما جرى من أحداث لاحقة ، كان لتلك الحفلة وزن القيمة الاستثنائية . الرهيبة للمنعطف الحاسم . كنا هناك ، بربارة تتوهج بفستانها الأزرق ، وأنا بثيابى الداكنة . كنا يافعين ، يافعين جداً ، قلّما نمتلك سلاحاً ينقذ شبابنا ومتى يحل الزمن الذى يكشف شخصيتينا – وأعنى بذلك استغراقاتنا الحقيقية. متى يحل الزمن الذى يخبرنا فيه ما ينبغى علينا أن نوليه الاهتمام . آنذاك لم نكنْ نعرف ذلك . سرنا فى الحجرة يرشدنا السيد فرانك المبتسم ابتسامة يانسة نوعاً – له شاربان ، وجه صبيانى صريح ، وشعر أشيب ، ربما امتنع عن تمشيطه بتعمد ، له أيضا عينان طويلتان . قريبتان جداً من بعضهما . السيد فرانك مدرس « الجماعة الفنية » ، وصديق بربارة : لا أدرى ماذا تحمل ابتسامته التى جعلتنى أشعر مراراً – ثلاث مرات أسبوعياً، على الأقل – بأنه رأى بربارة عارية. وظهر هذا فى سلوك بربارة . أيضًا . فكان موقفها المباشر النفور والغطرسة. كانت بربارة غامضة – بقيتْ كذلك إلى الأبد . لم يكنْ أصدقاء السيد فرانك هم القائمون بالحفلة ، بل السيد فرانك نفسه . أصدقاؤهم ضيوف الشرف . مر وقت قصير قبل أن نلتقى بهؤلاء الأصدقاء ، الذين كان لهم أثر بالغ فى حيواتنا . كنت متيقناً من أن هناك مئات من الناس ، أما نحن الاثنين ، بربارة بفستانها الأزرق المتوهج ، وأنا بزيى الداكن ، فقد زرع أولئك القوم

جميعاً الرعب في قلبينا . كانوا متألقين ، وامضين ، يتحدثون بنبرات رنانة ، لهم سيماء فريدة بصورة مطلقة لأولئك القوم الناجحين . ميزنا عدداً منهم ، بعضهم مشاهير . أظن أن سيلفيا سيدني كانت هناك ، وقتئذ كانت تمثل في نيويورك ، فرانشوت تون وبيتي ديفز . كثير من كتاب المسرح وكثير من المخرجين . دهشتُ لأنني ميزتُ عدداً كبيراً منهم ، نعم ، كنا مبهورين ، مبهورين فعلاً . في الحجرة الطويلة ، العالية ، هذه الغرفة الأنيقة - أنيقة إذا ما خطر ببالنا أن الأناقة قلما يسمح بها في أمريكا - بدا الجميع مختلفين ، الشباب والشيوخ على حدٍ سواء - لأن المرء يرى الوجوه حيةً ، دون مراقبة من أحد - مؤكد لاحتُ الوجوه أصغر مما تبدو عليه فوق الخشبة أو على الشاشة. شاهدنا ، مثلاً ، أن أسنان هذا أو ذاك عوجاء قليلاً ، وهذا له ساقان مقوستان؛ هذا كان سكراناً حتى الثمالة، ينوى بجلاء أن يكون مدمناً . ممثلة شهيرة أذهلتني إذ فاتني أن ألحظ أنها قزمة ، لكنها كانت تبدو طويلة جداً ، بألبستها الملكية ، حين رأيتها على خشبة المسرح ، بدور ملكة عموم روسيا . ربما تلك الليلة قررتُ فعلاً أن أصبح ممثلاً - الواقع غدوتُ متورطاً بهذا الأمر المستحيل : مؤكد تلك الليلة أعادت إلي ذاكرتي ، بصورةٍ مدهشة ، المسألة العظيمة التي تنص على : أين يمكننا العثور على حدود الواقع . إذ كانت القزمة قادرة على أن تغدو ملكة وتدفعني للاعتقاد بأن طول قامتها ستة أقدام، فلمَ لا يمكنني أن أغدو أنا الصبي ضئيل البدن، النحيف ، الأسود ، إمبراطوراً - الإمبراطور جونز ، مثلاً ، لم لا ؟ بعدما راقبتُ الجميع بهذا العزم الوحشي الذي خطر ببالي .

في الوقت ذاته ، كانت بربارة وريثة حقيقية لعموم كنتوكي . مسلحة بجمالها ، هي تعرف هذا . أما أهدافها فلم تكنْ أقل وحشيةً عن أهدافي . إذا كان الضيوف الآخرون يتوهجون ، يتألقون ، يتكلمون بنبراتٍ رنانة ، فهي أكثر من متحدية لهذا العرض من خلال بهائها الخاص ، الذي لا يمكن إنكاره ، كانوا يتصنعون البراءة أكثر مما تتصنعها هي - لكنها لم تستغل تصنعهم ليمسي وبالاً عليهم كما فعلتُ أنا - كما أن عادتها الخاصة في التحدث بصوتٍ واطئ وفر لها حظاً سعيداً فيما بعد . كان لصوتها ، أحياناً ، نبرة من يعاني من التهاب الحنجرة ، وينبغي المرء أن يرهف السمع بعناية كي يسمع ما تقوله . على أية حال ، كانت بربارة تعرف أنها قادرة على جعل المرء

يصغي بعناية شديدة - هي تعرف جيداً أنها ليستْ على الإطلاق مثلما تبدو عليه ، ناهيك عن كونها تعرف كيف تجعل الثلة تعرف ذلك ، هم يمتازون بالشهرة ، وهي تمتاز بالشباب والعنفوان والزمن ، وكل هذه الأشياء في صالحها . إن عادتها الخاصة في التحدث بصوت خفيض ، قد اكتسبتها من مارجريت سولافان ، الممثلة التي أعجبت لها بربارة كثيراً . هذا شيء يدهشني دومًا ، وما من أحد قط عرف به . ربما هو السبب الذي جعلها تبرع في هذه العادة وتغدو متأصلةً في ذاتها . لم تعدْ عادةً خاصة بل حقيقة .

كان للغرفة موقد ورف موقد . أشياء غير سارة نوعًا وضعتْ على رف الموقد ، تحف يقصد منها تذكير المرء بإفريقيا وروما . تحتوي الغرفة على أعمال فنية متميزة لبيكاسو وماتيس وروو ، وتتدلى من منتصف السقف ، أعمال كئيبة جداً ، تتحرك بصفير . كانت الغرفة متجهمة وبهية في الوقت نفسه ، ومترعة بالمشروبات والأطعمة التي صُفّتْ فوق منضدتين ضخمتين، قرب الشبابيك المشرعة. عرفت بربارة أنني اكتشفتْ كفاءتي، عرفتْ ماذا ينبغي لي أن أفعل – تلك الفتاة محضنتي ثقتها دومًا – بينما كنا نؤدي دورينا ، على أية حال ، الواحد بعد الآخر . استمرتْ هي في دورها بثقة تامة ، تمنيتْ أن أؤدي دوري بمثل ثقتها . دورها في المقام الأول ، هو أن تكون فاتنة بحيث تسلب أعضاء الثلة قيمهم الروحية . أما دوري فهو أن أكون فظًا – فظاظتي هي فتنتي - حتى تلك اللحظة من حياتنا لم نكنْ أنا وبربارة قد نمنا معًا . لكننا ، الآن ، أجبرنا على الاكتشاف بأن معظم الناس يعتبرون الحقيقة شيئاً جذاباً إلى أبعد حد، بل حتى كريه . لم نعدْ نحلم بقول الحقيقة . عرفت بربارة نفسها أنها انطبعتْ في ذاكرة الجمهور بصورة لا تمحى ، من خلال حقيقة وجودي ، بحرف أكثر رعباً من الحرف القرمزي – وأكثر جاذبيةً منه . لذا خفضتْ نبرة صوتها ، مجبرةً الجميع على الانحناء للاستماع إلى أقوالها . كانت تستخدم أسنانها وعينيها بصورة مؤثرة قيود الجميع أن يكونوا في مكاني . فطنتي بحضورها ، بشذى طيشها الخطير وقوّتها . ما من شيء يبعد كثيراً عن الواقع . كنا ، كما قال بيرانديللو ، نحيا مسرحيتنا ، ونمثل حياتنا .

كي أهيئ نفسي لأداء دوري – يلزمني أن أحيا مع هذا المفهوم التافه سنوات عدة – مضيتُ إلى المائدتين . كوّمتُ الأطعمة فوق طبق . ثم سكبتُ كأسًا أنيقةً جداً من النبيذ الأحمر .

بما أن بربارة ، الآن ، رقيقة جداً ، جنوبية ؛ فقد تظاهرتْ بكونها ستارليت أوهارا ، بكونها صبية حقيقية ، كاذبة تماماً فيما يتعلق بالعائلة ، أملاك عائلتها – أظنكم تقولون إنها مقاطعات حقيقية ، أليس كذلك ، ؟ – حملتُ الطبق الهائل من الطعام وكأس النبيذ الأنيقة جداً. تذكرتُ ، أيضاً ، أن أطوي منديل المائدة على ذراعي .

« لم ، حبيبي ليو ، ، قالتْ بربارة بأعلى صوتها وأغنى لهجتها ، ، ياللك من لطيف المعشر ! بربك كيف .. ، – التفتت ، متوهجةً فعلاً ، إلى الزوج والزوجة اللذين كانت تغويهما بصورة وحشية – ، يتسنى لي أن أتدبر الأمر ، ؟

قلتُ لها : « سأحمل الكأس » .

«أبداً ، إنه غلام لا يطاق» . أخبرتْ الآن الثنائي المفتونين بها : « الواقع ! سأجد مقعداً لأجلس عليه ، ستجد لنفسك شيئاً تأكله ، وشراباً .. إنه يشرب كثيراً جداً » . قالتْ للثنائي : « تخليتُ عن الخصام معه بهذا الشأن ، فذلك ببساطة مضيعة للوقت . تعالا معي » . قالتْ للزوج والزوجة ، اللذين نظرا إليَّ برهبة واضحة . قالت بمهابة : «وأنتَ يا ليو، سأعود إليك، سأقدمك إلى ضيوف الشرف. لا أجرؤ على فعل ذلك، الآن ، لأنك لن تكون مرناً ، ما لم تدخل شيئاً إلى معدتك» . ابتسمت للزوج والزوجة . «الواقع هو غلام لطيف جداً» .

قلتُ : « شكراً لك ، يا أميرة ، هذه أرق وأعذب الكلمات التي سمعتها منذ طوال الأسبوع » . ثم ، بالضبط حسب تلميح ما ، ابتسمت للثنائي ابتسامة عريضة لا تقاوم . « سأعود حالاً » . قلت : مضيتُ إلى المائدتين وأخذت كثيراً من أكباد الفراخ ، بعجل ، ملأتُ الطبق ، ملأتُ كأساً كبيرةً بالويسكي .

كانوا جالسين على أريكةٍ قريبة من الموقد. تأملتْ بربارة كل الممثلات في الحجرة ، اختارتْ بعض التفاصيل المختلفة من ألبستهن وسلوكهن ونبذتْ تفاصيل أخرى ، حاولتْ الاعتداء ، أيضاً ، بنجاحٍ غير مكتمل ، على بعض الشئون الدنيوية لـ تالولا بانكهيد[1] . مشاهدوها ، الذين من الجائز كانوا قد تسلوا ، انشدوا إليها بقوة ،

(١) ممثلة أمريكية المولد (١٩٠٢ - ١٩٦٨) ، عرفت بغرابة تصرفاتها خارج المسرح وعلى المسرح . (المترجم)

تكلمتْ بربارة عن « الآنسة جولي » . قالتْ : « أنا وليو نحب هذه المسرحية . إننا مقتنعان بأن ستريندبيرج المسكين ، الأحمق ، كتبها معنا في مخيلتنا » .

قالتْ الزوجة : « لكن ، عزيزي ، إن هواجس الآنسة جولي ... أظن ، أننا لا نحطنا كثيراً إذا ما قلنا ، إن هواجس تلك المسرحية الرائعة - وأظن أن زوجي يحس الإحساس نفسه - شمالية جداً ، مؤكد ، أنت لا تشبهينهم مطلقاً ، أنت استوائية ، حقاً أنت عديمة الحرارة » .

ابتسمتْ ، طرفت عيناها الزرقاوان الواسعتان . « أنا أحس بها ، في هذا الموضع بالضبط » . كان زوجها جالساً بينهما ، أنا جالس في الجهة الأخرى من بربارة ، في حضنها ، عملياً . أكلتُ بضراوة صامتة ، فقط ، بين الحين والآخر ، أستطلق شفتي ، احتسيت جرعات كبيرة من الويسكي . ركزتُ انتباهي ، أيضاً ، لأنني لم أقرأ « الآنسة جولي » ينبغي لي الآن أن أكتشف، مما قالوه، أو من الناحية العملية مما قالته بربارة ، الموضوع الذي تناولته المسرحية الأثيرة. على أية حال، السيدة ذات العينين الزرقاوين ، حللتْ موضوع المسرحية دون أن تترك شيئاً . قالتْ : « يا عزيزتي الآنسة كلك ، أنت لم تقدميننا إلى صديقك الصامت ، الجائع ، الجذاب جداً » . قبل قليل ، كانت تثبت نظراتها على بربارة كي تتجنب النظر إليّ . أما الآن فتثبت نظراتها عليّ كي تتحاشى النظر إلى بربارة . «سأقدم نفسي . اسمي لولا سان - ماركواند . هذا زوجي صمول» . مدتْ يدها . مسحتُ يدي بمنديل المائدة قبل أن أمدها . تصافحنا . أحببتُ لولا فوراً أحببتها حبا جماً . لا أدري أية صفة فيها جعلتني أشعر ، فوراً ، وبقوة شديدة ، أنها امرأة كئيبة ، ضائعة ، محطمة ، بل حتى نبيلة ، تفاصيلها مستحيلة ، لكني قرأتُ هذه التفاصيل كعلامة من علامات حيرتها وحزنها . كانت ضخمة البدن ، ليستْ بدينةً حتى الترهل بل بدينة بدانةً خفيفة . يشعر المرء أنها أمستْ بدينة جراء اليأس ، مع ذلك ، حجبتْ هي هذا اليأس بفستان فضفاض أسود ، حديث الموضة . لها شعر جميل جداً ، أشقر جداً ، طويل جداً ، مسحوب إلى الوراء بطريقة صارمة بل حتى خالية من العيوب، وربما بطريقة مازوكية ، من حاجبيها المدهش نوعاً ، ومربوط بقوة في مؤخرة رأسها ، فوق هذا المجد ، لبستْ وشاحاً أسود من الشيفون ، مربوط تحت .. ذقونها ، ربما الدقة هي التي دفعتني لهذا القول ، أما الذقن الرئيس فكان ثابتاً ، هذا هو الزي

النظامي لـ لولا سان - ماركواند . لم أعرفها بغير هذا الهندام . لابد أنها تملك المئات من الفساتين والأوشحة السود ، مع أن القبعة النسائية السوداء ، النزقة تخدم الوشاح أحيانًا. هذا ، على أية حال ، يجري غالبًا في ليالي الافتتاح . هذه المرأة أثرتْ فيَّ ، مازالت تؤثر فيَّ لكونها أحد الناس الأكثر فضولاً ، الأكثر غراماً ، وخداعاً ، وقسوةً ، وإخلاصاً ممن صادفتهم طوال سني حياتي . كانت ذات هيئة ذكية ، وحشية : لم تتمْ إلى هيئتها الحالية بل اتخذتْ هذه الهيئة بفعل المطرقة ، أو ربما ، نزلتْ في راقود[1] لا يوصف . يداها بيضاوان ، قصيرتان ، سمينتان ، وناعمتان ، مع ذلك ، ليستا عديمتي القوة ، أصابعها كانت أنيقة . يشعر المرء أن قصر اليدين وامتلاءهما ليسا محتومين أكثر من الخواتم التي تحملها .. خواتم مرعبة ، وقعتُ في فخ لولا سان - ماركواند ، الفتاة الحسناء ، الخامدة ، واحسرتاه ، في الختام ، يغدو المرء يقظًا بصورة مميتة ، ساحقة ، لرائحة ذلك التعفن .

قالتْ بربارة : « أنتِ على صواب ، سيدة سان - ماركواند ، أنا جد متأسفة » ، لكنني أحسستُ أنها لم تكنْ. الآن قد عرفتُ كيف أتدبر أمري. لأن بربارة خفيفة الحركة ، كان رد فعلي نحو لولا قد جردها من السلاح ، جعل القمة التي تغزلها بصورة ماكرة تهبط بدوي محسوس ، ودونما طائل ، هبوطاً ، وديعاً . نظرتْ إليَّ نظرةً قصيرة سائلة نفسها ما إذا ظنت أنها ينبغي أن تخجل من نفسها ، ركزتْ بصرها على طبقها ، من الواضح كانت تنتظر مني تلميحاً .

صول سان - ماركواند صافحني هو الآخر . كانت يده رطبة ، بيضاء ، لم أشعرْ بشيء حين صافحت يده عدا الكراهية العميقة . كرهته ، في الحال ، بعمق ، كما يكره الإنسان إنسانًا آخر . شفتاه رفيعتان ، عيناه مبهمتان ، رأسه الأبيض كالثلج تقريباً بدا ثقيلاً جداً بالنسبة لعنقه النحيف . ترك فيَّ انطباعاً مؤثراً مثل متشائم ليس له أية قناعات .

ربما كرهته لأنني أحببتُ لولا - بدا لي أنه يمتاز بأكثر تفاصيلها المستحيلة تطرفاً - أو ربما لأنني عرفت أن بربارة معجبة به إعجاباً شديداً . النساء مغرمات بصول . لا ريب ، هذا راجع إلى النقص القاتل في الذي جعلني لا أفهم هذا الأمر مطلقاً .

(١) الراقود : وعاء ضخم للسوائل يستخدم للتكرير أو التخمير أو الصباغة أو الدباغة . (المترجم)

ربما كرهته لأنه أحد الرجال القليلين الذين التقيتهم ، إن لم يكنْ الوحيد ، الذي بدا فعلاً أنه يكره الرجال . لعلي غير منصف في هذا الحكم . إذا كنتُ نزيهاً ، يلزمني أن أعترف بقدرٍ معين من الحيرة والتردد وبيقظة واضحة جداً ، أن موقفي لا يمكن أن أدافع عنه بلطف . صادفتُ نساءً يبغضن النساء بغضاً شديداً . لعل غرور الرجل يجعله يحكم على كراهية المرأة له بكونها شيئاً يشبع كبرياءه ، وربما يشبع هذا الغرور نفسه بكونه قادراً على إدراك هذه الكراهية . الله أعلم . بربارة لا تطيق النساء . كانت لها طوال المدة التي عرف فيها أحدنا الآخر . صديقة حميمة واحدة : هي الأخرى لا تطيق النساء ، لا تطيق حتى المسرح . نالتْ مؤخراً وظيفة في أحد مستشفيات هونج كونج . لكن غريزتي . فيما يتعلق بالرجال ، تجعلني أعتقد أنهم أكثر ضعفاً من النساء - لأنهم أقل منهن إخلاصاً - يحتاج أحدهم الآخر كرفاق ، يحتاج أحدهم الآخر من أجل التصحيح ، يحتاج أحدهم الآخر في البكاء والبذاءة ، يحتاج أحدهم الآخر كمونديل ، يحتاج أحدهم الآخر . كمجموع : كي يكونوا قادرين على الوقوع في غرام النساء . النساء يحببن صول ، لكنني لا أظنه يحب النساء . أحس أنه يستغلهن ، يجمعهن ، يجثم بين أثدائهن كالطفل ، يستخدم موقدهن كي يقلل من برودة بدنه . إذا كان تقليل البرودة شيئاً ممكناً فإن التغلب عليها تماماً شيء مستحيل . في الختام ، بدا لي أن النساء يتعلقن بصول على أمل أن يكن قادرات على استعادة بعض الحرارة التي سرقها منهن . لعل بعضهن تصرفن على هذا النحو . أما زوجته فليست ضمن تلك الثلة غير المحتملة . فيما يتعلق بالدفء ، عوضته بتقليد الأناقة ، طراز محدد ، غريب ، مجبر بدقة إلى درجة أن المرء يشعر تحته بنبض أصيل ، دوماً ، لا يخلو من المرارة .

« نحن لا نعرف أن الآنسة كنك من كنتوكي » قالت لولا سان - ماركواند ، ثم أكملت حديثها قائلةً : « غير أنها لم تخبرنا من أية ولاية أنتَ . بينما أنا مدركة أن أكثر الأشياء غير المتوقعة تحدث يوماً .. ذلك هو الدرس المحدد ، سحر المسرح ، نظام المسرح . مع ذلك ، ينبغي لي الاعتراف ، إن مخطوطة المسرحية التي جعلتكما أنتما الاثنين تلتقيان في كنتوكي » - ضحكتْ ضحكة متقنة ، بصوتٍ عالٍ ، واضح ، بنائي نوعاً - « أثرتْ فيَّ تأثيراً بالغاً لأنها تفتقر إلى احتمال كونها صادقة . الآن ، أنا على يقين بأنك سوف تبدد كل أفكاري المتكوّنة سلفاً عنك لتقول لي إنكما ترعرعتما في منزلٍ واحد بكنتوكي » .

قلتُ : « حسن . حدث هـذا مرات كثـيرة ، رغم أن الصداقة – ليستْ هي النتيجة المـألوفة . لم أرَ كنتوكي قـط ، بل أتمنى مشـاهدتها . ولدتُ في نيـويورك ، في حي هـارلم » .

لأسبابٍ أخفيت عني باطمئنان ، بعث ذكر هارلم في زوج لولا نشاطاً نسبياً ، كان ذلك تلميحاً ساحراً بالحياة . قال : « عشنا هناك منذ أمد طويل » . لم ينظرْ إلى شيء محدد أو إنسان محدد حين قال جملتـه هذه ، واستنتجتُ أن شـوارع هارلم قد تراءت له .

قال بسرعة : « أوه ، أين » ؟

« حـدث هذا من زمن طويل » . بعـدها توقف عن الكلام . كـان ذلك بمنأى عن إدراكنا ، ثم دب في بدنه ثانيةً تشنج قصير الأمد . هذه المرة وصل التشنج إلى شفتيه وجعل زاويتي فمه تصعدان إلى الأعلى . سألني قائلاً : « هل تعرف إيثيل ووترز » ؟

أجبته : « كلا ، أعرف من تكون هي » . لم أحبّ صول ، فهو يملك القدرة – كيف ستبرهن السنوات على صحة كلامي هذا ! – على أن يبعث فيّ الحيرة ، أن يباغتني بأي هجوم ، هو قادر على لفت انتباهي إليه في وقتٍ كان لابد أن يلفت انتباهي فيه إلى حقلٍ من حقول المعرفة . « إنها مطربة مدهشة » ، قلتُ بسذاجة . أحسستُ ، فوراً ، باستياء حاد ، شديد ، لأن هذا الرجل الواهن ، ضئيل البدن ، الجدير بالرثاء ، أخذني إلى ما وراء عمقي . حدقتُ فيه. أحسستُ أن بربارة تركز اهتمامها على طبقها كي يتركزَ على الاهتمام الكلي . كما أحسستُ – وهذا ، أيضاً ، شعور بعث فيَّ الاستياء والهلع – أن عاطفتي المباشرة نحو لولا ، وحبي الذي لا يتزعزع لبربارة : لأنه كان حباً – قد خلق بسرعة اللهب ، صلة عميقة ، لا توصف بين الاثنتين – هذه الصلة جعلتهما تتحدثان عنا ، أنا وصول نتبادلنا الإيماءات فوق رأسينا ، كما لو أنني تساويتُ ، بغض النظر عن ضعفي وقيمتي . مع ذلك اللاجئ البغيض من مركز الألبسة . عملتُ في مركز الألبسة ، دفعتُ العربات ، في الواقع ، لزمني أن أعمل هناك غير مرة ، كان صول سان – ماركواند هو تقطير لرئيسي العمالي ورؤسائي . غصصتُ بطعامي ، الذي لاح لي الآن ، كما في السابق ، مسروقاً ، وأحرقني الويسكي ، طبعاً ، سوف أبرد ، على

أية حال ، أحتاج بعض الوقت كي أعد العدة ، لذا استخدمتُ رشاش لعابي. سعالي، كي أجعل من تصريحي حاذقًا بصورةٍ خالية من الأخطاء ، وصبيانيًا . « سمعتُ أنها ممثلة مدهشة ، أيضاً . إلا أنني لم أرها » .

« لكن ، يا غلامي العزيز » ، صاحتْ لولا ، منحنيةً إلى أمام ، بتعبير أصيل في وجهها ، الآن – لعلها عاطفة أصيلة – « كيف يمكنـك رؤيتها ؟ أنتَ صغـير السن . أنا كبيرة السن وفي عمر أمك ، مع ذلك ، لم أرها إلا لمامًا .. صول ، عزيزي » – مالتْ إلى أمام ، ثانيةً ، قاطعتْ نفسها بصورة جميلة لافاييت .. الذي وجد قبل زمنك ، يا شابي العزيز » . التفتت إليَّ الآن قائلةً : « رغم أن المسرح يقع في منطقتكم ، أنا لا .. » ، قالت بصورة رائعة: « أعتقد، أنها مثلت فيه، مؤكد، ذاكرتك أفضل بكثير من ذاكرتي » .

تكشف تمعن صول الدقيق في شوارع هارلم ، «كلا، شاهدنا روز ماكلندن هناك . قبل أن نلتقي» .

« طبعًا ! أليستْ هي رائعـة ! ماذا كانت المسرحية ؟ أوه ، يا لذاكرتي اللعينـة . لا أعرف ماذا سأفعل بدون صول . إنه يمنحني الشرف حين يتظاهر بعدم معرفة شيء يعرفه هو بدوني . أتذكر ، عزيزي ، اسم المسرحية » ؟

«إيثيل ووترز» قاطعتها بربارة . « لا يمكن أن تمثل في مسرح لافاييت . لا أظن . لم تعدْ ممثلة وقتذاك . إنها على حد قول ليو ، معروفة كمطربة . أليس عملها الأول في التمثيل .. » – مالتْ إلى تهدي لولا سمان – ماركواند المذهلين تمامًا . « هو دورها في مسرحية « بنات مامبا ؟ التي لم أشاهدها . وقتذاك كنتُ أعاقب نفسي ، تكفيراً عن خطيئتي ، في كنتوكي » .

ردتْ لـولا رأسـهـا إلى وراء، وقهقهـت بصوت بنـاتي ، أصيل بصـورة غريبة . « عزيزتي إن كنت قد رأيتها فعلاً ، فأنا أؤكد لك أن عقوبتك لنفسكِ في كنتوكي ربما كانت أكثر إيلامًا ، لكنها قصيرة الأمد ، بالتأكيد . أنا أؤكد لكِ ... » .

« المسرحية التي رأينا فيها روز ماكلندن .. » ، قال صول بحزم قاطع لعدم الاستقرار التام ، ذلك الحـزم الـذي بدأتُ أميزه الآن . « كانت لـ پـول جرين – أتذكرينه – اسم المسرحية هو 'في حضن أبراهام' » .

قالت لولا : « طبعاً ! تلك المسرحية عن معلم المدرسة . ما من أحد منكما ، طبعاً ، كان قادراً على مشاهدة .. » .

« لكنني قرأتها » قلتُ ، ثانيةً ، بدأتُ أجد موضعاً لقدميّ . « أنا غير متيقن من محبتي لها » .

قالتْ لولا سان – ماركواند بتوكيد : « لو كنت أكبر سناً ، فسيكون ذلك الدور مناسباً لك . الآنسة كنك أسرّتْ إلينا أنها تنوي – تطمح أن تصبح ممثلة . أأنتَ أيضاً تغامر من أجل الوصول إلى الشعلة المقدسة ؟ يلزمني أن أخبرك .. وصول سيخبرك أنني لم أخطأ فيما يتعلق بهذه الأمور – هذه العناصر – هو يميل إلى أن يتظاهر بأنني ولدت كي أكون وسطاً » . وهنا ضحكت ثانيةً ، ضحكة ليستْ طويلة كما بدتْ ، ضحكة غير عالية كما كان صداها ، ارتد رأسها العجيب إلى الخلف . « الواقع ، لم أخطئ أبداً ، في هذه المسائل » . أرسلتْ بصرها إلى زوجها بخبث . لم يلقِ هو عليها نظرة . «يلزمني أن أخبرك .. يا ولدي لم تغامرْ ، الشعلة ... » – رفعتْ يدها ، باعدتْ بين أصابعها ، ومضتْ الأضواء، كاللهب ، كاللهب ، في أصابعها المزينة بجواهر رخيصة ، خيل إليّ أنها ، بنفس الإيماءة ، تتفادى وتنتظر بلهفة الضربة القاضية – « الشعلة المقدسة تنوي الوصول إليك . الشعلة تحتاجك ستمتلكك . لستَ وسيماً ، الواقع ، إنك حتى ذو مظهر غير ممتاز . أنتَ كثير التردد على المسارح . إن كنت قادراً على التمرين – أنا أعرف أنك تتحلى بهذه الصفة. تظهر هذه الصفة من خلال طريقة مشيك المعتدلة. تظهر هي بطرق لا تراها – عزيزي . ستنجح نجاحاً عظيماً . أعظم مما تتخيله . أنا أعرف . أنا موهوبة في هذه المسائل . في الحقيقة . » الآن انحنتْ نحو بربارة : تبادلنا الإشارات بنحو مستمر فوق رأسينا . قذفتْ لولا الآن نارها الحاسمة ، المهلكة ، التي كانتْ أيضاً نذرها، إلى بربارة ، تعبيراً عن إخلاصها. « الآنسة كنك ستحقق ، أيضاً ، نجاحاً باهراً . نجاحاً منقطع النظير . ستكون أكثر شهرة منك . هذه الشهرة ستتحقق لها في وقت عاجل . لكنها لن تستطيع عبور قفارك . يلزمها أن تدفع ثمن ذلك ، وأنت أيضاً » . اعتدلتْ في جلستها ، بدتْ ضخمة ، ومرهقة .

قالتْ بربارة ، على نحو أثار إعجابي : « أنا أسمعك . أنا أسمعك . أظنك على صواب . أنا جد مسرورة لأنكَ قبلتها . لا أعرف كيف » .

دهشتُ . كالوا لي المديح . خفتُ . أرسلتُ بصري إلى المرآتين ، حيث لم تتطلعْ أي منهما إلى الأخرى ولا إلى أيٍ منا . اعتدلتْ بربارة في جلستها ، وضعتْ طبقها خلف الكنبة على الأرض .

« لا أحب التمثيل حتى الآن » . قلتُ بعناد ، أكيد ، مدروس جداً - مدروس لكن غير مقصود . « إذا اعتقدت أن بوسعي التمثيل في مسرحية " في حضن أبراهام " فسوف أمثل .. دور الإمبراطور جونز .. » .

قالت لولا بحسم : « أنتَ أنحف من أن تمثــل هذا الدور ، في الواقــع - أتمنى أن لا تكون حساساً بصورة متطرفة .. بصورة صبيانية .. » .

« ليو ، » قالتْ بربارة - نظرتْ إلى لولا - « أظن أن المسرحية التي ينبغي لنا أن نحاول تمثيلها هي [لكل أبناء الرب أجنحة] »[1] .

صفقتْ لولا . « طبعاً » . قالت . ابتسمتْ لصول . « راجز بوسعها أن تخرجها . راجز تحب أن تخرجها » .

« نحن » قال صول ، نبرته الآن أكثر وضوحاً من أي وقت مضى من تلك الليــلة « المخرجين المبدعين لـ ورثة إعداد الممثلين » .

« راجز - راجز رولاند - أظنها كانت ، ذات مرة ، صديقة حميمة للممثلة التي مثلتْ تلك المسرحية في لندن ، التي لاقتْ نجاحاً كبيراً » .

تحدثت لولا الآن بغموض ، بارع ، وقور ، أثّر بي ، لكونه طريقة في تأخير الوقت . « أسمعت براجز رولاند ؟ أتعرفين من هي » ؟

أجابت بربارة : « أوه ، طبعاً ، هي مخرجة ناجحة جداً » .

(١) مأساة ألفها يوجين أونيل ، عرضت أول مرة في نيويورك عام ١٩٢٤ . (المترجم)

عادتْ لولا إلى الوراء ، رفعت إصبعها ، أغمضت عينيها ، « عزيزتي ، هي ليستْ مخرجة وحسب. هي مخرجة ممتعة ، أيضًا، ممتعة جداً . العالم لم يتعرفْ إليها حتى الآن ، نحن نعرفها - الممثلون الذين عملوا معها ، انتبهوا جيداً إلى التي أخرجتْ بعض إنجازاتهم العظيمة - أوه ، ناهيك عن كونها مخرجة نجحتْ راجز رولاند نجاحًا باهراً ، هي أحد أعضاء "الورشة" . هي إحدى صديقاتنا القديمات جداً . هي إنسانة » .

« أحقًا ثمة أمل في السماح لنا بالدراسة في " الورشة " ؟ سألتْ بربارة ، وجهتْ السؤال إلى صول . واصلتْ لولا الابتسام ، استقر بصرها على بربارة ، كي - هكذا خيل إليّ - تتحاشى النظر مباشرةً إلى زوجها ، الذي بان عليه تأثير بربارة ، الذي يجرى اختباره الآن ، بصورة حرجة ، عملية ، « سمعتْ أشياء عجيبة عن الورشة ، لكننا طبعًا ، عارفان ، أنه من الناحية المثالية يتعذر قبولنا فيها » .

صممت بربارة على تمني هذا القبول ، صممت ، الواقع ، أنها سوف تقبل في أحد الفصول الدراسية ، مهما كانت تلك الفصول ، ببساطة ، عليها أن تهيئ نفسها لذلك . أما أنا ، فلم أكنْ قد صممت بعد . لاح لي أن الأحداث جرتْ أسرع مما شئت ، عزمتُ أن أكون مسلحًا بجوابي ، حين تحين لحظة الإجابة .

« طيب ، طبعًا ، » قال صول ، ألقى عليّ نظرةً قصيرةً - لم يحببنى أكثر مما أحببته - « سنكون غير مخلصين في واجبنا ، في مسئوليتنا تجاه الجمهور المسرحي ككل وفي الأخص المسرح الأمريكي ، إذا لم نصرّ على أن يكون أولئك الراغبون بالعمل معنا ذوى مستويات رفيعة . يشعر أناس كثيرون أن مستوياتنا رفيعة بصورة مثيرة للسخرية ، سمعتُ أن الناس في بعض المحافل يتهموننا بالقسوة والفظاظة ، هذه التهم لم تصبنا باليأس والإحباط لحظة ، واصلنا العمل بمثابرة ، حققنا ما نعتبره ، وهذا ليس تقييمنا فقط إذا جاز لنا القول ، نتائج رائعة ، حصادنا لم يهملْ ، بل لاقى التشجيع القوى ، كنا نعتزم الاستمرار في النور العظيم الذي تحقق بفضل تجربتنا الطويلة » .

توقف عن الكلام ، راقبته : أظن أن فمي كان مفتوحًا . قال : « الآن ، أنت وصديقك ، السيد .. » .

قلتُ له : « برودهامر » .

« أجل ، أنتما شابان ممتعان ، تركتما فينا تأثيراً كبيراً جداً ، نوعيتكما » ، منَّ على بربارة ببسمة حليمة ، خجلى ، « شبيهة بنورس النوء الذى يمعن فى الطيران خلال العواصف ، لم تكون حتى الآن ، ويشرفنا أن تكون ، انطباعًا واضحًا عن صديقك ، برودهامر ، كما كوَّناه عنك ، هذا لا يعنى أننا نعتبره أقل إمتاعاً » ، حاول أن يبتسم لى ، إلا أنه أخفق ، « مناهجنا فى الورشة قاسية جداً ، لا يقدر الجميع أن يجلبوا إلى الورشة الخلفية الضرورية ، الخلفية التى تمكنهم من تحقيق التمرين الضرورى ، نحن نشعر بالمسئولية ، كما قلنا قبل قليل ، ليس تجاه الجمهور المسرحى بصورة عامة فحسب ، بل تجاه كل من يعمل معنا ويحاول أن يتعلم منا » ، لزمت الصمت من أجل بربارة ، انتهيتُ من شرب الكأس ، ومن أجل بربارة ، لم أنهضْ من الأريكة كي أسكب لنفسي كأساً أخرى ، انحنيتُ إلى الأمام ، كأسى الفارغة فى كفى ، تعمَّدتُ أن أكون فى وضع المغادرة الوشيكة ، « أنتِ سيدة شابة فى غاية الجاذبية ، لكن ما الذى يجعلكِ تشعرين أنك مؤهلة لأن تصبحى ممثلة » ؟

« سألتنى من قبيل هذا السؤال » ، قالتْ بربارة ، بهدوء شديد ووضوح ، «كي توقعني فى الفخ ، أو لتختبرني ، أنا أرفض الوقوع فى فخك ، يلزمك أن تهبنى علامات جيدة لاجتيازى الامتحان الأول ، أنا ممثلة لأننى أعرف ذلك ، أنوى أن أبرهن ، سوف أبرهن ذلك ، سأبرهن لك ، سأبرهن لك عاجلاً أو آجلاً ، الواقع ، وقتما تشاء ، وقتما تقرر » .

« هذه فتاتى » ، قلتُ ، بدا ذهول طفيف على صول ، لم يغضب ، شرعتْ لولا تراقب بربارة بشيء ما فى عينيها الزرقاوين ، البراقتين ، الصريحتين ، مما جعلهما تبدوان مغشيتين ، داكنتى الزرقة ، يمكننى أن أعده (أى الشيء) تعبيراً عن الصبر ، نهضتْ ، تطلع إلىَّ صول .

سألنى قائلاً : « ما هى مؤهلاتك على ما تظن » ؟

أجبته : « أظنك رأيتها » ، ابتسمتُ ، « أحتاج إلى كأس أخرى ، أنا على يقين من أنك مدرك أنى غير واضح كالآنسة كنك بسبب الفارق الكبير بين خلفيتينا » .

قالتْ لولا باعتدال : « أنتَ مازلتَ شابًا ، لكنك تملك العزيمة » .

« هكذا يولد داكنو البشرة ». قلتُ وعدتُ إلى قنينة الويسكي . كان جوابي مريراً ، الغضب أخرجني عن طوري ، غضبتُ من نفسي لأنهم أغضبوني . أسقطتُ قطع الثلج بتهور في كأسي. بتهورٍ سكبتُ الويسكي فوق مكعبات الثلج ، أخذتُ جرعةً كبيرةً جداً ، وسريعة . حاولتُ أن أسحب بدني إلى موضع محتوم ، ثابت ، كي أعطل السيارة التي تهرب بي . أشعلتُ سيجارةً ، تركتُ الثلة خلف ظهري ، رحتُ أتطلع عبر النافذة . عرفتُ أن سلوكي كان صبيانيًا ، لعلي بدوتُ ، في نظر الثلة ، فظًا بصورةٍ مؤكدة ، لا يمكن تبريرها ، لم أثقْ بنفسي لحظتها ، إنني ألاقي عينًا بشريةً ، أو أستجيب إلى صوت بشري . لم أستطعْ معرفة أنني لا أعرف فعلاً - على افتراض أنني أطمح للسير في ضوء الوضوح والشرف - ما الذي فجّر هذا الغضب . رفضتُ التصديق أن يكون سببه الحقيقي هو صول سان - ماركواند : ماذا لو كنتُ حقا أضمر له تقديراً ضعيفًا كهذا ؟ إن معيار تقديري ، كشف ، بصورة قاتلة ، عن نفسه من خلال مقدار لا مبالاتي - هذا المقدار كان صغيراً ومخجلاً في الواقع. هاأنذا أقف عند نافذة منهاتن ، مهتاجًا ، دون هدف محدد، وهو أمر سيئ : لكن الأسوأ أن أكون مرغماً على مساءلة نفسي ، بصورةٍ بائسة، الآن ، عن أسبابي الخاصة، فأكتشف أن ليس لي سبب واحد ، أو ذلك السبب على ما أظن ، هو الذي جعل كأس مذلتي يطفح ، وأكتشف أن ليس ثمة سبب يجعل عقلي - طبعًا ، ما أعنيه أيضًا التقدير الذي تمنيتُ أن أمتلك فيه الحق بالمحافظة على رباطة جأشي - لا يرفضه فوراً وبصورةٍ راشحةٍ بالازدراء . لم يحدثْ - أليس كذلك ؟ - أن أتيت أفعال العالم القذرة بصورة حمقاء ، ذليلة ، من أجل ذاتي ، وأن أسمع لرد فعله . شديد التعقيد ، الأعمى ، عديم الشفقة تجاه حقيقة لوني وأن يصبح رد فعله هذا عائداً لي أيضًا . كيف يتسنى لي أن آمل ، كيف سأستحق ، تحرير ذاتي ، إذا ما أصبحتُ سجان نفسي ، بملء إرادتي أدرتُ المفتاح الذي أغلق الأبواب الضخمة ؟ هو ذا الغضب يستولي عليّ ، هو ذا ، يتظاهر بالخمود ، لكنه لم يهجعْ ، فبمجرد لمسة ريشة يبدأ بالعويل والصراخ ، ليس له مقدار ، ليس له مقياس ، ليس له حدود ، ليس له عدالة : كان يمثل صورتي الفوتوغرافية الأم . رشفتُ كأسي المترعة بالويسكي ، تطلعتُ إلى النجوم ، تأملتُ المتنزه ، الذي كان عديم الشكل ومتكلف العظمة وسط العتمة ، ينطلق بالأمان ، بالفراغ ، بالبرد ، بالماء الشافي - يبدو أنه

ينطق بالإمكانيات من أجل الروح الجريحة، اليائسة التي من الجائز أن تبقى إلى الأبد، بالنسبة لي ، بعيدةً عني ، حلماً معتماً يحجبه الظلام ، نسيم خفيف اصطدم بجبهتي الأثيوبية . يا إلهي ، في هذا الموقع الباعث على اليأس هل أمدُ إليك يدي الأثيوبيتين ؟ لكنني أحسستُ أيضاً أنني عنيد ، آملاً أن أكون مذعناً ، مع ذلك ، إنني غير قادر على تقبل مصطلحات أية تسوية ممكنة يقترحها الله الذي أمدّ يدي إليه متضرّعاً ، سيرى الباري يديّ ، طاقتي الضعيفة ، اليائسة كلها ، سيرى فيهما ، في يديّ ، سفك الدماء الرهيب . كلا ، لي ما يكفيني من مشيئة الله - أكثر من كفايتي ، أكثر من كفايتي ، الرعب ملأ منخريّ ، أُصبتُ بالغثيان لدى سماعي الاسم المنقوع بالدم ، مع ذلك ، أُرغمتُ على معرفة أن هذا الرعب ، بالذات ، قد تمم واقعيته وأبطل كفري .

بدأتُ أدرك القياسات التي لا توصف للفخ الشامل . أنا آدمي ، أيضًا ، انكشف عرقي كـألمي - ألمي - وغضبي ليس له سبب ، لم يذعنْ لهيمنتي ، إلى أن تم تعيين مقدار ألمي ، إلى أن أصبح ألمي محاصراً بالتلاحم والسلطة التي أستطيع أنا وحدي توفيرها ، هذا الاحتمال ، احتمال أن أخلق لغتي من الألم الذي أكابده ، أن أستخدم ألمي في خلق ذاتي، التي كانت مقيدةً بوحشية في أعماقي، مثل بدء الحياة وبدء الموت ، مع ذلك لاحتْ لحظةً ، كأنها على طرف لساني . ألمي هو حصاني الذي يجدر بي أن أمتطي صهوته . سيجارتي تشتعل بصورة متقطعة خارج النافذة . راقبتها وهي تهوي من الأعلى وتموت . فكرتُ أن أرمي بنفسي خلفها . الألم ليس حصانًا وأنا لستُ راكبًا .

وقفتُ بالقرب من البيانو . ثمة فتاة غريبة ، لها عينان حقيقيتان في وجه حقيقي ، تراقبني باسمةً . «ذهبت بعيداً جداً» قالت. أجبتها : « نعم » أدخلتْ السرور إلى قلبي . أنعشتْ قلبي : تبادلنا الابتسامات . « نعم ، لكنني عدتُ ، الآن » .

قالتْ : « مرحبًا بك ، مرحبا » .

أحسستُ أنني كالغلام . وددتُ أن أرضيها ، لستُ برفق لوحة المفاتيح في البيانو . « أتريدينني أن أعزف لكِ مقطوعة موسيقية ؟ أتريدين ذلك » ؟

أجابت : « أحب أن أسمع » .

جلستُ . أخذتُ كأسي . وضعته فوق البيانو . انحنت هي على البيانو . ابتسمتْ لي كالشمس . أحسستُ بالحرية . قلتُ لها : « أنا لا أعزف بصورة جيدة جداً . ولا أغني بصورة جيدة جداً . والأكثر من ذلك .. تغير صوتي حين أصبحتُ غلاماً كبيراً » . ردتْ رأسها إلى الوراء . مثل مهرة صغيرة في مرج مغمور بأشعة الشمس . ضحكتْ . فبادلتها الضحك - « لكنني أحب أن أجرِّب العزف بين حينٍ وآخر : الموسيقى تساعدني في أن أكون في تماسٍ مع ذاتي » . تطلعتُ إليها . هزتْ رأسها ضربت المفاتيح . « سأجرِّب الغناء . سأغني لك أغاني البلوز[1] . وبعدها إذا طلبت مني المغادرة فلن أبالي بالطرد أبداً » .

قالتْ : « لن أطردك . أنا على يقينٍ من أنك تجيد الغناء » .

قلتُ : « حسن . حسن إذاً » . رحتُ أغني أغنيةً أذكر أن كاليب كان يرددها . كان مغرماً بها . حين وصلتُ إلى الأبيات الآتية :

يا أغاني البلوز جننتني

ماذا عساي أفعل ؟

يا أغاني البلوز جننتني

ماذا عساي أفعل ؟

ما من أحدٍ أحكي له مصائبي

رفعتُ بصري ، فوجدتُ أن جميع من في الغرفة قد احتشدوا حول البيانو . حدقتُ في وجه بربارة - كانت تبتسم . كانت فخورةً بي . حدقتُ في الفتاة الجميلة التي قالت : « مرحبًا ! » . كانت تبتسمُ أيضًا . نظرتُ إلى صول . ضربتُ المفاتيح ثانيةً . سألت بربارة : « ما رأيك بمؤهلاتي ، الآن ، يا أميرة » ؟

قالتْ لولا : « مازلنا نتطلع إلى مؤهلاتك . لا يمكنك أن تتوقف الآن » .

قالت بربارة : « لو كنتُ في مكانك لواصلتُ الغناء » .

(١) البلوز : أغنية كئيبة زنجية الأصل . (المترجم)

« طيب ، إذاً » . قلتُ وغنيتُ أغاني أخرى . ثملنا جميعًا . استدانت بربارة مبلغًا من المال من السيد فرانك . انتزعتُ منه أيضًا قنينة ويسكي غير مفتوحة . كان ثملاً إلى درجةٍ لم يبالِ بها بذلك – أو ، بالأحرى – ثملاً إلى درجة لا يقدر فيها على تمالك نفسه ، لأنه بالتأكيد يبالي بماله وشرابه . صول . لولا ، بربارة وأنا كنا آخر من غادر الحفلة ، بربارة وأنا أنيقان أناقة أصيلة ، كافية وعندنا مال مستدان كافٍ كي نزور صول سان – ماركواند وزوجته ، بأدبٍ جم ، في شقتهما الحديثة في بارك أفنيو . تم التوصل إلى قرار يفيد بأن نعمل في «الورشة» ، صيف ذلك العام ، في نيوجرسي . في الواقع ، كطالبين مستخدمين . تعين علينا ، أنا وبربارة ، أن نتهيأ لاختبار صول ، الذي يرتجل سؤالاً أو اثنين ، يمليهما علينا ، نختار مشهداً أو مشهدين على وفق مشيئتنا ، حسب ما يظهر الصيف من مؤهلاتنا ، سيتم قبولنا في « الورشة » . كنا جد واثقين من أنفسنا ، وسعيدين جداً . السماء أرجوانية . الشمس تقف متأهبة ، وراء هذه الستارة ، منتظرةً التلميح بدخولها إلى المسرح ، حين وصلنا « زقاق الجنة » الآيل للسقوط ، حملتُ بربارة بين ذراعي، طوال طريق العودة إلى المنزل . أظن أننا ، حتماً ، نمنا ، معًا ، تلك الليلة – أو ذلك الصباح – ولكن جيري كان نائمًا في فراش بربارة ، وشارلي يشخر في فراشي . أيقظناهما ، فتحنا قنينة الويسكي ، وأخبرناهما بالنصر الذي حققناه ، في ذلك الصيف ، في ليلةٍ واحدة ، بربارة وأنا ظهرنا في مسرحية «رجال وفئران» . لعبتْ بربارة دور زوجة كيورلي ، أما أنا فمثلت دور كروكس .

الآن ، بربارة ، وكان حمرة الغروب هي التي أتتْ بها إليّ ، انسلتْ بهدوء مثل حلم يقظة ، إلى حجرتي في المستشفى .

« مرحبًا ، حبيبي » قالت ، جاءت إلى سريري ، قبلتني ، « كم هو جميل أن تعود إلينا » .

« إن سفرك يستحق فعلاً هذا القول الجميل » .

نظرتْ إليّ ، وقالتْ : « أنا على يقين ، ذات يوم ستكتشف سبلاً أقل تطرفًا في إعادة الطمأنينة إلى قلبك » . ابتسمتْ ، « أنا لم آتِ لألقي عليك محاضرة ، وعدني الدكتور إيفين أن يقوم بنفسه بهذه المهمة ، هو رجل جد لطيف . ألا تعتقد ذلك » ؟

« جد لطيف . هل حدثتيه عني كثيراً » ؟

« لم أحدثه أكثر مما أرغب . بل حدثته أقل مما أعرف بكثير » . ضحكت . سارتْ إلى النافذة . لستْ أزهاري . « أتمنى أن تكون الممرضة عارفة بأن هذه ينبغي إخراجها من هنا ليلاً . يمكنني القول . هي لا تبدو ذات معرفة واسعة . هل تريد أن أقرأ بعض البرقيات التي بعثوها إليك ؟ يبدو لي أن هؤلاء الرسل الصامتين يكنسون الغبار في هذا المكان . يلزمني أن أتحدث إلى الممرضة » .

« دعيها وشأنها . هي فتاة لطيفة » .

« هي سرعان ما تنذهل بالشهرة . تطلعتْ إليّ كأنني مزيج من الملكة فكتوريا والسيدة أكس . الله وحده يعرف أية كوابيس لذيذة في ذينك النهدين المكتنزين ، المحجوبين . بطبيعة الحال . هي لا تستطيع أن تؤدي عملها بشكل صحيح » . التقطتْ بربارة البرقيات ، وعادت إلى السرير .

الزمن لم يؤثر في هيئة بربارة كثيراً . وعلى حد قول أحد مخرجيها ، إن من يعتليها لا يشعر سوى بعظامها البارزة . الزمن أوهن سحنتها وجعلها باهتة اللون : التمثيل على المسرح جعلها تغيّر تسريحة شعرها مرات كثيرة : اختارت هي لون شعرها الحالي حسبما تمليه حاجة الدور الذي تمثله - لعله قريب من لونه الأصلي الذي لن تستطيع استعادته ثانيةً - مع أنه لا توجد فيه خصلات فضية حتى الآن ، ثمة ، جدائل فضية يمكن تحسسها . أناقتها تتأرجح من حالة إلى أخرى ، أناقتها قديمة أيضًا : لعل الأناقة قديمة دومًا . ارتدتْ هي ملابس فاخرة ، داكنة ، ذات دبوس زينة ثقيل ، باهت اللون ، عند الرقبة ، شعرها مشدود بقوة إلى الأعلى ، بتسريحة دورها المسرحي . هي تجعل المرء يفكر ، لا أدري ما السبب . في الكآبة وسرعة الزوال : هي تدفع المرء للتفكير في الزمن . لاحتْ روعتها كأنها منتزعة من الزمن انتزاعًا ، بصورة عديمة الشفقة ، أظهرتْ روعتها وبهاءها بتلك المعرفة ، بذاك الوقار ، بتلك الارتعاشة التي قلّما يدركها المرء . يسائل المرء نفسه كيف تتحمل هي هذه الرقة. هذا العبء عديم الشفقة . هذا العجب يعزى إلى قوتها كممثلة . أضحتْ بربارة ممثلة ممتازة - هي أفضل ممثلة في المشهد الذي يُعد غير جذاب. حال معرفتها أن المشهد غير جذاب،

لم يترك ظهورها على المسرح أثراً طيباً في نفسها . حاولتْ أن تقلل من ظهورها على الخشبة . كانتْ تتمنى أن يكون لها تأثير ، كأيّ طاهٍ أو نجار جدير بالاحترام . برغم أنها تعرف جيداً أن ليس لها أية فرصة للعمل في هذه المهن . هذا العمل الفردي جرّدها من تكلفها . طبعًا . من ناحية أخرى ، السطوة التي استطاع بواسطتها هذا المجهود محاصرتها، جعل الكثيرين يصرّون على أن تكلفها غدا ثابتًا بصورة مشئومة . علاوةً على ذلك ، شكل سلاحها المثير . مضتْ بربارة في تأرجحها . بدتْ وكأنها تصغي للحياة ، وكأن الحياة هي أكثر المحتالين وسامةً وسحراً : أدركت جيداً أنها خُدعتْ ، مع ذلك ، تستمر هي في إعطاء المال من أجل جسر بروكلين . لم تحصلْ على الجسر ، طبعًا ، إلا أنها تعلمتْ كيف تضحك . الغضون الصغيرة جداً في وجهها ناتجة عن الضحك والخسائر معاً . إذا واصلتْ الحياة خداعها إلى الأبد ، فإن بربارة قد صممتْ على عدم الاكتفاء بعدم الشكوى فحسب ، بل على أن تتخذ من تمثيل الحياة درساً محسوساً وأن لا تحتال على الحياة .

« كيف حال العرض المسرحي » ؟

« أوه ، على ما يرام . مازال بديلك يتخاصم مع كل رجاله البيض وكل النساء البيضاوات .. لكن .. أوه ، حسن ، يمكنك أن تسمع صوته من الضفة الثانية لنهر هدسون ، هو لا يصطدم بالأثاث . بعد الآن . هو الشخص الوحيد الذي لم يفتقدك . هذا أمر طبيعي » . فتحتْ إحدى البرقيات . « أتعرف امرأةً تدعى جوان نيلسون » ؟

« كلا » .

« حسن ، هي تعرفك وتتمنى لك الشفاء العاجل » . فتحت برقيةً أخرى .

« هذا شخص آخر يدعى برادلي تمكينز ، يتمنى لك الأمنية ذاتها . أتعرفه » ؟

« لا » .

«تركتَ فيّ أثرًا بليغًا لأنك من طراز فريد نوعًا . ولا عجب ، فأنتَ متحجر القلب» . فتحتْ برقيةً ثالثة . « أوه ، هذه البرقية من مارلون .. هل تعرفه » ؟

« آه ، نعم . هو صديقي من أيام الشباب » .

« أظنه يتمنى لك فعلاً الشفاء العاجل . هو يتمنى الشفاء العاجل لجميع المرضى الراقدين » .

« وأنا أيضاً » .

« نعم . طيب . ليس لدينا صلاة . يا حبيبي » .

« كيف حال القوم » ؟

« القوم في حالة سيئة . ينبغي عدم مناقشة أي موضوع مع إنسان مريض مثلك.. أو حتى مع إنسان سليم معافى » . ابتسمتْ . « هي ذي برقية من لولا . مظاهر خادعة ! » .

قلتُ لها : « أرسل كريستوفر سلة الفاكهة » .

رفعتْ بصرها . تبدَّل الضوء في الغرفة . على ما يبدو : أو دخل الغرفة ضوء أقوى من حمرة الغروب . لعل وجه بربارة . تلك اللحظة . هو الذي جعلني . أخيراً . أتقبل الحياة وأذعن إليها . « حقًا ؟ أوه . دعني أرى برقيته » . سلمتها برقية كريستوفر . قرأتها . ضحكتْ . « أوه . تلك الأيام السود . إنه لن يتبدل أبداً . كريستوفر هذا » . شرد ذهنها عني . رصدتُ وجهها . كنتُ أعرف وجهها جيداً . لكنني الآن لا أعرفه قط. كان وجهها مفعماً بالثقة بصورةٍ لا تصدق . مبتهجاً بالنصر . كان في عالم آخر . عالم يتكلم بلغة أخرى؛ في الحقيقة ثمة شيء مخيف في وجه المرأة. مع ذلك – ماذا يسعني القول ؟ – الطقوس الغامضة التي شاهدتها هناك . تضمنت عونًا لي . ووعداً باسترداد عافيتي . «كريستوفر العزيز» . خفضت بصرها ناظرةً إليَّ . « ليو . أحسب أننا فعلنا شيئًا نادراً جدا » . ابتسمت . لا يمكنني وصف تلك البسمة . لم تكنْ بسمتها حزينةً ولا مرحةً ولا الاثنتين معًا : هي بسمة تنطق بالسفر . لا يمكنني وصفها لأنني لم أستطعْ فهمها . تكلمتْ بعدئذ بعناية تامة . بدت كأنها تتفحص كل كلمةٍ من كلماتها . « أحسب أننا نجحنا في استرداد شيء ما . أحسب أننا استرجعنا حبنا . من كان يخمن ذلك ؟ كريستوفر الأسود » ! عادتْ إلى أزهاري .

« أخشى أن يكون الوقت متأخراً جداً .. أن يكون ذلك بدون جدوى .. أن نكون قد خدعنا ونبذنا خبرة الناس عندنا .. فماذا يشترى المرء الذى بحوزته خمس دولارات فى مكتب البريد » . ضحكتْ . دارتْ على عقبيها . نظرتْ إلى ثانيةً . « طيب . شكراً لك ليو . فعلنا ذلك مرةً » .

سألتها، بقليلٍ من الرعب، وبشيء من التسلية والتأثير: «عمّ تتحدثين يا بربارة» ؟

« أتحدث عن رحلتنا الجهنمية . أتحدث عن كريستوفر . أنتَ تعرف عماذا أتحدث » .

قلتُ : « ربما . أنتِ عظمتِ المسألة » .

« ممكن . أما أنتَ فاستهزأتَ بها . هو ذا شأنك دومًا » . ضحكتْ برقة ثانية . بدتْ إزاء الستائر الصفر والضوء المعتم المتبدل شبيهةً تمامًا ببربارة « زقاق الجنة » - مع ذلك ، تلك البسمة كلفتها كل شيء - أضحتْ كئيبةً متجهمة الوجه ثانية . « أنا وأنت ، قطعنا شوطاً طويلاً . هذه الكيلومترات» . قالت . نظرت عبر النافذة . دقيقةً ، لم أغلقت مصاريعها . نظرتْ إلى ساعة يدها . برهةً . الحجرة معتمة . أشعلتْ النور . « حسن ، يلزمنى الذهاب إلى المسرح . لابد من مواصلة العرض » .

قلتُ : « حتمًا الأيام التى قضيتيها مع كريستوفر كانت عسيرةً جداً » . تطلعتْ إلىّ . « أوه . كانت قاسية . لم تعتبر كل الأمور سهلة ، يسيرة ؟ تلكم الأيام كانت عسيرةً عليكَ ، أيضاً » .

قلتُ باسمًا : « لكننى أحسستُ دومًا ، أنكِ لم تفعلى شيئًا كى تستحقى هذه المشقات كلها » .

« لكنك فعلت . طبعاً ! » ضحكتْ من جديد .

« شعرت دوماً أنك تستهزئين بى . غير أنى لا أعرف السبب » .

قالت : « لأنك إنسان مضحك » .

« طيب . أحسنتِ يا مهرجة »[(1)] .

(١) بالفرنسية فى النص الأصلى . (المترجم)

« طيب. هذا صحيح . حين تكون مضحكًا جداً لا ينتابني الضحك . أنا أسفة لكل الأشياء التي لم أفهمها . ولكل الأشياء التي لم تفهمها . ما لمْ تفهمه أنتَ ، بدا لي واضحاً وضوح الشمس . ليو ، أنت تود دوماً أن يعذرك الناس . لكننا ، أيضاً ، نحتاج إلى من يعتذر منا . عزيزي ، نحن نحتاج الاعتذار ، غالبًا » . – ابتسمت – « حتى من رجل بائس مثلك » . ثبتت نظراتها عليّ ، وبقيتْ ابتسامتها عريضة .

قلتُ بصعوبة ، بعد لحظات : « شيء حقيقي . يا سيدتي العزيزة . شيء حقيقي . لكنني أسائل نفسي لم أشعر بحزنٍ وكآبة شديدين » .

قالتْ بطريقة جافة : « في اعتقادي ، إن حالتك الصحية هي المسئولة عن ذلك . بقيتُ فترةً أطول مما وعدتُ بها الدكتور إيفين ». انحنتْ . طبعتْ قبلةً على شفتي . « وداعًا . هل ترغب أن أجلب لك شيئًا معينًا يوم غد » ؟

« العناوين الرئيسة فقط من الصحف السياسية » .

« تبدو ، الآن ، كأنك كريستوفر » .

« سيكون فخوراً بي » .

« هو ، دومًا فخور بك . هو لا يفهم لم لا تفهم أنتَ ذلك . مر كريستوفر بظرفٍ قاس ، أيضاً » .

سألتها بغتةً : « كيف استطعتِ أن تتحمليني طيلة هذه السنوات » ؟

قالت : « أنا مغرمة بك . الواقع أنا لا أزعم أنني أمام خيارات كثيرة فيما يتعلق بهذه المسألة » . نظرتْ إلى ساعتها ثانية . « ليو ، ينبغي لي الآن الإسراع حقًا . إذا كانت العناوين الرئيسة للصحف قليلة غداً ، فهل تريد شيئًا آخر » ؟

« أنتِ تثيرين دهشتي » .

« لي الشرف أن فعلتُ هذا . أنا واحدة من أناس قلائل بقوا في العالم ممن لا يزالون قادرين على إثارة الدهشة . إثارة دهشتك . ليكنْ بالك خاليًا ، ليو ، تناول عشاءك ، اقرأ قليلاً ، ونمْ . حين تفيق من نومك ستجد أن العالم مايزال هنا ، ومايزال أمامك الكثير من الأعمال . طابت ليلتك » .

« طابت ليلتك » .

غادرتْ بربارة ، أغلقت الباب وراءها برفق .

لكنها غادرتني ، حين كانت بيسبي سميث التي أحببناها حباً جماً تحاول إخبارها بكل شيء عن مزاجي . يرغب كريستوفر يوماً أن يرى إفريقيا : إن أحد الأسباب التي جمعتنا كصديقين هو الرغبة ذاتها . قلتُ لها مرةً إنه أسود من غير ريب وبصورة كافية بحيث يبدو إفريقياً . بل قلتُ له إن هيكل وجهه ذكرني بالوجوه التي رأيتها في داكار . سحره هذا القول : الذي كان يعني أنه منحني سلطة السحر لحظتها . لم أطلبْ تلك السلطة . هي تخيفني . أرعبه خوفي . جعله فظاً : لأي فردٍ في هذا العالم يلتفت إنسان مثله إن لم يلتفت إلى أخيه الأكبر ، الأسود مثله ؟ بدأتُ أفهم ، مع أنني لم أتمنَ أن أفهم ، صحة ادعاء كريستوفر .

إذا كان الادعاء صحيحاً ، كما أظن ، بأن الناس يهتمون الواحد بالآخر على أمل أن يخلق أحدهم الآخر ، فمن الصحيح تماماً أن الشبان الذين لم يخلقوا بعد يلتفتون إلى الكبار كي يخلقوهم . هكذا كل من منح سلطة السحر مذنب بشيء ما أكثر خسةً من الخيانة كلما أخفقت في استخدام السلطة مع من لم يخلقْ بعد ، مع العاجزين ، الشبيهين بالطيور التي أتتْ حديثاً إلى الدنيا . حسناً ، نعم ، فهمتُ ، أخيراً ، ما هو المطلوب مني. يجدر بي أن أبني عشاً من المواد التي أستطيع الحصول عليها بسهولة ، عليَّ أن أكون متأهباً لحماية العش وأن أضحي بحياتي من أجل ذلك ، أن أطعم هذا الطائر وأحافظ على نظافته ، وأحافظ على نظافة العش : أنتظر اللحظة التي يستطيع فيها الطيران ويرغم ذينك الجناحين الخائفين على مقاومة الهواء .

من ناحية أخرى ، إن أي تهديد لسمرة الشباب ، يعني ببساطة تهديداً للحياة ذاتها ، يرد عليه الشباب بالعزيمة التي لا تلين إلى القتل .

أدركتُ ذلك أول مرة – من خلال كريستوفر – في اجتماع حاشد ، غريب ، في مركز نيويورك . احتشد آلاف الناس في متنزه قرب سيتي هول . كنا هناك احتجاجاً على الإساءات الجارية في المدينة (التي يتعرض لها الناس أيضاً) ضد الفقراء ، وعديمي الحماية ، والذين أصبحوا على هذه الحال ، بفعل لا مبالاة وفساد

المجلس البلدي ، وبسبب حقائق أسلافهم أو لونهم . رجال الشرطة وفروا الحماية للتجمع الجماهيري ، إلا أننا هاجمناهم . جاءوا إلى هناك كي يتأكدوا من أن الضرر الذي كنا نصر عليه لم يلحقْ بأخلاق المدينة ولم يتحول إلى ضرر بالمصلحة العامة للمدينة .

كنتُ أحد المتحدثين في هذا التجمع . يلزمني أن أكون هناك ولكن ليس كمتحدث ، بل كأحد المضطهدين أجلسوني على المنصة الخشب لأن اسمي يمكن أن يجتذب حشود الناس . لم أكنْ قادراً تماماً على اعتبار أن اسمي كان ملكاً لي ، هذه الحقيقة عنتْ شيئاً مختلفاً بالنسبة لكريستوفر ، بالنسبة للحشد أيضاً : لكنْ الفرصة والواجب يمكن حملهما ، غالباً ، معاً . جلستُ ، هناك ، على المنصة ، قلقاً ، ساخطاً ، لستُ مرتاحاً تماماً مع الأشخاص البارزين ، الذين لم يكونوا بالتأكيد مرتاحين معي . موقفنا المشترك ، حقيقة لوني ، جمعانا معاً في هذا المكان : حيث يمكننا أن نتحدث وكأننا شخص واحد . أما قوتنا ، إدراكاتنا فقد كانت متباينة . رفضوني في أمور شتى ، أو ربما في جميع الأمور ، عرفتُ ذلك ، هم أيضاً عرفوا أنني أرفضهم في أمور كثيرة . كنا مسئولين بصورة مشتركة ، عن شيء أعظم بكثير من اختلافاتنا . لا يمكن إلقاء لوم اختلافاتنا على إنسان معين ، كما أن هذه الاختلافات يجب أن لا ترقى إلى مستوى الخصومات الشخصية التي ليست من طبيعتنا . اختلافاتنا يمكن اختزالها إلى اختلاف واحد : وهو أنني فنان . هذه حالة مثيرة للفضول ، الناس غير القادرين على أن يصبحوا فنانين ، وحدهم ، الذين لا يتصورون أنهم يرغبون أن يصبحوا كذلك . لا يغدو المرء فناناً بمجرد رغبته الشخصية ، بل - بصعوبة - يمكن أن تساعده أحد عناصر المساعدة (علاوة على الرعب الذاتي الذي لا يوصف) وهي : حسد العالم ، غضب العالم ، تساؤل العالم . نعم ، نحن المحتشدين على المنصة ، متحدون في سخطنا الاجتماعي ، متحدون في ألمنا ، متحدون في مسئولياتنا ، متحدون في حاجاتنا إلى التغيير - حسناً ، إن لم يكنْ تغيير العالم ، فعلى الأقل ، تغيير حالة بعض الناس في العالم : لكن كم هي مختلفة وجهات نظرنا إلى العالم ! لم أستطع أن أستقر في بيت في هذا العالم ، لا أستطيع أن أتخيل أنه سيكون لي بيت ذات يوم ، لا أرغب أن يتحمل الآخرون إبعادي ، هو ذا السبب الذي يجعلني أجلس الآن على

المنصة . مع ذلك ليس هو بالأمر المتناقض ظاهريا أن يجعلني إبعادي وحده أجلس هناك ؟ لا أستطيع أن أجعل من هذا التناقض الظاهري شيئًا سطحيا ، لا أستطيع أن أطرقه إلى الشكل المطلوب . كل إنسان يرغب أن يكون له بيت في هذا العالم الواسع .. أيضًا ، أرغب .. أو ينبغي لي أن أرغب . كانوا على صواب فيما يتعلق بهذه الرغبة ، أنا أيضًا كنت على صواب : إنه امتيازنا ، ناهيك عن كونه طموحًا مشروعًا لنا ، أن نجعل العالم مسكنًا آدميا لنا جميعًا ؛ مع ذلك - مع ذلك - أليس من الممكن أن يتخلى النبلاء العظام ، زملائي الشرفاء، الذين لا يقدرون بثمن ، من خلال عدم مقدرتهم على أن يتصوروا أن رحلة كهذه هي رحلتي ، عن بعض طموحاتهم فائقة الأهمية ؟ لم أعرف . تأملت وجه كريستوفر . لم يثقْ هو بأحد من الجالسين معي ، معظمهم يكبرني بخمس إلى عشر سنوات ، ويكبرون كريستوفر بعشرين إلى ثلاثين سنة . ما من شيء فعلناه أو لم نفعله بقادر على إنقاذه .

ثمة فتاة سوداء ، صغيرة ، على المنصة ، هي أحد أعضاء جوقة المرتلين صغار السن من كنيسة بروكلين . كانوا يرفعون عقيرتهم بالغناء . كنتُ أعرف أنه حين تنتهي الجوقة يلزمني أن أشرع بالغناء ، وهي عادةً ، لحظة عسيرة للغاية بالنسبة لي ، لكن صوت تلك الفتاة الصغيرة أنساني الخوف من الظهور على الخشبة . كانت الجوقة تنشد أغنية عن الحرية . كان صوت الفتاة هائلاً ، عاليًا وعميقًا ، أسودَ . كانت هي قائدة الجوقة . كان صوتها في ذلك الفضاء المفتوح يتردد صداه في السماء ، والأشجار والجدران الحجرية للأبنية الحكومية ووجوه الناس الذين يفغرون أفواههم ووجوه رجال الشرطة الصارمة ، وكأنها تغني في كهف . غنت : « ستأتي الحرية ، أعرف أنها ستأتي . قال لي ستأتي » ، ومن جديد كررت الغناء : « ستأتي الحرية ، قال لي ستأتي . أعرف أنها ستأتي » . تأملتُ وجهها فيما كانت تغني . فتاة سوداء ، بسيطة ، ممتلئة الجسم ، مع ذلك هي جميلة جدا . ستأتي الحرية . سألت نفسي : كم يبلغ عمر الفتاة، وأية أغانٍ . ومع أية صحبة ستنشدها ، بعد سنوات عدة . ستأتي الحرية . هل ستأتي حقا ؟ من المؤكد . نحن الجالسين على المنصة ، لا نملك شهادة حكومية تضمن لنا الحرية - فبسبب الحرية التي لن تأتي كنا جالسين هناك في حالة هي مزيج من القلق والغضب والأبهة . ستأتي الحرية ، لم تأتِ إلى أمي وأبي ، لم تأت إلى كاليب ،

لم تأتِ إليَّ ، لم تأتِ إلى كريستوفر ، لم تأتِ إلى هذه الفتاة الصغيرة التي لا أعرف لها اسماً ، لم تأتِ إلى كل هؤلاء الآلاف الذين ينصتون إلى أغنيتها . راقبتُ وجه الفتاة الصغيرة ، لكنني رأيت وجه أبي ، وجه كاليب ، وجه كريستوفر . كريستوفر لا يظن أبداً أن الحرية ستأتي - سوف يسحبها هو من أعالي السماء ، أو يرفعها من الجحيم . فبالنسبة إليه انتهت الحفلة ، المأدبة التي سممتنا طويلاً . مع ذلك كان هو يراقب الفتاة الصغيرة ، يصغي إليها ، ببهجة، ومن جديد شرعتْ تنشلني كل تأملاتي . وسألت نفسي ثانية : ماذا عساي أقول حين أرتقي الخشبة . أردتُ الحرية - للآخرين حتى أكثر مما أردتها لنفسي : إن حفلتي ، مأدبتي ، التي كانت بصورة لم تخطر على بال كريستوفر انتهت أيضًا . سألتُ نفسي : إن كان بالإمكان ، ليس بالنسبة لي فحسب ، أن يعيش الإنسان دون أغانٍ . ما من أغنية تستحق الفخ الذي يهلك فيه الآلاف من غير الأحرار ، ما من أغنية تستحق ما بذلته هذه الفتاة من مجهود ، وما تبذله الآن ، وما تبذله من مجهود في المستقبل . ومع ذلك ، من غير أغنية هل يستحق سلوك كريستوفر مع الحرية أن يسكت جميع الأصوات ؟ أم أن ثمة أغانٍ جديدة آتية ؟ ماذا عساي أقول ؟ هذا السؤال شغل حياتي ومسئولياتي ولعله شغل حتى غرامي ، لكنه لم يعد يشغل إمكانياتي . كنتُ واضحًا . شعرتُ بالارتياح لأنني عرفتُ أنني لم أحزن بسبب هذه الحقيقة الخطيرة بصورة كافية ، بل أزعجتني مسألة كيف يتعين على أن لا أخذل هذه الفتاة الصغيرة وأن لا أخذل كريستوفر . ومهما يقع لي من أحداث فإنها (أي الأحداث) تغدو عديمة المعنى ما لم تساعدهم في التحرر . لكنّ ثمن هذه الحرية ، أكثر الصفقات طموحًا ، يمكننا العثور عليه فقط في محفظة جيب أدعي يومًا أنها ليست ملكًا لي . رحتُ أتصبب عرقًا ، رنَّ صوت الفتاة الصغيرة ، تراءى لي وجه كاليب ، ستأتي الحرية . طيب ، إذا كانت الفتاة تؤمن بذلك ، إذًا لابد من جعلها سهلة المنال ، مع أنها ، وهي الفتاة السوداء ، البسيطة ، ممتلئة البدن ، الجميلة ، وحدها من يقدر فعلاً على جعل الحرية أمرًا واقعًا .

حين انتهت الأغنية تأملت وجه كريستوفر ، أسنانه الكبيرة البيض في وجهه الأسود الضخم ، تأملته وهو يشبك ذراعيه الضخمتين السوداوين . ثم ، حين حل الظلام ، تغيرت ملامح وجهه ، صعد عريف الحفل ، أدركتُ بغتة ، بغثيانٍ قاسٍ ،

أن نورى قد حان. ارتعبتُ كل مسامات جسدي، ارتعبتُ بحياء ، انفتحت ، ثم انغلقت ، بيأس ، إلى الأبد ، رحت أتصبب عرقًا ، وجه كريستوفر هادئ جدًا وفخور . أنا شقيقه الأكبر ، غلامه ، أو رجلي ! كما نقول في هارلم : فتاتي الصغيرة لاحت في غاية الهدوء . أيضًا ، كأنها جالسة إلى وجبة غداء مكونة من فراخ مقلية . حين نهضت وسرت إلى المنبر الخطير أدركت أنها لم تتذوق الفراخ حتى الآن . ستأتي الحرية .

ثمة حقيقة في المسرح وثمة حقيقة في الحياة - يلتقيان ، لكنهما ليستا متطابقتين ، الحياة هي الحقيقة ، وليكن الله في عوننا . أما تلك الأقنعة التي يلبسها الفنان فهي وسيلته ليس للهروب من الواقع بل لمحاولة الاقتراب منه . من يصدق كلمة يقولها الأمير هاملت أو أوفيليا إن هو صادف هذين الزوجين غير السعيدين في حفلة كوكتيل ؟ إن عدم ارتكاب الخطأ ثانية في دعوتهما من جديد يعزى إلى أن قصتهما حقيقية ، ليست حقيقية بالنسبة للأمير وسيدته المجنونة ، بل هي حقيقية ، حقيقية ، لا تطاق ، قاطعة ، وإن أقنعة الفنان مصممة كي تجعل من الحقيقة كمًا يستطيع الفنان بواسطته أن يعيش ، أو من خلاله يأمل ، بواسطة مجهوده الحياتي ، أن ينال حريته . لكنني ، عصر ذلك اليوم ، واجهت الناس بقناع لا يمكن تمييزه - ربما ، في ذلك الوقت ، كانت أقنعتي لا تتميز عن وجهي - وكنتُ في غاية الخوف . لا أدري ماذا قلت . حاولت أن أكون صادقًا . حاولت التحدث إلى الفتاة الصغيرة ، وإلى كريستوفر ، وأن أختلس النظر ، إن جاز لي القول ، بين الفينة والأخرى ، من منبر يأسي إلى وجوههم ، وجوههم متألقة . بدت الفتاة وكأنها تتلذذ بوجبة الفراخ المقلية . سألتُ نفسي : ما إذا كنت محقًا في منحها وجبة الفراخ المقلية التي يمكنها أن تتذوقها . ربما ينبغي لي أن أمنحها وجبة غداء كي أجعلها تقلب المائدة وتضرم النار في المنزل . لكنني لم أشأ أن أجعلها تتقيأ أو تضرم النار . أردتها أن تحيا ، على أية حال ، لم تكن الحرية في متناول يدي . حين انتهيت من الغناء، تهلل وجه كريستوفر الأسود وجعل يصفق بيديه السوداوين الضخمتين . بدا وجهه كالشمس السوداء . هرعتُ إلى الفتاة الصغيرة ، بيدها كتاب التواقيع الأخضر . هذه الفتاة ذكرتني بكل شيء، تمنيت عدم نسيانه . أخذت كتاب التواقيع ، أمضيتُ ، كتبتُ فوق اسمي : ستأتي الحرية . كانت حماقة ، ذلك أنهم طوقوني على الفور وأوقعوني في فخ وأنا على المنصة التي طلب مني

رجال الشرطة مغادرتها . وددتُ أن أنزل منها ، لكنني لم أعرف كيف . لم أر أصدقائي الذين قادوني إلى التجمع الجماهيري . لم أعد أرى كريستوفر . لم أعرف كيف أصل إلى السيارة . ثم رأيت وجه كريستوفر ، الغاضب ، المرتعب ، وهو يحاول المرور عبر الزحام ليصل إليّ . وبلمح البصر ، وبنظرة مروعة ، رأيت ما رآه : إن ليو ، الذي لم يعد ملكًا لنفسه ، الذي كان ملكًا للناس في حالة ابتعاد الناس عنه فقط ، قد أصبح مطوقًا بجنون الناس الذي لا يمكن التحكم فيه ، قد أصبح في قلب الخطر . فهذا زمن السفاحين . لم يعرف كريستوفر ، ولم أعرف أنا أيضًا ، من هو ، الذي يعصرني ، متمنيًا هلاكي ، ولا من هو الذي يروم تنفيذ حكم الإعدام بي . شعرتُ ، أن الشرطة يدفعونني بعيداً عن المنصة : بدا لي وكأنهم يدفعونني بعيداً من منحدر صخري شاهق . وثب كريستوفر – بدت وثبته أقرب إلى الطيران – إلى أعلى المنصة ، حشر جسده أمام جسدي ، نشر ذراعيه إلى الجانبين ، بدا واضحًا أنه أعطى الإشارة توًا إلى خمسة آخرين ، لهم عمره وتاريخه ، الذين انضموا إليه ، شبكوا أياديهم ، كونوا حاجزًا بشريا ، وقادوني إلى السيارة ، التي كانت هي الأخرى مطوقة . استخدم كريستوفر كتفيه ومرفقيه بدون شفقة ، استخدم صوته أيضًا ، فتح باب السيارة ، اندس في جوفها أولاً ثم سحبني وراءه ، ثم تكوم اثنان من أصدقائه ، أغلقا باب السيارة بعنف ، هكذا أصبحت محميًا من كل الجوانب . سائق السيارة ومرافقه ، كلاهما أبيض ، وهكذا تعين على كريستوفر أن يصب جام غضبه علي بدلا من كل الأشرار البيض . لكنه نجح في أن يوحي إليّ ، بتلك اللغة التي يجيدها ، أنه حتى البيض في المقعد الأمامي لا يمكن استثناؤهم من الرغبة في قتلي . إن أكثر الأشياء حيوية بالنسبة لي هي رغبته العميقة في أن أبقى على قيد الحياة . لم يشبعْ ذلك غروري ، بل أخافني ، فتلك هي عاطفة غير شخصية حقًا ، وبرهنت على أنني أنتمي قليلاً إلى نفسي ، ما من أحد في ذلك الحشد اهتم به كريستوفر ، كما لم ينجُ أحد منه طيلة الوقت الذي كان يتوعد فيه الحشد – كما عبر عن ذلك فيما بعد : « أملي الوحيد » .

دخلتْ حجرتي الآن الممرضة ، معها صينية فوقها وجبة العشاء ، وشيء أسود مرعب اتضح لي فيما بعد أنه مذياع ترانزيستور . قالتْ : « الآنسة كتك ، جلبتْ

المذياع. نسيناه لأنك لم تفقْ إلى رشدك إلا اليوم ». فهمتُ من خلال مظهرها المهذب ، الحائر ، أن بربارة كانت قاسية معها بعض الشيء. كانت هي حائرة لأن ذلك يكشف - أو بالأحرى فشل في أن يكشف - أن اسمي بربارة كنك وليو برودهامر اللذين كانا بعيدين عن الأضواء ، لم تكن تعرف معبوديها ، لذا لم تعرف نفسها ، كانت تشعر باستياء شديد تحاول إخفاءه من خلال اهتمامها بالتفاصيل . في صمتٍ بارد استمرت خلاله ، بالرغم من كل شيء ، بالابتسام ، رفعت مسند الرأس ، رتبت الوسائد ، وسجنتني بالصينية . قالت بأسلوبها البناتي ، الراسخ ، الخالي من الأخطاء : « حاول أن تأكل الطعام كله » . التقطت بعض الأزهار « يجب إخراج هذه كلها ليلاً . سأعود حين تنتهي من تناول عشائك . بعدها ستتولى الأمر الممرضة الليلية . الجرس إلى جانب سريرك » . تركتْ الحجرة . هي فتاة صغيرة مسكينة مجروحة المشاعر . قررتُ حث بربارة في اليوم التالي على إدخال البهجة إلى صدر ممرضتي الصغيرة .

نظرتُ إلى طعام العشاء ، الذي لم يعجبني ، لكنني أرغمتُ نفسي على تناول الحساء وقليل من السلطة ، اضطجعتُ ثانية ، يقظاً - لا أعرف كم الوقت الآن - سألتُ نفسي : ماذا سأفعل مع حلول الليل ، القيّمون عليّ أو جسدي تنبأ بهذا الأمر ، فما إن سألت نفسي حتى غفوت :

كنت أنا وبربارة نلون اللافتات في سقيفة خشب ، سقيفة الأدوات في نيوجيرسي . بربارة غير بارعة ، كانت تضحك من عدم براعتها في العمل . كلما أكاد أنتهي من صبغ لافتتي ، تأتي هي بدلوها وفرشاتها وتتلفها . كلما تدنو مني تبدو كأنها تطوّقني ؛ بدت أعمق من الماء ، لا مفر منها كالهواء ، أحسستُ بالاختناق في النسيج اللزج ، القذر ، الذي غزلته بضحكاتها ، بدأت أغضب . قلتُ لها : كفى ، الآن ، يكفي عبثًا ! استمرت هي في الضحك . سفحتُ صبغًا أحمر على طول اللافتة التي لوّنتها . قلتُ لها : بربارة إن كررتِ ذلك؛ ثانية فسوف .. سوف ماذا ؟ سألتني ، ووثبت قريبًا جدا مني . ماذا ستفعل يا ليو ؟ بدت وكأنها تتوسلني . تغلبت على خوفي . سأقتلكِ ، قلت لها : قسمًا بالشرف . بدوتُ وكأنني أتوسلها ، أيضًا . وقعنا معًا في الصبغ القرمزي . ثم وقع شيء ما ، جرينا . كاليب يطاردنا . أتى صوته من خلف الجبال :

ماذا تفعل مع تلك الفتاة البيضاء ؟ ماذا تفعل ؟ قبض على كاليب ، وضربني بالإنجيل الخشب الضخم الذي كان يحمله بيده . لا شيء . كاليب . لا شيء . ضربني كاليب ثانية . رحت أبكي . هويت على ركبتي . ضربني كاليب على مؤخرة رأسي . صرخت . حاولت أن أزحف بعيداً عنه . زحفت عبر الماء الآسن الذي أمسى أعمق فأعمق . فجأة ، وجدتني في قاع البحر . ملأ الماء الآسن منخريّ . ملأ فمي . قاومت كي أنجو من الغرق . التفت كي أنظر إلى كاليب . يمكنني رؤيته عبر وشاح الماء ، كان واقفاً يراقبني ، الآن ، هو ، عار تماماً ، أسود وعار . مددت ذراعي لكنه لم يأخذها . صرخت وشرعت أغطس إلى الأسفل . أفقت من النوم .

كانت الممرضة ، بيدها الصينية ، واقفة تتأملني . قالت : « كدت أوقظك . يبدو أنك رأيت حلماً مزعجاً » .

لم أستطع أن أركز عليها نظري إلا بعد مرور ثانية : « أعتقد ، نعم » .

« هل ترى الأحلام المزعجة دوماً » ؟

« ليس دوماً . فقط عندما أكون قد فعلتُ شيئًا سيئًا .. كما في مسرحيات شكسبير » .

ابتسمتْ : « سأجلب لك حبة منوم » . قالتْ وانصرفتْ ثانية .

فتحتُ مذياعي . أصغيت إلى الأخبار ، برهةً ، بربارة على صواب . الأخبار لا تفيد المريض ، بل هي لا تفيد حتى المعافى . أدرت قرص المذياع . عثرت على راي چارلس . كان يعزف قصتي لي .

أقبل الشتاء ، طردنا ، انتهى بنا الأمر أن مكثنا في حجرتين في الطابق الأخير من بناية محبطة على حافة نهر هارلم ، ذكرتني موسيقى راي بهذا المنزل . مكثت فيه مدة طويلة بحيث أدركت أن لغتي مسلوبة – كدتُ أقول : إنها مخدوعة – مؤكد أنها قد أرغمت لأداء خدمة معينة . كان لكلمة « منهك » في تلكم الأيام ، معنى مختلف تماماً عما كانت تعنيه على الدوام : مثلاً ، كان والدنا « منهكًا حتى جوربيه القصيرين » . هذه الجملة تعني أن آماله قد تلاشت . ما من أحد ، يومئذ ، أراد أن أكون « كريه الرائحة » :

ذلك أن الرائحة الكريهة التي لا تطاق قد ملأت منزلنا ، رائحة المعركة . المعركة التي يشنها الحي وهو في خضم الموت . في تينك الحجرتين قضينا آخر أيامنا كأسرة . طرد والدنا من عمله ، ولهذا السبب طردنا من منزلنا : عثر هو على مهن غريبة ، عمل فيها يوماً أو يومين ، ساعد في شق طرق المدينة أو في كسح الجليد في مركز المدينة ، لم أر جليداً يكسح في هارلم ! ترك كاليب المدرسة – بسبب ذلك استبد الغضب واليأس بوالدي – لكنه لم يكسب أجراً أفضل من أجر والدي . بدأتْ أمي تعمل خادمة في مطعم (برونكس) . تحمل إلى البيت بقايا مطبخ الآنسة اني . والدنا لا يتناول الطعام الذي تجلبه أمنا إلى البيت . يقول هو : إن ذلك الطعام يجعله يغص . أعتقد أن هذا صحيح . كان عسيراً عليه أن يتقبل الحقيقة المرة بأنه لولا المال الذي تكسبه أمنا فربما أصبنا بالمجاعة التي تودي بحياتنا . صرتُ أعمل ملمع أحذية في مركز المدينة ، بعد دوام المدرسة . وفي نهاية الأسبوع ، أبيع حقائب التبضع أمام المتجر التنويعي ، وأبيع السلع الرخيصة في الشارع الرابع عشر. مضى عهد الراحة – ليس لأول مرة، بل لآخر مرة . لم يعد والدنا يحتسي الروم ، بل صار يحتسي نبيذاً شاحباً ، لزجاً ، حلو المذاق ، وأبيض .

شعرنا بالبرد ، بالخوف ، بالجوع . لكننا لم نيأس عدا والدنا . كانت أمنا رابطة الجأش ، شرسة ، صامتة ، يقظة . لكنها ليست كئيبة : كانت قد قررت أن تأتي بنا إلى ضوء النهار . أمامها أشياء كثيرة كي تراقبها ، ولديها أعباء ينبغي لها أن تتحملها . تتأمل أبانا، تصلي أن يأتي ضوء النهار قبل أن تنثلم روحه إلى الأبد ، تتأمل كاليب ، تصلي أن يأتي ضوء النهار قبل أن يتحطم أمله ، الذي هو شبابه ، إلى الأبد ، تتأملني سائلة نفسها : ماذا كنتُ أتعلم ، وسأشبه من حين يطلع النهار . يطلع النهار يوماً لكنه لا يطلع للجميع ، ولا يطلع في الوقت المناسب .

صندوق تلميع الأحذية ، حقائب التبضع ، كانت رموز نضوجي . الآن ، بدأت أتعلم ممن يكبرونني سناً أقل مما أتعلمه من أقراني ، ومن غرباء مركز المدينة المبهمين ، الذين تجعلني صفعاتهم على رأسي أرتد للوراء ، ومن ذوي العيون الثانية مثل قمم جبل مكلل بالثلوج . لم تكن إيقاعاتهم تضرب الأوتار الحساسة في داخلي . التساؤل الذي كنت أراقبهم به . النفور الذي أحسست به نوعاً بسبب بعدهم وبرودهم .

لا يحتاجان إلا لمسة واحدة كي يتحولا إلى عداء سرمدي . حاولت أن أكتشف القاعدة التي توحد هؤلاء القوم عديمي الإحساس[1] بصورة خاصة . توقعت أن تكون القاعدة هي القسوة (الوحشية) . لكنني لم أكن متيقناً . الواقع ، أقراني البيض لم يحيروني ، حتى حين كانوا يطلقون على الألقاب - كنت ، أيضاً ، أطلق عليهم الألقاب . كنا نتخاصم ، طوال الوقت ، أفوز تارة وأخسر طوراً - كنت أخسر عادة . أعتقد أنني كنت أخسر ، أنا محظوظ ، لأننا كنا نتشاجر شجاراً معتدلاً . ولم تكن الهزيمة تسفر عن حقد مسموم . على أية حال ، على الأقل بين حين وآخر ، كنا نتحد معاً ضد رجال الشرطة . آمنت من زمن طويل ، بأن الشرطة لا يمتلكون أية اعتبارات إنسانية . لكن الآخرين ، رجالاً ونساءً ، شباناً وشيوخاً ، باسمين غالباً ، قساة غالباً ، غير ودين دائماً - لو وقعت بين أيديهم ، فهل سيعاملونني مثلما يعاملني رجال الشرطة ؟ لم أكن متيقناً : لكنني كنت أخشى ما هو أسوأ . أما أقراني السود فكانوا يظنون أن تساؤلاتي حمقاء ، وتبرهن على أنني مغفل . تعلمت فولكلوراً حديثاً ، وهو أن لا أجرؤ على الإقرار بأنني كنت خائفاً ، أشاركهم الضحك على صورهم التي ظهروا فيها شبيهين بـ «بباي»[2] ، قوى العضلات ، يسكرون بزيت الزيتون ، يولون تفسيراتهم لاكتشافاتهم الجنسية اهتماماً جديا ، متسائلين : ماذا جرى لي ، مؤكد أنني لم أفعل شيئاً مما يفعلونه . الواقع لم أستطع تخيلهم وهم يفعلون تلك الأشياء . لكنني لم أقل هذا . لم أتحدث كثيراً كيلا أكشف جهالتي . لكنني ، دون أن أفطن ، شرعت أنظر إلى كل من حولي بطريقة مختلفة . أيفعل الجميع نفس أعمالهم ؟ هذا شيء لا يصدق .

اعتدتُ الذهاب لزيارة الآنسة ميلدريد ، بين حين وآخر ، إذا كان الطقس مصحوباً بتساقط الأمطار أو الثلوج ويتعذر عليَّ فيه بيع حقائب التبضع ، أو حين لا يكون هناك زبون يطلب تلميع حذائه ، أو حين أكون خائفاً ، أو حزيناً ، أذهب لزيارة الآنسة ميلدريد . فمن المحتمل ألا يكون ثمة أحد في منزلنا . كنتُ ألتقي كاليب هناك ، عادة ، غالباً ، حين أكون هناك ، ينصرم وقت طويل قبل أن يخرج كاليب ودولوريس من إحدى حجرات الرواق . كنت أسائل نفسي عن هذا الأمر . كنت أحب كاليب حباً جماً ، لذا

(١) ورد في النص الأصلي تعبير : عديمي الدم . وهو نفس التعبير الشائع في اللهجة المصرية . (المترجم)
(٢) بباي : شخصية شهيرة من شخصيات كارتون الأطفال . (هـ.م)

لا يتعين على أن أتساءل طويلاً . ذات يوم سأسأله : ما إذا كان الخبر الذى نقل إلى صحيحًا ، كنت أعرف أنه سيقول لى الحقيقة . حين أنظر إلى الماضى - الآن - يبدو لى أن الهواء كان عارفًا بأننا سنفترق ، لذا أبلغنا الهواء : كنا - أنا وكاليب - متعلقين ببعضنا بصورة لم تحصل لنا من قبل . كان يضايقنى ، كالسابق ، طبعًا لم يخجلنى ذلك . على العكس ، شعرت بالزهو . شعرت أنه بدأ يعاملنى كرجل ، ويأمل أشياء عظيمة منى . وفعلت كل ما بوسعى كى أجارى آماله : أن لا أكون طفلاً كثير البكاء ، أن أتشاجر مع من يتشاجر معى ، مهما كان خصمى ضخمًا (وأن أعطى كاليب ، فيما بعد ، اسم الخصم وعنوانه) ، أن أغتسل ، مهما كان الجو باردًا ، أن أحترم كبار السن (إذا كانوا ملونين) ، أن أكتب واجباتى بصورة جيدة كى يفتخر بى والدنا وأمنا . قال لى : إنه سيحاول إرسالى إلى الكلية : « لأنك أذكى منى ، يا شقيقى الصغير » . كان يعلمنى الملاكمة ، وحين يقبل الصيف ، سيعلمنى السباحة . أحيانًا ، أرافقهما ، هو ودولوريس ، لمشاهدة الأفلام السينمائية ليلاً . حين نستلقى فى سريرنا ، غالبًا ما يعطينى كاليب حلوى مسروقة ، ويتحدث معى ساعات طويلة . لا أتذكر هذه الأحاديث . أتذكر فقط نبرة صوته فى الظلام ، وأنفاس والدينا فى الحجرة الثانية ، تسمع النشاط الضارى للفئران فى المطبخ ، فى الجدران ، الذى يجرى غالبًا تحت سريرنا ، تأتى إلينا الموسيقى من شقة أخرى ، الضباب فوق النوافذ ، كثيف جدا بحيث لا يستطيع المرء أن يرى ما فى الخارج ، الهيكل الأسود للمدفأة النفطية التى كانت الآن مطفأة ، حفاظًا على الأمن ومن أجل ترشيد الاستهلاك ، تطوقنى ذراع كاليب ، رائحته ، طعم الشوكولاتة ، الصوت المكهرب للورقة التى تغلف الحلوى : « لستَ نعسان ، أليس كذلك ؟ » قد يسألنى ، فأهز رأسى أن لا . « حسنًا ، أخى الصغير » ، يقول متثائبًا : « نصبح على خير أنا وأنت » . يدعك رأسى بيده ، وهى عادة من عادات والدنا ، قائلاً : « طابت ليلتك ، ليو الصغير » . يتقلب إلى جهته ، قائلاً : « ضمنى جيداً ، الآن . أسمعتنى ؟ » أطوقه بذراعى ، أحرك ذقنى فوق ظهره علامة الإيجاب ، ونغفو .

ذات يوم - ذات يوم - كنت أجتاز الشارع المشجر خلال ذهابى إلى مركز المدينة لشراء حقائب التبضع وبيعها ، لاحظت أن المخزن الذى كنا نلتقى فيه أنا وكاليب مغلق بقفل ، لم يكن أحد فى المخزن ، وليس فى الشوارع أحد من الناس الذين اعتادوا

التجول قريبًا من المخزن . بدا هذا غريبًا جدًا ، بخاصة أن ذلك اليوم هو السبت . لكنني لم أسائل نفسي كثيرًا عن هذا ؛ يلزمني الذهاب إلى مركز المدينة . كل ما جرى طوال ذلك اليوم ، البارد ، البهيج ، لم ينذرني بما سيحدث لاحقًا . بقيت الشمس مشرقة طوال اليوم – شمس باردة – لم يضايقني أحد ، لم يضايقني أترابي ، لم يضايقني رجال الشرطة ؛ الناس عاملوني بلطف ذلك اليوم ، بعتُ كل حقائب التبضع التي اشتريتها . كنت أفخر بنفسي ، بشكل هائل ، حين أركب قطار الأنفاق في طريقي أوبتي إلى البيت . لم أفكر بالتوقف عند منزل الآنسة ميلدريد ، إذ يتعين عليّ تسليم النقود التي كسبتها إلى أمي .

لكنني حين بدأت أصعد درجات السلّم المؤدية إلى منزلنا ، همس لي شيء ما ، شيء ما همس لي ، مصيبة . همس لي في ظلمة الرواق – كانت الأنوار مطفأة – جاء الهمس من الجدران – أدركته فجأةً – من الصمت . هذه السلالم ، هذه المنبسطات ، لم تكنْ هادئة هكذا من قبل أبدًا . صعدت السلالم بسرعة . دفعتُ باب منزلنا ، ففتح فورًا . كان مغلقًا دومًا . نظرتُ إلى أبي وأمي ، الواقفين في وسط الغرفة ، يتطلعان إليّ .

سألتني أمي : « أرأيت أخاك » ؟

أجبتها : « لا . أتيت توا من مركز المدينة » . أخرجتُ النقود من جيوبي : « هي ذي » . لم تر النقود ، لم تأخذها . بقيتُ ممسكًا بها . تفاقمتْ كآبتي ، شيئًا فشيئًا ، جلستْ أمي وراحت تبكي . لم أرها تبكي من قبل . نظرتُ إلى أبي . كان واقفًا بالقرب من أمي ، يمسك كتفيها بقوة .

سألتُ : « ما الخطب يا ماما » ؟

سألني أبي : « أتعرف أحدًا من أصدقاء أخيك » ؟

أجبته : أن لا . لأنني وددتُ أن أعرف ماذا سيقول .

« نهبوا مخزنًا . لا أعرف من هم . طعنوا رجلاً وهو الآن بين الحياة والموت . يقولون : إن كاليب معهم » .

قالت أمي: «غلام يدعى أرثر.. أرثر فلان. هو الذي قال: إن كاليب كان هناك» .

سألني والدي : « هل تعرفه » ؟

هززتُ رأسي بالنفي ، لأسباب عديدة هذه المرة .

«اعتادوا السرقة .. اعتادوا السرقة ! » . قالت أمي : « كما لو أنهم عصابة منظمة ورجال الشرطة قالوا – رجال الشرطة قالوا – إنهم استخدموا ذلك المخزن مخبأً لهم » .

قال أبي : « رجال الشرطة قالوا » !

رأيتُ الشرطة في المخزن مرات كثيرة ، كانت تربطهم صداقة متينة بصاحب المخزن . قلتُ : « المخزن مغلق » . التفتُ إلى أمي وقلتُ : « ماما .. ماما .. ماذا سيفعلون إذا وجدوا كاليب » ؟ عقلي توقف ، تعطل ، صرخ لمرأى وجوه رجال الشرطة البيض .

قالت أمي : « سيأخذونه » .

نظرتُ إلى أبي : « كاليب لم يسرق . كاليب لم يسرق شيئًا طيلة حياته » ! لم يقل أبي شيئًا . سمعنا وقع أقدام على درجات السلم . لم يتحرك أي منا . توقفت الخطوات قبل الوصول إلى منبسط السلم المؤدي إلى شقتنا . أدركت أن عليّ أن أعثر على كاليب وأحثه على عدم المجيء إلى البيت . دسستُ النقود في جيوبي ؛ لعله سيحتاجها . قلتُ : « سأعود حالاً » . خرجتُ من المنزل ، نزلتُ درجات السلم . هبطت تلك الدرجات بأسرع مما فعل كاليب ، وأصبحتُ عرضةً للرياح المرعبة في الشارع . كل شيء جديد ، كل شيء شرير ، كل البيوت خطيرة . الناس جميعًا غرباء . لا أظنني رأيتهم من قبل . حذرني شيء ما أن لا أجري بسرعة شديدة ؛ شيء ما حذرني أن أخفي محنتي ، شيء ما حذرني أن أنظر ، أن أنظر فيما حولي ، قبل أن أتحرك . وقفت في مدخل المبنى ، أرسلت بصري إلى النهر المرعب . صبيان صغار فقط يلعبون هناك . في الناحية الثانية من الشارع ، سيدات في النوافذ ورجال في مداخل الأبنية . في الشارع ، عدد أكبر من الرجال ، الصبيان ، السيدات . ليس ثمة شرطة . تلمستُ النقود في جيوبي – لا أدري لماذا ؛ ربما نويتُ أن يصدق الجميع أن أهلي أرسلوني

إلى المخزن لشراء بعض الحاجيات . رحت أمشي . خارج البلوك ، صوب منزل الآنسة ميلدريد . لم أعبر الطريق المشجر لأنني خشيتُ أن أمر بالمخزن . مضيتُ ، مباشرةً ، غرباً ، إلى أن وصلت الشارع المشجر الذي تقع فيه شقة الآنسة ميلدريد . مررت أثناء سيري بعدد من رجال الشرطة ، لم يوقفوني ، ولم يبدُ عليهم أنهم نظروا إليَّ . وصلتُ إلى مبنى الآنسة ميلدريد وصعدت درجات السلّم راكضًا . حاولتُ أن أقرع الباب بطريقة مضحكة كالتي فعلها أرثر ، لكنني انفجرت فجأة ، ضربتُ الباب بكل ما أوتيتُ من قوة ، صرختُ : « آنسة ميلدريد ! آنسة ميلدريد ! أنا ليو . أنا ليو ! افتحي » ! سمعت العمود يُحرك بعيداً عن الطريق . بعدها سمعتُ خشخشة السلسلة ، صوت الأقفال وهي تفتح . وقفتُ قبالتي ، أدركتُ حالاً أنها تعرف بقضية كاليب .

« آنسة ميلدريد ؟ أخي هنا » ؟

جذبتني إلى الداخل ، بيد واحدة ، ولم تقل شيئًا . دولوريس واقفة في الرواق . قادتني دولوريس عبر الرواق الطويل إلى الحجرتين الواسعتين . كاليب جالس على الكنبة ، يرتدي سترته السوداء ، الرثة . مكتوف اليدين كمن يشعر بالبرد . تطلع إليَّ ، وجهه ناشف ، جاف ، كأنه لا يمتلك غدداً عرقية . قال لي : « أهلاً ، ليو الصغير . لا تخف هكذا » . شرعتُ أنتحب ، وسرتُ إليه . جرني إلى حضنه .

قالت دولوريس : « لم يفعل كاليب ذلك . نحن نعرف أنه لم يفعل . سنذهب إلى المحكمة ونقول هذا » . استمر كاليب يفرك رأسي بكفه . تنهد تنهيدة عظيمة ، تحرك رأسي معها ، جذب رأسي إلى الوراء ونظر في وجهي . قال : « لا تخف ، يا ليو ، من فضلك لا تخف . هل ستفعل ؟ من أجلي » ؟ هززت رأسي . ثم قال : « لم أفعل ذلك ، أود أن تسمعها مني . حسناً » ؟

قلتُ : « حسناً . لكنني لا أبالي إذا كنت قد فعلتها » !

ضحك كاليب . بكي أيضًا . قال : « أعرف هذا يا ليو » . ضحك من جديد . « كاليب .. هل ستهرب » ؟ نظر إليَّ . قلت له : « رجال الشرطة كانوا في بيتنا » .

« أرأيتهم » ؟

« كلا . ماما وبابا أخبراني » .

تبادلوا ثلاثتهم النظرات . قالت الآنسة ميلدريد : « إنه أرثر . إنه أرثر » .

قال كاليب : « إذا هربت فلن أبتعد كثيراً . ثم إنهم سيقبضون عليّ بالتأكيد » .

قلت له : « بحوزتي مبلغ من المال » . لكنه لم يسمعني . كان يصغي إلى شيء ما في الشارع . مشت دولوريس إلى النافذة ونظرت خلالها . عادت إلى الحجرة . «ها هم قد جاءوا» . قالت . لم أر وجهاً بمثل هذه المرارة . لم تقو على الحركة . ثم نظرت إلى كاليب . وابتسمت . حاولت أن تقول شيئاً . بغتةً . نهض كاليب . وركض إليها . وأمسك بها .

قالت الآنسة ميلدريد : « سمعتك » . كان أحدهم يضرب الباب بعنف . مشت إلى الرواق : « أنا أسمعك » . هتفت من جديد : « لا حاجة إلى كل هذا الضرب » . سمعتها تفتح الباب . دولوريس وكاليب واقفان . الآن أصبحت أنا الذي لا يقوى على الحركة : « أأنتم بشر يا من تخلقون كل هذه الضجة » ؟ سمعت الآنسة ميلدريد تسألهم : « أنتم يا ناس ألا تملكون ذرة من الإحساس ؟ لا تدفعونني بهذه الطريقة ! هذا بيتي ! ألستم قادرين على أن تطلبوا ما تريدون » ؟

اجتازوا الرواق . ثلاثتهم بيض . أحدهم سحب مسدسه . ما زلت لا أقوى على الحركة .

« نحن نبحث عن كاليب برودهامر » . قال أحدهم .

سألته دولوريس : « لِمَ » ؟

« هذا ليس شغلك » . قال أحدهم .

قالت دولوريس : «نعم. إنه شغلي. أن أسألكم لماذا تعتقلونه. وشغلكم أن تخبروني» .

« اسمع ما تقوله هذه العاهرة الزنجية » . قال أحدهم .

قال كاليب : « أنا كاليب برودهامر . ما من حاجة إلى هذه المسدسات . لم أطلق النار على أحد طيلة حياتي » .

« تقدم إلى هنا . نحن نأخذك الآن إلى المركز » .

« علام » ؟

« إنكم مجموعة من الزنوج الفضوليين . هو ذا السبب » . أمسك بكاليب فجأة ، بعنف ضرب جانب رأسه بعقب المسدس . سال الدم – دم شقيقي . قفزت ، مولولاً ، من الكنبة ، محاولاً الوصول إلى كاليب : لكنهم منعوني . لم أستطع التقاط أنفاسي ، اقتادوه عبر الرواق . هتفت باسمه . حاولت أن أزحف عبر الرواق . حاولت الآنسة ميلدريد منعي . زعقت دولوريس . ضغطت بشدة على الآنسة ميلدريد ، عضضت يدها ، حملوا كاليب وهبطوا درجات السلّم . صرختُ باسمه ثانيةً . نطحتُ أحد رجال الشرطة في مؤخرته ، جررت ساقه بكل ما أوتيت من قوة : « خلصونا من هذا الصبي » ، قال أحدهم . حاول أحدهم أن يمسك بي ، لكنني رفستُ وعضضت من جديد . تعثرتُ خلال نزولي السلم . أمسكت بساق الشرطي ثانية ، قبضتُ عليها ، قبضتُ عليها ، جرني معه إلى الأسفل . صرخت باسم كاليب ثانية . أصبحنا في رواق الطابق الأرضي . كانوا يحملونه إلى الشارع . ضربني أحدهم بعنف ، أحسست بطعم الدم . زحفتُ عبر الرواق . صارخًا باسم أخي . أصبحنا في الهواء البارد . كان هناك أشخاص عديدون . نهضتُ . هرعت إلى السيارة . صارخًا . أرجوكم . أرجوكم . اتخذتُ طريقي بصعوبة إلى رصيف المشاة . ضغطتُ بقوة . قاومتُ كي أحرر نفسي . هرولتُ خلف مصابيح السيارة الحمر . أوه كاليب كاليب . أوه كاليب كاليب . اختفت مصابيح السيارة . تعثرتُ . هويت على وجهي فوق رصيف المشاة . صرختُ . صرختُ . رفعوني . أخذوني . صعدوا بي السلالم . حمموني . أخذوني إلى البيت . حاول والدي أن يضربني على رأسي . أبعدتُ كفه . أمي قدمتْ لي طاسةً من الحساء . ضربتُ الطاسة بعنف . فطارت من يدها . أنا أكرهك . قلتُ لها . ودفنت وجهي في الوسادة التي ما تزال تعبق برائحة كاليب .

الكتاب الثاني

هل ثمة أحد هناك ؟

قال المسافر

أنا لا أسيء التصرف

بل أصون نفسي من أجلك .

فانس وولر

كانت بربارة وجيرى أمام لافتات سقيفة المعدات التى تشير إلى : « ورشة تدريب الممثلين تقدم المسرحية الشهيرة [الأسلحة والإنسان] للكاتب جورج برناردشو » . بربارة ترتدى لباس سباحة قرمزى اللون من قطعتين . شعرها مرفوع إلى أعلى ، مربوط بسلك . تجثو هى على ركبتيها ، غير راضية بالمرة على حرف الحاء الصغير فى كلمة «المسرحية» . يقف جيرى مرتدياً سروالاً رياضيا قصيراً أسود اللون . كان خفيف الحركة ، وبمنأى عن الوسوسة بشأن اسم « برنارد » . لمعتْ حبيبات العرق على ظهره الأسمر ، لا ينى يرفع شعره عن عينيه . تلطخ جسدا بربارة وجيرى بالصبغ وكأنهما ركبا فوق اللافتات . قدتُ سيارة الورشة القديمة البالية من الجرين بارن حيث تتدرب مجموعة من الممثلين على مسرحية « الأسلحة والإنسان » التى ستباشر فى تقديمها لاحقًا فى ستة عروض . لم يجتذبْ شو جمهور المشاهدين ، بل اجتذبهم ممثل هرم ، متعطش للأشربة الكحولية بصورة متسمة بالغرور ، لم تعدْ تحتاجه هوليوود كثيراً . استناداً إلى ما شاهدتُ من تدريباته ، فإن هذه المغامرة لا تفيده فى شىء . الآن ، أنا فى طريقى إلى المدينة ، لأحصل على الهامبورجر والقهوة والكوكى لمجموعة ثانية من الممثلين ، يتدربون على مسرحية « الذهاب إلى كويتو والعودة منها » لـ « بين هيشت » . هذه المسرحية التى أعقبت مسرحية شو لم تلفت انتباه الجمهور ، شاهدها فقط المحترفون وعدد ضئيل من الأولاد مثلنا ؛ ولأن موضوعها سياسى فقد شعرنا أننا فى غاية الشجاعة . ثم تعين على العودة إلى بول دوج رود لأجمع اللافتات ، وأن آخذ السيارة ، أنا وبربارة وجيرى ، متوجهين إلى المدينة لنعلقها هناك . فيما كانت بربارة وجيرى يصنعان اللافتات . على أن أسهم معهما ، وأبدى لهما العون .

كانا يبعدان عن الشارع بمسافة قصيرة . أوقفت السيارة ، وصحتُ : « يا للمسيح ! أما زلتما تعملان حتى الآن » ؟

التفت جيري ، أومأ بفرشاة الصبغ ، رش الصبغ على صدره كثيف الشعر . ضحك . صاح بصوت عال : « لا أراك تفعل شيئًا ، يا زميلنا العزيز » .

نهضت بربارة « ليو ! إنك تقود السيارة هنا وهناك طيلة النهار كالمشرف . أين وجهتك ، الآن » ؟

« المدينة ، حبيبتي ! المدينة » .

« ما الذي ستفعله في المدينة » ؟

« سأحتسي كأسين من الشراب ، بينما تنهيان صبغ هذه اللافتات . غدونا في موضع مراقبة .. نحن نتوقع منكما أن تهيئا اللافتات عندما نعود ! » .

بحثا كلاهما عن شيء يرميانه إلي . هتفتُ بصوتٍ علا تدريجيا : « أوه ، كم تمنيت أن أكون في أرض القطن » ! ضج صوت المحرك ، ملأ الطريق بهديره ، وابتعدت عنهما .

برز جيري بتأثير من إصرارنا ، ولأنه في الواقع ليس له شغل آخر . هو غلام إيطالي ، ضخم البدن ، مرح ، كريم النفس ، إنسان لطيف جداً . لم يكنْ في الورشة ، كان يعمل كموديل فنان في المدينة ؛ تعلّق بنا وأسدى لنا العون . طردتُ من مسكني في « زقاق الجنة » ؛ لهذا لم تعدْ فكرة العمل في الورشة أكثر جاذبية فحسب ، بل ملحة ؛ فهي تعني أنني سأضمن مأكلي طوال شهور الصيف ، وأنني سأقضي الصيف في الهواء الطلق . الأجور رمزية - رمزية جدا بحيث عملنا نحن الاثنين ، بربارة وأنا ، كموديلين للفنانين . عملنا، أنا وجيري في جز العشب في مرج . كنا سعداء ، أو سعداء بعض الشيء . كنا نعمل بجد ، طوال الأسبوع ، نسكر ، غالبًا ، ليلاً ، في المدينة ، أيام الأحد نتسلى بصيد الأسماك أو تجديف المراكب . زميل غرفتي في « زقاق الجنة » ، شارلي، عاد إلى إيوما، سافر متطفلاً[1] ؛ للبحث عن صديقة قديمة له ، كما قال ، يبدو أن هذا البحث ، هذا الاحتمال ، لم يسره . أغلقت بربارة باب غرفتها في « زقاق الجنة » بالقفل ، وبقيت حاجياتها ، حاجياتي ، حاجيات شارلي في حجرتها .

(١) السفر من خلال التوسل إلى الغرباء بركوب سياراتهم والوصول إلى المكان المنشود . (المترجم)

الوقت مطلع تموز (يوليو) ، الشمس شديدة ومستمرة . غدوت أكثر سواداً ، احمرت بشرتي وشعر رأسي ، في حين غدت بربارة ذات سمرة خفيفة ، شعر ناصيتها وشعر جانبي رأسها وأطرافه المتموجة غدا أشقر . جيري أكثر سمرة من العرب ، كنا ندعو أنفسنا ، حين نجوب طرقات المدينة « مسألة اللون الزنجي » . كنا خارج مدينة صغيرة تقوم على جرف عال في أعالي أحد الأنهار . إن ماجوا الهندي في « نهاية الموهيجانيين »[1]، قد أجبر العذراء البريطانية ، التي كان الشرف بالنسبة لها أهم من الحياة ، على أن تهوى من هذا الجرف إلى النهر ، لذا ، على الأقل ، أبلغني فينيمور كوبر وأسلافه الهوليووديون : أن ليس من الصعب أن نتخيل المحاربين الهنود يقذفون بالمنجنيق على طول النهر ، ويسمع المرء صخب سهامهم التي تمر عبر ورق الشجر . كنا نتجول عبر مقبرة المدينة ، آملين أن نقبض على همس ما من الماضي - مدينة مرعبة ، بناها ودمرها الرأسماليون ، إنما أنقذتها الحرب . أخفقت المقبرة في منحنا أيّ إحساس بالماضي ، في حين وهبتنا المدينة إحساساً نابضاً بالحيوية بوضعنا الحالي . كانت المدينة هاجعة زمناً طويلاً ، إلا أن المصانع والمقاولات الحكومية والوحدات العسكرية وأخيراً الجنود ورواتبهم جاءت كلها لتنقذ المدينة . الناس في المدينة يكسبون المال بسعادة ، الطبيعة وسعادتهم الغامرة جعلتهم ودودين بصورة عرجاء وقساة بصورة سريعة . كان وجودنا في المدينة قد منحها (أي المدينة) امتيازاً خاصاً وكان مفيداً للعمل ، إلا أننا ، مع ذلك ، لم نكن مرغوبين . استأجرت عائلة سان - ماركواند بيت خشب ، أبيض ، واسعاً في المدينة ، كانت علامة اجتماعية بارزة أن تكون مدعواً إلى إحدى حفلاتها . يشك الناس أن عائلة سان - ماركواند يهودية ، يتحدث الناس عنهم سرا بأشياء فظيعة ، من ناحية أخرى كانت تربط العائلة صلة صداقة بنجوم المسرح والسينما ، بعض أولئك النجوم ، في الواقع ، يظهرون تحت راية الورشة . جاء هؤلاء إلى حفلات عائلة سان - ماركواند ، مدهشين ، متكبرين ، ومخمورين . كنا ، نحن ، أولاد الورشة ، نحضر هذه الحفلات عادة ، نقدم المشروبات والخبز المحمص الذي فرش فوقه الجبن أو الكافيار ، فتلتقط غالبًا مهنة غريبة أو مهنتين أو العكس بالعكس ؛ لكن مهما كان غرض استخدامنا يجعلون منا ، يجعلون مزيج شبابنا

(١) الموهيجان : قبيلة من هنود أمريكا الحمر في الجزء الجنوبي الشرقي في ولاية كونكتيكوت . (المترجم)

وأهدافنا شيئاً مزعجاً وبغيضاً جدا بالنسبة لهم . الجميع على يقين أن عائلة سان - ماركواند فاسدة بصورة غريبة ، لا تصدق ، مثيرة للشهوة الجنسية . وهكذا نجوم السينما ، وأصدقاؤهم ، فعلوا أفعالهم النكراء ، وبذلك ، كانوا نماذج سيئة لنا . إن الأولاد في ثلة وفية كهذه لابد أن يكونوا فاسدين أخلاقيا. هم لا يريدون معرفة السبب ، بينما يكون في استطاعتنا أن نفعل أشياء أخرى ، كنا نلوّن اللافتات ، نجز العشب في المروج ونقف عراة أمام الرسامين . كرهوا جيرى لأنه إيطالى ، كرهوا بربارة لأنها ليست إيطالية ، أي لم يملكوا سبباً لكراهيتها ، وكرهوني لأنه لم يبد على أنى أعرف أن بربارة وجيرى كلاهما من البيض ، الواقع ، لم يبدُ على أني أعرف أنني من الملونين وهذا جعلهم يستشيطون غضباً مهلكاً ، بحيث أن يد النادلة ، حين وقفت في حافلة الطعام ، ارتجفت حين سكبت لي القهوة ، ابتعد الناس عني ، نظروا إلي وكأنني مسكون بالأرواح الشريرة ، أنا ، طبعًا ، احتقرتهم ، هم حتى لا يتحلون بشجاعة قناعاتهم المريضة ، إن كانوا يملكون مثل هذه الشجاعة للوثوني بالقار ، كسوني بالريش ، وقذفوني خارج المدينة ، لم يجرءوا على فعل ذلك بسبب ارتباطي بالورشة ، بطبيعة الحال ، انتقدوا هم أسوأ خصالنا نحن الثلاثة ، كانت عقولهم أشبه بألواح زجاج نوافذ قذرة : لذا كنا مرغمين على تمثيل فانتازياتهم لهم. حين كنا نجوب المدينة، أنا وجيرى ، مثلاً ، يحسب الجميع أننا شاذان - ليس ثمة سبب آخر يدعونا لأن نتمشى معاً : غالباً كنا نتمشى ذراع كل منا تطوق الآخر ، إن لم يكن جيرى ضخماً جدا وإن لم أكن جريئاً جدا لكنا قد دفعنا - أكثر مما فعلنا - دمنا ثمنًا لذلك ، غير أن ضخامة بدن جيرى أرعبتهم وحيرتهم - مؤكد لا يمكن أن يلعب هو دور الشاذ - وكذلك شجاعتي ، التي بدت مناقضة للوني ، على العموم ، كنا شاذين جدا كي يتحرش بنا الآخرون بسهولة ، بالطبع ، حين تجوب بربارة المدينة برفقة جيرى ، تضع رأسها على كتفه ، كي يصبحا ، فوراً ، عاشقين داعرين ، خليعين : بينما نحن نتمشى ثلاثتنا ، سوية ، يمسك أحدنا بيد الآخر ، هما لا يتحدثان بأي كلمة على الإطلاق ، مع ذلك ، تحملونا ، لأن عائلة سان - ماركواند تقيم الحفلات التي من الجائز أن يلتقوا فيها بنجوم السينما .

أولاد الورشة - يبلغ عددنا حوالي خمسة عشر - يسكنون في أكواخ من خشب ، تبعد ثلاثة أميال عن المدينة ، على طول ميل واحد أو شارعين ، شيدت هذه الأكواخ في

العشوائيات : يدعى المكان بول نوح رود ، الذي كان مستعمرة شهيرة للفنانين . لكن الفنانين كلهم هجروا هذا المكان في النهاية ، إما لأنهم أمسوا ناجحين أو لأنهم أدركوا أن النجاح غير ممكن . ورشة إعداد الممثلين ، التي ساعدتها الطبقة الارستقراطية ، احتلت هذا الشارع الشهير . إن السكن هناك لا يكلف شيئاً ، عدا الطاقة الكهربائية ، كنا نستهلك مقداراً كبيراً منها . نسكن معاً أنا وبربارة وجيرى فى كوخ من طابقين ، تدفع عنه بدل إيجار يبلغ اثنى عشر دولاراً فى الشهر .

اعتقدنا أنه مكان جميل . فى الطابق الأرضى من الكوخ ، حيث يسكن جيرى وبربارة ، ثمة مطبخ صغير ، مظلم ، ذو قدور ومقال (جمع مقلاة) قديمة ومسودة وصحون مثلمة وأباريق حجرية ، ثقيلة : ملأها جيرى بتوابله الإيطالية ، تفوح منها رائحة الجبن الإيطالى النتنة – أحببنا الجبن – يا لحسن حظنا ، كان جيرى الوحيد بيننا من يجيد الطبخ . الحمام قديم جدا وبدائى ، ذو حوض استحمام معدنى يستغرق ساعات عديدة كى يمتلئ وساعات عديدة كى يفرغ : أنا وجيرى وضعنا نشا ردىء النوع فى الباحة – الواقع ليس أكثر من طريقة بارعة تمكننا من أن نسكب دلوين من الماء فوق جسمينا . حجرتهما الواسعة ذات سرير كبير لشخصين ، يكفى لستة أشخاص ، وموقد وكرسيين هزازين . وضعنا ستائر على النوافذ والأبواب كلها ، وتركناها مفتوحة طوال الوقت . ليلاً ، نضع الكرسيين الهزازين فى الشرفة ونجلس هناك نتجاذب أطراف الحديث ، نتساءل بصمت مع أنفسنا ، كيف ستكون حالنا حين نغدو طاعنين فى السن . حجرتى أصغر من حجرتهما ، ذات نافذتين واسعتين ، خارج إحدى النافذتين تميل شجرة هرمة ، أطول من كوخنا ، أما النافذة الثانية فتواجه الجبال النائية . صبغنا الكوخ بأكمله ، من الداخل والخارج بالدهان الأبيض ، يرسم ضوء القمر أشكالاً غريبة على جدران غرفتى ليلاً . جلست ، هناك ، ليال عديدة ، وحيداً ، بعد أن يأوى جيرى وبربارة إلى الفراش ، تارة أتطلع إلى الليل وطوراً أداعب أوتار القيثارة التى اشتريتها .

كنا – أنا وبربارة – قد التحقنا بالورشة ، مدة ثلاثة أسابيع ، إلا أننا لم نر صول فى مشهد أو فى شىء مرتجل . صرنا نوعاً من العمال وبما ننال تقديراً أكبر فى طاحونة أو مزرعة : على الأقل بقدر ما كان هذا العمل يكشف مؤهلاتنا المسرحية . شرعنا نولى هذا الأمر اهتماماً ، لكننا فى البدء لم نهتم به . استثارنا التهيؤ الذى لا يعرف الكلل

من أجل أن تنتشئ الورشة ، وأن نقدم أول نتاج صيفي لها على الخشبة ، في الأسبوع الأول ، دمرنا أشياء كثيرة – دمرنا جدرانًا ، أبوابًا ، ألواحًا زجاجية في نوافذ – بعثرنا وحرقنا أشياء كثيرة ، أمسينا كفوئين نوعًا باستخدام المطرقة والمسمار والمنشار ، خفيفي الحركة بصورة معتدلة في الإسعافات الأولية ، كنا نكسو بالجص ونصبغ ، قمنا بجرد كل ما نستعين به في الإخراج من أثاث وملابس ، كانت هذه الأشياء مكدسة شذر مذر ، مغطاة بالتراب ، في علية المسرح ، بنينا رفوفًا وحجيرات (خانات) للأجراس ، للسكاكين ، السماورات ، المصابيح ، الهواتف ، صنفنا هذه الأشياء على وفق نظام استنبطته بربارة ولولا ، بينما اعتبرته أنا نظامًا طموحًا بصورة فريدة ، حجيرة العهد التولستويي(١) ، على سبيل المثال ، تعنى بالسماورات والأيقونات ، يوجد بحوزتنا عدد كبير منها ، صول سان – ماركواند وزوجته مولعان ولعًا شديداً بالدراما الروسية ، العهد الحديث في أمريكا الشمالية ، يعنى بأنواع الهواتف كلها ، عدا نوع واحد ، يقف بغطرسة وحيداً على رف كتب عليه « معاصر ، فيينا » ، زمجر جيري « معاصر ، مؤخرتي ، متى شاهد أي إنسان هنا فيينا آخر مرة ؟ » من المستبعد أن يكون أحدهم قد شاهدها في وقت قريب ، تفحصنا الأزياء كلها ، مهما كانت قديمة ، حائلة اللون ، أو بالية ، أنقذنا أكثر ما يمكن منها ، منحتني الأزياء رعشة غريبة ، حزينة : البزات النظامية لجنرالات العهد الروسي القيصري ، لجنود الحرب الأهلية ، شالات وفساتين بطلات لوركا ، الستر المبقعة لفلاحي شتاينبك ، عصاة أوديبس ، تلك الأبازيم (جمع أبزيم) ، الأحذية ، الجزم ، الخفاف ، القلنسوات النسائية ، القمصان الكالحة ، والقمصان المجعدة ، السراويل القصيرة الضيقة المخصصة لركوب الخيل والسراويل الفضفاضة ، قلنسوات الرهبان ، الكابات ، الخوذ ، السيوف ، التروس ، الرماح ، الطبول ، القيثارات ، الأبواق ، كلها مشبعة بالملح البشري بحيث إنها تتمزق طوليًا بمجرد لمسة بسيطة ، ووقعت ببرود شديد في مصائد لا مبالاة الزمن بحيث إنها بردت الكف ، نطقت بالحقيقة ، أثرت بقسوة وبصورة متواصلة ، والتي ستتجاوزني ذات يوم ، تتجاوز كل طرزي وأوضاعي وبزاتي النظامية ، هذه الألبسة ارتداها أناس حقيقيون ، عزفت لهم موسيقى حقيقية ، تحركوا في ضوء أصيل ، وضعوا

(١) نسبة إلى ليو تولستوي الكاتب الروسي الشهير ، صاحب « الحرب والسلام » . (المترجم)

أياديهم على قلوبهم وأعطوا نذورهم . وأسدلت عليهم الستارة . هذه الأزياء كانت شبيهة بعظامهم المشتتة . غير المبالية . وقد ذكرتني العلية . دوماً . بوادي حزقيال . وسؤال حزقيال : « يا إلهي . هذه العظام هل يمكنها أن تحيا » ؟

لم أقف فوق خشبة مسرح حقيقية . من قبل . أول مرة . سرت فيها على خشبة مسرح « الجرين بارن » . عصر يوم صيفي عاصف . السماء تعول . ترسل الماء دونما شفقة . أعمت الشوارع . قرعت السقف . على نحو ما تقرع الطبول في أفريقيا . نظرت إلى فوق قبل أن أنظر إلى الخارج . دهشت حين عرفت كم هي عالية خشبة المسرح . نظرت إلى فوق . بحلقت في الغبار والعتمة . في السقالات والحبال . شيء رهيب أن يهوي منها المرء . كنت وحيداً عصر ذلك اليوم . بعثوني في مهمة – كانوا يبعثونني دوماً في مهام عديدة . انتظرت ريثما تنتهي العاصفة الصيفية . في ذات الوقت . لم يستطع أحد الوصول إلي . نظرت إلى المسرح المعتم . الشبحي . الشبحي جدا . الآن . مع هطول المطر ساءلت نفسي إن كان قدري أن أكون ضمن هذا المكان . بدأت أكتشف أن الأقدار غريبة – هي حتماً متشبثة بصورة مبهمة بالرغبة . عرفت . ذات يوم . إنني وددت – إذا كانت هذه العظام قادرة على الحياة – الوقوف هنا أمام أولئك الأحياء الذين أستطيع أن أملأ معهم هذا الفراغ المغبر . وأن أسمعهم يدلون بشهاداتهم . كما أسمع الآن صوت المطر . لم أفكر من قبل أبداً برغبتي كحقيقة لها صلة بالآخرين ؛ ولم أفكر أبداً بأن الآخرين يحتاجون رغبتي . لكنني . الآن . أول مرة . في المسرح المغبر ذاك . راودني شك أن هذه الصلة تحدد مصير الإنسان . وعلى هذه الصلة تعتمد الحياة الغامضة للعالم . كنت في مقتبل العمر . لعل من العسير . الآن . أن نصدق عمق حيرتي . أو حتى أن نسبر غورها . أنا ارتبت فقط بالارتفاع البارد . بالظلمة المغبرة . الهادرة . بحضور الآخرين . كل واحد منهم هو أنا . لكن هؤلاء الآخرين . لم يكونوا قادرين على معرفة ذلك . ولا أنا قادر . مع أنني ممتلئ بهم . على ملء هذا المسرح بحياتنا . كان هذا . على الأرجح . أرقى إمكانياتي فيما يتعلق بفعل الحب . لكنني لم أكاشف نفسي بتلك الطريقة عصر ذلك اليوم . تمشيت جيئة وذهاباً على خشبة المسرح . قست طولها . عرضها . عمقها . وصحت بأعلى صوتي حتى بلغ أعلى شرفة . فكرت في ذلك الحيز الخالي . بالرغم من المطر . الذي سمعته يرجع الصدى : تمنيت لو أنني اصطحبت مع قيثارتي .

برغم كل أعمالنا اليدوية – التي تضمنت تعليق الستائر من أجل صول سان – ماركواند وزوجته – فإننا، أقصد بشكل رئيسي بربارة وأنا ، طالعنا ودرسنا وناقشنا . أبلغنا صول بصراحة بأن ارتجالاتنا ينبغي أن تكون بشكل منفصل ، وأن لا نشتغل عليها معاً ، وأن لا نناقشها معاً – وهذا شيء لم نستطع فعله . على أية حال ، طالما أنه لم يمنح أيا منا موضوعاً – يلزمنا أن نختار مشاهدنا ، ويحق أن نمثلها بصورة منفردة أولاً ، حسب مشيئتنا : لكننا لم نكن لنعرف ما إذا ود صول أن يرى المشاهد قبل الارتجالات أم أنه ود رؤية الارتجالات قبل المشاهد المسرحية . كنا عارفين بأن ارتجالاتنا قد تجردنا من أهليتنا لتمثيل أي من المشاهد المسرحية ، مما جعل كل واحد منا منفعلاً نوعاً مع الآخر . غالبًا ارتعبنا من اختبارنا الأول ، بخاصة أنه يجرى بصورة غير محتملة بالمرة ويعد بأن يكون دقيقاً جدا . رفضت أن آخذ بنظر الاعتبار تمثيل أي شيء من « لكل أبناء الرب أجنحة » : حين سقطت الأشياء الصغيرة ، أدّعت بربارة لحقيقة أننا قد نغوص تحت الرمل اللين لـ « الآنسة جولي » التي أطالعها الآن ، والتي أظن ، أننا وصلنا إلى تسوية بشأن المشهد الذي يقع بين سائق العربة وفتاته في مسرحية « في انتظار ليفتي »[١] . هو مشهد أحسسنا أننا قادران على تمثيله . بعدها ، حين بدأنا نشتغل عليه ، أخذ يغدو ، بصورة صامتة ، تحدياً مرعباً . على الفور ، تمنيت لو أننا اخترنا مشهداً آخر ، المشهد الذي يجمع بين أحد أفراد العصابة وصديقته التي أمست مومساً ، في مسرحية « نهاية ميتة » ، مثلاً ، لكننا ما إن بدأنا نشتغل حتى فطنت إلى أن كبريائي يخذلني .

شعرنا أننا جريئان جدا لاختيارنا هذا المشهد ، شعرنا أيضاً أن تمثيلنا المشهد سيضع صول سان – ماركواند وزوجته الليبراليين أمام اختيار عصيب . لم نكن نعرف أنه سيضعنا نحن أيضاً أمام اختيار عسير . كان مشهداً منحنا فرصة كشف أشياء قليلة . علينا أن نرقص معاً ، سنحت لي الفرصة أن أصفّر وأن أرقص رقصة نقرية قصيرة . سائق العربة الشاب ، سيد ، وفتاته ، فلوري ، لا يمكن أن يتزوجا بسبب الإحباط وعدم امتلاكهما أي مبلغ من المال ، وهو المشهد الذي يهجر فيه أحدهما الآخر . لم نستطع تمثيله ولم نستطع أن نصرفه عن أذهاننا . لم أعرف أن التظاهر

(١) مسرحية للمؤلف المسرحي الأمريكي كليفورد أوديتس عن نقابات العمال . (المترجم)

شيء مؤلم جدا ، بدأت أتعلم شيئاً ما عن التظاهر . في نقطة ما في المشهد ، بعد أن يتذكرا لقاءاتهما المختلسة في المتنزهات والأورقة ، اقترحت الفتاة أن تذهب مع سيد إلى حجرة في مكان ما . لكنه رفض ؛ قال : إن لا مستقبل لهما . يسود المشهد توتر شديد ، يرتبط بتوتر غير معلن يعتمل في دواخلنا ، وبدأنا نشعر بالرعب . كان أيضاً ، أكثر مشاهد الحب صعوبة ، لحظة الخسارة والفشل : ربما الشيء الكثير من المجهول قد خالط نكوصنا . لا أذكر تفاصيل المشهد جيداً ، لكنني ربما لا أنسى كيف خنقني ، كيف جعلني أتلعثم . كيف جعلني ، أحياناً ، أكره بربارة بعض الشيء ، رأيت هذا من خلال حيرتها وعينيها اللتين غارتا ببطء : كلاهما ساعدا المشهد وألحقا به الأذى . على أية حال ، هيمن ذلك المشهد على عقلي ، أول مرة عصر ذلك اليوم المطير ، حين تمشيت على خشبة مسرح «الجرين بارن» ، ورفعت صوتي حتى بلغ الشرفة . آنذاك ، أمسيت لا أطيق كل أشغالي الشاقة ، ووددت أن أخضع للامتحان . بالرغم من محاولتي أن أكون شجاعاً ، فإني كنت مسهداً. عرفت أن ثمة شيئاً غامضاً ، في أحسن الأحوال ، فيما يتعلق بالمهام ، المهام التي يكلف بها الساعي ، التي سمحت لنفسي أن أقوم بها . عرفت أنه شيء غير محتمل أن أعمل إلى الأبد على خشبة المسرح ، أدركت أيضاً أن مستقبلي لا يعني شيئاً البتة بالنسبة لعائلة سان - ماركواند . الواقع ، أن مستقبلي يعنيني أنا وحدي؛ ذلك هو سبب شرائي للقيثارة. لم أتوقع من الصيف الشيء الكثير . كان محطة مؤقتة : يلزمني أن أتهيأ لفصل الشتاء .

أوقفت السيارة أمام مطعم على شكل حافلة قطار . كنت أرتدي قميصاً قطنيا قديماً وسروالاً قديماً وأنتعل حذاءً خفيفاً ، كان هذا أحد بزاتي النظامية ؛ بذلتي النظامية الأخرى هي بدلة من الصرج الأزرق حائل اللون ، على أية حال ، كنت حذراً من عدم ارتداء قميص أبيض معها . كان المطعم يتخذ شكل عربة القطار . الموائد في ناحية ، النضد في الناحية الأخرى . الوقت ساعة متأخرة من العصر . هناك حوالي نصف دزينة من الناس ، جميعهم أكبر مني ، جميعهم أشرار ، كلهم كما يظنون ، بيض . نظروا إلى حين دخلت ، أشاحوا بوجوههم عني . ابتسمت للنادلة ، التي ثبتت عينيها الشبيهتين بزرين بنيين لماعين عليَّ ، نهضت بتؤدة ، وكأنها سحبت من شعرها ، بينما كنا أنا وابتسامتي - أو ابتسامتي وأنا - نتمشى نحو النضد .

« مرحباً » . قلت : – ابتسامتي صارخة ، لكن صوتي واطئ : – « من فضلك ، أبوسعك أن تلبي طلبي هذا » ؟ سلمتها القائمة . نظرت إليها كأنها صيغة كيمياوية . تطلعت حوالي بفرح . جلست إلى النضد . « مناخ هذه المدينة رائع . من فضلك ، هل استطيع الحصول على قنينة بيرة فيما أنا أنتظر » ؟ عرفت أنها لن ترفض طلباتي إذ إنها تجرأت ذات مرة وسألتني عن عمري . كنت مع جيري الذي أخبرها بعدد سنوات عمره وأقسم لها أنني شقيقه الأكبر . سلمت طلبي إلى رئيس طباخي الطلبات الخفيفة – الذي ظهر من قفصه ونظر إلي – ثم ، ببطء ، قطب حاجبيه وكأنه إزاء سؤال ديني معقد ، أخرج قنينة بيرة ، وضعها أمامي ، وراح يفتحها ببطء ، ابتعدت ، جلبت قدحاً ، وضعته على النضد قبالتي .

« شكراً » . قلت : سكبت لنفسي قدحاً من البيرة . شرعت أترنم : « أيها الوغد ، إلى أين المفر » ؟ أشعلت سيجارة . سمعت صوت الهمبورجر يئز هناك .

قال أحدهم : « أنا لا أبالي . الصحيح هو الصحيح » .

قال أحدهم : « لا تزعج نفسك يا بل » .

قال أحدهم : « المسألة لا تستحق هذا » .

كانا يتحدثان مع بعضهما . واصلت الهمهمة . شرعت النادلة المدعوة سالي تضع القهوة في أوعية من الكرتون .

« بالله عليك ، هل سمعت بقصة زنجي يضاجع فيلاً » ؟

قال أحدهم . نظرا إلي شزراً . واصلت الهمهمة . تهامسا . ضحكا . ثم هتفا : « هكذا كانت نهاية ذاك الفيل » ! سمعت القصة من قبل . سألت بصوت لطيف : « سالي ، هل لي بقنينة أخرى من البيرة » ؟

حدقت في بعينيها الشبيهتين بزرين . يلوح فيهما شيء أشبه بالبغضاء . البغضاء تجعل المرء ذليلاً . « الهامبورجر الذي أعده لك يكاد يصبح جاهزاً . ربما لن يكون لك وقت كاف كي تنتهي من القنينة . أعني ، قبل أن يبرد » .

« سأتدبر أمري » انتهيت من احتساء البيرة عديمة الطعم ، أوشكت أن أتقيؤها ، لكن الكبرياء تتحكم بانعكاسات المرء ، مع أنني أتوقع أيضًا أن انعكاسات الإنسان تكون أحيانًا في الكبرياء ، وضعت كأسي على النضد .

« جهز الهمبورجر . حسن » ؟

« هيا ، بل » ، قال أحدهم : أخذوه إلى الخارج . أصبح المطعم خاليًا ، نظرت وراءهم. تطلعت إلى النادلة بحزن أصيل مشوب بالحيرة ، وجدت قنينة بيرة ، فتحتها ، وضعتها أمامي ، ثم شرعت تلتقط الهامبورجر .

قلت لها : « أتمنى أن يكون بحوزتك علبة لكل هذا الهمبورجر » . « أنا لا أملك . قالت السيدة سان - ماركواند : حتمًا لديك علبة » .

« سأرى » ، قالت بعد صمت طويل .

قلت : « حسنًا . شكرًا » وجرعت قنينة البيرة .

أحضرت طباخة الوجبات الخفيفة العلبة . وضعت كل شيء في العلبة بمفردها . انتهيت من احتساء قنينتي . بعدها أردت أن أتبول . فكرت أين يمكنني أن أتبول في طريق العودة. دفعت لها . خشخشت النقود . قلت : « أريد إيصالاً » . قالت : « حسنًا . لحظة من فضلك . أعرف أن الناس الذين تعمل لهم يطلبون الإيصالات دومًا » . ناولتني الإيصال . فازت هي . أما أنا فقد خسرت باسمًا . « وداعًا . سالي . إلى اللقاء غداً بمشيئة الله » . التقطت العلبة وحملتها إلى السيارة القديمة . وضعتها على المقعد الأمامي ، جنبي . كانت تلك أكثر لحظات حياتي دقة . يلزمني أن لا أسكب القهوة والكوكي ، وألا أخفق في إطعام الجياع ، يلزمني أيضًا ألا أجعل غضبي يتفجر في الطريق .

قدت سيارتي باتجاه الطريق الخاص لبيت عائلة سان - ماركواند . كانا يؤجران منزلاً جميلاً واسعًا ، واسعًا جدا بالنسبة لشخصين . لكن ، من الناحية الأخرى ، لم يكونا وحدهما . منزلهما ، دومًا ، يكتظ بالناس ، وراجز رولاند تقضي الصيف معهما . راجز مؤثرة جدا ، ضخمة وقبيحة جداً ، رائعة بصورة مؤكدة . الواقع ، أن امرأة

شبيهة براجز قلما تجد أمامها اختياراً غير أن تغدو رائعة إذا تعين عليها أن تحقق صفة إنسانية محتملة . كانت أضخم من معظم الرجال . لها وجه مربع ومعبر كقالب جرانيت - قالب جرانيت معرق بخطوط حمر رفيعة . وقد عوضها البارى فمنحها شعراً براقاً متموجاً . كان أحمر وقت لقائي بها . كان يتوج رأسها كالخوذة . يجدر بي القول إنه ما من بديل آخر لها غير تلك التسريحة . بدت جميع ملابسها وكأنها من المعدن : بذلة من قطعتين . قاسية . من نسيج صوفي خشن . تارة معتمة وطوراً مربعة النقش بصورة مرعبة . تفسح مجالاً . عند قدوم الصيف . إلى أقمشة مطبوعة . قاسية . شبيهة بالأكياس . كانت ملابسها تدوى كالأبواق . تؤذى العين .

كانت نشيطة بصورة لا تصدق . قوية البنية . بصورة مثيرة للهلع توفاً . دائمة التدخين والمزاح : حتى إن المرء ليسائل نفسه ألا تتوقف هى عن فعل ذلك . أخبرتني مرة . وهي جالسة في الرواق المسقوف لدار عائلة سان - ماركواند . في كرسي واسع مزخرف . ذي محورين . مصنوع من قصب أمريكا الجنوبية . أنها لا تستطيع أن تقضي يوماً واحداً دون الاستماع إلى الموسيقى. ساءلت نفسي متى وكيف تستطيع أن تتخلص من الضوضاء التي تعيش فيها بحيث تتمكن من الاستماع إلى شيء ما . لابد أنني فكرت أن طبلاتها الروحية قد تحطمت من زمن طويل . صورها الفوتوغرافية مع صول سان - ماركواند وزوجته التي أخذتها قبل المباشرة بالعمل في الورشة . كشفت عن راجز أخرى . راجز غير مروضة. كانت تلك الصور الفوتوغرافية معلقة على جدران مكتب الجرين بارن . وفي مكتب صول بمنزله . يظهرون في الصور وهم جالسون تحت الأشجار . يقرءون المخطوطات . أو وهم يتدربون . بدا صول مختلفاً تماماً . لم يكن شعره أبيض يومئذ . في إحدى الصور الفوتوغرافية يظهر هو بدون نظارات أشبه بصبي فزع . لولا مبرومة الجسد لكن ليست عديمة الشكل . شعرها طويل . ووجهها جاد جداً وبناتي . أما راجز فشعرها جد طويل . على شكل ضفائر تتوج رأسها . بدا وجهها العريض . فمها الواسع . جسدها المربع . الضخم . عرضة للانتقاد نوعاً . كانت ترتدى شيئاً بدا رمادياً في الصور الفوتوغرافية . شيئاً طويلاً . ناعماً . فضفاضاً . سمحت هى . فى تلكم الأيام . لأن تغدو ممثلة . وكتبت الشعر .

قالت : «قصائد تافهة . لكنني لم أجرؤ على حرقها . سوف تظهر قصائدي في مذكراتي الخاصة بعدما أرحل إلى العالم الآخر . لا تجعلوا العالم يضحك عليّ كثيراً» . هذا ما قالته . حين تعتعها السكر في إحدى حفلات عائلة سان - ماركواند .

وصلت خلال فترة الاستراحة القصيرة . كان أشخاص المسرحية في المرج . حين شاهدوا السيارة مسرعة صوب المنزل . أطلقوا صيحات الاستحسان العالية . راجز واقفة في المدخل المسقوف .

قالت : « يا غلام . هذه أكثر الأعمال إثارة خلال هذا اليوم . أنا أسائل نفسي : ما الذي يجعلك شعبياً جداً . هل هو مظهرك غير اللائق » ؟

قلت : « ربما . وربما السبب هو عيناي البنيتان الجميلتان » .

« هيا . ليو . عيناك لا يمكن أن تتنافسا مع هذا الهمبورجر الشهي » .

«هل ستجلس على كل هذا الطعام .. طوال العصر ؟» سألت مادلين . وهي قائدة المجموعة : « أم أنك ستنهض وتعطينا بعضاً منه » . غمزت لي بعينها « إنك تعرف ما أعنيه يا عزيزي . كيف هو حالك ؟ أمل ألا تكون قد نسيت أمك الملتهبة حماسة » ؟

« كيف يمكنني أن أنساك ؟ يا حلوتي . أنت تعرفين أنني يجب أن أعطيك بعضاً منه » .

« وعود . وعود . أنا جائعة جداً من زمن طويل » . ضحكنا معاً . أنا ومادلين نواصل دوماً الحديث بهذه الطريقة . لكنني لم أعرف إلى أي مدى كان حديثنا حقيقياً . ولم أعرف كيف آتي بالحركة الأولى . كانت هيّ في حوالي الثلاثين . وهو عمر مرعب . شقراء . ضخمة نوعاً . لكنها جميلة جداً . هي ممثلة ثانوية محترمة . لم تمثل أدواراً رئيسية من قبل . مطلقة . ابنتها تبلغ من العمر ثماني سنوات . البنت في المدينة مع والدي مادلين .

أقبل الأولاد الآخرون . أخذوا صناديق الطعام والشراب . وضعوها تحت إحدى الأشجار . التقط كل واحد منهم الهمبورجر والكوكي . ثم تفرقوا . نزلت من السيارة . تمطيت . جلست على الدرجة السفلى من المدخل المسقوف .

سألتني راجز : « ألست جائعاً » ؟

أجبتها : « كلا . تناولت إفطاراً قوياً » . نظرت إليها : « ألم تأكلي مثلي ؟ » .

قالت : « لا ، والله . أنا أدير هذا المسلخ . لا أقدر أن آكل قبل أن يذهبوا كلهم إلى البيت . الممثلون سلبوني شهيتي » .

ابتسمت . قلت لها : « أنت معهم طيلة الوقت . لابد أنك تأكلين كثيراً حين يذهبون إلى منازلهم » .

قالت راجز : «أظنك غلاماً وقحاً» . ضحكت ورمت عقب سيجارتها في الحشائش. جلست على درجة المدخل المسقوف ، جنبي .

سألتها : « هل هو مسلخ فعلاً ؟ أحسب أن لولا قالت : إن الورشة تحسنت » .

« لا تجرؤ لولا على أن تقول شيئاً غير ذلك . وظيفتها أن تقوي معنويات الجميع . هي تتجول هنا في الأسابيع القليلة الماضية مثل الملاك الأبيض .. السيدة ذات القنديل » . أشعلت سيجارة أخرى ، أعطتني سيجارة . « لابد أن يكون مسلخاً ، أيها الغلام ، طالما أنك تتعامل ، على الخشبة نفسها ، مع مجموعة من الهواة غير المجربين ومجموعة من العجائز المحترفين المشكوك بهم . إنك تقضي نصف وقتك في فض النزاعات بينهم . والمسرحية ، بيني وبينك ، ليست (هاملت) بالضبط . أوه ، حسناً » .

سألتها : « لم تمثلونها إذاً » ؟

« حسناً .. نحن نظن أن المسرحية تقول شيئاً مهماً . لم لا نجرّب أن نهز هذه المدينة قليلاً ؟ إضافة إلى أنها مسرحية سمع الناس بها .. عرضت في برودواي . مثلت فيها سيلفيا سيدني » .

دنت لولا ، جلست على الحشائش أمامنا ، كالفتاة الصغيرة .

« كيف تحبون هذا الطعام والشراب الذي يحوزتكم ؟ » سألت لولا .

« أليس ثمة شيء لو معنى ؟ أجرينا التمرينات طيلة النهار » .

قالت راجز بتجهم : « ربما ينبغي علينا أن نفعل ذلك أيضاً » .

قالت لولا : « راجز ، الواقع ، الأمور ليست سيئة » .

« مادلين لن تتعلم كيف تحتفظ بتلك الرسالة » .

تمتمت راجز : « ما الذي أصابها ، ألا تحصل على مواد بريدية » ؟

قالت لولا : « فى صفى ، صباح هذا اليوم ، أخبرتها أن تحمل الرسالة وكأنها ورقة الطلاق الأخيرة .. مادلين مطلقة ، فى المسرحية » . قالت لى وأكملت حديثها : « هى لا تود فعلاً أن تكون مطلقة . أحسب أن رأيها الآن مختلف من خلال طريقة حملها للرسالة » .

قالت راجز بكآبة : « محتمل ، مازلت أعتقد أنها تبدو وكأنها تحمل شريحة نيئة من لحم الخنزير » .

قالت لولا : « أوه ، إنك تميلين إلى رفض كل ما هو دون مرتبة الكمال » . رميت سيجارتى على الأرض ونهضت ، قلت : « على أن أذهب » .

قالت لولا : « أمل أن تنتشر تلك اللافتات فى طول المدينة وعرضها » .

قلت : « لم نفعل ذلك ، حتى الآن ، لكننا سنفعل » .

« من المفروض أن تكون معلقة الآن » .

« انتهى منها الأولاد تواً ، سنجمعها الآن ، ستكون معلقة فى كل أرجاء المدينة فى بحر ساعتين ، لا تقلقى » .

قالت لولا : « أوه ، أنا لا أشكو منك ، إنك نموذج للمثابرة والتفانى ، إنه فقط ... » .

« توتر ليلة الافتتاح » . قالت راجز وضحكت بصورة مروعة .

« حسناً ، أظنها ستكون تجربة مسرحية مثيرة للغاية » .

قالت راجز : « بخاصة إذا كان المسرح هادئاً » .

سألتنى لولا : « كيف سارت الأمور اليوم » ؟

« المسرح عادي اليوم » . قلت ودخلت السيارة .

« والآخرون ؟ كيف حالهم » ؟

« كشأنهم دوماً . لا أسوأ ولا أفضل » . بدأت أشغل محرك السيارة » . لكنني كما تعرفين . ليس لي متسع من الوقت كي أراقب التدريبات المسرحية » .

« ليو ! أنت الصخرة التي نتكئ عليها جميعاً . أنا على يقين بأنه لن تداهمك أنت أيضاً نوبة المزاج الخاص . أنت تعرف أنه حالما ينتهي هذا الأسبوع القاسي ستباشر بعمل جاد . اعتبر كلمتي هذه حقيقة مؤكدة . اعتبرها كلمة صول أيضاً » .

قلت : « نعم ، مدام . أنا في غاية السرور . لأنني متأكد من تعبي بسبب كوني صخرة » .

استقررت بسيارتي .

قالت راجز : « يا غلام . لا تبدو عارفاً بأنك ستنال تعليماً جامعياً في المسرح » .

قلت : « سأشعر بأنني أفضل حالاً لو التحقت بالجامعة . إذا ما أجرى لي أحدهم اختباراً » .

قالت لولا : « حسناً . سوف تدخل اختباراً . الآن انتهى الكلام . مع السلامة » .

قلت : « ليلة هانئة يا سيدات » . وانطلقت بسيارتي .

حين مررت بسيارتي أمام سقيفة المعدات هذه المرة ، لم أر بربارة وجيري . قدت سيارتي حتى وصلت بول نوع رود ، جمعت اللافتات من الأولاد الآخرين . ثم قدت السيارة إلى كوخنا . كانت بربارة تحت دش الماء ، جيري في المدخل المسقوف ينظف نفسه بزيت التربنتينة . بدا ملطخاً بالمساحيق وكأنه ممثل لعب دور جندي جريح . « أنت فوضوي » . قلت له . صعدت إلى درجات المدخل المسقوف . جلست في أحد الكرسيين الهزازين . « أنت أيضاً فوضوي » . قال باعتدال . « ما الخطب يا ابن البلد ؟ هل خذلك المسرح » ؟

قلت : « المسرح . براز على المسرح . الضاجعات تتواصل فيما حولنا » .

قال جيري : « لا تيأس . سوف تحقق نجاحاً . أظن أن ثمة صبغاً على كتفي . هل تود أن تزيله لي ؟ » .

نهضت . أخذت الخرقة . فركت عظم كتفه اليسرى .

قلت : « والمسيح . رائحتك نتنة » .

« غالباً لا أطيق نفسي » . قال جيري . ابتسم ابتسامة عريضة . أخذ الخرقة مني ومشى إلى المطبخ « أتشرب البيرة » ؟

« أجل . هل أتيت إلى المدينة كي تساعدني بخصوص هذه اللافتات » ؟

« تمهل قليلاً . سأكون جاهزاً حالما تنتهي بربارة من أخذ الدش سأغسل هذه القذارة عن بدني » . أتى حاملاً قنينة بيرة وكأسين . « هنا » . سكب البيرة في كأسي . بعدها سكب البيرة في كأسه . ثم جلس . « هذا أفضل . هذه أول مرة أجلس فيها طوال هذا اليوم المرهق » .

« نعم . لعلنا سنعمل من أجل سكة الحديد » .

قال جيري : « حسناً . أنت الذي طلبت ذلك » .

« شيء جميل أن تتفلسف » .

« نعم عليك أن تجرب ذلك » .

أشعل سيجارتين . ناولني واحدة . أصغينا إلى غناء بربارة .

صاح جيري : « هل تريدين دلواً آخر من الماء » ؟

كانت بربارة تغني : « أمسيت مجنونة به . حزينة عليه . إلهي لن أكون سعيدة بدونه » . ثم قالت : « ماذا » ؟

« سألتك ما إذا تريدين دلواً آخر من الماء » ؟

« لا . شكراً ! سأنتهي حالاً » . واصلت الغناء : « لم أكن حبيبته الوحيدة . لن يفتقدني . أتمنى أن أحصل على عشر دولارات عن كل قبلة يطبعها على وجنة فتاة . أقسم . أنني سأغدو مليونيرة .. » .

تبادلنا النظرات أنا وجيري ، وابتسمنا . قال جيري : « إنها فتاة مكتملة » . ثم تورد خجلاً : « لا أحسب أنني أناسبها » .

« أوه .. لابد أنك فقدت عقلك » .

« أو تظن ذلك ؟ » .

طرح سؤاله هذا بتواضع شديد بحيث رحت أتأمله وكأنني أراه أول مرة .

« بالطبع . هذا هو ظني . بماذا تقلق نفسك ؟ هي سعيدة . أصغ إلى أغنيتها » .

قال جيري : « لا أعتقد أنها تغني لأجلي . هي تحب الغناء » . صمت لحظة وبعدها قال : « هي تقول : إن الغناء يساعدها في مسيرتها الفنية » .

«هو شاب اعتيادي، مع ذلك أنا مغرمة به حتى يوم مماتي ، يا لي من مسكينة» . غنت هي . سمعنا صوت رشاش الماء فوق بدنها . « جيري ! إلي بالمنشفة ! » .

« أنا قادم يا أميرة » ! التقط منشفة حمام من حاجز المدخل المسقوف وسلمها إلى بربارة . رجع وجلس على كرسيه الهزاز . في غضون لحظة ، ظهرت بربارة وهي تلف بدنها بالمنشفة . ارتقت درجات المدخل المسقوف . « آه » هتفت حين رأتني . « عاد الشرف . سأكون جاهزة في خلال دقيقة . جيري . اذهب لتستحم » !

قال جيري : « نعم أميرتي » . غمزني بعينه : « هل توافق على ملء الدلو لي ؟ أم أنك تود أن تأخذ الدش أولاً » ؟

« لا . اذهب أنت أولاً . أنا بعدك . قلت لك : إن رائحتك نتنة » .

تردد جيري . « اذهب يا أبله . أنا الذي سيملأ الدلاء . بعدها تملؤها أنت لي » .

قال جيري : « حسناً . سأغمر جسدي بالصابون أولاً . لن أتأخر كثيراً » . خلع سرواله القصير ودخل الحجيرة الخشب . رفعت الدلوين من منصتهما فوق سطح الحجيرة . ملأت أحدهما بماء ساخن نوعاً . وملأت الآخر بماء بارد نوعاً . أعدتهما إلى مكانهما . قلت له : « كل شيء جاهز » عدت إلى المدخل المسقوف .

سمعت صياحه . سمعت الماء يسقط على بدنه . أرهفت السمع لبربارة وهي تغني في الغرفة . أشعلت سيجارة وجرعت بيرتي . حالما نعلق اللافتات ينتهي يوم عملنا . لن يكون الوقت قد بلغ الخامسة عصراً . هتفت : « لم لا نتناول طعامنا في المدينة » ؟

« لا أظن أننا نمتلك مالاً كافياً » . قالت بربارة . نادت جيري بصوت عال : « جيري . هل بحوزتك مبلغ من المال ؟ أنا وأنت وليو .. من المفروض أن نشتغل على مشهدنا الليلة . أتذكر » ؟

« ليذهب المشهد إلى الجحيم . أظن يلزمنا أن نأخذ إجازة ولو ليلة واحدة من ذلك المشهد . الواقع بحوزتي ستة دولارات » .

صاح جيري : « أعتقد . عندي عشرة دولارات . فتشي جيوب سروالي . كم بحوزتك يا أميرة » ؟

« بحوزتي خمسة دولارات » أخبرت جيري وكأنها تغني لحناً. وصلت إلى الباب . ضئيلة الجسم . غلمانية . تلبس قميصاً أبيض طويلاً عائداً لجيري . وسروالاً قصيراً أزرق لها . سألتني : « هل أستطيع الحصول على سيجارة . يا أستاذ » ؟ مالت إلى كرسي الهزاز .

« أكيد . يا أميرة » . أشعلت سيجارة وناولتها لها .

« لقب أميرة التقطه جيري منك . وها أنت ذا الآن تلتقطه منه . الواقع أنا لا أحبه . لم تدعوني أميرة » ؟

« إنه تقدير لنشئك » . نفخت سحابة دخان كبيرة في وجهي . « لم لا تحبين هذا اللقب ؟ » .

« في اعتقادي أنك تهزأ مني » .

« أنا لا أهزأ منك . جيري لا يهزأ منك – اللّه أعلم – إن بعض الظن إثم » . تأملتها « نحن نضايقك قليلاً » . ثم قلت لها : « ذلك لأننا نكنُّ لك الحب » .

« آه » ! ابتعدت بربارة قليلاً . جلست على الكرسي الهزاز الآخر .

« هل لي برشفة من كأسك » ؟

ناولتها كأسي . سألتها : « هل نتناول طعامنا في المدينة » ؟

« نعم . لا أظن أن جيري راغب بطبخ الطعام هذه الليلة .. أنا لا أعرف الطبخ إطلاقاً .. ولست بأفضل حالاً مني » . رشفت كأسي . « لكنني أود أن أعود مبكرة إلى هنا . كي أنهض مبكرة في الصباح » .

« حسناً . علي أيضاً أن أنهض باكراً » .

هتف جيري : « هي ! ارم لي المنشفة » !

« دقيقة واحدة » ! قالت بربارة . وأعادت لي الكأس . دلفت إلى حجرتها . ظهرت ثانية بعد لحظة . ضحكت بيؤس . اتكأت على الباب . لوحت أمامها بمنشفة وجه صغيرة . رحت أضحك . صاحت بربارة : « جيري . بقيت لدينا منشفة واحدة . جيري . إنها صغيرة بعض الشيء » .

« ألا تكفان أنتما الاثنان عن مناكفتي وتجلبان لي المنشفة ؟ ليو . هل لديك منشفة في حجرتك بالطابق العلوي ؟ أنا مبلل » !

« سأجلب لك منشفة . لكن يمكنك أن تخرج الآن . بربارة لن تتطلع إليك » . نهضت من الكرسي . صعدت درجات السلم . « سأجلبها إليك وأنت تحت الدش » . قفزت درجات السلم . دخلت حجرتي . سمعت باب الحجيرة يفتح ثم يغلق بعنف . سمعت جيري يصيح : « جيرونيجوا » وهو يرتقي درجات المدخل المسقوف . نزلت درجات السلم . ومعي منشفتان. قذفت واحدة في غرفتها . كانا هناك . بربارة ما تزال تقهقه . صحت : « أسرع ! أحتاج إلى دلوين من الماء » . كي أكشف لجيري أنني جاد . خلعت القميص القطني الذي ألبسه . « علينا . يا أولاد أن نغلق اللافتات » .

هتف جيري : « حسناً . حسناً . ادخل سأملأ الدلوين بالماء » . لف منشفة حول وسطه . دخل المطبخ . سمعت صوت الماء يملأ الدلو . نزعت فردتي حذائي . خلعت جوربي . وسروالي . دخلت حجيرة الحمام الخشب .

خلعت سروالي الداخلي ، علقته على المسمار ، علقت منشفتي على المسمار ، التقطت قطعة الصابون . « أنت جاهز الآن » ، صاح جيري ، بعدها ، أصبحنا وحدنا ، أنا والماء والصابون وبدني .

في السادسة مساء دخلنا المدينة بسيارتنا – هكذا أعلمتنا ساعة دار العدالة – في تمام السابعة وضعنا لافتتنا الأخيرة في نافذة مطعم بيتزا ، تولينا الأمر بأنفسنا . العاملون في المطعم لم يكونوا من أهل المدينة الأصليين – الحمد لله : الواقع لم يكونوا من أهل البلد . جاءوا من صقلية ، على ما أظن ، لم يمضوا في أمريكا وقتًا طويلاً ، هم شديدو الاضطراب ، هم – الأم العجوز ، الأب ، الأولاد ، البنات ، أنسباؤهم – مازالوا يعتبرون أنفسهم ، حسب طريقتهم الوحشية ، التملكية ، العاطفية ، مسئولين عن بعضهم الآخر ، وأن ما يجري لأي منهم يؤثر في الجميع . يتضح هذا من خلال سلوك كل واحد منهم مع الآخرين ، كما يظهرهم هذا السلوك على أنهم أجانب . بطبيعة الحال ، كان مطعمهم سيئ السمعة : لذا انجذبنا إليه – إنه واحتنا . لم تعرف هذه العائلة الصقلية شيئًا عن مسألة اللون في أمريكا ، لذا كان هذا المطعم المكان الوحيد في المدينة الذي يقصده الزنوج أحيانًا ليأكلوا ويشربوا ، أو بالأحرى ، المكان الوحيد في المدينة الذي غالبًا ما يقصده السود والبيض ليأكلوا ويشربوا معًا . اليافعون من أفراد العائلة وحدهم ، وبصورة رئيسة النساء ، شرعوا يرتابون بما يعنيه هذا بالنسبة لمنزلتهم الاجتماعية وبما يعنيه لمستقبل أولادهم المادي . يشعر المرء بهذا الأمر من خلال تقطيباتهم القلقة ، تردداتهم من حين لآخر ، وقبل كل شيء من خلال معرفتهم المتزايدة شيئًا فشيئًا بأن الناس المحترمين لا يتناولون البيتزا على الموائد براقة الألوان ، بل يفضلون أن يأخذوها معهم إلى الخارج . لم يكن يهددهم خطر مادي ، يقصد مطعمهم جنود ، بحارة ، أناس اعتادوا السفر ، وعمال : كل هؤلاء بحوزتهم نقود . الجنود والبحارة عادة يصطحبون معهم فتياتهم – فتيات مريبات نوعًا ، خطيرات نوعًا – المسافرون ، أيضًا ، يصطحبون معهم فتياتهم ، أما العمال فكانوا صخابين . حتمًا سيظهر زنوج آخرون من المدينة ، حتمًا الصقليون لا يمكن أن يطردوهم – الطرد شيء يرفضه القانون ، مع إن هذا ليس هو سببهم الوحيد – حتمًا ،

إن حماة القانون يتنازلون كي يعمقوا اضطراب الصقليين . شرعوا ينظرون إلى العمال الزنوج ، الذين كانوا هناك ، على الدوام ، مع العمال البيض ، يأكلون ، يشربون ، يضحكون ، يشتمون ، بالضبط على غرار العمال الذين مازالوا يتذكرونهم ، ينظرون إليهم ، يراودهم أمل بائس أن يكتشفوا ما الذي أصابهم . كانت النساء العاملات فى المطعم يعتقدن أن من الجائز أن ثمة شيئاً خطأ فى أن يكون المرء من الطبقة العاملة ، ذلك يعنى بشكل واضح - إنهن مضطربات فى الواقع - أن عليهن أن يعقدن صلة صداقة مع الزنوج ، شاهدن الأماكن التى يسكنها الزنوج ، وطرق معيشتهم ، لكنهن يجب أن يرتقين درجات عالية بصورة كافية فى السلم الأمريكى ، كى يروضن أنفسهن مع الاضطراب الأمريكى ، لم يتعلمن بعد ازدراء الزنوج ، لأن الحياة مازالت تربكهن ، أحببن بربارة وجيرى وأحببننى ، لم يعرفن كيف يخفين محبتهن لنا ، لم يعرفن سبباً لإخفاء مثل هذه المحبة ، بالطبع ، أحببن جيرى ، بشكل خاص ، لأن بوسعهن أن يتحدثن معه بالإيطالية ، وهبوا بعضهم بعضاً سعادة هائلة ، لأن بإمكان جيرى أن يذلهن لكونهن صقليات ، بوسعهن أيضاً أن يذللن جيرى ، لأن عائلته جاءت من نابلى ، لم أكن يومذاك أعرف من الإيطالية كلمة واحدة ، لكننى ألفت مراقبتهن والإصغاء إليهن ، صلة جيرى بأولئك الصقليين لا تشبه بالمرة علاقتى بزنوج المدينة ، حسدت جيرى ، لعلى كرهته قليلاً ، أيضاً .

بما أننا كنا نعمل فى المسرح ، فقد حظينا باهتمام خاص فى مطعم البيتزا ذاك ، عاملونا كالنبلاء ، لم يستغربوا ظهورى على خشبة المسرح - إن ذلك ليس شيئاً منطقياً فحسب ، بل هو ، إن صح التعبير ، ميراثى ، قدرى المحتوم ، نحن الزنوج الوحيدون الذين سمعوا بهم يعملون فى المسرح ، أو فى الحلبة ، إنهم يرتعبون من بول روبسون[1] ، يمكننى القول : إنهم كانوا كذلك فعلاً ، أحبوا جو لويس ، أحبوا ماريان أندرسن ، أحبوا جوزفين بيكر ، حفزونى كى أخبرهم بكل ما أعرفه عن « الأب المقدس » ، قلت لهم : إنه ساعد فى إطعام الجياع ، اتفقوا معى أن هذا يعنى أنه رجل طيب ، مع أننى أدركت فيما بعد ، أن هزات رؤوسهم وعبوسهم المشوب

(١) ممثل ومغن زنجى أمريكى ، من أشهر أدواره المسرحية دور (عطيل) . (المترجم)

بالتفكير لا تشير إلى الأب المقدس ، بل إلى موسوليني ، الذي ربما ساعد في إطعام الجياع أيضاً ، إنما اتضح فيما بعد أنه لم يكن إنساناً طيباً .

أنجيلو ، أصغر الأبناء سناً ، في السابعة عشرة أو نحو ذلك ، سحرته بربارة كثيراً وحيرته ، ساعدنا في أن نضع لافتتنا في النافذة ، قبل أن ننتهي من هذه العملية بوقت طويل كانت أسرته بالكامل قد تورطت فيها ، خرجت إلى رصيف المشاة كي تحدد مدى تأثير اللافتة على عمل المطعم ، تاركين الزبائن ينتظرون غداءهم ، حين قرروا أخيراً أن ذلك يحقق نجاحاً فنياً – ذلك يعني إعادة تنظيم النافذة – عاد أنجيلو إلى عمله كغاسل صحون ، عاد الآخرون إلى أعمالهم ، جلسنا نحن الثلاثة إلى مائدتنا ، قررنا أننا بحاجة إلى مشروب ، لكن قبل أن نطلب شيئاً ، جلب لنا جوليانو ، الابن الثاني ، ثلاث زجاجات مارتيني غير حلو .

« على حسابنا » قال ، ابتسم وغمز بعينه . « أنا آمل أن تحقق مسرحيتكم نجاحاً باهراً » .

قالت بربارة : « لسنا في هذه المسرحية » .

« أوه ، ستكونين في مسرحية أخرى » . قال جوليانو ، نظر إلى جيري وضحك ، ثم قال : « بالطبع ، أنت تعرفين ، إن هذا الرجل عديم الفائدة ، لن يشترك في أية مسرحية » .

قال جيري شيئاً ما بالإيطالية ، ضحكا ثانية ، قال جوليانو مخاطباً بربارة : «أتمنى ألا تكوني عارفة بالإيطالية ، إنه خنزير ، صديقك هذا» .

قال جيري شيئاً ما بالإيطالية ، ضاعا في إيطاليا ، من خلال نوبة الضحك ، ضحكنا أنا وبربارة ضحكة ضعيفة ، رفعت كأسها ، رفعت كأسي التفتنا إلى جيري وجوليانو ، رفع جيري كأسه .

هتفت : « في صحتك ، وشكراً لك يا جوليانو » .

ابتسم وانحنى : « إنها مسرة صغيرة » . نظر إلى بربارة ، ثم إلى جيري : « هل تريدون أن أريكم لائحة الأطعمة والمشروبات أم إنكم تريدون البيتزا » ؟

قالت بربارة : « نريد البيتزا ، أضخم طبق ، كل شيء فوقها » .

أوشكا ، من خلال نظراتهما القصيرة إلى بعضهما الآخر ، أن يتلاشيا في إيطاليا ثانية ، لكن جوليانو بقي رابط الجأش بينما تشبث جيري بقنينة المارتيني . قال جوليانو : « جيد جداً ، إنها لسعادة » ، طأطأ رأسه قليلاً وسار مبتعداً .

سألت بربارة جيري : « عم كنتما تضحكان » ؟

«نكات عائلية» ، أجاب جيري ، طوقها بذراعه ، كانا في جهة واحدة من المائدة ، كنت وحيداً في الجهة المقابلة . أشعل جيري سيجارة لبربارة ، طبع على جبينها القلق قبلة خفيفة ، « النكات العائلية لا يمكن ترجمتها » .

نظرت إليه ، لم تقل كلمة ، ارتشفت المارتيني وقلت : « هذا المشروب على حساب أهل البيت ، أليس كذلك ؟ حسناً ، هذا يعني أننا نستطيع أن نحصل على قنينة أخرى ، أعني ، أننا سنحصل على قنينة أخرى في كل الأحوال » .

قالت بربارة : « هذا يعني أنك تود أن تشرب حتى الثمالة ، ليو .. يلزمنا أن نجرب العمل فعلاً هذي الليلة » .

« بربارة ، ضقت ذرعاً بالعمل في الظلام ، حفظت ذلك المشهد لعنة الله عليه ، حلمت به ، لا أدري إن كنت عارفاً ما أفعله ، أنت ، أيضاً ، لا تدرين ، كان ذلك .. رجة عصبية » .

« لم أعرف أن التمثيل مسلٍ جداً » ، قال جيري ، ابتسم ابتسامة عريضة ، ضربته بربارة برفق على رأسه .

« لعلي سأجرب التمثيل » ، رفعت بربارة يدها ثانية ، لكنه أمسك بها وحملها .

سألتني : « هل أخبرك صول بشيء آخر ، فيما يتعلق بالوقت الذي يبدأ فيه بالعمل معنا » ؟

« كلا ، تحدثت إلي أولا عصر هذا اليوم » .

« وما قالت فخامتها » ؟

« قالت : ما إن ينتهي هذا الأسبوع القاسي حتى نبدأ بالعمل الجاد ، قالت : إنها كلمة شرف بالنسبة لها أو بالنسبة لصول » ، حدقت في بربارة .

« إذا أخلفتُ وعدها سأعود إلى المدينة » . لحظتها ، كنت أعني ما أقول . « إنه شيء غير مستحسن أن أتسكع هنا ، طوال الصيف ، إن لم أتعلم شيئاً » .

فتحتْ بربارة فمها ، لكن جيري سبقها في الكلام : « لن تذهب وحدك وتتركنا ؟ سنفتقدك ، يا ولد » .

« حسناً .. كل منكما معه صاحبه » . قلت ذلك بصورة خرقاء .

قالت بربارة : « أوه ، ليو ، حقا » ! أخرجتْ سيجارتها بغضب . تطلعتْ إليَّ بيسمة . لم أقدر أن أمنعها ، أبداً ، حين تطلعت إلي بتلك النظرة ، بوسعها أن تحثني على فعل أي شيء . « لن تستقيم الأمور بدونك ، يا ليو . لن تستقيم » . وضعتْ يدها برقة فوق يدي . « لننتظر أسبوعاً . سيفيان بوعدهما . هذا وعد مني » . هزتْ رأسها بقوة . سحبتْ زاويتي شفتيها بصورة هزلية إلى أسفل ، ورفعت يدها .

قال جيري غامزاً بعينه : « إن كنت تشعر بالوحدة فثمة فتاتان في صف تعليم رسم النماذج الحية ، متلهفتان جدا إلى جسدك الأسمر الجميل » . ضحك وخاطب بربارة قائلاً : « إنهما تجلسان هناك ، ترسمان رسوماً هزلية على ورق المسودات . من المفروض أن يرسمن بأقلام الفحم إلا أنهما ترسمان الآن بالألوان المائية ، صدقني » .

نظر إليَّ : « ما رأيك ؟ ذلك من أجل تزجية ليالي الصيف الطويلة ؟ » .

« تلكما البشعتان السمينتان الهرمتان ؟ لابد أنك جننت » .

« ليستا طاعنتين في السن . هما في سن معقول ، يا ولد » . أضحكني التعبير الجاد ، الغريب البادي على وجهه . « هما ليستا قلقتين فيما يتعلق بالحمل . لذا .. حسناً ، أنت تعرف كل شيء يقدير » .

قالتْ بربارة : « جيري ، تلكما المرأتان بغيضتان ، بالأخص السيدة جنكينز ، وزن مؤخرتها وحدها يزيد على مائتي رطل » .

قال جيري : « ليو يحب ذلك . الرجال النحيفون يحبون ، دوماً النساء البدينات » .

قلت : « يا للمسيح ، أتمنى ألا تتدخل في حياتي الجنسية » .

قال جيري : « هي ، أنا سعيد لأنك قلتها بصراحة . شابتان في الصف شديدتا الشوق إليك ، أيضاً ، قالتا لي .. » غطست منديلي الورقي في كأس الماء ، تورته ورميته إليه ، ضرب كتفه : رماه أرضاً ، « حسناً ، ليو . حاولت فقط أن أساعدك » .

« هراء . ستحتسي قنينة أخرى » . ابتسمت لبربارة ابتسامة عريضة .

« مثل جانح جنسياً يعتزم أن يشرب » .

قال جيري : « يا ولد ، أنا أشفق عليك فعلاً ، حين أعرف أنك ستكون على المنصة أمام تينك المراتين المتهتكتين . يا المسيح . إنهما تجعلان جلدي يقشعر . أتعرف ما أعني » ؟

« نعم » . شيخ العشيرة ، سلفاتوري ، مر من أمام ناظري . أومأت له بمزيد من المشروب . «حسناً ، أعرف ما تعنيه » .

كان تعليم الرسم باستخدام نماذج حية شيئاً يوقع الكآبة في النفس . هذا التعليم تقوم به بصورة رئيسة نساء ، هرمات ، عاطلات عن العمل ، ما من واحدة منهن ، على ما أزعم ، تمتلك ذرة من الموهبة . رسمتني في بلد ما من بلدان إفريقيا ، أحمل رمحاً . مفهومهن عن الوحش الإفريقي مدين إلى ، ومختلط مع ، مفهومهن عن هندي أمريكا : فكانت النتائج على الورق مذهلة فعلاً . وجدت أنه شيء مزعج أن ينظر إليّ المرء ويرى ما رأيته . لم يكن بالأمر قليل الإزعاج أن أعرف أن مظاهرهن الخارجية العليلة ، بدانتهن تخفي وراءها كثيراً من الفانتازيا ، العجز ، الوحدة ، وحب الانتقام . تينك المراتان وهبتاني أول لمحة عن نوع من علم النفس ، جمعتها أخيراً – أو نبذتها – كونها عقدة ورقة التين : كلهن يعملن في قسم ورقة التين . سبب لي ذلك ، على حد قول جيري : «قشعريرة» في الجلد ، حين وقفت أمامهن عارياً . في البداية ، أخافتني لوني – بدني كله عار يعني أن يتحمل الرائي كمية كبيرة من اللون – إنما لم يمض وقت طويل حتى أخذ الرعب يستولي عليّ ، وهذه المرة كان الرعب من حقيقة الجنس ثقيل الوطأة . لبست حمالة الأعضاء التناسلية حسبما يقتضيه النظام ، مع أن هذا بدا سخيفاً . الموديلات الأنثوية لا يرتدين شيئاً على الإطلاق . لكنني أخذت أشعر أن حمالة الأعضاء التناسلية – في الواقع – لها وظيفة : فمن المحتمل أن يكون استخدامها ذا

وظيفة ، كنوع من التحريض ، لهن ولي على حد سواء . أخذت أستعض من حمالة الأعضاء التناسلية ، فقد بدت لي كأنها نوع من الإهانة لجسدي . لم أستطع أن أقاوم الشعور الرهيب بما تخفيه الحمالة مما جعل عضو ذكورتي بتوتر . خفت دوماً من انتصاب عضو ذكورتي : كل أجزاء بدني يمكن رؤيتها عدا ذلك العضو الخاص جداً ، الذي لا يمكن أن يعلن عن نفسه مطلقاً . حسناً ، كان ذلك ألماً مبرحاً ، بكل قلقي الذي تمركز تحت خاصرتي ، أحسست ، دوماً ، بصورة لا ترحم ، بالعضو الانتقامي ، يأخذ بالتمدد والتورم - بقلق ، أظن ، بالتأكيد ليس برغبة جنسية قوية - دافعاً بالحمالة إلى أسفل . لكنني واصلت النظر إلى أمام ، حافظت على جلستي ، متوقعاً ، بين لحظة وأخرى ، أن أسمع النسوة يصرخن ويفقدن وعيهن . يتصبب العرق من إبطي ومن العانة وعلى طول ساقيّ . كان الجلوس بثبات لمدة خمس دقائق أمام سيداتي أشق بالنسبة لي من العمل في المناجم . لكن النساء واصلن العمل بثبات ، مستخدمات إضمامات الورق ، أقلام الرصاص ، الفرش ، تارة يحملن القلم إلى الأعلى أمامهن كي يقمن بتشريحي ، بينما أشعر أنا بمنخسي الأسود ، المتمرد يضرب بعنف على جدران برجه المحصن ، بدا لي أنه يهدد الحصن بغية تحطيمه . حين انتهى الأمر ، ونزلت ، عرفت أنهن رسمن وحشاً نبيلاً ، يحمل رمحاً ، مزيناً بمئزر غير لطيف وبشع كوجوههن - وحش عديم الضرر ، يناسبه دور المدلل ، وحش غير قادر على الإنجاب .

جلب لنا سلفاتوري دورة عذبة من المشروبات ، أخذ يعد مائدتنا . كان رجلاً شديد القوة ، مسالماً ، بنيته تجعله يبدو أشبه بشجرة قصيرة . كان هو الآمر الناهي في مطعمه بصورة عفوية ، لا تقبل الجدل . أحب بربارة ، ولأنه شيخ العشيرة فقد استهجنها أيضاً ، ولأن جيري إيطالي الجنسية فقد استعاد سلفاتوري ثقته بنفسه ، حيث عرف أن جيري سوف يرتب وضعهما بالتأكيد ، فيتزوج بربارة وبعدها يبدآن بإنجاب الأطفال . لم يأخذ سلفاتوري بالحسبان أي احتمال إنساني آخر بصورة جدية .

ثمة شيء مدهش في شخصية جيري أظهره سلفاتوري للعيان . كشف جيري جانباً من شخصيته لسلفاتوري لم يكشفه لأي إنسان آخر قط . في اعتقادي ، لو لم أر

جيري مع سلفاتوري لما عرفت مطلقاً أي ألم وأي حب يكابده هذا الصبي ، ولما خمنت كم خسر لحد الآن ، ولماذا استطاعتْ بربارة أن تتولى رعايته . عامل سلفاتوري جيري كأنه أحد أبنائه ، مما جعل الرجولة تبرز في شخصية جيري . كما أظهرت هذه المعاملة الرقة والكياسة الساكنتين بداخله واللتين احتقرهما جيري في معظم حياته من خلال كلامه الخشن وتمثيله الخشن . الصبي الضائع والعاشق جيري الذي حاول أن يطلق وينكر بصورة بائسة علاقته ببعض الناس ، كان المخلوق الوحيد الذي رآه سلفاتوري ، ولم يخطر بباله أبداً أن يرتاب في قيمة هذا المخلوق . لم يكن بوسع سلفاتوري معرفة ذلك ، لكنه فجأة وصل مباشرة إلى قلب وحدة جيري ، وتنبأ أيضاً بحياته الحافلة بالقسوة والوحدة . حين تأملت سلفاتوري وجيري معاً ، فرحت لجيري لكنني حزنت على نفسي . ذلك أن الرجل المسن ، القوي ، ميز جيري وفهمه ، وجد في حياته الشخصية المفتاح إلى شخصية جيري ، لكنه لم يجد المفتاح إلى شخصيتي : حياتي ، في الواقع ، لم تخطر أبداً ببال أي إنسان . لا أدري ما السبب . أحياناً ، أفر وحيداً إلى الجزء الزنجي من المدينة ، تارة أشرب هناك حتى الثمالة ، سقطت على الأرض مرتين ، لكن صلاتي كلها تحطمت .

تجاذب سلفاتوري وجيري الحديث بالإيطالية ، تطلع جيري إليه بعيني طفل واسعتين ، رائقتين حين دخلت مادلين ، ربما لأنني وددت ألا تداهمني أفكاري – أو كي أحتمي من بربارة وجيري اللذين كانا يحسدان أفكاري – كنت سعيداً بصورة غير معقولة برؤية مادلين . كان لها مظهر لامع للنساء العائدات من صالون الحلاقة ، ترتدي فستاناً برتقالي اللون براقاً – لم يرق لبربارة أبداً ، حين عبرتْ عن ذلك برعدة مسرحية صغيرة .

قالت مادلين بسمتها العريضة ، السمحة : « حسناً ، هل لديكم مؤتمر أم يمكنني مشاركتكم » ؟

أجبتها : «المؤتمر انتهى، حين علقنا آخر لافتة . إذا بوسعك أن تأتي إلى المطعم» .

« جيد » . جلستْ مادلين وأرسلتْ بصرها إلى بربارة . « كيف حالك يا حلوتي ؟ أظن أن الأولاد أرهقوك هذا الأسبوع ، أليس كذلك » ؟

لم يستحسن سلفاتوري مادلين على الإطلاق . أنهى حديثه مع جيري بصورة مباغتة . ألقى نظرة خاطفة على مادلين وسار مبتعداً . أدركت أن جيري أحس بقليل من الحرج . « هي » . قال بابتسامة غير صافية : « كيف تسير الأمور » ؟

قالت بربارة : « يبدو لي أنهم يعاملون الجميع كالعبيد . لابد أنك مرهقة . أيضاً ، على الأقل ، أنت تمثلين في مسرحية » .

« أنا ؟ » سألت مادلين ، بعينين جاحظتين ويدين معلقتين في الهواء .

« ما أفعله الآن ؟ أنا مسرورة لأن أحدهم أخبرني .. أنا بحاجة إلى مشروب » .

قالت بربارة : « ما الذي جرى ؟ ألا تسير الأمور سيراً حسناً » ؟

« اسمعي ، أعرف أنني لست نجمة كبيرة من نجمات هوليوود ، كي أمثل في مسرحكم في الجرين بارن – هل سيكون ذلك فوضى ، يا إلهي ! – لكنني ممثلة جيدة ، عملت بجد ومثابرة ، علاوة على ذلك ، كافئوني على هذا الشيء اللعين .. لن أخبرك كم هو ثمن المكافأة لأنني شديدة الخجل – بسبب مبلغها – لا أعتقد أن الممثلين يجب معاملتهم كالبراز ، عزيزتي ، إذا سمحت لهذا الخطأ أن يستمر ، فبوسعك أن تمتلكي "ورشة تدريب الممثلين" ، صدقيني ، بالأخص ، تلك السيدة الهرمة التي تدعو نفسها مخرجة ، والتي لا تستطيع أن توجه ولداً على مزلجات ذات عجلات ، يتدحرج عبر الفناء » . توقفت عن الكلام برهة ، استراحتْ ، تطلعت إلينا وضحكت . « حسناً ، عليّ أن أخبر أحداً قبل أن أنفجر » . جاء جوليانو ، ابتسمت له مادلين وطلبت زجاجتي بوربون .

قالتْ بربارة : « عندك تمرين غداً صباحاً ، عليك أن تحترسي هذه الليلة » .

قالتْ مادلين : « اللعنة عليهم ، ربما أذهب إلى هناك أو ربما لا ، لعلي سأتخلى عنهم ، وأرغمهم على أن يجدوا ممثلة أخرى » .

سألتها : « ما الذي جرى » ؟

« أوه » ، قالت بقلق ونظرت إلى بربارة : « ما الذي جرى ؟ هم لا يعرفون ما يفعلونه ، هذا الذي جرى . هذا الذي جرى منذ أن التحقت بجماعة براز الثور هذه » . جلب لها جوليانو ما طلبته من المشروب .

ابتسمت له ثانية . ارتشفت البوربون . « فلنكف عن التكلم في هذا الموضوع .. على الأقل حتى أنتهي من احتساء مشروبي وتناولي بعض الطعام » . تطلعت إلى وابتسمت ابتسامتها الهادئة التي تلطف الجو . « في يوم من هذه الأيام ، ربما تتمنى ، يا غلام ، أن تكون قد بقيت في مكتب البريد » .

ابتسمت : « أو في الكنيسة . لكن الاثنين طردوني » .

سأل جيري مبتسماً ابتسامة عريضة : « كيف حدث ذلك » ؟

« هو لا يستطيع أن يسلم الرسائل » قالت بربارة . نظرت إلى . ضحكنا جميعاً .

عاد جوليانو ليسألنا ، بأدب جم ، ما إذا تنوي السيدة أن تتناول طعاماً ، وما إذا نتناول طعامنا قبلها أم ننتظرها حتى تنتهي من احتساء مشروبها .

سألتها بربارة : « مادلين ، ماذا تحبين أن تأكلي ؟ طلبنا تواً أضخم طبق بيتزا في المطعم » .

« حسناً ، هل لي أن أشترك معكم في طبق البيتزا » ؟ سألت مادلين . « أنا أحتاج الصحبة أكثر من حاجتي إلى الطعام » . نقلتْ نظراتها بسرعة من جيري إلى بربارة . بعدها مالت نحو بربارة : « حلوتي .. أعرف أنهم يدفعون لي أكثر مما يدفعونه لك .. وأنني دمرت حفلتك .. لذا ، من فضلك ، لأكن أنا من يدفع الثمن » . حدقت في جيري وبعدها حدقت فيَّ : « إن لم تسمح لي أن أفعل ذلك ، إذاً عليَّ أن أغادر . أنا لا أنوي المغادرة » .

ظل جوليانو واقفاً يستمع إلى الحديث ، وجهه جامد كجدار . جيري يراقب جوليانو ، وبربارة تراقب جيري . لذا ، مالت بربارة إلى أمام ، أمسكت بيدي مادلين ، قالت : « مادلين ، الواقع ، كنا ننتظر قدوم أحد من أمثالك . ليس ثمة مال بيننا » . بعد ثانية ، ردت مادلين رأسها إلى الوراء ، ضحكت . ضحكت بربارة أيضاً . ابتسم

جوليانو ، أخبره جيري بالإيطالية ، أن البيتزا يجب تقسيمها الآن إلى أربعة أقسام بدلاً من ثلاثة . نظر جوليانو إلى مادلين بنظرة تختلف تماماً عن نظرة والده إليها ، انحنى احتراماً لها ، ومضى مبتعداً . لكنه نظر إليّ أيضاً ، نظرة حسد مراهق . كان على يقين أن مادلين هي فتاتي .. أو بالأحرى امرأتي ، لن يستطيع المرء الزواج منها ، لكنه شيء ممتع أن ينام معها . وصل جيري إلى وجهة النظر هذه إنما بطريقة مختلفة .

قال جيري : « أنت تأمل أن يستجيب الله لدعواتك » رفع كأسه وغمزني بعينه .

« أما زال ليو يتلو صلواته » ؟ سألت مادلين . التفتت إليّ : « حسبت أنك تحررت من العبودية » .

قلت : « إنها تحررت . أما جيري فما يزال ، إنه يشعل الشموع من أجلي » .

سألت مادلين : «هل ثمة شيء وددت الحصول عليه ولم تستطع؟» ضحكنا جميعاً ، خاطبت مادلين بربارة : «حتى لقائي بليو، لم أكن أظن أن الإنسان الملون يحمر خجلاً، لكن انظري إلى ليو ! » .

قالت بربارة بتجهم : « أوه ، بوسعه أن يحمر خجلاً ، لكنه يكره أن يلاحظ الناس ذلك . هو يظن لو أنك عرفت بكونه قادراً على الاحمرار خجلاً – كالبيض تماماً – سوف تعتقدين أنه إنسان اعتيادي » .

اعترضت قائلاً : « لم أقل شيئاً من هذا القبيل ، وأنت تعرفين هذا » .

قالت بربارة وهي ما تزال تخاطب مادلين : « يعتقد ليو ، أيضاً ، أنه ما لم يقل لك ذلك ، لن يكون بمستطاعك التصريح باسمه » .

قال جيري : « يا لليو المسكين ! أرهقته بربارة طوال عصر هذا اليوم » .

قلت : « غضبت عليّ غضباً شديداً بسبب ذلك المشهد اللعين . لكنني أقسم بالله لا أرى سبباً كي أشتغل عليه هذي الليلة . أنا أعني ما أقول . عليّ أن أكتشف ما أنا فاعله » . لم تقل كلمة . تأملتني . قلت : « حسناً . حسناً . لعلنا سنشتغل عليه بعد العشاء . حسناً يا أميرة » ؟ خفضتُ بصرها .

سألت مادلين : « أي مشهد تشتغلان عليه أنتما الاثنان » ؟

أخبرتها : « اشتغلنا عليه زمناً طويلاً . من المفروض أن ينظر إليه صول ، لكنه لم يفعل حتى الآن .. و .. حسناً ، أنت تعرفين ، أشعر كأننا ندور في حلبة . ينبغي أن أسمع رأياً من أي شخص كان » .

« حسناً ، بمستطاع صول أن يبدي رأيه » . قالت مادلين . كفت عن الكلام ، رشفت مشروبها ، « لا أدري ، اعتدت أن أفكر به أكثر مما أفعله الآن » . نظرت إلى بربارة ، ثم إليّ « لست متأكدة من كونه قادراً على قول أشياء في غاية الأهمية » .

سألت بربارة : « حسناً ، أيوسع أي مخرج أن يفعل هذا » ؟

قالت مادلين : « أولاً ، لنواجه الحقيقة ، صول ليس مخرجاً . هو معلم . هذا شيء مضحك ، بخاصة في المسرح . يعتقد بعض الناس أنه معلم عظيم . أناس آخرون يعتقدون أنه معلم سيئ » . كفت عن الكلام هنيهة ، ثم استطرت قائلة : « لا أرغب أن أقول شيئاً من شأنه أن يثبط همتكما أيها الصغيران .. لأضع الأمر على النحو الآتي : قد يكون هو مخرجاً عظيماً بالنسبة لكما ومخرجاً سيئاً بالنسبة إليّ . إذا استطاع المخرج الوصول إليك ، ومحضته أنت الثقة ، فلربما يكون بمستطاعه أن يوجهك ، ويتمكن من أن يفجر فيك أشياء مسكونة بداخلك لا يعرفها أحد سواه .. وأنت نفسك لا تعرفها » . نظرتْ إليّ من جديد ، عرفت أنها لم تفعل كل ما عنته : توقعتُ كل ما كانت تريد قوله . « اسمع ، لندع الممثلين جانباً . كم هو عدد المخرجين القادرين على إخراج مسرحيات تشيخوف ، مثلاً ؟ بالنسبة لقضية الإخراج ، نفر قليل من المخرجين قادر على إخراج مسرحيات إبسن أو شو أو شكسبير . وهذا النفر القليل ... » ضحكت ، أخذت جرعة أخرى من مشروبها . « لا تعثر على أحد منهم في [ورشة تدريب الممثلين] » .

قالت بربارة : « لكننا في هذا البلد لا نمثل بشكل رئيس مسرحيات إبسن أو شو أو شكسبير » .

« حسناً » قالت مادلين ورفعت ذراعيها ثانية . « لهذا يخرج المخرجون ما يروق لهم ، أليس كذلك ؟ الغلطة ليست غلطتهم . إن كنت مكانك لن أتوقع منهم شيئاً كبيراً . أطلت حديثي » .

قالت بربارة : « أبداً . فهمت » . بدت وقورة بصورة مدهشة ، بل حزينة . ثم بعد لحظة سألت : « ألا تستطيع تغيير ذلك » ؟ نظرت بإمعان إلى مادلين ، كأنها ، بتلك النظرة ، ودت أن توجه سؤالاً إلى مادلين تحت سؤالها المباشر : « هل تستطيع » ؟ سألت مادلين . انحنت إلى الأمام : « اسمعي ، لي ابنة ويلزمني إطعامها . إنك لا تعتقدين بأنني أنجز تحفة رائعة ، أليس كذلك ؟ لا ، يا حلوتي . أنا بحاجة إلى دور مسرحي ، إلى دور رئيس في مسرحية . أعتقد أن بوسعي أن أخرج عن الدور المحدد لي . إن استطعت فعل ذلك ، سأحصل على دور أفضل . لعلي قادرة أيضاً على الظهور في عرضين جيدين لمسرحيتين جيدتين . لكنك ، بشكل رئيس ، تأخذين الدور الذي تستطيعين الحصول عليه » .

قالت بربارة : « تأخذين ما تستطيعين الحصول عليه ، لكنك حين تأخذين الدور تتصرفين به كيفما شئت » .

سألتها مادلين : « هل تستطيعين فعلاً » ؟

ران صمت . انتهت بربارة من احتساء مشروبها .

قالت بربارة : « نعم » .

جاء جوليانو بالبيتزا .

قالت مادلين : « لنحتفل ، ونطلب قنينة من الشيانتي » .

قلت : « عزيزتي ، حري بك أن تجيدي دورك في هذه المسرحية . أنت بحاجة ماسة إلى دور آخر فوراً » .

قالت : « سيكون دوري رائعًا ، بالرغم من راجنز رولاند ، ومدام لولا سان جين[1] . إلى الجحيم ، إن لم ألتحق بكم يا أولاد ، فلربما رميت نفسي في ذلك النهر الذي يصخبون فيه » .

(١) مدام سان جين : مسرحية من تأليف فكتوريان ساردو (١٨٣١ – ١٩٠٨) . (المترجم)

أخذ جوليانو يقطع البيتزا . وفيما كان يفعل ذلك ، دخل عاملان زنجيان . كانا شابين ، كلاهما يكبرانني سناً ، نوعاً ما . أحدهما في حوالي الثلاثين ، داكن البشرة ، قصير مكتنز ومرح . قلت : عاملين ، العامل الأصغر سناً ، في مقتبل العشرينات ، ترك فيّ انطباعاً بأنه جندي ، كان يرتدي الخاكي ، نحيل ، فاتح السمرة طويل وخجول ، ذو وجه ضيق . رأيت العامل القصير المكتنز في الجزء الزنجي من المدينة ، في حانة ، لكنه لم يحدثني ولم أعرف كيف يمكنني التحدث إليه . أما الأصغر سنا فلم أره من قبل ، شيء ما في سلوكه - النمط الخاص بخجله - جعلني أعتقد بأنه غريب هنا . أعتقد أنني أعني أن الأكبر سناً، القصير المكتنز المرح ، اعتاد أن يكون قلقاً ، مبحراً في دنيا القلق ، باسماً ، وكأنه يواجه ريح حياته ، في حين كان العامل الأصغر ، الصلب والصامت ، قد بدأ ينتبه للبرودة . كانا هناك ، جاءا إلى هناك ، العامل الأكبر ، بتلك الابتسامة الجاهزة ، بكل تلك الأسنان البراقة ، أرشد العامل الأصغر إلى منضدة تبعد عنا ثلاث مناضد ، جيري وبربارة يجلسان قبالتنا أنا ومادلين : بدونا ، بصورة مؤكدة ، أشبه بمجموعة متكاملة . إضافة إلى أنني كنت سيئ السمعة ، ومثل غريب يتفوق على أقرانه في أمة يائسة ، مزقت وبحسن نية اقتصاد المدينة العاطفي ، لم أعرف ، على أية حال ، ولم أستطع معرفة ، ماذا يعني التعامل مع مدينة كهذه ، من المؤكد ليس ثمة إمكانية أستطيع تقبلها . إمكانية أقل حيوية حسب هذه الشروط . إن كان واضحاً بالنسبة لي أنهم عرفوا ماذا يعني التعامل مع المدينة ، فقد كان واضحاً بالنسبة لهم أيضاً أنني لم أعرف - إما لأنني عرفت أكثر أو عرفت أقل : إما لأنني لم أعرف أو لأنني لم أستطع أن أعرف ، إما لأنني احتقرت لوني أو لأنني لم أحتقره ، وددنا بصورة يائسة أن نصل إلى لب القضية ، لكننا لم نعرف كيف نبدأ ، هاأنذا ، أجلس مع ثلاثة من البيض ، أو بالأحرى مع امرأتين من البيض ، لم أستطع مغادرة طاولتي والذهاب إلى طاولة العاملين الزنجيين ، لم يستطيعا هما أيضاً أن يغادرا طاولتهما وأن يأتيا إلى طاولتنا ، أو بالأحرى ، في هذا السياق ، طاولتي ، لم نستطع أن نفعل ما وددنا فعله ألا وهو أن نكون سلسين مع واحدنا الآخر ، لا : هما جالسان ، تحت عيون الصقليين اليقظة ، الحائرة ، يتجاهل كل منهما الآخر بصورة متعمدة ، القط القصير المكتنز ، الأسود الذي أعطى الأمر ، القط الطويل ، الهزيل ، الأسمر ، يتطلع إلى الأسفل ، يداه بين ركبتيه ، على مدى برهة

قصيرة كرهت كل رفاقي الذين لم يجر لهم شيء مثلما جرى لي . على ما أظن . كنا . جميعاً . نركز أبصارنا على البيتزا والخمر .

قالت مادلين بغتة : « الواقع . إنني غير متأكدة من كوني أؤيد كل ما في براز تدريب الممثلين . أعني أنني غير متأكدة من إمكانية تعليم الممثل أو وجوب تعليمه » .

« إذاً كيف تعلمت التمثيل » ؟ سألتها . بقيت أراقب العاملين : كنت أتخذ قراراً .

قالت مادلين : « ليو . في اعتقادي . ستتعلم لو ذهبت خارجاً ووقفت على مؤخرتك أمام خمسمائة إنسان أكثر مما تتعلمه من صول . صدقني » .

سألت بربارة : « لكن كيف . هل نلت فرصة السقوط على مؤخرتك أمام خمسمائة إنسان » ؟

أجابت مادلين : « أوه . حسناً . أنا موافقة على هذا . إن لقب الورشة يساعد الممثل . فالآخرون جميعاً مليئون بالبراز على غرارهم . لكن . صغيرتي . هذه مجرد سياسة .. إنها طريقة حاذقة للحصول على دور » .

سكتت بربارة . راقبت العاملين . كانا يحتسيان الجاودار والماء . العامل الأكثر سمرة يقهقه ويتحدث بيسر وعلى مهل . بل بصورة حميمة . لكن بطريقة مسرحية صرف . سقط عليه الضوء في وقت مبكر . ذلك الضوء الذي لا يوصف . سيكون فوق خشبة المسرح حتى يوم مماته . كان البرهان على سطوته هو أن العامل الأصغر يضحك بخفوت وقلق . مطأطئاً رأسه . قال العامل الأسود : « الآن . لن تعثر على امرأة سوداء أفضل من سيدتي المسنة .. هل فهمت ما عنيته ؟ إنها رائعة يا صغيري . أعني أنها رائعة . مع أنها أخذت تذهب إلى المراقص التي تعزف موسيقى السوينج . هل فهمت ما أقصده ؟ هي تريدني أن أراقصها طوال النهار كي يمكنها أن تصبح أشبه بريتا هيوارث » . نظر بحكمة إلى العامل الأصغر . الذي كان يراقبه بإمعان، يحمل كأسه بيديه . أمام وجهه . بعدها أصبح عديم الاكتراث . ضحك . كاشفاً عن جميع أسنانه .

قالت بربارة : « إنك تجعل الأمور محزنة » .

قال جيري : « الحقيقة . دوماً . محزنة . أنت تعرفين ذلك » .

قالت : « أجل . أعرف ذلك . أنا أعرف كثيراً . الواقع .. لكن يبدو أنني لا أفهم كثيراً جداً » .

ضحكت : « كوني حذرة ، يا مادلين ، إنها مسحوقة » .

« كفاك تعذيباً لها » . مالت إلى الأمام ، ربتت بربارة بلطف على خدها وقالت لها : « أنت لطيفة جداً » .

قالت بربارة : « في اعتقادي أنت لطيفة جداً ، أيضاً » .

انتهوا من احتساء مشروبهم . أومأت إلى جوليانو .

قلت له : « من فضلك ، قدم للهورين الملونين مشروباً على حسابي ؟ خذ المشروب إليهما » .

ابتسم جوليانو ، هز رأسه ، غادر ، تطلع إليَّ جيري وبربارة ومادلين .

قالت مادلين : « أوه ، يا لها من مبادرة » !

قالتْ بربارة باسمة : « أنت طائش نوعًا ، أنت طائش نوعًا » ، لكنها بدت مسرورة « أتعرفهما » ؟

« لا ، أعتقد أنه يلزمنا أن نعرف بعضنا » . وخاطبت مادلين قائلاً : « لعلي سأستدين منك دولارين ريثما يدفعون لي » .

ضربتني مادلين على فخذي ، قالت : « لا تبال » . بقيت كفها على فخذي هنيهة .

« ما الذي جعلك تفعل ذلك » ؟ سألني جيري ، بدا مسروراً .

« لا أدري ، أحسست فقط أنني أود أن أفعل ذلك » .

جلب جوليانو قنينتي المشروب إلى منضدة العاملين الملونين . ركزت بصري على طبق البيتزا العائد لي . بدت عليهما الحيرة لحظات . أشار جوليانو إلى مائدتنا . التفت العاملان ونظرا إلينا . رفعتُ كأسي المترعة بالخمر . رفعتْ بربارة وجيري ومادلين كئوسهم . ابتسمنا جميعًا . فجأة ، تغير كل شيء . إن لم نحطم الحواجز بيننا ، فعلى الأقل نجحنا في أن نتقبل وجود بعضنا الآخر . كان الغلام ما يزال خجولاً ، لكنه سر سروراً . العامل الأكبر احمر خجلاً . إلى حد ما لأننا ساهمنا في إدخال البهجة إلى قلب غلامه .

قلت لهما : « مرحباً » .

قالا : « مرحباً . شكراً » .

قالت مادلين : « لنشرب معاً . بعد أن ننتهي من عشائنا » .

قال العامل صغير السن بخجل ، بعد أن ألقى نظرة على زميله الأكبر منه سناً : « هذا لطف منك » .

قال معلمه الخاص : « نوافق على شرط أن يكون المشروب على حسابنا » .

قال جيري : « سنناقش هذا الموضوع فيما بعد » . ضحكنا جميعاً . رفعنا كئوسنا ثانية . « بصحة الجميع » .

ربما خفق قلبي في صدري مثل جناحي طائر صغير . كنت سعيداً بصورة لا تصدق لأنهما لم يرفضا . أدركت أنني فرح بصورة كافية . وكدت أبكي .. بربارة ومادلين تتجاذبان الحديث عن المسرح . على بعد ثلاث مناضد منا . استأنف العاملان حديثهما عن النساء . أقبل جوليانو نحو جيري . تحدثا حديثاً سريعاً بالإيطالية . مضى جوليانو . تطلع إليّ جيري .

قال : « يا غلام . لي إحساس أننا . كلنا . سنسكر .. ونفيق .. صباحاً » .

قلت : « إلى جهنم . إنها ليلة السبت » .

حان وقت شرب القهوة . أتت قهوتنا . جلب جوليانو طاولة صغيرة وكرسيين .

قال : « هذه لصديقيك » .

التفت جيري . ابتسم وقال : « تعالا وشاركانا » !

نهض العامل الأكبر سناً فوراً . لأن تردده كان عظيماً جداً . عميقاً جداً . ابتسم كرجل اعتاد النهوض بسرعة إذا ما تعين عليه النهوض . في حين أن العامل الأصغر بسبب . بدا على مدى هنيهة غير راغب بالنهوض . لكنهما جاءا إلينا . مد إليهما جيري وهو نصف واقف يده للمصافحة : « اسمي جيري هذه بربارة » - بربارة .

هي الأخرى . ابتسمت . مدت يدها . تصافحوا – « وهذه هي مادلين » . قال مادلين : « أهلا يا صديقانا . هذا هو ليو » .

تصافحنا . قلت : « أهلاً بكما . اجلسا » .

قال الأكبر سناً : « اسمي فاولر وهذا زميلي ماثيو » . جلسا .

« هل تسكنان . يا صديقانا . في هذه المدينة » ؟ سألتهما مادلين . هي تمتلك خاصية نفيسة ألا وهي المودة التي لم يفسدها الخيال أبداً . أي يمكنها أن تسأل عن أي شيء .. يعني هذا . أيضاً . ربما . أنها لا تستطيع سماع أي تمتمة .

« أنا أسكن في المدينة » . قال فاولر . دلت ابتسامته على المقياس الدقيق لانتباهه : كلما ابتسم أكثر يعني أنه راقب أكثر . وشاهد أكثر .

قال ماثيو : « أنا لا أسكن فيها . أنا آت من فيلادلفيا » .

سألته بربارة : « هل ستمكث هنا طويلاً » ؟

« أياماً معدودات » .

« هل تعود بعدها إلى فيلادلفيا » ؟

فاولر وماثيو تبادلا النظر إلى أحدهما الآخر بابتسامة قصيرة . قال ماثيو : « لست على يقين إلى أين ستكون وجهتي بعد مغادرة هذا المكان » .

قلت : « كلنا لا نعرف وجهتنا » .

حدق بي ماثيو . كف فاولر عن الابتسام . لم أكن خطيراً . سألني : « من أية مدينة أنت » ؟

قلت له : « أنا من نيويورك . أقصد من حي هارلم » .

سألني ماثيو بابتسامة خجولة : « ما الذي تفعله هنا إذاً » ؟

أجبته : « أنا أدرس . كي أصبح ممثلاً » . بدا مشدوهاً قليلاً .. لم يكن انشداها عدائياً . بل مشدوهاً فقط . لم أتخيل ماذا يجول في خاطره .

« من المفروض أن نقدم مسرحيتين خلال موسم الصيف الحالي » .

قالت بربارة بحذر : « نحن نعمل مع [ورشة تدريب الممثلين] . لا أعرف ما إذا سمعت بها .... » .

قال فاولر : « لا . لم أسمع بها » .

قالت مادلين : « حسناً . بما أنك تسكن هنا . فلابد أنك سمعت بالجرين بارن .. المسرح المشيد في بول دوج رود » ؟

« خارج شارع بول دوج ؟ أوه . نعم . سمعت بالجرين بارن . حسناً » .

قالت بربارة : « حسناً . هناك مقر عملنا . هناك سنبدأ عرض مسرحيتنا مساء غد » .

قالت مادلين : « وأنا . سأبدأ عرض مسرحيتي بعد ست ليال .. أتنوى المجيء ؟ قل لي كم عدد البطاقات التي تريد .... » ؟

قاطعتها بربارة : « أن نوفرها لك . الواقع . ستسدى لنا معروفاً . بهذه الطريقة . سنكون متيقنين من أننا كسبنا على الأقل اثنين من الناس بين جمهور المشاهدين » .

قالت مادلين : « شكراً يا حلوتي » .

قلت : « إنهما تعنيان . إنكما تأتيان إلى المسرحية كضيوف لنا » .

فاولر وماثيو تبادلا النظر إلى بعضهما . قال ماثيو لي : « اسمع . هل ستكون في هذه المسرحية » ؟

أجبته : « ليس في هذه المسرحية » .

قالت بربارة : « نحن مجرد طلبة . لن نظهر في إحدى المسرحيات إلا بعد مرور شهر من الآن » .

قال ماثيو : « عندها سأكون قد غادرت المدينة » .

« أي نوع من المسرحيات ستظهر فيه يا غلام » ؟ سألني فاولر . كان يبتسم . ثمة تخمين لاذع . مسلٍ في عينيه .

أجبته : « لا أدري حتى الآن . أنا الآن في بدايتي » .

« ما الذي جعلك تقرر أن تصبح ممثلاً » ؟

« لا أعرف هذا أيضاً . أعتقد لأنني مجنون » .

ضحكا لهذا الجواب . ضحكا ضحكاً حقيقيا . تطلّع إليّ ماثيو . وقال : « أنت على صواب » .

ذكرني ماثيو بكاليب .

سألني فاولر : « هل أتيتَ من قبل إلى جانبنا من المدينة ؟ » .

« أتيت إلى (حانة لوسي) مرتين » .

« أوه ! لوسي ! » ضحك .

قلتُ له : « رأيتك هناك ذات ليلة » .

قال ماثيو : « ستحدث الآنسة عنك » .

« هل شاهدتني هناك ؟ لِمَ لَمْ تكلمني » ؟ قال فاولر .

قلتُ له بصوت ضعيف : « حسناً . لم أشأ أن أزعجك » .

مص أسنانه : « سآخذك إلى بيتي في يوم قريب وأجعل زوجتي تضع بعض اللحم على عظامك . أنت بحاجة إلى أكل جيد مطبوخ في البيت . كم يبلغ وزنك » ؟ أخبرته بوزني . قال لي : « أوه . يا غلام . هل سترغب زوجتي بالعناية بك » ؟

قال لي ماثيو : « يبدو أنك افتقدت طعام أمك المطبوخ » .

أجبته : « حسناً . افتقدته منذ مدة » .

سألني فاولر : « أين هي أمك » ؟

« هي في نيويورك . في حي هارلم » .

« وأين أبوك » ؟

راقبني كلاهما بشغف مما جعلني أقلق . بربارة وجيري ومادلين يراقبونني أيضاً . قلتُ : « هو مع أمي » .

بدأ يستشعران عدم ارتياحي . تذكر أن ثمة أناساً بيضاً يجلسون إلى المنضدة . سألني فاولر : « ماذا تشربون يا قوم » ؟

قالتْ مادلين : « نحن الذين دعوناكما » .

قال فاولر : « أوه . الآن . لا تفعلوا هذا . سألتكم ماذا كنتم تشربون » ؟

قال جيري : « أفهم من هذا أنك إنسان شديد البأس في القتال . سنتنال الجولة الأولى . مادلين تشرب ويسكي البوربون . ماذا تشربين يا بربارة » ؟

« أوه .. لا أدري .. ويسكي . مع جعة الزنجبيل » .

سأل ماثيو مادلين : « وما هو شرابك . مدام » ؟

فتحتْ مادلين عينيها على وسعهما . نظرتْ حول المائدة بامتعاض . ثم نظرتْ من جديد إلى ماثيو . تمتمتْ : « خلال سنوات حياتي . نادوني بألقاب عديدة . لكنني حتى الآن لم أتوقع سماع كلمة مدام » . ضحك ماثيو ضحكة بائسة . أخبرته قائلة : « اسمي مادلين . أفهمت » ؟

قال ماثيو : « حسن . مادلين . أنا آسف . أي شيء تطلبينه مع البوربون الماء أم جعة الزنجبيل أم الصودا .. أو .. أو البيرة ؟ » .

أجابت مادلين : « البيرة ! في الأول عاملني هو كمعلمة مدرسة وها هو ذا الآن يعاملني كامرأة تعاقر الخمر » . ضحكنا جميعاً . التفتُ إلى ماثيو ثانية : « من فضلك أرغب بقليل من الماء . حري بك أن تراقب نفسك يا ماثيو . أنا امرأة محبة للانتقام » .

ضحك ماثيو من جديد قال : « حسناً . أعدك بألا أحاول إزعاجك أكثر » . نظر إليها بولع . لعلها الطريقة نفسها التي يتطلع بها جوليانو إليها . نظر إليّ نظرة قصيرة ثم قال : « من أيّ مدينة أنت يا مادلين ؟ » .

أجابت : « أنا من تكساس ، مدينة لم تسمعْ بها أبداً . أنا متيقنة من أن انحداري من تكساس هو الذي جعل مني محبة للانتقام » .

قال ماثيو : « أوه ، لا أعتقد أبداً أنك محبة للانتقام . أنت فقط ترغبين بمحاكاة الناس وإخافتهم » .

ضحكت مادلين : « لقد نفذتُ ذلك أيضاً . دعني أخبرك » . التفتتْ إلى بربارة « أرعبت الأحياء في مسرح راجز رولاند عصر هذا اليوم » . التفتت إلى ماثيو وفاولر . «راجز رولاند امرأة عجوز مرعبة ، أشبه بقاعدة عسكرية ، وهي مخرجة المسرحية التي أمثل فيها وليكن الله في عوننا !» .

قالتْ بربارة : « المسرحية التي أنت نجمتها » .

أجابت مادلين : « أجل ، أول دور لي كنجمة » . هز ماثيو رأسه احتراماً .

« على أية حال » التفتت مادلين ثانية إلى بربارة . « أذاقتني راجز مر العذاب عصر هذه اليوم - أمام المجموعة بكاملها - فيما يتعلق بذلك المشهد القريب من نهاية المسرحية، حيث أكتشف أن حبيبي لن يعود أبداً من تلك الثورة الفاشلة في الإكوادور . إحدى مشاكلي مع هذه المسرحية هي أنني لم أفهم السبب الذي جعله يدخل المسرح أولاً . الحمد لله أنني لا أمثل في ذلك الفصل . على أية حال ، في الختام طفح الكيل فسألتْ راجز بعصبية كيف تسنى لها بحق الجحيم معرفة ماهية أحاسيس المرأة حين تفقد حبيبها إلى الأبد . قلتُ لها أشياء أخرى اخترتها بعناية عن النجم الذي يشاركني التمثيل ، الذي لن يكون حبيبي بالتأكيد ، وخرجتُ . تركتهم جميعاً واقفين هناك » . هزت رأسها . جاءت مشروباتنا . بدا فاولر وماثيو حائرين نوعاً ومسرورين أيضاً .

سألت بربارة : « ماذا قالت راجز ؟ » .

« لم تقلْ شيئاً . كانت واقفة هناك مثل ... » .

قال فاولر : « مثل قاعدة عسكرية » .

رفعتْ مادلين كأسها . قالت : « بالضبط . إنه شيء فظيع أن تقول ذلك . لكن الخندق القديم أخذ معزتي » .

قال جيري : « لا ينبغي مناداتها بهذه الألقاب . لا يمكنك معرفة ما إذا كانت حمقاً أم لا . ليس من شأن الإنسان مراقبة أفعال الآخرين ... » .

« هذا صحيح » . قال ماثيو ، متطلعاً إلى جيري . بدا وكأنه يتلعثم في حلقة دراسية . « ما يفعله امرؤ بالغ بحياته هو من شأنه فحسب » . ونظر إلى فاولر .

قلت : « بالأخص ، بما أن الفرد هو الذي يدفع الثمن . أقصد ثمن أفعاله » .

قال فاولر : « صحيح » . رشف مشروبه . « بالطبع ، أنا أعتقد أن بوسعنا – نحن البشر – استخدام نصائح أحدنا الآخر من حين إلى حين » . نظر إلى ماثيو .

سألتْ بربارة باسمةً : « هل أنتَ متيقن من قدرتنا على الاستفادة من نصائح الآخرين ؟ أنت تعرف أننا نمتلك نصائح كثيرة . أنا لستُ متيقنة من كوني قادرة على الاستفادة من أية نصيحة توجه إليّ » .

تطلعت إليها : « هل تُسدى إليك نصائح كثيرة » .

« أوه ! طوال الوقت . بالهاتف . بالسلك . بالبريد السريع . أوه ، نعم ، عزيزي . الجميع متلهفون لتقديم النصيحة إليّ » . نظرت ثانيةً إلى فاولر ، وقالت : « لكنني لا أستطيع استخدامها » .

قال ماثيو : « هي مثلي تماماً » .

سألها فاولر : « لم لا تستطيعين استخدامها » ؟

« حسناً ، هي نصيحة رائعة .. لإنسان سواي . كما أنها عميقة المغزى ، أعني ، أني أعرف ذلك » . نظرت إلى ماثيو ببؤس وقالت : « لكنها تبدو عديمة الفائدة بالنسبة لي » .

سألها فاولر : « ماذا تعنين بقولك : بالنسبة لي ؟ » .

« حسناً » قالت بربارة ، سكتت ثم قالت : « على سبيل المثال ، أنا من كنتوكي . حسناً لو استفدتُ من كل النصائح التي أسداها الناس إليّ ، ما كنا أنا وليو صديقين ، وما قيض لي أن أجلس إلى هذه المنضدة . كنتُ سأصبح مجرد حسناء جنوبية ذابلة تتطلع إلى زوج ثري » . بعدها ضحكت وسألت فاولر : « هل فهمت ما أعنيه » ؟

قال فاولر وهو يفكر : « أجل . فهمتُ ما عنيته جيداً » .

قالتْ بربارة : « تلك الجولة اللعينة من الحفلات ولعبة البريدج . إنها لعينة جداً . والعناق في الغابات أو في السيارة أو في الشرفات . إنها شنيعة فعلاً ! من المتوقع أن أتزوج أحدهم . بعد أن تكونين قد فعلت كل ما استطعت أن تفعليه باختصار .. » . سعلتْ واكملت حديثها : « أن تذهبي إلى الفراش مع .. » ضحكتْ . « مع طاسة من حلوى الرز . يا إلهي ! من يأخذ تلك النصيحة » ؟

قال فاولر : « أنتِ فتاة أصيلة » .

قالت بربارة : « أوه ! أود فقط أن أعيش ! » .

قال ماثيو بسرعة : « أخبريني . هل وجدت الحياة شاقة ؟ أعني .. » كان في غاية الجد . راقبه فاولر باسماً .. «أن تعيشي حياة حقيقية وليس أن تعيشي فقط ؟» – لوح بكفيه الضخمتين بعصبية – « أن تذهبي إلى العمل وتأوي إلى البيت وبعدها تأوي إلى الفراش . وفي صباح اليوم التالي تفيقين من النوم . تتناولين طعام الفطور وتذهبين إلى العمل ثانيةً .. لمجرد أن تعيشي » . بسط كفيه . أمسكتْ أصابعه بالهواء . هوتْ يداه على المنضدة . انبسطتا . راحتاه إلى الأسفل : نظر لحظةً إلى يديه . ثم نظر إلى بربارة . وقال : « أتعرفين ؟ » .

قالت : « نعم » .

سألها فاولر : « هذه ليست هي الحياة . أليس كذلك ؟ .. اعذريني . أيتها السيدة الشابة .. هذه ليست هي الحياة الحقيقية . أليس كذلك . سواء كنتِ بيضاء أو سوداء » ؟

« لا » . قالتْ بربارة . ثم بعد لحظة قالت : « الواقع . ليستْ حياة » .

أومأ فاولر لماثيو . وقال له : « أسمعتها » ؟

قالت بربارة بلباقة «أوه . لا أستطيع أن أتحدث إليه . أنا أكلم نفسي بصعوبة» . حركتْ مشروبها قليلاً. خفضت بصرها ثانية. قالت : «لا أعرف الكفاية عن كل شيء» .

قال فاولر : « حسناً ، يبدو أنك تعلمت بسرعة » .

قال ماثيو : « يلزمك أن تتعلم بسرعة ، خلال هذه الأيام وفي مثل هـذا العمر ، إذا ما أردت أن تتعلم » .

قال فاولر : « حسناً ، هذا صحيح ، هذا بالضبط ما حاولت أن أقوله لك » .

تنهد ماثيو ، نظر إليّ . قال : « انظر إليّ ، هل خدمت في الجيش » ؟

أجبته : « لا ، لم يصلوا إليّ حتى الآن » .

« أتنوي الالتحاق بالجيش » ؟

انتهيتُ من احتساء مشروبي . «يا للجحيم ، لا ، لابد أنك تمزح ، أفضل أن أموت على أن أحارب من أجل هذا البلد البائس ، ما الذي يجعلني أحارب من أجله » ؟

ابتسم ماثيو ابتسامة خفيفة ، مع أنه بدا أيضاً مصاباً بصدمة بسيطة ، قال لي : « هذه وجهة نظرك يا صبي ، لا أستطيع أن أنكر صحتها » .

كان فاولر ساخطاً ، « مازلتما صغيرين كي تعرفا حقيقة ما تتحدثان عنه » ، وقال في الختام : « لو أنكما خبرتما الحياة كما خبرتها أنا عندئذ ستعرفان ما الذي ستحاربان من أجـلـه » . التفـت إلى بربـارة ، كـأنه قرر أنهـا تـبز الجـمـيـع في رهافة حسها .

« ماثيو له فرصة عظيمة في الالتحاق بالجيش ، سيرسلونه إلى مدرسة ، حين يتخرج فيها سيكون ذا شأن .. لكنه غير راغب في ذلك ، هو يفضل الالتحاق بالأسطول التجاري بدلاً من الجيش » ، حدّق في ماثيو بغضب : « أليس لا مستقبل للأسطول التجاري » ؟

قالت بربارة بلطف : « ينبغي أن يفعل ماثيو ما يعتقد أنه الأفضل » .

« كلنا نفعل ما نعتقد أنه الأفضل » ، قلتُ ، ماثيو وأنا نظر كل منا إلى الآخر ، لحظة ، كما لو أننـا شقيقـان فعـلاً ، قال ماثيو بعنـاد : « أنا فقط لا أجد نفسي في الجيش ، ربما يرسلونني إلى قاعدة عسكرية لعينة في أقصى الجنوب ، أنتِ تعرفين

لا تلائمني هذه الأمور . لا أستطيع أن أتخلّص من تلك الأعماق الحمر . لا . لا أستطيع أن أفعل ذلك » .

قالت مادلين : « أظنني أعرف حقيقة أحاسيسك » .

قالت بربارة : « أظنني أعرفها أيضاً . لا أحسب أنني قادرة على تحمل ذلك لو كنتُ رجلاً » .

« سيدتي الشابة » قال فاولر – أومأ جيري لجوليانو أن يجلب لنا دورة أخرى من المشروبات – « أحياناً يلزم المرء أن يتحمل أشياء كثيرة لا يود أن يتحملها . فهمتني . أنا لي ثلاثة أطفال . لا أحب رئيسي . صدقيني . ولست مجنوناً بحب مهنتي . أحياناً يحملني ذلك الرجل أعباء كثيرة ويناديني بكل الأسماء عدا اسمي . وما إلى ذلك .. الآن . ماذا يجب أن أفعل ؟ عليّ أن أطعم أولادي . هم لا يريدون أن يسمعوا شيئاً عن رجولتي . هم يريدون بعض الطعام في بطونهم الصغيرة » . تطلع إلى ماثيو ثانية . « أما ماثيو . فأمامه فرصة كي يجعل من نفسه ذا شأن ؛ لذا هو غير مجبر على العمل في المهن التي يلزمني العمل فيها .. كما أنه سيكون غبياً إذا قبل بها . أعتقد أن كلامي صريح » . التقط كأسه وانتهى من شرابه .

قال ماثيو : « اسمع . أنت واصلتَ الحديث عن هذه المهنة الجميلة التي سأحصل عليها حين أنتهي من خدمتي العسكرية . كم هو .. عدد الملونين الذين نالوا وظائف جميلة . هوه ؟ قل لي ؟ » انتظر جواب زميله .

قال فاولر : « أوه . هيا . الأشياء تتبدل . أنتَ تعرف ذلك . الرجل وعدك . أنا سمعته » .

قال ماثيو : « فاولر . لم أعد أثق بوعود الرجل الأبيض . أتسمعني ؟ أنا لا أثق بهم » . تحدث بسرعة وبعصبية متعثماً بعض الشيء . ثم رفع بصره . « اعذروني يا قوم . أنا لا أتحدث عن أي منكم . أنتم فاهمون . غير أنني متأكد من كونكم أناساً أذكياء . كلكم تعرفون جيداً ما هو السبب . صحيح » ؟

« يا للجحيم . نعم » . قال جيري . تطلع إلى أسفل . بدا حزيناً . كئيباً . «نحن نعرف السبب جيداً» .

وصل جوليانو مع دورة جديدة من المشروبات . راقبناه وهو يرفع الكئوس الفارغة ويضع الكئوس المترعة . بصمت مفاجئ غير سعيد . مدت مادلين يدها إلى يدي ورفعتها برهةً .

قالت بربارة فجأةً رافعةً كأسها : « يا للجحيم . لنشرب نخب أرض الأحرار الرائعة » .

قلت : « ونخب البيت السابق للشجعان » .

شربنا الأنخاب . قال فاولر : « سوف تجد عجيزتك في شمالي الأطلسي » .

قال ماثيو : « حسناً . يمكنني أن أفعل الشيء الكثير بدلاً من أن أجعل عجيزتي تحترق في جيورجيا » .

ضحكنا . قلت لماثيو : « أنا أتفق معك » .

« أن تتفق معي فهو شيء حسن » . قال وضحك ضحكة عريضة .

شربنا دورتين أخريين . تبادلنا جميعاً العناوين . كتبنا بجد على قصاصات ورق جلبها لنا جوليانو . أحسب أننا نوينا فعلاً أن نرى أحدنا الآخر ثانية . لكنني أعتقد أننا جميعاً سألنا أنفسنا : أنستطيع حقاً أن نفعل ذلك ؟! سألنا أنفسنا . بصورة غامضة . فيما إذا كانت ثمة ضرورة لذلك . كما كنتُ أعرف جيداً بأنني لم أعط أي عنوان . ليس لي عنوان . زقاق الجنة ليس عنواني . شارع بول نوع ليس عنواني . كما أن مسكن والدي ووالدتي ليس عنواني أيضاً . كما أنني لم أدونه . كنتُ أرتاب فيما إذا سنتفاعل بإيجاب معي زوجة فاولر حين تسنح لها الفرصة في أن تضع اللحم على عظامي . أشك فيما إذا يتسنى لنا أنا وفاولر أن نتحدث إلى بعضنا بقليل من الكلام . أما أنا وماثيو فقضيتنا مختلفة تماماً . غير أن ماثيو سيغادر خلال هذا الأسبوع . أما بالنسبة للآخرين . بربارة وجيري ومادلين فهم من البيض . في الحقيقة لن يستطيعوا أن يتسكعوا مع فاولر . كما أن فاولر لن يستطيع التسكع معهم . ليس لأن السعر عال . لا أظنهم فكروا بالأسعار . مع أن السعر . في الواقع . كان عالياً جداً بالنسبة لفاولر. لكن الأواصر التي شاءت أن تتحول إلى وجود لن تصبح أساسية أبداً .

مع ذلك ، أحببنا بعضنا الآخر بصورة كافية . شعرنا بصورة غامضة أننا ضائعون حائرون حين نهضنا أخيراً بغية الانصراف .

كان الوقت يقترب من منتصف الليل ، كنا تقريباً آخر من بقي في المكان . حال مغادرتنا سوف يطرد سلفاتوري المراهقين غير الجذابين الذين كانوا يلعبون لعبة الكرة والدبابيس ، ويقوم سلفاتوري وقبيلته بغلق المطعم كي يذهبوا إلى الفراش . لم أرغب مطلقًا بالذهاب إلى الفراش . قلما عرفت ما أنا راغب بفعله لكنني لم أرغب أبداً أن ينتهي الليل . كانت ليلة مذهلة ، زرقاء - سوداء ، كان القمر هلالاً ، والنسيم عليل السكون يخيم بصورة لا تصدق . الطرقات خالية تماماً .

« هذا جحيم واحد من مدينة واسعة » . قال ماثيو . كان ثملاً قليلاً .

قال فاولر : « ثمة أشياء كثيرة تحدث في هذه المدينة . عليك فقط أن تعرف أين تقع هذه الأحداث » .

قال ماثيو : « حسناً ، إن عرفت مواقع الأحداث خذني معك إليها » . كدتُ أقترح أن نحتسي الكأس الأخيرة حين نصل الجانب الآخر من المدينة ، لكنني ترددتُ . فاولر وحده قادر على أن يقترح اقتراحاً كهذا ، فهو وحده من يقدر أن يأخذنا إلى هناك . لم أستطعْ أن أقول له : « خذني معك ، أيضاً » . فهذا يعني أنني أفارق جماعتي الذين رافقتهم . وجود مادلين هو السبب الرئيسي الذي منعني ، ذلك أنني لا أعرف بالضبط ما الذي تريده مني ، ولا أعرف ما الذي أبتغيه منها . كنا نسير اثنين اثنين ، فاولر وماثيو ، بربارة وجيري ، أنا ومادلين ، عبر الطرقات الهاجعة .

لو لم تكنْ مادلين معي ، لأرغمتُ بربارة وجيري على الذهاب إلى المنزل لأعود بعدها للقاء ماثيو وفاولر في الجانب الزنجي من المدينة .

أمسكت مادلين يدي بارتخاء ، سرنا الهويني . قالت : « هل أعطيك سنتاً كي تعبر عن أفكارك » ؟

« أوه . هي لا تساوي سنتًا . كنت أفكر فقط ببعض .. ببعض الأشخاص الذين عرفتهم » .

قالت : « وأنا أيضاً . ماثيو غلام لطيف » .

« نعم . لطيف جدا » .

سرنا صامتين . سمعتُ فاولر وجيري يضحكان .

سألتْ مادلين : « لكن إلى أين نحن ذاهبون ؟ أين السيارة » ؟

« خلفنا . أتصور أننا نتمشى فقط » .

قالت مادلين : « حسناً . هي ليلة جميلة ويحلو لنا أن نتمشى » . بدا لي أنها أمسكتْ يدي بقوة أكثر .

وصلنا إلى نقطة فوق النهر ، نطل منها . أمامنا مباشرةً جدار حجري . بيننا وبين الجدار علامات الطريق . الطريق المؤدي إلى نيويورك يقع إلى اليمين . الطريق المؤدي إلى نيوإنجلند يقع إلى اليسار . الطريق واسع جدا . في الجهة البعيدة من الطريق ثمة رحبة واسعة لسائقي السيارات ممن يرومون الاستراحة ، أو ربما التنزه ، أو ببساطة يرومون التطلع إلى النهر . عبرنا الطريق ، وقفنا صامتين إزاء الجدار ، تطلعنا إلى النهر في الأسفل . النهر أسود ، تكسوه طبقة خفيفة من الفضة . هذي الليلة ، يبدو النهر ساكناً ، مع أنه كان يجري . صوت جريانه جعلني أفكر بالحصى الذي يتقلّب ، بالصخور الضخمة التي يجرفها النهر ، بالأجذال[١] التي تتصادم ببعضها . هذا الصوت ملأ نسيم الليل وبدا نائياً جدا .

سألت فاولر : « هل ترعرعت في هذه المدينة » ؟

أجاب بهدوء : « هو ذاك . هذه هي مدينتي » .

« أصل عائلتك من هنا ؟ » .

« لا . عائلتي من الجنوب » . أشعل لفافة تبغ . اتكأ على الجدار . رمى علبة الكبريت إلى الفراغ « من أين تنحدر عائلتك » ؟

أجبته : « والدي من بربادوس » .

« ووالدتك » ؟

« من لويزيانا » .

(١) جمع جذل ، وهو جزء من جذع الشجرة . (المترجم)

استندنا إلى الجدار ، تطلعنا إلى النهر ، جيرى يطوّق بذراعه خصر بربارة التى كانت ساكنة جداً ، تبدو ملامحها طفولية ، وديعة تحت ضوء الهلال . شعرتُ برطوبة كف مادلين فى كفى . أحسستُ بهلع مفاجئ ، كان الهلع حاضراً كخرير النهر ، ومثله مجهولاً وعميقاً .

قال ماثيو باحتراس : « فاولر ، انظر هنا ، إذا لم تكن مرهقًا ، ألا تظن أننا بحاجة إلى كأس أخيرة .. فى مكان ما » ؟

« إننا بحاجة فعلاً » قال فاولر ، ناظراً إلى الماء .

« هل لديك أدنى فكرة عن المكان الذى يتوفر فيه المشروب » ؟

« أجل . أعرف المكان » . التفت إلى بربارة . « يا ناس هل أنتم مرهقون أم ترغبون أن تشربوا معنا » ؟

نظرتْ إليه بربارة . عيناها متقدتان ، حتى إننى ظننت لحظة أنهما دامعتان . كانت تبتسم ، بدت لى فى ضوء القمر أجمل من أى وقت مضى .

قالت : « بالطبع . نحن نحب أن نشرب معك . حتى لو كان ذلك يعنى .. » – ابتسمتْ لى – « أن ليس لدينا عمل فى يوم غد » .

قال مايثو : « غداً هو الأحد » .

قالت بربارة : « الأحد ليس عطلة فى المسرح » . أخذتْ ذراع جيرى وذراع فاولر . ابتسمتْ لفاولر : « هل تدلنى على الطريق ، أيها السيد الرحيم » ؟

« سأكون فى غاية السرور أن أدلك ، يا سيدتى الشابة » .

تركنا الجدار والنهر وراء ظهورنا ، عبرنا الطريق ثانية . فاولر وبربارة وجيرى كل منهم يمسك بيد الآخر . ماثيو ومادلين وأنا كل منا يمسك بيد الآخر . الجانب الآخر من المدينة ، فى مثل هذه الساعة ، لا يبعد عنا سوى مسيرة خمس دقائق بالسيارة . ما إن رأى فاولر سيارتنا القديمة حتى أصر على أن نذهب كلنا فى سيارته ، التى كانت من نوع فورد س- .تيشن ضخمة . لم يسرنا هذا الأمر ، بدا لنا أنه شىء غير

عملي بالنسبة لفاولر أن يرجعنا بسيارته إلى موقع سيارتنا : لكننا ابتعدنا مسافة طويلة جدا عن سيارتنا ولم نجرؤ على تخمين الأسباب التى أدت إلى تحمس فاولر . تكسنا فى سيارة فاولر ، فاولر وجيرى وبربارة فى الأمام ، ماثيو ومادلين وأنا فى الخلف ، واجتزنا طرقات المدينة النائمة .

منذ ذلك الحين ، اجتزتُ حدوداً عديدة ، بحوزتى جواز سفر مختوم ، مثلاً ، عند الحدود الفرنسية - السويسرية ، الحدود السويسرية - الإيطالية ؛ وبدأتُ أؤمن أن المنظر الطبيعى ليس منظراً طبيعيا على الإطلاق ، إنه فقط انعكاس لرهافة إحساس الناس الساكنين فيه : هذا بالتأكيد هو ما يراقبه المرء، وهو يقطع غاباتهم وسهولهم ، كرومهم وجبالهم ، مدنهم ، وأنفاقهم ، وقراهم . القرى الفرنسية معظمها بشعة ، كل الأشجار الفرنسية مقصوصة بصورة عديمة الشفقة ، من أجل أن يكون المنظر الطبيعى جميلاً ، ومن أجل توفير مجال أوسع للرؤية - حيث تكون كلاب البودل الفرنسية جزءاً ملحقًا بخزانات ثياب مالكيها . ليس ثمة هراء فيما يتعلق بها ، كل ما لا يلائمها يلقى به إلى الخارج ، حتى لو كان ذلك زهرة صغيرة أو غصناً ضعيفاً جداً . يخيل لى أن الفرنسيين فرضوا نظاماً طوبوغرافيًا قاسيًا من أجل التعويض عن عدم الترتيب ، فى الواقع ، الفوضى ، التى هى ميزة تاريخهم - عاطفتهم - التى لم تسمح لهم بمهاجمة الطبيعة بطريقة أخرى . الرجل عند الحدود ، رماد سيجارته يلوث بدلته النظامية، السيجارة تستقر بين شفتيه . لم يكن له حتى ولع طفيف بالمسافر أو بجواز سفره : أرغم نفسه على النظر شذراً إلى الاثنين . تارة ينظر إلى الحقائب ، وطوراً لا . تارة يختم جواز السفر ، وطوراً ينبغى على المرء أنْ يطلب منه ذلك . لم يكن مكتبه من الطراز الفرنسي ، ذكرني بزنزانة في معسكر تعذيب ، يشعر هو وزملاؤه بأنهم يمتثلون للعقوبة التى ربما يستحقونها . فى غضون ثوانٍ ، وهو الوقت الذى يستغرقه المرء لعبور ساحة خلفية ، يغادر المرء هذه النقطة الحدودية . الشاهد الوحيد على هؤلاء القوم الصارمين بصورة لا تقبل الجدل والمتعين بصورة استثنائية ، ويواجه المرء السويسرى ذا الوجه التفاحى . مراكزهم خالية من العيوب مثل بدلاتهم النظامية . السويسريون لا يدخنون سجائرهم ، بل يتركونها تحترق بهدوء، في واحدة من ملايين منفضات السجائر . بدلاتهم النظامية تكوى صباح كل يوم وتغسل كل ليلة ؛ الرجل وهو

يرتدي بدلته النظامية يجد نفسه أسوأ حالاً ممن يقضي فترة محكوميته في معسكر تعذيب إن لم تغسل وتكوى بدلته . يدقق كل شيء بعناية فائقة ، جواز السفر ، الحقائب ، المسافر ، بحيث يجعل المرء يفكر في الجوارب والسراويل الداخلية المتسخة في حقيبته ، ويفكر في إبطيه النتنين ، وفي أمعائه التي نشطت فجأة . ذاك السويسري مؤدب بصورة لا توصف ، صبور كابن مقرض[1] ، مرتاب كاللص . وحين يتهرب المرء من دقة السويسري يشعر وكأنه مطارد - هم يأملون خداعك كي تدلهم على شريكك في الجريمة . وفجأةً ، تجد نفسك عند الحدود الإيطالية . يبدو الإيطاليون شديدي الاندهاش ، لكنهم ، على العموم ، مسرورون ، لأنك قررت أن تقوم بزيارة قصيرة لبلدهم . بين العروض السخية لوجبات الطعام الوفيرة وبين الأسئلة الساخنة حول دافع مجيئك من بلدك البعيد إلى بلدهم ، يرغبون بإلقاء نظرة على جواز سفرك ويختمون إحدى أوراقه كيفما اتفق . أقسموا بالأخوة الخالدة ، وهكذا تخرج من مكاتبهم ومن حياتهم . المنظر الفرنسي يخاطب العقل لا الوجدان ، تلك هي صورة العاطفة الفرنسية التي تخدع نفسها على أنها ساحرة . المنظر السويسري مرتب ، ما من شيء يفوقه بعداً عن العاطفة - الناس الذين لا يستطيعون ممارسة الحب يكسبون الثروة - هو مصمم للإعلان عن أكثر جنات عدن زيفاً في تاريخنا البائس . المنظر الإيطالي خشن ، وحشي ، غير متوقع ، مثل منظر إسبانيا ، منظر أفريقيا . استجاب شيء ما في داخلي لمنظر كهذا . شيء ما بداخلي ، تم القبض عليه وتهدئته . نفّرتني بشدة الزوايا الحادة الأنيقة لشمالي أوروبا ، والسماء الباردة ، والشفاه الحاقدة لنيوإنجلاند . قد يأتي يوم ، لكن ليس لي ، حين يكون الجنوب الأمريكي صالحًا للسكن . حتى حلول ذلك اليوم .. حسناً ، سأظل أتسكع . كدتُ أقول أنه مهما كانت الحدود التي ذكرتها مثيرة ، فإن الحدود غير المرئية التي تقسم المدن الأمريكية وتفصل البيض عن السود هي الأكثر إثارة والأكثر بشاعةً .

سارتْ بنا السيارة ، عبر طرقات المدينة النائمة ، في صمت تقريباً . أفكارنا حية أكثر من أي وقت مضى . رأس بربارة يستريح على كتف جيري . يد مادلين في يدي . فاولر يقود السيارة مصفّراً ، فخذ ماثيو يجاور فخذي . ربما لأول مرة ، وليس آخر

(١) حيوان شبيه بابن عرس يستخدم خاصة لصيد القوارض . (المترجم)

مرة بالتأكيد ، ساورني خوف مفاجئ ، مرعب ، من المصائر المحتملة التي تنتظر كل إنسان ، الإحساس بالحياة كدورات متعاقبة اعتباطية من التجمعات وإعادة التجمعات ، مثل الصور - إذا ما تسنى لنا أن ندعوها صوراً - في المشكال[1] . في اعتقادي ، أننا كلنا شعرنا بذلك ، كل حسب طريقته الخاصة . بربارة تخفي رأسها في ظل جيري الدافئ الرقيق . فاولر يصفّر ، ماثيو يهمهم ، يغير جلسته من حين إلى حين ، مادلين تمسك بيدي . كنتُ أقر بالجميل لديها . حالما شقت السيارة أستار الظلام ، شعرت بنفسي أندفع بسرعة في مواجهة حاسمة ، مع مادلين ؛ أو مع ماثيو ، أو مع ماضي حياتي . كنا نقترب من جسر يمتد فوق خليج ضيق .

في الطرف الثاني من الجسر ، يسكن السود الذين أنتمي إليهم . تحرك ماثيو ، لمسني ، ساءلت نفسي ما الذي يدور بخلده . ثم ساءلتُ نفسي ما الذي يدور بخلدي . بقيت ممسكاً بمادلين - أخذتُ أنتبه إلى لون مادلين ؛ لأول مرة ، أو هكذا بدا لي الأمر ، على الأقل وددت أن أفكر به . راحت السيارة تنهب بنا الأرض ، سمعنا صوت موسيقى ، أناس سود ، يتمشون ويتحدثون ، بدأوا يحتلون المشهد . ضاقت الشوارع ، تكدست البيوت ، ارتفع صوت الموسيقى ، انبثق الأطفال ، كالأزاهير الجميلة التي ينتظرها قدر مشئوم . كانوا في المدخل المسقوف يلعبون بالحصى ، النور خلف رءوسهم ، صبيان يدوران في فنائهما ، غلامان وفتاتان يغنون . شعرتُ بنفسي كأنني وسط عجلة خراطة . أحسست بما يحس به المرء في سيرك ، بأضوائه المتنقلة ، متعددة الألوان ، المرعبة ، بكل ذلك الصوت ، أو بما يحس المرء وهو يسير على حبل مشدود ، بكل الأضواء والأصوات والناس ، تحته ، كلها شنيعة ، غير قابلة للتصديق ، منذرة بالهلاك ، كل شيء يعتمد على قدرته في تحقيق الموازنة خلال سيره على الحبل . يا إلهي ، تعجبتُ - تعجبتُ : وماثيو بيدٍ ضخمة ، مس برفق مؤخرة عنقي ، توترتْ كف مادلين ، رأس جيري مال إلى رأس بربارة . انطلقت السيارة مسرعة في طريق مسدود بواسطة قضيب من جهة اليمين ، ومستودع من جهة اليسار ، وذلك الجرف العالي المرعب فوق ذلك النهر المرعب أمامنا مباشرةً . استدار فاولر بسيارته ، ووقفنا أمام حانة لوسي . عبرنا الموت إلى ما تبدو أنها حياة . لا تبدو حياة فحسب ،

(١) المشكال : أداة تحتوي على قطع متحركة من الزجاج الملون ما إن تتغير أوضاعها حتى تعكس مجموعة لا نهاية لها من الأشكال الهندسية مختلفة الألوان . (المترجم)

بل هي شبيهة بالحياة . لا تشبه الحياة فقط . بل تشبه الحياة الخاصة . الحياة التي كانت عاراً بالنسبة لي . شاهدتُ - يا لهول ما شاهدتُ - جذر الفولكلور الأمريكي الجدير بالازدراء . العتيد فيما يتعلق بالزنوج السعداء المرحين . بعض أولئك الناس يتحركون . في الواقع . وصوت (الجكبوكس)[1] العالي . حركاتهم تتبع الموسيقى الناتجة عن حركاتهم . غير أن مرحهم قلما يصف استخدامهم لحيويتهم . الإنسان الذي لم يعد لديه أي إحساس بالأشياء التي تتكون منها السعادة وحده الذي يخلط بين السعادة وفقد الرغبة العارمة . مع ذلك . المكان الذي دخلناه تم عرضه بصورة متواصلة . بتفصيل مجتهد ودقيق . تشهيري . بهيئة كوميديات موسيقية لا حصر لها . وأفلام استعراضية لا حصر لها : الزنجي يتحرك . في وقتٍ غريب مع إيقاع الموسيقى . كلها تعمل . الأوراك . الأيدي . الأقدام . كل الأسنان اللامعة وكل العيون البراقة . دون أن تكترث بأي شيء يدور في العالم . قلقي الذي هيمن عليّ حين دخلنا هو الذي منحني مفتاحي لدخول دنيا الفانتازيا المحلية . الموسيقى عالية ومغامرة . إن كانت الموسيقى طافحة بحرارة الحب . فهي بالقدر نفسه تطفح بحرارة الغضب . ولا يمكن أن توصف بكونها ودية . العاطفة ليست ودية . هي متغطرسة . وتزدري أيما ازدراء كل ما هو غير عائد لها . وبما أن التعريف الدقيق للعاطفة يتضمن حافز الحرية . لذا فإنها تمتاز بطاقة جبارة مرعبة . وهي مشوبة بالتحدي . مشوبة بأمل لا يوصف . تتضمن تعليقاً حول فرد من بني آدم . وهذا التعليق ليس متملقاً . كم هو متملق . إذاً . إن أولئك الذين أنقذتهم تلك الخصال الحميدة التي استثمروا من خلالها حقيقة لونهم وأحداث تاريخهم . سوف يعتبرون . فوراً . بصورة محتومة وبائسة . عاطفة خدمهم دليلاً على أن خدمهم كانوا أدنى مستوى من البشر . واستحقوا العقاب الذي أنزله الباري بحقهم . الباري الذي كفر به المتقنون . تمتمت مادلين : « يا إلهي . لم لا أستطيع الرقص مثلهم » . غير أن الماضي الذي صنع إنساناً ما لا يمكن خيانته : هكذا حدثتُ نفسي حين دخلنا . حين رأيتُ تبدل تعابير الوجوه . وسمعت صوت فاولر النابع من القلب : « هل آتي ببعض الأصدقاء كي يتعرفوا إليك » . وأرغمتُ نفسي على عدم إطلاق سراح يد مادلين . نظرت إلى بعض النساء بازدراء

(1) الجكبوكس : خزانة مشتملة على فونوغراف التي تتيح للمرء سماع الأغنية المسجلة التي تختارها بمجرد وضع قطعة نقدية في ثقب خاص . (المترجم)

شديد . حدق بي بعض الرجال كما لو كنت معتوهاً . لكنهم ، من المحتمل - نظروا إلى مادلين بازدراء بارد ، تأملي ، داعر - حسبوها معتوهة محظوظة . كانت عيونهم تشي بأنهم، ربما، لا يبالون أن يحلوا محلي في سرير مادلين. أوه، ربما، أربع أو خمس مرات . أعرف أن بعضهم لم يتردد في أن يوحي إليّ بهذا . إذا نامت امرأة بيضاء، مع رجل أسود ، عندئذ ، ستفقد تلك المرأة احترام الذات ، وسوف تنام مع فوج كامل من الرجال السود . لم أتعلم بعد ، مع أن الوقت كان من المفروض أن يعلمني ، كم هو شيء بشع أن تكون دوماً في المكان الخاطئ . بسبب مادلين شعرتُ بالأذى وانتابتني الحيرة - كنتُ سعيداً لأنني لم أدخل ممسكاً بيد بربارة - لكنني شعرتُ بالأذى بسببهم ، أيضاً . لاح لي أن تقديرهم السريع لمادلين يكشف عن تقديرهم لأنفسهم ، غير أن هذا التقدير المكشوف أرعبني لأنهم ربما ، بالرغم من كل شيء ، جعلوا تقديري في الحضيض . لكنهم رأوا ما رأوه . شاهدوا الآخرين مثلما شاهدهم الآخرون . كوّنتهم الصور التي رسمها لهم أولئك الذين كانوا بحاجة ماسة إلى احتقارهم . الأغراض الراشحة بالازدراء بصورة مُرة التي حددها لهم الآخرون هي بداية تاريخهم ، مفتاح حياتهم ، وحجر زاوية كياناتهم : بالضبط على غرار أولئك الذين عابوا عليهم أولاً . شاهدوا ما علمهم التاريخ أن يشاهدوه . لم أكنْ لأعرف ، حينذاك ، ولم أعرف الآن ، ما إذا رأى أحد أكثر من ذلك . لو فعل أحد هذا، فإن السبب هو تعلمه قراءة تاريخه وإصراره على الخروج من الكتاب . دلنا فاولر على منضدة في الخلف . كان نادل الحانة يرشقنا بنظرات ساخرة ، وشرعنا نشق طريقنا بحذر بين جموع الراقصين ، بغية الوصول إلى المائدة .

قال ماثيو : « حسناً ، انظروا إلينا » ! ضحك ضحكة قوية. أدركت أنه عرف أكثر مما ظننت . ما من أحد يلعب معه - السيدة السوداء التي رتبت لنا المائدة هي أول من لاحظ ذلك .

« هي ذي الآنسة لوسي » ، قال فاولر . نهض جيري فوراً ونهضتُ « اجلس » ، قالت الآنسة لوسي . كان لها صوت رجل . لم تصافحني ، فركتْ رأسي بيدها : « فاولر . هل تعرف والدة هذا الغلام أنه في الخارج ؟ وأنه خرج معك ؟ اجلس » . وقالت لجيري : « تصرف وكأنك في بيتك . مساءً سعيداً ، أيتها السيدتان الشابتان » ، ابتسمت لبربارة ومادلين : « ما الذي جعلك يا فاولر تأتي إلى هنا في مثل هذه الساعة

من المساء ؟ حسبت أنك رجل محترم ، ودائم التردد على الكنيسة . كما أنك تعرف أن غداً هو الأحد » .

قال ماثيو : « نحن ، يا مدام ، غرباء في المدينة . فاولر رجل طيب قدم لنا خدمة وكشف لنا أن مدينته ليست متحضرة ، كما كنت أظن في البداية . قال : إن حياة المدينة بأسرها تجري في هذا المكان بالضبط » .

ضحكت الآنسة لوسي : « فاولر إنسان شرير . ستعرض نفسك إلى محنة إذا ما لازمت فاولر » .

قال ماثيو : « لكن يا مدام يبدو هو الآن على صواب » .

قالت الآنسة لوسي بفخر : « أوه . هذا المكان ما هو إلا منتجع للصداقة . نرحب بالجميع ، دائماً » .

قال فاولر : « هاتان السيدتان الشابتان ، كلاهما في ذلك المسرح في الطريق المؤدي إلى المدينة .. » .

قالت مادلين : « مسرح الجرين بارن . نطمح أن نكون ممثلتين » .

قال فاولر وهو يشير إليّ : « وهذا الشاب ، هو في المسرح أيضاً » .

قالت بربارة : « هو ممثل » .

قلت : « أمل أن أكون ممثلاً » .

حل صمت قصير ، قلت قبل أن تشترك الآنسة لوسي قائلة : « حسناً . الجرين بارن ، سمعت به .. » .

قال فاولر : « خارج شارع بول نوح » .

«أوه ، نعم ! خارج شارع بول نوح ، سمعت به . هو مكان جميل » .

قالت الآنسة لوسي : « أنتم يا قوم هل ستمكثون معنا وقتاً طويلاً » ؟

قالت مادلين : « حتى نهاية الصيف » .

قالت الآنسة لوسي : « حسناً ، أمل ألا تحسبوا أنفسكم غرباء هنا . أهلاً وسهلاً بكم في أي وقت . من أي حي أنت » ؟ سألتني .

أجبتها : « أنا من هارلم » .

« أوه . أنت صبي هارلم . اعتدت الذهاب كثيراً إلي هارلم . الآن ، هذه الحانة تشغلني طوال الوقت » . تنهدت : « من أي مكان في هارلم » ؟ أجبتها .

« اعتدت أن أجعل الناس يمكثون في هذا المكان » . تطلعت إلي بولع مفاجئ ، متأمل . « لكن ذلك حصل قبل مجيئك إلي العالم » . التفتت إلي فاولر « فاولر ، دعني أقدم لك ولأصدقائك دورة من المشروب ، ماذا تشربون يا شباب » ؟

سألها فاولر : « هل ستجلسين معنا ، آنسة لوسي » ؟

ردت : « مؤكد ، سأعود بعد أن أرعى اثنين من الزبائن . دعوني أبعث بطلب أندي . سوف يعتني بكم جيداً . الآن ، استمتعوا بوقتكم » .

ابتسمت ثانية ، وغادرتنا . راقبتها وهي تكلم ساقي الحانة ، الذي هز رأسه مرات كثيرة ، دون أن ينظر إلي ناحيتنا ، ثم بدا عليها الانشراح والمرح والفخر وهي تتعامل مع أناس عديدين تطلعوا إلي ناحيتنا مرة أو مرتين : أصبح ثابتًا أن الشكل الذي اتخذه جنوننا ليس حاقداً ، وربما كنا متميزين ، بل حتى رائعين .

مكثنا هناك وقتًا طويلاً ، وسكرنا تمامًا ، رقصت بربارة مع جيري ، كما رقصت بربارة مع ماثيو ، رقص فاولر مع مادلين ، كنت أخشي الرقص . إدراكي لهذا الأمر كان له وقع الصدمة ، ذلك أنني لم أخش الرقص من قبل . لم أرقص أبداً مع امرأة بيضاء . في ذلك الشباب ، الذي مر سريعًا ، تلاشي ورائي ، رقصت فقط مع فتيات سوداوات ، رقصنا مع الراقصين ، الحقيقة ، لم يكن ثمة جمهور . الآن ، ثمة جمهور ، جمهور أسود يراقب غلامًا أسود يراقص امرأة بيضاء ، وسوف يعرفون من خلال الرقص ما إذا كانت تلك المرأة امرأته فعلاً أم لا . لم تكن لي امرأة ، كانت لي مغامرات فقط – رغم أنه يتوجب علي الاعتراف بأنني في السياق الجنسي ، لم أتوصل إلي معرفة معني هذه الكلمة . لم تكن تلك مغامرات أبداً . علي الأقل إذا ما ظن المرء أن المغامرة توحي بوجود أخطار تؤخذ مأخذاً حسنًا : كانت مغامرات بسيطة ، متوقعة ، عديمة المرح ، صغيرة ومعبرة كالمحرار . كنت خائفًا جدا جدا ، ولأنني كنت خائفًا ، أرغمت نفسي علي النهوض والرقص مع بربارة . عرفت أنني لا أستطيع مراقصة مادلين .

« برافو » ، قال ماثيو . وقدت بربارة إلى حلبة الرقص . كانت رقصة بطيئة . فقد أحسست أنني قليل النشاط .

كانت بربارة ناعمة جداً ، صغيرة ، بين ذراعي . أحسست إحساساً غريباً - من ناحية أشعر بالهدوء والاطمئنان ، ومن ناحية أخرى أشعر بأنني عكر المزاج. يد بربارة خفيفة جداً فوق ظهري ، يدها الأخرى التي تستقر في يدي دافئة وجافة . كانت تقبض على بقوة مدهشة ، غير متوقعة . لم أعرف شيئًا عن الطريقة التي جمعتنا معًا ، كم طال ذلك ، بأية سرية أتت تلك الفرصة المناسبة أو على وفق أي قانون رأت فيه علاقتنا النور ، بحيث أخذ المرء يقف بصورة مفاجئة ، مرتعشاً ، وجهاً لوجه مع الشيء الذي لا يمكن تخيله . لا أحسب أنني أوليت جسد بربارة اهتماماً خاصا من قبل ، لكنني انتبهت إليه الآن . شعرت أنها أخذت تنتبه لجسدي . شعرت ، فوراً ، بأنني مذنب تجاه جيري ، لعل بربارة أيضًا فكرت بجيري ؛ راودني إحساس مفاجئ ، محير بأن بربارة قد أوقعت في الفخ . نحيت عن ذهني هذه الفكرة الفاضحة . فقدت الإحساس بالراحة . فكرت بجيري وماثيو وكل السود الذين يراقبونني ؛ بدا وكأننا نمارس الحب علانية . ومع ذلك - كيف يمكنني تفسير هذا الأمر ؟ - هذا الانزعاج العميق لم يعكر صفو حياتي . أدركت أنني لا أستطيع الحركة طالما أن بربارة تطوقني بذراعيها . ثم أحسست بالرعب حين تذكرت أنني لا أرتدي ملابس داخلية ، وأن عضو ذكورتي ، دونما سابق إنذار ، بسرعة يتعذر التحكم بها ، غضب وغلظ إزاء قماش سروالي الجينز. حتماً بربارة أحست به ، لكن لم يظهر على وجهها أي تعبير يدل على ذلك . أما أنا - يا لي من مسكين ! - فلم يكن أمامي سوى خيار واحد ألا وهو أن أجعل الشاهد الفظ، الخفي ، يلامس جسدها . كان ذلك شيئاً مرعباً . فكرت بكل الناس الذين يراقبوننا . لا إرادياً ، دون أن أعرف ما أنا فاعل بالضبط ، قربت جسد بربارة مني أكثر . تصبب العرق من جبيني ، عند حد الشعر في فروة رأسي . وددت أن يستمر الرقص إلى الأبد . وددت أن ينتهي الرقص حالاً . كيف سأستطيع اجتياز حلبة الرقص ؟ حاولت أن أتحرك أقل ما يمكن ، لكن هذا الأمر زاد الطين بلة . لعنت حظي العاثر . ثم قمت بمناورة كي نقترب نحن الاثنين من طاولتنا . وحمدت الله لأن الأضواء كانت خافتة . مع ذلك ، أحسست بطمأنينة غريبة . في الخاتمة انتهى شريط آلة التسجيل .

عدنا إلى طاولتنا بصمت وقور ، لائق . جلست بسرعة على مقعدي ، كنا صامتين . حدث لنا شيء في غاية الأهمية .

بدا الجميع مرتاحين تمامًا . ماثيو يغازل مازحًا فتاة جميلة نوعًا تجلس إلى الطاولة المجاورة ، مع زوجين من الشبيبة . غدا ماثيو ثملاً تمامًا الآن ، لكنه ما يزال في غاية المرح . بدا لي أنه نجح بصورة مؤكدة مع الفتاة الجميلة التي كانت مولعة به بشكل جلي . يراقبه فاولر بنوع من الولع والعاطفة النبيلة . جلست بربارة بجانب جيري ، وجهها جامد . أظن أن ثمة رعب يلوح على وجهها . قالت : « جيري ، أظن أن الوقت قد حان للذهاب إلى المنزل » .

لم أكن أود الذهاب إلى المنزل ، حيث حجرتي الخالية ، أما هما فيسكنان معًا في حجرة بالطابق السفلي . قبضت على يد مادلين ثانية .

قال فاولر : « سأكون في غاية السعادة أن أرجعكم إلى سيارتكم في أي وقت تشاءون » .

قال جيري : « أعتقد أنه يلزمنا الذهاب الآن » .

سأل ماثيو : « يا قوم هل تفكرون بالذهاب الآن ؟ حل المساء توا » .

قال جيري : « حل توا بالنسبة إليك فقط » .

هبت بربارة واقفة : « كانت ليلة جميلة ، شكرًا لاصطحابنا إلى هنا » .

قال ماثيو : « حسنًا ، إنها لسعادة غامرة أن نجلبكم إلى هنا ، علينا أن نفعل ذلك ثانية » .

نهض ماثيو ، تصافحنا جميعًا .

سأل فاولر : « هل ستبقون هنا » ؟

قال ماثيو : « سأبقى هنا إلى أن تعيد السيارة . أنت تعرف ، يا فاولر ، أنني لا أستطيع انتزاع نفسي من هذه الشابة الجميلة » . ضحك ضحكة قوية وغمز لي . قال : « اسمع ، سأهاتفك وأنت في مسرحك في بحر يومين . سنحتسي كأسين قبل مغادرتنا هذا المكان » .

قالت مادلين : « حظا سعيداً فوق أسطول شمال الأطلسي » .

« شكراً لك .. مادلين . أنت تعرفين ، أنني تذكرت ذلك الزمن » . ضحكنا معاً .

قلت لماثيو : « أتمنى لك الخير » .

« ولك أيضاً . وداعاً ، الآن » .

سرنا إلى الباب ببطء . صاحت الآنسة لوسي : « وداعًا . لا تعتبروا أنفسكم غرباء بعد الآن . أتسمعونني ؟ » .

أخبرناها أننا لن نكون غرباء . سرنا إلى الخارج . تكدسنا في سيارة فاولر . أنا ومادلين جلسنا في المقعد الخلفي . طوقتها بذراعي . نظرت إليها بإمعان شديد . لعل الويسكي والخوف من غرفتي بيضاء الجدران هما اللذان شجعاني . فسألتها : « هل لي أن آتي وأحتسي الكأس الأخيرة في شقتك » ؟

لم ترد عليّ فوراً . قالت : « حسنًا . وربما سيكون ذلك جميلاً » .

طلبت من فاولر أن يقوم بتحويلة صغيرة ، حيث يمكننا أن ندع مادلين تذهب في حال سبيلها قبل عودتنا إلى سيارتنا . حين وصلنا منزل مادلين ، ترجلنا من السيارة أنا ومادلين وأعطينا جيري مفاتيح السيارة .

قلت : « سأحتسي كأساً مع مادلين . سأراكم فيما بعد . وداعًا . فاولر . وشكراً لك . سأراك في وقت قريب . ليلة هانئة يا بربارة » .

بدت بربارة مندهلة بعض الشيء ، لكنها ابتسمت وقالت : « ليلة هانئة يا ليو . ليلة هانئة يا مادلين » .

« ليلة هانئة يا أولاد . سأراكم غداً » .

قال فاولر : « سأحدد ليلة كي نتناول العشاء معًا . ليلة في منزلي . قبل أن يغادر ماثيو المدينة » .

« طيب . عمت مساء » .

« عمتم مساء » .

ذهبوا بالسيارة عبر الشارع المعتم ، بعد ذهابهم بدا كل شيء عديم الجدوى الآن ، أحسست بخوف حقيقي ، فالوقت متأخر جدا ، ماذا سيقول الناس إذا شاهدوني أخرج من منزل مادلين صباحًا ؟ كلانا مجنون ، بحوزة مادلين المفاتيح الخارجية ، وما من أحد ، أبداً ، يرانا ونحن ندخل ، أخذت منها المفاتيح ، فتحت الباب ، صعدنا بهدوء إلى الطابق الثالث ، بهدوء أيضًا ، دخلنا شقة مادلين ، أشعلت النور .

قالت مادلين باسمة : « حسنًا » !

« أتعتقدين أننا صدمنا أحدهم ؟ » .

« أعتقد أننا صدمنا فاولر » .

« أتعتقد أن هذا شيء مهم ؟ » .

دخلنا غرفة المعيشة .

قالت : « لكننا ربما صدمنا بربارة أكثر مما صدمنا فاولر » .

قلت : « أوه ، كلا ، بربارة ليست من هذا الطراز » . استدرت على عقبي ورحت أذرع الغرفة جيئة وذهابًا . « شقتك جميلة » . كانت شقة مادلين مريحة ولطيفة . لها نوافذ كبيرة ذات ستائر. حجرة النوم إلى اليمين. أما المطبخ والحمام فيقعان خلفي .

قالت : «أوه، إنها على ما يرام. لكن تلك النوافذ تطل على ذلك الشارع البغيض .. لكن من المطبخ .. يمكنك أن ترى قليلاً من النهر . أليس هذا سخيفاً ؟» .

قلت : « كل هذه المدن تطل على النهر » .

« تعال وانظر » .

دخلت المطبخ ، وقفنا بجانب النافذة . كان ذلك شيئًا حقيقيًا – عبر الفجوات المتكونة بين الأبنية العديدة والثقوب الكبيرة والأسلاك والوميض الخافت لخطوط

السكك الحديدية ، يستطيع المرء أن يلمح النهر . إنه يكتسب الضوء بصورة مختلفة ، أو يعكس ضوءاً مختلفاً . إذا حبس امرؤ أنفاسه ، كما فعلنا ذلك ، الآن ، فبوسعه أن يسمع صوت جريان النهر الخافت والمستمر .

أرهفت السمع لحظة لأنفاس مادلين . كانت خافتة ، لكنها ليست متواصلة تماماً . لم أكن أعرف الدور الذي أرادت مني أن ألعبه ، وعلى مدى لحظات ، كنت أشبه بصبي يعزف موسيقى الجاز .

« ضع شريطاً في آلة التسجيل ريثما أعد الشراب » . « طيب » . عدت أدراجي إلى حجرة المعيشة « ماذا تودين أن تسمعي » ؟

« أي شيء تختاره أنت . ليكن الصوت واطئاً جدا » .

« صحيح . مؤكد أننا لا نود أن يقتحم الجيران الشقة هذي الليلة » .

ضحكت « لا . لا أريد أن يعيدوني إلى الدير » .

لم أستطع أن أخمن ما الذي أرادت سماعه . لم تكن تملك شيئاً يستهويني بشكل خاص . لذا وضعت شيئاً بسيطاً جداً ، ربما كان « رابسودي في لون أزرق »[1] بصوت واطئ جداً . ما زلت أشعر بثقة كبيرة بنفسي ، ربما لأنني لست الوحيد في حجرتي . جلست على الكنبة . على الطاولة المجاورة للكنبة ، تحت المصباح ، ثمة صورة لفتاة صغيرة ذات شعر طويل ، تقف بالقرب من سياج أبيض . رأسها مرفوع إلى أعلى . كانت الفتاة تضحك .

قالت مادلين : « هذه ابنتي » . جاءت تحمل الكأسين . جلست على الكنبة بجانبي . وضعت الكأسين ، مع الصحنين الواقيين ومنديلي المائدة على طاولة الشاي « هذه صورتها حين كانت في السادسة » .

« تبدو جميلة » . أعدت الصورة إلى مكانها « كم يبلغ عمرها الآن » ؟

« الثامنة » .

« ما اسمها » ؟

(١) عمل موسيقي يعزف على البيانو ومن قبل أوركسترا من تأليف جيرشفين Gerswin . (المترجم)

« أودري . هي كبريائي ومرحي . هي التي تجعل حياتي جديرة بالعيش » .

تطلعت إليها « هي مفيدة لك إذاً » رفعت كأسي « هي ذي حياة جديرة بأن يعيشها الإنسان » .

« لنشرب نخب هذه الحياة إذاً » . قهقهنا . احتسينا كأسينا . أصغينا إلى الموسيقى . أعدت كأسي إلى الطاولة . جذبتُ رأسها المتوج بالشعر الأشقر وجعلته يستريح على كتفي .

« أنت لا تشرب » . قالت مادلين بعد لحظة .

غريزة ما جعلتني أفعل بالضبط ما أرادتني أن أفعله . نظرت إليها . أبدلت موقعي ، وضعت رأسي في حجرها . خفضت بصرها وحدقت بي باسمة . بدا نهداها كبيرين جداً . وضعت يدي على أحدهما . بالأحرى كنت طفلاً يمثل دور طبيب . كنت أعرف جيداً أن ثمة عاصفة غريبة ، هائلة تجتاحني . كنت أدرك جيداً أن مادلين غير مبالية بالعاصفة إلا إذا كانت في طريقها للاستثارة .

قالت مادلين : « أنت ولد ذو نزوات » .

« لِمَ ؟ لم وصفتني بكوني ولداً ذا نزوات » ؟

أخذت رشفة من كأسها بتأن ، ضربتُ أحد النهدين بيدي . هتف صوت بداخلي ، ما أنت ، يا ليو ، إلا ولد شبت ، لعنة الله عليك ، وإنك لن تغادر هذا المنزل ، أو هذه المدينة ، حيا . لو استطاعت هذه المرأة قراءة أفكارك ومعرفة غرايتك ، ستكون مؤخرتك في النهر ، ويكون رأسك على طرف الرمح ، وأعضاؤك التناسلية مسمرة على باب دار العدالة . حدثت نفسي ، اللعنة أردت معرفة حدود نزواتها . قطعت شوطاً معيناً لحد الآن ، لأرى إلى أي مدى ستصل . شرعت ألمس أزرار بلوزتها . وضعت كأسها على الطاولة ، وانحنت كي تفعل ذلك . دسست إحدى كفي تحت البلوزة .

« أخبريني ، لم قلت : أنا ولد مضحك ؟ ما الشيء المضحك فيَّ » ؟ لم ترد عليَّ . قلت لها : « لعلك تفضلين أن تخبريني بذلك في المستقبل » .

بعدها رحنا نلهو معاً . استخدمت شفتي . لساني . وأصابعي . لم تستجب لي كثيراً حتى الآن . لكنها ستفعل . لهونا معاً . لا أعرف ما الذى قادني لفعل ذلك . لعلي وددت أن أعرف - أن أعرف - ما إذا يمكن لأحدهم أن يشمئز من جسدي . إلى أي مدى يكون جسدي مثيراً للاشمئزاز . ربما يجب أن أعرف مدى الحاجة إلى جسدي كي أجعل العقاب المخجل ملغياً : أو كي ألغي العقاب . عريتها تقريباً على تلك الكنبة . نزعت حذاءها وجوربيها . ثوبها نصف منزوع . سروالها الداخلي وحمالة صدرها على الأرض . صرت أجتاز مرجاً أخضر بخطوات واسعة . هي الأخرى شعرت بمثل ما شعرت . شعرت بالاستثارة . أنْت . عانقتني . لم أعد أبالي بها . تساءلت ما إذا اهتمت بي . ما إذا كنا نعير بالاً لأحدنا الآخر . استحوذ عليَّ ارتباك فظيع . مما أضعف ضراوتي وتأججت نار رغبتي . لم أعد أرغب بمراقبتها . كنت خائفاً مما سأراه . خفت مما وددت ولا زلت أود رؤيته . لم أرغب بمراقبة نفسي وقتاً أطول . وددت أن أحمل . وأن أنظف . وأن أفرّغ . ضربت وجهها وبدنها . أحسست بالضياع . وددت أن أبكي . مع أنها هادئة ساكنة الآن . أنا في الظلام . لساناتنا لها معنى أكبر . على الأقل . لساناتنا كانت أكثر ودية . ثم فتحت عينيَّ . حدقت بها . ملابسها نصف منزوعة . الجسد الأبيض كله في انتظاري . تساءلت ما إذا كانت . فيما أنا أجتاز المرج الأخضر . تزحف عبر الغابة . أرعبتها الأنفاس الحارة . وانتظرت الضربة القاضية لـ (كينك كونك) . كانت مادلين نصف عارية . أما أنا فما زلت أرتدي ثيابي . رفعت قميصي إلى رأسي . فتحت عينيها .

قلت : « لنخلع هذه الثياب ونذهب إلى السرير .. كالمتحضرين » .

ابتسمت : « هل نحن متحضران » ؟

« وحق الجحيم لا . هيا . خذيني إلى سريرك الواسع الصغير » . تأملتها .

« امنحيني شيئاً من المتعة » .

شقت طريقها بجهد مستخدمة مرفقاً واحداً « ساعدني في خلع هذا الفستان البغيض » .

نزعت عدداً من المشابك وفتحت عدداً من الأزرار، نهضت مادلين، تحررت من فستانها، تطلعت إلي، عاجزة تماماً، تلوح على محياها ابتسامة. أخذت يدها، قدتها إلى غرفة النوم. سحبت الأغطية إلى الأسفل. خلعت سروالي الجينز. قالت: «لحظة واحدة .. سأعود حالاً». احتضنتها وقبلتها. التصقت بي، ثم ابتعدت عني. «لحظة واحدة». قالت، متوسلة، ودخلت الحمام. ارتميت على السرير، استلقيت على ظهري خائفاً، غاضباً، أنتظر صابراً، كان الانتظار ثقيلاً، عميقاً، وقد روعني الحب.

أفقت، من النوم، فجأة، كالغريق. في أثناء نومي، حلمت بأنني سافرت عائداً إلى هارلم، جسدي وجسد كاليب ملتفان ببعضهما في سريرنا الضيق. صدر كاليب ساخن وثقيل، عرقه يبللني ورائحته تخنقني. رن في مسامعنا صوت أمنا مثل رعد ناقوس كنيسة: «يا ولد، أتعرف كم الوقت الآن»؟ كافحت للتخلص من ثقل كاليب. انقلبت في السرير، وكافحت. تقلبت وكافحت. وأفقت من النوم.

لم أستطع النوم طويلاً، لأن السماء بلا ضوء. رأس مادلين يستريح على صدري. كان شخيرها خفيفاً جداً، يسيل من فمها لعاب قليل. كان ثقلها لا يطاق. كرهته. كنت خائفاً، خائفاً جداً. عرفت أن شيئاً مرعباً يوشك أن يقع. ما في اليد حيلة. فأنا لا أستطيع أن أفعل شيئاً، كما ليس ثمة مكان أهرب إليه. هأنذا، في سرير هذا الجسد الأبيض، هأنذا متأهب للذبح. هأنذا، أنا يهوذا، ذو الأداة المتيبسة، مستدقة الطرف، والقلب العنيف، ضائع، محكوم عليه، مرتعب ووحيد. همس الهواء، باسم أخي، أو أنا الذي همست به. لكن ما من شيء الآن، وإلى الأبد، يمكنه أن ينقذ أخي أو ينقذني.

تخلصتُ من ثقل مادلين، برقة قدر ما استطعت، مضيت إلى الحمام، تبولت، ثم وقفت تحت الدش. فتحت الماء بأقوى ما يمكن. ضربتني إبر الماء مثل سهام سان سباستيان. لففت بدني بإحدى مناشف مادلين الكبيرة، عثرت على سيجارة. أشعلتها. صحوت من خمرتي الرديئة، جلست أمام نافذة المطبخ. ليو. عمرك يزيد على تسعة عشر عاماً. ماذا تحسب أنك فاعل بحياتك؟

أصغيتُ إلى خرير النهر ، لكنني شاهدت وجه أمي ، رشفت كأسي ، أمي التي هجرتها ، أبي الذي هجرته ، أنا ابنهما الضال ، هذه هي ليلة السبت ، هما الآن نائمان في الطابق الأخير من العمارة السكنية ، في غرفة نومهما ، غرفتهما الوحيدة . بقية الشقة مؤجرة لأناس غيرهم ، الحجرة التي كانت لكاليب يشغلها مدمن مخدرات وصاحبته ، أما حجرتي فهي تمتلئ بكل ما يتركه مشغل المصعد العجوز ، هو الآخر ، هجره كل أصدقائه ، أو أقاربه ، كلهم يشتركون في المطبخ والحمام وغرفة المعيشة . وهذه هي الشقة كلها ، التي كانت شبيهة بشقة الآنسة ميلدريد ، عدا كونها صغيرة . انتقلنا إلى هذه الشقة حين كان كاليب بعيداً عنا ، كاليب لم يمكث فيها أبداً ، وأنا لم أمكث فيها طويلاً .

لابد أن والدنا سكران ، سكران بهدوء ، انتهت نوبات غضبه ، هو يعيش من أجل النوم، فمه أضيق، وجهه أنحف، عيناه الواسعتان أصبحتا كليلتين بفعل حرارة حياته ، لكن النار برمتها انتهت ، والدي يعمل عتالاً في مركز للألبسة ، والدتي تقضي سحابة نهارها كخياطة في منطقتنا نفسها ولكن ليس للشركة ذاتها ، على أية حال ، ساعات عمل والدي مختلفة ، والدتي تذهب إلى العمل قبل والدي ، وتعود مسرعة إلى المنزل كي تطبخ له الطعام ، كي تنجز ذلك ، عليها أولاً ، وفي كل يوم ، أن تتخلص من قذارة المطبخ – ولأن المطبخ يستخدمه الغرباء، فقد كان قذراً على الدوام – وتفعل هي كل ما في وسعها كي تخفي فوضى الغرف الأخرى ، كانت مرهقة دوماً ، شعرها ملموم دوماً في عقدة أعلى رأسها ، أحياناً ، في ليالي السبت ، ترافق والدي إلى حانة في الحي ، يضحكان ويتجاذبان الحديث مع الناس هناك ، هذا يمنع والدي من أن يصاب بجنون الكآبة ، كان يغرق في بحر أحزانه حين يحتسي الخمر وحيداً ، حين ترافقه إلى الخارج ، تلبس أحلى ثيابها ، تضع في أذنيها أقراطاً متدلية ، لكنها كانت تسائل نفسها ، ووالدنا أيضاً ، يسائل نفسه : يا إلهي أين ولدانا الآن في هذه الساعة من الليل ؟ تساءلا كيف توقفت حياتهما فجأة وبصورة عاجلة ، كانا قريبين من الموت ، مع ذلك يبدوان كأنهما لم يعيشا أبداً .

قال كاليب : « من الأفضل لو أنك لم تعش ، عندها ما كنت لأتي إلى هذا العالم ، لا أحب هذه الحياة ، هذا الجحيم ! لم وهبتني إياها » ؟

كان عمره يزيد على الواحد والعشرين عاماً بقليل . أما أنا فقد تجاوزت الرابعة عشرة بقليل . مضى على عودته إلى البيت أسبوع كامل . كنا ، جميعًا ، واقفين في المطبخ ؛ كاليب ثمل جداً . جرع كاليب ووالدنا الخمر معًا . غير أن والدنا لم يكن ثملاً . ذهبنا كعائلة إلى حفلة ليلة السبت في حانة الرينيسينس الواقعة في الشارع السابع . كاليب ووالدنا قضيا مدةً طويلة في الحانة ، يتحدثان معًا . أخذ كاليب يبكي ، ثم غادرنا .

غدا كاليب أكثر نحافة ، إنما أقوى وأخشن . كان جميلاً ، جماله من الطراز الخطير جدا ، الفظ ، الذى لا يرحم . كان قد مضى على مجيئه إلى البيت أسبوع كامل – لكننا ، أنا وهو ، لاقينا صعوبة في التحدث إلى بعضنا – لم يود أن يخبرني كيف قضى وقته في السجن . لكنني أدركت كيف كان حاله في الزنزانة من خلال الطريقة التي يجعل بها – كلما لامست أنفاس جرحه المغفور – بيننا مسافة فاصلة ، كأنه يقول لي : « لا تدن مني .. أنا مصاب بالطاعون » .

« كاليب » قالت أمنا – ما زالت ترتدي ثوبها المسائي الأخضر ، قرطا أذنيها يعكسان الضوء ، ثمة أمشاط عديدة في شعرها البهي – « لا تحاول إيذاء والدك . بذلنا قصارى جهودنا من أجلك . نحن نكن لك عميق الحب » .

قال والدنا : « نحن أيضاً ، لم نطلب المجيء إلى هذا العالم » .

قالت أمنا : « نأمل أن تكون حياتك أفضل مما كانت عليه حياتنا » .

قال كاليب : « أنت على خطأ . إنها أسوأ » . بعد ذلك رق كاليب ، من المفروض به أن يرق ، ترقرقت الدموع في مآقي عينيه « لم أحاول إيذاء والدي » . خفض بصره إلى أسفل « أنا أحب والدي » .

قالت أمنا : « إذاً ، قل له هذا » .

حدق كاليب في والدنا . قال : « أنا قلت لك ذلك » .

« ألا تحب أمك ، أيضاً » ؟ سألته أمنا باسمة .

« نعم ، أنا أحب أمي » .

« وشقيقك » ؟

حدق بي ، تغيرت ملامح وجهه ، ابتسم ثانية ، سحبني إليه « نعم ، أوه ، نعم ، أنا أحب شقيقي » .

ثم قال : « لكنني لم أكن قادراً على إسداء عون كبير له » .

قلت : « لا أبالي بذلك ، سنحبك طوال أيام عمري ، سنساعدك ، أقسم بالله ، سترى مصداقية كلامي » .

قال كاليب وهو يمسك برقبتي : « يا شيخ ، لنشرب كأساً .. كأس المحبة » ، نظر إلى أمنا «حسناً ؟» ، ثم خفض بصره إلى «اطبع على خدى قبلة» . قال : قبلته .

قالت أمنا : « هكذا أفضل ، اجلسوا جميعاً وأنا أسقيكم كئوس الشراب » .

احمرت أمنا ، ثرثرت ، غادرت الحجرة بخفة . جلسنا - كاليب ووالدنا وأنا - بعدم ارتياح . وضع كاليب يده على رقبتي ثانية قال : « والدي ، أعرف أنها ليست غلطتك ، لكنك لا تعرف ماذا يفعلون بك ، حالما يلقون القبض عليك » .

قال والدنا : « يا رجل ، لقد فعلوا بي ما فعلوا » .

خفض كاليب بصره إلي : « فعلوا الشيء ذاته لليو الصغير ، أليست تلك هي الحقيقة ، ليو » ؟ حدق بي ، صدّ عني ، سحب ذراعه « لا تقل لي ، أنا أعرف » .

قلت : « لم يفعلوا بي ما لم أستطع تحمله ، لذا ، لا تقلق علي » .

ثم قلت له : « أنا أكرههم ، أنا أكرههم ، أكرههم » .

قال كاليب بضجر : « نعم ، فعلوا بك ما فعلوا » ، ثم ندمت على كلامي ، لكن ما قلته كان حقيقيا ، وعلى أية حال ، سواء قلت أو لم أقل ، كاليب ووالدي كانا يعرفان ذلك ، أدركوا ما فعله بي الزمن ، بينما لم أدرك أنا ، ما تمنوه لي كان مقفلاً دوني الآن في بلاد الأحلام ، لن تتحقق أمنياتهم الآن ، ما من أحد يتكهن بما سيحدث ، وما من أحد يستطيع أن يتحكم بالمستقبل ، بطريقة أو بأخرى ، يمكنني القول : إنني حطمت

كل آمالهم . لم يستطيعوا إنقاذي - ستكون حياتي كحياتهم . دعتني الشوارع لأن تحدياتي هناك . الآن كل شيء يعتمد على ما يمكنني تعلمه في المدرسة التي من المفروض أن تعدني للحياة . كدت أضيع لأن الأكبر مني سنا ضللوني بسبب خطأ لم يقترفوه . لعلي أحببت والدي . لكنني لا أود أن أعيش حياته . لم أرغب أن أغدو مثله . هو مثال حي للهزيمة . لا يمكنه أن يقوِّمني . ما من أحد من الذين يكبرونني سناً قادر على تقويمي . لأن حيواتهم أرعبتني . فقد كبرت بما فيه الكفاية كي أفهم كيف سارت حياتهم . لكن الغضب والأسف ليس حبا . والتصميم على تجاوز وضع المرء يعني أن هذا المرء لا يملك أمثلة حية يحتذيها . بل مجرد دروس مدركة بالحواس . لم أعد شقيق كاليب الصغير : أصبحت جزءاً من عبء كاليب الثقيل . هذا لأنه أدرك أنه أصبح جزءاً مني إلى الأبد .

حتى كاليب . أصبح بالنسبة لي درساً مدركًا بالحواس . راقبته خفية . سراً . ضد إرادتي . الله أعلم . قاضيته . شقيقي . شقيقي . ضخم . أسود . جميل . من المفروض أن يكون ملكًا . لكن صديقته دولوريس تحولت إلى مومس تعمل نادلة في حانة . كانت الآنسة ميلدريد أضخم منه . عديمة الهدف أكثر من أي وقت مضى . كان أرثر الخائن يرجم بالحجارة دومًا . الآن يشعر كاليب بالوحدة والحزن . الانكماش والهستيريا . حين أحدق فيه أشعر أن قلبي يتفطر . ضربوه بعنف وقسوة . كرهت الناس الذين ضربوه . آنذاك كنت في الرابعة عشرة . مؤكد كنت قادراً على القتل . ليس ثمة سبب يمنعني من القتل - أعني - ما من سبب أخلاقي . لكنهم كثيرون جداً . كثيرون جداً . أينما يلتفت المرء يجد عدداً كبيراً من تلك الوجوه الرقيقة . البيض . السعيدة . المعتوهة . اجتزت الشوارع . ذهبت إلى المدرسة . تأملتهم . كرهتهم . من العسير أيضاً أن تحب شقيقك المضروب . هذا يعني أنك تقبل بواقع الحال : بينما يسائل المرء نفسه : ماذا عساي أفعل كي أنجو ؟

لقاءاتي غير المتوقعة مع كاليب حين جاء إلى البيت أول مرة لا أتذكرها الآن بوضوح تام . بعض اللحظات واضحة المعالم تماماً . وبعضها مبهمة . تقترب كثيراً من الضوء ثم تتراجع نحو العتمة . بعض اللحظات يتعذر استذكارها . كنت أعرف ذلك . بدأت مؤخراً أعرف السبب . أنا لا أعترف بصحة الخرافة القائلة بأن فهم المرء للحدث

يغير الحدث . كلا ، إن الحدث هو الذي يتغير ، والمسألة التي نواجهها هي كيف نتعايش مع تقلبات الزمن الوحشية .

هذا المساء ، على أية حال ، حين دخلت أمنا الحجرة ثانية مع قنينة الويسكي التي سرقها كاليب من حانة المرقص ، بذل كاليب كل ما بوسعه كي يكون مرحاً ، حاولت أيضاً أن نغدو كذلك . على أية حال ، شيء حسن أن نراه . شيء حسن أن نراه قبل أن يغدو هو ووالدنا كئيبين في الحانة . يراقص كاليب الفتيات ، يمازحهن ، ويجعلهن ضعيفات أمام جماله وفتنته . لكنني لاحظت بتلك اليقظة المتزايدة التي أدين بها كثيراً لكاليب ، أن الفتيات لم يأخذن سلوكه مأخذ الجد : غلام ذو سوابق يتعذر وصفها أمسى رجلاً ذا مستقبل زاهر . كان جميل الطلعة ، مراقصته جميلة ، وربما جميل أن تنام معه فتاة : لكنه لم يعد مناسباً للغرام . حتماً كاليب شعر بذلك . خلال سلوكه مع الفتيات أحسست أن ثمة سمة من الوحشية لم أتحسسها فيه من قبل . لم يكن ليعذبهن ، ليفتنهن ، ليغريهن فعلاً ، بل كان يؤنبهن بسخرية . كان يقول : عندي ما تريدينه ، لكنني لا أزعم أنني أمنحه لأي منكن أيتها المومسات السوداوات .

عادت أمنا ، سقتنا كئوس الشراب . الواقع ، لم يكن مسموحاً لي أن أشرب . لحسن الحظ ، في تلكم الأيام ، لم أكن لأرغب باحتساء الشراب . لكن هذا المنع ككل ممنوعات أبي ، أصبح تبليغاً غير ذي جدوى من خلال حقيقة كون والديّ يعرفان جيداً أنني أفعل ما أشاء خارج البيت . قالت أمي : « لقد جعلت منك إنساناً نحيفاً فعلاً » . قدمت لي كأساً من جعة الزنجبيل يخالطه شيء من الويسكي . « هذا كي تشعر أنك جزء من الأسرة » . قالت ، وقدمت كأسين إلى والدي وكاليب ثم جلست . كاليب ووالدنا تبادلا النظر إلى بعضهما الآخر ، لم يبتسم أحد منهما . جرعت كأسي المترعة بجعة الزنجبيل . فكرت بفتاة عرفتها . حاولت أن أفكر بكل شيء عدا الحجرة التي كنت فيها ، وعدا الناس الذين أجالسهم .

قال كاليب : « ليو الصغير لم يكبر كثيراً . ماذا كنت تطعمينه » ؟

قالت أمنا : « الغذاء نفسه الذي أطعمناك إياه . الفاصوليا الحمراء والرز وخبز الذرة وشرائح لحم الخنزير مع الأضلاع وشرائح فخذ الخنزير والأضلاع والخضار » .

سأل والدنا : « ماذا قدموا لك من أطعمة هناك » ؟

أجاب كاليب : « أطعمونا ما عافته الخنازير . أحد الأطعمة التي لن أتناولها أبداً لا هو باللوبيا ، ولا بدبس السكر » . صمت لحظة . « كانوا يطعموننا لمجرد أن نكون قادرين على العمل . كأنك تطعم بغلاً . كانوا يضربوننا كما تضرب البغال . أيضاً » . حدق بي « نعم » . قال ورشف كأسه . سأل والدنا بحذر : « ماذا ستعمل بعد مغادرتك السجن » ؟

سأل كاليب برقة : « أعمل ؟ أعمل ؟ ماذا تعتقد أنني سأعمل ؟ هل هذا هو السؤال الذي وجهته إليّ ؟ لم ؟ .. لعلي سأعثر على سيدة بيضاء ثرية فأقوم برحلة معها إلى پالم بيچ .. سأكون سائق سيارتها الخاصة . أنت تفهم ما أقوله . عدد كبير من السيدات البيضاوات يعانين من حمى السود .. أو لعلي أحصل على وظيفة في مصرف . أو ربما أضطلع بإدارة شركة تأمين على الحياة .. أو . لأرى الآن . ثمة مال وفير في ممتلكات حقيقية . ثمة مال وفير فيها . لعلي سأشرف على عدد قليل من بلوكات المنازل . أو . بعد ذلك . ربما أغدو طياراً . كنت دوماً أحب الطيران . هذا ما سأفعله » . قال بتصميم : « سأطير » .

قالت أمنا : « ينبغي لك أن تسير على قدميك قبل أن تطير . ماذا تود أن تفعل طالما أنك تمشي على الأرض » ؟

حدق بها . قال : « أمشي . أمشي فقط » . قالت أمنا : « وأنت تمشي على اليابسة عليك أن تأكل » .

قال : « يمكنني سرقة الطعام . أستطيع أن أسرق . على أن أسرق زمناً طويلاً قبل أن أسترجع نصف ما سرقوه مني » .

قالت له : « حسناً . إن لم تستطع استرجاع ما سرقوه منك فلن تكون هي سرقة حقيقية » .

صمت كاليب . أبونا هو الآخر صمت .

قالت أمنا : « أنت يا كاليب الشاب . لا تدع هذه الأمور توقعك وتعطلك . اعقد العزم على فعل ما تشاء » .

سألها : « هل أقدر ؟ هل تلك هي الحقيقة » ؟

لم تتردد أمنا : « إذا قررت أن تفعل شيئاً » .

« فهمت » . رفع بصره إلى السقف . تهض . « أتعتقدين أن هذا الأمر ينطبق على كل الأولاد السود الآخرين . أيضاً » ؟

قال أبونا : « حين نقرر » .

صاح كاليب : « حين نقرر . نقرر ماذا ؟ » .

قالت أمنا : « حين نقرر بأننا أكفاء مثلهم تماماً . أكفاء مثلهم . أكفاء مثلهم ! » .

ضحك كاليب . قلد أمنا : « أكفاء مثلهم . أكفاء مثل من .. مثل أولئك القوم الذين ضربوني على مؤخرتي وسموني بالزنجي الحقير وأرغموني على أكل الخراء والتمرغ في المزبلة كالكلب ؟ أكفاء مثلهم؟ هل هذا هو ما تتمنينه لي ؟ أتمنى أن أراهم واحداً واحداً في قبورهم – في قبورهم – ماما . هذا صحيح . لن أكون رجلاً أبيض لأن كل الذين يضربون الناس بقسوة سيكون مآلهم الجحيم » . جلس . « لا أدري ما الذي سأفعله . علي أن أفكر ملياً . لا تقلقي عليّ . لن أبقى عبئاً ثقيلاً عليك مدة طويلة » .

قالت أمنا : « لن أبالي أن تكون عبئاً عليّ . أنت تعرف هذا . لا تتحدث إليّ بهذه الطريقة » .

ابتسم كاليب . حدق بوالدتنا . بحلق أبونا في كأسه . قال كاليب بعد لحظة طويلة جداً : « أنا متأسف » .

قلت : « أنا نعسان . أنا ذاهب إلى السرير الآن . طابت ليلتكم » .

راقبوني وأنا أغادر الغرفة . سمعت والدتي تقول : « في اعتقادي . إنها فكرة جيدة » .

قال كاليب بتجهم : « ليو يتحلى بعقل راجح » .

اندسست في سريري . لم أشأ البكاء . أصغيت لهم . تحدثوا برهة . ثم مضى والدي إلى الحمام . قضى زمناً طويلاً في الحمام . خفت أن يكون مريضاً . ثم سمعت دفق الماء . سمعت جريان الماء . سمعته يغادر الحمام . دخلت أمي المطبخ . والدنا وكاليب تمنى كل منهما للآخر ليلة سعيدة . دخل كاليب الحمام . أكملت أمنا عملها في المطبخ . أطفأت نور المطبخ ونور حجرة المعيشة . لحقت بوالدي . سمعت باب حجرتها يغلق . فتح كاليب صنبور الماء بغية الاستحمام . ثم غفوت .

أفقت على صوت نواح . كان أحدهم ينوح . كاتماً أنفاسه . هازا السرير . أرهفت السمع . مددت عنقي . إذا صح التعبير . في رعب يختلف عن أي رعب عرفته من قبل . يا له من نواح ! يا له من نواح ! بدا لي وكأنني أنوح . كان نواحاً لا يطاق . عرفت أنني غير قادر على تحمله. التفت ولمست وجه كاليب الندي وهمست : « كاليب . كاليب من فضلك . من فضلك لا تبك . قل لي ما الخطب ؟ من فضلك قل لي ما الخطب » ؟

صدره لا ينى يهتز والدمع ينحدر . ينحدر . لم أعرف ماذا يتعين على أن أفعل . طوقته بذراعي . قبلت دموعه . « كاليب . أرجوك . كاليب .. » . كنت كمن يتكلم مع عاصفة .

« أوه . ما الذي فعلوه بي . أوه . ما الذي فعلوه بي » .

عانقته بكل ما أوتيت من قوة .

« ما الذي فعلوه بك » ؟

« أوه . أوه . أوه . يا ليو الصغير . نم » .

« نم أنت أولاً . من ثم سأنام أنا » .

طوقني بذراعيه . شيء غريب أن أشعر أنني أخوه الأكبر . عانقني بحرارة . أو بالأحرى . بشدة . بحيث إنني أدركت أول مرة كم كانت ذراعاه خاليتين . كم كان يتلهف لمعانقة إنسان .

« نم » .

« حسناً ، شقيقي الصغير . أأنت على ما يرام » ؟

« نعم . ليلة سعيدة » .

« ليلة سعيدة » .

جانب وجهه الملاصق لكتفي كان ما يزال مخضلاً بالدمع . جف ببطء . هدأت أنفاسه تدريجياً – العاصفة شرعت تنتهي ، خرجت منه واجتاحتني . الواقع ، لم أستطع رؤية وجهه في العتمة ، بيد أنني أمعنت النظر بوجهه في عتمة ذهني . العينان ، الفم ، الأنف ، الذقن ، الجبين ، الشعر المصوّف البراق ، هو أجمل مني بكثير ، كان جميل الطلعة ، أخذ مني العالم شقيقي ، دونما أي سبب ، اعتصره العالم كما يعتصر ليمونة ، انتزع أحشاءه وملأها بنشارة الخشب ، ركله كمن يركل خرقة قذرة ! بينما كان كاليب يزفر أنفاسه في وجهي ، دموعه تجف على عنقي ، ذراعاي تطوقانه ، أقسمت أنني لن أصفح عن هذا العالم ، أبداً ، أبداً ، أبداً . سأجد طريقة مناسبة كي أجعله يدفع ثمن فعلته . ذات يوم سأفعل شيئاً ما على الأقل لوجه أبيض ، لطيف ، معتوه ، سعيد بحيث ستتغير ملامح ذلك الوجه إلى الأبد . إذا ظنوا أن كاليب أسود ، إذا ظنوا أنني أسود ، سأريهم ، نعم ، سأريهم ماذا يعني أن يكون المرء أسود ! أقسم بالله . أقسم بالله . همست بذلك لشعر كاليب المفتل . لعنت حظي العاثر من أعمق أعماق قلبي . رحت في سبات عميق ، وصحوت من النوم لأجد نفسي مثل يعقوب مع الملاك ، أتصارع مع إله مختلف تماماً ، ومع إله آخر أكثر استبداداً ، إله الجسد . احتضنني شقيقي ، كان شديد الاهتياج ؛ أثارني اهتياجه . دهشت برهة ، خفت برهة . لكن ، في الواقع ، ليس ثمة شيء مدهش جداً في حادث كهذا ، وإذا كان ثمة سبب يدعو للخوف ، حسناً ، إذاً ، تمنيت أن يكون الله قد راقبه . ربما فعل كاليب ذلك . لم يفعل شيئاً غير ذلك . أدركت ، أدركت ، ما الذي ابتغاه شقيقي ، ما الذي احتاجه شقيقي ، لم أكن خائفاً بالمرة – أكثر مما أستطيع قوله عن الله ، الذي أخذ كل شيء منا ، ولم يهبنا شيئاً ، والذي يهب دون مقابل ، مع أن كل مخلوقاته دفعت الثمن . احتضنت شقيقي ، قبلته ، عانقته ، شعرت بألم ودهشة لم أشعر بمثلهما من قبل . تفطر قلب أخي ، عرفت ذلك من خلال لمسته . في كل أرجاء العالم الواسع ،

العظيم ، القذر ، وثق أخى بحب فرد واحد فقط ، أخيه ، أخيه ، الذى بين ذراعيه الآن ، فكرتُ ، نعم ، نعم ، نعم ، سأحبك يا كاليب ، سأحبك إلى الأبد ، وعلى مرأى من (الأب) و (الابن) و (الروح القدس) وكل المضيفين الآخرين ، على مرأى من العالم بأسره ، وسوف أردد ترنيمات الشكر لمحبوبى الذى غدا ماله فى الجحيم ، خلعت ثيابى وثياب أخى ، أمسكنى وقبلنى وتمتم باسمى ، كنت فى غاية اليقظة ، فى غاية العجب ، لم أفكر بجسد شقيقى من قبل .

فى الواقع ، أنا أيضًا ، لم أفكر بجسدى من قبل ، مع أننى أحمله وكانت لى تجربة معه أحيانًا ، لم نفعل شيئًا شديد المغامرة ، الواقع استخدمنا أيدينا فقط ، بالطبع ، فعلت ذلك بمفردى وفعلته بصحبة الصبيان الآخرين : لكن هذا الفعل لم يكن كذلك لأنه خال من الصراع العنيف ، لم أحاول أن أعطى ، لم أحاول أن آخذ ، لم أشعر بنفسى ، كما أشعر الآن ، أن أكون حاضراً فى جسد إنسان آخر ، لم أشعر بأن أنفاسه كأنفاسى ، تنهداته كتنهداتى ، نواحه كنواحى ، ارتعاشاته كارتعاشاتى ، انتفاضاته كانتفاضاتى ، رحلاته كرحلاتى ، تلك الليلة لم أبتغ شيئًا من الدنيا غير مرح كاليب ، مرحه هو مرحى ، حين تغيرت أنفاسه وبدأت ارتعاشاته ، سرت فى داخلى رعشة المرح ، رعشة المرح ، رعشة المرح والكبرياء ، والتحمنا معًا ، عانقنى كاليب مدة طويلة ، ثم همس فى أذنى : « أأنت على ما يرام » .

قلت : « نعم ، أنا على ما يرام ، هل أنت بخير » .

« نعم نعم ، أما زلت تحبنى ؟ أنت غير غاضب منى » ؟

أجبته : « لم أغضب منك ، نعم ، أنا أحبك يا كاليب أكثر من أى إنسان آخر فى عالمنا الواسع ، أتصدقنى » ؟

قال بعد لحظة : « نعم ، أصدقك » .

قلت له : « قبلنى » .

قبلنى .

« الآن ، نم » .

قبلني ثانية . « ليلة سعيدة ، يا ليو الصغير . لا أدري ماذا أفعل بدونك » .

قلت له : « لكنك غير مجبر على أن تفعل شيئًا ما بدوني . هذا هو بالضبط ما قلته لك » .

« ليلة سعيدة » .

غفونا .

أظن أن كلينا كان مرهقًا أيما إرهاق ، مستنزفًا ، بحيث أننا لم نُفق من النوم حتى أول العصر . بحلقت من النافذة المواجهة لجدار البيت الملاصق لنا . كان الطقس مشمسًا وباردًا . كان يبدو نهارًا جميلاً . أحسست بأنه نهار جميل . كانت أجهزة المذياع تصدح ، يتعالى من أحدها صلاة كنيسة ، ومن آخر صوت فرقة جاز ، ثمة أصوات يتعذر كبتها ، صوت ورائحة طبخ . كان ذلك مألوفًا . كنا نشعر بالأمان ، كاليب وأنا لم نرغب بالحركة .

قلت : « في الخارج الطقس بارد » .

« وكيف عرفت ذلك » ؟

قلت : « تطلعت من النافذة . ستكتشف هذا حال خروجك من السرير » .

« ماذا تنوي أن تفعل اليوم » ؟

« لا أدري . أي شيء تود أن تفعله » .

أصغينا إلى أصوات والدينا في غرفة المعيشة .

« أشعر بالكسل » . قال كاليب . أشعل سيجارة . « أشعر كما لو أن رأسي يدور وأود العودة إلى النوم » .

« إن عدت الآن للنوم فلن يمكنك النوم ليلاً . عليك أن تكيف نفسك . هل لي بنفس من سيجارتك ؟ » .

تحرك حركة بسيطة ، مدهشة ، أعطاني سيجارته . راقبني « هل تدخن » ؟

أعدت له السيجارة « غالباً ، مع الشبان الآخرين » .

قال : « إذاً لا يعجب المرء إذا عرف أن جسمك لا ينمو » .

« لا أظنني سأكون ضخماً جداً . إن كنت لا تحبذ ذلك فسوف أقلع عن التدخين » .

« حسناً ، لا أظن أن التدخين ينفعك » .

« حسناً » .

دخن كاليب ، مدة ، بصمت . راقبت ملامح وجهه ، تأملت سحابة الدخان المتصاعدة من سيجارته . وضعت رأسي تحت جناحه ، إذا صح القول ، ضمني إليه ، رمى عقب سيجارته ، تحرك ، صفعني على قفاي ، « هيا ، لننهض . سآخذك إلى السينما » ، عثر على سرواله الداخلي ، وسروالي ، لبس سرواله ، دخل الحمام ، حين خرج سحب الأغطية عني ، تعاركنا على الأغطية ، كاتمين أنفاسنا ، وضاحكين ، تصارعنا في أنحاء الغرفة ، فهتفت أمنا : « هل قمتما من السرير أخيراً ؟ عليكما أن تخجلا من نفسيكما وأنتما كبيران ، أسودان لكن كسولان ! » .

« كبيران ، أسودان ، لكن كسولان » ، ضحك كاليب مع نفسه ، ضحكت أنا أيضاً ، هتف كاليب : « لستُ أنا الكسول يا ماما ، إنه ليو ، أنا نهضت من السرير ، أنا نهضت من السرير ! » .

« أراهن ، حري بكما أنتما الاثنان أن تؤكدا حضوركما وتخرجان من الحجرة ، إذا ما وددتما أن تأكلا اليوم » .

كان كاليب يدغدغني بيد ويتجنبني باليد الأخرى ، لذا كنت مرغماً على الوقوف على قدمي ، درت حول نفسي خارجاً من الباب وهرعت إلى الرواق ، « ماما غادر ليو السرير » ، هتف كاليب بابتهاج شديد .

« لا أدري إن كان ليو جائعاً أم لا ، أما أنا فجائع » .

تذمرت أمنا قائلة : « أوضحا لي ، كلاكما كبير كي يتولى العناية بنفسه ، عليكما رعاية والدكما وليس أنا » ، كانت في المطبخ ، « أتريد كوباً من القهوة ، يا كاليب ؟

ليس من المستحسن أن تأكل بعد النهوض من الفراش مباشرة . أتدرى كم الوقت الآن ؟ » .

« من فضلك ، ماما ، أريد بعض القهوة . كم الوقت ؟ » .

« الساعة الثانية بعد الظهر ، ليو . لا تخرج من الحمام إلا بعد أن تغتسل » .

هتف كاليب : « أحقا الساعة هى الثانية بعد الظهر ؟ يا إلهى ! لابد أننا سهرنا ليلة أمس » .

قالت أمى بصوت أنفى : « احفظ السر ، احفظ السر » .

« ألم تسهرى أنت يا سيدتى المسنة » ؟ سأل كاليب أمه حين أصبح فى المطبخ .

صرخ والدنا : « كف عن مضايقة أمك ، وتعال إلى هنا » .

« ولم آتى إلى هنا » قال كاليب . سمعته يدخل حجرة المعيشة .

« نعم . أظنك تضايقنى » .

« لماذا لا يوجد إنسان مسرور فى هذا المنزل صبيحة هذا اليوم » قال كاليب بأسلوب سار . وفتح المذياع .

فى أثناء الوقت الذى ارتديت فيه ثيابى والتحقت بهم ، عثر كاليب على محطة إذاعة تبث موسيقى كاليبسو . كان يطوق أمنا بذراع واحدة ، يرقص معها رقصة الفالس . نصف ضاحك ، نصف محتج ، على بلاط الغرفة . قالت : « يا إلهى ، لماذا يتعين على ، الآن ، أن أكون أم الزنجى الحقير الوحيد فى العالم الذى لا يحس بالإيقاع أبداً .. الآن ، انظر ، كاليب .. » . تفرق كلاهما ، ضاحكين . حاولا أن يرقصا ثانية عبر البلاط ، رقصة سارة ، ساخرة ، ثم كان عليهما أن يستديرا معاً ، أن يلتقيا معاً وأن يفترقا . بعدها يتعين عليهما أن يلتقيا من جديد ، ويجتازا البلاط ، من جديد . « يا إلهى ، كاليب » . ضحك كلاهما ، انتهت تلك الفقرة ، انحنى كلاهما ضاحكين . ضحك والدنا ، أيضاً . قال : « ليست هذه هى الطريقة التى ترقصها فى الجزر » وبدأت فقرة أخرى .

قال كاليب : « هيا ، أرنا كيف ترقص في الجزر » .

أدار كاليب والدتي نحو والدي فرفعته هي من ذراعه .

شاخ والدنا ، غير أنه ما يزال فتياً ، حين يقف على قدميه بقامته المديدة ، يكتشف المرء فتوته : بشفتيه المطبقتين ، يبتسم لامرأته ، يبتسم مع امرأته ، التي كان قواماً عليها ، يبدو كما لو أنني وكاليب غير حاضرين أو حاضرين فقط كشيء محتمل . كانت رقصة تزاوج بين رقص الإنجليز ورقص سكان الجزر ، كانت في الواقع ، كما بدأت ، حسب المعتقد الإنجليزي ، رسمية ، بعدها ، دون أن تصبح أقل رسمية ، أصبحت بالنسبة لها أكثر تعذيباً ، وبالنسبة له أكثر عدوانية ، وكما عرفها كلاهما ، كانت لعبة ، طقس ، قربان مقدس ، غدت أكثر جرأة وأشد سخرية ، وركاها اليدينان يهتزان كوركي فتاة ، وجهها شديد التألق استدار نحوه ثم ابتعد عنه ، لونه الحليم ، الباذنجاني ، طاردها أينما ذهبت ، اهتز وركاها كما يهتز وركا غلام ، تحركت أقدامهما كما لو كانا حافيين في الحقول ، قبض على أحد وركيها ، قبضت على إحدى كتفيه ، كانا يبتسمان ابتسامة لا مثيل لها ، شعرا أن نهاية الفقرة باتت وشيكة ، استدارا مرة أخرى ، وحين انتهت الفقرة انحنت هي احتراماً ، وانحنى هو أيضاً ، صفق كاليب بكفيه .

« يا للجحيم » قال والدنا ، فيما جلست أمنا في كرسيه، مسحت حاجبها بمبالغة ، أشعلت سيجارة : « هذا لا شيء ، عليك أن تشاهدنا حين نفعل ذلك حقيقة » .

« هل هذه رقصة حقيقية » ؟ قال كاليب بعد لحظة ، ثم جار هو ووالدنا ، حدقت أمنا بهما ، ثم حدقت بي .

قالت أمنا بثقة : « كلاهما ، كلاهما ، كلاهما مجنون تماماً صبيحة هذا اليوم ، كاليب ، بردت قهوتك » ، نهضت على قدميها ، وذاقت قهوته « باردة كالحجر » ، أخذت قهوته إلى المطبخ « ليو ، أتريد شيئاً من القهوة ؟ » .

« نعم ماما ، من فضلك » .

« وأنا أيضاً » قال كاليب ، « أعرف ذلك ، حسناً ، ما عليكما سوى أن تنتظرا قليلاً ريثما أعد الكثير منها » .

الآن . تستمر نشرة الأخبار في المذياع . والدنا يطقطق بأقراص الراديو : كان الجو مليئاً بحاجات ملحة كاذبة . أخبار من تلك التي ربما تكتبها تماماً عادات الباعة ومطالبيهم .

سأل كاليب : « الآن . ألا تريد معرفة ماذا يجري في العالم » ؟

« لا » أجاب والدنا بهدوء، وهو ما يزال يطقطق بأقراص المذياع . « ما من ولد أبيض حي يمكنه أن يخبرني بما يجري في العالم . قبل أن يخبرني ماذا عرفوا عما يتعلق بمهنتي » .

قال كاليب : « هم لن يفعلوا ذلك » .

« لا » قال والدنا . طقطق بالمذياع وقال : « ستكون لها صفة قوية عما قريب » .

جلبت لنا أمنا قهوة طازجة . جلسنا عند النافذة نتأمل الطرقات قبالتنا . أناس آخرون يجلسون في النوافذ . يتأملون الطرقات . فكرت . غالبًا . بأنه ربما ليس ثمة تجسيد أكثر حيوية للصمت . وليس ثمة صورة أدق للانتباه من تلك التي تقدمها نوافذ هارلم . في أوقات العصر من أيام السبت . أربعة أو خمسة أو ستة طوابق في الأعلى أو الأسفل. يجلس الناس. أو يتكئون . وكأنهم أقاموا أو زرعوا هناك : وجوههم جامدة كالحجر الذي يؤطرهم . في نافذة أعلى طابق . خلف المشواة التي وضعها هناك كي يمنع أطفاله من السقوط . يجلس رجل يعتمر قلنسوة مخروطية الشكل . حاملاً طفله الرضيع. الطفل في حالة عدم استقرار. لكنه عدم استقرار مرح . كان يتقبل حركات الطفل باطمئنان حيث كان يزيح ثقله قليلاً بين آونة وأخرى . عدا هذه الحركات البسيطة . قد يسائل المرء نفسه عما إذا كان الرجل يعرف فعلاً أنه يحمل طفلاً بين ذراعيه . الانتباه باد على وجهه . لكن وجهه جامد . ساكن . بين شفتيه الغليظتين سيجارة منطفئة : يحدق بالدخان المتصاعد من السيجارة . يتعذر علينا أن نجزم ما الذي يراقبه : أو ما إذا كان يراقب حقيقة . مع ذلك . هو يحس بشيء ما . بوسع المرء أن يسمع تقريباً صوت مطارق صغيرة تضرب وعجلات صغيرة تدور . هكذا . السيدة في الطابق الذي تحته . شعرها مشدود إلى أعلى بخرقة . تتكئ بمرفقيها على حافة النافذة . قبضتا يديها على ناحيتي ذقنها . ووجهها قاتم السواد .

جامد نوعاً ، شفتاها رقيقتان جدا وحزينتان ، عيناها الواسعتان الداكنتان لا تتحركان . في النافذة المجاورة لنافذتها ، تجلس سيدة طاعنة في السن ، في صورة وجهها الجانبية تبدو ذات أنف هندي قوي ، رأسها مرتد إلى الوراء ، مغمضة العينين ، وعند النافذة إلى الأسفل منها ، يجلس غلام يبلغ من العمر ثماني أو تسع سنوات ، ذقنه على حافة النافذة ، قبضتاه تغطيان أذنيه ، عيناه جد واسعتين وسوداوين. شعره قصير جداً ، ويلتمع بالفازلين الذي دهن به . امرأة فاتحة السمرة ، ذات شعر سبط ، فستان أسود ، تجلس إلى نافذة الطابق الأرضي ، ابنتاها الصغيرتان تقفان بين ركبتيها . يبدو أنهم جميعًا يراقبون الشارع . الشارع طويل جداً وواسع . في ناحيتي الشارع تقف سيارات فخمة لماعة في الأماكن المخصصة للوقوف . السيارات أنظف من الشوارع بكثير - في الواقع، ثمة رجل قصير ممتلئ الجسم ، يلبس قميصاً بكمين ، منهمك بتلميع سيارته . صفائح القمامة مملوءة تماماً بحيث أن أغطيتها لا تحكم إغلاقها ، هذه الصفائح موجودة أمام كل بيت ، تتبعثر القمامة في طول الشارع وعرضه وتتجمع في بالوعات جانب الطريق الفارغة . تمر السيارات عبر الشارع ، يتشتت الأولاد، ومع أن الطقس اليوم بارد بعض الشيء إلا أن الشوارع لم تكن خالية. بنات في أبهى ثيابهن يتبخترن في مشيهن ، تارة فرادى ، وطوراً جماعات ، وثالثة مع الأولاد الذين يرتدون أجمل ملابسهم . تمر سيدات محترمات يحملن الأناجيل ، رجل سكران جاء يغني ، يصرخ ، معطفه الأسود القديم يطير مع الريح ، يبدو أن الأطفال وحدهم الذين انتبهوا إليه ، وهذا يجعل حياته أكثر مشقة : ذلك أن الأطفال كانوا يناوئونه ويتعقبونه. كل شيء يحدث هنا، لا شيء يحدث هنا، كل شيء ساكن كالرعد . قد يكون المرء في سراديب الموتى ، مع المؤمنين الأوائل ، منتظراً إيماءة ما ، وعلى الدوام، يكون صدى الموسيقى، حضور الأصوات، مستمراً وقويا كحركة البحر .

أخيراً ، قررت أمنا أن تطعم ولديها - أصبح كاليب متململاً ، راح يدخن السيجارة تلو السيجارة ، متطلعاً عبر النافذة - نهضت على قدميها ، مضت إلى المطبخ وسخنت البسكويت ، والبطاطا ، والفراخ ، ولحم الخنزير ، وصلصة مرق اللحم والرز . صفت منضدة لعب الورق لكاليب ولي ، جلسنا لتناول الطعام ، جلس أبوانا قرب النافذة ، يراقباننا ، كما لو أننا أصبحنا صغاراً من جديد .

قال والدنا بحذر : « كما تعرف ، في المكان الذي أعمل فيه ، يبحثون عن موظف شحن ، فالموظف القديم التحق بالجيش » .

رفع كاليب بصره ، ولم يقل كلمة .

قال والدنا : « سألوني ما إذا أعرف من يصلح بديلاً عنه ، أجبتهم ربما أجد أحداً ، هي ليست وظيفة سيئة .. وهي تساعد المرء على تمشية حاله » . حدق بأمنا .

سألته أمنا : « كاليب ، أتظن أنك تحاول العمل في هذه الوظيفة » ؟

سأل كاليب : « كم يدفعون أجراً » ؟

أخبره والدنا . ضحك كاليب . قال : « هذا الأجر سيجعلني قادراً على تمشية حالي ، حسناً » .

قالت أمنا : « أعتقد أن هذه الوظيفة مناسبة لك ، إلى أن تجد .. إلى أن تجد .. وظيفة تروق لك » . التقت نظراتهما ، ثم قالت له : « كاليب ، عليك أن تفعل شيئاً ما .. أعني من أجل نفسك ، إذ لا يمكنك أن تبقى جالساً هنا وتمارس حماقاتك » .

قال كاليب بجذل : « ماذا عساي أقول لهم إن سألوني أين قضيت سنواتي الطويلة » ؟

« لا تكترث لذلك ، بوسع والدك أن يشرح لهم كل هذه الأمور ، هم يقدرون والدك كثيراً » .

صب كاليب لنفسه بعض القهوة ، أشعل سيجارة .

قال والدنا : « هم ليسوا انتقائيين ، بأية حال ، لا يمكنهم أن يكونوا انتقائيين جداً الآن » .

قال كاليب : « نعم ، يمكنهم أن يستفيدوا منا الآن ، ينبغي لهم المشاركة في المعركة ، أعتقد أنني ربما ألتحق بالجيش أيضاً ، لنسرع » .

قال والدنا : « كاليب ، لا تتكلم بهذه الطريقة ، أتسمعني ؟ » .

« أسمعك » . نهض كاليب على قدميه . « إن كنت مستعداً ، يا شقيقى الصغير ، نذهب نحن الاثنين إلى السينما » .

أجبته : « أنا على أتم الاستعداد » . ونهضت .

حل صمت .. إنسان ما كان يغني ، في ناحية ما « تسكيت ، تاسكيت » .

قال كاليب : « حسنًا ، متى تغادرين المنزل صباحاً » ؟

ردت أمنا : « في السابعة » .

قال كاليب : « حسنًا ، حسنًا ، في السابعة . ليو ، اجلب سترتك . اجلب سترتي أيضًا » . جلبت سترتينا . حين عدت إلى الحجرة ، كان كاليب واقفًا عند الباب . أخذ سترته دون أن ينظر إليها ، لبسها . « كالمزارع الذى قال للبطاطا الحلوة : سأزرعك اليوم ، وأنتزعك فيما بعد ! » .

أغلق الباب وراءنا . نزلنا درجات السلم ، اثنتين اثنتين . الآن بدونا هاربين من الأصوات والروائح . وصلنا الشارع . وضع كاليب يده على عنقي . أسرعنا الخطى عبر البلوك الطويل . لم يقل شيئًا ، ولم أقل شيئًا . إحدى كنائس هولي رولر تبعث ضجة غير اعتيادية . تمايلنا أنا وكاليب ونحن نجتازها ضاحكين .

سألني : « أي فيلم ترغب بمشاهدته » ؟

« لا أدرى » .

« أبحوزتنا مال كاف كي نذهب إلى مركز المدينة » ؟

« لا أدرى . عندى أربعة . كم بحوزتك » ؟

« الرجل العجوز أعطاني خمسة » .

« أتريد الذهاب إلى مركز المدينة » ؟

« لا أدرى . أتريد أنت الذهاب إلى هناك ؟ » .

نظر أحدنا إلى الآخر. قال كاليب : «أوه ، يا للجحيم ، لنذهب إلى مركز المدينة» .

« حسناً . لنذهب » .

« أتريد الذهاب بالحافلة أم بقطار الأنفاق » ؟

« لنأخذ الحافلة » .

وقفنا في الشارع المشجر ، انتظرنا قدوم الحافلة . كل منا خجل من الآخر . فجأة أصبح كل منا سعيداً جداً بالآخر ، أيضاً . لأننا كنا خجولين من أحدنا الآخر . راقبت السابلة. أصغت السمع إلى الموسيقى الآتية من حانة تقع خلفنا ، راقبت أعضاء الكنيسة وهم يغادرونها ذاهبين إلى بيوتهم . لم تذهب عائلتنا إلى الكنيسة قط : ذلك أن والدنا لا يطيق منظر الناس الراكعين . لكنني فكرت ، فجأة ، أول مرة وبدون سبب ، أن والدنا ذهب حتماً إلى الكنيسة في الجزر ، حين كان في مقتبل العمر . التفت إلى كاليب كي أسأله عن هذا الموضوع ، بيد أنني ذهلت وسكت حين رأيت وجهه . الشمس صفراء ، أشعتها تسقط في عينيه مما اضطره للنظر بعينين نصف مغمضتين ، سقطت أشعتها على جبينه ، دخلت في شعره المجعد ، شفتاه ممطوطتان إلى أعلى في عبوس . كان يتطلع إليّ . يبدو عليه القلق والتفكير والفرح : لم ينظر إلى أحد من قبل بمثل هذا الحب المركز . بهرني هذا الحب ، كما قلت ، ذلك أنه لم يحاول إخفاءه . جاءت الحافلة فيما كان كل منا يحدق بالآخر ، دفعني كاليب إلى داخل الحافلة ، قبله . كان بحوزته (خردة) ، وضع قطعتي النقد في الصندوق . جلسنا . جعلني أجلس بجوار النافذة .

قال كاليب : « حسناً ، غداً ، سأكون ثانية ، مواطناً محترماً » .

ضحك ثم قال : « أعتقد أننا سنمر بمركز الألبسة ، ألسنا في طريقنا إلى مركز المدينة ؟ » .

« يمكنني أن أريك البلوك الذي يعمل فيه والدي .. لم نصل إليه بعد ، فهو أمامنا في مركز المدينة » .

« لست على يقين ما إذا كنت راغباً فعلاً برؤيته » . ضحك ثانية ، سارت الحافلة عبر الطريق المشجر ، سكتنا مدة .

قال لي كاليب : « ليو ، ماذا تظن أنك ستكون في المستقبل ؟ أتفهم ما أعنيه ؟ » .

راقبت الشوارع والمنازل تنسحب إلى الوراء . راقبت الناس في الشوارع .

قلت له : « ستعتقد أنني معتوه لو أخبرتك بالحقيقة » .

« حسناً ، مع أنني أعرف جيداً أنك معتوه . رغم ذلك ينبغي لك أن تخبرني بالحقيقة » .

قلت له : « سأكون ممثلا » .

لم أحدق به ، لكنني أحسست أنه يراقبني . راقبت الشوارع .

« ممثل » ؟

« أجل » .

« في السينما » ؟

« على الخشبة » . قلت له . تطلعت إليه ، ثم حولت نظري عنه : « سترى » .

« ليو ، وكيف ستحقق أمنيتك هذه ؟ » .

« لا أعرف حتى الآن . سأكتشف ذلك . سأحقق أمنيتي » .

« هل أخبرت ماما وبابا بذلك » ؟

« لا . لم أخبر أحداً سواك » .

قال لي بعد لحظة : « حسناً ، تعرف التفرقة ، يا أخي الصغير ؟ أعني ، أتعرف أن التفرقة هي ضدك » .

« اللعنة ، نعم . أعرف أن التفرقة ضدي . لكن التفرقة ضدي لن تقل أو تضعف إذا .. إذا ما اشتغلت في مركز الألبسة » !

لم يقل كاليب كلمة . أردت سحب كلماتي الأخيرة ، لكنني لم أعرف كيف .

« هذا صحيح » قال أخيراً . ثم رحنا نراقب الشوارع صامتين .

قلت : « اسمع ، كاليب . أنا لن أكون بوابًا . أتعرف ذلك ؟ أنا أعرف . أعرف أنني لا أقبل العمل في .. في المهن التي يحددونها لنا . لعلي . أيضاً ، لا أستطيع أن أكون ممثلاً . لكن يلزمني محاولة ذلك . ما أعرفه أنني يجب أن أحاول » .

قال كاليب : « لا تنزعج . أنا لم أقل لك أنك لا تستطيع أن تصبح ممثلاً . أليس كذلك ؟ » .

« لا . لكنني أحدس أن هذا يدور بخلدك » .

قال كاليب : « حسناً . أنت مخطئ . هذا ليس ما يجول في بالي مطلقاً . كنت أفكر بمقدار فخري بك. لا تنظر إليّ بهذه الطريقة. ما قلته هو الحقيقة بعينها ».

« قسماً بالشرف » ؟

ضحك كاليب : « قسماً بالشرف » . رفع كاليب يديه «أقسم بشرفي . حسناً ؟» .

قلت له : « حسناً » .

ضحك كاليب من جديد « آه . أيو الصغير » .

صحا كاليب : « لكن ماما وبابا لا يحبذان هذه المهنة . أبداً » .

« سأخبرهما . أتظن أنني معتوه ؟ » .

الآن . أصبح كاليب رزيناً وهادئاً تماماً . قال : « لا . لا . لست معتوهاً . اعتاد والدنا القول : (أنا أعجب لأمر قومنا) . وأنا أيضاً أعجب لأمرهم . لكن .. يا غلام .. هم يرغموننا على العيش في سجن كبير » .

« هم لا يريدوننا أن نفعل شيئاً . فلربما نتفوق عليهم » . قلت .

قال كاليب : « حسناً . هم فعلوا ذلك . هم يحاولون أن يشبعوك ضرباً قبل أن تستعد لإتيان عمل ما . لكننا سنخدعهم يا أخي الصغير » . وضع يده على عنقي . يحلق من الشباك بشفتين مزمومتين وعينين داكنتين . « أجل . سنخدعهم » .

اجتازت الحافلة الشوارع . استدارت غرباً صوب الشارع (١١٦) ، مرت بمحاذاة مورننج سايد بارك برهة . انعطفت ثانية صوب الشارع (١١٠) وبدأت تغادر هارلم . كان هذا الحي (وقتذاك) ذا خصائص متميزة . انتقالية . صبيان بيض وصبيان سود في الطرقات، بنات بيضاوات وبنات سوداوات، بعضهم يحمل الكتب، مررنا فجأة بأناس سود وبيض يجلسون على دكات خارج السنترال بارك . أو يتمشون جيئة وذهاباً في الخضرة المثيرة للشفقة . الآن . أضحت الأبنية أعلى وأنظف . ظهرت الظلل والبوابون . كما ظهر رسل سود وبيض يمتطون الدراجات الهوائية . ازداد عدد البيض الصاعدين إلى الحافلة . بالفراء، والعطور والقبعات . يحملون الصحف وعلباً تبدو نفيسة . غريزياً التصقنا أنا وكاليب ببعضنا . بقيت أتأمل الطرقات . كي أتحاشى النظر إلى الراكبين في الحافلة . ساءلت نفسي كيف يتيسر لنا أن نخدعهم ونحن مازلنا لا نطيق النظر إليهم . رفعت بصري . ونظرت مباشرة في عيني رجل أحمر الوجه . أسود الشعر . بدين . كان ينظر نظرة قصيرة . عديمة الجدوى . من فوق صحيفته . شعره مسرح جيداً . وجهه جيد الحلاقة . أظافره مقلمة . حذاؤه لماع . بزته ومعطفه غاليا الثمن . يرتدي زرين لكمي قميصه . كان بوسعي . تقريباً . أن أشم رائحة الكولونيا التي وضعها على وجهه . لا أدري ماذا كان في عينيّ – حسد على ما أظن . حسد شديد ودهشة عظيمة – مهما حملت جولته . فهو لم يكن عدائياً بالمرة . كما لم يكن ليثير الانتباه بالمرة حتى ولو ثانية أو نحو ذلك . حدق بأنفي . ثم عاد يقرأ في صحيفته . ثم . بدت كل أمالي تافهة ومثيرة للسخرية . كيف يتسنى لنا أن نخدعهم إذا لم نستطع أن نتحمل النظر إليهم ولا حتى أن ينظروا هم إلينا؟ لكن من يكونوا هم؟ هذا هو السؤال الرهيب حقًا الذي يرتد إلى صاحبه كالبوميرانج[١] . يحس المرء يوماً : لعلهم على صواب . ربما أنت مجرد زنجي حقير . الحياة التي تعيشها . أو الحياة التي جعلوك تعيشها هي الحياة الوحيدة التي تستحقها . قالوا إن الله هو الذي قال ذلك – إذا قال الباري ذلك فعلاً فأنت تعني بالنسبة لجلالته الشيء الكثير كما تعني أنت بالنسبة لهذا الرجل الأبيض . البدين . أحمر الوجه . أسود الشعر . اللعنة .

(١) قطعة خشب ملوية أو معقوفة يتخذ منها سكان أستراليا الأصليون قذيفة يرشقون بها هدفًا ما . ومن أصناف البوميرانج ضرب يرتد إلى الرامي . (المترجم)

اللعنة عليك أيها السيد . جلس ، هناك ، ما زال على وضعه ، غير منفتح ، منغلق ، موحى بالأمان ، ينبعث حفيف من صحيفته وكأنه يقرأ الكتاب المقدس ، حيث ظهرت فيه بصفتي الدرس الوحيد المدرك بالحواس .

ترجلنا من الحافلة على مقربة من حديقة ميدان ماديسون . ربما كان السيرك في المدينة ، فالحديقة كانت محاصرة من قبل الشرطة ، والشوارع مزدحمة بالرجال والنساء والأطفال المبهورين جميعاً . كانت الشوارع مليئة بضوضاء أشبه بالمرح . فوراً يدرك المرء أن هذا ليس مرحاً عندما يتطلع إلى الشفاه الرفيعة والعوينات المتوهجة ، شعر السيدات المتموج ، الساخن ، المجعد : حين يرهف المرء السمع إلى أصوات الرجال الوحشية ، المشوقة للسمعة ، الداعرة ، ويراقب شفاههم الممطوطة وعيونهم الحائرة ، حين يرهف المرء السمع إلى نواح الأطفال اليائس ، الغريب ، الاستبدادي ، الأطفال غير الراضين بصورة غامضة وصريحة عن السيرك ؛ حين يراقب المرء رجال الشرطة المتحركين عبر الزحام ، راجلين أو على صهوات الجياد ، كما لو أن الناس حولهم مجرد قطيع ماشية . لم تكن ثمة دور سينما في هذا الشارع المشجر ، لذا انحرفنا عنه ، سرنا شرقاً ، تارة نمشي مع السيل البشري وطوراً ضده ، يشققنا غالباً عن بعضنا ، نتوقف عادة ، يدور كل منا حول نفسه باحثاً عن الآخر ، تطلع الناس في نوافذ المخزن ، فعلنا مثلهم ، دخلنا المخازن وخرجنا منها ، لم نبال بشيء ، كانوا مرئيين وراء نوافذ الكافيتيريات البلورية ، وحسبما أذكر كانوا جالسين أو مستقيمين كالأسهم ، أو كانوا يتجولون مع الصواني ، لا ريب ، يمكن للحشد أن يصف نفسه بكونه ودياً ، إن الملاحظة المعتدلة تكشف للمرء أنهم كانوا في مزاج يوم عطلة ، لكن عطلهم لم تكن ، بالتأكيد هي عطلي ، كنت ، دوماً ، سبب احتفالاتهم المخيفة ؛ ولم أشعر بأية مودة على الإطلاق خلال الزحام ، بل أحسست بهستيريا قوية وخطر قاتل . أبقيت يدي في جيوبي (وهكذا فعل كاليب) كيلا يتهمني أحد بالتحرش بأي من النساء اللاتي اصطدمن بي ، وأبقيت عيني حذرتين ، عديمتي التعبير ، كيلا يتهمني أحد بالتوق الشديد إلى النساء، أو بتمني مصرع الرجال . حين يكون أبناء جيلنا في عطلة ، تتخذ حيويتهم أشكالاً غريبة . انتبهت - أول مرة ، لكن ليس آخر مرة - إلى أنني برفقة كاليب ، الذي كان خطره أعظم من خطري لأنه مرئي أكثر مني . لا يستطيع كاليب في هذا المكان وفي هذا الزمان وبين هؤلاء الناس أن يحميني لأنه ضخم البدن ،

بل على العكس ، كانت أدوارنا معكوسة ، في هذا المكان ، الآن ، بين هؤلاء القوم ، إن حجم بدني وبراءتي المزعومة يمكنهما أغلب الظن أن يوفرا الحماية له . لم يكن كاليب ، وهو السائر بجانبي ، رجلاً أسود ضخم الجسم ، يجوس الشوارع خلسة ، بل هو أخ كبير ، فقط ، يأخذ أخاه الصغير إلى المواقع التي تستحق المشاهدة عبر نيويورك الواسعة ، المدينة ذات الثقافة العالية ، التي يحسدها الكثيرون . أغلب الظن وجودي ، على الأقل ، يرهن على براءته ووداده ، وكان شاهداً على إحسان وبهاء ، الناس الذين أدين لهم بالكثير والذين ينبغي لي أن أتعلم منهم الكثير . وصلنا إلى برودوي ، وإلى الظلل الضخمة فوق مداخل المسارح ، « هل سيكون اسمك هناك ، في الأضواء العالية ، يا ليو الصغير » ؟ سألني كاليب باسماً .

أجبته : « نعم ، سيكون هناك ، انتظر وسترى » .

قال كاليب : « ليو الصغير ، في الطريق الأبيض الواسع »[1] .

قلت : « لن يكون ناصع البياض ، حين أدخله » .

رد كاليب رأسه إلى الوراء ، وقهقه ، التفت الناس لينظروا إلينا : فتحتُ عيني على وسعهما حين رفعت بصري إلى كاليب ، وتحاشيت بحذر النظر إليهم ، وشاهدوا ما أردت أن يشاهدوه ، ابتسم بعضهم ، أيضاً ، كانوا سعداء لأننا نستمتع بالمشاهدة ، « حسناً ، أخي الصغير ، أي فيلم ترغب بمشاهدته ؟ سأمنحني احتراماً لقرارك ، يا رجل ، أعتقد أنك غدوت خبيراً » .

حسناً ، الواقع أنني أدركت ، فيما أنا أمسح الظلل المتعاقبة فوق مداخل المسارح ودور السينما بنظراتي أن ليس ثمة أدواراً سينمائية تجعلني أتحرق شوقاً لمشاهدتها ، أصبحت لي ذائقة لمشاهدة نوع معين من الأفلام دون أن أكتسب أية رغبة حقيقية لمشاهدة نوع آخر منها ، غير أني ، بالطبع ، لم أعرف كيف أقول ذلك ، غدوت مولعاً بالأفلام الأجنبية ، بخاصة الروسية والفرنسية ، لكنني لا أحسب أن كاليب يرغب بمشاهدة فيلم أجنبي ، لذا قلت له : « حسناً ، انظر ، إذا رأيتَ فيلماً يعجبك قبل أن أرى أنا فيلماً يعجبني ، إذاً ، سنذهب ونرى ذلك الفيلم ، وإذا رأيتُ فيلماً يعجبني

(١) استخدم المؤلف هنا تعبيراً يشير إلى معنى برودوي : الطريق الواسع . (المترجم)

قبل أن ترى أنت فيلماً يعجبني . إذاً ، سنذهب لرؤية ذلك الفيلم . أليس ذلك بالأمر الحسن ؟ » .

« نعم » قال كاليب ، بدت فكرتي مسلية له ، وأثر به إحساسي بالتمثيل الجيد .

وهكذا تجولنا خلال حشود العطلة ، وقفنا تحت هذه الظلة ، أو تلك ، متفحصين البضاعة باهتمام بالغ بحيث يتوقع من يرانا أننا نبغي شراءها وأخذها إلى البيت لنعيش معها ، حتى آخر عمرنا ، ويتوارثها أطفالنا من بعدنا . تمشينا حذرين في جانب واحد من الطريق المشجر، توقفنا واحترنا، ممتعين أنفسنا الآن ، طوال الطريق المؤدي إلى الشارع الثاني والأربعين ، ثم تمشينا بتؤدة على الجانب الثاني من الطريق المشجر ، مع أن الوقت كان متأخراً : لكن لا يهم متى نئوب إلى البيت طالما أننا نئوب معاً ، وطالما أننا لم نخطط للافتراق عن أحدنا الآخر . نسينا الناس الآخرين ، رحنا نتحدث إلى بعضنا ، كأننا لم نتحدث منذ عودة كاليب إلى البيت – وكأننا لم نتحدث من قبل أبداً . الواقع ، الآن فقط يستطيع كاليب التحدث إلى من دون أن يفطن إلى أنه يتحدث إلى طفل . صممت على أن أجعله يفهم أنني لم أعد طفلاً . لم أفهم كل ما قاله ، ومع ذلك ، فهمت حديثه بشكل من الأشكال . شددت على أن لا أكون مخيباً لآماله : أردت منه أن يعرف أنه يستطيع الاعتماد عليّ .

بسبب حب كاليب للممثلة آن شريدان . انتهى بنا المطاف في فيلم « طريق الملك » . لم أكن لأحب آن شريدان ، لأنها تبدو قصيرة وسمينة ، ولم أكن لأحب روبرت كمنجز ، الذي يشبه شخصين بدينين قصيرين أو ثلاثة ، لم أكن لأطيق رونالد ريجان الشبيه بالمزاة ، له أسنان أشبه بأسنان ابن مقرض ، لم أكن مغرماً أيضاً بچارليس كوبورن، وكلاودي رينز، وجوديث أندرسن ، كنت مغرماً بنحو خاص ببيتي فيلد لأن لها فماً زنجياً ، فم شبيه بفمي . دفع كاليب ثمن البطاقتين ، ودخلنا . دخلنا أولاً ، إلى ما يشبه الكاتدرائية – ذلك أنها ذكرتنا بالنسيج المزدان بالرسوم والصور الذي تنجد به الكراسي ، ذكرتنا بالذهب المتدلي ، بالمرتفع المعقود ، بالأرض الصاعدة ، النازلة ، المكسوة بالسجاجيد الضخمة ، أمام أنظارنا أبواب هائلة ، أرائك رومانتية على الجانبين ، تجلس ، وحيدة ، على إحداها شابة تعتمر قبعة قماشية ، خضراء ، تحمل مظلة خفيفة ، تدخن سيجارة . خادم مزعج ودليلتان مزعجتان نظروا إلينا . أنا وكاليب ، نظرات حادة .

قال كاليب : «أنا ذاهب إلى الحمام» . اختفى خلف الباب الذي كتب عليه «رجال» .

انتظرته . نظرتُ إلى الصور الفوتوغرافية لنجوم الفيلم الملصقة على الجدران . كانوا بيضاً ، مرحين ، مشيرين . كنت متغطرساً بصورة كافية كي أشعر أنهم لا يستطيعون ، بصورة رئيسية ، أن يمثلوا بدون منخل . ذلك أن الأضواء ، المساحيق ، البراءة الوحشية كما لو أنها مخيبة للآمال، كان لها تأثيراً عجيباً على عباد اللّه الواحد الأحد ، وكادت تجعلني أتقبل أسنان رونالد ريجان . عاد كاليب . غادرنا الكاتدرائية ، ودخلنا الكهف .

كان المكان معتماً ، معتماً حقا ، منحدراً ، هادئاً . كنا في الشرفة ، هنا يستطيع كاليب أن يدخن ، ومن عباد اللّه الآخرين ، هنا وهناك ، يتصاعد نور ضعيف . كان الفيلم قد بدأ قبل مدة من الزمن . لعلنا في الواقع رأيناه من جديد . لا أذكر بالضبط ، وهكذا ، مع أن ذلك كان في ليلة سبت ، إلا أن دار السينما لم تكن مزدحمة بالناس . جلسنا - أنا وكاليب - في مكان ما وسط الشرفة ، في زاوية شديدة الانحدار كحصان يطرح فارسه أو كمركب ذي محرك عاطل . أشعل كاليب سيجارة . تبين لنا أننا دخلنا أثناء عرض الجريدة السينمائية .

كانت ثمة مصيبة تهدد العالم . شاهدنا روزفلت ، وتشرشل ، وستالين .

قال كاليب : « أتمنى أن يقتل أحدهم الآخر » . رأينا بحريتنا العظيمة في المحيط الهادي ، تقضي على اليابانيين الجبناء . رأينا أولد جلوري . قال كاليب : « حسناً ، ستحل اللعنة » . بعض المشاهدين صفقوا باستحسان . أشعل كاليب سيجارة ثانية . ثم عرض علينا فيلم كارتون . نقار الخشب ، وودي أو ميكي ماوس أو لتل ريد رايدنج هود أو بجز بوني أو إنسان ما مضروب بالمطارق ، مختنق بالسلاسل ، مسحوق تحت جرار ، مرمي فوق جرف ، مقطع بواسطة إفريز ، منزوع الأحشاء - على ما يبدو - بواسطة شوكة هائلة ، حاقدة ، ونحن مع جميع العباد الآخرين ، هدنا الضحك حد الانهيار . ثم أشعلت الأنوار . بقينا جالسين ، نرقب الناس ، بصمت .

أناس غرباء ، يجلس أكثرهم وحيدين . هناك زوج أو زوجان ، يافعان جداً ، شعر الغلام لما يزال براقاً بسبب الماء ، شعر الفتاة ما يزال لماعاً بسبب الحرارة ، يجلسان قريبين جدا من بعضهما ، وقريبين جدا من الفشار (الشامية) واللبان ، والحلويات ،

الواقع كان الأولاد متشبهين . يتسلقون الدرجات المائلة بين الفينة والفينة ليتابعوا المرشدتين . كنت وقتذاك بين الرابعة عشرة والخامسة عشرة . لم يكن الولدان والفتاتان يكبرانني كثيراً لكنهم تركوا في انطباعاً مؤثراً لكوننا أطفالاً . أطفالاً أبديين . أطفالاً ليس كحقيقة بايولوجية . بل كحالة سرمدية . أنا متيقن من كوني ولداً سيئ الطباع آنذاك . كنت أحتقرهم بسبب سحناتهم عديمة التعابير . كثيرة البثور . وبسبب عيونهم البراقة . الجاحظة . لم يحدث لي أبداً - جزئياً . لا ريب . في الواقع . لأن ذلك لم يحدث لهم - أن فكرت بأنه يلزمهم التغوط . كما تغوطت أنا . وارتجوا غالباً . كما فعلت أنا . كانوا مذعورين مثلي . لم يحدث أبداً أن كان قناع تبجحي شبيهاً تماماً بأقنعتهم . يخفي بصورة مؤثرة جدا قناع لوني . ويخفي الانعكاسات اللاإرادية التي أحدثها هذا القناع فيهم وفيّ . لا : إنني ببساطة احتقرتهم لأنهم لم يكونوا مثلي . ولأنني ظننت أنه خير لي أن أكون مثلهم . أطفئت الأنوار . سمعت موسيقى مهيبة . أزيحت الستائر ببطء . غطى الشاشة حجاب كثيف يقول الإخوة وارنر يقدمون . الإخوة . فكرت بأخي . أحسب أنني كرهت الفيلم قبل أن يبدأ عرضه .

أسماء الممثلين . الموسيقى . رجل المكياج . مسئول الإنارة . مسئول التسجيل الصوتي . أصحاب الديكور . المصممون . المصور جيمس وونك هو . مؤلف الموسيقى الغامرة . المخرج . تجري أحداث الفيلم في إحدى مدن الولايات المتحدة .

أخشى أن ذكرى الفيلم قد شوهتها بصورة يائسة الحقيقة التي سحقت كاليب تماماً . أشك بأن تحفة كبيرة لشارلي شابلن أو و . س . فيلدز تجعله يضحك ضحكة أقوى . حين التقطنا أخيراً خيط القصة - إذا صح التعبير : بأية حال كانت تلك مسألة سهلة - همس كاليب قائلاً : « خراء . هم يمثلون كالزنوج بالضبط . يعوزهم فقط الإحساس العميق الذي نمتلكه » . كنتُ أحب كاساندرا نوعاً والتي مثلت دورها بيتي فيلد . ظنّ كاليب أنها شخصية استثنائية حقاً . وسأل نفسه لِمَ لم يخبرها أحد أن تربط شعرها . حين تطور مسار القصة . بحياء كافٍ في الواقع . ومع نواحٍ هائل من الموسيقى الجبارة . حيث كان والدها يتصادم معها . يضطجع بين فخذيها . باختصار . كان يلويها . أدى سلوكه هذا إلى حالة أصبحت فيها ابنته غير متوازنة عقلياً - أحسستُ بهذا . فيما بعد . باعتباره نتيجة مثيرة للفضول نوعاً - راقبنا ردود

الأفعال الحلوة لروبرت كمنجز ، أخفى كاليب وجهه بين راحتيه ، وهذا أمر ناتج عن عمق تفكيره ، بخلاف ذلك كان يمكنهم أن يرمونا خارج المسرح ، بالطبع ، كان بعيد أن شريدان ، وهي فتاة أيرلندية ساحرة ، اكتشفت أنني يمكن أن أطيقها أكثر مما ظننت سابقًا ، لكن حين فقد رونالد ريجان ساقيه - « ساقيه كلتيهما ! » - انهار كاليب من الضحك ثانية ، جرت الدموع على وجهه في الوقت الذي قال فيه روبرت كمنجز **Invictus** « لهذا السبب إذًا » ، قال كاليب لاهثًا ، حين سرنا في المشي ، خارج الكهف ، « جعلونا ندخل من الباب الخلفي ، ستحل على اللعنة » ، توقف من جديد ، في منتصف أرض الكاتدرائية ، قبل أن أستطيع اللحاق به .

عدنا إلى الشارع ثانية ، الشارع أمسى معتمًا الآن ، السماء تنث مطرًا خفيفًا ، والناس الذين لا يصدقهم العقل في كل مكان .

في وقت متأخر من تلك الليلة ، رأى كاليب في منامه حلمًا مروعًا جدا جعله يرتعد ويصرخ ويئن بصوتٍ عالٍ ، هززته مرارًا كي أوقظه من النوم ، تصارع معي واستمر في مصارعتي حتى بعد أن فتح عينيه ، بدا مستيقظًا ؛ هيمن عليّ الذعر لأن أخي قوي جدا ، وأخذت أبكي ببؤس ، بعدها ، فارق الخوف وجهه ، كان وجهه شاحبًا ، مرعبًا بصورة وحشية ، عيناه صافيتان تلوح فيهما دهشة عظيمة ، وكآبة شديدة ، « أوه ، لا تبك، لا تبك يا ليو ، يا رجل ما كنت أقصد إيذاءك ، أقسم بالله لم أقصد إيذاءك » ، حاول أن يكفكف دموعي براحتيه ، « اضربني ، اضربني ، أقسم بالله أنني لم أقصد إيذاءك » .

« أنت لم تؤذني ، بل أخفتني » .

أبعد ذراعه عني ، صمت لحظة ، ثم قال لي : « حدست ذلك ، أحيانًا أرتعب من نفسي » ، اضطجع على الوسادة ، نظر إلى السقف ، « أنا أسائل نفسي ما الذي يخبئه لي القدر » .

« لن أدع مكروهًا يصيبك » .

ابتسم : « الحقل الذي عملت فيه ، هناك ، في الأسفل ، اعتادوا أن يضربوني ، بالسياط ، بأعقاب البنادق . هم يشعرون بالارتياح حين يضربوننا ، يمكنني أن أتخيل وجوههم الآن . هناك ، يوميًا ، اثنان أو ثلاثة منهم ، أبناء الزانية . كان زعيم الفتنة رجلاً ذا شعر أحمر ، اسمه مارتن هويل ، ضخم البدن ، غبي ، أيرلندي الأصل ، اعتاد أحياناً أن يجعل الشبان الملونين يضرب أحدهم الآخر . أما هو فيقف متفرجاً ، شفتاه متهدلتان ، نديتان، ضاحكاً، إلى أن يهوى الشاب المسكين أرضاً . يقول عندئذ كل هذا من أجل أن لا تنسوا جميعًا أنكم مجرد زنوج حقـراء، والزنوج لا يساوون برازًا . ويرغم هو الشبان الملونين على ترديد قوله هذا . يقول لهم : أنتم لا تساوون براز ، أليس كذلك ؟ فيردون عليه ، لا ، يا سيد هويل ، هذا ليس صحيحاً . أول مرة سمعته يقول ذلك ، رأيته يفعل ذلك ، تقيأت . لكنه أرغمني على ترديد مقولته . امتنعت مدة قصيرة ، لكنني رددت قوله ، أرغمني على ترديدها أيضًا . ألمتني هذه الكلمات ، ألمتني أكثر من سوطه ، أكثر من عقب بندقيته ، أكثر من قبضتيه القويتين . أوه ، ألمتني تلك الكلمات » .

الصمت ، الظلام ، وأنفاس كاليب – كلها ما تزال تلازمني ، ستلازمني حيث يحملونني إلى القبر . أقسم بالله ، من قبري ، إن لحمي المتفسخ ، عظامي عديمة النفع ، ستظل تصرخ كلها : لن أعفـو عن هـذا العالم . أوه ، إن يـوم الحساب آت لا ريب فيه ، أوه ، آت لا ريب فيه ، وسأقوم من قبري وأجعل الآخرين يسمعون شهادتي ؛ أجل كل من وجه طعنة إلى أخي الكبير سيسمع شهادتي .

« أول مرة رأيت فيها الرجل ذا الشعر الأحمر ، كنت أعمل في الحقل . كان يمتطي صهوة جواده ، أتي راكبًا جواده ، توقف ، وراح يراقبني . لكنني واصلت العمل ، بعدها صرخ هو ، هي ، سام الكنني واصلت عملي كأن شيئًا لم يكن . صرخ ثانية ، ألا تسمعني وأنا أناديك ؟ عندها ، فقط ، توقفت عن العمل ، وضعت مذراتي جانباً وقلت له : ' اسمي ليس سام ' .

' اقترب مني أكثر ' ، وهو ما يزال على صهوة جواده ، خفض بصره إلى ، شخصت ببصري إليه . قال لي : ماذا تحسب نفسك ؟ أجبته : سيد ، اسمي كاليب

برودهامر ، سأقدر نفسي حق قدرها لو سمحت لي بمواصلة عملي . قهقه الرجل ، ضحك ضحكة حقيقية . وكان جوابي هو أفضل نكتة سمعها من زمن طويل . حدثني بكلمات بذيئة . لم أفهم حديثه ، في الأول ، نظرت إليه فحسب . بعدئذ ، حين فهمت ما عناه ، لا أعرف السبب الذي جعلني ألتقط مذراتي . لم أفعل شيئًا . التقطت المذراة فقط . يبدو أن الحصان وثب . بدا الرجل ذو الشعر الأحمر ، ابن الزانية ، مندهشًا ، بدا خائفًا ، لاقى صعوبة في البقاء على صهوة جواده . عرفت أنه لم يريدني أن أرى ذلك . عرف هو أنني عرفت . مضى على حصانه عبر الحقل ، لأنه لم يعرف ما الذي يفعله لي ، ولم يعرف ماذا يفعل لحصانه ، صرخ ، حسنًا ، سام ساراك فيما بعد ، أسمعتني ؟ سأراك فيما بعد !

وكما تعرف ، كان ذلك شيئًا مضحكًا . أدركت جيداً وقتها وفي ذلك المكان ، فيما أنا أراقبه وهو يبتعد عني راكبًا جواده ، أنني لست مثلما نعتني هذا الرجل . أعني ، لست برازًا . أنا غلام كبير وأعرف قدر نفسي . كما تعرف ، كرجلٍ ، فعلتُ كل شيء من أجلك لأنك أخي ، أخي الصغير ، أنا أحبك ، وفي اعتقادي أنك ستفعل كل شيء من أجلي . أعرف أنك ستفعل ذلك . كما تعرف لم يكن البراز هو الذي أزعجني . لا . جعلني الرجل أحس كما لو كنت جدتي في حقلٍ من الحقول في مكان ما وابن الزانية الأبيض هذا يمتطي حصانه ويقرر أن يطرحها أرضًا في الحقل . حسنًا ، اللعنة . أنت تعرف . لستُ مثل جدتي . أنا رجل . والرجل قادر على أن يفعل أي شيء يبتغيه . لكن ما من إنسان يرغمه على فعل شيء معين. لست من النوع الذي يغتصب . اللعنة . كنت أعرف أن ابن الزانية هذا ينوي ذلك . كنت أعرف جيداً ، مثلما قال هو ، أنني سوف أقابله .

يا صغيري ، صدقني ، رأيته، أوه ، نعم ، رأيته . لم يمض أسبوع حتى قابلته ، كان ينوي أن يقصم ظهري . عرفتُ ذلك . كان ينوي إذلالي وتركيعي . كان ينوي أن يجعلني أفعل ما يطلبه مني . لم أكن لأرغب بتنفيذ أوامره هو عرف ذلك . وهذا ما حصل بالضبط » .

صوت كاليب ، أنفاسه : الظلام والصمت .

. ثمة مكان مخصص للأفراد غير المرغوب فيهم . كان أشبه بالقبو . كنا ، أصلاً نحيا في سجن ، أنت تفهمني ، لكن ثمة سجن داخل السجن . لكن ، على الأقل ، أنت تعرف ، إذا لم يكونوا مستائين منك ، إذا قبلت عدداً كافياً من الأقدام ، أو إذا خططوا أن لا ينتبهوا إليك ، حسناً ، ستكون حرا طليقاً ، وبوسعك عندئذ أن تتحدث إلى زملائك - كنا في ذلك القبو ، من أجل مصلحتنا ، كما كانوا يقولون . كانوا يجعلون منا مواطنين صالحين في المجتمع . ذلك السرداب ، يا صغيري ، لن أنساه أبداً . ذلك السرداب كان يفوح برائحة لم تشم مثلها أبداً . أف ! يا صغيري ! ظننت أن تلك الرائحة النتنة لن تفارقني أبداً . أبداً . أنا ، أحلم بها . الآن . هذا هو ما أحلم به الآن . أنا ومارتن هويل والسوط الذي بيده . أوه ، ليو ، يا سلام . لم أتصور أبداً أن الناس يمكن أن يعاملوا بعضهم الآخر بمثل هذه الطريقة . لا أريدك أن تعتقد أنه الوحيد الذي يفعل هذا . ليس وحده من يفعل هذا . كلهم يفعلون هذا ، بطبيعة الحال ، الشبان السود ، أيضاً ، الذين يلقبون بالموثوق بهم[١] . اللعنة ، صغيري ، هم يحبون جلد المؤخرات بالسياط ، وكلما كانت المؤخرات أكثر سواداً يجلدونها بشدة أكثر . كان مارتن العجوز رئيس الزمرة . الجميع يهابونه . لا أعرف السبب . كان يحاول إخافتي و .. أنت تعرف . لم أكن لأعرف ما الذي سأفعله . لم أظن أبداً أنني خائف منه . كنت أظنني قادراً على ضربه ، وستتحول مواجهتنا إلى قتال حقيقي . لكنني كنت خائفاً . الشبان الآخرون يعرفون أنه يضمر لي الأذى ، كانوا خائفين منه ، أيضاً ، وتحاشوه . كل ما قلته لابن الزانية ، ذي الرأس الناري ، هو أن اسمي ليس سام !

كان أخوك وحيداً ، منعزلاً ، لأنني أدركت جيداً أن ما من أحد سيهب لنجدتي ، حتى إذا أرادوا ذلك . وفكرت بك ، أنت تعرف هذا ، يا أخي الصغير ، ذو العينين الواسعتين ؟ كنت فرحاً لأنك لم تكن هناك .

أولاً ، قرر أن يطردني من مهنتي . كنت أعمل في الحقول ، أجمع القش ، أعتني بالحشائش وما إلى ذلك . كنت أحب هذه المهنة ، بحكم وضعي كسجين ، وما من خيار آخر أمامي ، وليس بوسعهم أن يطردوني ، ومع أنني أعرف أن لا مهنة لي هناك ،

(١) الموثوق به : سجين موثوق تمنحه إدارة السجن امتيازات خاصة . (المترجم)

أعني أنني كنت عارفًا بأنه من المفروض ألا أكون هناك ، لم أفعل شيئًا كي يرسلوني إلى هناك ، ولم أتحمل التفكير في ذلك الموضوع طويلاً ، لذا فكرت ، حسنًا ، سوف أقوي عضلاتي ، لكنه لم يجعلني أنفذ مآربي ، وضعوني في المطبخ ، لم أحب المطبخ ، اتفق هو مع رئيسة الطباخين ، وهي سيدة ألمانية عجوز ، ضخمة ، بيضاء البشرة ، تدعى السيدة والدو ، أظنها أرملة ، لكن ، في أي حال جعلوني بينهم ، يمكنهم أن يفعلوا أي شيء بينما يقف الإنسان مكتوف اليدين ، صغيري ، تلك المرأة أرغمتني على العمل وكأنني بغل أحدهم ، أو بغلها ، البغل الذي عرفته والذي لا يمكن أن تبيعه مطلقًا كما أنها تجعله يعمل باستمرار حتى يصل درجة الانهيار ، ينبغي لي أن أكون هناك في السادسة صباحًا وعلى القيام بتنظيف المطبخ برمته وغسل قطع القماش التي تنظف بها الصحون ، ونشرها على الحبل الرفيع ، بعدها ينبغي لي تقطيع الأخشاب كي تكون حطبًا للنار ، ثم غسل الصحون والقدور والمقالي ، كانوا يرمونها عليّ ، كما تعرف ، اللعنة ، كان حقلاً واسعًا ، ولم يكن معي سوى مساعد واحد ولم يكن يساعدني لأن السيدة والدو لم تكن تريده أن يفعل ذلك وتصرفه إلى خارج المطبخ لشأن من الشئون الأخرى ، كانت لها طريقة مضحكة ، اعتادت أن تسألني عن أمي ، كانت تقول يومًا ، أقسم باللّه أن أمك تحزن حزنًا شديداً كلما فكرت بك ، كانت تقول : أين والدك ؟ أهو في البيت ؟ هل يتأخر في عودته إلى البيت ؟ هل رأيت والدك مرة ؟ يا ليو لم أكن أعرف كيف أرد على أسئلتها ، حاولت ألا أقول شيئًا ، لكنها تجن وتضربني بأي شيء بيدها ، الحق الحق أقول لك : كنت خائفًا من الموت على يد تلك المرأة ، كنت أخافها أكثر مما أخاف ابن الزانية ذاك ، ذلك أنني كنت معها طوال اليوم ، تدخل المطبخ ، اللّه ، اللّه ، تجلس هناك كالملك وتطعمه وينشغل بي وبأمي ، وأبي وبعضو ذكورتي الضخم الذي يطلب مني أن أريه إياه، كي يكون بمستطاعه أن يقطعه . طيب ، كما تعرف ، يا ليو ، أن لحم الإنسان ودمه لا يستطيعان أن يتحملا كثيراً . وذات يوم ، لن أنسى ذلك اليوم أبداً ، بعد وجبة الطعام ، لم أكن قد تناولت طعامي بعد ، كنا ثلاثتنا في المطبخ ، تتناهى إليّ أصوات الأولاد وهم يغادرون قاعة الطعام ، كان يومًا شبيهًا بيومنا هذا ، الطقس بارد ، كانت السماء، كما لو أنها تمطر ، قال هو شيئًا ما عن أمي وأبي ، اقترب مني وأمسكني من مؤخرتي .. كنت واقفًا عند حوض غسل الأواني ، وحين قال ما قاله وأمسكني ، رفعت قدراً أسود ، كبيراً ، ثقيلاً كنت

أغسله . سكبت الماء عليه . وضربته على رأسه بذلك القدر . بكل ما أوتيت من قوة . بكل ما أوتيت من قوة . أوه . تصارعنا في ذلك المطبخ . يا صغيرى . أعنى كانت لنا رقصة فالس . لم تر في حياتك مثل رقصة الفالس تلك . حاولت أن أرديه قتيلاً . كنت أعرف بأننى أحاول قتله . هو . أيضاً . عرف ذلك . كانت السيدة والدو تصرخ . دنت منى وبيدها سكين . ضربت السكين بعنف فطار من يدها . ضربت السيدة بعنف . ثم اجتمعوا ضدى . أمسك بي أحدهم فيما كان هو يشبعنى ضرباً . ثم ألقوا بى فى ذلك القبو .

فى ذلك القبو لم يكن ثمة شباك . هناك فقط . باب ذو قضبان . حين تجلس قريباً من القضبان يسقط عليك ضوء . ضوء قليل . خلال ساعات النهار . ليلاً . لن يكون هناك ضوء على الإطلاق . إنما يمكنك أن تسمع الأصوات برهة . لا يستطيع أحد أن يدنو منك . يدسون إليك الطعام من بين القضبان . الطعام يقتصر على الخبز والماء . أنا أعنى ما أقول يا رجل . الخبز القديم الذى فقد مذاقه . والماء البارد . عليك أن تتبرز وتبول في دلو . عليك أن تفرغ الدلو بنفسك . وهذا هو الشيء الوحيد الذى بسببه يسمحون لك بمغادرة القبو . بصحبة رجلين . غالبًا . يخيل إليك كما لو أنهما سيسكبان الدلو عليك . كانا يتسليان على ذلك النحو . تارة يكون هذان الرجلان . ابنا الزنا . أبيضين . وطوراً آخر أسودين . اللعنة . حين ألقوا بي . أول مرة . هناك . كانت حالتى يرثى لها . والفئران هي التى أنقذتنى . أنا أعنى ما أقول . نعم الفئران . كنت مضطجعاً على ظهرى . أحسب أننى كنت غير واع بعض الشيء . لا أدرى بالضبط . كنت أفكر في بيتى وفي الجميع . كنت أتنفس بصعوبة . ثم سمعت هذا الصوت . صوت الجرى السريع هذا . سألت نفسى ما كنه هذا الصوت ولم أعرف كيف أفسره . لكننى . فجأة . أحسست كما لو أننى مراقب . كما لو أن عيوناً تترصدنى . نظرت إلى القضبان . لم يكن أحد هناك . الدم متخثر فوق فمى . مسحت فمى . سمعت الصوت من جديد . كان قريباً منى . لم يكن عند القضبان . ثم رأيت عيونها . أشعر بالألم ولا أعرف ما إذا كان بوسعى أن أتحرك . إن لم أتحرك – أوه . يا رجل – إن لم أتحرك . كانت هناك أعداد كبيرة من الفئران . عرفتُ إن لم أتحرك .. وصرختُ وهرعت إلى القضبان وسمعت الفئران تنطلق مسرعة لأنها عرفت عندئذ أننى حى . التصقت بالقضبان طوال الليل . كنت أخاف من الاستلقاء ثانية . كنت أحس أننى أكاد

أتهاوى . بيد أنني بقيت أتشبث بالقضبان ، جرجرت نفسي ثانية . الفئران ما تزال هناك ، تنطلق مسرعة هنا وهناك . لم يقترب مني أحد . لا أحد . طوال الليل .

لا أدري كم استغرق بقائي في ذلك القبو . ليو . أقسم بالله لا أدري بالضبط . ولن أعرف أبداً . لكن ، صباح أحد الأيام ، جاء هو إلى هذا المكان . مارتن هويل العجوز . ابن الزنا ذو الشعر الأحمر . حاملاً سوطه . كأنني كنت أتوقع قدومه . قال لي : ألا تود أن ترى أصدقاءك في الأعلى ؟ أجبته : ليس لي أصدقاء في الأعلى . سألني : ألم تسأم الخبز والماء ؟ أجبته : إنني اعتدت هذا الطعام . شكراً . الحقيقة أنني كنت أخافه وكان هو يخافني . الواقع . كان يخافني أكثر مما أخافه . وقد أضطر إلى قتله .. أجل . لم أود أن أقتل إنساناً . لكن . بالنسبة لي . لم يكن هو إنساناً . لا أعرف ماذا كان . كل ما عرفته أنه لن يجعلني أركع على ركبتي . كان أولاده والجميع فوق القبو مباشرة . وكنت أعرف ذلك .

قال لي : أيها الزنجي الحقير . أتذكر السؤال الذي وجهته إليك ؟ كان يبتسم . لم أرد عليه . راح يذرع أرض القبو جيئة وذهاباً وكأنه يزن سوطه . كان يحاول أن يرعبني بسوطه . يريدني أن أتوسل إليه كيلا يجلدني . راقبته . عرفت أنه لا يزمع أن يدعو أحداً . كان يريد الاختلاء بي . لم أمنحه شيئاً . على أية حال . كاد يضربني . لذا ناديته بكل الألقاب التي خطرت ببالي ، كي أرغمه على أن يبدأ بجلدي ، وأن أنتهي من هذا الأمر . رفع سوطه ليجلدني به . تجنبت السوط . رفعه ثانية . فأمسكت بيده . تشاجرنا معاً حتى وصلنا إلى القضبان . كما تعرف . أنا أتمتع بقوة جيدة . لكنني ضعفت بسبب الخبز والماء الذي كان غذائي الوحيد مدة طويلة . صفعني على مؤخرة رأسي بمقبض السوط فتهالكت على ركبتي . حين سقطت . دنا مني ثانية . لكنني خططت أن أتحاشى طريقه وحين عاد إليّ من جديد سحبته بقوة . أمسكته من خصيتيه . صدقني جعلت ابن الزنا ذاك يصرخ ويولول . أوه . نعم صرخ صباح ذلك اليوم . ضربته بمقبض سوطه وجعلت شعره الأحمر يزداد احمراراً . سمعت أصوات بشر يأتون إلينا . حاولت أن أردهم بسوطي لكنهم بالطبع تمكنوا من القبض علي . وبعد أن فرغوا مني مددوني بجانب أحد الجدران . كان واقفاً فوقي . قال لي : أيها الزنجي الحقير . أنت لا تساوي برازاً أليس هذا صحيحاً ؟ وركلني . لم يكن بوسعي أن أرى شيئاً . رأيت عينيه بصعوبة بالغة . قلت له : أنت لا تساوي برازاً . وركلني

ثانية . ثم بصق على أحد السجناء السود من الموثوق بهم وهكذا قلت ، أنت على صواب يا سيد هويل . أنا لا أساوى برازاً وتركونى . بقيت هناك ، وحيداً ، مدة طويلة . أعيش على الخبز والماء » .

تلاشى صوته : أحدث صمته جرحاً بليغًا في الكون . لم يبق لى ما أقوله . لا شيء على الإطلاق . أمسكت به ، أمسكت بكل ما يمكننى الإمساك به . احتويته . بما أننى قادر على المحبة فأنا قادر على الكراهية أيضًا . أدركت أن بمقدورى أن أغذى كراهيتى . أغذيها كل يوم وكل ساعة . بوسعى أن أحافظ على صحتها . بوسعى أن أقويها . وسأستخدمها ذات يوم . أرهفت السمع لأنفاس كاليب . راقبته في ضوء النهار الذى راح ينمو رويداً رويداً . التقط لفافة تبغ . أشعلها . راقبت اللهب . راقبت أنفه . راقبت عينيه . لم يبق ما يقوله لي . استلقينا . هناك . في صمت . عرفت أن عليه النهوض من نومه حالاً . والذهاب إلى مركز الألبسة . رمى عقب سيجارته جانباً . طوقته بذراعي . وهكذا رحنا في سبات عميق .

قصد كاليب مركز المدينة برفقة والدنا في الصباح . وفي الظهيرة . غادر مركز الألبسة . إلى الأبد. وغادر نيويورك في الصباح الباكر من اليوم التالى . هذا هو . أحد لقاءاتى مع كاليب التي ما زالت مبهمة جدا في ذاكرتى . إحدى اللحظات التى تتراجع بصورة لا ترحم . مبهمة جدا : لأن عليها أن تثبت أنها عصيبة جدا . مبهمة جدا : لأنها مؤلمة جدا . عدت إلى البيت في منتصف النهار . تقريباً . على ما أعتقد . أحسب أننى كنت في المدرسة . مع أننى لا أذكر أننى التحقت بالمدرسة . كانت أمنا صامتة . لكننى عرفت أنها كانت تبكي . كان كاليب قد ألقى جواربه في الحقيبة .

« ما الخطب » ؟

كنت واقفاً في باب حجرتنا . لم أطرح سؤالاً على أمى .

« أنا ذاهب » .

جلست على السرير .

« أنت ذاهب ؟ إلى أين ؟ » .

« إلى كاليفورنيا » .

لم أقل شيئًا . انتبهت إليه وهو يدس عدداً من القمصان في حقيبة - حقيبة كارتونية صغيرة .

« كاليفورنيا » ؟

« أجل » .

دس في الحقيبة ملابس أخرى .

« أين والدي » ؟

أجاب : « والدنا في العمل » .

« متى ترحل » ؟

« سأركب الحافلة من هنا غداً صباحاً » .

« أتريد أن تأخذني معك » ؟

« لا » .

جلست هناك . رحت أتأمله . لم أشأ البكاء ، لم أشأ البكاء . لم أبك . واصل هو عمله وبقيت أنا جالساً على السرير .

« طيب » ، قلت . غادرت الحجرة . غادرت المنزل . لم يخطر ببالي شيء . لا أدري ماذا أفعل ، لا أدري إلى أين أيمم وجهي .

ثمة بهاء مرعب في الخراب التام . لم أكتشفه من قبل أبداً . كل شيء بدا مجليا ، طاهراً . أقدم من أقدم العظام ، وأنظف منها . كل شيء يرقد تحت سماء عالية ، عالية ، صافية ، وكان مغسولاً ونظيفًا . كل شيء - كل شيء على حاله : درجات السلم التي مشيت فوقها ، الأبواب التي اجتزتها ، النفايات ، القطط ، قناني الخمر المعتق ، المشعاعات ، كيس النفاية المتيبس على درجات السلم ، الضوء في مدخل المجاز ، الأولاد في المدخل ، الستائر البيض في النافذة على الجانب الثاني من الشارع ، السيارة الزرقاء التي قطعت مشهد الستائر برهة قصيرة ، الشارع ، طويل ،

طويل ، مخزن البقالة ، محل الخياطة ، دكان الحلويات ، الكنيسة التي تواجهنا حين وصلت نهاية البلوك ، الأضواء الحمراء ، الأضواء الخضراء ، الحافلات الطويلة ، المكتظة : ركاب الحافلات ، أكشاك الأنفاق ، الناس الذين يصعدون الأنفاق والذين ينزلون إليها ، (باج) الشرطي يعكس الضوء ، هراوته تتأرجح ، قراب مسدسه الجلدي يلمع ، كشك الخضار ، مع الخضار ، اللفت ، البطاطا ، البامية ، البصل ، اللهانة (الملفوف) ، القرنبيط ، التفاح ، الكمثرى ، اللافتة فوق كنيسة أخرى تقول : « أنت الذي يصلي لي أنا كنيسة الهواء » ، مخزن المشروبات وكل القناني في النافذة ، لافتات الحانة والنسوة خارج الحانة ، الرجال يقفون في الزوايا ، أعمدة المصابيح ، مؤسسات المقاولين ، السطح المحبب لرصيف المشي ، ضياء مياه المزاريب ، نعومة الشارع الأسفلتي ، الحاجز المشبك فوق الأعماق المرعبة والسود للبالوعة ، غناء إطارات العجلات وصراخ الفرامل ، شكل المداخل ، رتابة السلالم ، ترتيب وقدم الأفاريز ، ارتفاع السقوف ، السماء التي لا مثيل لها ، الشجرة ، العصفور ، المكتبة العامة واللوحة التي نقش عليها اسم كارنيجي ، الجدار الحجري للمتنزه ، الناس المنتشرون هنا وهناك كالعظام ، التل ، الزهور الذابلة ، المرتفع ، الشمس ، كلها ، كلها - كانت نائية عن كشافتها دوماً ، كما لو كنت في قبري فشقبت فتحة عبر شاهدة القبر كي أستطيع أن أطل على العالم . لم أبال بأكثر من ذلك . جلست في مكان ما من المتنزه .

بزغت النجوم . تأملت النجوم . أحصيتها . الواقع . دهشت حين عرفت أن السماء يمكن أن تكون سوداء بهذه الدرجة وقابضة للصدر بهذه الدرجة . بحثت عن القمر ، فلم أجده . القمر . فجأة . افتقدته ، دون سبب على الإطلاق . ولأنني تحسرت على فقدانه كثيراً شرعت أبكي . أحسب أنني لم أبك بهذه الطريقة من قبل . لم أبك على أمل الشعور بالارتياح . لم يكن لي أمل . لم أتيقن تماماً من أن ثمة شيئاً ما يجول في خاطري . بكيت لأنني لم أستطع أن أتمالك نفسي ، حتى النجوم الساطعة لم تمنحني بصيصاً من الأمل . لعلها مثلي . لا تحسب أن حكم القدر قد صدر ، وعليها الآن أن تنفذه . كنت على يقين بأن لا شيء يخطر ببالي . فلولا ذلك لتصدع بالي وأصابني الجنون . سرت إلى أعلى قمة في المتنزه . الآن ، نهضت ، دون سبب محدد ،

وشرعت أعود أدراجي تاركاً الشلة . كان ضوء النهار يغمر المتنزه حين دخلته ، والآن انحسر الضوء ، وحل الليل . لكنني لم أغذ السير باتجاه بيتنا في ضواحي المدينة ، بل في اتجاه مركز المدينة ، بعيداً عن بيتنا . قد يبدو ذلك غريباً ، لا أدري . لكنني لم أفكر بما يجري في بيتنا ، ولم أخش السير في شوارع المدينة ، مع أنني كنت دوماً أخشى ذلك . بل إنني لم أشعر أبداً بمثل جرأتي الآن . لا أعتقد أنني سأرى رجال الشرطة : أخذت الأمور مأخذاً حسناً ورحت أجوب شوارع المدينة .

تمشيت في شارع ماديسون المشجر في هارلم ، الذي لا يشبه الشارع الأمريكي الذي يحمل الاسم ذاته . راقبت الأولاد والبنات ، الذين ، وبصورة غريبة لم يتحدوني أو يجعلوا من حركتي خطراً علي ، مع أنني كنت أمشي الهوينى ، ولعلي بدوت بالنسبة لهم غريباً جداً . لكن ، لا ، ظلوا منهمكين بما كانوا يفعلونه ، وواصلت طريقي ، لكن حين وصلت إلى أطراف هارلم – حيث أخذت الشوارع تبدو هادئة ، ساكنة ، وأصبحت الوجوه شاحبة مصفرة – حينها فقط فكرت في بيتنا ، لابد أن أهلي ساورهم القلق عليّ . عرفت أنني بالرغم من كل شيء لا أستطيع أن أقضي ليلتي هائماً على وجهي . لذا اتجهت غرباً وقفلت راجعاً إلى أطراف المدينة حيث يقع منزلنا .

لكنني ، في الواقع ، لم أعد إلى منزلنا تلك الليلة . ربما ، تحدوني رغبة حقيقية بأن لا أعود إلى المنزل ، وكانت هذه الرغبة دفينة في نفسي . أو كلما يدنو بيتنا تخونني أعصابي . لعل رغبة هائلة سيطرت علي أن أؤذي كاليب ، أو لعلي كنت خائفاً من رؤية كاليب . لكن ذاكرتي ، لأسباب غير مبهمة عليّ الإطلاق ، تجعل كل شيء غير واضح ، ترفض السير على الأرض ثانية . هذي هي الليلة التي اكتشفت فيها التشوش الكامل (الهيولى) أو في الأغلب إنها الليلة التي اكتشفتني فيها التشوش الكامل ؛ وبها بدأت المرحلة المرعبة من حياتي ، المرحلة التي ذهلت تماماً لأنني عشتها . كانت تلك الليلة هي أول ليالٍيّ في الجحيم . تلك الليلة ، أو في ليلة لاحقة ، دخنت أول مرة الماريجوانا ، في قبو مع عدد من الأولاد الذين يكبرونني سنا ومع فتاة في غاية الجبن . أعرف أنه في ذلك الزمن أصبحنا صديقين أنا وفرنسيس الذي يكبرني سنا ، الذي ساعدني من خلال حمايته لي في الشوارع . أعرف أن أول مرة دخنت فيها الماريجوانا كنت معه ومع أصدقائه . أتذكر القبو الذي كان على مقربة من مسرح أبولو .

تحول فرنسيس فيما بعد إلى تاجر للسلع المستعملة ، وبعد محاولات عديدة منه للتخلي عن تعاطي المخدرات، مضى إلى غرفته ذات صباح وقطع شرايين رسغيه. لكننا سرنا ، معاً، في الطريق ذاته ، مدة معينة[1]. وأي منا لم يتورع عن فعل أي شيء يخطر بباله ، أو ، ربما في تلك الليلة أو في ليلة لاحقة لها ، أمسك بي ميتز هارلم المدعو جوني ، وهو رجل ضخم البدن ، يبدو شبيهاً بالإسبان ، حاد جدا ، طيب القلب - كان طيب القلب معي ، على أية حال - حيث أخذني إلى شقته وقدم لي أول كأس براندي احتسيته حتى ذلك الوقت ، وقادني إلى السرير . أرعبني ، أو أن عنفه ، حين تطفأ الأنوار ، هو الذي أرعبني ، لم أحب عنفه ، لكنني أحببته هو . يلزمني أن أمنعه من شراء حاجيات لي لا أستطيع أخذها معي إلى البيت ، كان يوفر لي حماية أعظم من حماية فرنسيس . وقد استغرقت وقتاً طويلاً قبل أن أتخاصم معه ، ببساطة لأنه كان مولعاً بي - كان هو يوماً الرجل الوحيد الذي يمكن أن ألجأ إليه . في الختام ، اشتبك جوني في قتال مع قواد آخر مما أدى إلى مصرعه . لكننا ، أيضاً ، سلكنا معاً الطريق ذاته مدة معينة .

بعد أن أشبعوني ضرباً ، وبعد الصراخ ، والدموع ، إثر عودتي إلى البيت في اليوم التالي ، سلمتني والدتي رسالة كاليب الموجزة . أخذتها إلى غرفتي . اضطجعت على السرير ورحت أقرأ :

أخي الصغير ،

ما كان ينبغي لك أن تتخلى عني بهذه الطريقة . لابد أنني بدوت خبيثاً لكنك يجب أن تعرف أنني لم أكن أقصدك أنت . خلاصة القول أنني لا أستطيع الاستمرار بالعمل في مهنة كهذه . إنها لا تناسبني أبداً . هي تناسب والدنا . لا أستطيع أن أتحمل الطريقة التي يحادثونه بها، وكأنه فلاح أجير عندهم . لكنني لم أقل كلمة . حين دقت الساعة معلنة انتصاف النهار ، غادرت مركز الألبسة . قررت الرحيل عن هذه المدينة . أظن أن خيراً لي البحث عن مكان آخر ، سأعمل في مبنى للسفن في كاليفورنيا . ليو ، لا أستطيع أن أصطحبك معي .. فأنت مازلت تلميذاً وعليك أن تنهي تعليمك وأنت تقول : إنك تطمح أن تصبح ممثلاً ، حسناً ، أية حياة هذه ستكون لو بقيت متعلقاً

(١) هنا إشارة إلى وجود علاقة جنسية شاذة بين الاثنين . (المترجم)

بي ؟ أنت ، يا ليو ، تتحلى بذكاء وفطنة ، وهذا ما أخبرتك به مراراً . أنت أكثر ذكاء مني وأعرف أنا أنك ستؤيد فكرتي في الرحيل وحيداً ، حين تبرد أعصابك .

أنا جد آسف لأنني سأرحل دون أن أودعك كما عودتك دوماً .

اعتن بماما وبابا قدر مستطاعك واعتن بنفسك . سأكتب إليك حالما أجد عنواناً وأرجوك أن تكتب لي . لا تغضب مني. حين تكبر ستكتشف أن هذا هو أفضل السبل . أعتقد أنني أحبك أكثر من أي شيء آخر في العالم . ليو أتمنى أن تكبر لتصبح رجلاً سليماً سعيداً . لذا ، مهما كانت فكرتي ، يبدو لي أن هذا هو أفضل السبل لأي إنسان تربطني به علاقة .

أتمنى أن يكسو اللحم عظامك حين أرى طلعتك ثانية . أرجوك لا تنسني .

أخوك كاليب

أدركتُ كاليب مصيبة ما في كاليفورنيا ، فالتحق بالجيش . أما أنا فاهتديت إلى الشوارع .

أدركت أنني كنت أرتعش ، وسحبت منشفة مادلين الكبيرة ولففتها حول جسدي ، ثم تركت المنشفة وغادرت مطبخها ، دخلت سريرها عارياً ، إلى جانبها ، نمت ، أيقظتني ، مارسنا ، كما يقال ، الحب ، بعدها ، نمت ثانية .

وكما في الأفلام السينمائية ، أيقظتني رائحة القهوة ورائحة وصوت لحم الخنزير المقدد . في الحقيقة ، لا أعرف كيف تجرى الأمور في السينما ، لكنني أعرف أنني استلقيت هناك على ظهري ، خائفًا ، مستلبًا ، خاويًا – مستلبًا وخاويًا دون أن يمسسني أحد في الواقع . ثم ، حين دخلت الحجرة ، باسمة ، ترتدي مبذلاً قرمزياً ، قبل أن يتوفر لي الوقت الكافي كي أتظاهر بالنوم ، أدركت أنني أمتلك طاقة أقدر أن أهبها . أدركت أنني أحب مادلين نوعًا ، وكان ذلك بالتأكيد نوعًا من الراحة . لكنني ، في المقام الأول ، تمنيت أن يكون ذلك اللحم الأبيض بين كفي من جديد . ببساطة وددت أن أضاجعها : وليس هذا بسبب محبتي لها .

« هل أنت مستيقظ » ؟

يا إلهي ، كانت مادلين مرحة . جلست على السرير .

سأنام بعض الوقت . أعتقد أنني سأكون هنا حين تعودين . إذا لم أعد إلى هنا سأهاتفك من عند لولا » .

« هذا شيء جيد ، يا سكر ، أنت ولد طيب » .

دفنت رأسي في الفراش . « أوه ، اللعنة ، ماذا أنا ، الله وحده يعرف أنني لست غلاماً طيباً » .

« أوه ، طيب ، إن ما يعرفه الله ، ثم ما أعرفه أنا شيئان لا يتطابقان » .

« أسرعي إلى تمرينك » .

« ألا تقبلني ؟ من أجل الحظ فحسب » ؟

انحنت علي ، رفعت جذعي قليلاً ؛ قبلتها : « أسرعي » .

« شكراً ، يا سكر ، إلى اللقاء » . غادرت ، فتحت الباب وأغلقته بعناية وهدوء . بقيت في فراشي . استسلمت للنوم من جديد .

حين أقنعت نفسي أخيراً بأن أنهض وأخذ دش حمام ، كان الوقت قد تجاوز السادسة . قررت أن خيراً لي أن أذهب لأرى ماذا يجري في الخارج ، في شارع بول نوج . كدت أرفع سماعة الهاتف لأتصل بمادلين ، حين رن الهاتف . قفزت . كان رنين الهاتف غريباً جداً ، بل مشئوماً في ذلك المكان الخالي . ثم سألت نفسي إن كان عليّ أن أرد عليه . لكن مادلين لم تقل شيئاً عن عدم الرد على المكالمات الهاتفية ، كنت على يقين أن ليس لها أصدقاء في المدينة . قررت أن أنتهز الفرصة – لعلها هي التي تتصل بي .

« هالو ؟ » كان ذلك صوت لولا .

« هالو » .

« هالو ، أي رقم هذا من فضلك » ؟

أخبرتها .

« طيب .. الآنسة مادلين أوفر ستريت موجودة » ؟

« لا . هي في المسرح » .

« من المتكلم . إذا جاز لي أن أسأل » ؟

« من المتكلمة ؟ .. هل لي أن أسأل » ؟

« اسمي لولا سان – ماركواند » .

« أوه . لِمَ لم تقولي من البداية ؟ أنا ليو برودهامر » .

« ليو ؟ ليو ! ماذا تفعل في شقة مادلين » ؟

« أنا أنظف المسكن . ينبغي على الولد أن يتدبر حياته » .

حل صمت . صمت حذر .

قلت باحتراس : « حين دخلت شقتها قبيل مغادرتها . قالت لي : إنها مضطرة للإسراع إلى التمرين المسرحي » .

« أنهينا العمل مبكراً . هلا تركت رسالة إلى مادلين ؟ تغيرت الدعوة . علينا أن نعمل في المسرح هذي الليلة . على خشبة مسرح الجرين بارن . من الثامنة والنصف وحتى الثانية عشرة . لا ينبغي لها أن تمر ببيتي . بل عليها أن تذهب مباشرة إلى المسرح » .

« حسناً . فهمت . الثامنة والنصف » .

« ألا تدون ذلك » ؟

« كيف تتهجين كلمة مسرح » ؟

« أوه . ليو . أنت تثير سخطي . هل رأيت بربارة كنك اليوم » ؟

« لا » .

« حسناً . سوف تخبرك بربارة بالساعة المحددة من صباح الغد التي يرى فيها صول مشهدك » .

« أوه . هل سيرانا غداً ؟ » .

« كان يراك طوال أسابيع عدة . أنت ببساطة لم تعرف ذلك » .

« ماذا أفعل إن لم أر بربارة » ؟

« عندها يلزمك الاتصال بصول هاتفيا . أنا لا أفهم شيئاً البتة في هذه القضايا . صول يخفي تفاصيل الجانب التعليمي من حياته عني . أنا أرى النتائج فحسب . دون الرسالة الموجهة إلى مادلين . أمل أن تكون في طريقها إلى البيت . أنت لا تعرف - أليس كذلك - أين تذهب مادلين إذا لم تعد إلى البيت » ؟

« أنا هنا مجرد عامل يا سيدة » .

« فهمت . شكراً . وداعاً » .

« وداعاً » .

وضعت السماعة . أحسست بإثارة غير مرغوبة ومضطربة . إذاً . سوف يتأملنا صول : هذا شيء ذو قيمة . لكن لماذا أبالي برأي ذلك الرجل عديم الشأن عني ؟ وهذا شيء آخر . لكن عليّ أن أعود إلى البيت . إذاً سيكون بوسعنا أنا وبربارة أن نعمل معاً هذي الليلة . كتبت الرسالة الموجزة لمادلين . قلت لها : إنني سأراها أو أهاتفها بعد الدرس - درسي الأول ! - غداً . بدت الرسالة . ربما . شديدة الابتهاج نوعاً . لكنني قلت مع نفسي : (طُز) فيها . تركتها وسط الطاولة . وفوقها ساعة منضدية .

باب شقة مادلين يواجه درجات السلم . كان رجل عجوز وزوجته يصعدان هذه الدرجات حين خرجت من باب شقة مادلين بجلبة ومرح . أغلقت الباب ورائي . نظر إلي كما لو كنت شبحاً . في الواقع . لاحا لحظة وكأنهما مسمران في مكانهما . لعل رعبهما أرعبني لحظة . لا أعرف : على أية حال . في أقل من الثانية ومثل الأرنب الذي يواجه ثعباناً . جمدنا في أمكنتنا بسبب الرعب من أحدنا الآخر . بعدها . قلت برقة : « بوسعكما أن تصعدا درجات السلم . أنا لا ألدغ » .

حطم كلامي السحر . ووصلا بسرعة إلى منبسط السلم . الآن أصبح في مستطاع الرجل أن يتحدث فسألني بتجهم : « ماذا تفعل في هذه العمارة يا غلام » ؟

« أنا أبحث عن مبرد كي أحد به أسناني . لكنني لم أعثر على مبرد حتى الآن » .

ابتسمت ابتسامة عريضة . « أفهمت ؟ » هززت كتفي . « بعض الأيام مثل تلك » . ثم رحت أدندن : « أوه ، ذلك الرجل العجوز الشاخر . يقيناً هو ما يزال يطوف ! أليست هذه هي الحقيقة ! رجل خليع وضخم . أكثنني . هو هو هو . وأنت أنت أنت ! » ونزلت درجات السلم وكأنني أرقص رقصاً نقريا . على الأقل ، عرفا الآن أنني لست شبحاً . إنما يبدو أن هذه الرقصة لم تعد الطمأنينة إلى نفسيهما .

يممت وجهي شطر البيت . أخذت سيارة أجرة . لم يكن هناك أحد . نظرت في الطابق الأعلى والطابق الأسفل علّي أجد رسالة . لكنني لم أعثر على شيء . ظننت أن جيري وبربارة قد ذهبا إلى المدينة ثانية . يبدو هذا غريباً نوعاً . ولأنني لست قادراً على الذهاب إلى المدينة وليس بحوزتي نقود . حتى لو وصلت إلى هناك . قليت بعض البيض لي وشرعت أطالع مشهداً من مسرحية « في انتظار ليفتي » . لم أكن قد قرأت كثيراً حين سمعت صوت سيارة قادمة . لم تكن سيارتنا . مع أنها توقفت أمام البيت . الأضواء الساطعة سقطت على السطر الذي كنت أقرأه : « سيد : الجواب هو لا ، لافتة كهربائية ضخمة تطل على برودوي ! » وضعت الكتاب جانباً . مشيت إلى المدخل المسقوف الذي كان يستحم بالنور . فيما وقفت أنا في مصيدة النور .

« ما الخطب ؟ ماذا تريد بالضبط ؟ » انعكاس ما أو ربما همسة ما آتية من أجدادي . ساعدتني في أن أحافظ على نبرة صوتي من رعبي القاتل . بدوت غاضباً ، وأدركت فوراً . في تلك اللحظة . على أية حال . أن تلك هي النبرة الوحيدة التي أستطيع التحدث بها . « أبعد هذا النور عن عيني ! ماذا تريد بحق الجحيم » !

« نحن نريد منك أن ترفع يديك أولاً » . قال صوت متشدق . « وبعدها سوف نطفئ النور » .

رفعت يدي . كانوا هناك . طبعاً . يرتدون ثياباً زرقاء . اثنان منهما . بالطبع . أبيضان . وقف أحدهما بجانب السيارة . فيما أقبل الآخر إلى وفتشني . الشرطة يحبون تفتيش الصبيان السود . هم يودون أن يتأكدوا من صحة ما سمعوه .

« حسناً . تأتي معنا إلى المخفر » .

الناس يخافون بطرق شتى – طرق خوفهم ربما تقرر أحياناً كم سنة سيعيشون

من حياتهم . هأنذا في بلدتي ، في أحد طرق بلدتي وحيداً ، أواجه رجلين أبيضين مسلحين لديهما تخويل شرعي بقتلي : وإذا كان مقتلي بطريق الخطأ فليس هذا بالقضية المهمة جدا ، ولن يكون ذلك بالنسبة لهما بالخطأ الفادح . لن يكلفهما هذا الخطأ (باجيهما) أو راتبيهما التقاعديين . فالناس الوحيدون الذين يهمهم موتي لن يستطيعوا أبداً الوصول إليهم . أعرف هذا جيداً . هذه الفكرة أكثر حيوية من يدي الشرطي ، من أنفاسه ، ومن قراب مسدسه . عرفتُ أنني خفتُ ، وعرفت مبلغ خوفي . تذكرت ، بصورة مبهمة ، أنني قرأت في مكان ما ، أن الحيوانات يمكنها أن تشم الخوف ، وحين تشم الرائحة هذه تثب ويستبد بها القلق . قررت أن تلك الحيوانات حتمًا لم تشم رائحة خوفي ، وهذا القرار جعل خوفي يروغ ، إذا صح التعبير ، منها إليّ : كانت حياتي بين يدي . لم أخمن حتى الآن لمَ أتوا إليّ ، ولا أدري ماذا سيحدث ، سأدبر مكيدة ، طالما أنا أتنفس ، وسأخذهما قدر مستطاعي .

وهكذا لم أتذمر ، علام أتى معكم ؟ لم أفعل شيئًا البتة ، لكنني سألتهما بصورة مدروسة قدر مستطاعي وساخرة قدر مستطاعي ، « ماذا تعتقدان أنني فعلت » ؟

لم أتوقع كيف ستكون استجاباتهم . اعتادا أن يسمعا تذمر الصبيان السود أو تحدياتهم ، وفي كل الأحوال ، يسهل عليهما معرفة ماذا يتعين عليهما أن يفعلا - فهما يسليان نفسيهما بالتذمر أو التحدي الذي يبديه الصبيان ، وينهالان بالضرب على الصبي ، وغالبًا يواصلان ضربه حتى الموت . عليّ أن أسير على حبل البهلوان بين التذلل والصياح ، عليّ أن آمل بأن التسلية ذات السخرية الطفيفة تكون غير متوقعة بحيث تفقد ردود أفعالهما وتشل نشاطهما ، على الأقل حتى وصولي إلى مخفر الشرطة ، حيث يمكنني أن أحسب حساباتي من جديد . كانت حساباتي تتركز على الخوف ، إذ كنت أخاف أن أجد نفسي أتوسل شفقتهم : تمنيت أن أكون قادراً على رؤية قدوم تلك اللحظة ، وأن ألغي تلك اللحظة بأن أجعلها لا تأتي أبداً .

وهكذا ، قيدوا يدي ، وأجلسوني في المقعد الخلفي من السيارة . اجتزنا الطريق بسرعة ، لاحظت بدقة ، أن الطريق الذي يختاره يؤدي إلى المدينة . وهكذا تجرأت فقلت : «هل لي أن أسألكما - ثانية - : علام تعتقلانني » ؟

لم ير عليّ أحد منهما ، مما جعلني أستنتج أن كليهما لا يعرفان ماذا يجيبانني . أو أنهما لم يقررا بأية لهجة يكلمانني . فكرت أنهما جاءا إلى بيتي . إذاً هما يعرفان جيداً أنني غريب في هذه المدينة ، وأعمل مع أناس مشهورين سببوا لهم مشاكل جمة . بعدها فكرت ، لو كانوا مهتمين بذلك فعلاً فما كان عليهم أن يأتوا على الإطلاق . فكرت أن صول ولولا وراجز لم يعيروني أهمية حقيقية ، ولا أقدر أن أعتمد عليهم . إن نجوم السينما الاثنين أو الثلاثة الذين دخلوا منزلنا وخرجوا منه طوال الصيف لا يميزونني عن صبي يعمل ملمع أحذية – مع أنني كنت مصمماً ، لو دعت الحاجة ، أن أذكر أسماءهم كي أهدد الشرطة . بربارة وجيري يهتمان بي ، لكن يا إلهي أين هما الآن ؟ مادلين أيضاً تهتم بي . مادلين . وصلت المسرح في الثامنة والنصف . لعلهم سيسمحون لي أن أطلب رقم هاتف شقتها ، بعدها رددت اسم مادلين . ثم تذكرت الرجل العجوز وزوجته ، مواطنان صالحان ، أديا واجبهما واستدعيا الشرطة . كان ذلك شيئاً مضحكاً بصورة لا تصدق : لو لم أكن مقيداً فلربما قهقهت ضاحكاً .

تلك لم تكن مسألة مضحكة . وصلنا إلى مخفر الشرطة الذي بدا في الواقع ينذر بالسوء ، واجتزنا المشي بتباهٍ ، فيما كان الناس ينظرون إلينا ، لكزوا بمرافقهم بعضهم البعض ، تعقبونا ، أخذوا يجتمعون عند درجات السلم محدقين فينا . دخلنا المخفر . « غلام ملون . اعتقلوا غلاماً ملوناً » . أغمي علي . أما الرعب فقد جعل حرارتي ترتفع وتنخفض . ليس ثمة سبب يدعوني لأن أخبر نفسي ، ليو ، هذا المكان ليس الجنوب . أنا أعرف جيداً أن لا أمل يرتجى في كل ما يجري في مدن الشمال الأمريكي . هذه هي أمريكا . أمريكا . أمريكا . وأولئك الناس . هناك . أبناء بلدتي ، قطعوني إرباً إرباً كالكلاب ، على مدى قرون طويلة . لم أكن أول من يفعلون به ذلك . ولم أكن آخر من يشهد هذا الحدث الدموي .. أعتقد أنني ساءلت نفسي ما إذا كانت قد اتهمتني باغتصابها ؟ لكن ، لا ، هل قبضوا عليك أثناء ذلك ؟ ثم حدثت نفسي أن لا ، هم بحاجة إلى كلمة الآنسة أن .

عرفت لو أني سمحت لنفسي بالتفكير بهذه الطريقة فلربما تنهار أعصابي تماماً . كان الرجل يجلس خلف مكتبه ، وأرغمت نفسي على التحديق بوجهه ، وأرغمت نفسي وأنا على حافة الإغماء ، على أن أهجم عليه بالقول : « لِمَ اعتقلتموني » ؟

تطلع إليّ باشمئزاز فضولي غير شخصي . كان بديناً ، أحمر الوجه ، أيرلندياً ، مؤمناً حقيقياً ، رجلاً نظامياً . « إنها مجرد إجراءات روتينية ، يا غلام . سوف نشبع فضولك حين يحين الوقت اللازم » .

« أنا آسف ، بيد أن القانون يرغمك على أن تخبرني ما هي التهم الموجهة ضدي ؟ ليس لك الحق أن تقبض عليّ دون تهمة » .

ازدادت حمرة وجهه ، بدا منتفخاً ، وأضحت عيناه أكثر دكنةً . نظر كل منا إلى الآخر - لو سمحت لنفسي أن أخفض بصري فلربما وقعت أنظاري على الأرض .

« هل تريد أن تفهمني طبيعة شغلي يا غلام » ؟

« أنا أخبرتك بحقوقي بصفتي مواطناً في هذا البلد » .

ضحك الرجل وضحك زملاؤه . أدركت أنني ارتكبت خطأً تكتيكيا .

« ما هي قضيتك يا غلام ؟ هل أنت شخص أحمق ؟ هل أنت أحمر » ؟

لم أفه بشيء ، بل اكتفيت بالنظر إليه . من جديد انتفخ وجهه وأمست عيناه داكنتين . لم يكن الرجل يعرف مقدار خوفي . كان ، سبحان الله ، عديم الاكتراث بهذا الأمر : عرف أنني كرهته ، وتمنيت أن أراه ميتاً . وهذا حيّره وأغضبه - مما جعل الخطر المحدق بي يتفاقم - ذلك أنه ، على أية حال ، لا يكرهني . لم أكن واقعيا بصورة كافية فيما يتعلق بهذا الأمر . لم أكن واقعيا بالنسبة إليه كما كان واقعيا بصورة لا مثيل لها بالنسبة لي . لكنني لم أستطع أن أخفض بصري . حدثت نفسي أنه ما في اليد حيلة . الآن ، كي أقلل من الخطر الذي يهددني ، كل ما أقدر عليه هو السيطرة على الخوف الذي يتملكني .

لم يدونْ اسمي . لم تؤخذ طبعات أصابعي . أخذوني إلى حجرة أخرى ، تركوني هناك برهة : كي أفكر ملياً ، كما أظن ، في خطاياي ، أو لكي أحصي أغاني البلوز التي أحفظها . عرفت ربما يعني ذلك أنهم غير متيقنين لحد الآن إلى أي مدى يمكنهم أن يصبوا جام غضبهم عليّ . اعتبرت ذلك علامة جيدة ، مع أنني عرفت أيضاً أن ذلك ربما يعني حصراً بأنني قد نجوت من أفعالهم السادية البارعة . أدركت أنه من

الأفضل أن لا أفكر ، وأن لا أتلف صحتي تدريجيا بما أراه من مشاهد أمام عيني . الآن ، أنا غير قادر على فعل شيء ما . لا يمكنني أن أتكهن بما سيحدث مستقبلاً ، من الذي سيدخل حين يفتح الباب ثانية . وبصورة واعية ، ليس بكل ما تعنيه هذه الكلمة ، رحت أدير مكيدة ، تساعدني ، فيما بعد ، في المسرح : ليو - حدثت نفسي - ليس بوسعك أن تعرف ماذا سيجري ، وإلى أن يقع هذا الحادث لا تستطيع أن تعرف ماذا يجدر بك أن تفعل ، ستندهش .. إذاً كن متذهلاً . فبهذه الطريقة وحدها تكون متأهباً لما يحصل لك مستقبلاً .

لكن حين فتح الباب - وحسب أكثر النظريات صحة - لم أندهش أبداً . كان يقف هناك اثنان من رجال البوليس السري ، مع الرجل العجوز وزوجته ، نهضت على قدمي ، نظر كل منا إلى الآخر كيف لي أن أفسر ذلك ؟ مازلت أعتقد أنهم مضحكون .

« هل هو ذاك الغلام » ؟ سأل أحد رجال البوليس السري .

« نعم » قال الرجل : « إنه هو بالضبط » ، قالت زوجته . كانا واقفين وكأنهما وسط أجمة ، يحميهما صيادوهما ، لكنهما كانا واقفين بثبات كي يصرخا ويولولا إذا ما وثب قط الأجمة .

« هذا الجنتلمان » ، قال أحد رجال البوليس السري « يقول : إنه شاهدك وأنت خارج من شقة غير عائدة لك قبل وقت قصير » . رفع حاجبيه بوجهي .

حسناً ، لعلهم سيضربونني حين يغادر العجوز وزوجته الحجرة ، لن يضربوني طالما هما ما يزالان فيها ؛ وعلى حين غرة لم أعد أبالي . أنا متعب من هذه الملهاة الرديئة ، وخجلت من نفسي لأنني مثلت أي دور فيها مهما كان . تحرك في داخلي ، على الفور ، شيء ما بارد وقاسٍ - ربما كان الوضع المدقع للرجل العجوز وزوجته .

قلت : « الجنتلمان ما هو إلا سيدة عجوز عصبية المزاج ، وهو لا يعرف ما إذا عندي عمل في الشقة أم لا » . شعرتُ بأنني بدأت أغضب ، وأرغمت نفسي على أن آخذ نفساً . « الشقة مؤجرة من قبل الآنسة مادلين أوفر ستريت ، هي ممثلة وتعمل هنا في مسرح الجرين بارن، وأنا أيضاً ممثل ، نحن صديقان» . كانت ستحل على اللعنة لو أني وجدت عذراً للتهمة الموجهة ضدي، بأن أقول لهم : إنني مجرد عامل تنظيف لدى مادلين .

« في اعتقادي أن الجنتلمان سيخبركم بذلك . حين شاهدني كنت أغلق الشقة بالمفتاح وكانت مفاتيح الشقة في يدي . أكيد الجنتلمان سيخبركم . إن لم يكن يخنه نظره . وإذا كان من عادته أن يقول الحقيقة . وأنا » . ولم أستطع أن أمنع نفسي من الإضافة بالرغم من معرفتي بأنها إضافة سخيفة » . أرتاب في هذين الأمرين : قوة بصره وقوله للحقيقة » .

سألني رجل الشرطة السرية : « هل المفاتيح بحوزتك الآن » ؟

« أرفض الإجابة على أي سؤال حتى تأذنوا لي بالاتصال الهاتفي . وهذا حق مشروع أقره القانون . أو يكون محاميَّ الخاص حاضراً » .

حسناً . إنه لشيء مضحك . عرفت ما دار بخلدهم . غلام صغير أسود . جبان . يتحدث عن محاميه الخاص . لم أجب بشيء . كل ما بوسعك أن تفعله هو أن تضربني على عجيزتي . أعرف أنهم مغفلون جدا وخائفون جدا من معرفة ما إذا خدعتهم أم لا . إذاً تبا لكم أيها البيض أبناء الزنا . تبا لكم . حدقت برجل الشرطة السرية الذي كان يطرح علي الأسئلة . وأرسلت إليه نظرات تنطق بالكلام البذيء . صدقني . أوه . نعم . الآن . هيا . احسم أمرك . يا رجل . واضربني على مؤخرتي .

لكنني أرعبتهم . لم يعرفوا ماذا يتعين عليهم أن يفعلوا . لم أقصد أبداً أن أوحي بأنهم صدقوني . لم يصدقوني . حسبوني معتوهاً . إلا أنهم لم يعتزموا الاشتباك مع غلام مجنون : لقد أمروا حصراً أن يلقوا القبض على غلام أسود .

طيب . ها نحن هناك : أسود . بالتأكيد . لست سوى غلام . وكانوا معي هناك . الآن . بالنسبة لهم أنا غلام خطير . هم لا يعرفون ماذا يمكن أن يجري – إن لم أكن مجنوناً فربما تكون قصتي حقيقية . وإن كانت قصتي حقيقية .. حسناً . عندئذ . نعم . ربما سيكونون في ورطة . ويفقدون بذلك رواتبهم التقاعدية . لو كنت قد اقترفت عملاً معيناً فكل الاحتمالات ممكنة . يمكنني أن أرى ذلك في عيونهم .

« ما اسمك » ؟

« قلت لك إنني لن أرد على أي سؤال ما لم تتركوني أتصل هاتفيا أو أستشير محامي الخاص . أنتم لم تدونوا اسمي ، وليست لديكم تهمة ضدي .. أنتم من تتصرفون خلافًا للقانون » ؟

تحرك أحدهما نحوي ، إلا أن الآخر صده . الحمد لله ، العجوز وزوجته ما يزالان في الغرفة . أو شكرًا لأجدادي العظام .

« هل قلت : إنك ممثل » ؟ سألني أحدهم بنبرة ودية استرضائية . جلست على مصطبتي ، مكتوف اليدين .

« أيها الشاب » ، قال الجنتلمان العجوز – في لحظة أخرى ، ربما كنت أسفت عليه – « أنا ظننت فقط .. لم أقصد أن أسبب لك أية مشكلة .. » .

أجبته : « أبداً ، لم تسبب لي أية مشكلة على الإطلاق . لكنني أستطيع أن أسبب لك جملة من المشاكل » .

أنا ورجل الشرطة السرية نظر كل منا إلى الآخر – مدة طويلة كما بدت لي . بعدها ، غادر الجميع الغرفة . بقيت وحيداً من جديد ، مدة طويلة ، همد غضبي وعاودني خوفي .

دخل رجل لم أره من قبل ، مخادع ، صريح ، أحمر الوجه ، ناداني باسمي وصفعني على قفاي : « أنت ممثل ، إذاً ! ليو ، لِمَ لم تقـل لنـا ذلك ، منذ البداية ؟ لن تنحى علينا باللائمة بسبب سوء فهم بسيط . غالبًا ما تحصل الأخطاء ، أليس كذلك » ؟

حدقت به . لم أنبس ببنت شفة . الواقع ، لم أعرف ماذا أقول .

« كان لي أخ يعمل ممثلاً » ، اختنق قليلاً بسيجاره الهائل ، جلس بجانبي . حسبت أنه أغلب الظن من تكساس . « بالطبع ، حدث هذا من أمد طويل ، قبل مجيئك إلى الدنيا » . ضحك ضحكة خافتة ، لفته حجب الذكريات . « نعم ، اعتاد أن يكرر كلاماً مسرحيا معاداً مع جورج م . كوهان العظيم نفسه .. هو ذا الآن ممثل عريق ! وأسير ، أمير ، أمير بين الرجال ، ليو ، أنا أؤكد لك ذلك » .

آنذاك أحسست بالعنفوان والقوة . تأملته بدهشة . تشبعت تدريجيا بالاشمئزاز . الواقع لم أستطع أن أتحرك .

« لكن حياة الممثلين عسيرة .. عسيرة جدا . أعرف أنك تدرك ذلك . يا ليو . أنت تبدو غلاماً ذكيا » . من جديد ضحك ضحكة خافتة . لكزني بمرفقه . « لكنها ذات جانب جيد . أيضًا . إيه . ليو .. بيننا نحن الرجال ؟ أحسن الفتيات يتحلقن حولكم . أقسم أن الفتيات مغرمات بك . أليس كذلك يا ليو » ؟ مال نحوي بثقة ورمشت عيناه . « هناك قول يردده الجميع . الرجل الضخم ذو عضو صغير . أما الرجل الضئيل فيكون عضوه ضخماً جدا ! .. ها .. ها .. ها » ! قرص كتفي . آلمتني قرصته . « أوه . أنت لا تريد قول ذلك . لكنني أستطيع أن أراه في عينيك . لقد صاحبت بعض الفتيات . وبخاصة أنت في مقتبل العمر .. كم يبلغ عمرك يا ليو » ؟ تطلع إليّ . تطلعت إليه . لم أقل شيئًا . حلت فترة صمت خانقة . مزعجة . « حسنًا . دعني أخمن . من الصعب أن تخمن أعماركم أنتم السود . لنر . سبعة عشر ؟ اثنان وعشرون ؟ » .

كان بارعًا . بارعًا جدا في مهنته . أعتقد أنني ربما أتي بإيماءة ما لو كان باستطاعتي أن أحرك رأسي . ببساطة . حدقت به . كالمنوّم . كالأبله . والآن غدوت خائفًا حقا . بصورة شديدة . بعمق متزايد . عما كانت عليه من قبل .

حين أدرك أنني سوف لن أجيب قال لي : « ليو . مثلما قلت لك قبل قليل . الأخطاء تحصل دومًا . كلنا أولاد آدم وكلنا نرتكب الأخطاء . ولهذا السبب اخترعنا المحامي » . كان يتأملني بإمعان من خلف حجاب دخان سيجاره . لكنه كان صريحًا ووديا وتابع الابتسام . « أنا أكره قول ذلك . يا ليو . كلانا يعرف أن الممثلين يميلون للانحلال الخلقي . هذا هو السبب الذي جعل أخي مرغمًا على ترك التمثيل . فهو لم يطق حياة التمثيل » .

تطلع إلي بعاطفة قوية : « أنا لا أقصدك . فأنت تبدو غلامًا دمث الأخلاق . مستقيمًا . أنا على يقين أن والدتك فخورة بك . أين تسكن والدتك يا ليو » ؟

أجبته : « في جوهانسبيرج . إنها مبشرة » .

لم يعرفْ ماذا يقول لي ، وسيماء وجهي لم تساعده في شيء . كان بوسعي أن أراه يكافح للعثور على خارطة في مكان ما . كان من العسير عليه أن يطلب مني واحدة . « أوه ، طيب ، إذاً ، أنا على يقين من أنها لا تريدك أن تختلط بأصدقاء السوء ، يا ليو ، أنا آسف لأنني مضطر لقول ذلك ، غير أن كثيراً من أصدقائك سيئون بينما أنت غلام حسن الأخلاق ، حسن المظهر ، ثلة سيئة جداً . ولهذا السبب حصل الخطأ . نحن لا نبحث عنك .. لم نكن نتوقع أن نعثر على شخص ملون في ذلك المنزل . بالطبع لا . بوسعك أن تفهمني . لا . كانت لدينا بعض الشكاوى حول .. أوه ، بعض التجمعات ، ومن صلب مهمتنا أن نتحقق من صحة هذه الشكاوى ونحن نؤدي واجبنا . أنا كبير السن وبعمر والدك يا ليو ، فدعني أسدي إليك نصيحة » . سكت لحظات ، ثم قال : « التمثيل حطم قلب أخي ، هذه حقيقة ، قال لي » – وخزني بسبابته فالتفتّ وخزته : عرفت أنه أراد من وخزته أن تؤلمني – « تمنيت لو أني بقيت مع جماعتي . هذا ما قاله » . اعتدل في جلسته كالمنتصر . « هل فهمت ما أعنيه يا ليو ؟ تبقى مع جماعتك وتكون بمنأى عن المشاكل ، نحن ليس لنا أية مشكلة مع الملونين في هذه المدينة .. إنهم أفضل نخبة من الملونين ممن تتمنى اللقاء بهم ، هم يعملون بجد ومثابرة ويدخرون أموالهم ، ويذهبون إلى الكنيسة . غير أن هذه الجماعة التي تبدد وقتك معها ، يا ليو ، بحفلاتها الهمجية والنساء الخليعات اللاتي يدخن الماريجوانا .. هؤلاء سيجلبون إليك الغم يا ليو . فهمت ما قلته لك ولدي ، هذه الكلمة زلت من لساني قبل أن أفكر بها ، لكنني أعنيها ، هذه هي الطريقة التي أشعر بها ، وأنا آمل أن لا تذهب بعد الآن إلى مثل هذه الحفلات ، يا ليو ، أود أن تعدني أن لا تواصل إتلاف صحتك وأخلاقك .. تدخين كل تلك الماريجوانا والجري مع تلك النساء البيضاوات الخليعات ... » .

قمت على قدمي ، قلت : « إذا كنت خاضعاً للاعتقال فاعتقلني ، وبخلاف ذلك أرجو أن تأذن لي بالانصراف » .

نظر كل منا إلى الآخر ، لعله تحدث عن الثلة « السيئة » التي أرافقها ، لكن ربما يكون الخوف مما يحتمل أن يفعلوه هو الذي منعه من أن ينهض ويركلني في أنحاء الغرفة كالكرة ، كان الخوف واضحاً في عينيه ، في سيمائه ، في عضلة جبينه التي

تتقلص . ساورني الشك ، حين تبادلنا النظر ، في ما إذا كان بمستطاع هذا الخوف أن يسيطر عليه زمنًا طويلاً. لم يحالفني الحظ. أحسست بأن أمعائي ترتخي وتحتبس ، بسبب الرعب ، وفمي يتيبس . لكن ، على أية حال ، فارقتني كلماتي كلها . سأمشي طريقي . الصمت ، الآن ، هو أملي الوحيد . فإذا لم أقدر على فتح فمي ، فلن أتمكن من طلب المغفرة . فتح الباب . كان أحد رجال الشرطة السرية واقفًا هناك ، قال شيئًا ما . لم أسمع ما قاله ، لأنه حين فتح الباب ، سمعت صوت مادلين في الحجرة الثانية . ببساطة ، مشيت جهة الصوت . مادلين واقفة أمام المكتب برفقة صول ولولا . بدا صول ولولا ساخطين بعض الشيء . أما مادلين فقد كانت شاحبة تمامًا ، يداها وذراعاها ترتعشان . تحدق بالرجل الجالس وراء المكتب بحقد مدينة به إلى ميديا[١] .

كان الرجل يحدثها قائلاً : « الآن ، يا آنسة ، إنه مجرد خطأ ، ونحن آسفون جدا عليه . لم نزعج الولد كثيرًا وكما ترين .. » ، استدار إلي حين ظهرت « لم تلمس شعرة من رأسه الكريم . فما يزال على حاله وكأنه جاء توًا » .

قالت مادلين : « خطأ . خطأ . أنت أيها العنصري ، القذر ، يا ابن الزانية ، أنت سعيد الحظ لأنك لم تلمس شعرة من رأسه . وإلا لكنت فقدت باجك أسرع من دوران رأسك الذي يتوقف أبدًا » .

« أنا لا أحبذ لغتك هذه يا آنسة » .

قالت له : « سحقًا لك . سحقًا لك . أيها النازي اللعين » . ثم شرعت تبكي . « مادلين » قالت لولا . مشت إلى المكتب . « أيها الشاب . كلمة نصيحة . سأحاول أن أشرح الموضوع بلغة بسيطة بحيث تستطيع أن تفهمني . القوم أمامك أقوى منك . أنا شخصياً أقوى منك . يمكنني أن أحطمك بمجرد اتصال هاتفي . أنا مسئولة عن فرقتي المسرحية ، وما من شيء يمنعني من أن أؤدي هذه المسئولية . دونما مبرر على الإطلاق ، أخذت السيد برودهامر من منزله وأتيت به إلى هنا وأجبرته ، كما أجبرتنا ، على أن يخضع إلى مضايقة لا حاجة إليها . في المستقبل ينبغي لك أن تتجنب مضايقة أي فرد من فرقتي .. وبخلاف ذلك سوف تضيع مستقبلك . أنا لست امرأة تطلق

(١) ميديا : مأساة ألفها يوريبيدس ، عرضت في أثينا أول مرة عام ٤٣١ ق . م . (المترجم)

تهديدات جوفاء . اسمح لي أن أخبرك ، أنك قد سمحت لنفسك أن تعتقل غلاماً بطريق الخطأ . هيا ، ليو . ليلة سعيدة يا أصدقائي النازيين » .

« يعيش هتلر » قالت مادلين . أخذت لولا ذراعي وخرجنا .

دخلنا سيارة سان - ماركواند . كان ما يزال في الخارج عدد من الأشخاص راحوا ينظرون إلينا .

شغل صول محرك السيارة . سألنا بعدئذ : « كيف يمكنكم أن تكونوا حمقى » ؟

« نحن ؟ » قالت مادلين : « نحن ؟ ماذا فعلنا كي تنعتنا بالحماقة » ؟

أجاب صول : « أنت تعرفين نوع البشر الساكنين في هذه المدينة » .

قالت مادلين : « الساكنين في هذه المدينة . الساكنين في هذه المدينة . أتمنى أن يرتفع مستوى النهر في اللحظة التي نخرج فيها من هنا ، ويغرقهم كالجرذان . هم أشبه بالجرذان . لكن لماذا نعتنا بالحماقة » ؟ لم أرد . كنت متكئاً في مقعدي الخلفي نادراً ما أصغي . قالت لولا : « هي ليست حماقة يا صول . بل هو قليل من الطيش » .

هتفت مادلين : « ماذا تعنين يا لولا ؟ قليل من الطيش ! ترك ليو شقتي في رابعة نهار الأحد ، ومضى إلى منزله ، وجرجره رجال الشرطة إلى المخفر ، بأنه كان في شقتي . فأي هراء هذا الذي تتحدثين به » ؟

قال صول : « اعتدنا أن نعمل في هذه المدينة صيف كل عام وعلى مدى زمن طويل . يا مادلين . نحن نعرف الناس والناس يعرفوننا ولم نواجه أية مشكلة . عليك أن تدركي أن هذه مدينة صغيرة وأن الناس هنا ليسوا في غاية التعقيد .. هم ليسوا سيئين . عليك فقط أن .. تفهمي حدودهم . وبهذه الطريقة تجيدين أداء دورك المسرحي ، من خلال معرفة حدود الشخصية المسرحية . هذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكنك فيها أداء دور هيدا جابلر[1] ، على سبيل المثال .. من خلال معرفة حدود هيدا . لا أظن أن هذا أمر غير معقول » .

قالت مادلين: «أنا لست هيدا جابلر. إنما لو سنحت لي الفرصة أن أؤدي دورها، فسوف أظهرها بالتأكيد وكأنها تعيش في هذه المدينة . لكن ما ينفع هذه المدينة فعلاً

(١) هيدا جابلر : مسرحية جادة ألفها هنريك إبسن عرضت أول مرة في ميونيخ عام ١٨٩١ . (المترجم)

هما طاهيتان زنجيتان تدعيان الليدي مكبث وميديا » . فقلت ولم أكن عارفاً بالضبط لم تعين على أن أتحدث : « أنت تعنـين أنك لم تواجـهى أية مـشـكـلة إلى أن أتيت أنا . هذا ما تقصدينه » ؟

قالت لولا : « ليو . لا تكن شديد الحساسية » .

نظرت إلى لولا : « شديد الحســاسية . حسناً . لن أكون شديد الحســاسية . إذاً اسمحوا لي أن أطرح سؤالاً : هل هذا هو ما قصدته بكلامك يا صول » ؟

« لا أحسب أن ثمة سبباً يستدعي مناقشة القضية الآن » . قال صول . « أنت منزعج ومشوش التفكير . إذا صح التعبير . نحن . يا ليو . لا نلقي عليك باللائمة . لكن برنامجنا قد أفسد بالكامل وعلينا أن نعود إلى المسرح . إن كنت ترغب بالذهاب إلى المنزل فسوف أجعلك تنزل قريباً منه » .

قلت بعد لحظة : « شكراً . فلأذهب إلى المنزل » . واعتدلت في جلستي ثانية . لم أعرف ماذا كان يجول في خاطر مادلين . لم أبال بالموضوع . دهشت حين أدركت أنني غير مكترث . وخجول بعض الشيء . عرفت أنها قد خدعت وألحق بها الأذى : أرادت الوصول إلي . لكنها لم تعرف كيف، وبخاصة بحضور صول ولولا في السيارة . أخذت هذه تنهب الطريق وهي تغادر المدينة . لم يتحدث أي منا . مررنا بالمسرح . كانت الأنوار مضاءة . لافتاتنا معلقة .

قالت مادلين متلعثمة : « ربما . ربما يعجبك أن تراقب التمرينات يا ليو ؟ بخاصة ليس ثمة أحد معك في المنزل » .

لم يقلل صول من سرعة سيارته . قلت : « لا . شكراً . يا مادلين . أفضل الذهاب إلى المنزل . لن يحدث لي شيء آخر هذه الليلة » .

وهكذا توقفت السيارة أمام البيت الأبيض . بيتنا . عرفت أن أحداً لم يعد إلى المنزل بعد . لأن النور مازال مضاءً كما تركته .

ترجلتُ من السيارة : « شكراً على كفالتكما لي » قلت لصول ولولا. ثم قلت لمادلين : « من فضلك . لا تنزعجي . لا تنزعجي . إن أموراً كهذه كثيرة الحدوث » .

ارتسمت بسمة على ثغرها . مازالت الدموع بادية على وجهها . « هل تريدني أن أزورك . بعد التمرين ؟ » .

ندّ صوت من صول هو بين السعال وصوت أشبه بصوت الخنزير . متطلعاً إلى أمام .

قلت : « لا . سنراك غداً . طابت ليلتكم ، جميعاً » .

مضت السيارة مسرعة . دخلت المنزل .

جلست على الكرسي العائد لي . التقطت كتابي . راحت الكلمات تتقافز في الصفحة . لاحقتها عيناي على أمل أن تفعل أخيراً شيئاً ما من شأنه أن يستحوذ على انتباهي . سألت نفسي أين بربارة وجيري الآن ؟

رحت أقرأ : « سيد : لكن حياة كهذه لا تصلح حتى للكلاب الذين هم نحن . يا للمسيح يا صغيري ! حين نكون معاً أشعر برعد يعتمل في صدري . إذا ذهبنا معاً فلربما أستطيع مواجهة العالم ، أبصق في عينيه كما يفعل الرجل . ملعون كل من يحاول أن يكون إنساناً على هذه الأرض . وملعونان كل اثنين يعيشان معاً » . هذيانات سيد لم تعن لي شيئاً . بدت تلك السطور طنانة وفارغة ومزيفة . سألت نفسي : لم وددت يوماً أن أمثل هذا المشهد . لا أستطيع أبداً أن أتلفظ بتلك السطور . على أية حال .. هل أستطيع ؟ هل أستطيع أن أخضع نفسي لقرار صول ؟ وضعت الكتاب جانباً ، أطفأت النور . صعدت درجات السلم المؤدية إلى حجرتي . بغتة ، لم أرغب بالتحدث إلى أحد أو رؤية أحد . بقيت جالساً في العتمة . تطلعت إلى السماء . أخذت قيثاري ، داعبت أوتاره قليلاً . ثم وضعته في مكانه .

الليل ساكن . سمعت صوت السيارة قادمة بينما كانت ما تزال بعيدة . إن كانوا قد سمعوا بمغامرتي فسوف يرغبون بالتحدث عنها . لم أشأ التحدث . توقفت السيارة أمام بابنا . ثم أنيرت الأضواء في الطابق السفلي . أغلق باب السيارة بقوة . تنحيتُ عن النافذة . نادتني بربارة .

لم أستطع أن أبقى جالساً ومختبئاً في العتمة . فهؤلاء هم أصدقائي . فتحت باب غرفتي ورحت أنزل درجات السلم .

قلت : « أهلاً . أين كنتما أنتما الاثنان » ؟

قالت بربارة : « كنا في السينما . سمعنا أنك كنت في السجن » .

« سوء فهم بسيط » قلت . جلست في المدخل المسقوف .

« هل قطعوا كل تلك المسافة كي يقبضوا عليك ؟ » سأل جيري .

« أوه ، نعم . جاءوا إلى هنا » .

« لتحل عليّ اللعنة . أقسم بالله العظيم . هم يأكلون لحم الخنزير المقدد ، بينما عقولهم لا تعمل كما ينبغي . يا يسوع المسيح . أليس لهم شيء آخر يفعلونه ؟ » .

كانت نبرة صوته – ويا لدهشتي حين سمعتها – تنبئ بأنه يكاد يبكي .

سألت بربارة : « لكن ماذا كانوا يبغون ؟ لمَ جاءوا إلى هنا ؟ » .

« شاهدوا غلاماً أسود يخرج من شقة امرأة بيضاء » . أجبتها . « وكان عليهم أن يقوموا بواجبهم . وأنت تعرفين كيف يتم ذلك » .

غدت أكثر شحوباً من مادلين . زمت شفتيها . خفضت بصرها .

قالت بربارة بعد لحظة : « ليو . ألم يفعلوا لك شيئاً ؟ » .

« لا . أخافوني فقط » . نهضت على قدمي . « أهانوني . جعلوني أشعر كما لو كنت كلباً . سعوا إلى أن يحولوني إلى إنسان أسوأ منهم . تمتعوا بوقتهم وهم يفعلون ذلك . الآن هم يشعرون جميعاً أنهم أشبه بالبشر . كنت محظوظاً جداً . كانوا يخشون الإمعان في إيذائي . كانوا يخشون احتمال أن تعلن (الورشة) عن احتجاجها الشديد » . سكت لحظات وقهقهت ضاحكاً . « الآن أنا مدين بحياتي إلى صول ولولا » .

سأل جيري : « لكنهم أحسنوا معاملتك . أليس كذلك ؟ » .

هززت كتفي . لم أشأ مواصلة الحديث في الموضوع : لأنني لن أحس بالسعادة لو رأيت استياء جيري « كان سلوكهم معي حسناً » . كان علي أن أضيف قائلاً : « قال صول : إنه يظن أننا تصرفنا بحماقة » .

قالت بربارة : « نعم . أخبرنا هو بذلك » .

« هل رأيتيه ؟ » .

« نعم . اعتقدنا أنك ربما تكون هناك لأنه .. حسناً ، كنا نعرف أن مادلين عندها تمرين » .

« هل تعتقدين أنني كنت أحمق » ؟

« هل أعتقد أنا » ؟ نظرت إلى ، « يا إلهي ، ليو ، كيف تسألني سؤالاً كهذا ؟ » . هزت كتفيها : « ربما أعتقد أنك أحمق لأن مادلين لا تستحق أن تقضي معها وقتك » .

« لِمَ ؟ » .

« أوه ، أنا لا أريد أن أخوض في حديث كهذا ، هذا ليس من شأني ، كما أن هذا لا علاقة له بها . أنا أحبها بدرجة كافية . أنا أعتقد فقط أنها لا تناسبك تماماً .. لكنك تعرف أن هذا ليس سبباً يجعلني أستدعي الشرطة . وهكذا فأنت أحمق . وكذلك هم الآخرون . هذا لا علاقة له بالشرطة . يا سلام . تمنيت لو كان الموقف معي ، لجعلت مدير الشرطة يبحث له عن مهنة » . نظرت فيما حوالينا ، وأطلقت ضحكة صغيرة . « أنا أعني ما أقوله . مع ذلك أنا وريثة ثرية . لا أحب يوماً أن أكون كذلك ، لكن هذا لا يعني أنني غير مستعدة لاستخدام هذا الامتياز » . دنت مني . قبلتني بسرعة على جبيني . « ليو المسكين . أعرف أنك لا تريد الحديث عن هذه التجربة أكثر من ذلك » .

قال جيري : « فلنحتس البيرة ، بعدها سأذهب إلى الفراش . علينا أن ننهض في الصباح الباكر ، يا أولاد ، لأن ليس بحوزتنا مال » . دخل المطبخ . جلست بربارة بجنبي في المدخل المسقوف ووضعت يدها بيدي .

قالت : « قبل نهاية الصيف ذكرني كي أخبرك بأمور أخفيتها عنك أود فعلاً أن أطلعك عليها » .

« أوه ؟ مثل ماذا ؟ » .

قالت : « أوه . أسرار بنات » . صمتت لحظات . « لكنني لا أستطيع أن أخفيها عنك زمناً طويلاً جداً » .

عاد جيري حاملاً معه زجاجتين وثلاثة كئوس ، وجلس على الدرجة الواقعة أسفل منا تماماً . قلت : « حسناً ، سأكون سعيداً بسماع اعترافك في أي وقت تشائين » .

قالت : « أمل أن تكون سعيداً » .

صب جيري البيرة في الكئوس الثلاثة . « اعتراف ! أنت تعرف أنني لم أعترف منذ ما يزيد على ثلاث سنوات ؟ أتدرك ماذا يعني هذا ؟ هذا يعني أن روحي في خطر قاتل . أنا أقول لك الحقيقة » .

ناول بربارة كأساً مترعة بالبيرة ، ثم ناولني كأساً .

سألته : « كيف تشعر حين تكون روحك في خطر قاتل ؟ » .

« يا للدهشة » ضحك ضحكة عريضة وقبَّل بربارة . « يا للفظاعة » . سحبت بربارة يدها مني . أشعلنا السجائر « في كل مرة تمارس فيها الحب تفكر بالاعتراف وتحدث نفسك قائلاً . حسناً ، لن أخبر ابن الزنا ، وهذا هو كل ما في الأمر . فليتلق هو رفساته » . ضحكنا جميعاً . « أقسم بالله ، أنا أعتقد أنهم يجلسون هناك ، يهتزون هزا عنيفاً » .

« ألم تتحسر لأنك افتقدته » ؟

سألته : « ما هو ؟ الذهاب إلى الكاهن للاعتراف ؟ » .

« حسناً .. الكنيسة . كلها . أنت تعرف .. الموسيقى ، الأشياء الأخرى .. الإيمان .. أعتقد .. أنت تعرف .. الأمان .. » .

« حسناً . غالباً . ربما . حين أرى أمي . أمي تبكي بسببه . وهذا ما يجعلني أحس بالضيق وبعدها أتذكر الكاهنين اللذين ألفت أن أحبهما وبعض الأشخاص الآخرين والموسيقى و " العشاء الرباني " والإحساس الذي شعرت به .. أنت تعرف . كان ذلك شيئاً جميلاً . لكنني ، بعدها ، نظرت إلى أمي التي لم تكن امرأة سيئة جداً . بل كانت امرأة مؤمنة . أنا أعرف أن أحد الأشياء التي أثرت فيها هي الكنيسة . أنت تعرف . هي تؤمن بكل تلك التعاليم ، وقد شاهدتها تفعل كل تلك الأشياء الفظيعة لأنها جاهلة بصورة لعينة . حسناً .. أنا لا أريد أن أكون على غرارها ، هذا هو كل ما في

الأمر . أريد أن أعيش حياتي مثلما أشتهي . هي تكره اليهود وتكره الزنوج ، وأنت تعرف ، أنا لا يمكن أن أعير أهمية لكل هذه الأمور . لكنهم يؤمنون بها » .

« هل آمنت بها من قبل ؟ أعني ، هل تؤمن بـ .. يسوع والنعيم والجحيم والحساب . أعني ، كل هذه الأشياء الصغيرة » .

« أمي وأبي يؤمنان بها . وكل الناس من حولي يؤمنون بها . لذا أنا أؤمن بها ، أيضاً » .

« أنت لا تؤمن بها ، أليس كذلك ، يا ليو » ؟ سألتني بربارة ومن ثم أردفت قائلة : « بل أنت لا تذهب إلى الكنيسة » .

«لا، أبي لا يؤمن بالكنيسة. لذا ما من أحد منا يؤمن بها. وهذا شيء طبيعي» ، وقفت على قدمي . « كان يومنا هذا عسيراً . لذا فأنتما تأذنان لي إذا ما قلت لكما الآن ليلة هانئة » .

بعد لحظة رد كلاهما : « ليلة هانئة يا ليو » أخذت كأسي إلى الطابق العلوي . ظلا جالسين في المدخل المسقوف برهة . كان بوسعي أن أسمعهما يتمتمان . ثم دخلا الغرفة وأغلقا بابها . ثم ، ساد السكون . تذكرت أنني نسيت أن أسأل بربارة عن الوقت الذي ينبغي لنا أن نظهر فيه أمام صول في صباح اليوم التالي . لكنني عرفت أن أحدهما : بربارة أو جيري سيوقظني حتماً .

أمست القصة أصعب من أن تحكى . ماذا فعلت تلك الليلة ؟ متى اتخذت قراري ؟ هل اتخذت قراري في وقت سابق ؟ هل حلمت تلك الليلة ؟ أو نمت ؟ عرفت أن ملاءة السرير كانت أشبه بحبل ، ندي ، خانق . النافذة مفتوحة . في ساعة ما ، أفقت من النوم . سرت عارياً إلى النافذة ونظرت خلالها إلى ظلال الأشجار وظل المبنى . أشعلت سيجارة ، وقفت عند النافذة ، وسائلت نفسي من أكون . في الطابق الأسفل ، لم تكن بربارة وجيري نائمين . سمعتهما يدمدمان . كان صوت بربارة منبعثاً من حنجرتها أكثر من أي وقت مضى ، جيري يفتح كل صماماته . كان صوت حديثهما حزيناً ، بل حزيناً جداً . رميت سيجارتي وعدت إلى السرير ، سريري الضيق .

سمعت الباب يغلق في الطابق الأسفل ، ومن ثم سمعت باب السيارة يغلق بعنف ، وسمعت صوت السيارة وهي تنسحب مبتعدة . فتحت عيني . كان الوقت هو الصباح الباكر جداً . دسست أصابعي في شعري الكثيف . جلست . سألت نفسي : إلام تذهب السيارة في مثل هذه الساعة من الصباح . دهشت للسكون المهيمن في الأسفل . نظرت خلال النافذة . كانت سيارتنا هي التي ذهبت فعلاً . لذا عدت إلى سريري . كان الإتيان بفعل ما شيئاً عسيراً بالنسبة لي . سمعت صياح الديكة آتياً من بعيد .

حين أفقت من النوم . كانت بربارة جالسة في سريري . تحمل دلة من القهوة ، وتتأملني .

« كم مضى من الوقت وأنت جالسة هنا » ؟

« ليس وقتاً طويلاً . القهوة لم تبرد بعد .. لذا ، كما ترى » . ونهضتْ من السرير وسكبت القهوة في كوبين وضعتهما على طاولة أمام نافذتي .

أضافت الحليب والسكر وعادت إلى السرير .

« أين جيري » ؟

« لا أدري . هو يقود السيارة في مكان ما » .

تأملتها بحذر شديد . « هل جرى شيء » ؟

شرعت تذرع الحجرة جيئة وذهاباً . « أجل . أخمن أن شيئاً ما قد حصل » .

« بربارة . ما هي حكايتك هذا الصباح ؟ ماذا جرى » ؟

حصل شيء ما . ولهذا السبب كانت في حجرتي . بدأتْ أنهض من السرير . لكنني أدركت بعدها أنني عار . سحبت ملاءة السرير حول جسدي ونهضت .

« بربارة » !

« آذيت جيري . آذيته بشدة » . جاهدتْ أن تتجنب البكاء . شيء مؤذ أن أتأملها تمنعت أن تبكي . ارتشفتْ قهوتي . أشعلتْ سيجارة . دنت من السرير . أخذت السيجارة . فأشعلتْ أخرى . شرعت تذرع الحجرة جيئة وذهاباً . بين النافذة وبيني .

بين الضوء وبيني . كان الضوء يأتلق ويتلاشى . يأتلق ويتلاشى . فتاة شاحبة الوجه ، نحيفة ، ترتدي برنساً كبيراً شعرها مرفوع فوق رأسها ، ويتسدل على جبينها « خططتُ أن أفعل ذلك بطريقة مختلفة ، أو أن أفعل ذلك فيما بعد .. بل تمنيت أن لا أفعلها على الإطلاق . لكنني فعلتها الآن . ركب السيارة ومضى بعيداً . أتمنى أن يعود . على الأقل ، كي يقول وداعاً . لأنني أحبه . أيضاً . والمسيح » .

« ماذا فعلت يا بربارة » ؟

« قلت له » - توقفت عن الكلام - « قلت له : إنني أحبك حبا جمًّا » . قلت لها بخوف وأنا أجلس في السرير : « لكن جيري يعرف أنك تحبينني ! ما الذي جعلك تقولين له ذلك » ؟

« لأن » قالت - يا إلهي ، كانت متماسكة ، واقفة هناك في ضوء النهار - « ذلك شيء حقيقي » . بعدها ، ارتشفت قهوتها ، وبقيت واقفة في الضوء .

تأملت الدخان الأزرق المتصاعد من سيجارتينا .

قلت لها : « بربارة » .

لم أعرف ماذا أقول لها . فجأة ، انهارت بربارة على الأرض ، وانسكبت قهوتها ، تفتتت سيجارتها . فقفزت من السرير عارياً وأمسكت بها . تحملت الدموع الأنثوية في الماضي . الله أعلم ، آنذاك كنت في ريعان الشباب ، إلا أنني أدركت أن تلك الدموع لا علاقة لها بالابتزاز . إن كانت بربارة قادرة على الابتزاز ، فإن علاقتنا الغرامية ستكون ذات سابقة ولن تكون بمثل هذه الدرجة من القسوة . كنا وحيدين ، هي في برنس الحمام ، وأنا عار تماماً ، في ضوء النهار ، والقهوة المنسكبة على امتداد البلاط الأبيض .

« ليو . أنا آسفة . أوه . ليو . أنا آسفة » .

« انهضي . انهضي . ليس هذا وقت الاعتذار » .

سحبتها كي تتمكن من الوقوف على قدميها . أدركت أنني لم أشعر نحوها بمثل ما شعرت به نحو مادلين ، التي أعرف أنني لا أكن لها الحب . قبل ساعات قلائل ، أحسست بتقلص شديد . أحسست ، على ما أظن ، بأنني على وشك الموت . كنت أحب بربارة ، وقتها كنت أعرف ذلك ، أعرفه الآن أيضاً . لكن ماذا ينبغي لي أن أفعل لها ؟ « الحب ، الشرف والحماية » . لكن هذه الأشياء ليست ضمن إمكاناتي . ولهذا السبب ، شعرت – بمرارة وبصورة غير مقصودة تماماً – أنني بعيد عن حزنها ، وبعيد عن غرامها ، وأنني أحتفظ بكياني بعيداً عن إمكاناتي الذابلة . لا يستطيع المرء أن يبقى على هذه الأمور ، على هذه الأصداء ، التي يحتمل أنها كانت موجودة في عصر آخر ، لدى أناس آخرين : على المرء أن يحاول التعامل مع ما هو قائم الآن ، وإلا عليه أن يهلك أو يجن . ومع ذلك – فالتعامل مع ما هو قائم الآن ! من يقدر أن يفعل ذلك ؟ أنا أعرف أنني غير قادر . مع ذلك أدركت أنه ينبغي لي أن أجرب . لأن في ذلك شيئاً ما ، وقد سمعته في حزنها ، وسمعته في قلبي ، وبالرغم من حالتنا الشائنة ، التي يلزمني أن أتقبلها ، والتي لا يمكنني أن أقول لها لا . حملت بربارة إلى السير .

« ليو ، ليو ، ليو » .

« بربارة » .

أغلب الظن تلك هي الطريقة التي تحصل فيها أمور كهذه . لا أدري . عليَّ عندئذ أن أؤجل الحكم ، وقد أجلت الحكم الآن . لم يكن أمامنا خيار آخر . حقيقة لم يكن أمامنا خيار آخر ، على أن أبقيْ فتاتي ، فتاتي المتجمدة . غطيتها بجسدي ، خلعت برنسها ، غطيتها ، احتوتني ، ودخلتها . تمتعنا . الحزن ، ما الذي لا نعرفه عن الحزن ؟ لكننا ، في ذلك الصباح ، تمتعنا . مع ذلك ، لابد لي أن أعترف بأنني شعرت بتقلص في داخلي حين انتهى الأمر « حب وشرف وحماية » .

« ليو » قالت بربارة . كانت تمرر أصابعها على ذقني غير الحليق . كنت واعياً تماماً ، تقريباً ، بأسناني التي لم أنظفها بالفرشاة .

« نعم » .

« أنا أحبك » .

« أوه . حسناً . أنت تعرفين . آراؤك أفضل » .

« أعرف . لكنني لا أكترث » .

« أنا . أيضاً . لي آراء أفضل » . قلت لها بعد لحظة .

قالت : « أعرف . أنا أعرف ذلك حق المعرفة » .

أشعلت سيجارتين . وضعت واحدة بين شفتيها .

« ليو » ؟

« نعم » .

« لا تقلق علي . أنا أعرف الحساب . أنا أتقبل الظروف » .

تأملتها عن كثب « يعني أنك تعرفين أنه لا يطاق .. أي أنني لا أطاق » ؟

« لا أدري إذا كنت فعلاً كذلك .. ليس أكثر مما ظننت . على كل حال . لكنني أعرف . أنه الآن في وضع جيد . فكرت به كثيراً . هنا . أدركت أنه شيء مضحك نوعاً . أعني . أنني سعيدة الحظ لكوني ممثلة . أعني .. لم يحدث شيء قبل ذلك . وأنا أعرف هذا . وقد ساعدني ذلك . نوعاً ما . هل تعرف ما أعنيه ؟ » .

« أعتقد نعم . لست متأكداً . لكنني أعتقد نعم » .

« هذا يعني » . قالت بجاذبية طفل « إنه ينبغي لنا أن نكون عظيمين . هذا ما سنكون عليه . تلك هي الطريقة الوحيدة التي يفقد فيها أحدنا الآخر » .

« بربارة . لا ينبغي للمرء أن يقرر فقط أن يكون عظيماً » .

« بعض الناس يمكنهم أن يقرروا، أما البعض الآخر فيتوجب عليهم أن يقرروا » .

« هل تعتقدين أنني من الفئة الأولى » ؟

« أعرف أنك منها » . كفت عن الكلام . ثم أردفت قائلة : « هكذا عرفت . أنت تفهم .. أنت لا تعود لي » . ابتسمت « من الآن فصاعداً ليكن كل منا للآخر قدر استطاعتنا » .

« على مدى استطاعتنا » ، قلت وأنا أتأملها .

«أجل . على مدى استطاعتنا . لكننا لو أحسنا التصرف فسوف نمدد علاقتنا زمناً طويلاً جدا ويوسع أي منا أن يحسن حال الآخر. فهمت. أعرف. أنا فكرت بذلك» .

مشيتُ من السرير إلى النافذة : « ماذا بشأن جيري » ؟

« حسناً . أظنني كنت حاذقة جدا معه . أظن أن أيا منا لن يلحق به أذى . كان ولداً لطيفًا جدا . ويحبني حبًا جمًا . وأنا أبادله مثل هذا الحب . كنت خائفة بعض الشيء .. حسناً . وددت جزئيا ألا أكون متورطة معك . كنت أخشى أن ذلك سوف يفسد كل شيء . لأن علاقتنا كانت جيدة . كنت أخشى أن أصدمك . أعرف أنك لا تود أن تكون مصدوماً . ثم قررت . غير أن جير أمسى أكثر جدية . أدركت أنني لا أستطيع أن أتدبر الأمر على الإطلاق : لذا ظننت أنني سأوضح الأمور قدر استطاعتي » .

« ماذا كان رأيه » ؟

أجابت بعد لحظة : « حاول أن يتقبل الأمر. حاول قدر استطاعته . لكنني .. أود .. أوه . كم تمنيت أن أتركه وحيداً ! كان لطيفاً جدا معي » .

« هل سيعود » ؟

« أجل . سيعود » .

التفتُ وتطلعت إليها . « بربارة . أتعرفين ما تفعلينه الآن ؟ لا ينبغي لنا أن نعبث بحيوات الناس بهذه الطريقة » .

« أعرف . لهذا السبب حاولت أن أوضح الأمر . قبل أن أؤذيه كثيراً . قبل أن يأخذ الأمر مدى أبعد » . رمت سيجارتها . « قبل أن أحكي لنفسي أكاذيب كثيرة جدا . وقبل .. قبل أن تنأى عني كثيراً » .

« لكنك لست في حال أفضل الآن . أليس كذلك ؟ أقصد . معي . أنا أدور مثل الريشة يا بربارة . لا أدري أين أرسو . وعلى أي أرض سأهبط » .

قالت بربارة : « أنا في حال أفضل : لأنني ، على الأقل ، لا أكذب الآن » .

جلست على السرير ، وقلت لها : « بربارة ، ثمة أشياء كثيرة ربما لا تعرفينها عني » .

فأجابت : « ربما ، لكنني لا أعتقد هذا » .

ضحكتُ : « حسناً ، ثمة أشياء كثيرة لا أعرفها عن نفسي » . تأملتها . « هل تعلمين أنني أمارس الجنس مع الذكور والإناث » ؟

« نعم ، على الأقل إنني توقعته » .

« لِمَ ؟ هل هذا شيء ظاهر في شخصيتي » ؟

ضحكتْ : « لا أدري ، أعتقد أنه ظاهر عند بعض الناس ، يبدو لي هذا شيئاً منطقياً » . ضحكتْ من جديد . « شيء طبيعي » . صمتتْ . « أنت في غاية اللطف والأدب . الواقع أني أسائل نفسي دوماً ما إذا لديك علاقة جنسية مع شارلي » ؟

« شارلي ؟ لا » .

« أعتقد أنه يطلب منك » .

« ألا يزعجك هذا » ؟

نظرت إلي . « لِمَ يزعجني ذلك يا ليو ؟ أنا لست عضواً من أعضاء جسدك ، لا أقدر أن أعيش حياتك. أنا فقط أريد أن أقاسمك حياتك ». جلست وتلفعت ببرنسها . « على أية حال .. ما هو الاختلاف إذا ما اكترثت بالأمر ؟ لن يفرق شيء . هذا فقط يزعزع ثقتك بي .. أنا مسرورة لأنك تدرك أنك ثنائي الجنس . ثمة رجال كثيرون لا يعرفون أنهم على غرارك » .

« كيف عرفت ذلك » ؟

فقالت : « إن عشب كنتوكي الأزرق وفير كي نكتشف حقائق الحياة . خاصة إذا كنا أنا وأنت أو أيا من الناس حولنا ليس أمامنا خيار آخر . حين أحضر الحفلات ،

اعتمدت أن أظهـر كأنني جين أوسـتن[١] . ضحكت من جديد ، عانقتني وقبلتني «الواقع ، فكرت بأن أكون كاتبة قبل أن أفكر بأن أكون ممثلة» . ثم حدقت بي بإمعان . « طيب . أتمنى أن تحب أن تكون لك أخت .. أخت بيضاء ، تمارس الجنس مع القربى مما لا يسمح به الشرع . ألا يبدو هذا جزءاً من الحلم الأمريكي » ؟

« حسناً – مثلما خاطب آدم ربه ، حين بدأت مثل هذه الأشياء – أعتقد أنني سأفهم مغزاها . حسناً » . وضعت رأسي على نهدها . « لكنني خائف قليلاً » .

احتوتني . « لكن ما هو هذا الشيء الذي يخافه المرء » ؟

« إنني أتساءل . لا أدري . إنها مجرد .. أشياء كثيرة جدا وقعت لي .. » .

« لكن ليست كلها سيئة » ؟

« أوه . لا . لا أعني ذلك . لست مجنونة إلى هذا الحد » . كانت تداعب خصلات شعري . وتفتله وهو الذي كان مفتلاً ، ثم تسحبه – إذا صح القول – باستقامة ، وتفتله من جديد . « الأشياء الجيدة والسيئة مشتبكة ببعضها . أعني أنه لشيء سيئ أن تكون ظمآناً لكنه شيء حسن أن تشرب .. بالطبع ، حين تكون ظمآناً جدا تشرب أي شيء » . سكتت قليلاً . « هل فهمت ما أعنيه » ؟

قالت ببطء : « أعتقد أنه شيء سيئ جدا . حين يصعد طعم ما شربته إلى فمك ويملؤه من جديد » .

قلت : « نعم . إنه لشيء سيئ » .

« هل حصل لك ذلك » ؟

« أجل . حصل لي » .

(١) جين أوستن (١٧٧٥ – ١٨١٧) : روائية إنجليزية . من رواياتها الشهيرة : «كبرياء وهوى» ، و «إيما» . (المترجم)

ظلت صامتة زمناً طويلاً . بدأت أقلق بشأن عودة جيري إلينا . كنا مسالمين . لعلنا لن نكون مسالمين بهذه الطريقة مدة طويلة في المستقبل . ولا تراودنا أدنى رغبة بأن نحطم هذا السلم .

قالت بربارة : « في اعتقادي أن البشر اخترعوا الآلهة والقديسين والشهداء وما شاكل .. حسناً ، أحد أسباب ذلك ، هو أن يمنعوا أنفسهم من أن يشربوا .. حسناً .. الكثير مما يقدم لهم من المشروبات . يبدو أن ذلك لم ينفع كثيراً . إنهم قد سمموا أنفسهم لكن لم يصبهم الغثيان .. أنا على يقين أن هذا هو أحد الأسباب » . لم يعد بوسعي رؤية وجهها ، لكنني أحسست بذقنها يتحرك إلى الأعلى والأسفل كمن يتخذ قراراً مثيراً للسخرية . ثم استمرت تقول : « فكرت في ذلك ، فهمت ، البشر بحاجة إلى وسيلة تؤنبهم » .

قلت : « تؤنبهم ؟ أنا » اعتدلت في جلستي قليلاً : « لقد تعرضت إلى التأنيب ، وقد كنت موضع احتقار . هل كنت بحاجة إلى ذلك » ؟

« لم أقصد ذلك . أعني أن الآلهة والقديسين والشهداء لا ينفعونني فتيلاً ، لا ينفعونني قط . على أنني لا أريد أن أكون شريرة . البشر يلزمهم أن يجدوا طرقاً كيلا يسمحوا لأنفسهم أن يغدوا أشراراً » .

« ما هي هذه الطريقة » ؟

فقالت بربارة: «حسناً، بالنسبة لي، هذه الطريقة هي.. أنت لا أريدك أن تخجل مني» .

جلست ونظرت إليها .

قالت : « أتمنى ألا تريدني أن أخجل منك . أتمنى أن أكون طريقة لك » . تفرست في وجهي ، ابتسمت : « أعتقد أنك تظنني كافرة . أو لعلك تظنني مجنونة » .

« لا . لا . أنا مفتون بك فقط . أحاول أن أتعقبك » .

« حسناً . اسمع .. سوف تفهم أنني فكرت في هذا الموضوع . لم أفكر في أي شيء بجدية تامة طوال حياتي . اسمع . أعرف أن هذا الموقف لا يطاق . عرفت ، بشكل أو بآخر ، بأنني إنسانة لا تطاق . كل الذين ترعرت معهم يعتقدون هذا . وكل الناس الذين يعتقدون هذا لا يجرءون على الاعتراف به . أنا لا أبالي بمثل هؤلاء الناس . الشيء الذي يهمني هو ما إذا كنت أعرف ما أفعله أم لا . أنت أسود أما أنا فبيضاء .

الآن . لا يعني هذا شيئًا البتة . الواقع ، مع ذلك إنه يعني كل شيء . كلانا في مقتبل العمر . أنت معدم ، أما أنا فلست معدمة . أنا ثرية جدا . ربما لا أستخدم ثروتي الآن ، لكنني أعرف أنني قادرة على المطالبة بها . هم على يقين من أنني حين أثوب إلى رشدي سأذهب إلى البيت . كل ما هناك عائد لي . على أية حال ، كل ما هناك سيرحل إلى جوار ربه ذات يوم » . ارتعشت قليلاً . سكتت هنيهة . ونظرت ، عبر نافذتي ، إلى الجبل الثاني . « لو كنا أناسًا مختلفين . موفوري الحظ ، فلربما نضرب الحاجز الأول و التفرقة بين السود والبيض . لو لم تكن ما نحن عليه سيكون بوسعنا على الدوام أن نغادر هذا البلد غير الودي ونذهب إلى بلد آخر . لكننا باقون على هذه الحال . حين فكرت في الموضوع عرفت أننا لا نستطيع أن نضرب الاثنين معًا . لا أظنك ستبالي كثيراً لو كانت زوجتك بيضاء البشرة .. فما بالك لو كانت بيضاء وثرية ! سيكون ذلك أمراً رهيبًا . عندها لن يحب أحدنا الآخر . والأنكى من ذلك ... » توقفت عن الكلام . « هل تشعل لي سيجارة ، من فضلك ؟ » .

« أكملي يا أميرة » . أشعلت سيجارتين . ناولتها واحدة . نفخت الدخان في وجهي ، وابتسمت .

« والأنكى من ذلك .. حسنًا ، انظر كيف أصبحت حبلى . أنت فاكهة محرمة . سنتحدث عن هذا فيما بعد . لكن صدقني » – قهقهت . كان صوتها كئيباً – « الفتاة الجنوبية ما إن تأتيها دورتها الشهرية الأولى حتى تكون لديها مشكلة . الجميع يقولون لك إن الرجل الأسود الهرم الذي يجز العشب ويجمع الأوراق ويقطع الحطب بالفأس ويعتني بالنيران.. كما تعرف ، حسنًا ، كان عجوزاً ولطيفاً معك . من الطبيعي ، أنت لا تعرف من هو أفضل منه ، وتحب كل الذين يحبهم هو ، ومن الطبيعي ، أن تحب ابنه . أو تتمنى أن تحب ابنه . الابن يشبه الرجل العجوز ، والده . رائحته كرائحة أبيه . لطيف كوالده . هو في عمرك تقريبًا . لكن ثمة عيبًا في الولد . ثمة عيب فيه ، فأنت لا تستطيع أن تكون صديقًا لابن رجل عجوز لطيف . هو ليس لطيفًا بدرجة والده ، وهو لا يشبه الرجال الآخرين على الإطلاق . لا . إنه مغتصب . ليس مغتصباً فحسب ، بل هو مغتصب النساء البيضاوات فقط . ليس هذا فقط . بل له شيء في سرواله الداخلي ضخم وأسود وصلب دومًا ويغيرك إلى الأبد إذا ما حدث أن مسك . لن تبقى

أبيض بعد تلك اللمسة أبداً . ستصبح ملكاً له . حسناً . يتمنى كل إنسان أن يتغير . وبخاصة إذا لم تكن محبوباً . أما إذا كنت أشبه بالحمار الوحشي المخطط . فإن هذا يعني أنه ربما يحبك أحدهم . حسناً . سأبدو شبيهة بالحمار الوحشي . وبوسعك أن تغدو أبيض . فلديك خصية » . ابتسمت وهدأت . « على أية حال .. إنني رأيتك بهذه الطريقة أول مرة . بل إنني فكرت . يا إلهي . لعل هذا هو سبب مغادرتي بيت أسرتي . من أجل الاكتشاف . على أنني لم أعتقد أنه خير لي أن أجربك . عرفت أنك ستجعلني أدفع مبلغاً لقاء ذلك . ومن هنا بدأت أعتقد أنه ينبغي لك ألا تجرب أحداً سواي . لذا حاولت أن أكون صديقتك و .. ها نحن الآن » .

قلت لها : « دعيني أقبلك كأخ لك » . وقبلتها في جبينها ثم قبلتني بربارة . في الأول كأخت لي . ومن ثم قبلتني في فمي . ثم انبطحنا معاً . برهة .

سألتها : « متى يتعين علينا أن نكون عند بيت صول » ؟

فأجابت بوقار : « نعم . حري بي أن أنزل إلى الأسفل وأرتدي ثيابي » . جلست . وضعت قدميها على البلاط . لم تكن تنتعل خفا . « علينا أن نصل بيت صول عند العاشرة . لابد أن الوقت الآن حوالي التاسعة » .

« كيف سنصل إلى هناك » ؟

حدقت بي : « أخشى أننا سنضطر للذهاب مشياً على الأقدام » .

قهقهت ضاحكاً . سحبتها نحوي ووضعت ركبتي في عجيزتها : « حسناً . اذهبي وارتدي ثيابك . سأستعجل » .

مضت إلى الباب . « في اعتقادي أن جيري يجز العشب الآن في موضع ما » . وقفت عند الباب . كأنها تكره مغادرة الحجرة . «هل لي من فضلك بسيجارة أخرى » ؟

أشعلت سيجارة واحدة وأخذتها إلى بربارة .

« شكراً . سأستعجل . هل تشعر أنك مستعد للاستعراض أمام صول » ؟

« لا . لكن . على حد تعبيرك . علينا أن نكون عظيمين » .

ابتسمت . نزلت درجات السلم .

أصبح الوقت التاسعة إلا ربعًا . لم يظهر جيري بعد . الآن ، نحن نتمشى في الطريق المؤدية إلى المدينة . بربارة ترتدي فستانًا صيفيًا خفيفًا ، بني اللون مفتوح أسفل عظمي كتفيها من الخلف ، وتنورة واسعة - من أجل اللحظة التي تظهر بها في المشهد حين ترقص أمامي على أصابع قدمها . سرحت شعرها بحيث ينسدل على كتفيها ؛ أظنها كانت تتشبه بالبروليتاريا الرثه مع أنني شبهتها بـ «أليس في بلاد العجائب»[1] ، كانت تلبس حذاءين مسطحين ، من أجل الطريق ومن أجل المشهد المسرحي . سرنا يدًا بيد . الطريق طويل ، خال من المارة ، وليس ثمة شيء فيه ، لذا حثثنا الخطى . ضحكنا كثيراً ، دون سبب معين . التقطتُ زهرة حمراء ، وضعتها في شعر بربارة . الشمس ساطعة ، سيكون نهارنا حاراً . الطريق يابس ومغبر . حين وصلنا الجرين بارن تكلمنا بالإيماءات كي نكون حذرين . في الواقع ، ولم يعد أحدنا يمسك بكف الآخر ، وضعت بربارة زهرتها بين أسنانها . خلعت قميصي ووضعته فوق رأسي ، سرت وقوراً ، مرهفًا ، فخوراً ، خلفها . لكن ، لم يكن ثمة أحد ليشهد عيد الظهور[2] هذا ، سرنا معًا ثانية يدًا بيد .

على أننا ، حين اقتربنا من المدينة ، ورأينا اللافتات الفخورة التي تعلن عن المدينة ، سمعنا صوت قطار ، سمعنا خرير النهر ، وشاهدنا حافلة الطعام ، التي وقفت قليلاً من تلقاء نفسها ، وفعلنا ما توجب علينا ، أحسسنا بالرائحة البشرية للمدينة تهرع مسرعة لملاقاتنا ، انتظرنا العيون ، انتظرنا الصمت ، انتظرنا ما لم نعرفه بالضبط . فجأة ، عرفنا ، أنه شيء مشرق وحيوي لكلينا ، أن نظهر في المدينة بدون جيري . لم يحصل هذا قبلاً . لم نفكر بالأمر بتلك الطريقة ، فقد كان جيري ، على الأقل فيما يتعلق بهذه الفتاة البيضاء وهذه المدينة البيضاء ، دليلاً على عقمي . أما الآن ؛ فبربارة تعيد الزهرة الحمراء إلى شعرها ؛ لبست قميصي ، إن جذور العشب الأمريكي تنتظرنا ، تتوق إلينا توقًا شديداً ، كل الناس البيض الخيرين ، خلف هذا التل الصغير وهذا الجسر الصغير الذي يمتد فوق جدول ضيق يتلهفون إلينا . أدركت فجأة ، حين كنا نمشي على الجسر ، أن السيارة التي يقودها جيري - لا أدري أين - هي ليست

(١) رواية من تأليف الكاتب الإنجليزي لويس كارول .

(٢) عيد الظهور : عيد الغطاس في العقيدة المسيحية . (المترجم)

ملكًا له وليست ملكًا لي . هي ملك للورشة . على أية حال . من الناحية العملية . إن جيري يقود الآن سيارة مسروقة . كانت السيارة بذمتي . من المؤكد . لي أشغال كثيرة . عصر هذا اليوم . سيكون هذا المساء العرض الافتتاحي لمسرحية « الأسلحة والإنسان » . نظرت . حين كنا نجتاز الجسر . لأتأكد من وقوف السيارة أمام حافلة الطعام . لكنها لم تكن هناك . لم أجد ثمة سبب يدعوني لإخبار بربارة بذلك . سوف تظهر القضية في وقت قريب جداً . كنت أحمل كتابينا . وسألت نفسي . كيف يمكن أن نستخدم الكتب كأسلحة . ذلك أننا . الآن . نركز انتباهنا على كيفية السير بلوكات قليلة عبر المدينة غير الودية . الخشنة . المكتظة بالسكان .

ليس ذلك بالأمر اليسير . إن حضور الإنسان هو المحرض . على المرء أن يفعل كل ما في وسعه من أجل ألا يزداد هذا التحريض . لكن ما إن يصبح المرء محرضاً لن يتبقى من طاقته شيء يذكر . لا تقتصر المسألة على السير إلى أمام . وتصويب النظرات إلى الأمام . لا . ينبغي أن تكون عيون الإنسان في كل مكان في الوقت نفسه . دون أن تبدو كذلك . دون أن يبدو عليها أنها تتحرك . على المرء أن يتأهب للصخرة . للقبضة . الحركة المفاجئة . على المرء أن يرى كل الوجوه . مع ذلك يجب ألا تجعل عين إنسان آخر تنتبه إلينا . يلزم المرء أن يتحرك بخفة . ولكن ليس بسرعة : على المرء ألا يمنح الحشد أي ثغرة . إما بأن يتظاهر بأنه جد فخور أو جد متواضع . كل هذه الحشود سريعة الغضب . وهي كذلك على الدوام . حيواتهم المغمورة . غير المسنودة هي التي وحدتهم . وفي هذه الظروف فقط يمكنهم أن يتوحدوا . يأسهم الذي لا مثيل له هو الذي يقلقهم . هذه الحيوات مثل الخرق البالية في مرحاض منزل عتيق جداً . إن همساً بسيطاً يحولهم إلى نيران مشتعلة . كل هذه الحشود . تحتوي ، وستبقى هكذا إلى الأبد . على رجل واحد وامرأة واحدة . لهذه المرة فقط . يأخذان على عاتقهما أن يقذفا الحجر . أن يقفزا فوق الحاجز . أن يهيئا اللعاب ويبصقاه . أن يقبضا على الحنجرة - لهذه المرة فقط . دون أن يفعلا ذلك من قبل . دون أن يفعلا ذلك ثانية - هما يمثلان اليأس الإجمالي للحشد . الإرادة الكلية له . ثم تشب النار . ولن تنطفئ تلقائياً ما لم يذهب إنسان آخر .

من اليسير أن يجتاز المرء محنة كهذه وحيداً . بينما يكون ذلك عسيراً جداً لاثنين . بخاصة إذا كان كل منهما مكترثاً بالآخر . بخاصة إذا كان أحدهما ذكراً

والآخر أنثى . جسد كل إنسان له أمام وخلف ، له يمين ويسار . لحسن الحظ ، بوسع المرء أن يستخدم جسده بطريقة ما كي يمنع تدميره . لكن في حالة الاثنين ، تكون استجابات المرء معطلة ، إذ أنه يحاول أن يحسب حساب الخطر من زوايا عدة ، ويجرب أيضًا تخاطرًا عقليًا منوسًا[1] . الناس كانوا صامتين . فكـرت مع نفسي وهم ليسوا كثيرين . اثنان أو ثلاثة أشخاص خرجوا من حافلة المطعم ، وقفوا ، ينظرون شزرًا : ثلاثة رجال ، ليسوا يافعين ، رأيتهم فيما مضى . تحركوا كي يسمحوا لنا أن نكون في المشهد ، ضحكوا فيما بينهم . ثم انضم إليهم رجل آخر ، وراحوا يسيرون وراءنا ، لكن بمسافة معقولة . خرج رجلان وامرأة من منزل على اليسار ، رجل آخر وقف خلفهما في المدخل المسقوف . ثم ، إلى اليمين في بيت واحد ، ثم في بيت آخر ، خرجوا ووقفوا فوق مرجتهم . يميني هو الجهة الثانية من الشارع ، يساري هو يسار بربارة . إلى يساري ، امرأة عجوز هرعت مسرعة إلى بوابتها ، وجهها غاضب . كانت تتطلع في اتجاهنا ، كنا نقترب منها . انضم إليها شاب ، ثم شابة ، ثم طفل . كانوا أقرب إلى بربارة مني . توقفت سيارة في الناحية التي أسير فيها من الشارع ، فيها غلام صغير . صاح الغلام : « أيها الزنجي الحقير » - كان صوته شجيًا - « أنت رجل ميت . سوف نقبض عليك . وأنت أيضًا أيتها البغي البيضاء » . المرأة العجوز ، الشابة ، الشاب ، الطفل ، كلهم دنوا منا . لم أجرؤ على وضع يدي على كتف بربارة . همست لها : « اقتربي مني » . سرت قريبًا من حافة الرصيف . تحركت معي . ما إن مررنا بالمرأة العجوز حتى هتفت : « أنت أيتها الفاجرة ! أنت أيها الزنجي الحقير العاشق ! أنت أيتها المومس المنحطة ، الرخيصة ، المسكينة ، البيضاء ! » علا هتاف كبير ، ساخر وراءنا . لم أجرؤ على الإمساك بيد بربارة أو حتى التحديق بوجهها . ثلاثة رجال بيض أقبلوا نحونا ، من جهة المشي الذي أسير فيه . ذهلت كثيرًا حين أدركت أننا ، نحن الاثنين ، بربارة وأنا ، ليس لنا تجربة ، ولم نفكر بمسألة السير معًا ، في هذا الصباح ، إلا في وقت متأخر ، إلى أن أصبحنا نتمشى فوق الجسر . وحتى آنذاك لم نفكر بذلك . شتمت جيري لأنه أخذ السيارة ، شتمت بربارة بسبب حماقتها الرومانسية - انظري ماذا يجري لنا ، انظري ! - وشتمت نفسي . الشبان الثلاثة

(١) التخاطر : التحاسس عن بعد . (المترجم)

كانوا يقتربون منا . ما إن مررنا بهم حتى كان علينا أن ننعطف يميناً إلى شارع تحفه الأشجار من الجانبين ، وسط هذا الشارع ، يساراً ، كان الطريق الخاص المؤدي إلى دار سان - ماركولند . كان الطريق الخاص شديد الانحدار . كان مختفياً بعض الشيء - لعل هذا أمر حسن أو سيئ . حملت الكتابين . لن أكون قادراً على أن أفيد منهما كثيراً ، ولن تفيد منهما بربارة شيئاً على الإطلاق . تمنيت أن يكون لديها الإحساس بالهرب . « الإحساس بالهرب » ، الهرب ، دوماً ، شيء خطأ ، ما لم تستطع أن تهرب فعلاً ، ومهما يكن من أمر ، لا يمكن اعتباره هرباً في حالتنا هذه . يحلقت في وجه الجرو ، العينين المنقطتين ، الشعر المنسدل المرتب ، الأنف الأفطس ، الأسنان المعوجة ، أصحابه إلى يساري ، جنباً إلى جنب مع بربارة . « أنا أريد من صديقتك أن تضاجعني وتضاجع أصحابي . هل تأخذ أجوراً عالية ؟ أم أنها تضاجع السود ذوي الأعضاء الضخمة فقط » ؟ كان أصحابه يهمسون لبربارة . تابعت سيري لمست بربارة الزهرة الموضوعة في شعرها : عرفت أنها تمنت لو كانت وردة ، عندئذ كانت ستخدش وجوههم بأشواكها . مررنا بهم قهقه الشبان الثلاثة ، وخيل إلي أن الشارع يتأرجح : شكراً لك يا يسوع . إنهم مجرد أطفال وأن البذاءة الجسورة هي كل ما بدر منهم . تحملنا المضايقات وعبرنا الشارع . مشينا في ظلال الأشجار ، بخطوات متسقة ، مثلما يمشي الجنود . انعطفنا يساراً ، ورحنا نغذ الخطى عبر الطريق الخاص . لم يتعقبونا ، لكنهم ظلوا يهتفون : « يسقط الزنوج الحقراء ! يسقط اليهود ! » .

كانت الشمس حارة في الطريق الخاص . لم نتكلم حتى وصلنا الأرض المستوية تقريباً في القمة . كنا نسير نحو المنزل . بعدها ، نظرت إلى بربارة . نظرت إليها : كانت تنضح عرقاً ، كانت شاحبة . عيناها مغرورقتان بالدمع . فاضت عيناها بالدمع وراح يسيل على وجهها . مسحت عبراتها براحتي .

« أخت بربارة ، أخت بربارة » .

حاولت الابتسام . لم تكن معها حقيبة يد . لذا لم يكن بحوزتها منديل . ناولتها منديلي .

« منديلي متسخ . امخطي فيه » .

مخطت في منديلي المتسخ . وأعادته لي .

« أخ ليو » .

« يمكنك أن تذهبي مباشرة إلى الحمام . لن يلاحظ صول شيئاً البتة » .

قالت : « لا . أنا متيقنة أنه سيلاحظ » .

سرنا ببطء شديد نحو المنزل ، مثل طفلين يكرهان الذهاب إلى المنزل . قلت لها بغتة : « لنتحاش التحدث في الأمر الآن ، لنتحاش التحدث فيه إلى الأبد » .

« حسناً ، سنتحدث عنه ذات يوم . في اعتقادى أنه يلزمنا أن نفعل ذلك . لكن ليس الآن » .

كنا نرتعب من دخول ذلك المنزل . عرفنا أنه يتوجب علينا دخول المنزل ، لكننا ارتعبنا .

« أين جيرى ؟ اللعنة . يعرف هو أننى أحتاج السيارة . أين ذهب بحق الجحيم » ؟

« سيعود » .

« سيعود، لكن متى؟ عندى أشغال كثيرة أريد إنجازها عصراً ، فور انتهاء هذا .. هذا الدرس ! لماذا تصرف بمثل هذه الصبيانية النزقة ؟ ماذا سأقول لصول حين يسألنى عن السيارة ؟ تبا . هل تعرفين أن جيرى يقود سيارة مسروقة ؟ فليس بحوزته أوراق رسمية تخص قيادة تلك السيارة » .

« ولا حتى أنت . مع أنك تقودها طوال الوقت » .

« من المفروض بى أن أقودها . الجميع يعرفون أنها سيارة الورشة . كما أننى أقودها داخل المدينة فقط » . أصبحنا عند باب المنزل ، وضعت إصبعى على زر الجرس . « تباً . أتمنى فقط أن يزداد بعض الناس حكمة . هذا هو جل ما أتمناه » . أقبلت الخادمة الزنجية إلى الباب . بدت وكأنها ستسمح لنا بالدخول إلى صلاة جنائزية فى كنيسة . وضعت أصابعها على شفتيها ودخلنا . أخذت بربارة كتابها منى وصعدت درجات السلم .

أنا والخادمة رأى كل منا الآخر من قبل ، لكننا فى الواقع لم نحب أحدنا الآخر بشكل خاص ، من المؤكد أننا لا نحب أحدنا الآخر الآن . أومأت لى بالتوجه إلى غرفة المعيشة ، لذا ذهبت إلى هناك ، وجلست على كرسى من كراسى المعسكرات ، من الطراز القديم .

لصول غرفة معيشة واسعة . أخمن أنها تأخذ كل مساحة الطابق الأرضى من منزله ، فى أحد طرفيها فجوة مرتفعة ، عديمة الستائر ، يمثل فيها الطلبة أو يكتشفون فيها مواهبهم ، عادة ، وتقام الاحتفالات ، فى العروض المسرحية - حيث لا تحتاج الاحتفالات إلى مرتفع . صول يجلس وحيداً وسط هذه الحجرة الواسعة ، عالية السقف ، الطلبة يجلسون حوله ووراءه . لم أتأمل من قبل قاعة دراسة ، مع ذلك ، كنت محبا للاستطلاع بصورة عميقة . مهما يكن من أمر ، كنت متلهفًا لمعرفة ما سيحصل لى حين أجد نفسى فى تلك الفجوة عديمة الستائر . سلمنى أحدهم برنامجاً مستنسخًا فرأيت منه أن بربارة كنك وليو برودهامر يمثلان مشهداً من مسرحية كليفورد أوديتس الموسومة « فى انتظار ليفتى » . خلال الصباح تقدم ثلاثة مشاهد . سنمثل أنا وبربارة المشهد الثالث أى الأخير .

يحتل الفجوة الآن شاب داكن البشرة ، ذو رأس ضخم ، وبطن كبيرة ومؤخرة كبيرة أيضًا . كان يلبس خفين ، ولباسًا مهلهل النسيج ، لفت انتباهى حالاً ، كان ينحنى إلى أمام ، نحونا ، بألم شديد . بسبب الألم الشديد تعذر عليه الكلام ولم يستطع أن يفعل أى شىء بذراعيه اللتين كانتا متدليتين إلى جانبيه ، مثل جناحين مكسورين من الخشب الرقائقى[1] . كان يتعثر بيأس مما جعلنى أعتقد أنه فقد بصره، أما خُفَّاه فقد ذكرانى بـ (أوديب) ، ولأننى لم أستطع سماع صوته - لذا - لم أكن متيقنًا .

« لا تلطفوا » قال ، وقوم جذعه ووقف باستقامة ، فى الوقت نفسه بذل قصارى جهده من أجل أن يفعل شيئًا ما بتينك الذراعين . « شيئًا » وتوقف عن الكلام ، نظر إلينا جميعًا برهة من الوقت . « ولا » أضاف بسرعة وكأنه خطر بباله فجأة « تونوا شيئًا بضغينة » . أفلح هو الآن فى أن يجعل ذراعيه . « رجل ليس حاضر الريبة ، ولكنه» -

(١) الخشب الرقائقى : خشب مصنوع من طبقات رقيقة مغراة . (المترجم)

الآن بدأ يخطو - «إذا أثيره» - ومن جديد ركز بصره علينا - «وقع في أشد التخبط» . هز رأسه الكبير . « رجل رمى عنه بيده » . رفع رأسه وعلت نبرة صوته . صعد صوته إلى السماء، أو إلينا « كهندي غبي جاهل ، لؤلؤة أثمن من عشيرته كلها » ! ذراعاه الآن تطوقان خصره، رأسه منكس ، وسكت برهة . لم يتحرك أحد قط . بضمنهم أنا . جر نفسه ، أو - بالأحرى - جعل ذراعيه تتحركان ثانية ، وواجهنا . جاءت بربارة وجلست جنبي . بدت على ما يرام . سلمتها البرنامج . كان ذلك دور « عطيل » ومشهدنا يليه .

« رجل » . قال ، إحدى كفيه تعانق ذقنه ، والأخرى عند خصره « إذا انفعل درت عينه ، وإن لم يكن الذرف من دأبها ، دموعاً سراعاً كما تدر أشجار العرب صمغها الشافي . هذا دونوه ! » وقال ، ذراعاه الآن ممتدتان إلينا ، « وقولوا أيضاً » - قلت الحدة ، شرع يمشي ثانية - « إنني ذات مرة في حلب ، حيث هوى تركي شرير معمم على بندقي بالضرب وأهان الدولة » - توقف عن الكلام وركز بصره فينا ثانية - « أنا » تحرك نحونا الآن ، بقامته المديدة ، يد على خاصرته واليد الأخرى ممتدة نحونا ، « أنا أمسكت بالكلب من عنقه » . اليد ممتدة نحونا ضمت أصابعها بقسوة «الكلب المختون !» - حملق فينا مغضباً ، ثم سكت برهة ، نظر إلينا جميعاً ، جميعاً - « و .. » اليد التي قبضت على العنق ارتفعت في الهواء ، أما يده التي كان يضعها على خصره فقد أبرزت خنجراً. كلا اليدين الآن تمسكان بالخنجر - «ضربته .. هكذا !»[1] دخل الخنجر الأحشاء . اختنق الشاب داكن البشرة برهة - برهة طويلة - لم يقدر أن يرفع يديه عن الخنجر . في الخاتمة هوى ، يداه مدفونتان تحت جسده ، وظهره أعلى من مستوى رأسه بعض الشيء . صفق كل من في قاعة الدرس استحساناً . هنالك حوالي اثني عشر أو خمسة عشر فرداً ، بعضهم زائرون . لم أنظر إلى بربارة ، كما لم تنظر هي إلي . نهض الشاب داكن البشرة ، أحدهم جلب له كرسياً ، وجلس هناك في الفجوة ، منتظراً .

لا أدري ماذا ينتظر . إن كان ما رأيته تمثيلاً ، حسن إذاً . فقد مشيت باضطراب في المكان الخطأ . لكنني ما كنت متأكداً . لم يشاركني أحد الحيرة التي أحسست بها

(١) اعتمدنا ترجمة الروائي والمترجم الراحل جبرا إبراهيم جبرا لمسرحية (عطيل) ، والصادرة من دار المأمون ببغداد فيما يتعلق بدور عطيل في النص أعلاه . (المترجم)

تجاه الشاب داكن البشرة . بدا الجميع شديدي الغبطة . كانت ثمة غمغمة قصيرة الأمد تنم عن حديث مرح . تنحنح صول . ومع هذا الصـــوت الذي لم يكن مترددا ، بل قاطعاً ، حل صمت .

قال صول : « سيد باركر ، أبوسعك أن تخبرنا ماذا فعلـت في هذا المشـهد .. لم فعلت ما فعلته » ؟

« حسناً » . قال الفلام . تورد خجلاً وابتسم . كان في غاية الجد . « حاولت التعبير عن حزن عطيل .. الجسدي . الحـــزن . بالنسبة لي . موطنه في معـدتي . فإذا قدرت أن أجعلك تشعر بمعاناة عطيل الجسدية . عندئذ يمكنك أن تشعر بحزنه .. حزنه الآخر .. طيب . حزنه الآخر » ابتسم . « أستاذ ليس عندي طريقة أخرى أعبر عن ذلك » .

قال صول : « في اعتقادي أن دورك كان واضحاً تماماً » . أجال بصره في أنحاء الغرفة . « هل فهمتم جميعاً ما قاله السيد باركر ؟ » .

استوعب الجميع أقواله .

« ممتاز » . واضح أن صول سجل ملاحظات خلال عرض الغلام . تطلع صول إليهم . وقال : « نحن نشعر أنك حققت تقدماً ناجحاً منذ عهدنا بك . حريتك أصبحت أكبر .. أه أكبر بكثير . خوفك من أن نرى دواخلك . إذا صح التعبير . أصبح أقل من السـابق » . علت وجه الشاب بسمة . تعبيراً عن سروره . وعلت همهمات التقدير والإطراء من الطلبة والزائرين للدور الذي مثله الشاب داكن البشرة « مع ذلك .. نشعر نحن أنه لا يناسبك تمثيل أدوار المسرحيات الكلاسيكية . نحن نثمن جرأتك في تقديم هذا المشهد . لكنها كانت . ربما . تفوق الطموح بعض الشيء . ليس ثمة شيء خطأ ، لنقل هذا . في أن يكون طموحك كبيراً وآمالك عالية جداً . نحن هنا لا نريد أن نقلل طموحاتك وأمانيك بل نريدها أن تكون أكثر دقة . آمل أنك استوعبت ما قلناه الآن ؟ » .

« نعم . أستاذ » . قال الشاب . والحق . بدا مسروراً جدا .

« حسناً . إذاً . طالما قدمت لنا ليس تفسيرك لشـخصية عطيل . بل رد فعلك تجاهها . سنحاول أن نناقش هذه الشخصية المحيرة إلى حد ما . قلت إنك أردت أن

تنقل إلينا هم وحـزن عطيل . تمنيت أن تجـعلنا نشـعـر بحـزن عطيل من خـلال ألمه الجسدى . لماذا هو كئيب يا سيد پاركر ؟ » .

أجاب پاركر : « حسنًا ، لأنه قتل زوجته ديدمونة توًا .. الفتاة الوحيدة في العالم التي يكترث بها . أعنى أنه أحبها وها هو ذا الآن أرداها قتيلة . ماتت ديدمونة . لكنه أدرك الآن أنه ارتكب خطأً فادحًا .. أعنى أنه قد خدع . دبّر له ياجو مكيدة وحمله على قتلها » . سكت ثم استطرد قائلاً : « لذا ، الآن ، عطيل وحيد .. أى أنه ، بطريقة ما ، انتحر » .

« أتحسب أن حزنه سيكون مختلفًا إذا ما عرف أن ديدمونة مذنبة فعلاً » ؟

« نعم ، أسـتـاذ ، أحـسب هذا . أعنى ، أنه سيبـقى وحـيدًا ، لكنه ، على الأقل ، سيشعـر أنه أتى فـعلاً شـريفًا .. أى أن قتله لديدمونة كان شيئًا مشـرفًا ، جديرًا بالاحترام . الآن ، يشعر عطيل أن صديقه قد خدعه » .

« ياجو - صديقه - أبيض . أما عطيل فأسود - مغربى . هل تعتقد أن ذلك يؤثر على ردود أفعال عطيل » ؟

« كيف ، أستاذ » ؟ سأل پاركر بسرعة . بدا قلقًا. نظـر إلى بسـرعة . ثم قال : « لا ، أستاذ . لا أعتقد أن ذلك سيؤثر » .

« إذًا ، عطيل يشعر بالألم بسبب الجريمة التى ارتكبها فقط ؟ » .

« أظن هذا ، أسـتـاذ . لا أظنه يفكر الآن بياجو على الإطلاق .. على أية حـال ، كانت غلطة منه أن يصدق ادعاءات ياجو » .

فقال صول : « لكننا عادة نصدق أقوال أصدقائنا » ؟

قال پاركر : « أنفعل ذلك حقًا ؟ أنا لا أصدقهم دومًا » . فضحك الجميع ، صول ، هو الآخر ، قهقه ضاحكًا .

« لماذا تشعر أنه من الضرورى ، أو من الأفضل ، أن نجعل ألم عطيل جسديا ؟ لدى بعض الدوائر المسرحية ربما يعتبر هذا .. شيئًا غريبًا إلى حد ما ؟ » .

« حسناً ، عطيل مسرحية عظيمة ، على ما أزعم ، لكن معظمها سخيف بعض الشيء ، مسألة المنديل ، وما شاكل ، أعني » – كان يتلعثم – « إذا ما فكرت بأفعال عطيل ، فلربما تظن أنه غبي ، مغفل ، لكنك لو شعرت بشعوره .. وكأنه ألم المعدة عندها ، ربما تفهمه » ، وحدق في صول بأمل ، وترقب ، فقال صول بعد فترة صمت طويلة : « حسناً ، من المؤكد ، أنك فكرت في قضاياك ، نحن لا نشعر أنك حسمتها ، وكما قلنا قبل قليل نحن لا نعتزم أن نقلل من طموحك ، بل نسعى من أجل أن تصيب الهدف ، وهو عين الثور ، إذا صح التعبير ، نحن نقدر وضوح ومباشرة تناولك للقضية التي أنت بصددها .. فكرة عطيل ، الذي يعاني من ألم المعدة ، إذا جاز التعبير ، نحن لا نرفض هذه الفكرة ، كما يحتمل أن يفعل ذلك الآخرون ، لا ، نحن نعتبرها فكرة ممتعة جداً ، نحن نحس إذا كانت مشاعرك قد أدخلتك إلى هـذه المجالات ، فإن هذا شيء حسن ، نحن نرغب بإسداء العون لك من أجل الاكتشاف : لا نخشى أي اكتشاف ، نحن نكرس حياتنا للاكتشافات ، نحن نحرص فقط على أن تخضع هذه الاكتشافات للقواعد المسرحية المضبوطة كي تتمكن هذه الاكتشافات من أن تتبوأ مكانتها المناسبة في معجم المسرح الحي ، نحن على غرار ، أوه ، هنري فورد ، إذا جاز التعبير – المسرح شبيه به – نريد استخدام اختراعاتك كي نستطيع الاحتفاظ بمهنتنا » ، ضحك الحضور في قاعة الدراسة .

« شكراً لك يا سيد باركر ، تقدمك شيء سار جداً » .

غادر السيد باركر الفجوة ، « استراحة لمدة عشر دقائق » ، قال الطالب الذي كان يعمل مساعداً لصول صباح ذلك اليوم ، وجلبت الخادمة غلاية القهوة ، والأكواب ، والصحون الصغيرة ، والحليب ، والسكر ، والكعك المحلى ، ووضعتها على الخوان .

« هل تحتاجين شيئاً من اللوازم بغية أداء المشهد المسرحي » ؟ سأل مساعد صول الآن بربارة .

فأجابته : « أريكة أو كرسي » .

كان قد التفت عنا ، التفت إلينا : « حسناً ، أيهما ؟ » .

« الأريكة أفضل » . أجابت بربارة . « أوه . وأنت تعرف مكان الفونوغراف وآلة التسجيل » .

« صحيح » قال وانصرف . بربارة وأنا سرنا نحو مائدة القهوة . حيث تجمع الآخرون .

سألتني إحدى الفتيات باسمة : « هل أنت خائف ؟ » .

ابتسمت ابتسامة عريضة وقلت لها : « نعم » . أدركت . فجأة . أنني خائف فعلاً . سكبت القهوة لبربارة . « الحق . نحن لا نحتاج أريكة . أنا أمثل المشهد كله واقفاً » .

« طيب . لكنني أستطيع أن أستخدم الأريكة . ألا ترى ذلك ؟ » نظرت إلى بربارة . ثم ضحكت . « يمكنك الجلوس على الأريكة مدة أطول من جلوسك على الكرسي » .

سمع المساعد . حين مر من هناك . حديثنا . غمز بعينه وقال : « يمكنني الآن أن أخمن من هو الذي سيسرق المشهد » . نظرت إلى الفجوة . فرأيت هناك الأريكة والفونوغراف .

احتسيت قهوتي . أصغيت إلى الثرثرة . حين وصلت القهوة معدتي عرفت أنني مريض . وضعت كوب القهوة جانباً . وبصعوبة بالغة وصلت إلى الحمام . كان يتصبب من بدني كله عرق بارد . خفيف . شعرت بالغثيان .

لعل فكرة عطيل الذي يشكو من ألم المعدة ليست جد سيئة . لم أشعر بمثل هذا من قبل . كنت أشعر بإثارة جنسية أيضاً . لكن بطريقة غريبة : كان ذلك توتراً نفسياً من المستبعد أن يجد له طريقاً للانعتاق . عدت إلى خوان القهوة . فوجدت الحضور جالسين . بربارة سبقتني إلى الفجوة . كانت تحادث المساعد . لاحت في أتم الهدوء . قلت مع نفسي : يا الجحيم . سوف يستغرق المشهد مدة هي أقل من عشر دقائق . لا يهم ماذا يدور في خلد هؤلاء الناس . تمنيت أن نحقق أمنيتنا في تقديم مشهد مختلف . أي مشهد كان . لم أعد أؤمن بهذا . أخذت بربارة كتابي معها إلى الفجوة . كان موضوعاً على الأريكة . هرعت بسرعة . فتحت الكتاب . لأنني . فجأة . لم أعد أتذكر السطور الأولى . كان سطري الأول : « أهلاً . فلوري » . ينبغي لي عدم

الاستعانة بالكتاب . أعدته إلى مكانه فوق الكنبة . تمنيت أن أكون قد حفظت المشهد بصورة كافية كي أقدر أن أستمر معه . التقط المساعد كتابي وفتحه . وقف هناك منتظراً . نظرت إليه . ثم عرفت أنه سيقرأ المشهد القصير قبيل دخولي . حيث يدور الحوار بين فلوري وشقيقها إيرف ، الذي لا يحبذ زواج فلوري مني .

ابتسمتُ وقلت : « معذرة » . عادت الفجوة . « أعصاب . أعصاب . أعصاب » . قال المساعد وانفجر الجميع ضاحكين .

بربارة والمساعد شرعا يمثلان .

« من حقي الحصول على شيء ما من الحياة » قالت بربارة . تحركتْ ببطء . بقلق . في أنحاء الفجوة « أنا لا أدخن . ولا أحتسي المشروبات . إذا طلبني سيد للرقص سأذهب معه . لو عشت تجربة حب ما كنت تتكلم بهذه القسوة » .

قرأ المساعد بفتور : « أنا أقول لك هذا من أجل مصلحتك » .

عرفت أن جيري لقن بربارة هذا المشهد مراراً . مع ذلك من الغرابة أن نشاهدها وهي تمثل المشهد في فجوة . لم تكن لي أدنى فكرة عما إذا كان تمثيلها جيداً أم سيئاً . الطريقة التي كان فيها المساعد يقرأ السطور جعلت من العسير - عليّ - أن أصدق المشهد . بدت بربارة يافعة جداً . بدت لي وكأنها لا تقول الأشياء التي تقولها : لو كنت شقيقها . لركلتها بركبتي وجعلتها تدور . مع ذلك . كانت متجهمة الوجه . منزعجة . عصبية المزاج . لا يمكنني القول إن كانت هي عصبية المزاج أم فلوري . بدت وكأنها على حافة الهستيريا حين هتفت : « أكيد . أريد . رومانس . حب . أطفال . أريد كل شيء في الحياة أستطيع الحصول عليه » . عندئذ لم تبدُ في ريعان الشباب . بدت راغبة بمعرفة ما يخبئه لها القدر .

وهنا جاء دوري : « ... أخرجي البيضة من الفرن الذي سخنتيه من أجل ماما » . رفعت بصرها إلي . أصرت على البقاء صامتة مدة طويلة . مما يجعل المرء يندهش . نظر المساعد إلى كتابه - أو بالأحرى - كتابي . تنحت بربارة جانبًا : « دعنا نختلي ببعضنا يا إيرف » .

سرت إلى داخل الفجوة . تبادلنا النظر أنا والمساعد لحظة . ثم اختفى هو عن الأنظار - وبحوزته كتابي . بعدها التفتت بربارة . وتطلعت إليّ .

قلت لها : « أهلاً ، فلوري » .

« أهلاً ، حبيبي ، تبدو مرهقاً » .

حين قالت بربارة ذلك ، تذكرت سيرنا عبر المدينة .

قلت : « الآن ، على أن أحلق ذقني » .

وهكذا نجحنا في الأداء ، بدت بربارة يافعة ، نضرة ، عاجزة ، شقراء جداً ، سيد يريد أن يكون مظهرها إلى الأبد كما هو عليه الآن ، لكنه لا يملك شيئاً كي يهبها إياه ، لا يملك شيئاً يمنعها من أن تتحول إلى حالة أخرى ، لا توصف ، لا تطاق : أدرك هذا حين بدأ المشهد ، وعليه أن يواجهه حين يتقدم المشهد ، بربارة ، أيضاً ، فكرت في سيرنا عبر طرقات المدينة ، في الختام ، توقفت وهرعت لتقبلني ، قلت : « تبدين متعبة يا فلوري » .

« الآن » قالت بربارة ، أمسكتني من أعلى ذراعي ، ردت رأسها إلى الوراء وضحكت عليّ : « يلزمني أن أحلق ذقني » ، ألقت رأسها على صدري ، دفنت رأسها في صدري ، وعانقتني ، لم تكن هذه هي الطريقة التي مثلنا فيها المشهد سابقاً ، عانقتها قائلاً : « أأنت قلقة على أمك ؟ » .

فأجابت : « لا » ، لم تتحرك ، كنت آخذ الإشارة منها .

قلت برقة : « ماذا يجول في خاطرك ؟ » .

« الحرب بين فرنسا والهند » أجابت ، أدركت الآن ، وأنا أمسكها من كتفها ، أن عليّ تنحيتها عني قليلاً والتحديق في وجهها .

« بم تفكرين ؟ » .

فردت : « أفكر بنا نحن الاثنين » حدقت بي ، « ليلاً ونهاراً يا سيد » .

حسناً ، اندمجتُ في المشهد ، لم يكن بوسعي أن أعرف - هذا لا يهمني - ما إذا كان تمثيلنا جيداً أم لا ، تركت كتفيها ، ابتعدت عنها ، تركتها واقفة هناك ، فكرت بما جرى لنا صبيحة ذلك اليوم، فكرت في نزهتنا حين قلت : « صدمت سيارة بيرة اليوم ،

هل سأذهب إلى جهنم ؟ كنت أقود سيارتي مفكراً في الولايات المتحدة ، أيضاً . أنت لا تريدين أن تبوحي .. أنا أعرف بم تفكرين . أنا مجرد سم الفئران في هذا المكان » .

« كلا » قالت بوهن ، « ليس بالنسبة لي » .

بعدها تغيرت المشاهد ، والحق غدت دعائية جداً ، كنت قلقاً دوماً بشأن هذا المقطع الطويل ، ذلك أن أغلب الحوارات يرددها الفتى ، ولأنه من العسير أن يكون حديثك دعائيًا عندما تعبر عن الحب والهيام . لكن هذا الصباح ، يبدو ذلك ممكناً ، ربما ما زلت أفكر في نزهتنا . شرع سيد يتكلم بحماسة بالغة عن شقيقه الأصغر ، الذي التحق بالأسطول ، لأنه لا يعرف ما الذي يقوله غير ذلك : « ... ألم يأت ويقول لك إن هذا المليونير الذي يملك فرقة جاز .. اسمع يا سام أو سيد أو أي اسم آخر .. أنت في حال سيئة وهي ذي فرصة ذهبية .. العالم كله سيعرفك .. نعم ، أستاذ ، بجيبه .. اركب تلك السفينة ، وحارب أبناء الزنا الذين حولوا العالم إلى موطن قذر لا يصلح للعيش . اليابانيون ، الأتراك ، اليونانيون .. خذ هذا المسدس .. قال ، اقتل القذرين كبطل حقيقي ، كأمريكي أصيل ، كن بطلاً ! » .

لا أعرف كيف بدوت . يتحول المشهد ويعود إلى عمق الغرام بين الفتى والفتاة ، بدت لي بربارة في غاية الجمال ، حين قالت : « سيد ، سآتي معك .. سنحصل على غرفة في مكان ما » .

لكنه رفض ذلك . شغل الحاكي ورقصا معًا . ثم قال لها وداعًا . لم تجب . واغتنمت فرصتي فأديت رقصتي النقرية . وصفرت لحن « روزي أو جرادي » . أحسست أنني على ما يرام . كانت بربارة تحدق بي .

« ألا تحبين هذا اللحن ؟ » سألتها . إنه سؤال حقيقي .

تفحصت وجهي طويلاً مما حملني على النظر إليها . بعدها ، قالت : « لا » ، دفنت وجهها بين راحتيها ، انسدل شعرها حول أصابعها . جثوت على ركبتي أمامها ، وضعت وجهي في حجرها . أمسكت بي . كانت تلك هي خاتمة المشهد .

رفعت رأسي ، حدق كل منا بالآخر مدة وجيزة ، بينما كنا نسمع التصفيق ، ثم نهضت على قدمي ، جلسنا معاً على الأريكة ، قبالة صول سان – ماركواند .

قال : « كلكم تعرفون ، هذا المشهد الأخير هو امتحان فعلي لبراعة التمثيل . الآنسة كنك و ..» - تأمل البرنامج - « السيد برودهامر .. آه .. كلاهما ليسا عضوين عاملين في ورشة تدريب الممثلين ، نحن نعتبرهما .. آه .. شابين موهوبين جداً » .

عند ذاك ، علا تصفيق متفرق ، مؤقت ، رفع صول يده .

« بما أن الآنسة كنك هي السيدة في هذا المشهد ، أو .. » - سعل - « من المؤكد هي تمثل عنصر الأنوثة ، إذا جاز التعبير ، فسوف تستجوب الآنسة كنك أولاً . آنسة كنك » - اعتدل في جلسته ، وكذلك بربارة - « لم اخترت تمثيل هذا المشهد ؟ » .

قالت بربارة : « نحن أحببناه » . سكتت لحظة ثم قالت : « أحسسنا أنه يربط بين قصة الحب الخاصة .. و .. حسناً .. بين الحزن الخاص والموقف الثوري العام » . سكتت عن الكلام من جديد . تأملها صول . تأملت هي صول . « دبرت مكيدة للفتى والفتاة . لأسباب معينة لم يكن في يديهما حيلة ، أي حيلة - وليست غلطتهما - ليست غلطتهما ، أعني إذا ما وقعا في الفخ » .

قال صول : « إذاً ، كانت دوافعك لتَمثيل هذا المشهد ذاتية ؟ » نظر إلى نظرة قصيرة .

فأجابت بربارة وهي تجلس باستقامة ، دونما حراك : « دوافع الإنسان ذاتية دوماً » . ثم بعد ثانية أردفت قائلة : « أتمنى هذا » .

رفعت بصرها إلى صول ثانية .

قال صول : « دوافع الإنسان ربما تكون ذاتية دوماً . لكن تنفيذ الإنسان ، وأظنك قد سمعت أننا حاولنا أن نخبر السيد پاركر ، لا يمكن أن يكون ذاتيًا . دوافع الإنسان ، آه ، شيء .. أما تنفيذ الإنسان لهذه الدوافع ، إذا ما حاول العمل في المسرح .. فهو شيء مختلف تماماً » .

قالت بربارة بفتور مع خشونة مقصودة : « لا أدري عم تتحدث » . أطالت التحديق فيه . ساد الصمت .

قال صول : « آنسة كتك ، نحن نظن أن أداءك لهذا المشهد .. كان ، إذا جاز لنا التعبير ، رائعًا ، ولنا الشرف أن نحضر تمثيل هذا المشهد أول مرة ، وكل هذا يعزى إلى دوافعك » . رفع يده ثانية . « لا تسيئي فهمنا . نحن نقدر دوافعك كل التقدير آنسة كتك ، كنا ثوريين قبل مجيئك إلى الدنيا .. المشهد الذي حاولت تمثيله مشهد ثوري .. كتبه مؤلف ثوري . لذا . نحن نتعاطف مع حوافزك » . وسكت عن الكلام . « ينبغي لنا أن نستفسر منك عن أدائك . وهذا هو هدف اجتماعنا في هذا المكان » . صمت لحظة « ما هدفك من أداء هذا المشهد ، يا آنسة كتك ؟ » .

فأجابت : « كان هدفي » – لم أرها أبداً بمثل هذه الغطرسة ، وقد دهشت حين رأيتها في هذه الحال – « في هذا المشهد كشف للحقيقة . الحبيبان ربما لن يلتقيا ثانية . وكلاهما يعرفان ذلك » .

جعلته بربارة يظن أنها تكاد تضيف شيئاً . لكنها لم تقل كلمة .

« معذرة ، آنسة كتك ، هل قرأت المسرحية ؟ هل تعرفين لم حملت اسم : « في انتظار ليفتي » ؟ هل تعرفين ، مثلاً ، أن صديقك سيشارك في إضراب ؟ وهذا يغير الأمور برمتها .. أي أنهما لن يضيعا بعضهما الآخر » ؟

قالت بربارة : « قرأت المسرحية » .

ساد الصمت . سوف يحين وقت مناقشة دوري . طال الصمت : راقبت بربارة صول . قطعت بربارة حبل الصمت قائلة : « متى سيواجهان بعضهما في هذا المشهد ، لم تكن الفتاة عارفة . كلاهما لا يعرفان . لا يعرفان ما إذا سيريان أحدهما الآخر في المستقبل . أنت لا تمثل ما يعرفه الكاتب المسرحي . بل تمثل ما تعرفه الشخصية المسرحية » . صمتت . أذعنت . وقالت باسمة : « أليس كذلك ؟ » .

فقال صول بعد لحظة : « عزيزتي ، الآنسة كتك . أكيد نحن لا نريدك أن تشعري ، أن ما يزيد على الأربعين عاماً التي قضيناها في المسرح هي أثمن من زمن حياتك فوق هذه الأرض » . عندها انفجر ضحك . وابتسم صول أيضاً .

قالت بربارة : « أنا أشك في ما إذا كنت قادراً على أن تجعلني أحس أن زمن حياتك على الأرض هو أثمن من زمن حياتي » .

راح الجميع يراقبون بربارة وصول ، وكأنهم يراقبون سباق الخيل . لكن صول الذي لم يكن من دأبه القسوة ، كان عنيفاً الآن ، ولم يكن كبرياؤه عائقاً أمامه : « نحن نحب شجاعتك وعزمك » . قال بإيجاز : « لعل عزمك هذا أكثر تشويقاً خارج المسرح مما هو فوقه .. ماذا تعرفين عن الفتاة في هذا المشهد ؟ » .

« أعرف أنها أغلب الظن قد فرغت تواً من غسل الأطباق ، وربما راحتاها ما تزالان مبللتين قليلاً . أعرف أنها لا تطيق البيت الذي تسكنه ؛ فهي تحس كأنها في زنزانة » . صمتت لحظة . « كانت تخشى .. تخشى أنها لا تستطيع الخروج من الزنزانة . هي مغرمة بسيد ، لكنها في بعض الأحيان ، تكرهه بعض الشيء و .. حسناً ، إنها عذراء ، وهذا شيء يخيفها أيضاً . لعل هذا يخيفها أكثر من أي شيء آخر » .

« اعذريني ، آنسة كنك ، هل سبق لك أن عشت .. كما عاشت هذه الفتاة ؟ » .

« لا ، كما لم أعش حياة السيدة مكبث ، وما من ممثلة عاشت حياتها » .

ربما يستطيع صول أن يحيا من غير أن يعيقه الكبرياء ، لكنه لا يستطيع أن يحيا من غير أن يفرض سطوته على العالم الذي صنعه . شرعت بربارة تعرض سطوته هذه إلى الخطر . الولع بالمشهد تحول إليها . تنحنح صول . انتظرنا .

قال : « آنسة كنك ، حين قلنا إننا نثمن عزمك وجرأتك ، لم نقصد الموافقة على السلوك السيئ . أنت بعيدة كل البعد عن تمثيل أي شيء على الإطلاق . ولندع السيدة مكبث جانباً . إذا أتيت إلى هنا كي تتعلمي فنحن لن ندخر جهداً في مد يد العون إليك . إذا كان هدفك هنا هو التباهي فينبغي لنا أن نخبرك بأننا لا نقدر أن نتحمل مثل هذا السلوك . يوجد آخرون جديرون بالاهتمام والرعاية يا آنسة كنك . لا يمكننا أن نضيع وقتهم » .

تنازلت بربارة ، لكن ليس بدون كفاح قصير الأمد . وبقيت ، على أية حال ، ساخرة بصورة يتعذر إنقاصها . وقالت : « أنا آسفة جداً . أعتذر . لم أحاول أن أمنح المشهد أكثر مما يستحقه » .

تأملها صول : « أنت لم تهبينا وقتاً كافياً كي نتمكن من نقدك . نريدك أن تسجلي في صف « الكلام » وصف « الرقص » . وفي غضون أسبوعين نتمنى أن نرى ارتجالاً . وسوف نناقشك في ذلك فيما بعد » . التفت إليّ « سيد برودهامر ! » نظر إلى بربارة ثانية : « بوسعك أن تنزلي . آنسة كلك » .

غادرت بربارة الفجوة .

قال صول : « سيد برودهامر . أنت أيضاً . شاب ذو موهبة فائقة . وقد منحتنا هذه الفرصة كي نعرف هذا وإن كان متأخراً » . ضحك البعض حين قال صول هذا . « لسوء الحظ . بالرغم من عزمك وشجاعتك .. آه .. عزمك وشجاعتك . يمكننا القول إن مؤهلاتك المسرحية هزيلة جداً » .

توقف عن الكلام . رفع يداً : « نحن لا نقصد بهذا الإدانة . نحن نعرف أن بعض الأسماء في دنيا المسرح - ليست كثيرة . بل قليلة - التي تبدو غير واعدة على الإطلاق حين تبدأ مسيرتها. لو أننا شاهدنا بعض الأسماء المشهورة جداً في بداياتها، ما كنا لنميل إلى تعليمها ولاقترحنا لها أن تترك المسرح لأنه ليس مكانها . سنكون مخطئين في ذلك . لا نبالي إذا قلنا هذا » . صمت لحظة . « علينا أن نقول لك إن هؤلاء .. آه .. الممثلين الذين في بالنا عليهم أن يكافحوا سنوات عديدة ضد .. آه .. الحدود.. الحدود بحيث لا ينحني عليهم أحد باللائمة . وهذه ليست غلطتهم . لكن .. آه .. الحدود هي التي كانت قاسية جداً، وهي التي كانت حجر عثرة في مسيرتهم » . سكت من جديد . « إن أداة الممثل . يا سيد برودهامر . لا تشبه أي أداة أخرى في فن من الفنون . أداة الكاتب هي قلمه . عازف الكمان أداته الكمان . النحات لديه حجر وإزميل . المعماري عنده المسطرة الحاسبة، وهلم جرا . لكن أداة الممثل هي جسده . كيانه . بول روبسون . مثلاً . ممثل يناسبه تماماً دور عطيل . الأداة تقترح ذلك . الأداة . تتطلب هذا . إذا جاز التعبير . الممثلون الآخرون لم يستطيعوا تمثيل دور عطيل . الأداة لن تقبل بالوهم » . سعل . جال ببصره في أنحاء الغرفة . « نحن لا نعتزم القول إن كل شيء مستحيل . نحن نعرف ممثلاً فرنسياً .. آه .. أحدب. الفن كالحياة مليء بالاستثناءات. لكن هذه الاستثناءات تثبت صحة القاعدة» . حدق

فى ثانية . « من المؤكد أنت استثناء . بصراحة ، من الصعب علينا أن نعرف بالضبط كى نتواصل معك . ما من شيء يوضح .. آه .. فى رأينا .. بأنك تمتلك أية قابلية مسرحية مدهشة جداً . عدا ، ربما ، تلك الرقصة فى نهاية المشهد . كما أنك بدوت حراً ، وإذا جاز لنا التعبير ، مرحاً وصبيانياً . نعتقد أنها أفضل فرصة بالنسبة لك ، وإذا ما قررنا الاستمرار معك - أو إذا ما قررت الاستمرار معنا - فسيكون هذا على أمل أن تأتى هذه الفرص بسهولة إليك » .

لم أقل شيئاً ، تمنيت ألا يظهر أى تعبير على وجهى .

قال صول بعد لحظة : « هذا مشهد لا يناسبكما أنت والآنسة كنك أن تقدماه لنا . لِمَ اخترت هذا المشهد على وجه التحديد ؟ » .

« اعتقدنا أننا قادران على تمثيله » ، أجبت . جعلنى صول أشعر أننى سخيف . على أن أتنحنح ، كرهت نفسى ، وأضفت : « أحببنا هذا المشهد » .

« ماذا تعرف عن .. آه .. سائق التاكسى الشاب - سيد - فى هذا المشهد ؟ » .

أجبت : « إنه فتى مسكين . وأنا مثله فتى مسكين . هو جائع وأنا جائع أيضاً » .

« تبدو لى حسن التغذية » . قال صول مما أحدث موجة صغيرة من الضحك . عصرت قبضتىَّ معاً . قال لى : « أنت لا تقود سيارة » .

أجبته : « أنا أقود سيارة الورشة » . ثم تمنيت ألا أكون قد قلت ذلك . نسيت السيارة اللعينة التى أخذها جيرى .

« نتمنى ألا تشارك فى إضراب ضد الورشة » . جعل هذا الكلام الحاضرين ينفجرون بالضحك . « أنت لا تسعى من أجل توحيد زملائك العمال فى نقابة . أنت تتسلم راتباً يكفيك للمعيشة . وما زلت فى مقتبل العمر كى تفكر فى الزواج الآن » . ثم استدرك قائلاً : « أنت شاب ، بالتأكيد ، من وجهة النظر الشرعية » . تفرس فى وجهى . « نحن لا نعتقد أنك دخلت فى مشاكل سائق أجرة شاب على الإطلاق . لا نعتقد أنك فهمت هذه المشاكل . نحن ، بصراحة ، نشك فى ما إذا نظرت إليها بعين الاعتبار . تحدثت بكلام منمق طنان ، وبصورة هستيرية ومثيرة للشفقة . بدوت أشبه

بتلميذ أشبعوه ضرباً في المدرسة . نحن لا نكاد نصدق أن فلوري ترغب بالزواج منك . بصراحة . تعاطفنا كلياً مع شقيقها » .

أفحمني صول . كان عارفاً بذلك . لم أجرؤ على الكلام .

« كما قلنا قبل قليل للسيد باركر . ليس من الخطأ أن تكون للإنسان طموحات بالية جدا . بصراحة . ينبغي لك أن تطمح أشياء بعيدة جداً . نحن هنا لا ننوي أن نثبط عزائم الممثلين . لكن يجدر بنا أن نخبرك عندما نشعر أنك تنوي الوصول إلى هدف يتعذر عليك الوصول إليه » . سكت من جديد . « لكنك .. آه .. شاب جري ، و .. آه .. سنرى ماذا سيمكننا أن نفعل كي نصقل موهبتك . سوف نسجلك في صف « الكلام » . وسوف نتحدث معك فيما يتعلق بالارتجال في الأيام القليلة القادمة . نظر إلى ساعته . « هذا كل ما يتعلق بالوقت الحاضر » .

صفق الصف استحساناً . خرجت من الفجوة .

كانت بربارة محرجة من صول . الآخرون لا يعرفون تماماً ماذا يقولون لي . خرجت السيارة كانت واقفة في الطريق الخاص المؤدي إلى بيت صول . جيري جالس في السيارة .

سرت إليه . يبدو هذا شيئاً غريباً . لكني أحسست أنه صديقي الوحيد ، تقريباً ، في العالم . لكننا . مع ذلك . لن نستطيع أن نكون صديقين .

وقفت عند باب السيارة . تبادلنا النظر . بدا جيري مرهقاً تماماً . شعره متسخ . نامي الذقن .

« كيف سارت الأمور ؟ » سألني . كان صوته غير متحيز . كما لو أن الريح غيرته . لعبت به . ونفخته .

قلت له : « جيري . أنا آسف . أريدك أن تعرف أنني آسف . لم أؤذيك بشيء .. بشيء أبداً . أقسم بالله . لو كنت عارفاً - أقسم بالله - لكنت قد ذهبت » .

فقال جيري : « ليست غلطتك . أعرف ذلك » .

قلت له : « ليست غلطة أحد . أليس كذلك ؟ » .

قال : « لا أعرف » .

أشعل أداة الإشعال ثم أطفأها : « كنت أجز الحشائش فقط . الآن على أن أعود إلى عملي كموديل رسام » حدّق بي . « أحسب أنك بحاجة إلى السيارة . وضعت قليلاً من الوقود في خزانها » .

ربت على لوحة أجهزة القياس[1] « لذا . سوف أرحل » .

« هل تريدني أن أوصلك ؟ سأوصلك بالسيارة » .

« سيحتاجون إليك هنا . أليس كذلك ؟ » .

« بوسعهم أن يذهبوا بأية طريقة . تبًا لهم » قلت له . صعدت إلى السيارة . تحرك من مكانه « تبًا لهم » . أدرت المحرك . ومشت السيارة في الطريق الخاص . اجتزنا شوارع المدينة . لم أقل شيئًا لأنني لم أعرف ما الذي أقوله . لقد آذيت جيري وآذيت نفسي . جيري هو الآخر لم يقل شيئاً . يبدو أن كل شيء قد آل إلى الخراب .

توقفنا أمام المركز الرئيسي لمؤسسة الألبسة .

« حسنًا » قال جيري . وفتح باب السيارة . « سأراك فيما بعد . يا فتى . شكراً على إيصالك لي » . بعدها . مع كلماته الأخيرة التي كانت ما تزال معلقة في الهواء . تبادلنا النظرات .

قلت له : « جيري » — لِمَ أنا خائف ؟ — « اغفر لي رجاءً . لم أكن أعني إيذاءك . الواقع لم أقصد إيذاءك أبداً » .

قال لي : « لست الذي ألحق بي الأذى » . صفعني بسرعة على عنقي . وابتسم . « أنا مغرم بك أيضاً » ترجل من السيارة . وأغلق الباب بقوة . سار مبتعداً . ثم التفت إلي وقال : « هل بحوزتك مال ؟ » أجبته : « كلا » .

عاد إلى السيارة وأعطاني دولاراً .

(١) لوحة أجهزة القياس (الداشبورد) تكون أمام سائق السيارة وتحت الحجاب الزجاجي الواقي من الريح والمطر . (المترجم)

« سنحصل على المزيد الليلة . أحسب أننا سنتبادل الغرف » .

ابتسم ، قطب حاجبيه ، هز رأسه . « لم أقصد ذلك . على الرحيل من هنا . أنا لا أعرف إلى أين أرحل » . هز رأسه ثانية . تلألأت دموعه . انصرف مبتعداً . « ليو ، وداعاً » .

« وداعاً يا جيري » .

راقبته وهو يدخل المنزل ، ثم راقبت الباب يغلق وراءه . بقيت جالساً في السيارة . أشعلت سيجارة ، أدرت المحرك ، بصورة آلية ، كي أقفل راجعاً إلى الورشة ، ثم قلت مع نفسي ، تباً لهم ، استقرت بالسيارة ثانية ، وقدتها خارج المدينة وراحت السيارة تنهب الطريق السريع إلى نيويورك .

الكتاب الثالث :

كريستوفر الأسود

أماه ، خذي ابنك ،

أبتاه ، خذ ابنكَ !

خير لكما أن تسرعا إلى مدينة المأوى

خير لكما أن تسرعا !

جلس الفتى على السرير يتفرس في وجهي . كل شيء بدا مائلاً ، هو والسرير ، وكأنهما يكادان يتدحرجان من منحدر صخري . إن سبب هذا هو قلقي وميلان السرير الذي أرقد فيه وكون الوقت هو الصباح الباكر جدا .

خفت لحظة : غير أن الفتى ابتسم .

« هل من دأبك أن تستيقظ في أبكر الصبح ؟ .. كم الوقت الآن ؟ » .

قهقه : « كلا . لكني سألتقي ببعض الأشخاص اليوم . الساعة حوالي السابعة » .

كان ينظر إليّ ، يفكر في موضوع ما .

« أتريدني أن أحضر لك شيئاً من القهوة ؟ » .

« لا . لا . ابق في سريرك . أنت بحاجة للراحة » . تأملني .

« كنت مخموراً ليلة أمس » .

« أعرف » .

« أتتذكر كل شيء ؟ » .

« حسناً .. أحسب أنني أتذكر . لِمَ تطرح عليّ هذا السؤال ؟ هل فعلت شيئاً مروّعاً ؟ » .

قهقه ثانية : « كلا . كنت رائعاً . رقصت كثيراً وضحكت كثيراً . أظنك كنت فرحاً ، نشواناً » .

« أحسب أنني كنت . وأنت . ألم تكن فرحاً ؟ » .

أشاح بصره عني . ما زالت ترتسم على وجهه ابتسامة طفيفة . « أوه . نعم » . أجابني . أردت أن أعاود النوم . لكنه أخذ يأسرني . كي يجعلني أفيق من النوم بسمته هي التي جعلت محياه يبدو مشرقًا . صوته خشن كصوت فتى ريفي . كان ضخم البدن وسلوكه فظ . غير أن بسمته رقيقة ووجلة جدا .

« عليّ الذهاب الآن . هل أتي لرؤيتك فيما بعد ؟ » .

« سأبقى في البيت طوال اليوم .. حتى يحين وقت الذهاب إلى المسرح » .

« طيب سأهاتفك فيما بعد » نهض على قدميه . « إذا لم أستطع العودة قبل ذهابك إلى المسرح فهل تريدني أن أعيدك بعد العرض المسرحي ؟ » .

« نعم . سيكون هذا جيداً » .

« طيب . أراك فيما بعد » . انحنى وقبلني بسرعة في جبيني . فتح باب غرفة النوم .

« هل بحوزتك مال كاف ؟ » .

« لي كفايتي » . ابتسم ثانية وتلاشى عن الأنظار . سمعت الباب الأمامي ينغلق وراءه .

ساءلت نفسي في أي مكان أقحمت نفسي .

وأخيراً أوشكت أن أغادر المستشفى . جلب لي بيتي ثيابي . لم أشأ رؤية كاليب . سيلتقي كاليب بالطائرة في نيويورك – بالرغم من كل شيء . أو ربما بسبب كل شيء - مازلت شقيقه الصغير . علاوة على كوني ممثلاً شهيراً . ما كانت بربارة قادرة على المجيء معي إلى شرقي المدينة : لأن المسرحية مازالت مستمرة – مع أن جمهورها ليس بالحاشد – هي الآن في طريقها كي تأخذني إلى جناحها . لقضاء ما تبقى من ساعات النهار . ولقضاء ليلتي . سأسافر صباحاً .

الآن . سيحضر هنا بعض الممثلين مع الشمبانيا . كما سيحضر بعض الصحفيين . لكن بربارة ستحضر قبلهم . بيتي . أيضاً . حاضر . أنا أرتدي ثيابي وأقف في مكتب الدكتور إيفين . بما أنني بثيابي وشعري مقصوص وأنا أرتدي

ملابسي وأقف بجلدي ، أحس – بطريقة ما – أنني رابط الجأش ، سلموني ثانية إلى أرض الأحياء . حتى الآن ، بل حتى هذه اللحظة لم يتخل ليو برودهامر عن الشبح ! حتى الآن ، حتى هذه الأونة ، ليو أم صغيرة شديدة الصرامة .

أنا جاهز ، بذلة زرقاء قاتمة ، ربطة عنق زرقاء ، منديل نظيف ، قميص أبيض ، زران معدنيان برازيليان لطرفي كمّي القميص ، خفان سوداوان . استعدت نجوميتي ، شاهدت هذا بأم عيني وأحسست به إحساساً ، كأنني لم أمرض أبداً .

الدكتور إيڤين لم يؤيدني .

« أصابك مرض شديد . أنا أستبعد أن تنسى هذه الحقيقة » نظر إليّ نظرة جادة وصارمة . « إذا لم تتذكر مرضك الشديد فإنك ستمرض ثانية . حاولت أن أحذرك في البدء .. أتتذكر ؟ » .

« أجل . طبعاً . أتذكر » .

ابتسم . « لست مقتنعاً تماماً بأنك تتذكر .. لكنني لن أوبخك بعد الآن . مع ذلك كنت جد مسرور . كنت مثل رجل أناني حين تعرفت إليك . أنا أكن الآن مزيداً من الاحترام لقبيلتك عما كنت أفعله من قبل . لم أكن عنصريا » . ضحكنا معًا . « أعني قبيلة الممثلين » . ثم تغيرت ملامح وجهه ، نهض . « آه ! هي ذي الآنسة كنك . آنسة كنك ها نحن نعيده إليك ثانية .. لحق ضرر طفيف به ، ولكن مع الرعاية سوف يحيا طويلاً » – تفحصني متأملاً ، باسماً : أدركت أنه أصبح يحبني – « أوه ، عشرين ، ثلاثين سنة . إذا لم تجعليه يرتقي المنحدرات شديدة الانحدار » .

قالت بريارة : « دكتور ، سأنفذ نصائحك بحذافيرها . لكنك تعرف كم ولد عنيد ليو » قبلتني . « انظر إليه ! دكتور إيڤين ، إلى أين تعتقد أنه ينوي الذهاب ؟ هو يرتدي حلته من أجل حضور عرض افتتاحي لمسرحية . حبيبي » . خاطبتني قائلة : « أنت بالأحرى ستمشي نحو مصعد فيهبط بك إلى أسفل الردهة تماماً ، بعدها ستأخذك أياد حانية إلى سيارة ستقلك مباشرة إلى داري ، حيث يمكنك أن تنزع فوراً كل تلك الثياب وترقد هناك بسلام » .

قلت لها : « ظننت أن عليّ الظهور بأحسن حال في حالة قدوم مُراسلي الصحف . عندها سيعرف كل المعجبين أنني تماثلت للشفاء » .

قالت بربارة : « أوه » ونظرت إلى الدكتور إيفين . « فهمت . من المؤكد أن شفيته . يا دكتور . وأن جميع المعجبين ممتنون لك » ابتسمت بسعادة غامرة . وبدت أشبه بفتاة صغيرة . « بعض الممثلين جاءوا وجلبوا عدداً من قناني الشمبانيا . هيا . دكتور ، شاركنا .. بعدها يمكنك الذهاب إلى البيت وتكون لك نوبة قلبية جميلة وهادئة » . ضحكتْ وقادتنا من ذراعينا وسرنا عبر المجاز متجهين إلى غرفتي القديمة . كانوا هناك زملائي المسرحيين الذين عملت معهم طويلاً في تلك المسرحية . ربما ، بالنسبة للآخرين ، كانت مجرد مسرحية ، لكنها بالنسبة لنا كانت أكثر من ذلك ، إنها جزء من حياتنا ، وهذا يعني أننا الآن جزء من بعضنا الآخر ، ثمة نوع من الزمالة بين العاملين في المسرح لم أر نظيراً لها في أي مكان آخر ، عدا الزمالة بين عازفي موسيقى الجاز . علاقاتنا ليست هادئة وهي بالتأكيد ليست جامدة ، بل هي ثابتة بصورة مثيرة للفضول . أعتقد أن سبب مساواتنا مع بعضنا الآخر يرجع جزئيا إلى أننا مرغمون على ذلك رغم أننا نقطع علاقاتنا بصورة مفاجئة ومستحيلة بين حين وآخر . الجميع يعرف تفاصيل المهنة . على الجميع أن يعرفوا ذلك وبهذا لا يمكننا أن نحكي الأكاذيب . إن نكبات أي فرد منا تكون معروفة كانتصاراته ، وأكثر وفرةً ؛ ويعرف الجميع كيف يحس بها ذلك الفرد . وفي اعتقادي أن سبب ذلك أيضاً أننا مرغمون على اعتماد أحدنا على الآخر أكثر مما يفعله الآخرون . لا أحسب ، على سبيل المثال ، أن فناني أرجوحة البهلوان دأبوا على أن يتقاتلوا قتالاً مراً مع أحدهم الآخر قبل تسلق السلم العالي ، والتشقلب في الهواء . ربما لا يكون هناك قضيب التوازن الذي من المفروض أن يكون هناك لو تفلت اليد . حسناً ، لا يمكنهم العمل بدون شبكة . في المسرح ، يعمل المرء يوماً بدون شبكة . بطبيعة الحال ، المسرح مليء بالناس الذين لا يستطيع أن يتحملهم المرء ، ومليء بالنجاحات التي ينبهر المرء بوجودها ، لكن المرء يتفلسف بهذا الشأن ، فحتى النجاح المسرحي المفرط أو المدمر لا يمكن أن ينافس بعض النجاحات الملحوظة الجارية في العالم . هو ذا أندي ، ممثل يجسد شخصية إيطالية يلعب دوراً مميزاً في المسرحية . لم نعمل معاً سنوات عدة . لكن ما إن التقينا ثانية حتى بدا لنا كأننا لم نفترق أبداً ، وأمي ، الشقراء ، الشابة ، الهزيلة ، من مسرح البرونكس ، التي لم أعمل معها أبداً ، لكنني أحببتها حبا جماً ، وسيلفيا ، الممثلة ذات

الشخصية الزنجية الجميلة ، رابطة الجأش ، الذكورية ، التي لا يعرف أحد كم يبلغ عمرها الآن ، وذلك أن دار العدالة في مسقط رأسها قد احترقت عن بكرة أبيها .. هي التي أحرقت الدار ، يقول البعض ، ليس من الصعب أن نراها تفعل ذلك ، وبيتي معبودي ، الذي أثق به ثقة تامة ، ورئيس الكهربائيين ساندو ، والبواب جون وزوجته ؛ وبديلي ألفين الذي لم أحبه كثيراً ، إلا أنني أحبه اليوم .. بدا لي أنه يحبني ، أيضاً ، ليس لأنه عرف فقط أنني لن أعود إلى العرض ، ولأسباب أخرى غيرها . كانت الغرفة مزدحمة بصورة جميلة جدا . هنالك الأزاهير ، أجهزة التسجيل ، علب الحلوى . أمي ، وجهها متألق جدا تحت قبعة نسوية ، ناعمة ، ذات طراز حديث . أقبلت إليّ حاملةً مظروفاً وعلبة ذات شكل غريب . في البدء طبعت في جانبي وجهي قبلتين احتفاليتين .

قالت أمي : « لم يستطيعوا المجيء كلهم . كما تعرف .. بعضهم له أعمال في الإذاعة والتلفاز وما شاكل ذلك .. وأولئك الريفيون .. » حملت المظروف الآن بإبهامها وأحد أصابعها بصورة بغيضة جداً ، « طلبوا مني أن أعطيك هذا » . أخذت المظروف منها ، فتحته . كانت بطاقة كبيرة في وجهها رسم كاريكاتوري عني يصورني كملاكم شديد النحافة لم تر له مثيلاً في حياتك كلها . ذا عينين واسعتين جدا . خائفتين جدا ، يقف في وضع أخرق جدا . على البطاقة من الخارج كتب - لأنني سجلت نجاحاً ساحقاً في أدائي لهذا الدور في « قمرة في السماء » - « جو الصغير » ! وفي الداخل كتب « يسرنا فوزك ! » وقع البطاقة جميع أعضاء الطاقم . كانت البطاقة في غاية الجمال . ضحكنا جميعاً . أقبلت ممرضتي الصغيرة تحمل صينية فوقها كئوس .

قالت أمي متجهمة : « والآن ، عليك أن تفتح هذه ، هي منا جميعًا » . أخذت العلبة ، التي كانت ثقيلة بصورة مدهشة . سألت نفسي كيف استطاعت أمي حملها . جلست على سريري . فتحت العلبة . الجميع يراقبونني .

في الختام فتحت العلبة : كانت بداخلها نسختان من الأسود البرونزية الموجودة في ميدان ترافالجار . كتب على البطاقة : « إلى ليو ، الأسد[1] . ليدم الله نحبيه » .

(١) ليو : تعني برج الأسد . (المترجم)

« يمكنك استخدامها كمسند كتب ، أو مثقلة أوراق » . قالت أمي .

قالت بربارة : « أو من أجل الحصول على سيارة أجرة » .

انفجرنا ضاحكين ، وهذا أنقذني من البكاء . عانقت أمي وقبلتها . قبلت سيلفيا وبربارة ، عانقت جميع الرجال . قال بيتي : « وها هو ذا » . فتح قنينة الشمبانيا « شراب النخب » ، رفع كأسه وتطلّع إليّ .

بعض لحظات الحياة – ليس من الضرورة أن تكون طويلة أو تبدو في غاية الأهمية – يمكن أن تؤثر في حياتنا تأثيراً بليغاً ، بوسعها أن تحرز ، تبرر ذلك الألم ، وتلك الحيرة التي يحيا بها الإنسان، وأن تشحن المرء بالشجاعة ليس من أجل أن يتحملها ، بل من أجل الإفادة منها ، بعض اللحظات تعلم الإنسان ثمن الرباط الإنساني إذا ما استطاع الإنسان العيش مع أوجاعه الذاتية ، فإنه يحترم أوجاع الآخرين . وهكذا بإيجاز ، لكن بصورة مبهمة ، يمكننا أن نخلّص بعضنا الآخر من الألم . شيء ما شبيه بهذه الرسالة ، بدا لي أني قرأته في عيني بيتي حين رفع كأسه وحدق بي . كانت عيناه تخفيان رحلتي ورحلته . عيناه تخفيان سنوات الرعب ، الخوف ، الكراهية ، الازدراء ، العزلة اللاإنسانية، جمعية الشبان المسيحيين ، فندق ميلز، شوارع الشتاء ، قطارات الأنفاق ، سقوف المنازل ، الحمامات العمومية ، المرافق الصحية العمومية ، الجوارب القذرة ، الليالي التي يقضيها المرء ينتحب وحيداً في سرير مليء بالهوام ، العلاقات الغرامية غير الصادقة ، العلاقات الغرامية الضائعة ، أمل الحب ، الوفيات العديدة ، الخوف من الموت – في كل هذه يتطور أسلوب معين ، تعزف موسيقى لا نهائية ، معلنة عن تغيرات لا ترحم في مغزى أغاني البلوز . كانت نظرته لاذعة ، ساخرة ، ودية . كان يعرف مقدار خوفي . كان يعرف مبلغ خوفه .

قال بيتي : « لنشرب نخب محبوبنا ، ليو الصغير .. نحن سعداء بعودتك إلينا ، ونرجوك ألا تقوم برحلات أخرى كتلك الرحلة العاجلة . أسمعتني ؟ » .

ضحكنا ثانية . كان علينا أن نضحك ، ربما ينبغي لي أن أضحك أكثر منهم جميعاً . قلت : « هل لي أن أقترح نخباً معيناً ؟ دعوني أقترح » .

قالت بربارة : « اسمعوا ، اسمعوا ! » .

بعدها ، وطوال لحظة ، لم أعرف ما الذي ينبغي عليّ قوله : حدقت فيهم وحدقوا فيّ . التقت نظراتي بنظرات ألفين ، بديلي . ألفين أسود ، أو بالأحرى ملون ، جميل الطلعة ، يكبرني قليلاً ، أضخم مني قليلاً ، بينما أنا لا أتحلى بمظهر حسن . فهمت بغتة ، وكأنني عائد لتوي من عالم الأموات - الذي كان بالنسبة لي الحقيقة الموضوعية ؛ واجتاحتني رعشة ، رأيت وجه بربارة ، وانتبهت بصورة لا تصدق إلى نور الشمس الآتي عبر الستائر - كنت على خطأ حين اعتقدت أن ألفين لا يحبني . لم يكن ذلك صحيحًا . الواقع أنني فقط أنكرت إحساسه بالواقع . لم يكن هو يعرف لِمَ لم يحدث له ما حدث لي . وطبقًا للنظام الذي خلقه هو ، وبسبب علو صوته ، إلا أنه حتى الآن يعتقد اعتقاداً راسخًا أنه يوزع ورق اللعب على اللاعبين بطريقة أفضل مما أفعله أنا . هذا يعني ، بالنسبة لي ، أن ألفين ، يعرف القواعد عديمة الرحمة للعب ، وبما أنه لم يعرف ما حدث لي فهو لم يعرف إذًا ما حدث له . بما أنه لم يعرف هذا ، فما من أحد أو شيء يمكن أن يساعده سيقضي هو حياته يحسد الدم في أحذية الآخرين . تذكرت أنني حاولت أن أبوح بهذا إلى كريستوفر . خفضت عينيّ من وجه ألفين ، فكرتُ في استجابة كريستوفر ، فكرت في كاليب . حسبت أن ألفين كرهني لأنني أبزه في التمثيل . أنا فعلاً أفضل منه . ولكن في ثنايا هذه الحقيقة ، تكمن القضية التي لا توصف ، الحقيقة التي لا تطاق .

قلت : « ليس من المهم أن يصبح الإنسان ممثلاً ، فالعالم يعج بالممثلين .. أغلبهم لا يعرفون أنهم يمثلون . وليس من المهم أن يغدو المرء نجماً .. معظم النجوم لا يمكنهم التمثيل » . توقفت عن الكلام . مازالوا يراقبونني . لفت انتباههم إلى مسألة محزنة بصورة لم أكن أقصدها . نظرت إلى وجه بربارة ، ووجه بيتي ، وجهاهما أعادا إليّ الثقة بالنفس . هما يعرفان فتاهما . كلفهما ذلك شيئًا : هما لن يسمحا لي برؤية قائمة الحساب . قلت : « حسنًا ، إن كانت هذه الأشياء غير هامة ، ولأقل أنه شيء مهم - شيء جميل - أن تعرف ، حين يتعين عليك أن تقف على قدميك ثانية ، أن عدداً غفيراً من الناس مسرورون برؤيتك واقفًا على قدميك . أنا مسرور بعودتي إليكم » ، رفعت كأسي . « إن لم تكونوا ترغبون بعودتي إليكم فلربما ما بقيت في هذا المكان . دعوني أشرب نخب صحتكم جميعًا . واسمحوا لي أن أتحدث بأكثر من ذلك » . أفرغت كأسي

المترعة بالشمبانيا . ضربوا الأرض بأقدامهم برفق . ذلك أن أيديهم لم تكن طليقة. أفرغت بربارة كأسها بالطريقة التي فعلت ، وضعت الكأس وصفقت بكفيها . كان صوت تصفيقها - بصورة ما - شديد الغرابة .

« علينا أن نأخذ الأمير إلى البيت في غضون دقائق » . قال بيتي : « من يرغب بالمزيد من الشمبانيا ؟ بحوزتنا قنينة أخرى » .

بعدئذٍ ، جلست على السرير ، نظرت إلى أشرطة التسجيل التي جلبوها لي : سام كوكي ومهاليا جاكسون ، وراي چارلس ، ومايلز ديفز ، ونينا سيمون ، وجو وليمز ، وجو تكس ، ولينا هورني ؛ فكرت كم ستجلب لي الراحة . يا لها من حفلة راقصة تلك التي سأرقصها مع أشرطة التسجيل هذه في جنوبي فرنسا ، الذي سأذهب إليه الآن ، أجلس في فيللا مؤجرة وأفكر في حياتي . أستعيد عافيتي وفي الختام أقرأ السيناريو وأوقع العقد الذي سيعيدني إلى العمل ثانية . أدركت أنني كنت خائفًا . هذه هي أول مرة ، خلال أكثر من عشرين سنة ، أجد نفسي بدون عمل ، إذ يتعين عليَّ - بشكل أو بآخر - الامتناع عن العمل. عندما لا يشتغل العامل فماذا يتعين عليه أن يفعل إذاً ؟ عرفت أنني كنت مشلّجاً بفعل الخوف مما يحتمل أن أجد نفسي فيه حين أتحرر من كل قيودي ، ألغي كل التزاماتي ، لا محامين ، لا وكلاء ، لا منتجين ، لا ظهور في شاشة التلفاز ، لا أحاديث عن الحقوق المدنية ، ما من سبب للبقاء هنا أو هناك ، لا وجبات غداء في البلازا ، لا وجبات عشاء في ساردي ، لا أماسي افتتاح ، لا كتاب أعمدة القيل والقال ، لا مراسلين صحفيين جارحين ، لا « حياة وغراميات ليو برودهامر » (في ست حلقات بدءاً من هذا العدد !) . لا حاجة للابتسام حين لا أريد الابتسام ، لا حاجة ، في الواقع ، لفعل أي شيء غير نابع من كياني . لكن ما هو هذا الكيان ؟ هل سيغادر كياني إلى الأبد منزل محاولتي وشهرتي ؟ هل يعاني كياني من ظرف قاس ، وهو يتنفس تحت خرق وقطع حجارة المراحيض التي لم أدخلها منذ أمد طويل ؟

جلست أمي على السرير ، لصقي . قالت : « أظنك سمعت الشائعات ؟ » .

أجبتها : « لا أصغي للشائعات . وإن شئت الاستمرار في هذه المهنة فينبغي لك أيضاً ألا تصغي إليها » .

ضحكت . كانت شديدة الجاذبية .. لكنها ليست جميلة بالضبط . أنا لا أحب الفتيات الجميلات ، بل أحب الفتيات الجذابات . الجذابات فعلاً . أسنانها كبيرة بعض الشيء ، وجهها نحيف بعض الشيء - كانت هزيلة بكل معنى الكلمة ، لا تملك وركين على الإطلاق ، أو ذلك النوع من الوركين اللذين لا تشعر بهما إلا إذا أمسكت بهما . كان بدني يعمل طوال تلك الأسابيع التي قضيتها طريح الفراش ، وفجأة ، وبصورة خطيرة ، أصبح جسدي صلداً جدا . تنحيت عنها قليلاً . كنت مندهشاً أكثر مني محرجاً . هذه الناحية بالذات من عودة لازاروس(١) لم تقع لي من قبل : لكنها بالتأكيد ذات مغزى ، أن تأتي من مكان يظن الناس أنك ميت فيه يعني أنك متعطش للحياة ، الحياة تعني أشياء كثيرة ، لكنها ، قبل كل شيء ، لمسة الآخر . لمسة الآخر ، مهما كانت هذه اللمسة مؤقتة ومهما كان ثمنها .

وتذكرت أنني أكاد أبلغ الأربعين من عمري ، وهذه النوبة ، هكذا قيل لي ، تحدث للرجال في مثل سني . نظرت إلى أمي ثانية . كان لنا معًا مشهد قصير جدا لكن حاسم جدا في المسرحية . كنا وجهًا لوجه طوال شهور عدة لكنني لم أنظر إليها من قبل . يبدو هذا مستحيلاً . فكرت مع نفسي ، لن تعمل ثانية ، أيها الزميل القديم ، نلت جزاء عملك المرهق ، وتحولت إلى أشلاء . كنت أحدق بوجهها لكنني كنت أفكر في فرجها ، وكيف سأشعر لو أنني ضاجعت هذه الفتاة الصغيرة شديدة النحافة ، كيف سأشعر لو عانقتها ، أو دخلت ، كيف سنتحرك معًا ، كيف ستكون حالها حين تصل الذروة .

بدا لي أنها لم تعرف ما كنت أفكر فيه . قالت : « حسنًا . الشائعة هي أنهم سوف يوقفون إنتاج " مقدار كبير " - وكما تعرف هم يكادون أن يباشروا بالعمل - هم بانتظار أن تتحسن صحتك جيداً كي تلعب دور المراسل الصحفي » .

قلت : « هذه شائعة فعلاً » . لكنني فرحت . سرت في بدني قشعريرة جعلتني أسعل . نظرت بربارة بحدة إلى ناحيتي ، وهكذا فعل بيتي . عب بيتي كأسه ، والتقطت بربارة معطف المنك . أقبل ألفين وجلس على السرير .

(١) لازاروس : مريض مصاب بالجذام ، هو فقير عادة .. في العهد الجديد بعثه السيد المسيح (م) إلى الحياة بعد وفاته . (المترجم)

قال : « أنا مسرور يا زميلي لأنك ستكون على ما يرام » . كان يعني ما يقوله عني ما قاله بالقدر الذي كان يعنيه فعلاً .

قلت له : « شكراً » . أحسست بتعب شديد مفاجئ . فكرت ، كنت مريضاً لكنك لم تتماثل للشفاء حتى الآن . وفكرت ، لعلك لن تستعيد صحتك ثانية .

هتف بيتي : « يا قوم ، علينا إخلاء هذا المكان . علينا أن نأخذ المريض إلى البيت » .

سألت أمي : « أليست هي شائعة جميلة . بخاصة - أنت تعرف - أنهم يتخلون عنك ؟ » .

فسأل ألفين : « أية شائعة ؟ » .

وضعت راحتي تحت ذقن أمي ، وابتسمت لها « شائعات ، شائعات ، شيء حلو منك أن تخبريني بها . لكنني أخشى أن يمر وقت طويل قبل أن أكون متأهباً للعمل ثانية » . نظرت إلى ألفين . قلت : « سأرحل بعيداً . سأعود إلى حوض البحر الأبيض المتوسط . وأستقر هناك دون أن أرتدي قطعة من الثياب عدا ستائر العورة التي اعتدنا لبسها في أفريقيا قبل أن تصلها البعثات التبشيرية اللعينة ، أتطلع إلى البحر ، بصحبتي فتاة حلوة تعتني بي ، أتأمل حياتي ، أتمشى على طول الساحل جيئة وذهاباً ، أطالع الكتب التي عزمت على قراءتها ، أتقلب في ذلك البحر ، أحترق بتلك الشمس ، وألتهم الطعام .. « يا إلهي ، يا للسرعة التي ثملت فيها ! » لعلي سأبكي قليلاً وألملم شتات نفسي . لكنها لن تكون الذات نفسها . أنا أضمن لك هذا » . قمت على قدمي لأنني لم أشأ إحراج بربارة التي طلبت مني الاستعداد للمغادرة . « بعدها » . قلت فجأة ، من أجل بربارة ، صحوت ثانية وابتسمت . « ربما أعود إلى العمل . أو ربما ألتحق بالكنيسة . إلا إذا لم تكن هناك كنيسة » . لم أكن صاحياً . كنت في غاية الكآبة .

قال ألفين : « يا رجل ، هناك عدد كبير من الكنائس » .

« تلك هي قضيتي بالضبط » قلت . قومت جذعي . قومت جذعي فعلاً هذه المرة ، ثم انحنيت لآخذ بطاقتي وأشرطة التسجيل والأسدين .

« سامحوني . الآن ، عليّ أن أرحل » .

انحنيت . قبلت أمي في خدها . وقف ألفين . تصافحنا بالأيدي . أخذ الدكتور إيفين أشرطة التسجيل والبطاقة مني وأخذ بيتي الأسدين .

قال لي : « فلنذهب يا زميلنا القديم » أخذ ذراعي وسرنا باتجاه الباب . لكنني توقفت كي أقبّل ممرضتي الصغيرة المندهشة فوق جبهتها .

قلت لها : « أتمنى لك الخير . تعالي لزيارتي في وقت قريب .. وقت قريب ، إن شاء الله » .

قالت لي : « سآتي لزيارتك . أنت تعرف أنني سآتي » . بدت منبهرة ، متألقة ومرحة – هذه الفتاة الصغيرة ، المسكينة . كان عليها أن تفرغ برازي وتغسل مؤخرتي وأعضائي التناسلية . ستظل تتلمس ، أيامًا معدودات ، ذلك الموضع في جبينها ، حين طبعت قبلتي : علمني وجهها ، فوراً ، شيئًا عن قوة الذكر وأمل الأنثى ، شيئًا عن عزلة الذكر والأنثى ، وعمّق وجهها ، فوراً ، قلقي المر على الرياء اللامحدود والكافر لبلدي .

بعدها – حين رفعوا الأنخاب – سرنا خارج غرفتي ، الدكتور إيفين ، وبربارة ، وبيتي ، وأنا ، اجتزنا الرواق المؤدي إلى المصعد .

قال الدكتور إيفين : « آمل أن نلتقي ثانية ، إنك تعرف أنني لا أقصد ما يبدو لك أول مرة » . ابتسم .

قلت له : « أتمنى كثيراً أن أراك ثانية . كنت لطيفًا جدا معي » .

« آه ! كان ذلك أمراً عسيراً جدا » . قال وابتسم ثانية . جاء المصعد ، أمسك بالباب وسلّم العلب التي يحملها إلى بيتي . ودع بيتي قائلاً : « مع السلامة » . وودع بربارة مثلما ودع بيتي . حلت فترة صمت . قبلته بربارة في وجنته ، ابتسم بيتي المثقل بالأحمال : « اعتنِ بنفسك » . خاطبني الطبيب بحزن . ثم سمح لباب المصعد أن ينغلق وشرعنا نهبط .

قال بيتي : « سيكون في الأسفل عدد من المراسلين الصحفيين . فكرت من الأفضل ألا يصعدوا إليك » . ابتسم ابتسامة عريضة . « المراسلون الصحفيون والشمبانيا لا يمتزجان » .

قالت بربارة : « سنكون في غاية الاستبداد ، وتخلص منهم بعجالة . المراسلون الصحفيون أكثر الطفيليات على سطح البسيطة إثارة للاشمئزاز . لو كان لهم ذرة

من احترام النفس لوجدوا صخرة وزحفوا تحتها » . وصل المصعد إلى الطابق الأرضي وفتحت الأبواب . أخذت بربارة ذراعي . يتقدمنا بيتي .

كان هناك عشرة أو اثنا عشر مراسلاً صحفيا ، يحملون أجهزة التصوير ودفاتر ملاحظاتهم . في الخارج طاقم التلفاز . من المستحيل أن تعرف شعورك حين تواجه زمرة من المراسلين الصحفيين ، وحين تتوامض حول رأسك وفي عينيك أضواء كاميراتهم . سوف تندلع في داخلك حرب عسيرة ، حانقة بصورة خاصة . إن الحقيقة المرة القائلة بأن المرء يصاب بعمى نصفي حين تكون الأضواء متقطعة هو نوع من العون . فذلك يعني أن المرء لا يستطيع رؤية كل شيء بوضوح تام ، وبخاصة لن يرى وجوه المراسلين الصحفيين . إذا نظر المرء فعلاً في تلك الوجوه ، فسوف ينتابه الغضب بالتأكيد . لكن الحرب التي ذكرتها حانقة وعسيرة – وفي داخل كل إنسان – لأن كل فرد يحب أن يلفت الانتباه ، يجب أن يشعر بكونه ذا أهمية . هنا ، الجميع حاضرون ، الغرور البريء يتنافس بفخر وكبرياء ، إنه هنا كي يتحدث إليك ، إنه هنا من أجلك ، أنت ، من الناحية الواقعية ، واحد أمام الملايين التي لا تحصى ، أنت نفسك أنباء ، كل ما تفعله أنباء . لكنك سرعان ما تعرف ، على الأقل طالما يحب المرء أن يعيش ، إنه لكي تكون أنباءً فإن هذا يدل في الواقع على أنك لا شيء ، وأن الاهتمام الذي تلقاه تقلبات المرء هي حصراً أكثر الوسائل غرابة ، علاوة على أنها توصي أن تجعل من مغامرات المرء الحياتية مسرحية هزلية . أفاق من نومه هذا الصباح ، أو لم يفق – في الحالتين ، هي قصة – إن نظف أسنانه بالفرشاة أو لم ينظفها ، إن تبول أو لم يتبول ، إذا ما تبرز أو لم يستطع أن يتبرز ، إذا ما ضاجع زوجته أو خليلته ، إذا ما ضاجع فتاه أم فتاه هو الذي ضاجعه ، في كل الأحوال ، هي قصة : كل هذه الأمور تبدو قصصاً بعيون المراسلين الصحفيين المتلهفة .

« كيف حالك يا سيد برودهامر ! شيء حسن أن نراك واقفاً على قدميك ! » .

قلت بطيش : « في الواقع ، أنا أتكأ على الآنسة كنك » .

استلم بيتي الكرة وحملها : « سيد برودهامر ، كما تعرف ، كان معتل الصحة ولا يمكننا أن نجعله يتكئ على الآنسة كنك وقتاً طويلاً جدا . إذاً ، دعنا نتخلص من هذا بسرعة » .

« أتريد كرسيا يا سيد برودهامر ؟ » سأل أحدهم ، وقبل أن تتيسر لي الإجابة ، جلب أحدهم كرسيا . نظرت نظرة قصيرة إلى بربارة ، التي هزت رأسها ، وجلست .

تناهى إلى أسماعنا خبر مفاده أنك ستمثل فيلمًا سينمائيا يحمل عنوان (مقدار كبير) . هل هذا صحيح ؟ » .

« لن أعمل مدة من الزمن . لم يتصل بي أحد فيما يتعلق بفيلم [مقدار كبير] » .

« ما هي خططك الحالية ، سيد برودهامر ؟ » .

« أن أسافر وأنعم بالراحة » .

« إلى أين ستسافر ؟ » .

« إلى فرنسا . وسأبقى فيها زمنًا » .

« لماذا فرنسا ؟ هل ثمة سبب محدد ؟ » .

« لي أصدقاء في فرنسا . أحدهم له بيت على ساحل البحر » .

« مقدار كبير » قال أحدهم ، فضحك الجميع . تخاطفت الأضواء، وتخاطفت ، انفرجت أساريرهم ، وابتسموا ابتسامات عريضة . لم أكن أتعب بسهولة ، لكنني تعبت الآن جدا إلى حد الإرهاق . فكرت مع نفسي ، رباه ، لابد أنني كنت متألمًا بشدة .

« ما هو شعورك ، يا سيد برودهامر ، فيما يتعلق بهذا ؟ بفيلم « مقدار كبير » ؟ أعني قبل بضع سنوات ، لم يحلموا أبدًا أن يشركوا زنجيا في هذا الدور » .

« اعذرني ، لم أطلع على سيناريو الفيلم » .

فكرت بكريستوفر ، كدت أقول : من هم (هؤلاء) الذين لم يحلموا ، ومن أين هو الزنجي ؟ لكنني قلت مع نفسي : اللعنة ، إن هؤلاء القوم ذوي العيون الواسعة ، العيون الثاقبة ، العيون المتقدة ، أبناء الزانية ، لا يعرفون أنهم يكادون يقتلون الزنوج ، أمام عيني .

« إنه دور يستطيع تأديته أي ممثل ، أعني لا علاقة للعرق بتمثيل هذا » . حدثت نفسي ألا أغضب ، ألا أتقف .

« أوه ؟ إذاً ذلك انطلاق عظيم لصناعة السينما . أشعر بالزهو لأنهم فكروا بي » .

« أوه ، هيا . سيد برودهامر . أنت أحد أكبر النجوم في بلادنا . لم يحقق ممثل أسود نجاحاً باهراً مثلما فعلت . حتماً هذا يعني شيئاً كبيراً بالنسبة .. لشعبك » .

لا تتأفف يا فتى . لا تتأفف .

قلت : « أعتقد أن هذا لم يساعدهم في دفع أجور السكنى » .

« أوه » قالت مراسلة صحفية، وهي سيدة بدينة من كوينز – عرفتها الآن فقط - « ثمة أمور أكثر أهمية من دفع الإيجار . ألا تعتقد هذا يا سيد برودهامر ؟ » .

أجبت : « لا . لا أظن . هل تظنين هذا ؟ » .

لست بربارة كتفي . خربشوا كل ذلك في دفاتر ملاحظاتهم – الله أعلم ما الذي دونوه . الله أعلم . إنني لم أبال . نظرت إلى بيتي . ونهضت على قدمي . نحى بيتي الكرسي جانبًا . قبضت بربارة على ذراعي . قال بيتي : « يا ناس . علينا الذهاب الآن . معذرة . لكنها أوامر الطبيب » .

بدأنا المسير . راحت الأضواء تتخاطف ثانية .

« آنسة كتك . ما هي خططك الحالية ؟ » .

« تنتهي رحلتنا الشهر القادم . في هوليوود . سأبقى . بعدها . كي أمثل فيلماً سينمائياً . [ابنة جيترو] » .

دونوا ذلك .

« ومتى ستشاركين السيد برودهامر التمثيل ؟ » .

فردت بربارة : « في وقت قريب جدا » .

« في السينما أم على خشبة المسرح ؟ » .

« في كليهما . وفي التلفاز » .

« هل لكما التزامات صارمة .. أو أي شيء يمكن أن يعلن للملأ ؟ » .

« نحن نقرأ السيناريوهات » .

« هل ستكونين على اتصال بالسيد برودهامر حين يكون في الخارج ؟ » .

« سأكون . أو ربما سيكون لنا مدير مكتب بريد جديد » .

« آنسة كنك .. أعرف أنك لا تبالين إذا ما قلت لك ما يلي . لعلك سمعت ذلك .. أحيانًا يلمح البعض إلى أن .. آه .. صداقتك مع السيد برودهامر أثرت بشكل سيئ أحيانًا على مسيرتك الفنية . أي ولنقل ذلك بفظاظة .. لأن بعض أجزاء البلد تتبنى آراءً رجعية جدا حول العرق . أنت بيضاء والسيد برودهامر زنجي . وأنتما صديقان . بعض الأدوار ربما كانت تسند إليك لولا صداقتك هذه . أليس هذا صحيحاً ؟ » .

« هل هو صحيح ؟ ليس لي أدنى فكرة . كنت فتاة صغيرة السن حين مثلوا فيلم (ذهب مع الريح) . لكني منذ ذلك الزمن مثلت بشكل جيد . شكراً لك » .

أصبحنا في مهب الريح . كان هناك طاقم التلفاز . دفع رجل ميكروفونًا نحوي . أمسك بيتي ذراعه وحملها .

قال بيتي : « كان هذا الرجل مريضًا . الآن . إذا أردت التحدث إليه . فعليك أن تكون رقيقًا ولطيفًا . وألا تنسى الموضوع كله » .

« معذرة . لم أقصد أن أكون خشنًا » .

قالت بربارة : « سؤال واحد . سؤال واحد فقط : إذا كان طاقمك التليفزيوني غير جاهز فهذا شيء سيئ جداً . السيد برودهامر ما يزال تحت الرعاية الطبية » .

لم ترق له لهجتها . تطلع إلي وإليها . وإن لم نكن نحن بربارة كنك . وليو برودهامر . ضحايا الاقتصاد على نحو يفوق قدرته البائسة على الإدراك - نظر إلى بربارة بفرو المنك . نظر إلي وأنا بمعطفي المطري الغالي جدا . وشاهد سيارة الليموزين السوداء الفارهة تنتظرني عند الرصيف . ما أحس به فعلاً قد اندفع إلى الخارج . وسالت دماؤنا في الشوارع . عليّ أن أقول - علاوة على ذلك - إننا تبادلنا النظر في عيون بعضنا . حمل الميكرفون . بدأت الكاميرات بالعمل .

« واجهتك معركة باسلة ضد الموت » قال . تبا لك ! قلت مع نفسي . « أسرتك برمتها إضافة إلى الآنسة كلك . أنا على يقين ، كانت تصلي أن يهبك البارى العافية وطول العمر . سؤال واحد . سؤال واحد فقط ، سيد برودهامر . لأننا ندرك أنك مازلت خاضعاً للرعاية الطبية : ما هو شعورك وأنت تعرف أنك تعني الكثير الكثير للجماهير الغفيرة ؟ » .

فكرت بكريستوفر . فكرت ببربارة . قلت له : « هذا يجعلني أشعر بأنه يلزمني المحافظة على صحتي . يجعلني أدرك أنني لست ملكًا لنفسي ، بل ملكًا للجماهير » .

لاحت عليه حيرة شديدة ، لكنه ابتسم : « شكراً ، سيد برودهامر » .

« شكراً » ، قلت . ودخلنا في السيارة .

مرت أمي وهي تتحدث إلى آلفين ، ثم مرت سيلفيا وهي تتحدث إلى أندي . لوّح لي الجميع . مشت السيارة إلى أمام ، صاعدةً التل .

الواقع ، لا أطيق أيا من المدن الأمريكية التي أعرفها ، وقد عرفت ، أو على الأقل زرت معظمها . معظمها بدت لي شديدة الخشونة وعدائية وشديدة القبح . حين تتمتع مدينة أمريكية بسمة مميزة ، أو نكهة خاصة ، فإنها تميل إلى أن تكون ، كما في حالة شيكاجو ، على سبيل المثال ، أشبه بحساء يحتوي على كل شيء ، لكنه الآن أصبح قديماً ، فاتراً ، كريه المذاق ، فسدت كل محتوياته . كل المدن الأمريكية تبدو وكأنها تغلي في نوع من الحلوى المغموسة بالدم ، حلوى ثخينة ، لزجة ، كريهة الرائحة ، لاذعة . ينتابك حزن شديد وأنت تجتازها ، على سبيل المثال ، نيو أورليانز ، وتسأل نفسك لماذا تكون مدينة ليس فيها حواجز طبيعية لا تقهر ، غير قابلة للسكن بصورة لا ترحم . أظن أن بعض المفاتيح توفرها لنا الوجوه ، التي تبدو غير مسكونة ، أيضاً - على الأقل من قبل أي من الصفات الإنسانية الواعدة جدا . هذه المدن تشبه (الشرطة) أو الناس الذين يتمنون أن يصبحوا شرطة ، أو أنها تشبه الناس الذين لا يرغبون أن يصبحوا شرطة . وقد ظننت دوماً لو تسنى لهتلر أن يمتلك قوة بوليسية ولنقل شرطة كاليفورنيا تعمل لصالحه ، فإنه حتماً كان سيبقى في مهنته حتى الآن - وهذا لا يعني أنني مقتنع بأنه لن يحال إلى التقاعد ، بل أعني أن المهنة تحمل اسمه فقط - لكن ،

بصورة مريبة . مع ذلك ، أحب سان فرانسيسكو لأنها تقع على تلال عديدة ، يبدو المرء وهو إما صاعد أو نازل ، ولأنك قادر على السير بمحاذاة الماء وأن تشترى السرطانات من الشاطئ ولأن ثمة وجوهاً كثيرة جدا لأناس لا يرغبون أن يصبحوا رجال شرطة . لعلى على خطأ . لولا ذلك ربما ما كنت قادراً على العيش فى سان فرانسيسكو . مع ذلك ، كنت سعيداً دوماً برؤيتها ، أنا في غاية السعادة ، اليوم ، حين تحركت السيارة ، صعوداً ونزولاً ، حين رأينا بعض المنازل الحقيقية ، منازل بدت وكأنها تضم أناساً حقيقيين ، مسرورين بمدينتهم ، حين رأينا الماء والجسور المذهلة ، تحت الشمس الباردة ، الهرمة . كانت جميلة جدا . اتكأت بين بربارة وبيتي . أغمضت عيني وسمحت لهم أن يأخذوني .

أيقظوني . في غضون دقائق قلائل رحت في نوم عميق . قبضت بربارة على ذراعي ، حين صعدنا درجات سلم عمارتها الحجرية . اجتزنا الرواق المزخرف ، ودخلنا المصعد . جلب بيتي ملابسي .

كانت بربارة تسكن شقة مؤجرة ، ذات نوافذ واسعة تشرف على الخليج . كانت الشمس قد بدأت تتحدر . كان مسكن بربارة ، على الأقل ، هذه الحجرة الواسعة ، بيضاء ، ضاربة إلى الصفرة ، جعلتها الشمس حيوية جدا ، ذات ستائر سميكة جدا ، بلون أزرق غامق . كانت حجرة رائعة بهية . كانت الشمس قد لفحت وجهي ، كانت مدهشة . سرت إلى النافذة ، ووقفت عندها .

أقبلت بربارة ، أخذت سترتي ، ثم انشغلت بشيء ما ورائي ، في المرافق الصحية ، في المطبخ ، في حجرة النوم ، في الحمام ، وفي المطبخ ثانية . رن صوت الجرس الكهربائي ، وأصخت السمع لكعبي بربارة في الممر غير المفروش بالسجاد ، وسمعت بيتي يدخل . كان الوقت حوالي الرابعة عصراً وشمس الشتاء تكاد تأفل . لم أتأمل الشمس وهي تغطس في الماء ، وهكذا بدت لي ، مويجات البحر أشبه بالورق الفضي الذي لعبت به إبان طفولتي . أشعة الشمس بدت كأعواد ثقاب تشتعل فوق الورق الفضي ، وتحيله إلى اللون الداكن . تحركت المويجات مثلما كان يتحرك الورق الفضي تحت يدي . لكن الصوت كان مختلفاً . ثمة ريح تهب على الماء ، سمعتها تعول ، صوت عويلها يكاد يصل إلى مكاني عند النافذة .

أقبل بيتي ، وقف بجنبي .

قال لي : « منظر رائع » .

« نعم . نعم . هو رائع فعلاً » .

أقبلت بربارة إلى النافذة : « ليو . هناك منامة ومبذل موضوعة على سريرك . أقترح أن تبدل ملابسك .. الآن حالاً . بعدها يمكنك أن تشرب معنا ، أثناؤها يكون حمامك جاهزاً » . أبعدتني عن النافذة . « خذه يا بيتي ، دعه يسترح ، سأحضر الشراب » .

ابتسم بيتي . عاد معي إلى الحجرة . « لا نريدك أن تشعر بأننا نواصل العرض المسرحي ، يا فتى .. » .

قالت بربارة : «بالتأكيد لا . لكننا نواصل العرض » .

طيب . الشيء الوحيد الذي يهتم به الناس هو أنهم لا ينالون اهتماماً جيداً ، أو أن الثمن غال جداً - الأمر سيان . غير أن بيتي وبربارة يكنان الحب لي . سررت حين عرفت هذا . سررت حين أدركت أنني أعرف هذا . ذلك أن الناس أحبوني ، حين كنت لا أجرؤ حتى على معرفة ذلك ، آذيتهم . آذيت نفسي ، أذى شديداً . وراء نبرة بيتي ، وراء حسم بربارة العنيد ، يكمن خوف حقيقي . مع ذلك ، كانوا أن يفقدوني . وفي الحال ، القارة ومن بعدها المحيط ، سوف تفرقنا إلى الأبد ، عند ذاك لن يكون بمستطاعهم أن يضايقوني وأن يضطهدوني وأن يعتنوا بي . وسأكون قادراً فقط على كشف حبي لهم من خلال الإذعان لاضطهادهم ، من خلال محاولة البرهنة بكل أفعالي على أنني أكن لهم الحب الحقيقي ، الآن ، وأن أعتني بنفسي في حين لا يملكون غير التقارير عن كوارث الفضاء أو فوق سطح البحر ، أخبار الزلازل هنا أو هناك ، أخبار الثورات هنا أو هناك ، الخرائط ، السماء المشمسة أو العاصفة ، والبريد غير الجدير بالثقة . شرعت أسير صوب حجرة النوم ، طرحت سترتي وربطة عنقي في أثناء مسيري ، ساعدني بيتي في نزع ملابسي ، ارتديت منامتي ومبذلي ولبست نعلي القديمين .

كانت النار مشتعلة في الموقد ، وكانت بربارة قد سحبت الكنبة قريباً من الموقد ، وكومت الحشيات فوقها . غصت في الحشيات ، شعرت بأنني كالباشا . دخلت بربارة ، وزعت كئوس الشراب . جلست على وسادة كبيرة قرب الموقد ، وأشعلت سيجارة .

قال بعد لحظة : « اسمع ، أتعتقد حقا أنه من الحكمة أن ترحل بعيداً في الحال .. وحدك ؟ أليس من الأفضل أن تبقى هنا أياماً معدودات ؟ » .

قال بيتي : « أنا وبربارة سنتولى رعايتك . سنتبادل الأدوار في إعداد حساءات خفيفة مغذية لك وللجميع » – ضحك – « بوسعك البقاء في شقتي لأن الصحفيين سوف يدمرونك أنت وبربارة حتى الموت إذا ما عرفوا أنك تمكث هنا » تأملني . « لأنك، يا رجل ، مازلت متعباً . لا أظنك تعرف كم أنت متعب » .

قالت بربارة : « لست ملزماً باتباع جدول معين . أنت غير ملزم بالحضور في مكان وزمان معينين . لو كنت في مكانك ، لاعتبرت هذا ترفاً ، ولفعلت ما أشاء » .

تأملت النار . حاولت أن أكتشف ما الذى أردت أن أفعله . شعرت بالتعقيد بسبب حقيقة كوني لا أعرف أن أفعل شيئاً – آنذاك – سوى الجلوس بالقرب من النار ، كما أفعل الآن ، مع صديقي ، شاعراً بالطمأنينة والأمان . ما إن أخرج من هنا حتى أفقد شعوري بالأمان . سأكون هدفاً من جديد . كنت مرهقاً ، هذه حقيقة ، مرهقاً ، إضافة إلى ذلك ، وربما ، سأكون هدفاً ، متعب من اتخاذ القرارات ، متعب من المسئولية . وعلى مدى مدة زمنية ، سيقولون ، هم يعرفون أن ذلك لن يستمر سوى مدة ، مدة وجيزة ، ما كان ينبغي لي أن أفعل ذلك : سيفعلون لي ما يفعلونه ، وسأحبس أنفاسي ، وأنعم بالراحة . لكنني عرفت أنني أخشى رؤية كاليب وزوجته وطفليه ، أخشى رؤية والدي ، أخشى رؤية نيويورك . هل أتخلى عن كل ذلك أم آخذها معي كلها ؟

سألت نفسي : هل من الضرورة ، يا ليو ، أن أفكر بهذا الأمر بمثل هذه الطريقة الميلودرامية المحاصرة ؟ لا تكذب . إن كنت مرهقاً فاسترح .

« كلامك ذو مغزى . مهما طالت فترة بقائي فإنني سأرحل في خاتمة المطاف » .

قالت بربارة : « لكنك لا تجرى في سباق . افعل كل شيء في وقته .. افعل كل شيء بمراحل بسيطة » .

قال بيتي : « لا يهمنا الوقت الذي تختاره للسفر إلى فرنسا . يمكنك أن تمكث في البيت ما شئت . إن مدبرة منزل باري لا تأبه حين تذهب إلى هناك . الواقع يطيب لها أن تكون إقامتك طويلة الأمد » .

« فكرتك هذه صائبة تماماً » . قلت . ابتسمت . وارتشفت شرابي .

قالت بربارة : « أنا فقط لا أريدك أن تغدو مرهقًا جدا . أنا لا أبالي كثيراً فيما إذا رافقك شخص ما .. لكن .. ونيويورك ستكون مصدراً للتوتر الشديد » . قرعت البلاط بقدمها . وتطلعت إلى بيتي . « في الواقع . بعثنا في طلب كريستوفر كي يأتي إلى هنا ويعيدك إلى المنزل . كريستوفر . رجل حماية ممتاز . على غرار بيتي تقريباً » . وابتسمت : « بصراحة . مازلت أعتقد أنها فكرة جيدة » .

أيدها بيتي على الفور . قال : « أنا . أيضًا . أعتقد هذا . لمَ لا نفعل ذلك ؟ لنقل أنه سيصل هنا في بحر يومين . حسنًا . بوسعك البقاء في شقتي . يمكنك أن تقرأ وتسمع أشرطة التسجيل . افعل ما شئت . خذ السيارة وطف المدينة .. وحين يأتي كريستوفر سوف يبحث عن كل حانات المدينة الرديئة . وسوف يتعرف على كل بائعات الهوى السوداوات ويستطلع آراء كل الثوريين السود » – ابتسم ابتسامة عريضة – « عامله بالإحسان . سوف نجعلكما أنت وهو تسافران معًا في الطائرة . سأشعر بأني أفضل حالاً . يا رجل . لأننا لا نريدك أن تتسكع ومعك أمتعتك وكل أولئك الناس السذج والسيد والسيدة الوضيعين الراكبين معك في الطائرة اللعينة يرهقونك قبل أن تحط الطائرة على الأرض بسلام» .

قالت بربارة : « لو كان كريسترفر في تلك الطائرة فإن ربات البيوت من ريس موينس صيادات التواقيع سوف يبقين بعيدات عنك . صدقني » .

قال بيتي : « سيظنون أن كريسترفر مرسل من قبل الماو ماو[1] » .

(١) قبائل أفريقية من كينيا . (المترجم)

قلت : « من المؤكد يبدو كذلك .. اللعنة ، أظنه كان واحداً منهم » . وضحكنا .

قالت بربارة : « وسترى أن السيد والسيدة الوضيعين سيتأثران بشدة بحيث إن الرسائل التي تصل إليك سيرتفع عددها بصورة لا تصدق . يجدر بالمرء أن يفكر بهذه الأمور » .

ضحكت : « أنت مقنعة جدا » . اتكأت على الحشيات – لِمَ تجعلنا النار نشعر بالأمان ؟ – « ولعلك على صواب . دعيني أفكر في الأمر مليا » .

قال بيتي : « حسناً ، إن كان شقيقك سيلتقيك غداً ، فليس أمامك إذاً متسع من الوقت للتفكير .. علينا أن نخبره » .

قالت بربارة : « ونخبر كريستوفر » .

لم تكن لي اعتراضات عملية ، على أية حال . كنت مرهقًا جدا لذا تعذر عليَّ الاعتراض . لم أشأ الابتعاد عن هذه النار ، أو هذه الحجرة ، لكن جل ما وددته أن أغادر البلد . عشت في البلد وسط كل هؤلاء الناس اللدودين ، الخطرين ، الذين جعلوا حياتهم ، وحياة كل من يحيط بهم ، شديدة السطحية ، مبتذلة ، عديمة البهجة ، مرة ، فكرت أنه سيأتي يوم أكون قادراً على أن أرحل عنهم جميعًا – والحق ، جاء هذا اليوم : أفارقهم فيه من خلال إبقائهم بعيدين عني . ليس لي شيء ضدهم ، على وجه الخصوص ، أو لي أشياء كثيرة ضدهم بحيث إن القائمة الآن لن تتطابق ، ولذا أصبحت لا علاقة لها بالموضوع . سكان حينا أثروا بي ، ببساطة ، لأنهم جميعًا أكثر الناس في العالم خواءً وبعداً عن الجاذبية . يبدو أنه ضياع كبير لسنوات حياتك الوحيدة إذا ما حكم عليك أن تصاحبهم تلك الصحبة المهذارة ، الفاسدة ، المثيرة للشفقة ، غير النزيهة بصورة هستيرية . ثمة أشياء كثيرة أريد أن أفعلها ، ثمة أناس كثيرون أريد رؤيتهم ، ثمة طريقة أخرى للحياة ! رأيت هذه الطريقة وعرفتها . لكنني أدركت أيضًا أن ما شاهدته ، شاهدته من مسافة ، مسافة حددها ماضي حياتي . كنت جزءًا من هؤلاء الناس ، مهما يكن حكمي مرا عليهم . لن يكون بوسعي مغادرة هذا البلد . يمكنني مغادرته مدة وجيزة ، مثل الغريق الذي يخرج إلى الهواء ثانية . كان أمامي خيار الموت مع هؤلاء الناس الذين حكم عليهم بالفشل ، أو أن أهرب منهم ، أن أتنكر لهم . وبهذه الطريقة أهلك . كان ذاك فخا ماكراً ، ومزحة شديدة المرارة .

ذلك أن هؤلاء الناس لا يتغيرون أبداً ، لا يمكنهم أن يتغيروا ، لا طاقة لهم على التغير هذه الكلمة تجعل عيونهم تفقد تركيزها ، وشفاههم ترتخي أو تزم ، وتجعلهم يهرعون إلى ملاجئ القنابل . لذا ، كنت في الواقع كارهاً بعض الشيء لرؤية كريستوفر ، الذي كان مصيره مرتبطاً بهذا الأسى أشبه بارتباطه بي ، لكنه يظن أن خياراته وإمكاناته مختلفة . الواقع ، كان كذلك فعلاً ، ينبغي أن تكون كذلك : ومهما كانت إلا أنها لا تتكشف لنا إذا ما حدقنا بوجه أمريكا الضخم الحجري . كنت أكبر كريستوفر بحوالي عشرين عاماً ، مما يجعلني أشعر بالحياء ، عادة ، وأنا أصغي إليه ، أراقبه ، أستوعب دورة أيامه الرهيبة ، وأن كل جهودي ، كل جهودي على مدى مدة طويلة ، لم تقلل خطره ولو بدرجة طفيفة ، ولم تحلّ الكأس المرة ، وبما أنني كنت أكبر من كريستوفر بكثير ، كنت أعرف أحسن منه ويا له من مبرر صغير أن أؤيد كون خياراته وإمكاناته مختلفة . كان يلزمني أن أؤيده لأنني أحبه وأقدره . عليّ أن أتفق معه ، لأنه من الجريمة أن نلغي اليأس . على أن أتفق معه لأنه إذا كان بإمكاننا إنقاذ إنسان واحد فبمستطاعنا إنقاذ عدد غفير من الناس . لكن ، في الواقع يبدو لي أن خيارات كريستوفر وإمكاناته يمكن تغييرها فقط حين تتغير البنية الحقيقية : وإن البنية الممسوخة ، الشوهاء ، التي ولدنا بها ستكون قاسية جدا بصورة مؤكدة تقريباً بحيث إنها ستنسف كريستوفر وتنسفني ، وتنسفنا كلنا . من ثم - كيف ذكر الإنجيل ذلك ؟ سيعرف كاليب - لعل الله سيرفع الناس الذين يمكنهم أن يفقهوا . لكن الرب لن يخلق الثقة . أسلمت نفسي لقدرات كريستوفر . لعل الله سيلتحق بنا أخيراً ، حين يقتنع أننا على الطريق القويم . بعدها ، سيمرر الباري قائمة الحقوق المدنية وسيكون جميع الملائكة متساوين وكل عباد الله يلبسون الأحذية .

عرفت أنني كنت شديد الخجل ، قليل النزاهة ، أكثر مني قليل الخوف ، سألت : « هل أنت على يقين من أن كريستوفر يرغب بالمجيء إلى هنا ، في بحر يومين فقط ؟ » .

قال بيتي وهو يمص أسنانه بتسلط : « سيأتي هنا على الفور إذا استطاع الحصول على كسرة خبز » .

هزت بربارة رأسها ، رشفت كأسها ، وتأملتني . سألت نفسي ما إذا سينتابني القلق لو رأيت من جديد بربارة وكريسترفر معًا - غالبًا ما تكون الحياة عاهرة . أظنها عرفت أنني سألت نفسي هذا السؤال . انتظرت ، وفي الختام قلت : « حسناً ، إذا ظننتما أن هذا هو الأفضل .. فما عليكما إلا أن تلقياني فوق البرميل ! » .

حين قلت ذلك ، لم أتمالك نفسي من الابتسام ، ابتسم بيتي وبربارة وانحنيا أحدهما للآخر ورفعا كأسيهما علامة النصر . أقبلت بربارة ، وقبلتني . « الآن ، قل الحقيقة ، لم يكن ذلك عسيراً ، أليس كذلك ؟ ألم تشعر بالراحة .. حتى ولو بصورة طفيفة ؟ » .

أجبتها : « ربما . قليلاً جداً . لكن نصرك ، يا أميرة ، سيكلفك شيئًا . أرغب بكأس أخرى » .

أخذتُ كأسي . « حسنًا . بعدها . ستأخذ حمامك ، أليس كذلك ؟ لأنني طلبت أن يبعثوا لنا وجبة غداء في غضون ساعة أو نحو ذلك .. وجبة غداء ممتازة ، تحوي صنوف الطعام التي تشتهيها نفسك ، ومن المؤسف أننا سنأكلها باردة » . مضت إلى المشرب وصبت لي كأساً .

قال بيتي : « هل رأيت ، بربارة ، قلت لك إن علينا أن نبعث في طلب الهر » .

« أوه ، لكننا بهذه الطريقة ، سنبقي ليو معنا ، يومين آخرين ، على الأقل . كيف يتسنى لنا أن نعرف كم يستغرق كريسترفر من الوقت للوصول إلى هنا ؟ » . غمزت بعينها لبيتي ، وضحكت ، ثم عادت ووضعت الكأس في يدي .

سألتها : « هل يمكنني تدخين سيجارة ؟ » .

أجابت بربارة : « يمكنك تدخين سيجارة واحدة الآن . وأخرى بعد الغداء . سيجارتان فقط . هذا شيء خطير . حين تبتعد من هنا ، عليك ، في الواقع ، أن تبذل مجهوداً في هذا الشأن .. عليك أن تراقب مقدار ما تشربه ، الواقع ، السجائر أكثر ضرراً بصحتك من الشراب » . تأملتني بقلق وتجهم . أشعلت سيجارة ووضعتها بين شفتي . « ها هي ذي . لا تقل أنني لم أعطك شيئاً » .

أخذت نفساً من السيجارة بدا طعمها غريباً ، غريباً بعض الشيء كالسجائر التي تذوقتها حين كنت صبيا ، حين تعلمت التدخين أول مرة . نظرت إلى السيجارة . أعدتها إلى بربارة . قلت : « ربما سأحاول التدخين بعد الغداء » . رشفت كأسي ، ثم وضعتها على الطاولة . حدقت في النار .

ما كنت أكره الكلام . كان لي كلام كثير . ربما كانا يعرفان ما أردت قوله ، لكنني لم أتكلم ، وهكذا بقيت أحدق في النار المشتعلة في الموقد . تكلما إلى بعضهما ، مخفضين صوتهما بصورة لا واعية : وأنا أحدق في النار . كانا يتكلمان عن خفايا المهنة ، انهمكا في القيل والقال مدة ، ضحكت كثيراً . انتبهت إلى أسنان بيتي البنية بعض الشيء في وجهه الأسمر ، الشرقي ، انتبهت إلى ضحكة بربارة الصافية جداً الشبيهة بخرير الماء فوق الصخور ، شيء جميل أن أسمعهما . جعلني ذلك أشعر بالأمان . عرفت أنهما لا يباليان ما إذا تكلمت أم لا . كانا فرحين - بل فخورين - لأنني قادر على التحديق في النار ، وأنني حر في تأملي للنار .

ماذا قالت النار ؟ الآن ، أدركت أنني سأعيش ، على الأقل ، ردحًا من الزمن ، لاحت النار أكثر دفئًا من قبل ، رشفت شرابي ، تأملت ذلك الكون المفتت ، المهتز ، المتألق . ارتفعت ألسنة النار ، ارتفعت إلى أعلى مثل شجرة أو برج - برج مصنوع من الهواء ، يرفع نفسه أعلى فأعلى ، مزهو وفخور حتى في سقوطه . النار تتغير باستمرار كل ثانية . لن تطمئن ما لم تخضع كل شيء لسطوتها ، وأن يلبي رغبتها ، وأن يكون جزءًا منها . فكرت بالشهداء ، بالقديسين ، بالسحرة ، يهلكون في النار ، بينما الحشود الكبيرة تتأملهم وتشعر أن اللهب ، بهذه الطريقة ، يطهرهم . الإنسان الذي سرق النار سلمنا أداة خلاصنا ، ونحن كالنار نتغير باستمرار كل ثانية ، وكالنار أيضًا لا نتغير . كيف شعر الذين كتب عليهم أن يجعلوا من نقائنا صافيًا ، حيث أوتي بهم مربوطين بالسلاسل إلى المكان المقرر وربطوا إلى الوتد أو السلم ، متأملين وجوه أشقائهم الذين ألقموا النار حطبًا مما جعل ألسنتها ترتفع ، متأملين تلك الوجوه حتى تداخل الدخان والنار والمعاناة ، حتى يدفع الجسد الآثم جزاءه والحشد الكبير تم تحريره ثانية ؟ يا له من قرار هائل هذا الذي تم اتخاذه ، يا له من قانون هائل هذا الذي تم تطبيقه ، منذ أمد طويل مع هدير الراحة والموافقة الشاملتين : إن تدمير الآخر

وحده الذي يجلب السلام للروح ويكفل تنظيم الكون ؟ قالت النار ، بصوت كاليب : «تنح عن الإنسان ، الذي نفسه في منخريه : ففي أي شيء يمكننا أن نحسب حسابه» سألت نفسي ، لماذا تعتبر فضيلة ، بل هي أسمى الفضائل ، أن تزدري نفسك وكل الناس الآخرين . لابد أن آباء الكنيسة كبار السن كانوا زمرة قذرة من التافهين والجبناء ، وبقوا على هذه الحال ، وماذا يفعل شقيقي في تلك الزمرة ؟ في أي مكان آخر يوجد نفس الإنسان ، يا كاليب ، غير منخريه ؟ سألته : أنسيت ، أنسيت ، أجساد آبائنا التي احترقت في تلك النار ، عظام رجالنا التي سحقها ذلك الغضب ، حرمة نسائنا التي افتضحها ذلك الانتزاع ، أطفالنا تحولوا إلى يتامى ، إلى مخلوقات أقل شأناً من الكلاب بفعل تلك الاستقامة الشاملة ؟ أوه ، نعم ، نعم ، نعم ، اصفح عنهم ، دعهم يفسدون ، دعهم يعيشون أو يموتون ، لكن كيف يمكنك أن تكون في زمرة قتلتنا ، كيف يمكنك أن تقبل ذلك الصليب الهائل ، كيف يمكنك أن تقبّلهم قبلة الحب ؟ كيف يتسنى لك ذلك ؟ سألت عن كاليب ، الذي كان يعول ويتوعدني وهو في النار ، لم أحادث كاليب سنوات عدة ، سنوات عدة وطنت نفسي على عدم التفكير في كاليب . لكنني سأراه قريباً جداً مع زوجته وأطفاله . أما أنا الذي وقعت مؤخراً في شرك الموت ، فقد عدت إلى شقيقي ، كم اشتقت لرؤيته . أنا أحتاجه : لكن النار التي تفصلنا تتميز غيظاً .

سمعت بربارة تقول من مكان قصي : « طيب ، بالطبع ، إن بعض مشكلة أمي يعزى إلى كونها ممثلة صغيرة مهذبة .. الواقع ، هي واحدة من أفضل الممثلات الشابات اللاتي عملت معهن . لكن بوب لم يفجر طاقاتها بصفته مخرجاً .. الحقيقة ، هو لم يخرجها بشكل جيد . لذا ، بالطبع ، لم تشعر أبداً بالطمأنينة مما جعل الجميع يتميزون غيظاً ، لكنني لا أظن أن اللوم يقع على أمي . إن رأي سيلفيا في هذا الشأن خاطئ » .

« أوه ، طيب . سيلفيا . كانت تخشى أن الطفل (يلخبط) ذلك المشهد الوجداني الذي مثلاه معاً » .

« فعلاً ، لم يكن تمثيل أمي جيداً في ذلك المشهد . ذلك لأنها خائفة من سيلفيا . ولأن بوب كان خائفًا من سيلفيا . كان يخشى أن تشتمه سيلفيا إذا ما جعلها تمثل حسب مشيئتها . ما الذي تفعله أمي المسكينة غير الوقوف هناك . تدبر خطة للابتعاد عن تلك الزاوية حيث لا يراها أو يسمعها أحد . حيث تدبر لها سيلفيا المكائد دومًا ؟ » .

ضحك بيتي : « حسنًا . مثلت سيلفيا أدوار الخادمات والريفيات على مدى خمسة وأربعين عامًا تقريبًا . تكدح ، وتبتذل . الآن . على الأقل . تخلت عن هذه الأدوار . وهكذا أنت تعرف أنها عازمة على أن تؤدى معظم الأدوار » .

« مع ذلك . لم تفعل . سيكون المشهد أفضل لو أنها لم تفرض سطوتها على أمي . وتجعلها تمثل بمشيئتها . ولو سار المشهد كما ينبغى . ستقدم سيلفيا عرضاً أفضل » .

« حسنًا .. قلت ذلك لممثلتنا الأولى السوداء » .

« أوه . لا . ليس أنا . هى لا تصغي أبداً إلى أى شيء أقوله . حاولت أن أعطى أمي مؤشرات قليلة . لكنها لم تنفعها كثيراً . على أية حال . الحمد لله . انتهت الجولة » . مسحتني بنظراتها . « هل أنت مستعد للاستحمام ؟ » .

« هل ستذهبان أنتما الاثنان إلى المسرح ؟ » .

« الليلة مسرحنا مغلق . لم نخطط لإخراجك من المستشفى في ليلة نقدم فيها عرضاً مسرحيا » .

هذا شيء ذو مغزى . يلزمني التفكير به إلا أني لا أرتبط بجدول معين منذ مدة طويلة . كما أنني نسيت ما هو هذا الجدول .

قلت : « بيتي . حين أصابني المرض هل بدأ أخي بالمجيء إلى هذا المكان ؟ » .

رد بيتي وقد لاح عليه عدم الارتياح : « حسنًا . لا أدرى إن كان عملي صائبًا أم لا . لكن هذا ما فعلته . أعرف أن الاتصال الهاتفي هو أفضل وسيلة مباشرة . لذا هاتفت نيويورك .. لحسن الحظ . كانت بربارة تحتفظ برقم هاتف منزله . وهكذا هاتفت

منزله وكلمت زوجته . لم يكن فى البيت ، بل فى الكنيسة . لذا قلت لها إنك مرتاح وقد اجتزت مرحلة الخطر ، لكن ينبغى عليك أن تأخذ قسطاً من الراحة ردحاً من الزمن ، ونحن نقوم بأفضل عناية ممكنة بك وقلت لها ألا تقلق . بدا من صوتها أنها شعرت بالارتياح ، شكرتنى وأعطتنى رقم هاتف الكنيسة فاتصلت بالكنيسة » . سكت عن الكلام .

« هل حادثته ؟ » .

« نعم . حادثته . كان مشغولاً بنوع من حافز الشباب . لم أتصور ما كان يعنيه بذلك . لكن بدا عليه أنه قلق عليك ، بيد أنى أخبرته أنك ستكون على ما يرام . بعدها أن يعرف ما إذا ترغب بمجيئه إليك . أراد منى أن أدرك أنها تضحية حقيقية بالنسبة إليه وبالنسبة للكنيسة ، لكنه قام بهذه التضحية لأنك شقيقه . حسناً » - كشّر بيتى - « أنا ، فى الواقع ، لا أعول كثيراً على تلك التضحية ، ولا أعتقد أنك تعول عليها أيضاً . كنت فى حالة لا تسمح لى بطرح الأسئلة عليك ، لذا قلت له لا ، ليس الآن ، سأكون ملازماً له وهذا هو كل ما فى الأمر » .

كان الصمت فى الحجرة صاخباً بعض الشىء . تأملنى بيتى باسماً . حركت بربارة الجمرات لإذكاء النار . قلت : « أدركت الآن ، أنه لم يكتب لى أبداً . لم أسمع منه كلمة واحدة » . انتهيت من احتساء كأس ، ونهضت . « كيف حصل أن التقانى عند هبوطى من الطائرة ؟ » .

« اتصل هاتفيا وسأل متى تأتى ؟ حسبنا أنه يلزمنا إخباره بذلك . فقال إنه سيلتقيك عند سلم الطائرة » . تأملنى بيتى ، بهزء ، بسخرية ، ممزوجة بعاطفة عميقة . « هذا هو كل شىء ، يا زميلى القديم . الآن عرفت كل ما أعرفه » .

نقلت بصرى من بيتى إلى بربارة . قلت : « أشك بهذا » .

قال بيتى بهزء : « قال كاليب إنه سلمك بين يدى البارى » .

فكرت : « إذاً تركنى هناك » . قلت : « ما من أحد منكن يا أمهات فعلتن ما فعله . أمل أن تشكرنه » .

« قلت إنني كنت متيقناً من أنك ستفرح إن أخبرناك بأننا سمعنا هذا منه » . ابتسم ابتسامة عريضة . « وأننا كنا في خدمة الله » . قهقهت . « طيب . على أن أغتسل » . سأغدو أكثر بياضاً من الثلج ، فكرت في نفسي ، ودخلت الحمام . كان الحوض مليئاً بالفقاعات الزرق الكبيرة. غطست في الماء . مسني الماء مسا خفيفاً . كان الماء جائعاً كالنار . لعق أعضائي التناسلية . لعق بطني ، حلمتي ، صدري . ملت إلى الوراء ، وضعت رأسي تحت سطح الماء ، اعتدلت ، وضعت يدي على رأسي المصوف ، المشبع بالماء ، مثل متوحش حديث التعميد . أكثر بياضاً من الثلج . اغسلني ، سأكون أنصع بياضاً من الثلج . يسوعي صخرة في أرض حزينة ، وكل خطاياي راحت بعيداً .

« قر يا نهر الأردن . عليّ أن أعبرك كي أرى وجه ربي » .

غنوا تلك الأغنية في مأتم أمي . كان ذلك المأتم مفاجأة كبرى . انتقلت والدتي إلى العالم الآخر حين كنت في السادسة والعشرين من عمري . آنذاك كنت قد اتخذت من التمثيل مهنة لي . كنت ممثلاً بحق وحقيقة . لكن في الوقت الذي توفيت فيه أمي كنت أعمل طاهياً في مطعم للمشويات . أعرف أنها ماتت وهي قلقة عليّ . لم أكن وثيق الصلة بأسرتي ، كما لم أكن قد اخترقت العالم بعد . التقت أمي بربارة مرتين أو ثلاث مرات : مرة ، حين أخذتها لترى حجرة بربارة في المسرح ، ومرة حين أخذت بربارة معي إلى المنزل ، ومرة أخرى بعد زمن « زقاق الجنة » بمدة قصيرة . ظننت أنها ستغرم ببربارة ، وأن بربارة ستكشف لها إلى حد ما العمق البائس لطموحي . لكن ، بينما كان والدي ، لا يحب ولا يكره بربارة بصورة خاصة ، لكنه يكترث بالهموم والمخاطر التي أمكنها أن تأخذني إليها ، وفرض عليها كالبيب العزلة الإلزامية في سجن للبغايا العنيدات اللاتي لا يمكن إصلاحهن - عنيدة لأنها بيضاء ، بغي لأنها امرأة ، سجينة لأنها بغي وبيضاء معاً - كرهت أمي بربارة . كرهتها بصورة بائسة . كرهتها كرهاً لا حد له . كانت تشمئز اشمئزازاً شديداً من بربارة بحيث أنها ما كادت تطيق النظر إليها . حاولت أمي تغطية شعورها هذا بدماثة خلق نيو أورليانز ، الدماثة التي لم نألفها من قبل نحن أفراد أسرتها ، دماثة أكثر تدميراً من السباب أو البصاق أو الضرب . ما يجعل هذه الدماثة لا تطاق كشفها عن خوف لم ألحظه لدى والدتي من

قبل . قالت لي مرة ، بصورة غامضة : « الآن ، أنت تعرف أن هذا ليس ما ربيتك من أجله . لم يكن هذا في حسباني ، أيها الشاب ، وعليك أن تعرف هذا الأمر ، ظاهره وباطنه » .

« ما الذي تتحدثين عنه يا ماما ؟ » كنت أدرك ما عنته . كانت تحاول عدم ذكر اسم بربارة ، لكن نبرة صوتها كانت لا تقبل الخطأ مطلقاً .

« أعني أنني لا أريد طفلاً أشقر الشعر ، أزرق العينين ، يزحف حولي هنا ويناديني (جدتي) . هذا ما عنيته . أنت تعرف جيداً ما أقصده » .

تنهدت . كنا وحيدين في المنزل . ربما كان يوم سبت . قلت لها : « ماما ، لم تزعجين نفسك بهذا الأمر ؟ هل قلت لك إنني سأتزوج الفتاة ؟ » .

« ربما تتزوجها . ربما تتزوجها .. أنت فتى أحمق . بعدئذ ما الذي سيجري لك أنا أجهله .. مع فتاة مبتذلة تافهة كهذه ؟ » ضحكت بصوت خشن ، حزين غير مستحب . « ها ، أنا لم أنشئك من أجل ذلك » .

وكما قلت ، كنت أعرف أنني قد ارتكبت خطأ . « ماما ، لماذا تقولين عنها مبتذلة ؟ هي تنحدر من عائلة غنية جدا في كنتوكي ، وهي طفلتها الوحيدة » .

قهقهت ثانية : « حقا ؟ وماذا تفعل هي بمالها ؟ تنفقه عليك ؟ » راحت تتفحصني بقسوة . لم يبد عليّ أبداً وكأن فرداً ما أنفق ماله علي « نعم . الآن عرفت من أين لك كل تلك الثياب الجميلة التي تلبسها ، حتماً هي من بونوت تلرز » .

جرحتني بحديثها . وعلى غرار الناس ، الأمهات أيضاً يمكنهن أن يجرحن . قلت لها : « حسناً ، ماما . ليكن هذا رأيك . بربارة مومس وأنا قوادها » .

« حسناً ، على الأقل » ، هتفتْ ، الآن – أنا الذي جرحتها – « هذا له معنى . على الأقل ، ستكون نافعة لك ! لن تتسكع هنا في فصل الشتاء ، نحيفاً كحمار الشغل ، مرتدياً تلك الخرقة البالية التي تجرؤ على تسميتها سترة ، منتعلاً حذاءين خفيفين ..

في فصل الشتاء ! ما الذي سيقع لك ، أيها الفتى الأحمق ؟ هل شوشت مخك هذه الفتاة لأنها شقراء ؟ » تنحيت جانباً ، وتابعت في حديثها بنبرة مختلفة ، أصعب من أن يتحملها المرء . « أظنك ستجعل من نفسك رجلاً ذا شأن ، كلنا يعتقد هذا ، كاليب يعتقد هذا أيضاً .. كنا فخورين بك على الدوام ! كنا ننظر إليك ! ننظر إليك فقط » .

قلت لها : « أظنك تعتقدين أن كاليب قد جعل من نفسه رجلاً ذا شأن ، وأنت ترغبين أن أكون على غرار شقيقي الأكبر » .

« كاليب رجل محترم . رجل محترم جدا . كنت قلقة دوماً على كاليب .. كنت قلقة دوماً على كاليب أكثر من قلقي عليك . لكن ، نعم ، كاليب جعل من نفسه شيئاً ، كاليب رجل عصامي شق طريقه بنفسه وكما تعرف شق طريقه بصعوبة بالغة ، بصعوبة بالغة ! لكن انظر إلى ما فعله .. لن يطول الوقت حتى يكون له منزل خاص .. » .

« نعم .. من كل قطع النقد التي نهبها من كل أولئك الزنوج الجهلة ! هل أنت فخورة بذلك ؟ هل ربيتني من أجل ذلك ؟ » .

« لا تتكلم عن أخيك بهذه الطريقة ! ليس لك الحق في الكلام نفسه ! قل لي ماذا تملك ؟ أنت لا تملك حتى دلوا عتيقاً لتتبول فيه . وأين تسكن ؟ هوه ؟ من أين سرقت مالك ؟ هوه ؟ أتنوي أن تخبرني بذلك ؟ » راقبتني . « حين تأتي إلى هنا يجدر بك ألا تكون متغطرساً ومعتقداً بأنك أفضل خلقاً من الآخرين . أخوك جعل من نفسه رجلاً . لكن ما من أحد يعرف حتى الآن من تكون أنت » .

التقطت الخرقة البالية التي أدعوها سترة . « طيب . أنا لست برجل . لن أكون رجلاً . انسي الموضوع . سأخرج من هنا » .

« الآن . إلام تعتقد أنك ذاهب ؟ أنت أتيت توا . والدك سيصل في غضون دقائق قلائل .. » .

« نعم . وسيصل أيضاً شقيقي الأكبر وزوجته ذات المؤخرة الضخمة وطفلهما ذو الرأسين . قولي لهم كلهم إن ليو الصغير كان هنا وذهب » .

« ليو ! ستعود إلى هنا ! » .

« لن أعود إلى هنا ! أنا ذاهب لرؤية عافرتي ! » .

« ليو ! أوه ، ليو . ماذا جرى لك ؟ لِمَ لا تكون الليو الذي ألفناه ؟ » .

هتفت : « لن أكون ذلك الليو الذي كنته ! لعنة على ليو الذي كنته . ذلك الفتى مات إلى الأبد . مات » . وخرجت من الباب ورحت أنزل درجات السلم .

يا للأسف . يا للخســـارة . كنت أعرف . حين خاطبتني أمي بتـلك الطريقة ، حين جرحتني أمي ، لم تكن لتقصد إيذائي . عرفت هذا . مع ذلك - فإنني جرحت . كنت خائفاً ؛ ربما لأنني اعتقدت آنذاك أنني أكبر من أن يجرحني أحد . وبخاصة أمي . لم أعرف - حينئذ - أي عصب هذا الذي ضرب بصورة لا ترحم في نفس أمي بسبب العلاقة التي تربطني ببربارة . كم تمنيت أن أعرف هذا . أحد الأسباب التي جعلتني سريع التأثر - آنذاك ، آنذاك - هو حيائي من مهنتي ، وتعلقي الشديد بها . الواقع ، ظهرت فوق خشبة المسرح كممثل محترف ، أوه ، أربع أو خمس مرات ، عملت مع مسارح صغيرة في طول البلاد وعرضها . مازلت أختنق بغبار تلك القاعات ، ولن أتخلص أبداً من نتانة وبرودة تلك الحجرات . يا إلهي ، أي أدوار تلك التي مثلتها ! أدوار - أدوار جديرة بحديث طويل . كان أول أدواري المسرحية كممثل محترف هو أن أحمل صينية . كان دوري يستغرق دقيقة واحدة تقريباً . كان علي أن أحمل الصينية إلى رجل بريطاني معتل الصحة ، الذي كان أحد ألمع نجوم المسرح . علي أن أخدم هذا الزومبي[1] طوال خمسمائة مرة ، وفي كل مرة أدخل فيها خشبة المسرح أقشر بيضته وأصب له قهوته ، كانت بريطانيا تأتي لتقف خلفي وتضربني بتحبب على خصيتيَّ . لم يستطع أحد رؤية ذلك ، لأنه كان يلبس مبذلاً مخمليا عريضاً يمتد وراءه ، لكنه لو فعل ذلك على مرأى من الجمهور ، لا أظن أن أحداً لاحظ أو اهتم بذلك : الناس يرون ما لا يرغبون برؤيته . حسناً ، تقبلت ذلك أطول مدة ممكنة - المسألة هي أنني تقبلت ذلك مدة طويلة جدا ، وقد فعلت ذلك ، كما كنت أقول لنفسي ، لأنني ظهرت إلى الجمهور - كنت كذلك فعلاً - كان عرضاً في أحد مسارح برودوي ، وبدا ذلك جيداً في مجمل مسيرتي . النهاية بيني وبين بريطانيا - وبين العرض - جاءت في أثناء عرض مسرحي نهاري حين وصلت قبله وسحبت خصيتيه وكأنني كواسيمودو يقرع الأجراس

(١) الزومبي : ميت أعيد إلى الحياة من غير أن يستعيد القدرة على الكلام وحرية الإرادة .

في كنيسة نوتردام[1] . لم تقو أمة على الحركة وكان من المفروض أن يكون في مقدمة المسرح كي يرحب بسيدة دخلت المكان توا ، وفي الوقت الذي سمحت له بالذهاب تعثر هو في مقدمة المسرح ، بدا كغلاية شاي تكاد تصفر . حسناً . مضيت في هذا المنوال ، ساءت الأمور . لا أظنني كنت سأبالي لو أنني عثرت على دور يمت بصلة بسيطة بالحياة التي عشتها ، بالحياة التي عرفتها . لو عثرت على دور لا ينتهك تماماً إحساسي الخاص بالحياة ، بحياتي . لكنني مثلت أدوار الندل ، كبار الخدم ، الحمالين ، الريفيين . طالما هؤلاء غير موجودين في الحياة التي عشتها ، إذاً ليس ثمة طريقة متخيلة يمكنني بها تمثيل هذه الأدوار . وهكذا أول الأشياء التي يتعلمها الفرد هي الاعتماد الأكثر خسة على أكثر الأعمال حقارة وخزياً . وأول الأشياء التي يتعلمها الفرد هو أن ازدراءنا الجمهور يعني موت الفن ، وأن التمثيل لا يعتمد أبداً على ما يراه الفرد ، ولا يعتمد أيضاً – لا سمح الله – على ما يحسه ، بل على ما جاء الجمهور لمشاهدته ، وعلى ما اعتاد مشاهدته ، بأيسر الطرق ، وبأكثرها رعباً ، هم يحتاجون إلى معرفة أنك سعيد كي يكونوا على يقين من أنهم سعداء . إن الوزن الخفي ، الطافح بالأمل ، في الميزان ، هو شيء واحد ، لا غير ، ألا وهو سحر الإنسان . لا أعني بذلك قدرة الإنسان على أن يكون مرضيا ، بل القابلية الأصعب – أو ضرورة – تغيير طريقة تفكير الإنسان بنفسه وطريقة تفكير الجمهور فيما وراء الحدود المتوقعة . يجدر بالمرء أن يغير الإيقاع : على المرء أن يجد الإيقاع الذي يسكت الإيقاع . إن ثمن ذلك هو هزل جيد عديم الرحمة ، ذلك أن النظارة وضعوا أنفسهم بين يديك من خلال عدم امتلاكهم الجرأة في الاعتقاد بأنك تعرف كل شيء عنهم . الناس يشاهدونك وأنت تكشف عن أسنانك ، فاتهم أن يلاحظوا أنهم أيضاً كشفوا عن أسنانهم – كشفوا كثيراً عن أسنانهم بسبب تلميحات حماقتهم .

لكن إذا كانت أدوار الحمالين ، الريفيين ، كبار الخدم – بطيئةً ومملة ، فإن تلك الجهود الأكثر عاطفية للمسرح الأمريكي كانت مربكة بصورة لا حد لها . أنا ، في الواقع ، مثلت ، على سبيل المثال ، في مسرحية « في حضن أبراهام » ، مرة ، في مسرح كنيسة صغيرة ، لعلها كانت في دنفير أو ربما في بروكلين أو بيرمنجهام .

(١) كوازيمودو : بطل فيكتور هوجو في رواية « أحدب نوتردام » . (المترجم)

كنت أصغر سنا بكثير بالنسبة للدور ، وما من شيء جعلني أصيب أو أخطئ . كان تمثيلي سيئاً . عرفت ذلك . لم أستطع سبر أغوار الشخصية المسرحية أبداً . لم أؤمن بأحزانها ، كما لم أؤمن بمرحها ، لذا لم أجد على الإطلاق سبيلاً لتمثيل المشهد الذي يتحسر فيه البطل بصوت عال وبإخلاص لأنه ضرب رجلاً أبيض . بدا وكأنه ضرب ابن الله . جلده الرجل الأبيض بالسوط : لماذا يجدر بالزنجي أن يعول لأنه تفاعل - بصورة متأخرة - على وفق قواعد المبارزة الأوربية ؟ إن تمثيل هذا الدور المسرحي أصعب من حمل الصينية . تحولت الصينية إلى جلمود ، والمسرحية إلى جبل عال ينبغي لي أن أتدحرج عليه - عليّ الهروب من المسرحية بشق النفس محتفظاً بكرامتي حين يسدل الستار . كان هدف المسرحية تثقيفيا : هل كان هذا فعلاً ما ينبغي علينا أن نتعلمه ؟ (الأب) يسامحهم ، قال كاليب ، إذ أنهم لا يعرفون ما يفعلونه . حسناً ، (الأب) يسامحهم إلى أن يأتي وقت أفضل . إنه لشيء سيئ جدا ألا يعرفوا ما يفعلونه - عرفت ما كانوا يفعلونه ، طوال مدة ما كانوا يفعلونه بي ، كنت أبذل قصارى جهودي من أجل أن ألقنهم درساً دمويا . لكن ذلك يجعل حياتي شاقة جدا ، ذلك أنني لا أملك قوة ، هشم بداخلي وإلى الأبد ، معظم ما وددت أن يبقى دافئاً ، حلواً ، وصريحاً .

بعد ذلك بوقت قصير ، في مسارح تجريبية صغيرة ، هنا وهناك ، مثلت أدواراً صغيرة كتبت لرجال بيض ، هذه مفاجأة مثيرة للفضول ومثيرة للأعصاب ، أنا أعرف ، في المقام الأول ، أنه مهما كان الدور الذي مثلته جيداً ، لنقل دور توم في مسرحية « معرض الوحوش الزجاجية » أو دور مياو في مسرحية ونترسيت[1] ، لم أكن أرغب بأن أعمل أجيراً لأداء مثل هذه الأدوار . إن أداء مثل هذه الأدوار بحاجة إلى نشاط من أجل إدراك طبيعة الخواء الذي يدور فيه المرء بصورة بائسة . كان الإصرار على تعلم ما اتضح بصورة مؤكدة بأنها لغة عديمة الجدوى شيئاً عسيراً جدا . مع ذلك ، ينبغي المرء أن يتعلمها . كم من المخزي أن يحكم عليك بأنك غير متأهب حين تأتي

[1] ونترسيت : مسرحية شعرية ألفها ماكسويل أندرسن وعرضت أول مرة في نيويورك عام ١٩٣٥ . الموسوعة المسرحية - الجزء الثاني - جون رسل تيلر - دار المأمون - ترجمة سمير عبد الرحيم الجلبي . (المترجم)

فرصتك ! أحببت أداء دور ميلو ، أحسب أن أدائي كان جيداً - مع ذلك ، أنا أيضاً لي والد مخطئ حقاً - لكني أحسست دوماً أن شيئاً ما في الشخصية المسرحية قد فاتني . كنت يافعاً جدا حين مثلت دور ميلو ، لكن أدائي لدوره جعلني أشعر أنني كبير السن . يصعب تفسير هذا الأمر . أحببت المسرحية كثيراً جدا - أحببتها أكثر مما أحبها اليوم - كان الدور تحدياً جميلاً . رغم ذلك .. أحسست دوماً أن الفتى عديم النضج ، قليل الخبرة . كان عسيراً علي ألا أحكم عليه بكونه ولداً بكاء إلى حد ما . كان مذهلاً بما حدث ، يبدو أنه شعر بأن السماء قد أسدت له العون. حسدته على ذهوله ، دهشت لدهشته ، أما أنا فلم أحس بها أبداً . كانت السماء التي يناديها عمياء وباردة ، لا شفاء يرجى هناك . كنت أعرف ذلك جيداً . إن القدر الذي أدركه أدركه ، فعلاً ، حتى دون أن ينتبه إليه .

دارت العجلة وأسقطته أرضاً ثم طمرته - وهذا هو كل شيء . وبمرور السنين ، جذبني شيئاً فشيئاً الهمود الحذر لتلك الأدوار المسرحية التي كانت - مع ذلك - جزءاً من أنشط أمم العالم وأكثرها تفاؤلاً . كانت أدواراً بائسة ، معدمة ، تبدو كذلك منذ أول لحظة يرفع فيها الستار عن المسرح . بدت تلك الشخصيات غير قادرة تماماً على أن ترتاب في أية صلة بين مصائر الشخصية ومصائر الدولة التي هم جزء منها ، وأن بطولاتهم ليست في الواقع أكثر من بطولات جسمانية . إنه لشيء غير مستحب أن ترغم على اكتشاف أنهم عملوا في خواء حتى أكبر من خوائك ، وأنهم عرفوا عن أنفسهم حتى أقل مما عرفته أنا عنهم . حاولت أن أتعلم كيفية العمل في المسرح ، إنه لشيء رهيب أن تظن أن ليس ثمة أي دور . إن كل الأدوار التي مثلها البيض لم يكن بوسعهم أن يلعبوها إلا بواسطة البراعات التي لن تساعد الإنسان في الاقتراب من الحياة أكثر ، بينما ينبغي للمرء أن ينبذها كلها كي يمثل مشهداً مسرحيا واحداً لإبسن ، مثلاً .

اكتشفت أن بعض السود الأمريكان يجدر بهم أن يكتشفوا أن الذين حطموا ماضي حياتي قد حطموا ماضي حياتهم أيضاً .

لكن كل ذلك جرى من زمن بعيد . لم أستطع التحدث بشيء عن هذه الأمور . كنت فقط أخوض عملية اختبار حساسيتي ضد ما وهبوني إياه . كنت أعرف شيئاً عن الحياة التي عشتها . لم تكن تلك الحياة مشينة . لم تكن محترمة ، في أي مكان .

وهكذا ، إبان سنواتي المبكرة كانت أغلب الظن أكثر عزلة وهي بالتأكيد تتأهب للمعركة القادمة ، وقد توقع الجميع تقريباً أن أكون شخصاً صعباً جدا .

الجميع تقريباً : من الذي كنت أعرفه يومئذ ؟ حسنًا ، بربارة ، طبعًا ، أول الناس الذين عرفتهم آنذاك . بالتأكيد ، كانت لها مشاكلها الخاصة . كانت تعمل بصورة متواصلة أكثر مني . ثم خدعت وراحت تؤدي أدوار مراهقات نضجن قبل الأوان ، كانت تمقت تلك الأدوار ، إلا أنها كانت تتعلم بعناد ، على حد تعبيرها ، كيف تسير . بقينا ، نحن الاثنين ، عضويين في الورشة ، تعلمنا من غير أية صعوبة على الإطلاق ، كيف نستخدم عضويتنا تلك من أجل مصالحنا الذاتية . نقلنا تجاربنا الخاصة بين حين وآخر ، وتفاعلنا بفتور مع أحكام صول ، إلا أن بربارة ، برغم كل شيء ، كانت تفهم صول ولولا أكثر مما أفهمهما أنا . أوه ، كان ثمة ولد يدعى ستيف . ثمة فتاة ملونة تدعى سالي . كانت تدرس في جامعة نيويورك NYU ، كانت تربطني بها صداقة حميمة ، ردحًا من الزمن . لكن عند النقطة التي تعين علينا فيها الزواج ، افترقنا ؛ إذ أدركت أنني لا أستطيع الزواج . كنت في وضع شاذ آنذاك ، حيث لم يكن في العالم الذي تحركت فيه عدد كبير من الزنوج – لم أخطط للمسألة بهذه الطريقة . الله أعلم ، لم أكن لأريدها أن تحصل بتلك الطريقة ، لكن هذا ما حصل – من الناحية العملية لم تكن هنالك فتيات زنجيات على الإطلاق . لذا ، كنت وحيداً ، بطريقة فريدة جدا وخطيرة جداً . لعلي كنت مختلفًا – تلك السنوات ربما كانت مختلفة – لم أكن قد أقصيت عن عائلتي . لكنني أنا الذي أقصيت نفسي عنها ، والسبب الرئيسي يعزى إلى كاليب .

لسبب ما ، ترتبط أول ذكرى لي عن كاليب ، بعد أن وضعت الحرب أوزارها بذكرى أخرى عن بربارة وعني ؛ كما أجد من الصعب على أن أذكر إحداهن دون الأخرى . لا أدري لماذا . لم أرفض الالتحاق بالجيش ، لكنني تملصت منه بطرائق خاصة من المكر عديم الرحمة . أقولها – الآن – كنت مستعداً لدخول السجن . كان اليابانيون قد زجوا في السجون . لم أرغب بالقتال إلى جنب من اعتقلوا اليابانيين وزجوهم في السجون ، إلى جنب من دمروا الهنود أيضاً ، إلى جنب من ينوون سحق كل الذين أحببتهم : لن أدافع عن قتلتي . مع ذلك حين جاءت لحظتي ، لم أقل شيئًا من هذا القبيل . وصلت لجنة قرعة هارلم متأبطًا عدداً من الكتب . وصلت متأنيًا ، تأخرت قليلاً . تظاهرت بأنني عائد توا من المكتبة . قلت : إنني كنت السند الوحيد لوالدي

الهرمين . وفي الواقع ، كنت أتطلع للعمل في موقع لبناء السفن ، تطلع أو حظ ، يشق على أن أجزم الآن . عملت في مهن عديدة لأسباب شتى . على أية حال ، أظنني مثلت تمثيلاً رائعًا أمام لجنة قرعة الخدمة العسكرية . كانت اللجنة تتألف من رجال ممتلئين الأبدان ، سمر ، هرمين ، محترمين ، تخلوا من أمد طويل عن أملهم في إثارة الدهشة ، رجال هرمون ، ممتلئو الأبدان ، سمر ، أمنيتهم الحقيقية الوحيدة ، بقدر ما كانوا يجرءون على التمني، هي أن يكونوا بيضًا. كنت أعرف ذلك، وكتبي تحت إبطي ، وأخي الوحيد في الجيش ، ووالديْ الهرمان في المنزل ، ومهنة بناء السفن الخالية من العيوب ، بشبابي الملتهب ، وما لم أستطع تسميته آنذاك وهو إخلاصي حتى الموت - واستخدمت بدقة حقيقية كوني غير محتمل جسديا- أقنعت أولئك الرجال الهرمين ، ممتلئي الأجسام ، السمر ، المحترمين بأن سر طاقتي الكامنة يرجع إلى عِرْقي - أي إليهم - إن قوتي الهائلة التي لا تطاق تشتمل على أملهم بالقوة والسلطة ، وكنت أعرف أيضًا أن أهمية ذلك تفوق بكثير قيمتي العادية لبلدي . وقد أجلوني . كنت أعرف أنهم سيفعلون ذلك . كنت أعرف أنني إذا ضغطت على الأزرار الصحيحة ، لن يكون أمامهم سوى خيار تأجيلي . كانوا يتشبثون مني بين فينة وأخرى ، لكنهم لم يزعجوني . أذهلتهم . كانوا ممتنين لي ، مع أن بعضهم بدأ يبغضني فيما بعد ، حين توقعوا أنهم تصرفوا ببلاهة . كان ذلك بعد فوات الأوان : كنت في قمتي ، في برجي المحصن ، وقد دخلت كيسي ، إن صح التعبير .

على أية حال : خلال صيف الورشة ، غب رحيل جيري ، صممنا أنا وبربارة على صعود الجبل الذي يشرف على بول نوج رود . قررنا تسلقه ، وعلى قضاء ليلتنا هناك . أحد الأسباب التي جعلتنا نفعل ذلك ، مع أننا لم نبح به ، هو أننا كنا نمر بظرف شاق في ذلك المنزل ، الذي غادره جيري الآن . لم تكن قد حصلت بيننا مشاكل عويصة ، أو بالأحرى تلك التي ستأتي ، مع رحيل جيري ، أصبحنا مفضوحين ، سرنا القذر قد انكشف ، كي تمر سنوات عدة ، علينا أنا وبربارة أن نصادف أناسًا يتهامسون بسطوة رهيبة حول علاقاتنا الجنسية المتبادلة نحن الثلاثة ، التنسيق الأسود الأبيض في شارع بول نوج ، اعتبر جيري ، بالطبع ، ضحية فساننا القذ ، المدروس ، مع أن جيري لم يقل شيئًا من هذا القبيل ، وأنا على يقين من أنه لم يشعر بذلك قط ، إن التعامل مع أناس المدينة شيء في غاية الصعوبة ، وقد تحاشيناهم قدر المستطاع .

كانت بربارة تتبضع معظم ما نحتاجه ، وحيدة في أغلب الأحيان - مع أنها أحيانًا تتسوق مع اثنين من أولاد الورشة - متحملة الدمدمات ، الهزء ، الضحكات الخافتة ، البذيئة ، الوكزات السرية ، الإهانات الصريحة ، واصلت الوقوف أمام سيداتي الرسامات ، لكن لم تُقَدَّم لي أشغال غريبة ، منذ رحيل جيري عنا ، وواجهنا ظرفًا معيشيا صعبًا ، ذات مرة ، حين كنت عائداً من المسرح ، هاجمني فجأة عدد من الفتيان ، سوَّدوا عينيَّ ، وجعلوا أنفي ينزف دمًا ، كنا نجلس ، غالبًا ، في منزلنا ، وقت المساء ، كأننا بانتظار الرعاع الذين سيأتون ويأخذوننا بعيداً ، في بعض الليالي ، يكون أهل المدينة جميعًا في دارنا ، نحاول أن نتجاهلهم ، وأن نركز انتباهنا على أحدنا الآخر .

كنت أعرف ، في أعماق قلبي ، أننا لا نستطيع تحقيق النجاح ، من بين المخاوف العديدة ، ربما كان الخوف من التعذيب الجسدي والتدمير هو أكثر المخاوف تحطيماً . يتوجب عليَّ أن أعترف لنفسي بأنني كنت خائفًا ، ببساطة ، بحقارة ، بمذلة ، لم أستسغ طعم دمي ، لم أود أن تهشم أسناني كلها ، لم أرغب أن يحطم أنفي ، أن تعمى عيناي ، أن تنخسف جمجمتي ، إن قيادة سيارة ، والتمشي في الطرقات ، أن تعيش يومًا واحداً ، يتطلب منك على الأقل طاقة بقدر الطاقة التي يحتاجها الملاكم لخوض خمس عشرة جولة ، والأكثر من ذلك ، أن خمس عشرة جولة ملاكمة تفترض إما أن تكون رابحًا أو خاسراً وبعدها تتخلص من المسئولية وتغادر الحلبة فوراً ، خالي البال ، لكن بالنسبة لي لم يكن ثمة انعتاق على الإطلاق ، وبخاصة لم يكن ثمة انعتاق بين ذراعي بربارة ، في السرير ، حيث من المفروض أن ألقاه هناك ، الخوف والحب لا يستطيعان التعايش معًا في سرير واحد وقتًا طويلاً ، كم من الليالي قضيتها راقداً هناك ، بربارة نائمة إلى جنبي ، تملؤني حيرة لا حد لها ؛ ينتابني شعور أن كل ما يربطني بالحياة قد أصابه النخر ، أحسست بأنني أغطس إلى الأعماق ، كجثة ثقيلة ، أغوص أعمق فأعمق في بحر الشك ، مع ذلك ، يصعب على غلام مثلي أن يكتشف ذاته ، أو أن يدرك ما يريده ، إذا كان دائم الخوف دائم التمثيل ، وبخاصة إذا تغلغل هذا الخوف إلى حياته الخاصة جدا ، كنا ، أنا وبربارة ، معزولين عن العالم ، وحيدين مع حبنا ، اكتشفنا أن الحب وحده لا يكفي ، حكم علينا القدر أن نعيش وحيدين ،

لم يملك أحدنا سوى حبيبه، وهذه الحقيقة حددت علاقة أحدنا بالآخر. لم نشعر بالراحة أبداً . لم يكن معنا شخص آخر نتكلم معه - في ماضي الأيام كنا نلعب دور عاشقين ونضحك معاً لأننا كنا نصدم العالم بيسر . نحن الآن لا نمثل دوري عاشقين . والعالم هو الآخر لا يمثل . حتى في مطعم البيتزا شرعوا يعاملوننا بعصبية لذا أحجمنا عن الذهاب إلى هناك . ماثيو غادر المدينة لم نر فاولر ثانية . لم أعد أذهب إلى الجزء الزنجي من المدينة . كان بعض شبان الورشة لطيفين . لكن حيرتهم وكبريائي كلاهما ساهما في خلق هوة واسعة بيني وبينهم . كان نحاس الورشة الأصفر بارداً . عدا راجز ومادلين . كانوا ببساطة يتجاهلون علاقتنا . يتجاهلونها بإحسان ولطف . ويعاملوننا كما لو كنا التقطنا مرضاً كريهاً . لا نستطيع أن نبرأ منه . بالنسبة لراجز . تطوعت مرة لإسداء نصيحة أمومية فيما يتعلق بولع بربارة بالتهديم . ونصحتني بمراجعة طبيب نفساني . أما مادلين فكانت مؤذية وغيورة . جاهدت قدر استطاعتها أن تفهم . لكنها لم تستطع أن تتحاشى حقيقة كونها قد استُغلت استغلالاً سيئاً - وكانت مستغلة فعلاً . لم تمتنع تماماً عن الحديث إلينا . لكنها اكتشفت أنها لم تجد ما تحدثنا به . وبعد الإخفاق التام لسرحية « الذهاب إلى كويتو والعودة منها » عادت مادلين إلى نيويورك . شعرت بأسف قليل على رؤيتي لها وهي تغادر . كنت أحبها . وتمتعنا معاً . وحين أدركت أن المتعة وحدها غير كافية . شعرت بامتعاض قليل من بربارة لأنها انتزعت يدي في وقت مبكر جدا .

بدأنا رحلتنا . يوم تسلقنا الجبل . في وقت متأخر بعض الشيء . وبدأت الشمس تجنح للغروب . حين كنا قد قطعنا أكثر قليلاً من نصف الطريق الصاعد إلى القمة . كنا نرتقي الجبل بمشقة ليس بسبب حرارة الشمس الآفلة فحسب . بل لأنني كنت أخشى أن يعرف الناس أننا ننوي قضاء ليلتنا في الجبل فيتعقبوننا ويقتلوننا . لم نخترق المدينة . بل سلكنا الشارع الخلفي الطويل المؤدي إلى أسفل الجبل . أوقفت السيارة هناك . خارج الطريق، وسط مجموعة من الأشجار . يمكنني القول إن أحداً لم يرنا . عدا سيدتين في بيت العجائز. كان هذا يقوم في رحبة خالية من الشجر، أسفل الجبل . العجائز يجلسن في شرفة كثيفة الظلال. كانت نظاراتهن تلمع . وشعرهن الفضي يلمع أيضاً . اثنتان منهما راحتا تراقباننا . أنا وبربارة . حين اختفينا في الطريق الجبلية

الوعرة . لكن العجائز الباقيات توقفن ، بصورة طافحة بالأمل ، أننا ذاهبـان إلى البيت .

بالرغم من كل شيء ، كنا مغتبطين جدا تحت شمس آب ، ونحن نرتقي الشعاب الجبلية الوعرة . كانت طريقي ضيقة ، لكن طريق بربارة أضيق ، أنا جرىء جدا . كنت أقتاد بربارة من يدها . حقيبة النوم على ظهري ، أما بربارة فتحمل حقيبة الظهر .

« فلنتوقف قليلاً . الدنيا حارة » .

« بربارة ، هذا المكان يعج بالأفـاعي . إذا توقـفنا الآن فلن نستطيع مواصلة الصعود . هيا ، امش بربارة امش » .

كنتُ سبنسر تراسي في « الممر الشمالي الغربي » .

كانت بربارة تخشى الأفاعي . « براز » تمتمت بسخط – لكننا واصلنا الصعود ، نحو الشمس الآفلة ، الفاترة ، التي كانت رغم ذلك تشوي كل شيء حولنا . عدا أنفاسنا ، وصوت تهشم الأغصان الصغيرة تحت أقدامنا بين آن وآخر ، كان الهدوء يسود رحلتنا تلك . بربارة تجيد المشي : كنا نسير معًا كجنديين . فيما كنا نرتقي الجبل كانت الغابات الخضر ، الداكنة ، تحيط بنا من الجانبين . تخفي كل شيء ، تخفي القمة ، تخفي الأفاعي – هنالك أفاعٍ فعلاً – ومع كل لحظة تمسي الغابة أكثر عتمة . كان الممر الجبلي ضيقًا جدا ، ضيقًا لدرجة يتعين علينا معها أن نسير الواحد خلف الآخر . كان الممر شديد الانحدار ، سال العرق من عنقي وانحدر على ظهري ، وبدا أنه راح يتسرب إلى حقيبة النوم ، مما جعلها تبدو أثقل. فوق رأسينا مباشرة شريط ضيق من السماء ، أمامنا الدرب ولا شيء غيره ، نور الشمس ينتشر هنا وهناك بصورة غريبة . أمسى الدرب أشد انحداراً ثم أصبح مستوياً . أصبحت الأشجار متباعدة أكثر ، ثم غدت منفردة أكثر – صارت وكأنها مرت بمرحلة نمو قاسية – ثم رأينا أمامنا ، فوقنا ، الهيكل القوطي لفندق مهجور شرع أحدهم ببنائه فوق هذا الجبل منذ سالف الزمان . ثمة قصص عديدة تحكي عن هذا الفندق . شرع ببنائه أحد الرأسماليين ثم أضاع كل ثروته ، لم تعبّد السلطات المحلية حتى شارع واحد . وها هو ذا ينتصب الفندق ، هيكل حجري ، كئيب المنظر كالأشجار ، ذو فجوات كانت تشغلها الشبابيك .

كان ثمة فناء واسع ذو جدار حجري وبقايا طريق خاص يؤدي إلى الفندق ، ودرجات حجرية تؤدي إلى الفتحة التي كانت فيما مضى البوابة الأمامية . هذه الفتحة تؤدي إلى عقد عالٍ كان من المؤمل أن يصبح ردهة انتظار . في هذا الفراغ . كانت هنالك درجات حجرية تصعد بك إلى الطابق الثاني غير المكتمل وغير الآمن . فيما هنالك درجات حجرية أخرى تنزل بك إلى السرداب . كان هنالك نضد الاستقبال . الشيء الوحيد الذي يجعلك تعتقد أن هذا المبنى هو فندق . من الجلي، كانت هنالك أيضاً أشياء ثابتة. لكن كل الأشياء المتحركة نقلت من هنا من زمن بعيد . بعض سكان المدينة يناقشون بجد احتمال تهديم المبنى والاستفادة من الصخور . لكن ذكاءهم هذا لم يتغلب بعد على المصاعب العملية العديدة للخطة التي رسموها .

حين وصلنا الفندق وجدنا أنه غير قابل للسكن . بعد أن غاب النهار ، وبدأ الليل يرخي سدوله . قالت بربارة : « رباه . أليست هي فكرة فظيعة إذا كان غيرنا قد فكر مثلنا بقضاء ليلة هنا » .

« أوه ، لا أدري . لا أبالي إذا ما رأيت وجهاً ودوداً » . ولأنني ، أيضاً ، كنت قلقاً ، أنشدت قائلاً : « مرحباً ! أصبح لك زوار ؟ أما من أحد هنا ؟ » تردد صدى صوتي مراراً ، تجاوز الأشجار ، تردد في الوادي ، وعاد إلينا .

قلت : « أحسب أن لا أحد هنا » . أنزلت حقيبة النوم ووضعتها في وسط الفناء ، كما أنزلت بربارة حقيبة الظهر . أخذت يد بربارة : « هيا ، امشِ معي » . سرنا نحو حجرة الجلوس . أشعلت المشعل الكهربائي ، فسمعت صوت أشياء تركض في العتمة « فئران . أنا أسائل نفسي ما إذا كانت هنا خفافيش أيضاً » .

« آه . ليو . كفى » .

ضحكت . وجهت المشعل الكهربائي نحو درجات السلّم المؤدي إلى الأعلى . « لنر ما في الطابق العلوي » .

يداً بيد ، كالأطفال في حكاية من حكايات الجان ، شرعنا نرتقي درجات السلّم . سرنا بمحاذاة الحائط : إذ لم يكن هناك أي حاجز – كان ثمة حاجز من خشب الماهوجني ، لكنه سرق في أعلى السلم . امتد أمامنا فراغ عال واسع ، وجهت ضوء البطارية إلى الأرض التي كانت من الخشب . كان ثمة ثقب في الأرض ، إلى يميننا ،

كان الجزء الصلد من الأرض مغطى بكل أنواع بقايا أكياس ورقية قديمة ، بقايا أكواب ورقية . أمامنا مباشرة فجوة في الجدار كان يحتلها فيما مضى شباك يشرف على سطح من حجر لوحي . سرنا على رءوس أصابعنا على الأرض الخشبية قلقين ، خائفين ، لا ندرى إن كانت تتحمل ثقل جسدينا أم لا . مشينا فوق السطح .

على أية حال ، لم يكن الرأسمالي المجنون الذى شيد الفندق مجنونًا جدا ، ذلك أنك ما إن تسير فوق سطحه حتى تدرك الحلم الذى دار في مخيلته . كان سطح الفندق يواجه الوادى الذى ينحدر أمامنا ، مفضياً مباشرة إلى النهر . الأشجار زرق وبنية ، أرجوانية وسود . في النهار ، تكون البيوت ومخازن الحبوب حمر وبيض وخضر وبنية . الآن ، صبغتها الشمس ، كلها ، بلون يتراوح بين الذهبي والقرمزى . وقفنا فوق سطح الفندق ، لم نسمع صوتًا ، لم تصدر عنا نأمة . كان النهر البعيد ما يزال ساكنًا كلوح نحاسي ، هائل ، صقيل .

قالت بربارة : « لو كان هذا المبنى عائداً لي لما حلمت أن أجعل منه فندقًا كنت سأجعله مكانًا خاصا بي » .

قلت : « ربما كان صاحبه وحيداً ، فأراد أن يشاركه الناس العيش فيه » .

قالت بربارة بعد لحظة : «ربما كان سيصبح فندقًا عجيباً . كان محقا في ذلك . يا للرجل المسكين . لابد أنه أنفق عليه ثروة طائلة . أتمنى ألا يكون قد تفطر قلبه حزنًا » .

قلت : « سأذهب لجلب الويسكي كي نشرب هنا » .

عدت إلى المبنى المعتم ، نزلت درجات السلّم عبرت العقد ووصلت إلى الفناء ، التقطت حقيبة الظهر . عدت إلى بربارة التي كانت جالسة فوق السطح ، تسند ذقنها على ركبتيها .

« وبم تفكرين يا أميرة ؟ » .

« كنت أفكر بأنه شيء جميل أن أكون معك ، في هذا المكان » .

قلت : « سنجعل منه مكاناً لائقاً » . فتحت زجاجة الويسكي . سكبت شيئاً من في كأسين ورقيين . ناولت بربارة واحداً وجلست لصقها . لامسنا كأسينا . جلسنا تأملنا السماء والوادي اللذين تغير لونهما . ببطء . ببطء ، ثم ليس ببطء ، غادرت الشمس السماء تماماً – تلاشت تماماً ذؤابات النار والذهب . أمست السماء قرمزية ، ثم تحول لونها إلى لون الفضة القاتم . في السماء الفضية ، ومضت النجوم بضوء خافت شاحب ، وكأنها قافلة أناس تائهين وصلت توا ، ولاح القمر الشاحب ، كدليل أو كمعلمة مدرسة ، كي يحدد موقع كل نجمة . سطعت النجوم أكثر ، حين بزغ القمر ، وأضحت السماء ذات لون أزرق مسود . الأشجار ، البيوت ، مخازن الحبوب ، كلها الآن أشباح معتمة . لم نعد نرى الوادي الآن . لكن ، في البعيد ، تحتنا مباشرة ، عكس النهر ضوء القمر . بين القمر والنهر وحدة لا تنفصم عراها . وضعت بربارة رأسها على كتفي . شربنا كأسين آخرين . نظرنا في عيني بعضنا الآخر ، لحظات قلائل ، اقتربنا من بعضنا . أصغينا إلى أصوات الليل . خفقان أجنحة ضعيف قريب منا ، الطنين المكهرب للحشرات ، نعيق بوم ، نباح كلب . لاحت أضواء متباعدة ، هنا وهناك ، في الوادي . أضواء قارب وحيد تلألأت فوق صفحة النهر . لم تكن ثمة أصوات بشرية على الإطلاق . كنا ، هناك ، في الأعالي ، وحيدين ، والهدوء يخيم على كل شيء .

« ماذا سنفعل ، يا ليو ، بعد أن ينصرم الصيف ؟ » .

« لماذا .. سنعود إلى المدينة . ماذا تنوين أن تفعلي ؟ » .

« هل نعود إلى [زقاق الجنة] ؟» .

« لا أعلم ، والله . كما تعرفين ، علي أن أجد عملاً لي » .

« نعم ، وكذلك أنا » .

« لعلي سأحصل على عمل كنادل . وهكذا أستطيع أن آكل في المطعم إلى أن يدفعوا لي الأجر » .

« ما لم تفقدك هذه المهنة شهيتك » .

« هذا صحيح . إنه لشيء عسير أن تكون حياتك هي مراقبة البشر وهم يتناولون طعامهم » .

قالت باحتراس : «طيب، علينا أن نكون قادرين علي إنجاز عملنا بشكل لائق» .

« لا تقلقي حول ذلك . سنؤدي عملنا بشكل جيد » . ثم قبلتها . « أخبريني حين تجوعين . سأشعل النار » .

« بعد قليل » . قالت . مالت نحوي ثانية .

لا أدري ما الذي كانت تراه حين كنا نبحلق في الوادي المظلم : كنت لا أرى أي مستقبل لنا نحن الاثنين : لم أر أي مستقبل لي على الإطلاق . كانت بربارة فتاة يافعة ، موهوبة وجميلة ، ومتفانية . لم يكن ثمة شيء يمنعها من أن تحسب حساب القمم . إن تألقها مسألة وقت لا غير . ماذا ستفعل بحبيبها الحزين ، داكن البشرة ، وهو مجرد فتى اصطيد في الوقت الخاطئ ، في المكان الخاطئ ، ذو الطموحات الخاطئة في الجلد الخاطئ ؟ لو وقفت عائقاً في طريق تألقها فسوف تبغضني حتماً ، وهذا أمر طبيعي ، لكني لم أبغ الوقوف في طريقها . إن أكثر الإبعادات مكراً أو ربما أكثرها هلاكاً هو الخوف من الإبعاد . لأنني كنت موقناً أن بربارة لا تستطيع البقاء معي ، لم أجرؤ على تسليم نفسي إلى بربارة . هذا الخوف يخفي وراءه مخاوف كبيرة ، لكنه يخفي مسألة ما إذا أرغب بتسليم نفسي إلى بربارة أم لا ، أو تسليم نفسي إلى أية فتاة أخرى، كما أنه يخفي مسألة ما إذا كنت قادراً على التسليم أم لا . لكن هذه المسائل كانت خافية عليّ يومئذ ، مثل شكل الوادي . كنت أدرك أن عليّ أن أشق طريقي – بصورة ما – ليس في مستطاع أحد أن يسدي لي العون وليس في وسعي أن أطلب معونة أحد . لم يكن بوسعي أن أعرف ما إذا كان الخوف الذي أحسست به ، أحياناً ، حين أكون بصحبة بربارة ، الخوف الذي يوقظني من نومي في منتصف الليل ، الخوف الذي يجعلني ألهث حين أسير في الشوارع ظهراً ، وما إذا كان هذا الخوف ذاتياً ، ناتجاً حصراً عن عُقد شخصيتي ، أم أنه خوف جماعي ، ناتج عن غيظ الآخرين . لم أستطع إدراك ماهية أعراضي ، ذلك أنني كنت أحبها ، أعرف ذلك جيداً ، أحببتها أكثر مما أحببت أي إنسان آخر . لم نكن سعيدين على الدوام ، لكنني حين كنت سعيداً مع بربارة فإن هذه السعادة تفوق أية سعادة أحسست بها مع أي إنسان آخر . كنا نرتاح إلي أحدنا الآخر ، ولم نشعر بمثل هذه الراحة مع أي إنسان آخر . مع ذلك لم أر مستقبلاً لعلاقتنا .

غادرنا سطح الفندق وهبطنا درجات السلّم إلى الفناء ، وأوقدت النار . كانت نارنا ، وقتذاك ، الضوء الوحيد في الأميال المحيطة بنا . حمصنا البطاطا التي عثرت عليها ، وشوينا الهمبورجر ، كان بحوزتنا قنينة صغيرة من الشيبيانتي . حين ازدادت حلكة الليل ، بدأنا نشعر بمزيد من الأمان ، لا أحد يتسلق دروب الجبل الوعرة ليلاً . اتكأت بربارة وأصبحت بين ذراعي ، فغنيت لها :

اعتاد الرجل القلق

أن ينشد أغنية قلقه

أنا قلق الآن

لكن قلقي لن يطول .

ثم أنشدتُ :

لي كوخ لا غير

لست بحاجة إلى كوخي

يا نهر ، ابق بعيداً عن بابي .

وغنيت أيضاً :

أكره منظر الشمس تنحدر للمغيب .

قالت بربارة : « صوتك جميل ، عليك أن تطوّر مقدرتك على الغناء . أراهن أن هذا سيساعدك على أن تشق طريقك » .

«هو صوت اعتيادي لا غير، ماذا تعنين بقولك إنه يساعدني على أن أشق طريقي ؟» .

« صوتك ليس اعتيادياً . صوتك شديد السحر . لو احترفت الغناء ، فلسوف تلفت الانتباه . طيب اسمعني ، هذا من الناحية العملية هو السبيل المألوف لزنجي كي يشق طريقه إلى المسرح . انظر إلى بول روبسون » .

« انظرى أنت إلى پول روپسون . كان روپسون نجمًا من نجوم كرة القدم ، هو واحد من أعظم المغنين في العالم ، وأحد ألطف الرجال فى العالم ، يبدو أنه نشأ ليغدو بطلاً . أتعتقدين أنه قدوة جيدة لى ؟ » .

« أوه ، اخرس . أنت تدرك ما عنيته » .

« إضافة إلى ذلك ، ما الذى مثله ؟ (الإمبراطور جونز) و (عطيل) » .

« لم أقل لك إنك تشبه پول روپسون . قلت : إن صوتك سيكون عونًا لك ، وعليك أن تستخدمه . الناس سيستمعون إليك ، هذا يعنى أنهم سيرونك و .. طيب ، هناك أدوار عديدة غير الإمبراطور جونز وعطيل » .

« هنالك ؟ حقا كنت تبحثين عن وجوه جديدة فيما حولنا » .

« يمكنك البدء من هذا الشتاء ، حقا ، لِمَ لا تفعل ؟ عندها كلانا سيعمل .. » .

« لك عمل يغطى فترة الشتاء ؟ » .

« لا . لكنني سمعت بشيئين . سأذهب إلى المدينة الأسبوع القادم كى .. كى أتحرى . أنت تعرف أن هذا شهر آب . الصيف يكاد ينتهى » .

« أدرى » دونما سبب . فكرت بدينا واشنطون تغنى » بلوتوب بلوز » . » أعرف أنك تتمرن على القيثار . ثمة أماكن فى "القرية" حيث يمكنك أن تبدأ الغناء . أوه ، كما تعرف . هنالك مطعم "الهنود الغربيين" . أراهن أنهم سيسعدون حين تبدأ غناك هناك » .

« إذا كانوا يحبون سماع ألحان من الهند الغربية ، فلماذا يأتون إليّ ؟ أنا لست من الهند الغربية » .

« أوه . حتى أنت يا ليو . أنت إلى حد ما من الهند الغربية . أنت ترفض كي تجعلنى أحاول إقناعك . أنا أعرفك . يا ليو . إنها فكرة رائعة » .

فكرت بها من قبل . بدأت أفكر بها ثانية . » ربما » .

« يمكنك أن تغدو النادل المغني » قهقهت . « ستكون معبود الجماهير بحق » .

فكرت مع نفسي . صحيح . عليَّ أن أبدأ في مكان ما . أجبت : « لست مستعدا بعد للغناء أمام الجمهور الواسع » .

« اسمع يا ليو . المسألة الجوهرية في العمل بمكان كهذا هو أنك لم تستعد بعد . سيعتقدون أنك تفعل ذلك من أجل المتعة . لكنك ستتعلم بهذه الطريقة » .

« يمكنني أن أرى نفسي ، عشرين عامًا من الآن ، أعزف على القيثار في طول شارع المشردين وعرضه » .

« لن تفعل هذا . ستستخدم ذلك من أجل الوصول إلى بغيتك » .

« لست متيقنًا . دوماً ، من أنني أعرف ما أبتغيه » . سحبتها نحوى قليلاً ، ورحت أحدق بنارنا الصغيرة .

« أعتقد .. أحيانًا .. أنه حين يقول الفرد ذلك ، فإنه يقولها لأنه .. خائف من عدم حصوله على ما يبتغيه » .

« ربما . لكنك تعرفين ما تريدين . أليس كذلك ؟ » .

« أعرف أنني أريد أشياء صعبة المنال » .

« ما هي هذه الأشياء » ؟

أزاحت بعض ثقلها عني . « أوه ، أنت تعرف . الأشياء السخيفة . زوج . بيت » . توقفت هنيهات عن الكلام ، ثم أضافت : « أطفال » .

« لم لا تستطيعين نيل هذه الأشياء » ؟

فردت بربارة : « ربما لأنني لا أتمناها برغبة كافية . لا أدرى لعلي على خطأ » .

أحسست بها تراقبني . « إنه لشيء مضحك . لم أصبح الفتاة التي تمنيت أن أكونها . لم أبلغ العشرين بعد ، ولي ثلاث قصص حب ، وحالة إجهاض سابقة . هذا يجعلك تشعر أنك غدوت باليًا إلى حد ما . أحيانًا يفترسني الخوف .. أوه ، حسنًا » . تنهدت ، هزت كتفيها ، باسمة . « غنِّ لي أغنية أخرى » .

« بعد كل ما قلتيه ، لا أدرى أية أغنية أغنيها ، يا لبربارة المسكينة ، لم أجعل من حياتك أكثر بساطة ، أليس كذلك ؟ » .

« أنا لا أتشكى ، فأنت لم تخلق العالم » .

فقلت لها : « لا ، لم أخلق العالم » رفعت بصرى إلى السماء ، « أحياناً ، أتعرفين ؟ مازلت أتساءل من خلق العالم ، إنني أسائل نفسى ما الذى كان يفكر به هذا الخالق ، كائناً من يكون ، حين خلق العالم » .

فقالت وقد تسللت نبرة خشنة غير متوقعة إلى صوتها : « لم يفكر بى أو بك » .

« لا ، إذاً هذا النور لا يليق به أبداً » ، قلت ، وضحكنا معاً .

قالت : « أرجوك ، غنِّ لى أغنية أخرى ، قبل أن ننام » .

غنيت لها :

لا أعرف السبب

لا أرى شمساً فى كبد السماء ،

طقس عاصف !

لأن فتاتى ليست معى

المطر ينهمر دون انقطاع .

فى النهاية دخلنا حقيبة النوم ، استلقينا هناك مدة من الزمن ، نراقب النار وهى تخفت وتتلاشى تدريجيا ، ثم تنطفئ . النجوم كانت قريبة جدا ، رأيت نجمة تهوى ، تمنيت شيئاً . تمنيت أنا وبربارة ، مهما حدث ، أن نبقى نحب بعضنا الآخر ، وأن نكون قادرين ، دون أية مرارة ، على أن ننظر فى عينى أحدنا الآخر . الحرارة والضغط المألوفان والبغيضان نوعاً فى أن صعدا فى صدرى ونزلا إلى عورتى ، وأنا أضطجع هناك ، يلفنى الدفء ، أضم بربارة بذراع واحدة ، وأحس برعشتها الطفيفة . ازدادت الحرارة رويداً رويداً ، ضد إرادتى إلى حد ما ، استعذبتها إلى حد ما .

بدأت أدرك أن الاتفاقات الجسدية هي بنفس قدسية الاتفاقات الشفوية . هذه الأمور يصعب الالتزام بها ويصعب أيضاً التخلي عنها . استدار كل منا إلى الآخر . كل شيء ما زال هادئاً ساكناً . شرعنا نمارس الحب ببطء شديد . بمزيد من الرقة والعنف ومزيد من الحزن لم يسبق لها مثيل . لم نقل كلمة . كل عناق بدا لنا كأنه ينتشلنا من أعماق نفسينا . كاشفاً عن عرى آخر . عرى تحملناه بمشقة بالغة . كان وجهها . تحت ضياء النجوم . تحت الضوء الضعيف لجمرات نارنا . وجهاً غريباً لم آلفه من قبل عانقت ذلك الوجه . ضممته بين راحتي . كحمامة بيضاء . قبلته . بتلك العاطفة التي غالباً ما تسترجعها الذاكرة . عاطفة أعمق أحلامنا . يخيل لي أنني أدركت . تلك الليلة . أننا قد وقعنا في المصيدة . وقعنا في المصيدة . لكن . تلك الليلة . لم يبد ذلك ممكناً . كل الأشياء بدت مستحيلة . بدأت بربارة تنوح . كان نواحاً أسود . بدا لي كما لو أن هذا النواح قد وقع في فخ الجسد الذي أضمه بين ذراعي . ثمة نواح امرأة سوداء . تكافح من أجل حريتها . ربما لأننا كنا نرقد تحت ضياء النجوم . عاريين. فتحت « سحابة » حقيبة النوم . سافر ليل آب (أغسطس) فوق جسدي . بينما كنت أرتعش فوق جسد بربارة . بدا كما لو أننا لم نلتحم بأحدنا الآخر فحسب . بل التحمنا بالليل . بالقمر . بالوادي النائم . بالأشجار . بالأرض تحت الأحجار التي كانت سريرنا . بالماء الذي تحت الأرض . مع كل لمسة . مع كل حركة . مع كل عناق . مع كل دفعة . مع كل نواح ولهاث . كنت أدنو من بربارة ومن نفسي ومن شيء ما لا يحمل اسماً . فخذاها المتشابكان حولي . أحلى من الماء . كانت تضمني . تضمني . تضمني . كنت بطيئاً جدا . كنت متيقناً جدا . كنت أستمر . أستمر . أستمر . كنت أستمر لأنني أدركت أنني لن أستطيع الاستمرار طويلاً . كل هذا لا علاقة له بالوقت . التمت لحظة انعتاقنا . التمت . جثمت . أمست متأهبة للانبثاق . وانتحبت بربارة : الريح أحرقت جسدي . وأحسست بالاستسلام . التقلص . التركيز . كل هذه الأحاسيس كانت غير قابلة للخطأ . وغير قابلة للتفسير . أحسست باللحظة الطويلة المتوازنة قبل الهبوط الطويل . تمتمتُ « بربارة » . بدا لي أنني أسمع اسمها . هتافي . يرن عبر الوادي . تردد صدى اسمها في الوادي زمناً طويلاً . ثم بدأت النجوم تصبح شاحبة . أغلقت «سحابة» حقيبة النوم فوقنا . التحم كل منا بالآخر . ونمنا . لم نتفوه بكلمة .

كان صباحًا مشرقًا . أيقظتنا الشمس في وقت مبكر . كنا عاريين . تجرأنا ورحنا نستحم وشرع كل منا يرش الآخر بالرذاذ في الجدول البارد الذي يسيل هزيلاً على مقربة من الطريق . لدغتنا برودة الماء الفضي وجعلتنا نصحو تمامًا . جعلتنا فخورين بجسدينا . وأنا عار . أوقدت النار . أعددت القهوة . كنا عاريين . سعيدين . كل منا يقابل الآخر . شربنا نخب عرينا . سكرنا بالشمس . بالقهوة . بعرينا . بدهشة شديدة لمس كل منا الآخر في كل ناحية من جسده. كان علينا أن نمارس الجنس ثانية. ثم . غشينا العرق . واغتسلنا في الجدول ثانية . بعدها . ارتفعت الشمس . حذرتنا من أن الناس قد يكونون في طريقهم إلينا . ارتدينا ثيابنا . طويت حقيبة النوم . وحزمت بربارة حقيبة السفر . وشرعنا نهبط الجبل . ما من أحد في الممر الجبلي الوعر . كان صباحًا . مشرقًا . صافيًا . ساكنًا . كانت الأطيار تصدح بتلك الأصوات التي ندعوها غناء . بينما كنا نهبط الجبل . عاودني خوفي . مثل نبض وجع سن يتذكره المرء قبل بدء الوجع الجديد .

حين اقتربنا من الرحبة الخالية من الشجر حيث يقوم بيت السيدات العجائز . وما إن ابتعدنا عن الممر الجبلي . الآن . وسرنا على الأرض المستوية . حتى نزلت عجوز ذات شعر فضي ونظارات فضية من الشرفة بسرعة مذهلة وأقبلت إلينا راكضة . تلوّح بصحيفة فوق رأسها وكأنها راية . ذهلنا . أنا وبربارة . وفوق كل منا في وجه الآخر . كنا نخشى أن تهوى العجوز أرضًا . لذا رحنا نجري نحوها كيلا تجري هي نحونا . لكنها استمرت في الجري بنفس سرعتها . حين وصلنا إليها . كانت مقطوعة النفس . فجلست على العشب قائلة : « اسمعا . اسمعا ! » .

كنا نخشى أن تكون عليلة . رحنا ننظر إليها فقط .

قالت من جديد : « اسمعا . اسمعا ! » بيد واحدة ضربت المشانش بالجريدة « الحرب انتهت . الحرب انتهت » .

ثم اكتشفت أنها كانت تبكي . عجائز أخريات كن واقفات في الشرفة . نظرنا في الصحيفة . حسنًا . أدركنا أن الحرب انتهت . هذا هو كل ما فهمناه على مدى زمن طويل . هيروشيما . وناجازاكي . المدينتان اللتان لم نسمع بهما قط . دمّرتا بقنابل

لا مثيل لها . ألقيت عليهما مرة واحدة . في البدء . تمنيت فقط لو كنت أعرت مزيداً من الاهتمام للرياضيات والفيزياء يوم كنت طالباً في المدرسة الثانوية : ماذا يعني انشطار الذرة ؟ كان صوت العجوز مزيجًا من التحيب وبهجة النصر . رحت أفكر : « هم لم يلقوا القنابل على الألمان . الألمان بيض . بل ألقوها على اليابانيين . ألقوا القنبلتين على اليابانيين الجبناء » .

تطلعت إلى العجوز . كانت ما تزال جالسة على العشب . رفعت بصرها إليّ . لكنني عرفت أنها لم ترني . هتفت : « أليس هذا شيئًا رائعًا ؟ أليس هذا شيئًا رائعًا . هذه الحرب الرهيبة انتهت . انتهت ! » .

ساعدناها كي تقف على قدميها .

« نعم » . قالت بربارة . كان وجهها شديد الشحوب في الشمس التي لا ترحم . « نعم . إنه لشيء رائع أن تنتهي الحرب » .

« شيء رائع حقا » . رددت قولها كالببغاء . وكأنني أردد قول كاهن - لا أعرف ما قلته .

رحنا نقود العجوز عائدين بها إلى الشرفة . العجائز الأخريات تجمعن الآن . وكن مبتهجات بالنصر . أيضًا . لكنهن لسن كالعجوز تلك . لم تعميهن بهجة النصر . من خلف عويناتهن . رحن يراقبن بربارة بدهشة وعدم استحسان ويراقبنني بعدم ثقة : وندت منهن أصوات شبيهة بأصوات حصى جاف يتحرك في قاع جدول ناشف . بعض أحبتهن قتلوا في الحرب . في هذه الحرب . هن ما يزلن يتذكرن الناس . بعض أحبتهن من الرجال عادوا إلى منازلهم . أيديهن . وجوههن . أصواتهن . اهتزت . لوحت . سحقت . تسلقت . تطلعن إليّ بين آن وآخر . لم يكن راغبات بضمي إليهن . بل ركزن انتباههن على بربارة بشكل رئيس . شيء ما جعلهن يدركن . بصورة من الصور . أن يوم بهجتهن قد لا يكون يومي . كنت حقيراً . أعترف بذلك . راقبتهن . أسفت عليهن . كان أسفي عليهن من الصعب تمييزه عن الازدراء . الذي راح لحد الآن يهيئة دهشة . كن يبتهجن ويتمتعن . إن ولاء أبنائهن - الذين ما يزالون أحياءً ! - جعلهن يشعرن بالنصر على أعدائهن - هل يعتبرنني صديقًا لهن ؟ ما كان مبهمًا في وعيهن كان جليا

وحيويا في وعيي . كن سيدات عجائز - عجائز يبتهجن في نور صباح من صباحات آب (أغسطس) . أحسست أن لهن ما يستحق التمتع والابتهاج به .

وأخيراً غادرنا ، لوحنا لهن ، ابتسمنا لهن ، دخلنا السيارة . بقين في الشرفة ، لوحن لنا حين بدأنا في العودة ، ثم قالت بربارة بهزة كتفين : « لعل من الأفضل ألا نجتاز المدينة . ستكون الشوارع مزدحمة بالسيارات والناس » .

وهكذا عدنا من الطريق الذي أتينا منه ، لكننا لم ننعم بالأمان طويلاً . عند حلول الليل ، أتى عدد من أولاد الورشة ، كي يأخذونا إلى أسرة سان - ماركواند . كانوا يقيمون حفلة راقصة لمناسبة النصر .

جُرح كاليب في المسرح الأوروبي للعمليات الحربية فأرسلوه إلى البيت على متن إحدى البواخر . ومرة أخرى ، لا أذكر هذا بشكل واضح . تحدثت مع كاليب عن هذا مرة واحدة فحسب . أصيب هو بجرح في رئته ، وكاد أن يموت . مكث في أحد المستشفيات العسكرية زمناً طويلاً ، لكنني أعرف أنني لم أره راقداً في المستشفى . لا أذكر السبب . أعرف أن والدي ووالدتي ذهبا لزيارته . أتذكّر أنهما أرادا أن يأخذاني إليه لكنهما لم يعثرا عليّ - أو شيء من هذا القبيل . أحسب أنني ببساطة كنت أخشى رؤية كاليب . كان قد بعث إلينا خطابين حول اكتشافه الرب . حين عاد إلى نيويورك ، لا أدري أين كنت : وعندما رأيته كان قد التحق بـ « دار الشريعة الإلهية الجديدة » . أخبرني أنه نجا من الموت . بعدها لم أره ثانيةً .

عدنا ، أنا وبربارة ، إلى نيويورك ، في نهاية الصيف . ارتكبنا خطأ - لا أدري ما إذا كان بوسعك أن تعتبره خطأ إن لم تستطع التحمل - العودة إلى زقاق الجنة . حسناً . كان لي إحساس أنه يلزمنا ألا نذهب إلى هناك : لكن ، ما من مكان آخر نقصده . فعلى الأقل ، كنا نعرف زقاق الجنة . كان حيا فقيراً ذا بيوت متداعية ، وما كان مالك الدور يأبه من الذي يسكن هناك . لم نجرؤ على محادثته بصراحة حول وضعنا المادي الصعب وهو رجل غريب .

عودتنا إلى زقاق الجنة تعني أننا سنواجه آثار ماضينا القريب . جوارب جيري ، أحذيته ، بلوزاته الصيفية السميكة ، حمالات أعضائه التناسلية ، سراويل الجينز

الزرق ، أربطة العنق ، ملاحظاته مكتوبة بخط يده ، صورة فوتوغرافية لجيري وبربارة ، صورة فوتوغرافية أخرى يظهر فيها جيري ، شارلي وأنا - كلنا نبدو تاريخيين . هناك كل أشيائي القديمة ، ملابسي الشتوية - أقصد بشكل رئيسي كنزاتي الصوفية السميكة - الأحذية الثقيلة ، كل ما يشير إلى حياة لم نعد نحياها . كل هذه الأشياء تعرض الحياة التي نتمنى أن نعيشها إلى الخطر . هذه الأشياء أورثتنا المرض ، أخزتنا . وضعنا كل أشيائنا في صندوقين ، وأخفيناهما في أحد أركان الغرفة (لأنه قد يأتي أصحاب هذه الأشياء ذات يوم) . مكثنا . حاولنا المكوث . حصلت بربارة على عمل كنادلة في مطعم . وعملت أنا أيضاً كنادل في مطعم الهند الغربية ، نادلاً ومطرباً في آن . غالبًا ، في آخر الليل ، بعد أن ننتهي من تقديم الطعام والشراب ، آخذ قيثاري ، وأغني بعض الأغاني . كانت بربارة على صواب . أحبوا غنائي . وكان هذا النجاح نافعاً لي . تلك المهنة جعلت علاقتنا أنا وبربارة تستمر خلال شتاء ذلك العام ، أكثر مما توقعنا . كان للمهنة تأثير مباشر على مسيرتي الفنية . إن نادلاً أسود يغني في « القرية » ، في ذلك الزمن لابد أن يلفت الانتباه ، وهكذا ، دون أن أدرك ، أصبحت ما أمكنني ترويجه فيما بعد : رجلاً ذا شأن .

سارت الأمور على هذه الوتيرة : يبدأ عملي في حوالي الساعة الخامسة أو السادسة مساء ، أفتح المطعم . هنالك ثمان أو تسع موائد . يمكننا خدمة حوالي أربعين زبونًا إذا ما شغلت الموائد كلها . كنت النادل الوحيد . كان المطعم ينخفض عن مستوى رصيف السابلة بحوالي ثلاث درجات . أفتح الباب . أكنس المطعم . أفتش صناديق القمامة ، في داخل المطعم وخارجه . إذا كنت قد نقعت عدداً من القدور في الماء والصابون أقوم بتنظيفها وغسلها الآن . أرتب المطبخ . أحضر الساطور ولوح التقطيع . أقطع السلطة وأعدها . أقشر البطاطس . أسكب الماء في حبات البازلاء التي نقعناها طوال الليل . أغسل الرز - ذلك أننا نقدم عادة طبق الرز مع البازلاء ، تدعو هذه الأكلة هوبنج جون . ثم أتوقف عن العمل . آخذ جرعة من الشراب - من الروم الجامايكي الأسود . هيلدا تحتفظ دوماً قنينة روم في المطبخ . خلال ذلك ، تكون هيلدا - الطاهية ، وهي صاحبة المطعم ، سيدة سوداء ، ضخمة البدن ، من الجزر ، عازبة بصورة مبهمة - قد وصلت . وهي الآن في المطبخ ، تقطع الضلوع والدجاج . هيلدا

وأنا لا نتبادل حديثًا طويلاً : هذا يعني أن هيلدا تحبني وتثق بي . كانت تعمل بجد . تعمل بصمت . فهمت مبرراتها ، مع أننا لم نناقش ذلك معاً . أنا متيقن من أن كل ما وفرته من مال طوال سنوات عملها كطاهية في بيوت خاصة قد استثمرته في هذا المطعم : هي الآن تشعر بالخوف ، مع أنها حجبت هذا الخوف تماماً . مع ذلك فهي تضطلع بمسئولية هائلة ، مع شركاء أو مع سواهم – لا أعرف بالضبط ما إذا كان لهم شركاء أم لا – أن تفتح امرأة زنجية وحيدة مطعماً للزنوج في مركز نيويورك كان ضرباً من التحدي الذي يمكن أن يؤدي بسهولة إلى الانتقام . لسبب واحد ، مطعم هيلدا ، كنا ندعوه « الجزيرة » ، يجتذب حتماً الزنوج الآخرين في مركز المدينة ، أما العاملون في « القرية » فلم يكونوا يتمنون حدوث ذلك . أنا وهيلدا كلانا يعرف هذا ، ولا داعي لمناقشته . بطبيعة الحال ، كان اعتمادنا الرئيسي على الجزر مثير جداً – ربما ساعدنا ذلك : وقد عجلنا ، إن لم نساعد فعلاً في خلق ، جنون الكاليبسو[1] الذي اجتاح المدينة بعد ذلك بمدة قصيرة . المغنون الزنوج ، العاملون في نوادي « القرية » ، يزورون المطعم مراراً ، مما منح المكان « نبرة » خاصة ، نبذبة خاصة ، وغالباً ، إذا كانت الأجواء مناسبة يغنون أو يرقصون .

ثمة شيء مؤثر جداً في هدوء هيلدا وتفانيها الصامت . لا أظن قط أنها ترغب فعلاً في إدارة المطعم – لكنه شيء مجبرة عليه . لا نعرف شيئاً عن حياتها مطلقاً . يبدو أنها عازبة ، تنفق القليل جداً من مالها على نفسها . كانت تبعث معظم مالها إلى ترينيداد ، من غير أن تخبرنا إلى من تبعثه ، حتماً هناك من يعتمد على عملها هنا . مما وهبها كرامة سوداء ، يصعب مهاجمتها. أحسب أنها أحبتني لأنني مثلها متفان بطريقتي الخاصة ، متكتم وشجاع ، مثلها ، ولكن بطريقتي الخاصة . كنا فريقاً جيداً . إن لم نكن كذلك ما كان باستطاعتنا إنجاز العمل الهائل الذي يتحتم علينا تأديته مساء كل يوم . أسلم المطبخ إلى هيلدا ، أرتب موائدي . كنت ، دوماً ، آخذ معي كتاباً ، بعد أن أفرغ من ترتيب الموائد أشرب كأساً من الروم ، وأبدأ بمطالعة كتابي حتى وصول الزبائن .

[1] كاليبسو : هي أخت أطلس التي يذكرها هوميروس في « الأوديسة » ، بأنها عندما تحطمت سفينة أوديسيوس على الجزيرة المسماة باسمها ، استضافته ، ووعدته أن تمنحه الخلود إن تزوجها ، واحتجزته سبع سنوات لكنه هجرها فماتت حزناً وكمداً . (المترجم)

كنا ندير مطعماً يتأخر نوعاً . كان يوم عملنا لا ينتهي قبل الواحدة صباحاً ، وأحياناً حتى الرابعة . بعض الناس غريبو الأطوار مروا عبر أبواب ذلك المطعم . أعتقد أنني تعلمت الكثير هناك. أحد الأشياء التي تعلمتها دون أن أدرك أنني تعلمتها ، هو كيفية الإشراف على مكان ما . من المؤكد أنني أشرفت على ذلك المكان . لو لم أكن قادراً على ذلك ، لسحقوني بالأقدام حتى الموت .

ها هم قد جاءوا : لنقل ، فتاة شقراء ، ذات شعر طويل جداً ، رشيقة ، فتاة من أطراف المدينة ، ترتدي فستاناً أسود مهيباً . عاشقها بشعر قصير وبذلة من الجبردين . هما يزوران مطعمنا من باب الفضول ، هما يعرفان ذلك بشكل أو بآخر ، رغم ذلك هما يرمقانني بإمعان نوعاً . لأسباب شتى ، رحت أرمقهما بإمعان نوعاً طالما هما الآن في أرضي ، وأمي أحسنت تربيتي ، لذا طويت كتابي ونهضت وابتسمت لهما - كنت أقول دوماً ، انهض وتألق .

« طاب مساؤكما . هل يمكنني مساعدتكما ؟ » .

كانت هيلدا تتجنب الزبائن قدر استطاعتها ، كأنها لم تكن لتطيقهم : في مثل تلك اللحظات ، كنت أسمع دوماً صوت الساطور في المطبخ ينزل بقوة .

« نود أن نأكل شيئاً » .

تبدو بعض الفتيات مسرورات ، بعضهن يبدين منزعجات . على أية حال ، يصعب أحياناً الحكم عليهن . لكن هذه الفتاة تبدو متألقة حتماً .

« أكيد . أترغبان بالجلوس إلى هذه المائدة ؟ » .

يجلسان . قائمة الأطعمة والمشروبات أمامهما . الفتاة لما تزل تبدو متألقة ، أما الشاب فقد صمم على أن يبدو زبوناً منتظماً . الأم لا تعرف كم أعرف عنه من معلومات . ربما لا يستطيع هو التفاهم معها . لكنني ربما أعرف أحداً . أو ربما يستطيع هو التفاهم معي . أنا أسود . لكنني طيب المعشر . لا ريب . أنا ذكرته بشخص ما عرفه في الكلية .

« أتشربان شيئاً ؟ » .

وطاخ ! نسمع دوى الساطور . أذهب خلف مضد المشرب كي أعد كأسى المارتيني . فاتنى أن أقول إننى كنت الساقى الوحيد فى المطعم . من موقعى خلف المشرب، أنظر إلى المطبخ، إلى هيلدا السوداء والواثقة من نفسها. نتبادل الإيماءات . أقول لها صامتاً : « إنهما مثل أى أحمقين آخرين ، ما من مشكلة » . أغمز لها ، وترد على بغمزة . ثم ترفع الساطور وتهوى به ثانية ، طاخ :

« المارتينى طيب المذاق ، جيد الإعداد » .

« شكراً . هل تريدان أن تطلبا عشاء . أم .. حسناً .. هل تشربان كأسين آخرين ؟ » فى هذه اللحظة أبتسم ابتسامتى المدهشة ، غير المتصنعة .

« طيب . سنرى فيما بعد » .

« حسنا . تصرفا وكأنكما فى بيتكما » .

وهنا يأتى اثنان آخران : هى ، سيدة فى منتصف العمر ، مشاكسة ، ترتدى ثياباً من الأخضر والبرتقالى . هو ، أصلع ، مسرع ، يرتدى بذلة زرقاء داكنة .

« ما اسم هذا المطعم ؟ » .

« نحن نسميه [الجزيرة] . طاب مساؤكم » .

« ألديكم طعام جيد ؟ » .

« بعض الناس يحبونه . البعض يدمنون عليه » .

أفكر . أظن أن أحد الأسباب التى جعلتهما ينظران إلىّ بإمعان هو أننى لم أبتسم لهما قبل أن يطلبا وجبة طعام ، أية وجبة طعام كانت . حتماً لم أكن من النوع الذى يطبل لمهنته . وهذا هو السر الكامن وراء ابتسامتى الصريحة الحذرة .

« طيب . ربما يتعين علينا أن نجربه . ماذا تعتقدين ، أنيتا ؟ » .

يتطلعان إلى الثنائى الآخر . يتطلعان إلىّ . أتركهما فى وادى القرار . أقدم لهما لائحة الأطعمة .

• هل تشربان شيئاً ؟ • .

• هل يمكنك أن تعد لنا مانهاتن ؟ • .

• أحسب أنني مازلت أذكر . كأسين ؟ • .

• نعم . وليكن بارداً منعشاً • .

يتذوقان كأسيهما بارتياب . يهوى الساطور المرة تلو الأخرى ، تغلي القدور . هيلدا تدق الجرس إشارة إلى أن وجبة الثنائي الأول جاهزة . أقدم لهما الطعام . يبتسم لي الفتى ويغمز لي . أبادله الابتسام . ثم أعود إلى الثنائي الآخر .

• هل تودان أن تطلبا عشاء الآن ؟ • .

• أجل . نود أن نجرب الدجاج . لا نريد توابل مع الدجاج • .

• جيد جداً . شكراً • .

وهنا يأتي آخران ، غلامان ، لم يبلغا سن الرشد بعد ، حتماً هما من (البرونكس). يدخلان ، القرية ، لأول مرة .

• مرحباً . هل نستطيع أن نتناول الطعام ؟ • .

• إذا لم تأكلا فلن تعيشا طويلاً . ما رأيكما بهذه المائدة ؟ • .

أوقد لهما الشموع .

• هل الأضلاع جيدة ؟ • .

• أنا أحبها • .

• هل أنت الطاهي هنا ؟ • .

• لا . أنا النادل . الطاهية في المطبخ • .

• ما اسمك ؟ • .

• اسمي ليو • .

« هل تشربان شيئاً ؟ » .

« هل يمكنك أن تعد لنا مانهاتن ؟ » .

« أحسب أنني مازلت أذكر . كأسين ؟ » .

« نعم . وليكن بارداً منعشاً » .

يتذوقان كأسيهما بارتياب . يهوى الساطور المرة تلو الأخرى . تغلى القدور . هيلدا تدق الجرس إشارة إلى أن وجبة الثنائى الأول جاهزة . أقدم لهما الطعام . يبتسم لى الفتى ويغمز لى . أبادله الابتسام . ثم أعود إلى الثنائى الآخر .

« هل تودان أن تطلبا عشاء الآن ؟ » .

« أجل . نود أن نجرب الدجاج . لا نريد توابل مع الدجاج » .

« جيد جداً . شكراً » .

وهنا يأتى آخران . غلامان . لم يبلغا سن الرشد بعد . حتماً هما من (البرونكس). يدخلان « القرية » أول مرة .

« مرحباً . هل نستطيع أن نتناول الطعام ؟ » .

« إذا لم تأكلا فلن تعيشا طويلاً . ما رأيكما بهذه المائدة ؟ » .

أوقد لهما الشموع .

« هل الأضلاع جيدة ؟ » .

« أنا أحبها » .

« هل أنت الطاهى هنا ؟ » .

« لا . أنا النادل . الطاهية فى المطبخ » .

« ما اسمك ؟ » .

« اسمى ليو » .

« هل لنا بزجاجتين من البيرة ؟ » .

ربما كانا دون سن الرشد . لكن ، من الناحية الأخرى ، أنا أيضاً دون سن الرشد . لا أعرف كم تدفع هيلدا لقاء حماية المطعم . لكنني أعرف أنه مبلغ طائل .

« حسناً . مع طبقين من الأضلاع ؟ » .

« صحيح » .

« شكراً » .

وهنا يأتي : أربعة بحارة جنوبيون ، مخمورون بعض الشيء . ربما يكونون محتالين . لكننا ، أنا وهيلدا ، لنا مجموعة إشارات ، وعادة أتخذ خطة بارعة في مثل هذه اللحظات بحيث أكون قريباً من قضيب إذكاء النار في الموقد .

« مساء الخير . هل ترغبون بتناول الطعام ؟ » .

« نعم . نحن جياع » .

« أنتم إذاً جئتم إلى المكان الصحيح . هل تناسبكم هذه المائدة ؟ » .

« أجل . هل نستطيع أن نشرب ؟ » .

هذا السؤال أيضاً ينطوي على الحيلة ، إذ لا يحبذ أحد أن يسكر البحارة في مطعم . لكنني حقيقة ، لا أستطيع أن أجزم أنهم ثملون تماماً بحيث لا يمكن تقديم الطعام إليهم .

« ماذا تطلبون ؟ » .

كلهم يرغبون الويسكي وبعده الجعة .

« يا هذا ، من أين أنت ؟ من هنا ؟ » .

« أنا من نيويورك » .

« أتعرف أين يمكننا العثور على بائعات الهوى ؟ » .

« في الشوارع كلها . على ما أظن » .

« يا رجل ، كنا ننظر هنا وهناك إلا أننا لم نعثر على واحدة . هذه المدينة مليئة بالواطيين » .

« نخب صحتكم . ما يزال الوقت مبكراً . ماذا تريدون أن تأكلوا ؟ » .

رحت أفكر . ينبغي الاعتراف أن معظم الجنوبيين الذين يأتون إلى هذا المكان يثيرون دهشتي . أما الشماليون فكانوا خطرين .

« هل لي بأقدام الخنزير . رائحتها أشبه برائحة الفرج » .

« يا رجل ، قل أشبه برائحة القضيب » .

« أين صادفت قضيباً ذا مخالب ؟ » .

ضحك .

ها هما يدخلان : فتاة شقراء ، جميلة ، من مينابوليس ، تعيش في « القرية » برفقة زوجها الموسيقار الأسود . في النهاية أصيب هو بالجنون ، بينما أصبحت هي تعاقر الخمرة . لا أدري ماذا جرى لابنهما الصغير . ها هما يدخلان : رودا وسام ، أسعد زوجين شابين في « القرية » . انتحرت رودا ، أما هو فسافر إلى إسبانيا وضاعت أخباره . ها هما تأتيان : شابتان تعملان في الإعلانات ، تعيشان معاً في رعب ، روتا لي قصتي حياتيهما ، حين سكرتا ذات ليلة . إحداهما صادفت طبيباً نفسانياً ، تزوجت شاباً في غاية البدانة يعمل هو الآخر في الإعلانات . انتقلا إلى كاليفورنيا ، هما الآن شخصان ناجحان جداً وفاشيان علانية . لا أدري ماذا جرى للشابة الأخرى . ها هما يأتيان : الرجل الأسود من كنتوكي ، الذي يدعو نفسه أميراً أفريقياً . له اسم مثير للضحك مثل اسم عمر ، وصديقته المرتعشة برين مور التي يتباهى بعذريتها . في الختام اعتقلته عائلتها ، أما الفتاة فتزوجت رجلاً من يالي . ها هما يأتيان : المحامي الزنجي ، اللامع ، الكهل الذي يعيش على الويسكي والبنزدرين[1] والنسوة البيضاوات السمينات : ها هو ذا يأتي : الفتى ذو العينين المتألقتين القادم من الجنوب ، الذي سيغدو عما قريب كاتباً ، الذي أمسى مدمناً على الشراب . ها هو ذا يأتي : الفتى الذي هرب تواً من عائلته الثرية المقيمة في فلوريدا ، الذي ينوي أن يحيا

(١) البنزدرين : اسم تجاري لعقار من أنواع الأمفتامين ، يستعمل للتنشيط أو للشعور بالغبطة بالنفس (قاموس المغني الأكبر لحسن الكرمي) .

حياة مختلفة عن حياة أسرته . (« لا أحتاج إلى كل تلك النقود . جل ما أريده أن أحقق ذاتي ») . الذي تحول فيما بعد إلى تاجر للسلع المستعملة . ها هما يأتيان : الرسام اللواطي وزوجته السحاقية . اللذان توصلا إلى فهم مشترك مع أحدهما الآخر مما جعلهما فطنين بصورة وحشية مع كل شركائهما الجنسيين وأصبحا ملتحمين ببعضهما بصورة بغيضة . ها هو ذا يأتي : الرجل الضائع . الوحيد الذي يعمل في بناء السفن . ويعيش مع أمه . المغرم بحب بالأولاد الصغار والخائف منهم . الذي يقفز من السقف . هما يأتيان : الثنائي الجميل . في منتصف العمر . يسعد المرء برؤيتهما . انتحب الزوج وتصبب عرقًا . وعلى الفور طرحني أرضًا بين علب القمامة . فتح سحّابة سروالي وحاول أن يتحرش بي جنسيا . « لا تخبر ماسيا . أرجوك لا تخبر زوجتي ! » ها هي ذي آتية الفتاة الجميلة . الرسامة . التي انتهت أخيراً في بليفيو . ها هي ذي آتية الفتاة التي تطمح أن تغدو راقصة التي انتهى بها المطاف في السجن. ها هو ذا الذكي الذي ينحدر من بوستن الذي يريد أن يمارس أحدهم اللواط معه . الذي ألقى بنفسه أمام قطار الأنفاق – الذي سحق رأسه وحوله إلى شظايا – ها هم يأتون . يا إلهي . البائسون . الحلوين . الضائعون والوحيدون . والذين حاولوا العيش رغم علامة الموت الباردة التي تلوح عليهم . والذين حاولوا التحدث بالرغم من عدم تعلمهم أية لغة . والذين حاولوا ممارسة الحب مع أن الجسد قذر . تأملوا أن يجدوا في الكئوس التي تذوقوها تلك النكهة التي كانت مرحًا . مرحهم . الذي بدونه تغدو الحياة لا قيمة لها . نعم . تعلمت الكثير . أخافوني . لكنني تعلمت الكثير . جاءت سالي . إلى هنا . في إحدى الليالي . سالي التي تعين علي أن أعيش معها زهاء سنتين . سالي باردة جداً. ملساء . متشامخة بعض الشيء . جاءت برفقة طالبين من جامعة نيويورك . كانوا يتناقشون في علم الاجتماع . كنت أظنهم تافهين . في الختام صارحتهم بذلك . تخاصمنا أنا وسالي . ثم ترددت كثيراً على حرم جامعة نيويورك إلى أن عثرت عليها ثانية . وجعلتها تتحدث ثانية كإنسانة هذه المرة . وليس كصديقة بائسة . تصلح أن تكون موضوعًا للبحث الاجتماعي . هنا . ذات ليلة . جاء ستيف من بنسلفانيا . ابن متمرد لجنرال شهير . ووقع في حبي . عليّ أن أقولها بهذه الصيغة . لأن هذا هو ما حصل فعلاً . مع معرفتي أنني لا أتدبر هذا الأمر بشكل جيد جداً . عني كثيراً بالنسبة لي . علمني شيئًا ذا قيمة . علمني تواضعًا معينًا قبل أن يعلمني حقائق الحياة

الوحشية والمبهمة . في النهاية تزوجت سالي محامياً أسود ، طيب المعشر ، وما زالت تربطنا علاقة ودية - أحسب أن علاقتنا هذه كلفتنا الكثير . مضى ستيف إلى طنجة وقيل لي إنه عاقر الخمرة هناك إلى أن مات . أجل . كان ذلك زمن أغضبني .

بعدها ، حوالي منتصف الليل ، يكون المكان خاضعاً للسيطرة ، الأزواج الأخيرة ترتشف قهوتها . وقتئذ يكون المكان لطيفاً بعض الشيء . الشموع تجعل المكان يبدو دافئاً ، ويبدو أكثر نبلاً مما كانوا عليه . أتناول وجبات غذائي في أوقات غير محددة ، يعتمد هذا على سير العمل وعلى مزاجي الخاص ، لا يهمني متى آكل طعامي ، طالما أنني قد أغلقت المطعم . مرات كثيرة ، أتناول عشائي في حوالي الثانية صباحاً ، جالساً وحدي في المطعم المغلق . حوالي منتصف الليل ، تخرج هيلدا من المطبخ تجلس إلى طاولتها ، قرب الموقد . كانت تجلب معها ، دوماً ، الحياكة ، أتذكر ، أن يديها كانتا مشغولتين على الدوام - أحسب ، لأنها تود أن يكون معظم الناس الذين يرتادون مطعمها بعيدين عنها . غالباً ، تأتي بربارة كي تأخذني معها ، أو يأتي بعض أصدقائي . قضى ستيف جزءاً كبيراً من وقته في مطعمنا خلال مدة من الزمن ، وفعلت سالي الشيء ذاته .. ما زلت أتذكر بعض اللحظات ، ما زلت أتذكر سالي وهيلدا ، تجلسان إلى الطاولة الكائنة في الركن . تضحكان . سالي وهيلدا أحبتا بعضهما الأخرى كثيراً ، وقد أحست هيلدا بخيبة أمل كبيرة حين أخفقتُ في الزواج من سالي . كانت هيلدا تشعر بأن سالي تتمتع فعلاً بمنزلة اجتماعية رفيعة ، وأنا بحاجة ماسة إلى استقرار سالي . لم أزل أتذكر ستيف ، نحيلاً ، مجعد الشعر ، يمشي بكسل ، ينظر إلى مباشرة . أحياناً ، من المؤلم أن تتذكر الماضي وتسائل نفسك عن جدوى ما فعلته. ضاع منا الكثير ، وما ضاع منا ضاع إلى الأبد ، ولن نقدر على استرداده . هل حكم عليه القدر أن يضيع منا ، وهل كان بوسعنا إنقاذه من الضياع ؟ كان الناس يتمتعون بستيف أيامئذ ، كنت شديد الحساسية فيما يتعلق بهذا الأمر ، كانت حساسيتي أكثر من اللازم . كان بكل تأكيد صريحاً جداً ، وقد اعتبرت هذا شيئاً سخيفاً إضافة إلى كونه مخيفاً . لابد أن أقول لسالي هذا ، فيما بعد ، حين أدركت أننا الاثنان نحب بعضنا ، وربما نصبح عاشقين من جديد ، فعلت كل ما في وسعها كي تفهم هذا ، وأن تفهم ستيف . لكنه زرع الخوف في قلبها بالطريقة نفسها التي فعلتها معها ، مع أن سالي كانت فتاة ذكية وجميلة ، إلا أنها في أعماقها محتشمة . هذه هي في

الواقع المشكلة التي كانت بيننا ، مع أننا ربما لم ندركها ، عندئذ ، كنت أصغر عمراً من أن ندرك أن فتاة سوداء ، وحيدة ، تعمل في « القرية » حينذاك ، عليها أن تكون محتشمة ، وإلا تعرضت إلى خطر التهشم .

على أية حال ، في بعض الليالي حوالي منتصف الليل ، إذا كان الظرف مناسباً ، آخذ قيثاري الذي أعلقه فوق الموقد ، أجلس على المقعد العالي (الستول) القريب من مائدة هيلدا ، أداعب أوتار القيثار قليلاً . يسود الصمت في المطعم ، فأغني بعض الأغاني . أحب الناس أغنياتي ، يخبرون أصدقاءهم ويحثونهم على المجيء إلى المطعم لسماع أغنياتي . اللعنة ، لابد أنهم أحبوا أغنياتي . كنت أغني مجاناً ، بالطبع ، أحبت هيلدا أغنياتي لأنني كنت أؤدي عملي بشكل جيد . لا أحسب أن رجال الشرطة البيض قد أحبوا أغنياتي ، لكن يبدو أن ثمة ترتيبات عمل بين هيلدا والشرطة البيض ، لذا ما كانوا يسببون لنا أية مشكلة. ذات ليلة ، في وقت متأخر جداً ، كان في المطعم أربعة أو خمسة زبائن ، كنت أجلس على مقعدي ، أغني ، فدخل كاليب . حين دخل كاليب كنت أغني : « غالبًا أشعر أنني كالطفل الذي بلا أم » . كنت فعلاً أشعر هذا الشعور . كان قد دخل المطعم فعلاً ، قبل أن يتسنى لي معرفة ذلك . رأيت هذا الرجل الضخم ، الأسود ، يجتاز المدخل ، فكرت مع نفسي : « اللعنة ، من أين جاء ، اللعنة ، لن أخدم الليلة أي زبون آخر » . بعدها ، إذا جاز لي القول ، اتضحت لي الرؤيا ، وألفيت نفسي أتطلع إلى كاليب .

حسناً ، بدا هو مندهشاً - ضخماً ، أسود ، متألقًا : يشعر بالأمان والزهو . لم أره منذ زمن طويل جداً . أرغمت نفسي على إنهاء أغنيتي . بينما كان يتطلع إليَّ باسماً . تطلعت هيلدا إليَّ ، أنهيت أغنيتي وقلت لها : « ذاك هو شقيقي كاليب » . سرت نحوه . كنت حقيقة مسروراً جداً برؤيته . لم يخيل لي أبداً أنني سأفرح به بهذه الدرجة .

نهض على قدميه ، وعانقني .

« أهلاً ، شقيقي الصغير . أنت بعيد جداً عن البيت » .

« أهلاً بك . ما الذي أتى بك إلى هنا ؟ » .

« حسنًا ، إذا لم تأت إلي ، فعلي أن آتي إليك » .

« كيف حال الجميع ؟ » .

« الجميع بخير . سيشعرون أنهم أفضل حالاً لو عرفوا كيف هو حالك . نعم ، ستكون وجوههم أكثر إشراقًا ، وسيبتهجون فعلاً » .

« أترغب بكوب من القهوة أو أي شيء آخر ؟ أوه ، كاليب ، هذه هيلدا رئيستي في الطاهية هنا . إنها طاهية جيدة . أأنت جائع ؟ دعني أهيئ لك طعامًا تأكله » .

« لا تسبب لي مشكلة ، الآن ، اعتن بزبائنك ، أو واصل الغناء . من زمن طويل لم أسمع غناءك . كيف حالك يا سيدة ، أنا سعيد بمعرفتك » .

تصافح كاليب وهيلدا . قالت هيلدا : « كنت أعتقد أنك وحيد في هذا العالم ، وها أنت ذا تخبرني أن لك أخًا جميل الطلعة » .

أجبتها : « أخذ كاليب كل الجمال الذي في العائلة » .

« ألهذا السبب أنت لا ترغب أن يرانا الناس معًا ؟ » ضحك كاليب وهو يقول هذا . علقت قيثاري .

« بلا مزاح ، أأنت جائع ؟ تعال معي . أقسم بأنك جائع ، أنت جائع دومًا » .

ابتسم كاليب لهيلدا فبادلته الابتسام . هو ، فعلاً ، رجل جميل الطلعة .

« طيب ، إذًا . ماذا لديكم من أكلات ؟ » .

أجابت هيلدا : « أعددت خبز الذرة هذه الليلة . إذا كنت شبيهًا بأخيك فأنا أحزر أنك تحب خبز الذرة » .

« حتمًا كنت تعرفين أنني قادم » . قال كاليب هذا وضحك .

« تعال معي إلى المطبخ وقل لي ما ترغب بأكله . لدينا دجاج وأضلاع ، وأكلات كثيرة » .

« إذًا ، لماذا لا تزال ضعيفًا يا ليو ؟ ألا تأكل ، هنا ، أيضًا ؟ » .

ردت هيلدا : « هذا صحيح ، اعتن به . أنا سعيدة بأن أجد شخصاً يعتني به جيداً . ذلك أنني لم أجوّع أخاك . هو لا يعتني بنفسه » .

نظرت إلى كاليب ، الذي كان يتأملني بوجه تلوح عليه تعابير السخرية والتسلية . « إن هذه المهنة تفقدني شهيتي . فتغدو كارهاً للجنس البشري لأنه يأكل . لكني سآكل معك ، الآن » .

« هل فرغت من عملك ؟ أنا لا أريد أن أخلق لك مشكلة » .

« لا تقل مثل هذا الكلام . أية مشكلة هذه التي تتحدث عنها .. كيف يمكنك أن تكون مشكلة بالنسبة لي . على أية حال ، أنا أكاد أفرغ من عملي » .

لا زلت أذكر أنني تلك الليلة كنت سعيداً جداً ؛ لأن بربارة لم تكن هناك ، ولم يكن هناك أيضاً أي من أصدقائي أو معارفي . كانت هيلدا لطيفة جدا . قامت بواجباتي ، وحتى أنها راحت تتحدث إلى اثنين من الزبائن ، وأعطيت لكل منهما قائمة الحساب ، فيما كنت أملأ طبق كاليب وطبقي . كنت متلهفاً لأن أطلب من كاليب أن يشاركني احتساء الشراب ، لكني كنت أعرف أنه لن يشرب . ثم ساءلت نفسي هل أجرؤ على مصارحته بذلك ، الآن أنا كبرت ، هكذا قلت لنفسي . ثم سكبت شيئاً من جعة الزنجبيل له وقدحاً من الشيبانتي لي .

جلسنا .

قال لي : « إذاً ، حدثني ، ما هي أخبارك ؟ » .

« لا شيء جدير بالحديث . أنا أعمل وأدرس » .

وكيف تسير الأمور ؟ » لكن ذلك كان سؤالاً مهذباً ، إذ كان لا يمكن أن يسأل بهذا الأسلوب من قبل . لم يصدق أن دراستي لطيفاً مع شقيقه الصغير على أمل أن يعود لرشده .

لا يمكنك حقيقة أن تجيب عن سؤال مهذب عندما لا يكون هناك بالفعل ما تسأل عنه ، شعرت بالارتباك وقلت وأنا أرشف النبيذ : « كل شيء يسير على ما يرام » ،

ولكنني كنت أريد أن أقول إنني أعتقد زنني أحقق بعض التقدم ، ولكن الأمر صعب وأعرف أنه سوف يزداد صعوبة ، وأنني أشعر بالوحدة الشديدة .

« أما زلت تعيش في الجانب الشرقي ؟ » .

« نعم ! » .

لم يذكر « باربرا » ، ولم أذكرها أنا أيضاً .

« ماذا يحدث لك ؟ وكيف تسير الأمور في المدينة ؟ » .

« حسناً ! أنا مشغول في عملي بين رئيسي - كان كاليب يعمل سائقًا لحساب أحد السمامرة في لونج أيلاند - ذلك التعس ، وبين عملي في الكنيسة ، وأنت تبدو مرهقًا ياليو ، ألا تعتني بنفسك ؟ » .

« أكيد ! ولكنني مشغول كذلك بين هذا العمل ومحاولة الدراسة » . نظر إلى كأس النبيذ في يدي أنت تشرب كثيراً ، أليس كذلك ؟ لقد خرب الشراب كثيرين ! » .

كنت مغتاظاً وأريد أن أصب لنفسي كأساً مضاعفة ولكنني سعيد لأنني لم أفعل ، قلت : « لا ! » .

كان ما يزال يعرف طبعي ومزاجي .

« لا تكن مندفعاً ! أنا أسأل فقط لأنك أخي ولأنني أحبك ، فلا تغضب مني لذلك ».

« لست غاضباً منك ، بل إنني سعيد لرؤيتك » .

« حسناً ! لو أنك سعيد لرؤيتي، فلماذا لم تحاول أن تراني؟ هل فقدت عنواني ؟ » ثم أمسك عن الكلام ، « هل تعتقد أنه من الصواب أن تترك ماما و دادي قلقين عليك هكذا ؟ » .

« ليس هناك ما يستدعي القلق ، فأنا لست طفلاً وبإمكاني أن أهتم بنفسي » .

« أنت شاب صغير ياليو ، في عالم مرعب ، نحن أكبر منك وندرك ذلك ولابد أن نكون قلقين عليك ، أنت من لحم ودم وأصغر الأولاد في العائلة ، نحن نضمر لك الحب ، أتظنه شيئاً صحيحاً أن تجعلنا نعاني ؟ » توقف عن الكلام لحظة ، « والدنا لن يكونا

معنا إلى الأبد . يتوجب عليك أن تعاملهما بالإحسان طالما هما على قيد الحياة . على أية حال ، لقد أحسنا معاملتك . أليس كذلك ؟ » .

عند ذاك أصبح طعامي عديم النكهة وخمرتي أصبحت فاسدة .

« كاليب ، لا أدرى إن كنت قادراً على أن أجعلك تستوعب .. » .

« حاول . أعرف أنك تحسب أنني رجل فاضل عتيق الطراز . لكن حاول . ما الذى جعلك تعامل عائلتك بهذه الطريقة ؟ هل ظننت أن طريقتك هذه لن تؤذينا . هل ظننت أننا بلا مشاعر ؟ » .

لم أشك أبداً ، وأنا أراقبه وأصغي إليه ، بأنه بلا مشاعر . حاول . حاول أن توقظ الميت ، حاول أن تصيد البحر ، حاول أن تتكلم إلى أخيك . حاول . « كاليب ، لم أحاول إيذاء أحد . بل حاولت فقط أن أعيش حياتي لكنكم لا .. لا تحبون حياتي » .

« نحن لا نريد أن نتفرج عليك وأنت تدمر نفسك ، إذا كان هذا هو ما عنيته . ما هو الشيء غير الطبيعي في ذلك ؟ » .

« أنا لا أدمر نفسي . أنا أعمل وأدرس . ماذا تريد مني أن أفعل ؟ » .

عند ذاك ، أقبلت فتاة ، تبدو معدمة ، إلى منضدتنا لتقول : طابت ليلتكم ، وتنظر إلى كاليب عن كثب . لم تكن تعرف ما الذى دار بخلد كاليب حين وقفت هناك ، تبتسم ابتسامة متكلفة محاولة أن تترك انطباعاً فيه . أفلحت في أن تترك انطباعاً فيه . تأملت ابتسامة كاليب وهي تتيبس . غشي عينيه شعور بالندم والسخرية ؛ نظر إليّ نظرة قصيرة . في النهاية ، غادرت الفتاة المطعم .

« صديقتك ؟ » .

« إنها مجرد زبونة لا غير . تأتي إلى مطعمنا أحياناً . هي فتاة لطيفة » . أجبته ، بعدها ندمت على ما قلته .

« هي فتاة شديدة الكآبة ، ضائعة . هل تقضي وقتك مع هذا الصنف من البشر ؟ » .

« اسمع . لنتجنب الخوض في هذا الموضوع . وإلا سنلجأ إلى الخصام » .

قال لي : « أنت لا تتخاصم معي ، لأن الخصام يحتاج إلى اثنين ، أما أنا فلن أتخاصم معك . عليّ أن أهتم بك باستمرار ، إنها مسئولية وعليّ أن أنهض بها . أنت في مقتبل العمر ، العالم شوش ذهنك حتى إنك لا تعرف ما إذا كنت غادياً أم رائحاً . أنت ولد تعيس ، يا ليو ، والتعاسة تلازمك . أشعر بالأذى حين أراك على هذه الحال . لكن يجدر بك أن تكون تعيساً فالنور سيأتي إليك ذات يوم ، كما جاءني . سترى وسيرى أصدقاؤك كلهم أنكم ستكونون تعساء ما دمتم تحاربون محبة اللّه » .

أظن أن كل قناعة حقيقية تجلب معها نوعاً من الجمال ، وبينما كان كاليب يتكلم ، لاح على وجهه جمال هائل وصارم . لم يكن بحوزتي أسلحة ضده .

« أنت تحارب الآن . أعرف . أعرف الطريقة التي حاربت بها . عليك أن تتعلم كيف تتجنب القتال ، وألا تضغط على إرادتك ، بل عليك أن تجعل إرادتك تستسلم . ستجد نفسك خاضعة للإرادة العظيمة ، الإرادة الكونية ، إرادة اللّه ، التي خلقت السماوات والأرض وكل شيء و .. » انحنى إلى أمام ولطمني على حاجبي . « خلقك » ابتسم . « صحيح يا شقيقي الصغير ، خلقك أنت » .

ارتسمت بسمة على ثغره ، فبادلته الابتسام . لم يكن لي أي اعتراض كبير على أن أكون من صنع الرب . لكنني أحس أنه ربما وهبنا كتيباً قد يزودنا ببعض الأفكار حول كيفية العمل .

« أنا لست مثلك يا كاليب » .

رد رأسه إلى الوراء ، وضحك . « أعرف أنك لست مثلي ! لماذا تكون مثلي ؟ أتظن أن هذا هو موضوع حديثي ؟ » حدق بي بتأثر شديد والبسمة ما زالت مرتسمة على ثغره . « أوه ، لا ، ليو . أريدك أن تكون أنت نفسك فلهذا السبب خلقك اللّه . أريدك أن تكون أنت نفسك أكثر مما أنت عليه الآن . أريدك أن تقهر مملكة الروح . عندئذ ، ستكون أنت نفسك » .

غادر آخر الزبائن . أطفأت هيلدا شموعهم . كنا نجلس أنا وكاليب تحت ضوء شموعنا ، والضوء الكليل الآتي من المطبخ ، وراءنا . دخلت هيلدا الحمام . خفضت بصري ، متحاشياً عينيه البراقتين . وقلت : « أتأكل شيئاً آخر ؟ هل شبعت ؟ » .

« شبعت ، شكراً . لكنك لم تأكل كثيراً جداً » .

« ليست لي شهية قوية هذه الأيام » .

« بالك مشغول بأشياء كثيرة » . نظر إليَّ بكآبة : لم يكن ذلك سؤالاً .

« كاليب ، ما الذي جعلك تأتي إلى هنا .. في وقت متأخر جداً من هذه الليلة ؟ من دأبك أن تنام في مثل هذا الوقت . أليس كذلك ؟ » .

« أتأخر عادة في العمل . لهم مشاكل خاصة ـ البيض الأثرياء لهم مشاكل أكثر من كل الناس في العالم . عندئذ ، حين وصلت محطة القطارات النفقية ، قال لي هاجس ما أن آتي إلى هنا وأطمئن على حالك . غداً عطلتي » .

خرجت هيلدا من الحمام ، التقطت حقائبها وحوائجها . كانت قد لبست عمامتها ، قرطي أذنيها واستعدت للمغادرة .

قالت لي : « سأهبيء هذه العظام . لم أترك لك عملاً كثيراً في المطبخ . تخلص من الطعام الفائض ، وسوف ننظف غداً » . مدت يدها ، صافحها كاليب . قالت : « خير لك أن تصغي إلى أخيك ، إنه أفهم منك . الطفل المكتوي بالنار يخاف النار » .

قال كاليب : « هذا صحيح » ، وضحك . « طابت ليلتك ، مدام » .

قلت لها : « حسناً ، هيلدا ، طابت ليلتك . نوماً هنيئاً » .

« طابت ليلتكما » .

غادرت ، أغلقت الباب وراءها ، بقينا جالسين في صمت برهة . انتبهت إلى الشوارع ، فكرت في مقدار عدم ثقة كاليب بهذه الشوارع ، وبكل ما جرى له فيها . تأملت وجهه ، كان مهيباً مجللاً بالكآبة في ضوء الشموع ، مهيباً ومزهواً ، مثل وجوهنا في بداية الخليقة . كان وجهه صامتاً ، يستبد به خوف أبدي من النار التي صنعته، في ذاكرتي فقط ، كان ذلك الوجه هو وجه أخي . حين شاهد الآخرون كاليب ، شاهدوا رجلاً متكتماً ، فخوراً بنفسه ، غير ودي ، رجلاً لن يستطيع الوصول إليهم ولن يستطيعوا الوصول إليه . وكاليب الآخر ، الغاضب ، الضاحك ، كاليب الذي بحث

طويلاً عن عمل له . كاليب الذي ناح وبكى . كاليب الذي كان وحيداً – كاليب الآخر . ذاك . شقيقي . حكم عليه بالموت . ولن يراه أحد ثانية . سـاءلت نفسي إن كان يفكر . الآن . بكاليب الذي كانه . سـاءلت نفسي إن كان قد افتقده إلى الأبـد . أنا افتقدته وما زلت أتمنى سـمـاع صـوته ثانية . لكن كـاليب تخلى عن الأشـيـاء الطـفـولية – فلم لا أستطيع أنا أيضاً أن أفعل ذلك ؟

هذا سؤال لا جدوى منه . مع ذلك هو سؤال واقعي . آخر مرة رأيت فيها كاليب لم تكن في وقت بعيد جداً ؛ لم يرني فيها . لم تكن تلك أول مرة أتلصص فيها . إن جاز التعبير . على حياته . لم أستطع سوى أن أسـائل نفسي . إن كان قد عثر على سر عظيم . سر أحتاجه أنا . يبدو أنه لم يعد يحتقر نفسه . لم تعد تحدث له وقائع رهيبة . وهو أيضاً لم يعد يقوم بأفعال رهيبة . لكنني لم أجرؤ على أن أبوح بهذا له . لم أجرؤ على النظر إليه . آخر مرة رأيته فيها كانت يوم قدت سيارة الورشة من الحي إلى المدينة . تجولت في أنحاء المدينة . كنت جـائعـاً . لكني لم أستطع أن آكل . لم أستطع إرغام نفسي على الاختلاط بالناس مدة طويلة . فيما أنا أتفحص وجه كاليب . أراقب كاليب وهو يتأمل أخاه الصغير . تذكرت أنني دخلت داراً للسينما في الشـارع الثاني والأربعين وجلست في أعلى دور وسـمحت لغلام أبيض أن يتقدم إلي ويهوي على بالضرب وفي الختام نكست رأسه المتوج بالشعر الأشقر إلى أسـفل فضربني . ثم شعرت بأنني أكثر مرضاً . وما زالت حيامني الساخنة البيض فيه . ينزل درجات السلم بتؤدة . موليًا الأدبار . لم أستطع مشاهدة الشريط السينمائي . لم أتحمل الأصوات . لم أعرف ما كانوا يقولونه . لم أبال . لم أتحمل رائحة الناس الكريهة . غـادرت دار السـينما . توقفت واشتريت (سندويتشة) وقنينة صودا . راقبت النـاس . عدت إلى السيارة مـاشـيًا . وقدتها إلى حي « القرية » . ذهبت إلى حـانة أعرفـهـا واحتسيت زجاجتي بيرة . كان ذلك ساعة الكوكتيل . لكن لم يدخل الحـانة أحد من معارفي . سمحت لأحد اللوطيين أن يأخذني ويطعمني . طلبت منه النقود . أيضاً . فوهبني ثلاثة دولارات . غـادرته حـوالي السـاعة العـاشـرة . وركبت سـيارتي ذاهبًا إلى ضـواحي المدينة . إلى هارلم أردت أن أرى أمي وأبي . لكنني لم أرغب أن يروني . لذا . مـررت بالسيارة عبر بلوكنا ونظرت إلى منزلنا . كان مضاء .

توقفت في النهاية ، كنت أعرف طوال الوقت أنني سأتوقف ، أمام بناية حجرية ضخمة ، كانت في عصر ازدهار هارلم ، مسرحاً . أصبحت البناية الآن « دار الشريعة الإلهية الجديدة » . بدت البناية في أوج حيويتها استعداداً لليلة الاثنين .

دخلت البناية ، صعدت درجات السلم إلى الشرفة . كنت تقريباً ، وحيداً هناك ، مع أن البناية تكون مكتظة بالبشر في ليالي الأحد . نفر قليل من الرجال العاطلين عن العمل ، نفر قليل من النساء الوحيدات والحائرات : لكن في الطابق الأسفل ، كان المؤمنون يمرحون مرحًا صاخبًا . لم يستطع كاليب رؤيتي ، كنت واقفًا في الجانب البعيد ، في الظلال ، بيد أني كنت قادراً على رؤيته . كان جالسًا أسفل المنبر مباشرة . كان هذا يعني ، أنه كان يتولى مسئولية الاعتراف بالجميل ، تلك الليلة .

كان ما يزال شبيهًا بشقيقي الذي عرفته - ضخمًا ، وأسود - الطاقة المحولة لـ « الروح القدس » تركت بعض العناصر على حالها . كان ثمة نور في وجهه وقد حسدته عليه واحتقرته بسببه : كان كاليب يشعر بالسلام . أخبرني هو بذلك . أخبرني هو بذلك . كان كاليب قد عثر على ضالته أما أنا فضائع .

كان كاليب يمسك بالرق . فتاة سوداء ملساء تجلس إلى بيانو . شخص ما يضرب الطبل . كانوا ينشدون :

أجثو على ركبتيَّ ،

حين تعتليني المصيبة !

حدثت المسيح ،

فاقتنع !

وعدني

أنه سيسمع التماسي ،

لو أنني خدمته ،

جاثيًا على ركبتيَّ !

بقيت جالساً في العتمة ، أسب وأبكي ، كانت دموعي كستارة تنسدل بين شقيقي وبيني . أحنيت رأسي ، ولم أعد قادراً على رؤيتهم ، غير أنني مازلت أسمع :

لو أنني خدمته

جاثياً على ركبتي !

رحت أتأمل وجهه، سا،لت نفسي إن كان قد تجسس على حياتي مثلما تجسست على حياته .

« متى ستأتي إلى البيت ؟ » .

« لنر أولاً .. ما هو اليوم ؟ كاليب ، يخيل لي أنني لا أستطيع المجيء حتى يوم استراحتي ، أي الخميس » .

تقبل جوابي هذا بابتسامة صغيرة ، ساخرة ، بقدر معين من التحدي ، ارتشفت خمرتي ، « أظن أن هذه المهنة تناسبك » .

« تناسبني ، لا يهمني رأي الناس » ، قال لي .

« ماذا يفعل أغلب الناس الذين يؤمون هذا المكان ؟ » .

« أوه ، لا أدري . أنا لا أعرف أغلبهم . الناس الذين أعرفهم .. حسناً ، هم يرغبون بشكل رئيسي أن يصبحوا فنانين بشكل أو بآخر » .

« كيف يصبحون فنانين ؟ » .

« حسناً .. إنهم يشتغلون على هذا ، بعضهم يفعلون هذا » .

« هم لا يمزحون مع أنفسهم فقط ؟ » .

حدقت فيه ، « بعضهم يفعل ذلك ، وهذا شيء طبيعي » .

بعد لحظة سألني : « ليو ، هل يمكنك أن تقول لي ما هو .. الفنان ؟ ماذا يعني أن يكون المرء فناناً ؟ ماذا يفعل الفنان حقاً ؟ » .

لم يسبق لي أن ألفت الفظاظة عند كاليب : لذا لم أصدق أنني وأنا أسمعه يستفزني بأقواله . نظرت إليه . « ماذا تعني بقولك : ماذا يفعل الفنان ؟ إنه .. إنه يبدع » .

تطلع إلي ، باسماً ، دون أن يفوه بكلمة .

« كما تعرف ، إنه يبدع الرسوم ، القصائد ، الكتب ، المسرحيات ، الموسيقى » .

« كل هذه إبداعات » . قال كاليب وما زالت تلك البسمة مرتسمة على وجهه .

« حسناً ، نعم . ليس كلهم مبدعين جيدين » .

« لكن الجيد منهم .. ماذا يفعل ؟ علام هو جيد ، متى يكون الفنان جيداً ؟ » .

أجبته : «حين يجعلك تشعر .. أنك أكثر حيوية». لكنني لم أثق حقيقة بإجابتي هذه .

« هذا ما يقوله المدمنون عن الويسكي الذي يحتسونه » . قال كاليب وأومأ برأسه إلى خمرتي .

أجبته : « حسناً ، أنا لا أعني هذا » .

تأملني مدة طويلة بابتسامته الصغيرة ، وألقاني في لجة بحر من القلق . « لم تطرح علي هذه الأسئلة ؟ » .

« لأنني أريد أن أعرف . أنا لا أسخر منك . أنا لا أعرف شيئاً البتة عن الفنون . قلت لي فيما مضى إنك ترغب أن تصبح ممثلاً . الممثل فنان أيضاً ، أليس كذلك ، حسناً ، أريد أن أعرف » .

« في اعتقادي أن الفن يقلل من وحدتك » . لم أثق حتى بهذا الجواب .

« يقلل من وحدتي » . ابتسم كاليب ، ثم قال : « ليو الصغير ، لا أعرف شيئاً عن هذا ، لكنني راقبت بعض الناس الذين يسمون أنفسهم فنانين فوجدت أنهم جميعاً يبدون وحيدين . الرجل الذي أعمل عنده له أصدقاء كثيرون من الوسط الفني . إنهم وحيدون » – راح يراقبني بإمعان – « هم أنصاف مجانين ، وقد رأيتهم يأتون أفعالاً شنيعة . أوتعتقد أن بشراً من هذا الطراز ، هم أنفسهم في جهنم ، ليو : هل تعتقد حقاً .. أنهم قادرون على مساعدة أحد ؟ » .

« نعم قادرون » . قلت ذلك بجرأة ، غير أنني أحسست أن إيماني أضعف من إيمان كاليب . وأدركت أن كاليب أبعد ما يكون عن الحماقة .

« هم قادرون ؟ كيف عرفت أنهم قادرون ؟ » .

فأجبته قائلاً : «غالباً، حين تقرأ شيئاً ما .. أو تستمع إلى قطعة موسيقية .. لا أدري .. تجد أن هذا الرجل الذي ربما كان تعيساً .. رجلاً لم تره أبداً .. حسناً ، هذا الرجل يخبرك بشيء عن حياتك. عندئذ لا يبدو العالم بغيضاً كما بدا لك من قبل» .

قال كاليب : « بغيضاً كما بدا لك من قبل » . تأملني . كان وجهه تحت ضوء الشموع قاتماً ، غير ودي ، أكثر مما كان عليه من قبل . وفي الوقت نفسه ، وبشكل من الأشكال ، كان وجهه مفعماً بالحيوية ، محيراً مثل مقطوعة موسيقية نصف مسموعة ، نصف منسية – أكثر مما كان عليه وجه أخي . « ليو ، هل العالم بغيض إلى هذه الدرجة ؟ » لكنه لم يمهلني كي أرد على سؤاله . قال : « في اعتقادي » قام كاليب وراح يذرع المكان جيئة وذهاباً ، يداه في جيبه ، « معظم الناس هنا لا يفكرون بأي شيء غير أنفسهم . ربما يملكون المواهب ، لكنهم لا يعتقدون أن المواهب من أجل الناس ، من أجل مجد الله . هم يظنون أنها ينبغي أن تخدمهم فحسب . هذا شيء يغيظ الباري . وهكذا يفقدون مواهبهم » . حدق في « خلقنا الله على الأرض كي نحب بعضنا بعضاً وأن نسبح بحمده » .

« حسناً ، لكن ألا نستطيع .. » كنت أتمنى ضوء النهار ، وأطمح إلى التسوية ، « .. أن نسبح بحمد ربنا كل بطريقته الخاصة ؟ » .

« أوه ، لكن يجب أن يكون هذا محتوماً » ، قال بقناعة بسيطة ، بارزة ، «بالطبع ، نحن جميعًا نسبح بحمد ربنا كل بطريقته الخاصة . ما من اثنين يتشابهان في التسبيح . لكن عدم التسبيح بحمده خطيئة» .

ارتشفت خمرتي ، أحسست بأنني محاصر وتائه . مع ذلك أحببت هذا الغريب العائد من عالم الأموات . شيء ما في سحنته ، في صوته ، شيء ما في وضعه وهو واقف أمام الموقد ، جعله يبدو لي ضعيفًا ، واهنًا بعض الشيء ، معرضاً للهجوم ،

حزيناً . وجعلني أتذكر أكثر الأغاني حزناً . « يلزمني أن أمتع نفسي . إن لم تتحسن حالي بعد الآن » . الواقع ، أنني سمعت الأغنية لحظة ، ربما كان يغنيها : « لا ترسل إليّ الطبيب . الطبيب لا يقدر أن يشفيني » .

لكنه عثر على طبيبه ، المخلِّص ، وهو المسيح الرب .

قال كاليب : « علينا أن نعثر على طريقنا التي تخرجنا من سجن الذات . علينا أن نحرر أنفسنا من كل رغباتنا التافهة، زهونا التافه، وأن ندرك أن إرادة اللّه لا حد لها ، ومثلما قال الملك داود : [هذه المعرفة تذهلني] . علينا أن نسلم إرادتنا لإرادته » . ابتسم ابتسامة معدمة ، مشرقة . « نحن نعرف أنه يهدينا يوماً إلى الصراط المستقيم . لن يجعلنا نضل » . من ثم أمسى وجهه رقيقاً وصارماً في آن ، يافعاً وهرماً في الوقت نفسه .

« حتى ذلك اليوم الذي يهديك فيه اللّه ستظل روحك ، يا ليو ، ضائعة وعديمة الأمل ولن تنعم بالسلام . أعرف : "بقيت أنوح ، أنوح ، أنوح طوال الليل" .. ألا تذكر تلك الأغنية يا ليو ؟ » .

فأجبته وأنا أتأمله : « بقيت أنوح أنوح إلى أن عثرت على الله » .

ابتسم كاليب : « نعم . روحي لم تستكن راضية حتى عثرت على الله » .

هز رأسه . « الناس القدامى عرفوا مغزى ما كانوا يتحدثون عنه » .

قلت : « الناس القدامى تحملوا كثيراً » .

قال كاليب : « لكنهم تحملوا . تحملوا ، وسلمونا مفاتيح المملكة . ليو ، النور سيأتيك، سيأتيك حين تكون وحيداً في الوادي ، في أسفل الوادي .. سيبدو أشبه بالماء العميق الذي يتسلل إلى روحك ، سيبدو أشبه بالهمس . من ينتصر ينل تاج الحياة . من يؤمن بي سيحيَ حتى لو كان في عداد الأموات . يا له من وعد ! إنه وعد للجميع . ليو ، وعد للجميع » .

لم أقل كلمة . ربما فكرت بما تحمله . تفرَّســت في وجهه . كان جميلاً جداً . كان ينزع الحجرة جيئة وذهاباً .

« أحسب أن النور يأتي إلى كل إنسان بصورة مختلفة » قال ، بنبرة مختلفة . كف عن المشي .. « كدت أقتــل إنساناً . أنا . فعلاً ، أردت أن أقتــل إنساناً . ليو ، هل أخبرتك بذلك من قبل ؟ » .

قلت له : « لابد أنك قتلت كثيراً من الرجال في الحرب » . أردت الذهاب إلى نضد المشرب وأصب لنفسي كأسـاً من الشراب . غير أنني لم أفعـل .

« لم أقصــد ذلك . لا أدرى إن كنت قتلت إنساناً . فأنا لم أر ذلك » . سكت عن الكلام . « أظن أنني حتمـاً قتلت . يا إلهي، أنت تعـرف . في الحـرب يموت الناس حوالیك . يموتون في لمح البصر . يموتون ميتة أسوأ من ميتة الكلاب . يا إلهي . ليو . تتحدث أنت إلى جندي قربك ، وبعد دقيقة ترفع بصرك إليه فإذا برأسـه طار بعيداً أما جسده فلا أحد يدرى أين إلا الله . أتذكر أنني كنت أراقب شاباً أمـامي . ذات مرة ، كان يركض أمامي ، فإذا بي أراه يرتفع في الهواء، بصورة جميلة تسر ناظريك ، وكأنه يطير أو يرقص . إحدى ساقيه راحت إلى جهة ما . الساق الأخرى راحت إلى الجهة الثانية . أما باقي جسده فقد هبط إلى الأرض واستقر على قفاه . لم أر وجهه ، بيد أنني رأيت وجوهاً عدة . الوجوه كلها بدت مندهشة . كانوا يافعين . أغلبـهم فتيان . كرهت بعضهم . لكن ، حين تنظر إلى رفاقك المسـاكين . البـائسين . النتنين - رائحة الموت . يا ليو . عصيبة على الوصف - حسناً ، تدرك أن الأمر خـارج عن إرادتك . تعرف أن الكائن المسكين يريد فقط أن يعيش . مثلك تماماً . وتفكر أنت بأمه أو بزوجته أو بأولاده أو بمن يحبونه . وتسائل نفسك لم تكره الآخرين . وكما تعرف أن الجسد البشرى يتحول إلى نفاية . حطام، حين تغادره هبة الحياة . يا له من لغز. يا له من تناقض . لا يحق لنا أن نقتل . أعرف ذلك . غير أنني حتمـاً قتلت بعضهم . كنت في العتمة . آنذاك . أعرف أن الله سيغفر لي . كنت أطلق النار لأنني جندى . وكانوا هم يطلقـون عليّ النار أيضـاً . فوق أديم هذه الأرض الجـميلة كنا نقـاتل . هذه الأرض الجميلة التي وهبها الله للبشر كي يستطيعوا أن يبتهجوا وأن يكون سعيهم مثمراً وأن يتكاثروا . وهبهم الله هذه الأرض كي يسبحوا باسمه . لم يكن فوق أديمها غير الجثث والأشلاء التي تكدست كالحطب . لا شيء غير انفجارات القنابل والصراخ . والعويل . والنواح . والخـوف من الموت . وشـبح الموت . والموت الذي يحـيط بك من كل حـدب

وصوب . إلى يمينك ، وإلى شمالك . ليو . كان البحر أحمر . كان ذلك مخالفاً لتعاليم الإنجيل . القتال مستمر ، مستمر ، مستمر ، ليلاً ونهاراً . كل ما أردته هو أن أبقى حياً . كنت أندهش كل صباح وكل ليلة حين أكتشف أنني ما زلت على قيد الحياة . فكرت بالعودة يوماً إلى تلك الأماكن التي عشنا فيها ، حين تضع الحرب أوزارها ، ويكون الناس في حالهم الاعتيادي ، ليو ، كانت تلك الأماكن جميلة وكان بعض الناس حلوين » . صمت وقتاً طويلاً . « دمرت وحدتنا العسكرية، فساقوني إلى صقلية، وكانت لنا فرصة أن نرى إيطاليا ، شمالها وجنوبها . لن أنسى ذلك أبداً » . سكتُ عن الكلام ثانية . « لم أرغب بقتل إنسان قط إبان ذلك الزمن . لكني أردت أن أقتل هذا الإنسان » .

« أنا ، أيضاً ، أردت أن أقتل » . قلت بسرعة ، ليس من باب التعاطف معه ، بل كي أثبت لنفسي أنني غير نادم ، ذلك أنني أحسست أن وجوده يخنقني .

« حقاً ، ليو ؟ أما زلت ترغب بالقتل ؟ هذا شيء سيئ للغاية » .

أجبته بعد لحظة : « حسناً . لن أفعل ذلك أبداً . أحسست بذلك غالباً . وأحسب أنني سأحس ثانية » .

قال كاليب : «أتمنى ألا تحس ثانية . إنه أسوأ الأحاسيس . إنه أكثر الأحاسيس تهديماً . إنه يملؤك بالظلام ، يا ليو . ويَنأى روحك عن الله » .

كم تمنيت أن أحتسي كأساً ! لكنني لم أتحرك. خفت أن أسمع المزيد من قصته : خفت منها . أحسست بنفسي أتقهقر، أتراجع أمامه . أحسست به يطاردني، يدفعني ، بصورة عنيدة ، إلى مكان يمكنني فيه أن أصرخ وأن أهوى على ركبتي . تأملته من غير أن أقول كلمة .

« هذا الرجل أبيض . أنت تعرف يا ليو أنه في الجيش البيض معزولون عن السود، ومن الطبيعي أن كل زملائي هم من الملونين، إلى أن ذهبت إلى ما وراء البحار. أعني ، أن الهرر البيض الوحيدين الذين كنا نحادثهم هم ضباطنا ، لم نكن نحبذ التحدث إليهم . لكن فيما وراء البحار الأمر مختلف تماماً » .

الآن أنسى وجهه تقريباً الوجه الذي أتذكره ، مندهشاً وطافحاً بالحزن .

« لكن ، كما قلت لك أبيدت وحدتنا ، معظم زملائي ماتوا ، وكما تعرف لا يجرؤ المرء أن يحقق ذاته في تلك الفوضى التي شملتنا جميعاً . إذا اعتمدت على شاب كي يوفر لك الحماية فأنت بالتأكيد لا تبالي بلون بشرته . كان علينا أن نعتمد أحدنا على الآخر . كان هذا أمراً في غاية الأهمية .

على أية حال ، حال خروجنا من كاسينو ، يا إلهي ، أصبحنا زميلين ، أنا وذلك الشاب الأبيض من بوستن ، والمدعو هويكنز . فريدريك هويكنز . كان يبدو شاباً جميلاً ، أشقر هزيلاً بعض الشيء ، طيب القلب . لم يكن يشبه معظم الشباب البيض ، وهذا ما جعل الأمر جارحاً ومؤذياً فيما بعد . لم يكن جندياً جيداً ، لكنه لم يكن أيضاً جندياً سيئاً : كان سريع الغضب ، مثلي إلى حد ما . كانت تربطنا زمالة سلاح طوال تلك المذبحة . كان شاباً طيباً إلى أن ذهبنا إلى روما . لا أدري ما الذي جرى له حين وصلنا روما . حسناً .. ربما فهمت ذلك » . وضحك كاليب .

لم أذهب إلى المشرب ، غير أني أشعلت سيجارة .

سألته : «هل تحب روما ؟ » عرفت أنه سؤال سخيف . ذلك أنني لم أرَ روما أبداً ، بل حسدته لأنه زارها ، وقد حاولت أن أغير الموضوع ، رغم معرفتي بأنني لم أفلح .

أجاب بعد لحظة : «نعم . أحببت روما . وصلنا روما وقت الظلام . لكنني أحببتها . لا أدري ما إذا كنت سأحبها لو زرتها الآن . فأنا تغيرت ، الآن . في روما ، عشت آخر أيامي كآثم» . أمسى وجهه الآن حزيناً جداً ، حزيناً ، وفي الوقت نفسه مزهواً .

« طيب . كما قلت ، ذهبنا إلى روما ، هي مدينة جميلة ، بخاصة إن لم تكن قد زرتها من قبل ، وبخاصة بعد كل ما مر علينا من أحداث . كان الناس فرحين برؤيتنا ، كانوا يتضورون جوعاً . أدركت أنني لم أر الجوع أبداً حتى وصولي روما » . حدق بي . « لا أدري كم يتعين عليَّ أن أسبح باسم الله على تلك الزيارة . ليس ثمة شيء لا تستطيع شراؤه في روما . يمكنك شراء أي شيء أو أي إنسان ، وهذا لا يكلفك أكثر من بضع سجائر ، أو شيئاً من هذا القبيل . وأنت تعرف الجنود . حين تحبس مع أولئك الرجال شهوراً عدة ، أن تحبس مع رائحة كل أولئك الرجال ، حسناً ،

حينذاك تشتهي امرأة . وأنا على غرار الآخرين . لم أكن أفضل حالاً منهم . وصلنا تلك المدينة » – ضحك – « كالجراد . كما تعرف ، شيء مضحك . لعلي فكرت بالجزء الخلفي من دماغي بأنني ربما أكون خجلاً بصورة ما – لأنني أدركت أنني لن أصادف امرأة ملونة في روما – لكني لم أكن خجلاً البتة . وربما لم أكن خجلاً لأنهن لم يكن خجلات . هن ، يا ليو ، لا يشبهن النساء هنا أبداً . لا يشبهن نساءنا أبداً . هن لا يتطلعن إليك كالنساء هنا ، هن لا يخفن حين يكن معك في الشارع نفسه . لا ، هن لا يبالين بذلك ، بما أنك تملك المال ، لا واحدة منهن تبالي بلون بشرتك . بالنسبة لبعضهن لم تكن قطع النقد وحدها التي تجذبهن إليك . على أن ألبي الطلب ، ينبغي لي أن ألبي الطلب . معظم أولئك النسوة كن مخلصات فعلاً . وكما تعرف ، فإن الإخلاص صفة جميلة » . بدا يافعاً جداً حين قال ذلك . « الواقع ، لم أر مثل ذلك الإخلاص من قبل ، لم أره بين السود والبيض ، ولم أره كثيراً جداً بين أناس من لون واحد . لو عثرت امرأة على رجل لطيف، أسود أم أزرق أم أصفر ، حسناً ، عندئذ تعتني به وتفعل له كل ما يبتغيه » .

جلس إلى المائدة من جديد .

قلت له : «كاليب، نسيت أن أقدم لك كوباً من القهوة. أتريد كوباً من القهوة ؟» .

« إن كان هذا لا يسبب لك مشكلة . هل تأخرت بسببي ؟ » .

« قلت لك مراراً إنني لا أغادر هذا المكان قبل الرابعة صباحاً » .

دخلت المطبخ ، أشعلت (الهيتر) تحت القهوة ، أخذت الأكواب ، السكر والكريم : عليّ أن أواجه حقيقة كوني لا أمتلك الشجاعة ، تحت نظرات كاليب ، أن أصب كأس شراب لي . هذا الشيء جعلني أشعر بالسخط ، وغضبتُ من كاليب غضباً شديداً . كنت أخشى أنني إذا سكبت كأساً لي فربما يكون قصدي هو إيذاؤه .

ظل جالساً بهدوء ، إلى المائدة حتى عدت . صببت القهوة وجلست . أشعلت سيجارة ثانية . راقبني بابتسامة مشرقة ، تنم عن عدم استحسانه لكنه قال لي هازاً رأسه : « ليو الصغير » . ثم قال : « بقينا في روما مدة طويلة ، بيني وبينك ، لا أعتقد

أبداً أن أداءنا الحربي كان جيداً جداً . والشيء بالشيء يذكر . عثرت على فتاة صغيرة جميلة فعلاً . كان اسمها بيا » .

ثم سكت عن الكلام زمناً طويلاً ؛ تغيرت ملامح وجهه ، بصورة مبهمة . لم يكن وجهاً خاصاً فقط ، بل وجهاً شخصياً . بقي يتأمل المنضدة . تنهد مرة ، نظر بوجه خجول - كوجه كاليب الذي عهدته - إليّ وابتسم . حرك قهوته حركة ضئيلة ، نفخ عليها وهو يرفع كوبه . تابع كلامه قائلاً : « آه ، عليّ أن أخبرك أنني كنت مختلفاً يومذاك . حسناً ، أنت تتذكر كيف كنت » . سكت عن الكلام ، رشف قهوته . « وعليّ أن أخبرك أن معظم الشبان ، حسناً ، كانوا يذهبون هنا وهناك . أعني أنهم ربما كانوا يقيمون علاقات مع عدد كبير من الفتيات . أما أنا فلي فتاة واحدة فقط . كانت جميلة ، جميلة فعلاً . وكانت لطيفة . هي حقاً شابة لطيفة » . نفخ على قهوته ثانية . « كانت شقراء . لم أكن أعرف أن الشعر الأشقر يثير الاهتمام في إيطاليا ، إذ لم تكن هناك شقراوات كثيرات ، على ما أظن . هي بنت عائلة محترمة ، إلا أن هذه العائلة فقدت كل ثروتها . توقعت عائلتها أننا سنتزوج . نتزوج ! أبوسعك أن تتخيل هذا ؟ » تطلع إليّ بعينين مفتوحتين على وسعهما . لم أقل شيئاً . واستطرد قائلاً : « الآن حين أعود بذاكرتي إلى الوراء ، أحسب أنني لم أكن صادقاً . لم أكن أفكر بالزواج . كنت كالطفل . كنت سعيداً مع بيا . لم أشعر بمثل تلك السعادة من قبل . تذكرت أنني ربما سأمكث في إيطاليا » .

صمت ثانية . أحسستُ أنه يريد البكاء . أحسست أنه يخفي الدمع في موضع ما ، يحبسه ، فيجف بسرعة . تمنيت أن أهتدي إلى الموضع الذي يختبئ فيه الدمع ، فأطعنه وأجسه وأدع الدمع الأحمر كالدم ، كالدم المالح ، ينبجس إلى الخارج : « ثمة نافورة من الدم » . تغيرت ملامحه عندئذ وأصبح كاليب الذي ألفته ، ثانية . لكنه لم يعد يرغب أن يكون كاليب ثانية .

« كنت في غاية السعادة . لم أر ما يدور حولي . حسناً ، الشبان الملونون والشبان البيض لم ينسجموا مع بعضهم الآخر . ليس معظمنا . فريدريك وأنا بقينا متلازمين . كان له أصدقاء ملونون آخرون . ربما بسببي ، على ما أعتقد .

وقد أمضينا أمتع الأوقات ، لكن أغلب الشبان كانوا بعيدين أحدهم عن الآخر . حاولنا الابتعاد عن معظم الشبان البيض كما ابتعدوا هم أيضاً عنا » . أصبح صوته حذراً جداً . « حسناً ، لم نكن نحتاجهم ، إذ لم نكن في وطننا . لم يستطيعوا هم ، كما في الولايات المتحدة ، أن يقولوا لك أين تجلس ومتى تقف وما إلى ذلك : لم يستطيعوا منعك من مرافقة فتاة إذا أردت مرافقتها ، إذا كان ذلك بمشيئتها . لن يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً . لم يكن بوسعهم أن يمنعوك من تكوين علاقات صداقة مع الناس إذا كان الناس يرغبون بإقامة علاقات صداقة . حسناً . أنت تعرف هذا الأمر . لكنهم لم يستحسنوا ذلك. اختلقوا مشاكل كثيرة لعدد كبير من الشبان. وقد حكوا للناس ، أوه ، حكوا للناس أشياء مضحكة . ليو ، مثلاً ، إن لنا ذيولاً ، وفي بلدنا لم يسمحوا لنا أن نجوب الشوارع بعد هبوط الظلام ، وفي الولايات المتحدة لا يبيعون المشروبات الروحية لنا لأننا نتحول إلى وحوش حين نسكر، وكالوحوش، وكآكلي لحوم البشر ، نمزق الشعب ، وأننا نغتصب بنات البيض ، زوجاتهم ، أمهاتهم ، وأخواتهم .. وأن " عضونا " ضخم جداً بحيث أنه يمزق البيضاوات إلى أجزاء ، حكوا لهم أشياء مضحكة وصبيانية من هذا القبيل . معظم الناس صدقوا هذه الأقاويل ، ولاقى الشبان بعض المشاكل أحياناً ، بخاصة مع النساء ، بسبب ما يشبه الأكاذيب . كنا هناك ، من المفروض بنا أن نحارب من أجل الحرية ، حسناً ، كانت تلك الأقاويل مضحكة حقا .

وطالما كنت أقضي معظم وقت فراغي مع بيا، لذا لم أتردد على الحانات كثيراً ، ولم أكن أطارد النساء ، لذا لم أبال بكل ما يدور حولي ، ببساطة لأنني لم أر شيئاً ، في أوقات فراغي ، أذهب إلى منزل بيا وأتحدث مع أفراد أسرتها قليلاً . كانوا قوماً طيبين ، محافظين ، بدا عليهم أنهم يضمرون لي الحب ، وكانت علاقتي بهم طيبة . كنت متذهلاً فعلاً . عاملوني كجنتلمان . كانوا أذكى من أن ينطلي عليهم ذلك الهراء الذي روجه الأمريكان عنا . كنا نخرج ، أنا وبيا ، نتناول طعامنا ، أو ربما نتناول طعامنا في المنزل ، أو لعلنا نذهب إلى مكان ما كي نرقص معاً . لكننا لم نذهب إلى الأماكن التي يقصدها الأمريكان . كنا نذهب غالبًا إلى الريف . سافرنا إلى الريف وقضينا هناك ليال عدة . كنا أحياناً نفترش الأرض ، تحت السماء الإيطالية الجميلة » .

فرغ كوب قهوته . يحلق فيه وقال : « كان بوسعها أن تجعلني أنوح . جعلتني أنوح فعلاً . ألبي الطلب المرة بعد الأخرى . كان ذلك شيئًا استثنائيا . لم أستثر من قبل بمثل هذه الدرجة . تمنيت أن يكون لنا طفل . لكن هذا الطفل سيكون سيئًا جداً . عرفت أنه سيكون جميلاً . يجب أن يكون جميلاً . فكرت فعلاً أن بوسعي المكوث في إيطاليا . لم أعتقد أن بميسوري مغادرة إيطاليا ذات يوم . غير أنني عرفت أنه يصعب علينا الزواج طالما أنا في الخدمة العسكرية . لم يحبذوا فكرة الزواج. كان بوسعهم أن يجعلوامن مسألة زواجي أمراً قاسياً. لذا لم يدر بخلدي أبداً ماذا يتعين على أن أفعل . أحسب أنني فكرت بأنه ينبغي الانتظار ريثما يصرفونني من الخدمة . أحسب أنني فكرت بالزواج حينذاك ربما يتاح لي أن أفتح نادياً أو مطعمًا . كان ذلك أمراً ممكنًا وقد فعل ذلك شبان كثيرون . حسنًا . سعدت مدة من الزمن . على ما أظن . وقد أرجأت فكرة الزواج . غير أنني لم أتصور أبداً كيف يمكنني العيش من غير بيا . كنت أسائل نفسي دومًا يا لها من صدفة أن أصل إيطاليا. كنت أضغط على نفسي دوماً . لم يبد ذلك ممكنًا . أحيانًا كنت أجد نفسي أضحك . ليو . أضحك كالطفل » .

قام من الطاولة وعاد إلى الموقد . سمعت أغنيته من جديد . « أما من أحد يكتب إلى أمي ويخبرها عن حالي » .

« لم أعتقد أن ثمة سببًا يدعو فريديريك هويكنز إلى أن يغدو عكر المزاج . كنا صديقين . صديقين حميمين . لم أفكر أنه سيخونني يومًا ما. كنت أراه بشكل طبيعي . وبدا كل شيء بيننا على ما يرام . إذا كان هو يبدو أحيانًا على درجة معينة من الغرابة فهذا لم يكن ليزعجني أبداً . البيض دومًا غريبو الطباع إلى حد ما . كان دوماً يتحدث عن صويحباته . لم أحدثه عن صاحبتي . لم أكن أتحدث عن النساء مطلقًا . لم أكن أؤمن بذلك . كان يعرف أن لي هذه الفتاة لأنني أخبرته بذلك . الشبان الآخرون يعرفون أيضًا أن لي هذه الفتاة التي تسكن في مكان ما . إلا أنهم لم يتدخلوا في شئوني لأن سمعتي . كما تعرف . سيئة . كانوا يعتقدون أنني معتوه وهذا الاعتقاد أفادني كثيراً .

ذات ليلة ، دخلنا الحانة التي اعتدنا الذهاب إليها غالبًا ، كان الوقت متأخراً ، وجدت فريدريك هناك ، وحيداً ، يبكي ، لذا حاولت معرفة سبب بكائه ، فأخبرني بقصته الحزينة وكيف تخلت عنه صاحبته التي كان يرافقها ، وما فهمته في الحال ، هو أن كل خليلاته تخلين عنه ، عرفت السبب ، لم يكن سوى صبي ، هو فعلاً صبي ، وكان كلامه ثرثرة فارغة لا غير ، حسنًا ، كما تعرف ، إذا كنت تتكلم طوال الوقت ، فإنك لن تستطيع أن تفعل الكثير ، لم أقل له شيئًا من هذا ، كنت أفكر معه ، طبيعيا ، لكنني حاولت ، بطريقة دبلوماسية ، أن أقول له ، " في اعتقادي " ، كيف أكشف له أخطاءه وأجعله ينظر إلى الأمور برؤية جديدة ، حاولت أن أدخل البهجة إلى قلبه ، مع معرفتي الفاجعة ، بأنني لم أعد أحترمه ، كان مجرد صبي مسكين ، مريض ، يشعر بالحنين إلى بلده ، فلا غرابة إذاً أن تتخلى عنه عشيقاته ، أذكر ، أنه تطلع إلي ، بتعابير مضحكة في عينيه ، وقال لي : أنت ليس لك مشاكل ، أليس كذلك ؟ قلت له : بالتأكيد لي مشاكل .. لكل إنسان مشاكله الخاصة ، قال : أنت ليس لك مشاكل مع النساء ، لم أعرف بماذا أرد عليه ، أنهيتُ الموضوع ، كان سؤاله سخيفاً جدا ، ولم أكن أعتزم الخوض في حديث عن علاقتي بالنساء ، وبخاصة أنني لم أود التحدث عن علاقتي بيبا ، قد يكون هو طفلاً أما أنا فلا ، تركنا الموضوع ، ونسيت كل ما يتعلق به ، اليوم التالي حين كنت أهم بالمغادرة سألني إن كان بوسعه مرافقتي ، وكالمغفل أجبته بنعم ، ذلك أنني أسفت عليه و ، يوم ، التقى بيبا ، و ، يوم ، بدأت مشاكلي ، ذلك الفتى ، صديقي ، الرجل الذي حاولت مساعدته ، حين كنا نحن الاثنين نشرف على الموت ، ألقى نظرة واحدة على بيا وصمم على انتزاعها مني ، كان يعتقد أن ذلك أمر في غاية السهولة ، هذه الفتاة الإيطالية ، المسكينة ، الجاهلة – كانت تربيتها أفضل من تربيته ، كان يجهل ذلك – كانت تجاريني ، لأنها لم تعرف خياراً أفضل من ذلك ، لكنها ، بالتأكيد ، حالما عرفت أنه قادر على أن يمنحها، لم ترغب بالعيش معي عيشة الكفاف ، كان قادراً على أن يهبها منزله وسياراته وثروته في بوسطن ، كان قادراً على أن يهبها منزلة عائلته الاجتماعية ، ومستقبله المشرق الذي ينتظره ، في بوسطن ، كان يردد ذلك على مسامعها مراراً ، وكما تعرف ، لم يكن ذلك يعزى إلى اهتمامه بالفتاة أو رغبته بالزواج بها ، كانت رغبته الوحيدة أن ينتزعها مني ، عزم على أن يجعلها تتذوق طعم الحياة التي سيجعلها تحياها لو بقيت معه ، وهكذا جعلها ترهق نفسها بشتى السبل ،

حيث أرادوا مرة أن يسجلوها في قائمة المومسات ، أو شيئًا من هذا القبيل . أوه ، لا أقدر أن أحكي لك . أو كنا نخرج إلى مكان ما ، نتمشى في الشارع ، وإذا برجل يهينها فأتشاجر معه وبذلك أفقد حريتي . بعدئذ سيذهب هو لرؤيتها . أو شيء من هذا القبيل . ثم نتشاجر أنا وهو حول اشتراكي في المشاجرات . ما كان يحدث فعلاً - رغم أننا لم ندركه بشكل صحيح - هو أن كل الضغط وقع علينا . وما كنا نعامل أحدنا الآخر بالمثل . لم تكن لتصدق فريدريك ، لكنه رغم ذلك زرع بذرة . كان بوسعي اكتشاف بداية الشك ، بوسعي رؤيته في عينيها حين تتطلع إليّ ، وأصبحت أرى بداية الخوف ، وأصبحت أراها وهي تسائل نفسها إن كان بوسعها الزواج من فريدريك . إذا أغرم الحبيب بحبيبه ، فهل يستطيع أن يحقق كل أمنياته ، وهل يستطيع فريدريك أن يحقق أمنياتها . استلقيت ذات ليلة على سريري - كنت مختلفًا آنذاك ، الآن تغيرت ، تغيرت - لم أكن قد رأيتها مدة أسبوعين ذلك أنهم لم يسمحوا لي بمغادرة الثكنة ، وفكرت : « إن هذا شيء ذو مغزى » . أنا أبعد عن البيت خمسة آلاف ميل ، أرتدي بزة هذا الرجل العسكرية ، كي أوفر له الحماية ، أما هو فقد جلب سمه معه طوال كل تلك المسافة النائية كي يفسد فتاتي ويدمر حياتي . اضطجعت على سريري وصرخت صراخًا أسوأ من كل صراخ فريدريك طوال حياته . صرخت لأنني جننت . ضربت الكثيرين بالسياط حتى تعبت من جلدهم ، ولم يفدني ذلك شيئًا ، عدت إلى سريري ، وربما كنت مكبلاً بالسلاسل .

رأيت فريدريك ثانية في حانة ، كنت وحيداً ، دخل هو ، يصفر لحنًا . لم يرني أول الأمر . دخل بتؤدة ، مصفراً ، قبعته على مؤخرة رأسه . لا أدري ، لم أصمم على قتله ، حين دنا مني طرأت على بالي تلك الفكرة ، وعرفت أنني سأقتله . أدركت هذا . لم أنتبه إلى ذلك من قبل ، فحين يصفر فتى ما تكون هناك ارتعاشة صغيرة مضحكة في أعلى عنقه . لاحظت هذه الارتعاشة الآن . لن تطول ارتعاشة عنقه ، كان يصفر واحدة من آخر أغانيه . انتبهت للمسافة الفاصلة بين حاجبيه ، تلك المسافة الخالية من الشعر ، حيث تشعر بالعظم حين تتلمسها ، حين يمر الطلق الناري من هناك تصبح في عداد الأموات . راقبت جسده بأكمله وهو يتحرك نحوي ، فتخيلته مستلقيًا ، دون حراك ، على ظهره ، وإلى الأبد . إن قتل أي إنسان يستغرق أقل من ثانية . أردت أن ألفت انتباهه كما أثرت انتباه الكثيرين .

كنت أعرف بالضبط كيف يتسنى لي أن أقتله ، ولن يستطيع أحد القبض علي . كنت أعرف أننا سنرحل عن روما قريباً جدا ، ستتحرك قطعاتنا شمالاً . سأبقى قريباً منه ، قرب العين من الحاجب ، كنت أعرف ، كلنا يعرف أن القتال سيكون عنيفًا حين نرحل عن روما ، وذات ليلة أو ذات صباح حالما أجد الفرصة المناسبة ، سأضغط على الزناد وأطلق النار على رأسه . ليس ثمة سبب يدعوني لمحاربة الناس الذين كنت أحاربهم . لكنني أملك كل الأسباب الموجبة التي تدعوني إلى قتله . كنت أعرف أنني سأفعل ذلك .

بدت عليه الدهشة حين رآني . كف عن الصفير . همّ بقول شيء ما إلا أنه أحجم . حدقتُ فيه فقط . لم أقل كلمة . جلس إلى نضد المشرب . ثم نهض فجأةً وغادر .

حسنًا . غادرنا روما . صادفت بيا مرة واحدة فقط قبل مغادرتنا روما ، كانت أجمل من أي وقت مضى، غير أنها لم تكن كالسابق. لم تكن كالسابق بالنسبة لي . ثم بقيتُ ملاصقًا لفريدريك ، أبقيته على مرمى بصري . حدث ذلك في صباح باكر من أحد الأيام ، ليس كما خططت بالضبط . كان وحيداً ، كان يقف قرب شجرة . كنا – أنا وهو – بعيدين عن العساكر الآخرين ، ليس بوسع أحد رؤيتنا ، والوادي الذي كنا فيه يعج بالقصاصين . شرعت أركض نحوه وهتفت باسمه لأنني أردت أن أخبره أنني أنا الذي سأقتله . التفت حواليه . بدا مندهشاً . رفع يديه أمامي . كالطفل ، حاول أن يقول شيئًا ما . كان فمه مفتوحًا . إلا أنه فغر فاه ، بغتة ، ولاح على وجهه تعبير آخر ، دهشة أخرى ، ألم فظيع ، يا ليو ، لن أنسى ذلك أبداً . ثم هوى على وجهه . عرفت أنني لم أضغط على زناد البندقية بعد . لم أسمع صوتًا . كنت أقف هناك فحسب . ليو ، بدأت أرتجف . كان راقداً هناك ، ذراعاه مبسوطتان أمامه على الأرض . نظرت إليه ثم نظرت حواليه . تناهى إلى سمعي صياح وركض . وما إلى ذلك ؛ غير أن كل ذلك بدا لي كالحلم . قلبته . لم يكن قد مات . بل كان يعاني سكرات الموت ، ولم تعد تبدو عليه أمارات الدهشة . حدق فيّ دقيقة واحدة . حدق في عيني وقال : أنا لا ألومك . أنا متأسف . لم أستطع أن أتمالك نفسي . ثم لفظ أنفاسه بين ذراعي . بدا عليه وكأنه يعاني الفواق، ثم همد وعيناه مفتوحتان على وسعهما .

فجأة أصبح ثقيلاً جداً . انتقل إلى الخلود ظانا بأنى قتلته . بقيت جالساً هناك . الضجيج والنار يحيطانني من كل حدب وصوب . كان ثمة شبان يركضون ويصيحون وينطلقون بسرعة فارين من نيران القناصين. أحد الشبان راح يسحبني ويسحبني. هتف بشيء ما وإذا بالأرض ترتج عند قدمي وتدحرج فريدريك من يدى . رقدت على وجهي كما لو كان هو . ثم شرعت أزحف وبعدها رحت أعدو . كنا نعدو جميعاً في الاتجاه ذاته . لابد أننا كنا نعدو إلى ما هو أشبه بالملجأ . إلا أنني لم أكن لأعرف ماذا كنت أفعل . كانت قدماى تقودانني . تقودانني مع الآخرين . حيثما يذهبون . رحت أفكر كيف يمكنني أن أقفل راجعاً لأغمض عينيه . هويت أرضاً . سمعت شخصاً ما يصرخ قربي . كان صوته أشبه بصوت فريدريك . غير أنني أدركت أنه لا يمكن أن يكون صوته . فريدريك ورائي في الموضع الذي تركته فيه . يرقد هناك ميتاً . حين هويت . لم أنهض . بل تشبثت بالأرض . أرهفت السمع إلى الصراخ وحاولت أن أحدس الجهة التي يأتي منها الصراخ وحاولت السير ببطء في ذلك الاتجاه لكنني لم أر شيئاً أمامي حيث كانت الأرض تهتز وينقلب عاليها سافلها . أردت مساعدة أي إنسان : لأنني ظننت أن ذلك من أجل فريدريك . بعدها توقف الصراخ . وفهمت الأمر . ما من حياة يمكن استرجاعها . ليو . كانت تلك هي لحظة توبتي . كان ألماً لم أشعر به من قبل أبداً . حسرة لم أشعر بمثلها أبداً . رأيت حياتي بكاملها ممتدة أمامي . حياتي التي قضيتها في الشبق والضغينة والعتمة . وأن تكون نهايتك على هذه الحال . وجهك إلى أسفل . متشبثاً بالأرض . تتحرك أمعاؤك بسبب الخوف . ليو . وأن تبقى على هذه الحال . حتى يغطيك التراب . تحاملتُ على ركبتي . أدركت . أدركت أول مرة أن الله موجود في مكان ما . أدركتُ أن الله وحده قادر على إنقاذى . إنقاذنا . ليس من الموت . بل من الموت الآخر . عتمة وموت الروح التي خلقت هذا الجحيم . هذه الحرب اللعينة . الحرب التي أرسلت الناس إلى هنا ليموتوا بعيداً عن ذويهم وأحبتهم . صرخت . صرخت بشيء ما. أذكر أنني كنتُ أردد مع نفسي : « اللهم . أنزل الملاك » . ثم ضربتني قذيفة . لم أصب بجرح . بل طرحتني القذيفة أرضاً على ظهرى . وأذكر أنني فكرت بعيني فريدريك . وفكرت آنذاك . أنه يمكنني أن أخبره بأنني لم أطلق النار عليه . بدا لي أن رحمة الله الواسعة هي التي أفتقدها . وسبحتُ باسمه على رحمته التي جعلتني

أحجم عن ارتكاب الخطيئة القاتلة ، وأن البارى هو الذى أعادنى إلى البيت الآن ، طاهراً ، خاليًا من الذنوب ، بعد أن شملنى ، سبحانه ، بمغفرته ، اعتقدتُ أننى أعانى خلجات الموت ، إلا أننى لم أخفْ ، وفهمت أول مرة قوة وجمال محبة اللّه » .

حين توقف كاليب عن الكلام خيَّم هدوء لم أعرف له مثيلاً من قبل ، ولم أعرف له مثيلاً فيما بعد . كان هدوءاً عالى النبرات بدرجة تكفى لإيقاظ الميت من رقدته الأبدية . كان ذلك الهدوء أشبه بهدوء بال يسوع حين أخبر الفريسيين[1] أنه إذا أدخلت تعاليمه الاطمئنان إلى نفوسهم فإن الحجر سيتفتت على الفور . كان ذلك الهدوء من النوع الذى يمكن المرء من سماع الدم يجرى فى عروقه . فيسائل نفسه ماذا يحمل مجرى الدم . فى الضياء الفظيع – الضياء الفظيع – وفى هذا الهدوء ، نتأمل الآن ، أحدنا الآخر . يا له من شيء رهيب أن تستمع صدفة إلى اعـتراف ! أمسى الآن شقيقى أكثر من أى وقت مضى، وأكثر من أى وقت آخر – أمسى الآن غريبًا أكثر من أى وقت مضى ، وأكثر من أى وقت آخر ، أكثر من أى وقت آخر : لأننى رأيته أول مرة . أرهفنا السمع للأصوات الآتية من الشارع . كان الوقت الثالثة صباحاً .

لم أقل شيئاً . قمت وذهبت إلى المطبخ وسكبت لنفسى قدحاً من الروم عدت حاملاً قدحى ، وجلست إلى الطاولة من جديد .

دنا منى ، ووضع يده على كتفى .

قال لى : « ليو ، حين تكون ، فى ذلك الوادى ، حين تتصارع مع الملاك ، تتغير . تتغير . الجميع يصلون ذلك الوادى ، لكن ليس جميعهم يصعدون . محبة اللّه رفعتنى . وأخيراً تحررت » .

« أخيراً تحررت ، . أخيراً تحررت ، سبح باسم اللّه العظيم ، فأخيراً تحررت ! » هذه الكلمات رنت فى بالى . ارتشفت مشروبى . كانت يده ثقيلة جدا فوق كتفى . أحسست بقلقه ، وشممت عرقه – كان سريع الزوال مثل ذكريات ماضينا ، لا يمكن وصفه ، ولا يمكن الوصول إليه كالماضى أيضًا . ما الذى شعرت به ؟ لا أعرف . ولن أعرف أبداً . أحسست ، أول مرة ، حتمًا أن إنسانًا نادرًا آخر يسكن جسدى ، يتجول فى

(١) الفريسيون : طائفة من اليهود فى عهد المسيح (؟) عرفت بتمسكها بالطقوس وبالتقوى الكاذبة . (المترجم)

داخلي جيئة وذهاباً . ولهذا السبب لا أستطيع القول . لهذا السبب لا أستطيع التذكر . أوه ، أذكر الشمعة التي كانت أمامي ، وقد بدأ ضياؤها يخفت : فكرت أن علي أن أطفئها . أذكر أنني فكرت أن رجال الشرطة سيمرون من هنا عما قريب ، يفحصون الأضواء ، وربما يدخلون . أذكر أنني ربما وعدت كاليب بالذهاب إلى البيت عاجلاً ، كي أرى أبي وأمي . أذكر شكل المطعم الذي بدا به لحظتئذ ، الموائد لم تنظف ، أكواب القهوة وصحون الحلوى هنا وهناك ، بعض الموائد تحتاج إلى شموع جديدة ، أتذكر كل ذلك ، أتذكر يده التي وضعها على كتفي ، وأتذكر الهدوء .

كنت ، يومذاك ، في التاسعة عشرة ، وكان كاليب في السادسة والعشرين . بعد ذلك بسنوات عدة انتزعت بربارة من رف نافذة شقتها في سوتون بليس ، في الطابق الثامن . لنتصور أنني كنت رجلاً يومذاك . أذكر تلك اللحظة جيداً . أذكر أن بربارة وأنا تشاجرنا شجاراً اعتبرناه يومها شجاراً مميتاً ، نهائيا . أذكر أنني تناولت معطفي الرمادي من فوق كنبتها ، ولبسته ، سرتُ خارج غرفة معيشتها ، واجتزت الرواق الطويل إلى الباب . تركتها على الأرض ، في لباس نومها ، تنتحب ، غادرت الشقة ، صفقتُ الباب ورائي ، ضغطت الزر طالبًا المصعد . راقبتُ المؤشر حين كان صندوق المصعد يرتفع إلى الطابق الثامن . ذلك الرقم ، بشكل من الأشكال ، شرع يصرخ في رأسي . أشار المؤشر إلى الرقم ستة ، ودون أن أعرف أنني سأفعل ذلك ، ابتعدت عن المصعد ، أخرجت مفاتيحي ودخلت شقة بربارة . كانت الشقة هادئة . صفقت الباب ورائي – أو ، بالأحرى الباب هي التي انصفقت ورائي ، وسمعت باباً أخرى تنصفق ، الباب المؤدي إلى حجرة نوم بربارة . كلتا البابين صفقتهما الريح . هرعت إلى حجرة النوم ، فتحت الباب – ما الذي دلني إليها ؟ – ورأيت بربارة ، ظهرها إلي جالسة على رف الشباك ، تؤرجح قدميها كالطفلة ، وتوشك على السقوط . جذبتها من شعرها . أذكر تلك اللحظة ، أذكرها جيداً ، أذكر أنني استحضرتها في عملي منذ ذلك الحين . إلا أنني لم استحضر ، بوعي ، لحظة لقائي بكاليب في المطعم ، بل أتذكرها فقط على شكل ومضات ، ساخنة وباردة . أغلب الظن ، أنني في الوقت الذي جذبت فيه بربارة من رف النافذة عرفت أنها ربما كانت جالسة هناك . إلا أنني لم أعرف ، حين دخل كاليب مطعم « الجزيرة » في وقت متأخر من إحدى الليالي إن طرق الموت كثيرة ، أما طرق الحياة فقليلة .

قال كاليب باحتراس شديد وبرقة شديدة : « أنت أيضاً ، سترى النور ذات يوم . أعرف أنك ستراه . أنت لا تعرف كم أصلى من أجلك » .

حسناً . أذكر أنه ساعدني في غسل الصحون . تحدثنا عن أشياء أخرى . وضحكنا كثيراً . ومن جديد أصبحنا أصدقاء تقريباً . أذكر أنه ، في لحظة ما ، رفع كأس الروم التي لم أنته من شربها التي نسيتها ، ودلقها في حوض الغسيل : « أخي الصغير ، من الآن فصاعداً ، لن نحتاج هذا » . أذكر رائحة الروم والماء المشبع بالصابون . أذكر كيف بدا – وضحكنا حين اختفى في البالوعة ، الصابون الأبيض والسكر الأسود . نظفنا المطبخ تماماً . ساعدني كاليب في ترتيب المناضد . أطفأت الأضواء وأغلقت المطعم ، ورافقته إلى القطار النفقي الذي سيأخذه . راقبته وهو يهبط الدرجات ، التفت إليَّ آخر مرة ، حين أصبح أسفل السلم ، كي يبتسم لي ويلوح لي مودعًا . أدركت ثانية كم سررت بلقائه . بعدها ، اختفى عن الأنظار . بزغ الآن ضوء النهار ، وأنا في طريقي إلى النهر ، في طريقي إلى بربارة .

وفيت بوعدي بالذهاب إلى البيت في ذلك الخميس ، لكن بالطبع لم يساعدني هذا . وفيت بوعدي – وفيتُ بوعدي دون أن أدرك أنني اتخذت قراراً هائلاً لا يتزعزع . وصلت إلى قرار فظيع ، عليَّ أن أخفيه بالصمت . عرفت أن كاليب لن ينظر إلى المسألة كما أنظر إليها – لن ينظر إليها أحد مثلي . لذا لم أضيع جهدي من أجل البوح بها . لكنني عرفت أنني سأفعل . كنت وحيداً . البارى أخذ شقيقي مني . فيما يتعلق بخلاص روحي ، فإن كاليب هو أقل المبشرين بالله وعداً . لن يفعل الله لي ما فعله لكاليب أبداً . لن يفعل لي .

سرت صوب البيت ، صباح ذلك اليوم ، كما قلت ، وقفتُ بجنب بربارة زمناً طويلاً ، وتأملتها وهي نائمة في سريرنا . أتذكر هيئتها صبيحة ذلك اليوم ، الشعر يلتف فوق الوسادة ، إحدى ذراعيها النحيفتين تمسك بالبطانية ، وكأنها شعرت بالرحيل . عملت بجد ، فتاتي الصغيرة المسكينة في مؤسسة ممتازة كئيبة ، على غرار لونج چامبس . جلست عند النافذة ، وأشعلت سيجارة . كانت حجرتنا تواجه ما كان سابقًا ساحة دار : يواجهني مباشرة الجناح المقابل لهذا المجمع الآيل للسقوط . في بعض النوافذ كانت الستائر مسدلة ، تلك الأنواع البشعة من الستائر الورقية

التي تقفز من يدك وتتجعد حول نفسها ، ويصعب الوصول إليها مثل هر مطارد في نوافذ أخرى . الستائر مرفوعة . ما من أحد في « زقاق الجنة » يملك شيئاً يستحق الإخفاء. الناس نيام . كل شيء هادئ . فكرتُ في نفسي ، أنني لا أستطيع البقاء هنا . التفتُ إلى بربارة . أغلقت مصاريع النافذة وأسدلت الستارة وخلعت ملابسي .

بدأت سنوات الزهو واليأس . انتهى ذلك الشتاء وأقبل الصيف من جديد . حصلت بربارة على عمل في مسرح صيفي ، لكنني لم أحصل . لم أستمر مع الورشة . مع أنهم طلبوا مني أن آتي لأمثل دور كروكس ثانية وأقود تلك السيارة اللعينة ثانية . بقيت أعمل في « الجزيرة » وعثرت على أستاذ موسيقي ، ورحت أتدرب على العزف على ذلك القيثار . بعض الممثلين ممن دخلوا مطعمنا ، كانوا لطيفين معي ووجهوا إلي دعوات كثيرة هنا وهناك بدأوا يشاهدونني في أماكن قريبة . استقبلوني كفنان موهوب - هذا شيء يثير الدهشة ، لكنها دهشة جميلة . شرعت أغني في « الجزيرة » كل ليلة تقريباً ، وازداد عدد الوافدين لسماع أغنياتي . أصبح العدد كبيراً بحيث توجب على هيلدا أن تستأجر أحداً لمساعدتي ، وكانت لنا مشكلة مع الشرطة ، التي أنهت في خاتمة المطاف تلك الفقرات الغنائية . أقامت هيلدا حفلة « الجزيرة » الراقصة في قاعة واسعة في هارلم ، وكان بحوزتها قائمة بأسماء فنانين دعتهم للمشاركة في الحفلة ، وكنت ضمن القائمة ، أيضاً . كانت تلك أول مرة أرى فيها اسمي على ملصق حملته إلى أمي وأبي فجاءا إلى الحفلة الراقصة - غير أن كاليب لم يأت ، آنذاك ، كان ما يزال في العالم إلا أنه غير مبالٍ به - كان والداي فخورين بي ، وأمضينا أمتع الأوقات تلك الليلة . ومثل كل الشبان ، الذين يتذوقون طعم الاستحسان العميق أول مرة ، رأيت نفسي في الأعالي . لكن ، في الواقع ، لم أكن أعمل ثمن . كان ذلك قبل عملي لقاء أجر بوقت طويل جدا .

افترقنا أنا وبربارة ، وقد افترقنا فعلاً مرات عدة . لم نر أحدنا الآخر زمناً طويلاً ، إلى أن اصطحبت معي سالي كي تشاهدها في عرضها المسرحي الأول في برودوي . مثلت دوراً صغيراً جدا ، إلا أنها لفتت الانتباه ، وقد تلقت عروضاً من هوليوود حيث كانت تملك إحساساً جيداً برفض تلك العروض . واصلت كدحي ، وافترقنا أنا وسالي ، وتركت مطعم « الجزيرة » وأخذت أغني في أحد نوادي

« القرية » الليلية ، وهو ناد قصير العمر أخذتُ أعمل نظير أجر ، كما قلت ، أدوار قصيرة هنا وهناك ، أدوار غريبة هنا وهنالك ، لكنني لم أنتفع بشيء وشرع الخوف يتنامى بداخلي شيئًا فشيئًا . انفصلنا أنا وستيف ، كنا لا نفترق حتى لحظة انفصالنا ، وفي الوقت نفسه ، تزوج كاليب ، كنت أفضل رجل في عرسه . تزوج امرأة تدعى (لويز) ، بدينة وسوداء ومحترمة ، حتمًا يمكنها أن ترعاه رعاية ممتازة . أذكر العرس لأنني كرهت مثل هذه المراسيم . حينذاك كنت في الخامسة والعشرين ، كنت شديد الخجل من الحياة التي عشتها . كل إنسان وجد الحياة التي تناسبه ، أما أنا فلا . بدا كاليب ، في ذلك اليوم ، هادئًا مطمئنًا ولطيفًا ، فقد أصبح واعظًا وهو الآن قس مساعد في « دار الشريعة الإلهية الجديدة » . الآن له زوجة وبيت وأولاد ، رزق بكل ذلك بمشيئة اللّه . أما حياتي ! أعرف ، أنها جعلتني في موقف صعب ودفاعي . كنت طاهي الأكلات السريعة ، كنت نادلاً ، كنت مساعد نادل ، كنت عامل مصعد ، كنت ساعيًا . كنت موظف الشحن – كان ذلك في أوقات الخير . في الأوقات الأخرى ، كنت أتسكع مشردًا ، محبطًا ، مشردًا بلا سكن ، رجلاً بالغًا ينام في الفنادق الرخيصة ودور السينما ، يجوب الطرقات نومًا دون أن يمتلك أثمان أجرة القطارات النفقية ، لا أعرف أحدًا لأنني لا أرغب بالتعرف على من هم في مثل وضعي – لا أحب وضعي ، لا أستطيع الاطمئنان إليه . لا أريد أن أعقد صداقة حميمة منقوعة بالماريجوانا ومغموسة بالجعة الرخيصة والويسكي ، صداقة معرضة للحساب . أريد أن أغير وضعي ، بشكل من الأشكال ، بشكل من الأشكال – كيف ؟ كنت شديد الفخر لكوني قريبًا من الواقع الخشن . ذكرياتي عن تلك السنوات ليست تلك التي كنت أقرع فيها الرصيف بقدمي ، بل تلك التي زحفت بها على وجهي فوق كل بوصة منه . الدنيا تتغير ، لكن الرعب والمصيبة باقيان . لعل أسوأ الأمور هو أنني كنت أتجنب تمامًا الناس الذين أحبوني . بربارة ، مثلاً ، أمضت أسبوعًا في نيويورك بحثًا عني . لم تستطع العثور عليَّ . عرفت أنها في المدينة لأن العرض المسرحي الذي تشترك فيه كان يقدم في المدينة . لكن بربارة عندها عمل وأنا ليس عندي . أدركتُ أنني لم أستطع تبديد وقتها على غرار ما فعلته مع الآخرين – تمنيتُ – بقميصي النظيف وسروالي المكوي بالفراش وحذائي اللامع وأظافري النظيفة . كيف استطعت المحافظة على نظافة قمصاني الستة التي ارتديتها طوال تلك السنوات ، لا أدري . أدركت – أو أحسست –

أن الناس بدأوا يتخلون عنى . أنا على يقين ، أنهم أحسوا ، أنه حكم عليَّ بأن أصبح جزءاً من الحطام الذى يحف كل طريق شديد الانحدار . ربما أننى أحسست بهذه الطريقة ، فقد بدأت أفعل هذا - كانت تلك هى أخطر لحظات حياتى . بدأت أشم رائحة الهزيمة . تلك الرائحة تقرر مصيرك نهائيا . كنت أسرف فى الشراب . الناس دوماً يتصدقون عليك بكئوس الشراب . وفى الحانة ، الواقع ، حدث شىء ما ، تحول فيما بعد إلى أول تغيير حقيقى لى ، كما أسميناه نحن الأحياء ، تغيير قوى ، التغيير الذى يجعل الآخرين محتملين . بالتأكيد لم يكن شبيهاً بالتغيير ، بل كان أشبه بأحد الأعمال . لم يحصل لى التغيير حتى تلك اللحظة . كنت أعمل طاهياً للاكلات السريعة فى هارلم . لكننى ، بالطبع ، لم أرغب بأن أقضى حياتى طاهياً للاكلات السريعة كما كنت أشعر بكآبة شديدة لأننى عرفت أن والدتى ليست على ما يرام .

أقبل إليَّ رجل أبيض ، طيب المعشر ، وقال إن اسمه راى فيشر . سألنى عن حالى وعملى . لم أعرف الرجل . كنت أكره أن يطرح عليَّ الناس مثل هذه الأسئلة ، كنت أخجل من ذكر مهنتى للناس . إلا أننى كنت شديد الفخر بأن أكذب . هذا الرجل سمعنى وأنا أغنى ، فى مكان ما ، ورآنى على خشبة المسرح : مما جعلنى أكن له احتراماً شديداً بسبب قوة ملاحظته . أخبرنى أن فريقاً مسرحيا صغيراً يروم تقديم عرض تجريبى لمسرحية « الذرة خضراء »[1] . هذا العرض المسرحى يتطلب استخدام ممثلين من الزنوج ، وهم الآن يبحثون عن فتى زنجى يجيد الغناء ويلعب دوراً رئيسيا فى المسرحية . هو صديق لمخرج المسرحية الذى أخبره بذلك ، وقد عرف أيضاً أن المخرج قد رآنى أيضاً وقد تركت فيه انطباعاً جيداً . قال إنهم يخططون لتقديم المسرحية فى سبعة عروض فقط ، وأن الأجور ليست عالية جدا . ولكن من مصلحته الخاصة ، ومن مصلحة المخرج ، صديقه ، أنه كان يتمنى من أعماق قلبه أن أفكر بهذا الأمر . قال ، ربما ، بهذا الإصرار البرىء الذى يميز عدداً كبيراً من الأمريكيين ، سنحقق نوعاً من الاختراق . على أية حال ، ظن هو ، أنه شىء جدير بالتفكير ، وأعطانى عنوان المسرح . لم يكن المسرح فى « القرية » ، ولكن فى الطريق المؤدى إلى « الجانب الشرقى » ، حيث إن سكان المنطقة لم يحلموا أبداً بالذهاب لمشاهدة عرض

(١) الذرة خضراء : ملهاة كتبها إملين ويليامز وعرضت أول مرة فى لندن عام ١٩٣٨ - الموسوعة المسرحية - تأليف جون رسل تيلر - ترجمة سمير عبد الرحيم الجلبى . (المترجم)

مسرحي تجريبي ، وخاصة إذا كان الدور الذكوري الرئيسي لشاب زنجي في مسرحية « الذرة خضراء » .

أذكر أنني تطلعت إليه قائلاً : « الذرة خضراء ؟ » كنت متيقنًا من أنه كان يمزح أو أنه مجنون ، ففي الحانات تصادف كل أصناف البشر . لم يبدُ عليه أنه يمزح ، كما لم يبد عليه الجنون . لم أقرأ المسرحية من قبل لكنني رأيت إيثل باريمور ممثلها . لم أتذكر دور الغلام أبداً . بدا لي كل هذا شيئًا جنونيا تمامًا : بقيت أحدق في راي الذي لم أعتبره بعد يد اللّه الرحيمة السمحاء. احتسينا عدداً قليلاً من كئوس الشراب، كان رجلاً لطيفًا جدسا ؛ وعدته أنني سأعرج حقا على المسرح ، لأنه عنى ما قاله . لكن ما جعلني أقرر الذهاب فعلاً هي البرقية التي دُسَّتْ تحت بابي ، حين عدت إلى منزلي تلك الليلة . كنتُ أسكن في ملتقى الشارعين التاسع عشر والرابع . حسنًا ، كما تعرف ، كانوا فعلاً يبحثون عني . لذا هاتفت صباحًا مطعم المشويات ، وأخبرتهم أنني سأتأخر في المجيء ، وذهبت إلى المسرح .

حين تجري الرياح بما لا تشتهي السفن فإن اللّه العظيم يعلم بذلك ؛ يجد المرء نفسه متورطًا في مشكلة عويصة وشاذة ويعرف أنه لن يستطيع الخروج منها ، ولن يستطيع أحد إسداء العون له أبداً ، وحين تمر السنوات العجاف ، يكتشف المرء أن جزءًا كبيراً من مشكلته العويصة ناتج عن تعقيداته الشخصية المبهمة وغير المتوقعة . أجلس ، أحيانًا ، واهنًا ، مرتعبًا ، أمام شخصيتي ، وأراقبها وهي تنشر الخطر والذهول طوال مشهد حياتي – ليس مشهد حياتي فقط . إنه شعور فظيع ، لا يتعلم المرء في مثل هذه اللحظات أن معرفته قليلة جدا ، بل إنه مهما كانت معرفتنا قليلة فهي قادرة على مساعدتنا . لكن أحيانًا تجري الأمور على قدم وساق . وهذه اللحظات ، المخزية لا تبدو قادرة على التأثير في شخصية الإنسان . وصلت إلى ذلك المسرح الصغير ، والتقيت المخرج ، قسطنطين رفائيليتو ، وهو رجل لطيف ، ممتلئ الجسم ، يوناني في حوالي الأربعين ونيف ، أحببته على الفور ، أحببت مصافحته لي ، أحببت عينيه . أول شيء قاله بعد : « صباح الخير ، سيد برودهامر . أنا مسرور لأننا عثرنا عليك .. أنت إنسان يصعب العثور عليك ، هل تعرف ذلك ؟ » هو : « هل قرأت نص المسرحية ؟ » أجبته : « لا ، لكنني شاهدت المسرحية » . قال : « انس ذلك » وسلمني النص . أظنه أراد مني أن أقرأه ، إلا أنه صب كوبين من القهوة ، وجلسنا وشرع يحدثني عما يدور في رأسه من أفكار .

لم يمض عليه وقت طويل في بلدي ، قال ، فقط ثمانية أعوام تقريباً ، هو واحد من الأعداد الكبيرة من البشر التى ساقتها الهزيمة الأوربية الأخيرة إلى هنا ، وهكذا فهو أحد المحظوظين - إلا أنه قال هذا بحزن وسخرية . ثم قال باسماً إنه لا يدعى أنه فهم بلدى ، أو فهم مكانة السود فى هذا المكان الغريب . كنت أسائل نفسى ما هدفه من كل هذه الأقوال التمهيدية ، كنت نصف مقتنع بأنه كان مجرد رجل مثقف غريب الأطوار ، لا يستطيع أن يدلنى على وجهة الطريق . إلا أننى أعتقد أنه أدرك هذا الأمر من خلال بعض التعابير البادية على وجهى ، ذلك أنه ابتسم وقال : « أنا لست محاضراً . أنا مخرج . أعتقد أننى سأجرب تجربة صغيرة » . سكت عن الكلام ، نظر إلىّ ، مضيقاً عينيه بشدة ، الآن . واستطرد قائلاً : « لا أدرى إن كنت تتفق معى ، أنا لا أعتقد أن أيا من هذه الكتب والمسرحيات والأفلام التى تتناول هذه القضايا قادرة على أن تفعل شيئاً » - كنا فى زمن " الأرض والسماء العالية " و " اتفاقية النبلاء " و " بوزة " و " الدم الملكى الممتاز " و " الخنصر " - « لا أظنها عازمة على أن تفعل أى شىء . إنها فقط تبقى الأساطير حية . إنها تبقى مفردات اللغة حية . بالطبع ، نحن جميعاً نحزن على السود المساكين التعساء ، يمكننا أن نعطى ، فعندنا أناس سعداء . لم لا نشعر بالأسف على اليهود ، فقد قتلنا أعداداً غفيرة منهم . لكن فرن الغاز هو فرن الغاز ، أليس الأسود ما زال أسود ؟ » .

رشفت قهوتى ورحت أتأمله .

« الآن » قال ، واسترعى انتباهه انتباهى الشديد ، ثم أكمل حديثه : « التجربة التى فى بالى هى مجرد تجربة . العنصر الرئيسى فى التجربة ، أى المسرحية ، بعيد جدا عن المثال . أعنى أننى لا أريدك أن تعتقد أننى أعتبرها مسرحية عظيمة ، لكنها مسرحية واقعية بعض الشىء ، ومؤثرة جدا فى بعض المواقف ، وتتميز بعناصر فى اعتقادى بميسورنا أن نجعلها مثيرة جدا » .

كنت أتأمله بينما كان يتحدث - كنت أتأمله أكثر مما أصغى إليه ، وهى عادة تأصلت فى نفسى . أعتقد دوماً أن بوسعك التكهن بما يقوله المرء من الطريقة التى ينظر بها إليك أثناء حديثه . قسطنطين - (كونى) - كان من طراز غريب ، كما تبين لى

فيما بعد ، وكان عليه أن يدفع ثمن ذلك في المستقبل ، إذ كان صوت السيناتور مكارثي عالياً في البلاد . بيد أن غرابة أطواره أشبه بغرابتي . كانت له قناعات حقيقية ، وكان قد أمعن التفكير في بعضها ، وقد حاول العيش من خلال قناعاته الخاصة . حتى فيما بعد . حين ساءت سمعته وأمست معيشته شاقة جدا ، وتنحى عنه كل أولئك الذين كان بوسعهم مساعدته ، لم أسمع منه أى شكوى أو تذمر . كان يكتفي بالقول : « حسناً ، أحسب أن الوقت قد حان كي تأخذ نفساً عميقًا وتمسك بأنفك وتذهب إلى الأسفل . الحمد لله ، تعلمت ذلك منذ أمد بعيد » .

ذلك الصباح ، بينما كان يتحدث لي ، ركزّ بصره في عينيّ ، كان شديد الانهماك بما يحاول قوله لي إذ كان لديه طاقة فائضة يحاول أن يسلمني إياها . لم يحاول أن يؤثر في ، ولم يبتزني بسبب لون بشرتي ، بل تحدث إلي كما يتحدث فنان إلى آخر ، فيما يتعلق بمشروع كان يأمل أن نستطيع نحن الاثنين إنجازه . كان ذلك صدمة عميقة بالنسبة لي ، لم يكن ليعرف كم هي عميقة ، وشعرت بارتياح عميق . لم يتحدث إليّ أحد في المسرح بمثل ما تحدث به (كوني) . لا ، اعتدت البسمة التي أخفت وراءها قلق الإثم . الأمريكيون يكذبون على أنفسهم دومًا فيما يتعلق بذلك القريب الذي يسمونه بـ (الزنجي) ، وهم يكذبون عليه دومًا ، وقد ألفت النبرة التي تنم عن اشتراكك في الجريمة التي لم تعترف بارتكابها . كان على المخرجين الذين تحدثت إليهم أن يتوقعوا – مع أنه كان بوسعهم الاعتراف – أن الأدوار التي كان من المتوقع أن أمثلها كانت إهانة لرجولتي ، علاوة على كونها إهانة لحرفتي . ربما كان لي رأي معين حول دور الريفي أو الحمال الذي كنت أمثله . لم يخشوا سماع رأيي هذا . بالطبع ، لم أخش التصريح بذلك ، مع أن هناك أوقات معينة لم أكن لأمتنع عن التصريح بذلك . لكن هذا التوتر النفسي الذي خلقته المعلومات العامة عن الكذب غير المحدود وغير المعلن ، لم يكن موجوداً في مكتب قسطنطين ذلك الصباح . كان أول مخرج التقيته وأحببت العمل معه فعلاً . وفيما يتعلق بهذا الأمر ، كان أول مخرج يتحدث إليّ وكأنني قادر على العمل معه .

صب مزيداً من القهوة وقال لي : « إن أحد الأشياء التي لفتت انتباهي في هذا البلد هو نضال السود من أجل الحصول على المعرفة . أنا أعتقد دومًا أن هذه هي

إحدى القصص العظيمة وما من أحد يعرف شيئًا عنها . لو كانت هناك مسرحية في هذا الموضوع ، أغلب الظن ، سأتولى أنا إخراجها . إلا أنني لا أدري ما إذا كانت هناك مثل هذه المسرحية ، لذا فإنا أعتقد أنني سأجرب حظي . أعتقد أنك ستفهم ما عنيته حين تقرأ نص المسرحية . أنا آمل أنك فهمت قصدي . عناصر قليلة جدا في المسرحية مغايرة لنمط الحياة الأمريكية . أنتم حفرتم الأرض بحثًا عن المعادن بمثل هذه الطريقة ، من أجل المسيح ، والأنكى من ذلك ، أن الناس هذا شأنهم دومًا ، يخضعون تمامًا لمالكي الأرض الرئيسيين . حقيقة إن البشر لا يختلفون كثيراً من موطن إلى آخر » .

الآن ، أدركت مغزى قوله . كنت أتحرق شوقًا للوصول إلى البيت وقراءة المسرحية . لا أدري حتى الآن إن كان مجنونًا أم لا ، غير أنه بدأ يثيرني .

قال : « لذا ، في اعتقادي ، سآخذ هذه المسرحية ، هذا الظرف المتعلق باستخراج المعادن من المدينة ، بدون تعليق ، إذا صح القول ، جعلت فقط عمال المناجم والخدم ، وما شاكلهم من الناس ، سوداً . الواقع أن مكان أحداث المسرحية هو ويلز ، لكن في اعتقادي يمكننا أن نجعل الجمهور ينسى ذلك بعد بضع دقائق من بدء العرض ، على أية حال ، فحتى في ويلز يوجد سود . وقد خيل لي أن بوسعنا أن نجعل الفتيان السود يرتجلون على طول الحوار الويلزي – الواقع هي لهجة محلية – وبالطبع لدينا فرص موسيقية هائلة مع هذه المسرحية » . حدق بي وابتسم « كيف كان وقع الخبر عليك يا بني ؟ أوه ، بالطبع . حتمًا فيشر قد أخبرك أنني أريدك أن تلعب دور الفتى .. أن تلعب دور مورجان إيفانز . ألا يمكن أن يكون هذا اسم فتى زنجي ؟ » .

« معظم أسماء البيض يمكن أن تكون للزنوج » . أجبته . وبعد لحظة ضحك وبادلته الضحك .

سألني : « أيمكنك قراءة النص بسرعة ؟ وترجع إليّ بسرعة ؟ » .

أجبته : « سأقرأها اليوم . وسأتصل بك هاتفيا حال انتهائي من قراءتها » .

« اتصل بي هاتفيا مساء اليوم في منزلي » . قال لي ، وكتب بسرعة رقم هاتفه على قصاصة ورق وسلمني إياها .

« أتمنى أن تروق لك . سيكون ذلك هو السبب الوحيد الذي يجعلك تشترك في تمثيلها . لن تكسب منها مالاً وفيراً ، ولن تحقق فيها مجداً » . قلت وأنا أشعر بشيء من الحرج : « حسنًا ، سأهاتفك هذا المساء » . « جيد » . مد يده . « الناس يدعونني (كوني) . أبوسعي أن أدعوك ليو ؟ » . أجبته : « بكل تأكيد » .

« حسنًا ، مع السلامة ، ليو . أتمنى أن يكون بمستطاعنا تحقيق شيء ما » .

« مع السلامة ، كوني ، أتمنى ذلك ، أيضاً » .

تصافحنا ، وغادرت المسرح .

قرأت المسرحية ، بالطبع ، في القطار النفقي ، حين وصلت ضواحي المدينة كنت قد انتهيت من قراءة المشهد الأول . لم أرغب بالذهاب إلى العمل قبل انتهائي من قراءة المسرحية ، لذا دخلت حانة وطلبت زجاجة بيرة وقرأت المسرحية حتى النهاية .

فكرة المسرحية حمقاء ، طيب ، رحت أحدث نفسي بذلك ، بيد أنني لم أستطع التخلص من الإثارة التي كانت تتفاقم بداخلي شيئًا فشيئًا . أدركت ما يدور في رأس (كوني) من أفكار : برأيي يمكن إنجاز المسرحية . لعلي لم أحبذ بكل معنى الكلمة الصورة التبشيرية نوعًا لمعلمة المدرسة البيضاء ، هي مسرحية لا تبشر بالنجاح ، لكنها في الواقع لن تكون مفيدة إذا ما مثلناها بحذافيرها ولن تكون مثيرة للتوتر والقلق . سوف نمثلها في سبعة عروض ، ذكرت نفسي ، لكن كل من هو في وضعي عليه أن يتقبل أي مشروع على اعتبار أنه قادر على هز العالم . لم أعرف كيف سيقيض لي أن أمثل دور الفتى مورجان ، إلا أنني أحسست أنني قادر على فهمه وأحسست أنني قادر على تمثيل دوره . ومن الجلي أن (كوني) شعر أنني قادر على تمثيل دوره وإلا ما كان ليبحث عني . كان متيقنًا تمامًا من قدرتي على تمثيل الدور وإلا ما كان ليطلب مني قراءة المسرحية . وهكذا ، بدا لي الدور مناسباً . بدا لي الدور لطيفًا جدا . ومهما حدث الآن ، فإن معنوياتي قد تم إنقاذها ثانية . مع ذلك ، من يعرف ما الذي سيحصل ؟ من يعرف ؟ غادرت الحانة بوقار ، متأبطًا دوري ، ومشيت الشارع المشجر بوقار حتى وصلت مطعم المشويات . كانت الريح رخاء . لم أعد بائسًا بعد الآن . ربما سأعيش .

اتصلت هاتفيا بكوني تلك الليلة من مطعم المشويات : « أنا ليو برودهامر . أردت فقط أن أشكرك . أدخلت السرور إلى قلبي » .

حل صمت . ثم قال كوني : « أنت أيضاً أفرحتني كثيراً يا ليو . هل نلتقي غداً العاشرة صباحاً ؟ » .

« جيد » .

« إلى اللقاء » .

« إلى اللقاء » .

حسنًا . هذا يعني أن عليّ أن أعمل ليلاً في مطعم المشويات وأمارس التمارين المسرحية طوال النهار . لكن هذه هي أعظم الأوقات في حياتي . ولن أنساها أبداً . كانت تلك هي أول مرة في حياتي . وبعد وقت طويل . عاملوني فيها كممثل مسرحي . لعل الممثلين وحدهم يعرفون معنى ذلك . وما عناه ذلك لي هو أن الطريق أصبحت ممهدة أمامي للعمل . يمكنني أن أركز اهتمامي على الدراسة والعمل واكتشاف ما موجود في داخلي . لم أكن أحمل تلك الصينية اللعينة . ولم أكن في حرب مع نفسي . أو مع المسرحية أو شخصيات المسرحية . لم أعد أشعر بأنني مجرد شخص يتسكع هنا وهناك كجزء من المناظر المسرحية . وأن يتم استخدامي في المسرحية بتلك الصورة . كانت تلك هي أول مرة عاملوني فيها باحترام مطلوب يستحقه كل فنان . بسبب طبيعة الجهد الذي يبذله . الذي بدونه لا يستطيع تأدية دوره . أمامي تحدٍ كبير . ويتوقعون مني أداء رائعاً . عليّ أن أبذل قصارى جهدي .

شغلني كوني كالحصان . يقول غالباً : « الآن . أنت تعرف أنك لا تقول الحقيقة . أليس كذلك ؟ أنت تخدع الفتى » . وهكذا بدأنا تمثيل الدور ثانية . أدركت ما عناه . تذكرت كل أقواله . في أول لقاء لي مع الآنسة (موفات) كنت غير متأكد من حسن أدائي . كانت لحظة تتطلب براعة . لحظة فاتنة بصورة خادعة - « من فضلك يا آنسة . أيمكنني تقبيلك ؟ » وتضربني هي على عجيزتي . حاول أن تكون فاتناً حين تمثل هذا الفعل - كان مورجان أصعب الأدوار التي نسبت إلي . لكنه أيضاً أحسن الأدوار . لم أبال أبداً أن أعمل كالحصان . كان كوني يجعلنا نعمل جميعًا كالأحصنة . كانت لي مشكلة في أول أسبوع أو نحو ذلك مع الممثلة التي تؤدي دور الآنسة موفات .

كانت نجمة كبيرة في العقد الثالث ، نجمة من الدرجة الثانية على غرار جانيت جينور أو سلفيا سيدني ، وكانت تتخذ واحداً من أسماء نجوم ومبس بيبى الشنيعة . كان اسمها الفنى بونى ناش ، ومع أنها أصبحت الآن على مشارف الستين ، إلا أنها لم تستطع تبديل هذا الاسم ، كانت لها مشكلة صغيرة فقد كانت مرغمة على العمل فى مسرح قرية صغيرة . كانت لها أكثر من مشكلة صغيرة ، مع أنها لم تعترف بذلك فقد وجدت نفسها محاطة بعدد كبير من الزنوج. عدد لا يحصى، فى الواقع: ذلك أن (كونى) أسند كل أدوار الخدمة، بيسي، سيدة واتى ، كل عمال المناجم ، وأولد توم إلى السود . هذا يعني أنه من بين الأدوار الخمسة عشرة الناطقة ، هنالك عشر شخصيات مع أندادها روتينية تماماً . علاقتها الحقيقية هى مع مورجان . وبما أن كونى هو الذى يخرج المسرحية ، وهو شىء حقيقى أيضاً بالنسبة لـ « السود » فى المسرحية إذ كانوا يتطلعون إلى مورجان باعتباره أملهم الوحيد . فى الأسبوع الأول ، ركز كونى اهتمامه على هذه العلاقات الثانوية غير المعلنة ، دون أن يتطرق عمليا إلى جوهر المسرحية . وهذا أثار قلق بونى ناش ، التى اعتبرت « الذرة خضراء » عربة تمثيل بالنسبة لها . إلا أن كونى يعرف بونى ناش ، وقد راق له أن يجدها قلقة بعض الشيء . أراد أن ينشب صراع بين الآنسة موفات ومورجان ، كي تجعل العرض حيوياً ، ناشطاً ، بعد أن كان هذا الصراع ضمنيا فى النص ، بينما يتجلى لنا أن الآنسة موفات كانت تبدو مبهمة بالنسبة لمورجان ، بالمثل كان هو يبدو مبهماً بالنسبة لها . كان لا يريد أن تمثل بونى دور معلمة المدرسة المتعجرفة ، المتعلمة ، العانس ، النبيلة نوعاً ، بل يريدها أن تمثل أيضاً بصفتها امرأة تخاف مما أخذته على عاتقها .

وفى الواقع ، بونى وأنا ، كنا خائفين من بعضنا الآخر بشتى الطرق ، ولأسباب عديدة . استخدم كونى هذا الأمر، بصورة قاسية، وبمثابرة ، جعلنا نمشى بشخصياتنا ذاتها ، فوق الأرض التى علينا أن نغطيها فى المسرحية . لم نتحدث أبداً عن التوتر القائم بين بونى وليو، لكنه استخدم هذا التوتر – أو بالأحرى أجبرنا على استخدامه – لإضاءة التوتر بين مورجان والآنسة موفات . وقد نجح . نال ما تمناه ، وجعل مشهد خصامنا فى الفصل الثانى مؤلما فعلاً ، خصاماً جارحاً – مورجان ، بغيض ، حائر ، باكٍ ، مندفع بقوة ونشاط ، والآنسة موفات حائرة مثله ، خائفة جدا ، مجروحة

الأحاسيس ، تكافح من أجل النفوذ . بعد أن بلغنا تلك الذروة ، يبدو لنا الآن أن ذلك كان بدون جهد ، بددنا ذلك التوتر ، تعززت ثقتنا بأنفسنا ورحنا نعمل بإصرار . اكتشفنا الطريقة التي نمشي بها ، وأصبحنا قادرين على تمثيل أصعب المشاهد . وفي الواقع تمكنا من تمثيل المشهد الثالث غير المتوقع كصديقين كلفتهما صداقتهما كثيراً .

استخدم كوني كثيراً من الموسيقى في المسرحية ، وكان لي غناء منفرد ، غير مرئي ، قبل رفع الستارة . كان علي أن أغني ، برفقة قيثاري ، أغنية قديمة من أغاني عمال المناجم ، هي أغنية « معتم كالزنزانة » ، حين قرأت الأبيات الآتية :

ناس كثيرون عرفتهم في حياتي

أمضوا حياتهم التعيسة في العمل الشاق

مثل مدمن يتلهف لأفيونه ، مثل سكير يتلهف لخمرته

ناس يتلهفون للمنجم العميق الوعر .

فكرت في والدي ، يوماً ، وقد غنيت الأغنية له . لكنني لم أذهب إلى البيت . الواقع لم أكلم أحداً كثيراً عن المسرحية : ذلك أنني الآن أعرف كثيراً جدا عن أفضل الخطط الموضوعة للرجال والفئران ، ولم أكن أرغب بالمخاطرة بشرح كل ما يقع من أحداث . الفتيان في مطعم المشويات ، عرفوا ، بالطبع ، وكانوا لطيفين جدا معي . لو لم يكونوا كذلك لأصبحت الأمور عسيرة جدا عليَّ ، لأنني لم أرغب بالتخلي عن مهنتي فأجد نفسي مشرداً من جديد ، بعد أسبوع . سيأتون كلهم إلى المسرح ، ويشاهدونني ، مصطحبين معهم زوجاتهم أو صديقاتهم ، أو مع أي من معارفهم ، في ليال عدة . مع أنني كنت أعمل في هارلم ، قريباً جدا من البيت ، لكنني لم أذهب إلى البيت أبداً . حدثت نفسي أن سبب ذلك هو ضيق الوقت . كنا نتمرن عادة من العاشرة صباحاً حتى العاشرة مساءً ، بعدها أعمل في مطعم المشويات حتى طلوع الفجر . ثم آخذ قسطاً من النوم وبعدها أعود إلى المسرح . كان برنامجاً شاقا وربما لا أستطيع الالتزام به حالياً . لكنه في ذلك الوقت لم يكن بالنسبة لي غير اعتيادي . وقد التزمت به

من قبل ، في ذلك الوقت التزمت به مراراً . ولأنه برنامج لا يطاق ، يحشو المرء دماغه بالمعلومات الكثيرة ، من غير أن يكون قادراً على سردها . لذا ، كان باستطاعتي الذهاب لرؤية أمي التي كانت مريضة كما عرفت . ومع وجود برامج مشددة قررت أن أفعل أشياء أقل أهمية . والديّ ليس عندهما هاتف ، لكن ثمة هاتف في « دار الشريعة الإلهية الجديدة » ، ويمكنني أن أهاتف كاليب. أو ببساطة ، بميسوري أن أشرح للفتيان في مطعم المشويات الذين سيتفهمون وضعي ولن يتضايقوا بسبب عدم مجيئي . كانوا شباناً طيبين وكانوا يحبونني كثيراً وكانوا يأملون أن أحقق النجاح ، حتى لو عنى ذلك أن أتغير وأن لا أتحدث إليهم ثانية . لذا ، في الواقع ، ليس ثمة سبب يمنعني من الذهاب إلى بيت أهلي . إن أي طبيب نفساني سيكون مسروراً بأن يشرح لك الأسباب الموجبة ، إلا أنني أحسست إحساساً شديداً ، حسب المفهوم النفساني ، بغياب اثنين من أهم الناس : أحدهما الطبيب النفساني والآخر هو أنا . على أية حال ، لم أقصد البيت . حدثت نفسي أن العاشرة مساء وقت متأخر جدا ، والسادسة صباحاً وقت مبكر جداً . وذات يوم ، بعد يوم عمل شاق ومثمر دخلت مطعم المشويات فوجدت كاليب جالساً إلى النضد ، يحتسي القهوة في انتظاري .

يومذاك ، كان الأولاد في مطعم المشويات لا يشبهون الناس في مركز المدينة في مطعم « الجزيرة » من سنوات عدة ، يعرفون كل شيء عن كاليب وعني . كان الكاهن برودهامر: الجميع يعرفون ذلك. كانوا يعاملونه بنوع من الاحترام يخفي وراءه اليأس . كان في جلبابه ، كما نقول الآن ، عثر على موضعه الملائم ، كما يقول الإنجليز . لا ، لم يتوقعوا منه شيئاً . الواقع ، كان بالنسبة لهم بالضبط مثلما سأكون عليه في بضع سنوات لاحقة ، أو بضعة أشهر ، أو بضعة أسابيع ، أو بضعة أيام : وراءهم ، وعديم الفائدة . شق كاليب طريقه بصورة جيدة . أما هم فلم يشقوا طرقهم بصورة جيدة . إن حقيقة كونه كاهناً ومحاولتي أن أصبح ممثلاً لا يفرقان البتة ، ليس ثمة اختلاف بالمرة . كانوا يعرفون ، من غير أن يعرفوا أنهم يعرفون ، ببساطة من خلال التأمل ، من خلال ما دفعوه من أجر ، ما لم يجرؤ أحد على استذكاره : إن المسرح بدأ في الكنيسة . أنا وكاليب كلانا ممثلان ، هكذا كانوا يروننا ، إخوة وأعداء . ربما كانوا يتوقعون مني أكثر مما يتوقعون منه ، والسبب هو ببساطة أن الوصول إلى منبري أكثر صعوبة ، وهم لم يستمعوا بعد إلى موعظتي .

كانوا يدركون أنها ستكون ليلة سيئة بالنسبة لي . دخلت المطعم لاهثاً ، حاملاً كتبي ، حاسر الرأس ، مسحت المطر الذي بلل وجهي وشعري فيما أنا أدخل المطعم بعجالة . رئيسي (ريد) ، أومأ لي بإشارة ما إلا أنني كنتُ غارقاً في جو المسرحية وقلقاً بسبب تأخري. لذا لم أستجب لإيماءته. علقتُ معطفي ودخلت الحمام . دخل ريد ورائي .

قال لي : « أخوك هنا ، منذ أكثر من الساعة » .

كنت أتبول . لذا تناثر رشاش البول على يدي وعلى البلاط .

« أخي ؟ » .

« الكاهن برودهامر » قال ، ثم أكمل حديثه : « أخوك » .

غسلت يدي وجففتهما . قلتُ : « أوه . اللعنة » .

قال : « حسناً . إنه هنا » . تأملني في المرآة . « أظن أن ثمة مشكلة في عائلتك . لذا » - تأملني . كان زنجيا شاحباً ، ذا بشرة مائلة للاحمرار ، النمش يكسو وجهه : كنت أحب ريد حبا جما وكان يحبني أيضاً - « في حالة ذلك ، يمكنك مرافقته ولا تبال بشيء » . فتح الباب وقال لي : « كيف هي الأمور في مركز المدينة ؟ » .

أجبته : « على أفضل حال » . التفت ونظرت إليه . كان يمكنه رؤية ذلك في تعابير وجهي ، يمكنه سماع ذلك في نبرة صوتي . ابتسم - ابتسامة لم أرها إلا في وجوه الأمريكان السود . « ريد الأمور على أفضل حال » . لم أستطع أن أتمالك نفسي . فقلت له : « ريد ، كما تعرف ، سأكون في أفضل حال ! ستكون فخوراً بي » .

ابتسم ثانية ، تلك البسمة : « حسناً ، جيد » . قال وغادرني .

مشطتُ شعري وحدقت في وجهي ، يا إلهي ، يا له من وجه لا يطاق : « من أين لك هاتان العينان ؟ » وخرجتُ للقاء كاليب . كان جالساً إلى النضد ، كما قلت ، فجلست بجنبه .

كان وقوراً كعادته ، جميلاً كعادته . قلت له : « أهلاً ، كاليب » .

كان يحتسي القهوة . كان لي إحساس أنه احتسى كثيراً من القهوة . كان أنيق الملبس ، يعتمر قبعة - بالتأكيد ، ذات يوم ، سيقوم شخص ما بكتابة دراسة حول القبعات الرجالية الأمريكية - أما أنا فكنت حاسر الرأس . كان الفصل شتاء ، كنت أرتدي سترة صوفية غليظة ذات ياقة واقفة ضيقة وسروالاً قديماً من قماش قطني متين . لم يكن شعر رأسي حليقًا كما لم يكن ذقني حليقًا . تطلع إلى كاليب ورأى منظري . عرفت ذلك . لا أستطيع القول إنني لم أبال . الواقع أنني أعرت الأمر أهمية . لكنني أدركت أنني غير قادر على أن أفعل شيئًا لما رآه كاليب . وقد أدركت أنني غير قادر على فعل أي شيء لما رأيته بأم عيني .

« أمك تريد أن تراك » ، قال لي بعد أن أكمل تدقيقه في هيئتي . « هي مريضة وتريد رؤيتك وقد فكرت أن بوسعي العثور عليك ولهذا السبب أتيت إلى هنا . هل تعتقد أن بوسعك أن تأخذ إجازة من العمل كي تأتي إلى البيت لرؤية أمك ؟ » .

تبادلنا النظرات . لم أقل شيئًا . سرت إلى مشجب المعاطف ، التقطت معطفي . ألقيت على ريد نظرة قصيرة فهز رأسه . عدت إلى كاليب وقلت له : « أنا مستعد للذهاب الآن » .

نهض كاليب ووضع بعض النقود فوق النضد ، إلا أن ريد أعادها إليه : « أنت جزء من العائلة ، يا كاهن برودهامر » . قال ريد فابتسم كاليب ، ابتسامة متكبرة ، وقورة ، وغادرنا المطعم . لم يقل الأولاد الآخرون شيئًا . كانوا يعرفون أن ليس ثمة ما يقال .

كان المطر ينهمر مدراراً . رحنا نقطع الشارع المشجر ، أنا أتأبط كتابي ، مائلاً بكتفي إلى الأمام . كنت عارفًا بأننا سنمر بـ « دار الشريعة الإلهية الجديدة » وهذا جعلني أرغب بالضحك . الضحك ربما لن تكون هي الكلمة الدقيقة . سألت كاليب : « كيف هو حال لويز ؟ كيف حال الطفل ؟ » .

أجاب كاليب : «هما بخير. أخبرت الطفل مراراً أن له عماً، لكنه لم يصدقني» .

لم يرق لي كلامه . كانت تفوح منه رائحة الابتزاز . لم أكن أحب لويز كثيراً ، كنت أعتقد أنها مومس سوداء ، غبية ، مدعية . لكنني قلت له : « أنا مشغول جداً يا كاليب » .

هتف كاليب : « عندما يكون المرء مشغولاً جداً ألا يجدر به أن يخصص وقتاً للحمه ودمه ! » عرفت تلك النغمة . انهمرت عليَّ كانهمار المطر . ما في اليد حيلة . مررنا بالكنيسة وسمعنا التراتيل وشاهدت اسم كاليب على اللوحة السوداء – البيضاء . « لا تقل لي أنك كنت مشغولاً . لن تكون مشغولاً مثلي وأنا أرى أمي يومياً . يومياً . ويومياً تسألني ما إذا كنت رأيتك أم لا » .

بعدها ، شرعنا نسير صامتين . قبل أن ننحرف عن الطريق المشجر ، اجتزنا حانة ، رأيت رجلاً أعرفه يدخل ويحييني . ثم رأى كاليب ودخل الحانة .

قال كاليب : « عندك أصدقاء جيدون » .

قلت بتأنٍ : « أجل . عندي » .

« أتعرف أنك تكاد تبلغ الثلاثين ؟ » سألني كاليب ، ثم أكمل حديثه .

« الآن ، ماذا تعتقد أنه سيقع لك ؟ » .

« أعرف أنني سأبلغ الثلاثين عما قريب . وما سيقع لي ليس من شأنك » .

توقف ، التفت إليَّ وحدق فيَّ . وقفنا بلا حراك في المطر . قلت له : « كاليب ، أنا رجل ، الآن ، اتركني وشأني ، أسمعت ؟ » ، وصفعني كاليب ، كانت صفعته قوية جداً بحيث سقط كتابي من تحت إبطي ، وتوجب علي أن أزحف كالطفل كي أنقذه من وابل المطر . كانت ملاحظاتي كلها في داخل الكتاب . أتمنى ألا تكون قد دمرت كلها . كنا ننوي المباشرة بتقديم المسرحية في غضون أسبوع . تطلعت إلى كاليب . وهتفت به : «أنت ابن زنا . أنت ابن زنا . أنت فاسد . أنت نغل كنيسة هولي رولر الأسود » ، وصفعني ثانية ، كنا ما نزال واقفين هناك .

قلت له : « مرة ، أردت أن أكون مثلك ، على أن أتخلى عن كل شيء في العالم كي أغدو مثلك » . كنت أبكي ، تمنيت أن يحجب المطر المنهمر دموعي ويمنعه من رؤيتها . « الآن ، أفضل الموت على أن أغدو مثلك . لن أكون مثلك ، أحكي كل هذه الأكاذيب إلى كل هؤلاء الجهلة ، إلى كل هؤلاء التعساء ، لن أكون مثلك لأي سبب كان ، لأي سبب كان ! انظر إلى ما فعله ربك ، انظر إلى مخلوقاته ، انظر ! » .

أجلت بصري في الشارع المشجر ، لكنه لم يفعل مثلي . كان يحدق بي . «أنا لا أؤمن بربك وليهلكني مثلما نويت أنت هلاكي» . وانسحبت منه .

ارتقيت درجات السلم المؤدية إلى دارنا ، راكضاً . جففت وجهي وشعري بأفضل ما استطعت ، وقرعت الباب ، فتحه أبي .

ربما المسرحية . ربما الخصام . ربما وجه أبي . لا أدري . لم أنذهل لرؤية والدي وقد غدا شيخاً . كنت أعرف أنه كان شيخاً . لم أنذهل لحقيقة كونه ثملاً . كنت أعرف أنه يعاقر الخمرة - مع أن كاليب كان يؤكد دوماً أن والدي سيتخلى عما قريب عن طرق الخطايا ويأتي إلى جادة « اللـه » . « أت بأعبائك إلى اللـه واتركها هناك ! » فكرت بذلك ، وحدقت في خديه الغائرين . ما الذي سقط فوق ذلك الوجه كي يجعله غائراً بهذا الشكل ؟ ما الذي جرى لعينيه ؟ عينا حيوان يختلس النظر من أحد الكهوف . تناهى إلى مسمعي وقع أقدام كاليب ، في الأسفل ، كانت خطواته بطيئة وواثقة ، مثل الغضب الإلهي ، مرت ثانية قبل أن يتعرف إلي ، ثم ابتسم ، يا إلهي ، كم تغير تغير وجهه ، أي نور شع فيه ، جرني إلى داخل المنزل بيد واحدة ، استدار صائحاً : « أيتها العجوز ، انظري ، من هنا ! الآن ، أعرف أنك ستشفين ! » .

جرني إلى حجرة المعيشة ، حيث كانت والدتي جالسة على الكرسي المريح ، مغطاة بالبطانيات . كانت ساكنة تماماً . يداها في حجرها ، تتطلع إلى الخارج . ما إن سمعت صوته حتى التفتت . كان وجهها شاحباً كالملح ، وعيناها مثل زبيبتين ، كان شعرها ملفوفاً فوق سمت رأسها ، يمسكه مشط ، كان شعرها جافاً كالحجر ، وكان معتماً أيضاً . ابتسمت ، مدت ذراعيها قائلة : « يا ولدي الرءوف ، أنا جالسة هنا ، وأفكر بك . أين كنت يا ولدي ؟ » .

سمعت وقع أقدام كاليب في الرواق الخارجي ، وهرعت إلى أمي وقبلتها . كانت تعبق برائحة الشيخوخة . عانقتني بحرارة ، كنت قلقًا . وأخيرًا قدر لي أن أتفرس في وجهها ، وابتسمت في وجهها حين دخل كاليب الغرفة . مهما كانت مشاعري نحو أمي ، أمي البيضاء تقريبًا ، أمي الجميلة ، فإن مشاعري هذه تستحوذ عليّ الآن . قلت لها : « ماما ، حبيبتي ، لم تريدين إقلاق الجميع ومضايقتهم بهذه الصورة ؟ ألا تعرفين أننا نحبك ؟ » جلس كاليب على الكنبة . لم أنظر إليه إلا أنني عرفت أنه اتكأ ودفع قبعته إلى مؤخرة رأسه .

قالت : « لا شيء يضايقني غير الشيخوخة والقلق . إني مشتاقة لرؤيتك . ما الذي تفعله الآن ؟ » .

عليّ أن أخبرها . تمنيت أن تفهمني . كان أبي يقف ورائي وكاليب يراقبني . قلت لها : « ماما ، أنا أمثل في مسرحية » . تأملتها . « في مسرحية ممتازة . ماما ، يخيل لي أنني سأكون ممثلاً ممتازًا وأجعلكم جميعًا تفخرون بي . ماما ، كنت أتمرن طوال النهار ، يوميًا من العاشرة صباحًا وحتى العاشرة مساء ، بعدها أعمل طاهيًا طوال الليل في مطعم المشويات ، الذي أشتغل فيه من مدة ، كما تعرفين ، وأقدم الخدمة للزبائن ، ولهذا السبب لم آت لرؤيتك » . راقبتها . لاذت بالصمت برهة . ابتسمت لي . كانت ابتسامة في غاية السرية ، لم تكن مقصودة للرجلين الآخرين في الغرفة ، وقد كنت أعرف ذلك . قالت : « ليو ، كم يبلغ عمرك الآن ؟ » .

أجبتها : « أمي ، أكاد أبلغ السادسة والعشرين . الآن ، عليك أن تعرفي ذلك » . وبعد لحظة ضحكتْ فضحكتُ أيضًا وضحك والدي .

قالت : « ستة وعشرون » ونظرت إلى والدي لحظة ومن ثم أرسلت نظراتها عبر النافذة . « يبدو ذلك كالحلم » . تأملت وجهها ، الذي أمست عظامه الآن أكثر بروزًا ، وأمسى أكثر جمالاً . نظرت إلى الخارج وكأنها تنتظر أحدًا ، نظرت إليّ من جديد وقهقهت مثل فتاة في ميعة الصبا . « ليو ، متى أستطيع المجيء لمشاهدة هذه المسرحية ؟ » .

« نبدأ .. نبدأ العرض المسرحي .. » التقطت كتابي من الأرض وأخرجت ملاحظاتي التي بللها المطر ، نظرت إلى دليل العرض المسرحي ، فجأة أحسست بالزهد ، كان اسمي في الدليل - وجدت الدليل ، لم يكن قد أتلف تماماً وسلمته إليها - « أترين ماما ؟ نبدأ العرض خلال أسبوع » .

نظرت إلى الدليل وجاء والدي ليقرأه من فوق كتفها . قهقهت ثانية وسلمته إياه ، قائلة : « اقرأه ، عيناك أفضل من عيني . اقرأه بصوت عال ، كي يستطيع كاليب أن يسمع » .

وهكذا قرأ والدي : « يقدم مسرحيو كلي هاوس الآنسة بوني ناش .. أظنني سمعت بها من قبل ؟ » هتفت أمي : « أنت تعمل معها ؟ » - « في مسرحية [الذرة خضراء] ، من تأليف إملين وليمز وإخراج قسطنطين رفانيليتو » ، وقرأ أسماء فلان وفلان وفلان ، ويشترك في التمثيل ، وقرأ اسمي وحده في الأسفل في حرف طباعي عريض ، ليو برودهامر بدور مورجان إيفانس. أبي وأمي نظرا إليَّ . قلت لها : « أرأيت ، ماما ؟ أرأيت ؟ » .

طوى والدي الدليل : « أيتها العجوز ، أتحسبين أن بوسعنا الذهاب إلى هناك ؟ » كان يبتسم . لم أعرف مبلغ حبه لأمي .

مصت أسنانها : « الذهاب إلى هناك ؟ أنت تعرف أننا سنذهب إلى هناك . أرسلت بصرها من النافذة ثانية » .

سأل والدنا : « وماذا بشأن كاليب ؟ إنه أخوك . لا أعتقد أن الدين يعتبر الذهاب » إلى المسرح إثماً .

أدركت ، لحظتها ، مع أن والدي لم يقلها لي ، وبالتأكيد لم يقلها لكاليب أبداً ، أن شقيقي سبب له خيبة أمل شديدة . كنت أعرف أن أخي عرف بذلك . تبادلنا النظرات أنا وكاليب ، دفع كاليب قبعته مزيداً إلى الوراء ، قائلاً : « أبي ، أنت تعرف ، أنا لا أذهب إلى المسرح، وهذا هو رأيي الأخير. لقد اخترت طريقي وليو اختار طريقه . الآن ، عليَّ الذهاب إلى بيتي » . ونهض . كانت أمي تتأمله .

قالت : « لكن لا ينبغي لك الذهاب الآن » .

ابتسم كاليب وقال : « ماما ، يلزمني الذهاب إلى عملي صباحًا وعليَّ تقديم الموعظة مساء غد . الآن ، أنت تعرفين ، أنا بحاجة إلى قسط من الراحة . أنت أيضًا بحاجة إلى قسط من الراحة » .

قالت : « أنا على ما يرام » . اندفعت تحت البطانيات ، بعيداً عنه . « أنا مرهقة فقط . لا أعاني من أى شيء » .

تأملها كاليب . ثم ابتسم ابتسامة عريضة ، بدا شبيهاً بكاليب الذى ألفته . لحظة واحدة فقط . وضع قبعته فوق رأسه فى مكانها المناسب « حسنًا . جيد . عليَّ المغادرة الآن . أراك غداً » . ربت فوق رأسي : « ليلة هانئة . أخي الصغير . أنا أحبك دومًا وأصلى من أجلك دومًا » .

أجبته : « ليلة هانئة ، كاليب » .

وغادر . بقيت في المنزل . شربت كأسين مع أبى وأمى . أمضينا وقتًا ممتعًا بعض الشيء ، لكننى لم أبق مدة طويلة لأننى عرفت أن والدتى بحاجة ماسة إلى الراحة ، وأن على والدى الاستيقاظ صباحًا للذهاب إلى عمله . ضمتنى أمى إلى صدرها وقبلتنى . قبلنى والدى أيضًا . لم أعد إلى مطعم المشويات ، بل ذهبت مباشرة إلى البيت ، وارتميت على السرير . دقت الساعة المنبهة فقصدت المسرح مسرعاً .

تجربة قسطنطين كما عُرفت في المدينة بأسرها ، حركت الأجواء بعض الشيء . كان الناس فضوليين بشأنها ، فضوليين بشأن بوني ناش، التي لم يروها من زمن طويل ، فضوليين بشأني ، والذين لم يروني عمليًا من قبل – إن درج اسمي في دليل العرض هو من لدن أفكار (كوني) ، وفضوليين فيما يتعلق بمستقبل قسطنطين رفانيليتو ، حيث بوسعه أن يكون على رأس قائمة لجنة دار أنشطة غير الأمريكيين . كان كوني هادئًا جداً – كان هادئًا ككل ممثل حين يقترب موعد ليلة افتتاح العرض المسرحي . عملنا . كانت بوني ناش قلقة أيضًا ، لأنها ربما تتعرض للمساءلة أيضًا . لا أحد يدرى ماذا سيحصل ، ربما يغلق المسرح قبل العرض الافتتاحي ، لذا كل ما يتوجب علينا أن نفعله هو العمل .

كان نهار اليوم الذي ينتهي بليلة الافتتاح غريباً جداً . يفيق المرء في هدوء تام ، هدوء صباح يوم الحساب . شيء ما خاطئ جداً يقع في مكان ما من العالم ، يصغي المرء باله كي يتذكر ما هو هذا الشيء . لا يرغب المرء بالنهوض من النوم ، إذ أن تلك الرغبة ، على نحو ما ، تتغلب حتى لو كانت النتائج وخيمة . يبقى المرء راقداً في فراشه ، باستقامة وهدوء ، مصغياً بانتباه شديد إلى النهار . أرهفت السمع إلى أصوات الجيران . كانوا في الظاهر يلعبون الورق . شخص ما يضحك مع شخص آخر في الباب الخارجي . سيطرت عليَّ كآبة فظيعة ، أردت أن أتبول أو أن أقفز من السرير بسرعة ، لكنني لم أملك القوة الكافية لأي منهما . لم أشأ النهوض . كنت في السرير الذي نمت فيه مع سالي ، ومن ثم مع ستيف . وقد شهدت هذه الغرفة الفراقين معاً . نظرت إلى الساعة الجدارية . كانت تشير إلى التاسعة . ما الذي سأفعله حتى المساء . المساء . وبعجالة ركضت إلى الحمام . شعرت بالبرد وصرت أرتعش وأنضح عرقاً . لكنني لا أستطيع المكوث في الحمام إلى الأبد . ما الذي أفعله حتى حلول المساء ؟ كل أيامي الماضية ، كل حياتي ، بدت لي وكأنني قضيتها في المسرح . اليوم ليس عندي تمرين ، هذي الليلة سيكون العرض .

ما الذي فعلته ذلك اليوم ، لا أذكر بالضبط . استغرقت زمناً طويلاً في ارتداء ملابسي والخروج من المنزل . وحالما خرجت من المنزل لم يدر بخلدي ماذا أفعل . دخلت كافتيريا وتناولت الفطور . تذكرت نفسي وأنا أحمل الصينية إلى الطاولة ، نظرت إلى الفطور ، بلعت الحليب ، وخرجت . كان الرجل الجالس قبالتي يحدق بي وكأنني مجنون تماماً ، بالتأكيد ، أنا لا أنحي عليه باللائمة . أحسست بصورة طائشة أن هذا اليوم هو آخر أيام حياتي – أخذت سيارة أجرة إلى برودوي ؛ إلى القسم المسرحي من نيويورك ، أي أنني لم أجد الجرأة الكافية للذهاب إلى مركز المدينة حيث يقع مسرحنا . تجولت في هذه الشوارع الوسخة والمخيفة والجميلة – « ليو الصغير ، في الطريق الواسع الأبيض » – وارتكبت خطأً كبيراً بالدخول إلى دار السينما لمشاهدة فيلم يدعى : « ولدي ، جون » . لا أدري لم فعلت ذلك ، إذ لم أكن أضمر أي قدر من الاحترام لعمل ليو مككاري . ولم أكن أتأثر أبداً بسحر الآنسة هيلين هيز . كانت تترك فيَّ ، دوماً ، انطباعاً بصفتها امرأة هرمة . وهي لم تكن طالبة مسرح متألقة جداً ،

بل تناسبها مهرجانات الكريسماس المسرحية ، بالضبط تلك التي تدور أحداث مسرحياتها في موضع ما من فانكوفر . كانت تجعلني دوماً أتذكر مسابقات كرة القدم ، وهنالك طبعاً تعليقات كثيرة عن كرة القدم ، على ما أذكر ، في هذا الفيلم المخجل والمخيب للآمال . كانت مشاهدتي للفيلم أسوأ شيء يمكنني أن أفعله ذلك اليوم . جعلني الفيلم أخجل من البشر وأخجل من مهنتي وفكرت مع نفسي : « يا إلهي إذا كان هذا هو ما سيحصل لي ، فإنني أقسم أنني سأعود إلى مكتب البريد » . كان ذلك شيئاً مخجلاً أكثر من أي شيء أفعله بصينيتي الحقيرة . طفت في الشوارع من جديد ، كي أعثر على رجل شرطة يضرب رجلاً مسكيناً في زقاق ضيق . « ولدي ، جون » . دخلت حانة ، ترددت في طلب كأس ، ثم طلبت قنينة بيرة ، وجلست . كان الوقت الخامسة عصراً . في يوم آخر ، يكون الوقت قد أمسى السابعة مساء . ارتشفت بيرتي . بعد ثلاث أو أربع ساعات أصبح الوقت الخامسة والربع . فكرت في الذهاب إلى ضاحية المدينة لمرافقة أبي وأمي في مجيئهم إلى المسرح ، إلا أنني أدركت أنني غير قادر على القيام بهذا المجهود . الواقع ، ليس بوسعي أن أفعل شيئاً سوى أن أغلي على سطح فرن حتى وقت العرض . كان موعد رفع الستار هو الثامنة مساء ، ويتوجب عليّ الحضور إلى المسرح الساعة السابعة . غادرت المشرب وتجولت قليلاً . تمنيت أن يكون برفقتي صديق كي نتحدث معاً ، أو يكون لي ملاذ فألجأ إليه . شيء فظيع أن تتمشى في هذه الشوارع بهذه الطريقة ، وأنا بكامل ملبسي ، أحمل سري الرهيب ، ألا وهو أنني لم أعد ليو برودهامر ، كما لم أصبح بعد مورجان إيڤانس .

حين دقت الساعة السابعة وصلت إلى المسرح ، كانت تخيم عليه برودة الموت . كان قسطنطين قد تم استدعاؤه من قبل حراس الأمن الأمريكي ، وسوف يذهب إلى واشنطن في غضون أيام قلائل ، قال لي ذلك بصوت واطئ جداً حين دخل غرفة تبديل الملابس . لابد من الاعتراف بأنه حتى هذا الأمر لم يقربني حتى بوصة واحدة إلى العالم الحقيقي . سمعته ، استرعى الأمر اهتمامي ، لكنني سمعته واهتممت بالموضوع من موقع بعيد جداً .

الآن وقفنا كلنا على خشبة المسرح الصغيرة ، مدير المسرح وساعته بيده ، خيم صمت غير معقول . بوني تمسك بدراجة الآنسة موفات ، تطلعت إليّ ، وابتسمت

ابتسامة طفيفة . الفتاة الزنجية جنيفا سمارت ، التي كانت تؤدي دور بيسي ، والتي كانت ممثلة بارعة ، وقفت دون حراك . قال مدير المسرح : « أرجوكم ، كلٌ في مكانه » ، وقفنا في أماكننا . ثم أومأ لي أن أبدأ الغناء : « هناك في الزنزانة » ، ورحت أغني في ذلك الصمت المطبق ، شعرت وأنا ما أزال خلف الستار ، أن شيئاً ما يمشي بوقار إليَّ . الحياة تمشي إليَّ بوقار ، تحملني وتحمل أغنيتي . أنهيت أغنيتي وذهبت إلى جناح الخشبة وقال مدير المسرح بعد لحظة : « الستار » ، فارتفع الستار وبدأنا العرض . بدأ الممثلون المسرحية . لن يظهر مورجان حتى المشهد الثاني .

تأملت المسرحية ، بدا لي أن الأمور سارت سيراً حسناً . بدا لي أن ثمة زنوجاً كثيرين بين الجمهور . بوسعك أن تجزم إن كنت تعرف طريقة رد فعل الزنوج والأشياء التي يتفاعلون معها . ضحكوا كثيراً على الآنسة موفات ، أحبوها وصفقوا لها حين قالت : « هذا الجزء من العالم عارٌ على بلد مسيحي » . كانت بوني في غاية الحيوية وكان تمثيلها ممتازاً وكان جو المسرحية حيوياً جداً ومكهرباً . تقبل الجمهور المسرحية وتفاعل معها . هذا هو الشيء الذي نتمناه دوماً . ثم انتهى المشهد ، واتخذنا مواقعنا ، أنا وأربعة « أولاد زنوج » آخرين وشرعنا نهمهم . ارتفعَ الستار .

منذ ذلك الحين مثلت في مسرحيات عدة ، بعضها أكثر نجاحاً من مسرحية « الذرة خضراء » ، بيد أنني لن أنسى هذه المسرحية أبداً . ليس ثمة شيء يشبه الغطسة الأولى في الماء البارد وإن أياً من الأحياء سيعترف لك بصحة ذلك . حين رفع الستار ، أدركت أنني سأتقيأ ، هنا ، أمام كل هؤلاء الناس . وما إن قلت سطري الأول : « لا ، آنسة » ، حتى أدركت أنني سأتحسن . من خلال ملامح الممثلين ، من خلال ملامح الجمهور . أنا وبوني أدّيْنا دورينا بشكل جيد جداً ، حدثت أشياء جميلة جداً في نهاية مشهدنا في الفصل الأول ، حين قرأت إنشاء مورجان وحركت فيه قدراته الكامنة التي لم يشعر بها من قبل . مثلت المشهد بكل تفاصيله ، بكل ما أوتيت من قدرة ، ولكل الشبان الملونين بين الجمهور – الذين كانوا يحبسون أنفاسهم ، فعلوا ذلك حقيقة .

إنه الصمت الواضح ، حيث أنت والجمهور كل منكما يعيد خلق الآخر - مثلت من أجل ليو الصغير الذى اختفى ، مثلت لأمي وأبي ، مثلت لكل الأماني والآلام الساكنة في داخلي . عرفت أول مرة ، أول مرة ، الجد الخرافي لحظي : أستطيع ، أستطيع ، إذا حافظت على الثقة بالنفس ، أن أحول حزني إلى حياة ومرح . ربما أعيش في ألم وحزن ومعاناة إلى الأبد ، لكنني لو حافظت على الثقة ، لن أكون عديم الفائدة ، لو حافظت على الثقة بوسعي أن أفعل للآخرين ما لم يفعله أحد لي ، لو قيض لي أن أفعل ذلك، لو قيض لي أن أهب لاستطعت أن أحيا. كان الفصل الأول ينتهي بمشهدنا ، وأسدل الستار ، وصفق الجمهور تصفيقاً حاراً . ارتفعت معنوياتنا مع التصفيق الذى عم القاعة بفعل تجربة قسطنطين . جاء مشهدنا الأخير ، أحسب أننا أدينا دورينا بشكل جيد . أعرف أننا مثلناه بشكل جيد . أسدل الستار وسمعنا هذا الهدير الهائل من الجمهور . كان قسطنطين واقفاً في جناح المسرح ، البسمة مرتسمة على محياه . ضمني إليه بحرارة وقبلني وأبعدني عنه ورفع الستار بسبب تصفيق الجمهور الذى دعانا للعودة إلى خشبة المسرح . برزنا واحداً واحداً حسب الترتيب الذى حدد إلينا ، أما أنا فقد برزت قبل الأخير . ليس ثمة تعميد يضاهي تعميد المسرح ، حين تقف هناك مطأطئ الرأس ، يلفك صخب الجمهور . هذه اللحظة لا مثيل لها ، هي لحظة جميلة ومخيفة في آن - ربما يصرخ الجمهور طالباً هدر دمك ، لو فعلوا ذلك فإن أصواتهم لن تختلف كثيراً عن أصوات الاستحسان والتشجيع . انحنيت المرة بعد الأخرى ، بينما كان الفتيان السود من المتفرجين يصفقون ويهتفون ، والتفت كي أجلب معي بوني . جاءت ووقفنا معًا وانحنينا وأسدل الستار وذهبت تاركًا بوني وحدها هناك . رفع الستار وأسدل ، ابتسمت بوني وانحنت . كانت بوني ممثلة محترفة ، وامرأة طيبة الخلق ، مدت يدها إليّ ثانية ووضع كوني ركبته في مؤخرتي ودفعني . كان الجمهور واقفاً يهتف . أنا وبوني انحنينا معاً وأسدل الستار وابتعدت بوني ثم رفع الستار ثانية وأصبحت وحدي أمام الجمهور . تلك اللحظة تساوي كل سنوات الرعب والخوف ، كل سنوات عمري الذى يناهز السادسة والعشرين . عندها فقط أدركت أنني لم أر أمي وأبي بين المتفرجين . كنت أمثل من أجلهما ، أوه ، كم تمنيت أن يفخرا بي ! غير أنني لم أفكر بهما مطلقًا . بدا لنا ، على مدى برهة قصيرة ، أن الجمهور لن

يسمح لنا بمغادرة الخشبة . رفع الستار وأسدل . لا أدرى ما السبب . بدأ نوع من الخوف يطعن قلبى من الداخل. حاولت أن أرى إن كانا هناك. لكنهما لم يكونا هناك . عرفت ذلك . كان ريد وزوجته هناك . شاهدتهما واقفين يصفقان .

أسدل الستار أخيراً . آخر مرة . ودخلنا غرف تبديل الملابس . فدخل علينا عامة الناس أفوجاً أفواجاً . دخل الشبان السود . ودونت تواقيعي لهم أول مرة تقريباً في حياتي . كانوا هناك : أناس من كل الأصناف . قالوا لى أن تمثيلي كان هائلاً . وحدقوا بي بإعجاب : ذلك الإعجاب الذى ينبغى للمرء أن يتعلم التعايش معه . أخيراً : فهو الطريقة التى سينظر بها العالم إليك . دخل ريد . كان وجهه كالنافورة . قبلنى . من غير أن يقول شيئاً . أما زوجته فقد كانت تضحك وتبكى . وقبلتنى . بدا لى وكأن أحد فتياننا هو الذى يضحك ويبكى . مجلة « لايف » كانت هناك . وحددوا موعداً لإجراء مقابلة معي . ولادة نجم جديد – قالوا – يا سلام ! قنبلة الجانب الشرقى . هكذا أسمونى . هيلدا كانت هناك . لم أرها من سنوات . سالى كانت هناك مع الرجل الذى من المقرر أن يصبح زوجها . وصلتنى برقية من ستيف – بحق السماء كيف عرف بأمر المسرحية ؟ – كما وصلتنى برقية من بربارة . التى كانت في الويست كوست « الساحل الغربى » . تمثل فيلمها الثانى . الذى نالت عن دورها فيه كممثلة مساعدة . أول جائزة لها من الأكاديمية . أوه . نعم . نحن الشباب سنكون ممثلين جيدين . غير أن كاليب لم يحضر إلى المسرح . وأمي وأبى لم يحضرا أيضاً .

آنذاك . كان الوقت منتصف الليل . وهو وقت متأخر جداً للذهاب إلى ضاحية المدينة . حيث تسكن عائلتنا . ومتأخر جداً للاتصال الهاتفي بـ « دار الشريعة الإلهية الجديدة » . لذا حاولت أن أبعد كل شيء عن بالي . وتمشيت مع قسطنطين إلى حفلة شخصيات المسرحية . التى أقيمت فى « چاينا تاون » . كنت مرهقاً . كان إرهاقى من الطراز الخاص . المنعش . الذى لا يحسه إلا الممثل . عرفت أن تمثيلي كان جيداً . كان تمثيلي جيداً جداً . يمكننى الإحساس بذلك من خلال زهو قسطنطين الهادئ . لم أخدعه . لم أخدع المسرحية . لم أخدع نفسي ولم أخدع كل هؤلاء الناس الذين أحببتهم يوماً . ولم أخدع كل ذلك الماضى الذى ضمنى إليه كالحبيب . الذى سيبقى يضمنى إليه بحرارة العاشق إلى الأبد .

لا أذكر الحفلة ، غير أنني أذكر وقار كوني وبهجته بالنصر . سكرت بعض الشيء وحاولت مضاجعة جنيفا سمارت ، التي كان لها إحساس جيد في الضحك عليَّ ، ولكن بصورة لطيفة جداً . كتبت عن مسرحيتنا متابعات عديدة وكانت هذه المتابعات استثنائية ، امتدحوني بعبارات جميلة : « ساطع » ، « لا ينسى » ، « ليس ممثلاً متمرساً فحسب ، بل كثير التوابل » - تبا لهذا الوصف . كثير من التعليقات سببت لنا الحرج الخالص ذلك أن قسطنطين قد استدعي للإدلاء برأيه . يقيناً حققنا نجاحاً واضحاً ، من الجلي أننا سنستمر في تقديم أكثر من سبعة عروض . وكما حصل فعلاً ، قدمنا المسرحية طوال ما يزيد على ثمانية أشهر ، وأمسينا حديث المدينة ، وكنت أحياناً معبود الجماهير في المدينة . تعاقدت على أعمال تلفازية . تعاقدت على فيلم سينمائي . غنيت في النوادي الليلية وسجلت بعض الأغاني على أشرطة التسجيل . حين انتهى عرض مسرحية « الذرة خضراء » مثلت فيلمي الأول ، بعدها مثلت مسرحية في إنجلترا ، ثم عدت إلى بلدي كي أعيد تمثيل مسرحية « كابينة في السماء » على أحد مسارح برودوي ، والتي كانت نصراً شخصياً هائلاً بالنسبة لي . حققت أمنيتي . أتذكر الماضي وأتعجب كيف ذللت كل العقبات التي وقفت في طريقي .

لكنني في صبيحة اليوم التالي للعرض الافتتاحي لمسرحية « الذرة خضراء » ، تسلمت برقية ذكر فيها أن أمي نقلت إلى المستشفى . بينما كانت ترتدي ملابسها لحضور العرض الافتتاحي أصيبت بسكتة دماغية فسقطت مغشيا عليها ولم تستعد وعيها بعد ذلك ، وانتقلت إلى جوار ربها بعد يومين . تحدث كاليب في مأتمها ، وغنت جوقة المنشدين « تنح يا نهر الأردن » . كان والدي جالساً هناك . كانت تلك هي أول مرة أرى فيها والدي يدخل كنيسة . وعليَّ أن أعترف ، مع أنه رجل هرم ، وبرغم كونه وحيداً تماماً الآن ، وبرغم كل محاولات كاليب في إهدائه سواء السبيل ، فإنه لم يرعوِ أبداً . استمر في سلوكه المألوف ، يقف غالباً في الشارع المشجر ، مصغياً لأحاديث القوميين السود ، كان زبوناً مخلصاً لكشك كتب القوميين السود . بعد أن التقيت كريستوفر ، كانا يمضيان هو وكريستوفر ساعات طوال ، يستحضران إمبراطوريات السود في الماضي ، ويحددان زمن سقوط إمبراطوريات البيض في الحاضر . كان ذلك شيئاً حسناً بالنسبة لوالدي ، الذي يحب كريستوفر حباً جماً ،

وكان شيئاً حسنًا بالنسبة لكريستوفر أن يجد رجلاً كبير السن يمكنه أن يمحضه الثقة وأن يكون محط إعجابه . وحدى أنشدت أغنية لأمي المرحومة ، أغنية كانت تنشدها لي غالبًا : « ماري ، ماري ، أي اسم ستطلقينه على ذلك الطفل الجميل ؟ » .

غادر بيتي بعد الغداء بوقت قصير جداً ، أما أنا وبربارة فقد بقينا جالسين أمام النار ، كنا هادئين ، وفكرت فجأة ، تقريباً بأننا أشبه بعجوزين .

أرسلوا البرقية والحوالة البريدية إلى كريستوفر ، بينما كنت أغمر جسدي بماء مغطس الحمام .

سألتني بربارة : « كيف تشعر الآن ؟ » .

« على ما يرام . نعسان . كالهر » .

« أنت تشبه أحد الهرر. متقوقعاً على نفسك هكذا. هر متعب، عاد أخيراً إلى البيت » .

« لكن ليس هراً مخصياً ؟ »[1] .

قهقهت بربارة : « أوه ، لا . أعرف أن هذا سببه خوفك . هذا الخوف لم يكن مشكلتك من قبل » .

« لكني يا بربارة ، سببت لك مشاكل عدة ، أليس كذلك ؟ » .

« لا أشك أنك ستسبب لي مشكلة جديدة ، يا ليو » ، قالت باسمة . ثم أكملت قائلة : « أنا أيضًا سببت لك مشكلة ، لكننا تجاوزنا ذلك وسوف نتجاوز ذلك مستقبلاً » . توقفت عن الكلام . « إن قصتنا التي عشناها باختيارنا لا تشبه قصة أي اثنين آخرين . لكني أسائل نفسي ، بربارة ، أكان بوسعك تغيير مجريات القصة ؟ أتقدرين ؟ عليّ أن أدرك أنني لم أقدر . وهكذا .. هذا هو كل ما في المسألة » . نهضت بربارة ، وقبلتني في جبيني . « والآن ، يا مريضي العزيز ، عليّ أن أعيدك إلى السرير . عليك أن تنام حتى تفيق من تلقاء نفسك .. أي ألا يوقظك أحد . أنا مدعوة إلى مأدبة غداء ، سيكون بيتي هنا صباحاً والخادمة ستكون هنا ، أيضاً » .

(١) وردت في النص الأصلي كلمة Spayd وهي تعني يخصي أنثى الحيوان بإزالة مبيضها، ويبدو أن الكاتب أراد أن يثبت مفارقة مضحكة . (المترجم)

« حسنًا ، يا أميرة » . قمت . عليّ أن أقول لها بصراحة : « كنت أعتقد أنك ربما تخشين قليلاً رؤية كريستوفر ثانية » .

قهقهت بربارة : « لا والله العظيم . كيف أخشى شيئًا أو إنسانًا ، يا ليو ، بعد كل سنوات الكفاح تلك التي قضيناها معًا ؟ » تبدلت تعابير وجهها . « ما حدث بيني وبين كريستوفر حدث بسببك أنت . كلانا يعرف هذا . كلانا يحبك يا ليو . كلانا يعرف هذا . الآن ، اذهب إلى سريرك » .

تبادلنا القبلات - كأخ وأخت . قلت لها : « طابت ليلتك » .

دلفت إلى حجرة نومي ، خلعت ملابسي ودخلت الفراش . رأي بربارة صحيح : كنت مرهقًا . كنت أشعر بهدوء وسلام ، بعد تلك الحياة العاصفة طويلة الأمد . بذلت بربارة مجهوداً شاقًا ونادراً . وكأنها عرفت أنني بحاجة إلى مجهودها ، وسأحتاجه في المستقبل ، رتبت حياتها بصورة ما بحيث يكون موقعي فيها غير معرض للخطر . هذا الموقع الذي أحتله ربما كلفها كثيراً من خلال رفضها للآخرين بصورة لم تخبرني بها قط ، وربما كانت ستكسب أكثر لو أنها وافقت عليهم بصورة لا يعرفها أحد قط . إن الأخ والأخت المتهمين بالسفاح لن ينجبا طفلاً على الإطلاق . أما نحن فربما نهب العالم طفلاً ، أو نساعد في فتح العالم أمام الطفل . إن العشاق الأوفر حظًا منا لم يتدبرا أمرهما مثلما فعلنا نحن . ملأ ضوء الشمس الحجرة . سمعت أصوات كثيرة ، خافتة ، ضاحكة ، في الحجرة الواسعة ، الرحبة . ساعة يدي تشير إلى الثانية عشرة وخمسين دقيقة . مضيت إلى النافذة وفتحت مصاريعها . كان نهاراً ساطعًا . بغتة اجتاحتني رغبة عارمة في أن أكون في الخارج ، وسط النهار . دخلت حمامي ، ونضوت عني ملابسي ووقفت تحت دش الماء . لسبب ما ، تذكرت « زقاق الجنة » . ضحكت مع نفسي ، غنيت ، ارتديت بلوزة صوفية غليظة وسروالاً فضفاضًا ودخلت الحجرة الواسعة . كان بيتي جالسًا على الكنبة ، يضحك ، كانت بجنبه حقيبة يدوية ، وكريستوفر ، مديد القامة ، أسود ، يرتدي بذلة سوداء ، يتحدث في الهاتف .

قال بيتي : « انظر ، من هنا ! » .

نظر إليّ كريستوفر وقال : «خرج تواً من غرفته ، نعم هذه اللحظة . يبدو على ما يرام . بوسعي القول إنه لا يشكو من شيء عاني منه سابقًا . أنتم يا ناس تبالغون كثيراً . والله . إذ جعلتموني أتجشم عناء السفر . أتعرفين كم هي المسائل التي اضطررت لإلغائها كي أصل إلى هنا ؟ عار عليكم ! عار . نعم . هذا ما قلته . ماذا ؟ » ضحك ثم أكمل حديثه في الهاتف : « طيب . تريدين مني أن أحكي لك كل هذه الأمور حين أراك ؟ لا . أنت لا تريدينني أن أفعل هذا . لا . أنت لا تريدين . نعم . العنوان عند بيتي . سنكون هناك . ماذا ؟ طبعًا . إنه يرغب بالمجيء . فليس عنده شيء آخر يشغله . ألا تدرين أنني هنا الآن ؟ أنا طبيبه . لا أعرف لِمَ لم تبعثي في طلبي قبل الآن . نعم . مع السلامة . أتمنى لك مأدبة غداء لذيذة . سمعتني . لا تجعلي هؤلاء القوم يسخرون منك . أنت رائعة الحسن ولطيفة . الآن لِمَ تقولين شيئًا كهذا ؟ أنت تجرحين مشاعري يا بربارة . نعم الشقيق الأكبر كريستوفر في المشهد الآن . يا بنية . مع السلامة . أراك فيما بعد » . وضع سماعة الهاتف وابتسم . مد إليّ ذراعيه . « تعال إلى هنا . يا أبانا الكبير . تبدو وكأنك لست على ما يرام . لن أجعلك تغيب عن ناظري بعد الآن . حالما غبت عن ناظريّ . ذهبت بعيداً وهويت على وجهك أمام عشرات الملايين من الناس . عارٌ عليك ! » ضمنيّ إليه . عانقني وقبلني . « أنا سعيد برؤيتك . يا غلام . افتقدتك كثيراً » .

قلت له : « أنا . أيضاً . افتقدتك . كيف حالك ؟ تبدو على ما يرام » .

« أنا على ما يرام . الناس عليلون . أما أنا ففي حال جيدة » .

قال بيتي : « كريستوفر الأسود ! » .

أجاب كريستوفر: «نعم يا فتي . أسود مثل كينياتا[1] . ومثل كل هؤلاء القوم» . ضحك ثانية . « خير لك أن تصدق أنني أسود » .

قلت : « يصعب أن يشك بك المرء حين تقولها بهذه القوة » .

رد كريستوفر رأسه إلى الوراء . « إذا مر بظرف عصيب سابقًا فهو الآن في حال جيدة . أنا أعرف ملاحظاتك الساخرة الصغيرة . أنت تعني . إذا لم أقل لك أنني أسود . فلن تعرف ذلك . أنا سمعتك » .

(١) جومو كينياتا : الرئيس الكيني الأسبق . (المترجم)

شيء حسن أن تراه ، يذرع الحجرة جيئة وذهابًا بقامته المديدة ووجهه شديد التألق .

سألني پيتي : « ماذا تريد أيها الرجل العظيم ؟ أتريد شيئًا من القهوة ؟ أأنت مستعد لتناول الطعام ؟ » .

قال كريستوفر : « لا ينبغي له تناول القهوة ، فهي مضرة بقلبه . ليشرب عصير البرتقال أو عصير إحدى الفواكه » .

فرد پيتي بتواضع : « حسبته يرغب بشرب شيء ساخن » .

« طيب ، دعه يشرب شيئًا من الكاكاو أو الأوفالتين . لا يجدر به أن يشرب القهوة أو الشاي » .

قال پيتي لي : « أعتقد أن ذلك سيسبب لك مشكلة » .

سألت : « ألا نستطيع أن نحل المسألة حلاً وسطًا ، فنعد القهوة مع كثير من الحليب فيها ؟ » .

« هو قلبك » قال كريستوفر ، ثم أرسل نظرة من خارج النافذة ، وابتسم وتورد خجلاً . « تأكد فقط من وضعك كثيرًا من الحليب في الكوب .. اللعنة ، سأفعلها بنفسي ، لن تجيد ذلك » . وفجأة غادر الغرفة .

سألت پيتي : « متى وصل إلى هنا ؟ » .

« قبل ساعتين حتمًا . حزم حقائبه فور وصول البرقية . أخبرتك أنه سيكون هنا إذا كان بحوزته قليل من الرزق » .

قلت له : « لطف منه أن يأتي إلى هنا » .

أجاب پيتي : «نعم، وبخاصة إذا عرفنا أنه يتعين عليه الذهاب إلى أماكن عدة» .

قلت : « حسنًا ، پيتي » .

« أنا أقصد ، ألا تطيل التفكير بالأمر وتعتبره تضحية جسيمة أو شيئًا من هذا القبيل . هي ليست تضحية بالنسبة لفتى أن يأتي إلى سان فرانسيسكو أول مرة لمشاهدة أحبته . إذا كانت في بالك تفاصيل كهذه فلن تستعيد عافيتك وتصبح فتى يافعًا ، إذا تخليت عن التفكير في هذه الأمور فسوف تكون بربارة ونحن جميعًا في ظرف أكثر راحة » .

« هل أخضعتكم إلى ظرف عسير ؟ » .

ضحك بيتي : « الآن ، إذا قلتُ أجل ، فما الذي ستفعله ؟ تقفز من النافذة ، أم تذهب بعيداً فتصيبك نوبة قلبية ثانية ؟ » ضحك ثانية . ثم استدرك قائلاً : «أنت أخضعتنا إلى ظرف عسير حين كنا نراك تمر بظرف عسير . هذا هو كل ما في الأمر . لن تقدر أن تخفي عنا شيئًا ، ويقينًا ليس في جعبتك ما تريد إثباته لنا . نحن نعرف أنك ليو برودهامر . أنت لا تعرف هذا» .

تأملته . لم يكن يبتسم الآن . جلست على الكنبة . جاء كريستوفر محدثًا قعقعة ، حاملاً زجاجة حليب بيد ، يوازن كوبًا وصحنًا صغيراً باليد الأخرى . وضعها كلها على الطاولة ، أمامي ، وقال وهو ما يزال واقفًا بقربي : « الآن ، لنر ما هو رأيك بكثير من الحليب .. وضعت فيه ملعقتين من السكر ، إلا أنني لم أحركه » .

بما أن الكوب يحوي أقل من نصفه على القهوة ، فإن خياري الوحيد هو ملء الكوب . حركت السكر قليلاً ، ثم تذوقته . تأملني كريستوفر . قلت بوقار : « جيد جداً شكرًا لك » .

تأملته بارتيابه العميق والساخر . جلس على الكنبة ، ووضع كفًا على ركبتي . سأل كريستوفر بيتي قائلاً : « ماذا يجري في هذه المدينة ؟ » .

أجاب بيتي : « أوه ، تجري في المدينة أشياء كثيرة جداً . من البغاء إلى تعاطي المخدرات إلى الحقوق المدنية إلى تحديث المدينة . أي مشهد تود أن تتعمق فيه ؟ » .

سألته : « كيف ذكرتها متفرقة ؟ » .

ضغط كريستوفر بقوة على ركبتي قائلاً : « المومسات ومدمنو المخدرات يميلون إلى الكلام القليل . الآن ، كان بوسعك أن تتذكر هذا لو لم تكن سقيماً » . أدار ظهره لبيتي .

« حسناً ، ليس بوسعنا أن نجعل أبانا الكبير يشرح لنا المشاهد ، لذا بوسعك أن تهدئني وسأشرحها لك بنفسي » .

قلت : « هذه المدينة ليست جميلة كما تبدو أول مرة » .

سألني كريستوفر : « أتريد أن تلقي في قلبي الرعب ؟ حاولت ذلك في مرة سابقة . أتذكر ؟ » ابتسم وأرغمني على الابتسام . « ظننت أنك حفظت درسك . آه . ربما ينبغي لي أن أذكرك ثانية ، في المستقبل » .

تأملته بينما كان يتحدث إلى بيتي ، تأملت أسنانه الكبيرة ، يديه الضخمتين ، أصغيت إلى ضحكته . كان يبدو صريحاً بصورة لم أبد عليها من قبل ، بصورة لم أكن عليها أبداً .

إن رجلاً متقلب الرأي مثلي لن يكون مناسباً لفتًى مخلص ، وفيٍّ مثل كريستوفر . حين التقاني كريستوفر أول مرة ، قرر أن يحتاجني : وهذا هو كل ما في الأمر . هو يحتاج إلى ذراعين آدميتين تضمانه ، كان بوسعه أن يرى بأم عينه ، مهما كان حديثي إليه ، أن ذراعي خاليتان ، وهذا هو كل ما في الأمر . إذا كنت أنا خائفاً من حكم المجتمع فهو لم يخف أبداً : « تبًا لهؤلاء المرضى . أنا أفعل ما يحلو لي » . أو يقول ضاحكاً : « أنت تخشى أن يناديك هؤلاء القوم بالشيخ البذيء . طيب . أنت شيخ بذيء . أنت شيخي البذيء ، صح ؟ يعجبني الشيوخ البذيئون » . وقال بنبرة مختلفة : «أنا لا أرغب بأن أكون في هذا المكان، فالجميع جياع وباردون ووحيدون. لا ترهقني ، يا فتى . ضاجعني . كن لطيفاً معي» .

التقيت كريستوفر أول مرة في حفلة ، كان لقاء قصيراً ، أثناء تمريني على أحد الأدوار المسرحية ، ولم أره إلا بعد العرض الافتتاحي للمسرحية . حين واصلنا عرض المسرحية ، وثب وجهه أمامي ثانية ، كما يثب كلب جائع حين تفتح له باب السرداب .

رأى أحدنا الآخر في حفلة أخرى ، في ساعة متأخرة من الليل ، في أطراف المدينة ، حيث لم أعد أسكن هناك . لم أذهب إلى هناك إلا ما ندر . كدت أموت من التعب والإعياء ، في الصباح درس ، بعده عرض نهاري للمسرحية ، ثم العرض الليلي للمسرحية . ثم أحتسي شرابي في حجرة تبديل الملابس مع مندوب التلفاز ، الذي يريد التحدث إليَّ بخصوص ظهوري كضيف شرف في مسلسل تلفازي سيئ - قال إنه ربما يكون ذلك خرقاً للمألوف . بعدها ألفيت نفسي في سيارة أجرة وما إن تحركت بي حتى أدركت أنني لا أملك فلساً واحداً . طلبت من السائق أن يأخذني إلى حانة قريبة من شقتي ، حيث يمكنني أن أصرف صكاً . ثم بدت لي فكرة حضور الحفلة وأنا في حالة الإرهاق الشديد وبسبب قربي من الشقة ، بدت لي فكرة مستحيلة . دخلت الحانة ، صرفت الصك ، دفعت الأجرة للسائق ، وعدت إلى الحانة كي أشرب شيئاً . كانت الحانة بشعة ، روادها كئيبون . دخلت حجيرة الهاتف كي أتصل بمضيفي وأخبره باعتذاري عن المجيء .

لكن هذا صديق من زمن الخطيئة . كان حسن السلوك معي ، وكان زنجياً ، لم تكن حياته تسير سيراً حسناً . تنهدت حين سمعت نبرة صوته : « كنا بانتظارك . بالطبع ، الوقت ليس متأخراً جداً ، هل تمازحني ؟ ثمة أناس هنا يريدون اللقاء بك . كانوا ينتظرونك طوال المساء . اركب سيارة أجرة وتعال فوراً ، بوسعك أن تدخل إلى هنا مباشرة » .

أخبرني كريستوفر فيما بعد أنه كان على وشك المغادرة حين رن جرس الهاتف ؛ كنت أنا على الهاتف ، كان ينتظرني . انتظرني الجميع ، حين دخلت الحجرة بقيت أحدق به وحده ، قدمني إلى الناس ، الذين تطلعوا إليَّ بنوع من الاحترام الحذر وكأنهم يرحبون برباح[1] أو بأسد سمح له بمغادرة قفصه هذا المساء ، بعض الناس شاهدوني في المسرحية ، وهنأوني على تمثيلي . قالوا لي المديح ، كالعادة ، ثبطوا عزيمتي كالعادة . تذكر أحدهم الدور الصغير الذي أديته في أحد الأفلام قبل ما يزيد على عشرة أعوام . كنت في مقتبل العمر آنذاك ، لكن هذا الأمر جعلني أتذكر أنني لم أعد صغير السن . وكنت أتأمل الغلام الذي كان يتأملني .

(١) الرباح : سعدان أفريقي أسيوي ضخم قصير الذيل ، قبيح المنظر . (المترجم)

إن الممثلين الذين يقبلون بتأدية أى دور مهما كان ، هم مرغمون على ذلك : ويكونون عادة معرضين لانتقاد شديد . وسرعان ما يكتشفون أن ظهورهم في تلك الأدوار يجعل منهم هدفًا ، ولن يجعلهم محبوبين بالمرة . فقد نصبت لهم الفخاخ وهم في تلالهم العالية . هم لا يستطيعون الهبوط . هم لا يقدرون على تحمل العتمة مثلما لا تتحمل بعض الكائنات الضياء – الموت ينتظرهم حين يهبطون الهضبة .

قال كريستوفر : « التقيتك قبلاً . أتذكر ؟ » يده التي أمسكت بيدي كانت ضخمة جداً ويابسة ، شيء ما من التيقظ العصبي لوقفته ، والأمل الحذر في عينيه جعلاه يبدو وكأنه يستعد للجري . إن صراحة رعبه جعلتني أبتسم . حسدته .

قلت : « بالطبع . كيف أحوالك ؟ » .

أجابني بمرح شديد : « أوه ، كنت على ما يرام » . كانت له لكنة جنوبية طفيفة . لم أنتبه إليها قبلاً . « أوه . تهانينا . حققت مسرحيتك نجاحاً باهراً . هي مدار حديث الناس كلهم » .

أجبته : « شكراً . يبدو أننا سنستمر في عرض المسرحية مدة من الزمن » . أردت أن أسأله ما إذا كان قد شاهد المسرحية أم أنه يرغب بمشاهدتها ، إلا أنني لسبب ما لم أسأله .

قال بعد لحظة : « لذا . أعتقد أن هذا هو عملك الوحيد ؟ تمثلها على المسرح ، وتمثلها في البيت ؟ » .

« وإحداث ضجة خلال تقديم حفلة بين حين وآخر » .

ضحك ، إلا أنه نظر إليّ نظرة تأمل قصيرة الأمد . « حتماً أنا متعب . أليس لك أحد يحارب الدنيا كلها من أجلك ، كي يحميك من أناس تافهين كهؤلاء » – أشار إلى الجالسين في الحجرة – « ومن شاب تافه مثلي . أليس لك أحد يرغمك على العودة إلى المنزل لتقضي الليل معه ؟ » .

قلت بحزن : « لا ، ولا حتى فرداً واحداً » . وضحكنا معاً .

« عار عليك . لا يجدر بك أن تتجول بمفردك ، أنت إنسان عظيم الشأن .. أنا لا أمزح . بل أعني ما أقوله . هذه المدينة ملأى بالمرضى من شتى الأصناف » .

« حسناً . أظنني التقيت معظمهم الآن . لذا فأنا في أمان » .

قال بدقة خاصة بصورة مغامرة : « إذا كان هذا هو رأيك . فأنت مجنون حقاً » . ثم أضاف مستدركاً وكأنه يحدث نفسه : « أنت فعلاً بحاجة إلى إنسان يرعاك .. يا رجل لم لا تتخذني حماية لك مقابل أجر . فبهذه الطريقة . يكون مستقبل المسرح الأمريكي أكثر إشراقاً » . قال ذلك باسماً . لكن مع نظرة عنيفة . مدروسة . جذابة . وكأنه يقول : [هذا صحيح يا ماما . أنا أكافح من أجل النجاح في المهنة] .

كنت ما أزال متأثراً بصراحته . إلا أنه بدأ يخيفني . مشينا إلى النافذة . كانت عالية . كانت ليلة زرقاء - سوداء . رحنا نرنو إلى الهلال الوحشي والكواكب الصابرة وإلى نيران منهاتن .

« انظر إلى ذاك » . قال لي ووضع كفاً ضخمة تحت مرفقي ثم أضاف : « انظر إلى ذلك . أليس هو غاز ؟ من مكان عال جداً كهذا يبدو أشبه بمكان يصلح لسكنى البشر » ثم تطلع إلى الأسفل . رفع يده عن مرفقي . « لكن حين تكون فوق ذلك الأسمنت البارد . بوسعك أن تولول وتجأر بأعلى صوتك من غير أن يسمعك أحد » . ثم ابتسم . « لكنك لا تعرف شيئاً عن ذلك . صح ؟ أنت لم تجتز هذه الشوارع . أنت تمر بها راكباً . أنت ترى الناس الشبيهين بي من خلال الزجاج فقط » .

« أنا أت من الشوارع . صحيح أنا أركب السيارات حالياً . لكنني اعتدت السير فيها . لا تعتبرني أرفع منك مقاماً . لعلي أقل منك منزلة » .

« حسناً . لا تغضب . وددت فقط أن ألفت انتباهك لما يجري في الشوارع . لا أتمالك نفسي ! كل الذين أحبهم أفعل هذا معهم » .

أدركت ما قاله . سمعته : بدا كما لو أنه يدس إليَّ ملاحظة مكتوبة على ورقة . علماً بأنه يعرف بأنني لن أقرأها حتى أختلي بنفسي . لكنه متيقن من أنني سأقرأها حتماً . لم يعد ينظر إلي الآن . بل راح ينظر عبر النافذة. ولكي يعيدنا من المكان الذي ذهبنا إليه . ولكي يحملنا إلى مكان أبعد . قال الآن (بينما رحت أنتبه إلى أن بقية الحاضرين في الحفلة كانوا يراقبوننا . وأقول لنفسي عليَّ أن أدور في هذه الغرفة ومن ثم أخرج منها) : « قال لي أحدهم إن لم تنعكس أنوار الأرض في السماء. فلن يقدر أحد قط على التحديق في السماء . ستكون مرعبة جداً . فكرت في ذلك مرات كثيرة . أنا لا أعرف إن كان هذا صحيحاً » .

له : « أعتقد أننا لن نعرف . حين تغيب الأضواء عن الأرض ، سنتلاشى أيضاً » .

قال : « حسناً » وضحك ثم قال : « يقيناً أتمنى ذلك . حتماً أنا لا أرغب بالبقاء وحيداً هنا ، في العتمة » .

كانت ثمة فكرة حزينة في مقولته الأخيرة ، لم أشأ ملاحقتها . سألته : « من أي ولاية أنت ؟ » .

« حسناً ، الواقع أنا ولدت في نيوجيرسي لكنني ترعرعت في نيويورك .. ترعرعت في هارلم » .

« أي مكان في هارلم ؟ إنه الحي الذي عشت فيه » .

إلا أنني عرفت أن هارلمه ليس هارلمي .

« كنا نسكن في الشارع رقم ١٣٤ » .

« أما نحن فكنا في الشارع رقم ١٣٦ » .

« حسناً ، اللعنة ، أنت أحد فتيان الجيران ، إذاً .. لا أعرف إن كنت قد رأيتك من قبل .. » .

« لا . لابد أنك كنت حينذاك غلاماً بشع الأنف » .

قال : « نعم » . وتطلع إلي بغرابة . « أظن هذا . لم تكن اهتماماتنا متشابهة .. كنت كثير المشاكل » . أومأ إلى الغرفة . « بتلك الطريقة التقيت فرانك » . كان فرانك مضيفنا ، عاملاً اجتماعيا[1] . « كان يعرف الضابط الذي يراقبني . وأسدى لي عوناً كبيراً »[2] .

(١) العامل الاجتماعي : من يعمل في دراسة أحوال المعوزين وضحايا التمييز الاجتماعي ويسدي العون المادي لهم . (المترجم)

(٢) المقصود هنا ضابط يعين لمراقبة سلوك المذنبين الذين علقت عقوبتهم وأطلق سراحهم على سبيل التجربة . (المترجم)

لم أشأ أن أسأله لماذا كان يخضع للمراقبة ، أولاً لأنني لا أود معرفة ذلك ، وثانياً لأنه سيخبرني يوماً بذلك .

قلت له : « إذاً ولدت في نيوجيرسي وترعرعت في نيويورك ، فكيف اكتسبت هذه اللكنة الجنوبية ؟ » .

ابتسم ابتسامة عريضة : « ليس لي لكنة حقيقية » . حدق بي . « التحقتُ بمدرسة إصلاحية في الجنوب . بعدها صاحبت مومساً من ميامي ، كنت أصطنع هذه اللكنة من أجلها – كانت تحبذها – وأظن أن هذه اللكنة ظلت ملازمة لي » . بدا عليه شيء من الحرج . قرع على القدح بظفره المقصوص بصورة مدهشة . وأردف قائلاً : « أمور صبيانية » .

قهقهت : « ربما يجدر بك أن تكون ممثلاً » .

أجابني : « ليس أنا . ليس لي طاقة على التحمل أو الصبر الكافي . أنا مفتون بالفضاء » .

كان يومئ إلى تلك الكواكب التي كنا نراها نقاطاً لامعة . تلك الكواكب يمكنها أن تحقق أمنياته : ربما كانت فعلاً كذلك ، لم لا ؟ فالكوكب الذي نقف عليه ليس واعداً تماماً . أما بالنسبة لي فكان واعداً بصورة كافية ، أو أكثر من كافية .

قلت له : « الفضاء الوحيد الذي يثير اهتمامي هو الفضاء الكائن بيني وبين الناس . يبدو لي أن هذا الفضاء غير آخذ بالتناقص » .

بدا وكأنني جرحت مشاعره . قال برقة ملطفة ومربكة : « أنت لا تعني ذلك » . حين قال ذلك ، أشرقت ملامحه ، كما لو أن نوراً انبثق من داخله . « لا تقل كلاماً كهذا . هذا ليس كلامك .. وعلى أية حال ، فأنا لا أصدقك » .

إخلاصه الشديد – صدمني – حيرني ، وشعرت بالارتباك لأنه ضبطني أكذب . بالطبع لم أقصد ما قلته : لقد لفت انتباهه ببراعة لا يقدر على الإتيان بمثلها لنفسه .

« أنا أعتقد بأن ما أعنيه » قلت ، وشعرت بالذنب لأنني عاملته بتكبر وأطعمته سطوره : « هو الفضاء بيني وبين غالبية الناس » .

كان سريع الفهم . قال : « لكن ليس جميعهم ؟ » وبعد لحظة أكمل قائلاً والبسمة ترتسم على ثغره : « ليس كلنا ؟ » .

« لا » – بدأت أفقد الأرضية ، الآن ، أدركت ذلك – « ليس الكل . فقد عرفت بعض الناس اللطيفين جداً » .

قال بهدوء : « أقسم بأنك أيضاً حسن المعشر . أنت إنسان طيب الخلق » .

أحسست بإعياء فظيع . تأملت ملامحه . كان يرنو إلى السماء بدهشة . تأملت يديه المنبسطتين على لوح النافذة الزجاجي ، كيدى اليتيم فى الخرافة ، وقع اليتيم فى المكيدة ، حرم من الدفء والضوء والحب ، على أمل أن يتم الترحيب به ، على أمل إنقاذه من الليل . كان فمه مفتوحاً قليلاً ، كأفواه الأطفال المشردين واليتامى . وقفت ، فى زمن غير بعيد جداً ، كما يقف هو الآن ، وتمنيت ما يتمناه هو الآن . ما الذى آلت إليه أمنيتى ؟ قادتنى أمنيتى إلى هذه اللحظة ، هنا . سمعت صرخته لأنها كانت صرختى . لم يكن يعرف ذلك – لم يعرف أن صرخته كانت صرختى – لكنه أدرك أن صرخته قد سمعت . لذا همهم قليلاً وقرع بأصابعه على زجاج النافذة . شعر أنه عثر على الدرب المؤدى إلى البيت . غير أنى كنت خائفاً . على أية حال ، ماذا يمكننى أن أفعل به ؟ غير أن أرشده إلى دربه ، الدرب الذى سينأى به عنى . مجدى ، ذكائى ، خبرتى كلها أنبأتنى أن الحرية ، وليست السعادة هى الحجر الكريم . لا يستطيع المرء الالتصاق بالسعادة ؛ فالسعادة ، ببساطة ، لا تخضع إلى أى التصاق ، إنه لعمل إجرامى أن يستغل الإنسان حاجات الآخر غير المعروفة وغير المعلنة كوسيلة لأخذه إلى سجن تلك الحاجات ويغلق عليه بالترباس . لكن ، من الناحية الأخرى ، الحجر الذى تمنيت أن أهبه ، كان مجرد حجر ، حافاته تريق الدم ، وثقله هائل .

لما يزال هو واقفاً ، هناك ، بلا حراك . تفاقم إعيائى .

قلت له : « علىَّ أن أخرج من هنا » .

قال كريستوفر : « أعرف أنك تنوى الخروج . أتمنى ألا تفعل ذلك وحدك . علينا كلنا أن نذهب حالاً . حتماً أنت مرهق » .

« يخيل لي أنه يحسن بي أن أتمشى قليلاً بين الحضور . على أية حال ، وبعدها أرحل » .

فقال لي : « أحسب أنني احتكرتك بعض الشيء ، أليس كذلك ؟ حسناً . أنا مجنون . لا أود القول إنني نادم لأنني لم أندم . أنا إنسان شاذ وأناني فعلاً » .

قلت له : « أنا لم أقدرك حق قدرك . أنا هو الإنسان الشاذ هنا » .

« أنت ؟ عليك أن تثبت لي ذلك » .

« ما عليك إلا أن تصدق ما أقوله » .

ابتعدت عنه قليلاً . تبعني . وقفنا عند المشرب معًا ، وملأ كأسي . « أنا ، يا فتى ، ولدت على قارعة الطريق، لذا لم أصدق كلام الآخرين » مس كأسه بكأسي . « أنت تعرف أنني لن أصدقك » .

« خير لك أن تصدقني » .

« أنت تسعى لإفزاعي ؟ » .

« اللعنة . لعلي أحاول إغواءك » .

رد رأسه إلى الوراء وقهقه . قال : « هائل » . ثم استطرد قائلاً : « أتحبني ؟ أنا أحبك ، أعتقد أنك مجنون » .

شيء ما تحرك في داخلي ، أقوى من الذكاء أو الخبرة . « يقيناً ، أنا أحبك . أنا أحبك حبا جماً . أنت تعرف هذا » .

ابتسم بوجهي ابتسامة السعادة الخالصة ، لا يمكنني أن أفكر أن ابتسامة كهذه نادرة . مس كأسي ثانية . قال : « هائل . سوف نحقق تقدماً » . بدا متجهماً . ثم قال بصورة يتعذر كبتها، مثل طفل صغير جداً : « أنت تعرف شيئًا سأسبقك في الإدلاء به ، فأنت لا تملك الجرأة الكافية لذلك ؟ اسمك مرتبط بي دومًا . هذا صحيح . واسمي مرتبط بك أيضاً » .

ابتسمت : « طيب . سنرى » .

عدنا إلى النافذة . الكل تركونا وحدنا ، مع ذلك الجميع يراقبوننا ، أيضًا ، منتظرين فرصتهم . فتاة إنجليزية تجلس على الكنبة ، تتحدث إلى مضيفنا ، إلا أنها كانت ترسل نظراتها إلى كريستوفر وإليَّ . طالبان يدرسان المسرح ، يتجادلان . حول أسلوب ستانسلافسكى ، يمكننى القول من خلال ما سمعته أنهما لم يفهما شيئًا على الإطلاق . كانا يأملان أن أسترق السمع وأن أقاطعهما بأدب ، وربما ، أكتشف أن أحدهما جذاب . لم يكن أى منهما « جذابًا » - إذا ما استخدمنا اللهجة العامية غير المفهومة - أى مجنون يقترح اقتراحًا كهذا سيضرب ضربًا مبرحًا حتى يوشك على الموت . كلا الطالبين قيد التكوين ، على أية حال ، ما الذى يمكنهما أن يقدماه ؟ كانا ، أيضًا ، وحيدين .

تمتم كريستوفر : « متى أستطيع المجىء لمشاهدة مسرحيتك ؟ لا أظننى شاهدت أكثر من مسرحيتين طوال حياتى كلها ، كما أنهما لم تروقا لى كثيرًا . إلا أننى أود أن أشاهدك .. » .

أجبته : « فى أى وقت » . استجمعت الفتاة الإنجليزية شجاعتها ، وراحت تدنو منى . دخل أحد طالبى المسرح الحمام . أما الآخر فلم يعرف كيف يتلافى الموقف ، وبقى ينتظر .

تأخرتْ .

« طيب » . قال كريستوفر بصوت بان فيه الإلحاح الطفولى المكتوم الذى كان علىَّ إدراكه : « بأقرب وقت ممكن ، لا تقل لى فى أى وقت فهذا كلام غير دقيق . هل من العسير الحصول على تذاكر الدخول ؟ .. علىَّ أن ألجأ إلى التوفير الشديد كى أستطيع توفير ثمن التذكرة » .

« لا تكن أحمق » . اتفقنا على ليلة معينة . « بوسعك أن تلتقطنى فى حجرة تبديل الملابس بعد العرض . لنحتسى شيئًا من الشراب ، وربما نأكل شيئًا ما . أتنوى أن تصطحب أحدًا معك ؟ » .

أجاب : « لا » .

خلال تلك الأعوام كلها، كنا، أنا وبربارة، نرى أحدنا الآخر، مع أناس عديدين. كنا يومًا يحسد أحدنا الآخر بعض الشيء على من يصاحبه، ويأسف أحدنا الآخر بعض الشيء بسبب من يصاحبه أيضًا. حققنا اتزاننا الصعب، كيفنا أنفسنا على الطريقة التي تتفتت بها كعكتنا المحلاة، وكنا عادة .. الواقع - أحدنا أو معًا - نجعل من هذه الفتافيت مأدبة نادرة ورقيقة. يستطيع الإنسان أن يعيش زمنًا طويلاً من غير رزق : كلانا اكتشف هذه الحقيقة الآن.

أتمشى في الحجرة التي أبدل فيها ملابسي بعض الأمسيات، قبل رفع الستار، ألمح نفسي في المرآة، أصيخ السمع للأصوات، أصيخ السمع لأصوات البشر، أصوات الحياة في الممرات، ألفي نفسي أقاوم، وأصارع حقيقة أن شيئًا ما جرى لي. أقول شيئًا ما لأنني في الواقع كنت أكره استخدام كلمة حب - فهذه الكلمة ترشني برذاذها كالماء البارد، فتجعلني أحبس أنفاسي وأرتعش. لم يسبق قط أن كان الحب بمثل هذه الوقاحة بحيث يصل إليَّ بهذه الرزمة السوداء، الخطرة، التي يصعب فتحها. على أية حال، لم يكن ذلك هو الإحساس بالحب. لا أدري كيف هو الإحساس بالحب. حين يقع للإنسان حادث ما، فإنه أمر مثبط للعزيمة أن تلاحظ كيف أن الذاكرة، التي كنت معتمدًا عليها حتى ذلك الوقت، تتحاشى، تتراجع، تتلعثم. حين تصل إليك أخطر الرسائل وأكثرها عذرًا. لا يستطيع المرء أن يشتغل عليها (أي الرسائل) حتى إذا كان قادرًا على منحها مغزى ما. ما أحسست به، ما وصل إلى مسمعي، أشبه بأصوات حفلة وحشية تجري في الطابق الأرضي المعتم لدار معتمة، كان أصداء، صور، لحظات - ذكريات ؟ كان أسرع من الذكريات، جاء بصورة مبهمة إلى الضوء ثم تلاشى. أكان ذكرى أم حلمًا ؟ لا أدري. كانت حياتي تهمس لي بشيء ما. أكان ذلك همس الحياة أم طنين أجنحة الجنون ؟ لا أدري. لا أستطيع حتى أن ألوذ بأي رعب يدعونني إليه العالم. كان العالم قد ناداني بأسماء عديدة، وبينما كنت أدرك أن عدم اكتراثي لم يكن عظيمًا أو عميقًا كعدم اكتراث كريستوفر - فهو لم يكن مطلقًا بالقدر نفسه - لم يعد العالم قادرًا على إخافتي بتلك الطريقة. لم يكن العالم مشكلتي. مشكلتي هي « أنا ». جرى لي شيء ما. مرغمًا على الارتياب بتلك البراعة القاسية التي حميت نفسي منها. كنت مرغمًا على الارتياب بما كان في داخلي من محرمات كبيرة، ربما كان الجنس رمزها، وليس مفتاحها.

أدركتْ بربارة أن شيئًا ما جرى لي ، عرفت به فوراً ، عرفت به قبل لقائها بكريستوفر . لم أخبرها به ، لأني كنت أعرف أنها عارفة . لم أخبرها بسبب حياتي - بسبب علاقتي الجنسية المتبادلة ، لكن ، لأنها كانت قد بدأت تنوب ، كان علي أن أدرك كيف جمدت نفسي ؛ ولأني جمدت نفسي جمدت معي بربارة . إن كنت أعيش قصة حب حصراً ، فربما كان عليّ أن أخبرها بذلك ، من غير أن أفكر بالأمر ؛ إذ ليس ثمة ما يقال . لكن الآن .. أوه ، نعم ، شيء ما وقع لي ، والآن ، أول مرة ، والحق يقال ، كانت بربارة فزعة ، وكانت بربارة عارفة بذلك .

كان كريستوفر يلتقطني ، غالبًا ، بعد العرض المسرحي . تارة يلتقيني في الشقة وأحيانًا يصل في اليوم التالي ، وطوراً يكتفي بالاتصال الهاتفي . يومذاك لم أكن لأعرف كثيراً عن حياته ، عدا كونه قد أمضى شطراً كبيراً منها في الطرقات ، أو في العليات ، أو في الأقبية أو على السطوح . لم أود أن أعرف . اعتقدت أن لي سمعة شيقة في الشوارع . بعض الناس اعتبروني لواطيا . بعضهم اعتبرني بطلاً ، بعضهم الآخر اعتبرني مأبونًا، بعضهم اعتبرني لواطيا منحرفًا. بعضهم اعتبرني العم توم[1] . كان ظهوري يؤلمني غالبًا ، لكنني حاولت ألا أفكر في ذلك كثيراً . يقينًا لا أقدر أن ألوم الناس إذا كانوا لا يمحضونني الثقة - لِمَ ألومهم ؟ لم يكونوا يعرفون ما إذا كنت أعبر عن حياتهم ، عن مآسيهم وآمالهم ، وكل ما استطعت فعله كي أجعلهم يشعرون بذلك هو - ربما - أن أفعل ما أقدر عليه ، أن أؤدي عملي .

بين فينة وأخرى يأتي إلى الشقة بعض أصدقاء كريستوفر . كل أصدقائه من السود . غالبًا يكون بعض أصدقائي هناك ، لي أصدقاء كثيرون من البيض . كنت أدرك أن هذا الأمر يجعلني أشك ، في ذلك الحين كنت أشك في كل شيء ، وقد فات الأوان على مداواة القرحة التي سببها الشك . أحببت أصدقاء كريستوفر كثيراً ، كانوا يافعين ، متألقين ، تواقين ، رثّي الملابس ، لا يلفتون الأنظار أبداً : كان يخامرني إحساس ما ، عصيّ على التفسير ، بأنهم يعتبرونني شخصًا غريب الأطوار ، كان يخامرني إحساس بأن الشيء الغريب فيَّ ، في رأيهم ، هو أنهم يحبونني نسبيا، غير

(١) العم توم : شخصية روائية في رواية « كوخ العم توم » ، الكاتبة هارييت بيتشر ستو ، وكذلك في رواية « أولاد العم توم » ، الكاتب ريتشارد رايت . (المترجم)

أنهم لم يتوقعوا أن يحبوني ، ولم يثقوا بمشاعرهم . كانوا أصغر عمراً مما كانوا يحسبون : يأتون غالبًا ببيريات أشبه ببيرية كاسترو ، بلحي أشبه بلحية كاسترو ، بستراتهم الفرائية المقلنسة وبستر صوفية غليظة ، وبسراويل الجينز الخفيفة أو سراويل قطنية متينة ، وجزم ثقيلة ؛ يأتون بشعرهم الأسود الجميل المفتل الملتف حول رءوسهم كالنار والنبوءة – هذا الشعر يجعلني أتذكر ، نوعًا ، الجمال الخارق لغابات المطر – على وجوههم سيماء (كامو) أو (فانون) أو (ماو) ، أو يتأبطون كتاب «أحاديث محمد» ، إلا أنهم كانوا جميعاً جاحظي العيون ، لذا كانوا غير قادرين على أن يثقوا بأحد ، كان عليهم أن يحاربوا باستمرار الحافز الذى يدفعهم للثقة ، يربكهم ، مثل كل الأولاد الآخرين ، اللقاء بـ « رجل عظيم » . كانوا مشاكسين كجميع الأولاد ، ومع ذلك ، حاولوا أن يخفوا ذلك بحياء . كانوا يفخرون بكريستوفر لأنه يعرفني ، وكانوا مسرورين بى لأنى أعرف كريستوفر . كان كريستوفر يسكن معى جزئيا ، وجزئيا مع شقيقته التى لم ألتق بها أبداً . كان بحوزته مفتاحه الخاص ، كانت له حرية استعمال أى شيء فى الشقة ، ودخول أية حجرة من حجراتها . تقبلت ذلك بادئ الأمر لأننى كنت خائفًا إلى حد ما ، على أية حال ، لم يكن بحوزتي ما يستأهل السرقة ، ولم أكن لأبالى بشراء حاجيات كثيرة . لم أكن ميالاً للصرف . وهذه الصفة كانت لا تروق لكريستوفر أبداً . وقد عرفت بعد ذلك بوقت قصير ، طالما أن كريستوفر يسكن معى فى الشقة ، فإن كل ربطة عنق ، وكل مشبك ربطة العنق ، الأزرار المعدنية لأكمام القمصان ، كل ملعقة ، كل دبوس زينة (بروش) ، كل ميدالية ، حلقة ، حذاء ، قميص ، جورب ، ساعة يدوية ، سترة ، كلها كانت فى مأمن كالذهب الذى يشاع عن حفظه فى فورت نوكس .

كنت أترك كريستوفر وأصدقاءه ، عادة ، وحيدين . لم أشأ التدخل في شئونهم . كنت أعتبرهم إخوتي ، كنت أخاهم الأكبر ، لكن ليس ثمة سبب يجعلني أتدخل فى شئونهم . كنت أذهب إلى مكتبي ، وأقرأ ، أو لا أفعل شيئًا ، أتطلع من نافذتي إلى الخارج ، إلى شوارع مانهاتن ، وأسائل نفسى ما الذى جرى لى ويداهمنى الفرح – رويداً ، رويداً – لأن ذلك حصل . ما الذى سأفعله به ، ما الذى سيفعله بى ، لا أدرى . كنت سعيداً بتأمل وجه كريستوفر الأسود ، المتألق ، كنت سعيداً بمعرفة أننى ساعدت فى أن أجعل وجهه أكثر إشراقًا . كان يشعر بالأمان ، كان له صديق ، كان مقدراً حق قدره .

كان بوسعه أن يقول ما يشاء ، بوسعه أن يصبح ما يريد . يلزمني أن أقول إن ذلك شيء جميل جدا ويعني كثيراً : كريستوفر يستلقي على بطنه ، يقرأ طوال العصر ، يجعلني أسهر طوال الليل وهو يمطرني بأقواله وأسئلته المتلعثمة . كان كريستوفر يفرض سطوته بصورة قاسية على أصدقائه ، يلقي عليهم تعليماته . بدءاً بالإرهاب وانتهاء بالجنس ، أو يرقص كريستوفر مع أصدقائه بنين وبنات ، على أنغام آلة التسجيل ، علموني أشياء كثيرة ، جعلوني أسائل نفسي أين كنتُ طوال ذلك الوقت ، جعلوني أسائل نفسي ماذا يعني أن يكون للمرء أطفال . كنت عادة أسترق السمع لأحاديثهم المضحكة ، الجدية ، المرعبة تماماً . كانوا يدركون أنهم سجلوا أسماءهم كي يذبحوا ، على أيدي مواطنيهم ، بتعمد . وراء كل أقوالهم يكمن سؤال واحد هو كيف يمكن أن نمنع أو نتحاشى أو نواجه ذلك اليوم . قال كريستوفر : « لن نذهب بأنفسنا إلى أفران الغاز . لن نسير إلى معسكرات الاعتقال . علينا أن نجعل الأمهات يعرفن ذلك » .

تمنيت أن يسمعهم ممثلوهم الاسميون في واشنطن ، تلك الزمرة الطاهرة من الرجال – هؤلاء الأحفاد الشجعان لرعاة البقر ، اللصوص ، المغتصبين ، القراصنة ، المومسات – كل الذين عملوا في الأسلاك الشائكة اقترفوا جرائم قتل هائلة. أحببتهم . إن كان قد مثلهم أحد ، أو أحبهم الناس الذين اختطفوهم وابتزوهم ، لما كان عليهم أن يقضوا شطراً كبيراً من شبابهم يصنعون خططاً استراتيجية مشكوك في نتيجتها من أجل الحماية الذاتية . حين يطفح الكيل ، أود أن أكون معهم عند الأسلاك – فطالما أنا أسود مثلهم ، إذاً ليس ثمة خيار آخر .

التقت بربارة بكريستوفر ذات ليلة في الحجرة التي أستبدل فيها ملابسي . كنت عصبي المزاج بعض الشيء بسبب هذا اللقاء ، كان لقاءً قصيراً لأن بربارة كانت مرتبطة بموعد . بدت مذهلة تماماً ذلك المساء ، وقد لاحظت أن كريستوفر كان مفتوناً بها . كان كريستوفر يجلس في إحدى الزوايا . كنت قد انتهيت تواً من ارتداء ملابسي ، وكنا نوشك أن نغادر المسرح . كنا أنا وكريستوفر ننوي الذهاب إلى مطعم (داوني) لنتناول شيئاً ما وبعدها نذهب إلى البيت . « لم لا تأتين معنا لتناول العشاء ؟ » .

« شكراً . يعجبني ، لكنني لا أقدر . عندي ليلة " عائلية " . أمي وأبي وأخي وزوجته ، كلهم في المدينة ويرومون دوماً مشاهدة "واحد وعشرون" . وكالبنت المطيعة ، حجزت لهم طاولة هناك . هم لم يشاهدوا المسرحية بعد ، كما ترى ، إلا أنهم سيأتون الأسبوع المقبل .. هم لا يعتقدون أن من " الإصناف " أن يشاهدوها الليلة فقد وصلوا المدينة تواً . كما أنك لم تلتق بأفراد أسرتي ؛ لذا أعتقد أنني سآخذك عنوة .. هم متلهفون جداً لرؤيتك » . ضحكنا معاً . أكملت حديثها قائلة : «هذا تقدم . لا تنتقده» . تطلعت إلى كريستوفر . « مرحباً . اسمي بربارة كنك » .

« أعرف » . قال كريستوفر . نهض على قدميه . ابتسم ابتسامة عريضة ، مد يده مصافحاً بربارة . « اسمي كريستوفر هول » .

تصافحا . « أترغب بالمجيء معنا إلى [واحد وعشرون] ؟ » .

أجاب كريستوفر : « أنا أحب هذا المكان . هذا الأمر متروك لأبينا الكبير هنا » . وضع يده على ظهره ، برهة ، دار بينهما شيء ما ، على مدى ثانية .

تطلعت بربارة إليَّ ببسمة كبيرة ساحرة . « طيب . أبونا الكبير ، ما رأيك ؟ » .

«بربارة ، نحن لا نرتدي الملابس المناسبة لارتياد مكان كهذا . أظنهم سيعترضون على دخولنا » .

غادرنا حجرة تبديل الملابس ، وشرعنا نهبط الدرجات . « كم سيطول بقاؤهم في المدينة ؟ » .

« أوه سيبقون أربعة أو خمسة أيام أخرى ، على ما أتوقع . لا أدري بالضبط » . تمنينا ليلة هانئة للبواب وأصبحنا في الخارج .

« حسناً – أغداً الأحد ؟ بوسعنا أن نتناول وجبة طعام نصف صباحية »[1] .

« أوه . هذا أفضل . سيكون ذلك قصة عظيمة جديرة بأن تروى في كنتوكي » . ضحكنا ثانية . لكن ، أول مرة في حياتي ، أو على الأقل ، أول مرة أتذكر أنها تحدث بهذه الطريقة ، وددت أن أتخلص منها .

(١) المقصود هنا وجبة طعام تقوم مقام الفطور والغداء معاً . (المترجم)

قال كريستوفر : « أأنتِ من كنتوكى ؟ » .

ردتْ : « أجل ، كريستوفر ، أنا من كنتوكى . ما إن أتيحت لى الفرصة حتى غادرتها . هذا شىء حسن ؟ » .

ابتسم ، بارتياك ، وقال : « أنت حتماً تنسجمين معى » .

« أنا أنسجم مع كل أصدقاء [أبينا الكبير] » . التفتت إلىّ . « أتريدانني أن آخذكما معى بالسيارة . أم أنكما ترغبان بالتمشى ؟ » .

« يخيل لى أننا سوف نتمشى قليلاً . إنها مسافة بلوكين فقط » .

« جيد . إلى اللقاء غداً . ليلة طيبة ، كريستوفر » .

« ليلة طيبة . أنا سعيد بلقائك » .

« أنا سعيدة أيضاً » . قالت ودخلت سيارتها ، زمتْ شفتيها بهيئة قبلة . اعتدلتْ فى جلستها وانطلقتْ . أحسست بأننى أخرق قليلاً .

أردف كريستوفر قائلاً : « تبدو طيبة الخلق . وهى الفتاة من كنتوكى » .

« هى فتاة طيبة جدا . لعلها أفضل أصدقائى » .

« أتعرفان أحدكما الآخر منذ أمد طويل ؟ » .

«من سنوات طويلة، لعلها نصف حياتي. عرفتها حين كنت أصغر من سنك الآن».

حين كنا نتمشى ونتأمل الناس ، كان يبدو عليه وهو يفكر بعلاقتى ببربارة التى استمرت سنوات طويلة .

« لِمَ لم تتزوجا إذاً ؟ » .

« عائلتانا عارضتا فكرة الزواج » . قلتُ له وضحكت . ثم أكملت قائلاً : « لا ، ليس هذا هو السبب . ربما سيكون زواجاً سيئاً » .

« لِمَ ؟ ألأنها بيضاء ؟ » .

« تقريباً . لا أعنى أنها هى المخطئة » .

قال كريستوفر بخبث : « أوه ، أعرف أنك لا تعنى ذلك » .

« أتعتقد أنه يتحتم علينا الزواج ؟ » .

« لا ، أنت متزمت جداً . هذا سيحطم نظرتي إليك بكل معنى الكلمة ، وسيحطم نظرات الناس إليك ، أيضاً ». ثم جعلني ألتفت إلى " داوني " . « الآن ، عليك أن تتذكر من الذى رافقك ، أسمعتنى ؟ لا أريدك أن تبدأ مشروعاً سيئاً » .

بقينا فى الخارج حتى ساعة متأخرة جدا من ليلة السبت تلك ، ونسيت كل ما يتعلق بوجبة الطعام نصف الصباحية . غير أننى ، بغتة ، سمعت كريستوفر ينقلب فى السرير ويلعن ويقفز من فراشه .

« ماذا دهاك ؟ » .

« انهض يا ليو ، سيكون الناس هنا خلال ساعة من الآن » .

ثم تذكرت ، قلتُ : « أوه ، يا للمسيح » .

« اذهب فوراً إلى الحمام ، سأذهب إلى المخزن . انهض الآن ، ليو ، واللّه ، لا أعرف كيف تدبرت أمورك طوال هذه الأعوام بدونى » .

لبس كريستوفر سروالاً من نسيج قطني خشن ، هرع إلي الحمام ، بال ، رش ماء المغسلة على وجهه ، لبس قميصاً قديماً بسرعة ، لبس حذاءً خفيفاً ، أزاح الأغطية عنى ، جرني من الفراش وأجبرني على الوقوف على قدمي ، ودفعني إلى الحمام ، التقط محفظتى ومرق من الباب . بوم . دوى الباب بقوة . ارتعشت وأحسست بأننى ألهث ، لكننى كنت جاهزاً تقريباً وقت عودته إلى الشقة . وضع ما اشتراه من البقال جانباً – إذ لم يكن عندنا أى شيء – ثم دخل ليستحم ، أما أنا فشرعت أرتب المكان . رن جرس الهاتف . كانت بربارة على الخط .

« أعتقد أن على تذكيرك بأننا فى طريقنا إليك . هل أنت مستعد لذلك ؟ » .

« أوه ، نعم ، نحن مستعدان . شكراً لكريستوفر . هو الذى أيقظني من النوم . كنت أعتقد أن بحوزتى بقايا أطعمة إلا أننى لم أكن واعياً بصورة كافية كى أكون واثقاً تماماً . كم عددكم ؟ » .

« أمي وأبي وأخي كين وزوجته ، وصديق لهما وأنا . أخشى ألا تكون أفضل الوجبات نصف الصباحية التي تناولتها في حياتك ، لا يهم . أنت تعرف . نحن نمر بتجربة واحدة من هذا القبيل ... إلخ » .

« إلخ . طيب . نحن جاهزان . لعلي سأقدر أن أقنع كريستوفر بأن يعمل عمله الروتيني وهو يلبس حذاءه الخفيف » .

« أرجوك لا تفعل .. هل سيكون هناك ؟ » .

« أوه ، نعم . سيكون هنا » .

« سنأتي بعد قليل » .

« إلى اللقاء » .

مضى كريستوفر إلى الباب حين قرع الجرس – لم يشعر أنه ينبغي لي فتح بابي حين يقرع الجرس ، ولكي أدخل السرور إلى قلبه ، وقفت في حجرة المعيشة ، منتظراً الضيوف . بدا اللقاء بعائلة بربارة ، بعد كل هذه السنوات ، شيئًا مفرحًا . بدا هذا اللقاء حزينًا أيضًا . ساءلت نفسي بم كانت تفكر بربارة . ساءلت نفسي بم يفكر كريستوفر . سمعتُ أصواتًا شتى ، مشوشة وعصبية وسرت إلى الردهة .

وصلتها .

« أهلاً وسهلاً . أنا ليو برودهامر . أظنكم التقيتم كريستوفر .. سير كريستوفر هول . مرحبًا بربارة » . كنا ، عادة ، نتبادل قبلة سريعة ، حين نلتقي إلا أننا لم نفعل هذه المرة . « تفضلوا . هيا . تفضلوا » . أرشدتهم إلى حجرة المعيشة . كريستوفر ، بصورة لا مثيل لها ، وبصورة ساخرة ، أصبح في المؤخرة ، بدونا ، ونحن ندخل حجرة المعيشة ، وكأننا نتخذ مواقعنا في ميدان قتال .

قلت : «لابد أنك السيدة كنك» . صافحتها ، بطريقة صبيانية وصريحة وساخرة فابتسمت لي بدهشة من خلف نظارتيها المتألقتين ، انبهرتْ وتعثرتْ . « تمنيت أن ألتقي بك من سنوات طويلة» ، قلت لها ، ثم التفتُ إلى الأب قائلاً له : «وأنت أيضًا يا أستاذ» . مددت يدي مصافحًا إياه . صافحني ، برهة ، تطلع إليَّ بوجه خال من التعابير ،

واهن ، غادر كالماء ، لم أستطع مقاومة السقوط فى هذه البركة وأنا الحصاة الصلبة ، الحادة . خاطبته قائلاً : « بربارة حدثتني عنك كثيراً . مؤسف أننا لم نستطع أن نلتقى قبل هذا الأوان » .

قالت بربارة : « هذا أخى كين » وتصافحنا أنا وكين . كان أكبر سنا من بربارة ، له وجه محبوب ، وجسد مطواع وشعر خفيف . « وهذه زوجته ، [إيلينا] » . كانت إيلينا داكنة السمرة ، جميلة بعض الشيء ، قصيرة ومكتنزة جداً . ثمة شامة فوق شفتها العليا . تصافحنا . قالت بربارة : « وهذا صديقهما [تيرون بينيت] » ، درت على عقبي كي أصافح رجلاً ممتلئ الجسم ، ضعيف البصر ، يبدو أمهق[1] ، لعله في منتصف عقده الرابع، ذو شفتين مرتخيتين، عصبيتين. قلت له : « أنا مسرور بلقائك . من فضلكم اجلسوا ، ارتاحوا » . جلست السيدة كنك على الكنبة ، وهى ما تزال تبتسم ، بدت نظراتها وكأنها ما زالت مثبتة عليّ بصورة لا إرادية ، جلس السيد كنك بجوارها. جلست إيلينا وزوجها كين، أما بينيت فقد سار إلى النافذة وأشعل سيجارة . مال كريستوفر على نضد المشرب ، ومضت بربارة إليه .

قالت أم بربارة : « ويَ ، لطف منك أن توجه إلينا دعوة » . ضحكتْ كما تضحك فتاة في ميعة الصبا . كنت قلقًا فيما يتعلق بلكنتها ، فربما تثير حفيظة كريستوفر . تطلعت إليه . كانت بربارة تحادثه ، وكان هو يصغي إليها ، بالابتسامة الساخرة نفسها : « ياه ، أكاد لا أصدق . أنا أجلس فى شقة نجم سينمائى لامع » .

« أوه ، كفي ، سيدة كنك . ابنتك نجمة سينمائية لامعة . يجدر بك أن تكونى قد اعتدت مثل هذه الأمور » .

« أوه ، لكن هذا شيء مختلف . بربارتي ليست نجمة سينمائية بالنسبة لى . هى من لحمي ودمي . بالطبع ، نحن فخورون بها ، وبالجميع .. أما أنت .. أنت حالة خاصة . شيء رائع أن يشق فتى عصامي مثلك طريقه ويحقق نجاحات باهرة . هى فعلاً حالة فريدة. يمكنني أن أهتف يا سلام» . بقيت أبتسم . بربارة وكريستوفر ما يزالان يتجاذبان أطراف الحديث عند النضد . « لابد أن أمك فخورة بك » .

(١) الأمهق : شخص لبنى البشرة ، أبيض الشعر ، قرنفلى العينين . (المترجم)

أجبتها : « طيب ، أتمنى أن يفخر بي والدي ، أمي ماتت من مدة » .

« أوه ! هذا شيء سيئ جدا . ماذا عن والدك ؟ أتمنى أن يكون معافى ؟ » .

« أوه ، نعم » كدت أقول لها : « سيدة » . شعرت بنفسي أختنق بإخلاصها ، وشعرت بأن بربارة وكريستوفر قد هجراني ، كانا ما يزالان يتكئان على نضد المشرب .

« أنا وأبي نرى أحدنا الآخر باستمرار . والدي خشن الطباع . بنيته تساعده كي يعيش مائة عام » .

سألني كين : « أأنت من نيويورك ؟ » انتزع غليونه من فمه وراح يعبث به مثلما يفعل عادة مدخنو الغلايين .

« أجل . ولدت ونشأت فيها » .

« أأنت الابن الوحيد للعائلة ؟ » .

« أوه ، لا . لي أخ أكبر » .

« أهو ممثل أيضاً ؟ » .

« أوه ، لا » . سكت ثم قلت : « هو واعظ » .

قال بينيت : « هذا شيء ممتع ، أليس كذلك ؟ » التفت ونظر إليّ . « أن يكون واعظ وممثل في عائلة واحدة ؟ » قهقه . « أتلتقيان دوماً ؟ » .

قالت إيلينا : « أوه ، أعتقد أن هذا يحدث مراراً ، بخاصة .. طيب ، شيء مألوف أن تجد شقيقين في عملين مختلفين تماماً » . التفتت إلى زوجها . « من تلك التي رأيناها ، آخر مرة ، حين أتينا إلى هنا .. تلك المغنية ؟ تلك التي جننتُ بها ؟ أوه ، أنت تعرف من أعني ! تلك الفتاة الجميلة » .

حدثني كين باسماً : « هي تتحلى بشتى أنواع الحماسات . لا أدري كيف تتوقع مني أن أحفظ أسماءهم » . ووجه كلامه إلى إيلينا : « أتعنين لينا هورني ؟ » .

« آه ! هي الفتاة الجميلة . يا لها من سيدة . لا تهتم بما تفعله هي ، فهذه الأمور لا تقلل من شأنها . أنا أعبدها . وأنت ؟ » .

قلت : « نعم ، أعبدها حقا » .

« لكن هـذه ليست الفتاة ذاتها . هـذه فتاة أخرى . بشرتها أكثر دكنة من لينا هورني » .

قالت بربارة : « أنت تقصد پيرل بيلى » .

« أجل . هذه هى التى أقصدها . ذات الذراعين والأشياء الأخرى . هى صرخة الآن . لها أخ واعظ . على الأقل هذا ما أخبرونا به » .

قلت : « نعم . أخوها واعظ . أنت على صواب . هذا شيء شائع . كلنا خرجنا من الكنيسة بشكل أو بآخر » .

سأل والد بربارة : « لماذا ؟ » تخضب وجهه بحمرة خفيفة لأنه كاد أن يقول لى : « يا غلام » .

أجبته : « حسناً . هذا سؤال تطول الإجابة عنه . علينا أن نبقى هنا أياماً معدودات كي .. » .

قالت بربارة : « كريستوفر وأنا الساقيان هنا . بحوزتنا الكثير من زجاجات [بلودى مارى] وكل ما تشتهيه أنفسكم . الآن ، من يرغب أن يشرب ، وأى مشروب يفضله ؟ » .

قال كريستوفر : « السبب الذى جعل غالبيتنا يخرجون من الكنيسة ، هو أن الكنيسة هى الشيء الوحيد الذى نملكه .. الشيء الوحيد الذى سمح لنا البيض بامتلاكه » .

تطلعوا إليه جميعاً . قالت أم بربارة : « أنا أفضل [بلودى مارى] » .

قال كين : « وأنا ، أيضاً » .

قال بينيت : « اللعنة . لعلنا كلنا نرغب باحتساء بلودى مارى » . تأمل كريستوفر وخاطبه قائلاً : « لِمَ قلت ذلك ؟ » .

أجابه كريستوفر : « لأن هذا هو الواقع » . رفع بصره إلى بينيت ، واستمر في إسقاط مكعبات الثلج في الكئوس . وضعت بربارة الكئوس في صينية . كان شعرها مرسلاً ، تلبس سروالاً فضفاضًا وحذاءين بكعبين واطئين ، كانت صامتة كنادلة حقيقية ، وهي فعلاً عملت في هذه المهنة . راح كريستوفر يصب المشروب في الكئوس .

نظر بينيت إليَّ ، غير أنني لم أقل شيئًا . كان كريستوفر يغمز لي علانية ، أظنهم شاهدوه جميعًا ، لكن لا هم - ولا أنا - عرفنا ماذا نفعل . أخذت بربارة توزع كئوس الشراب . أمعن كين النظر في بربارة لحظة . جلبت لي بربارة كأس المشروب .

نطق كين أخيراً : « طيب ، يبدو لي وكأنك تلوم البيض في كل شيء » .

أجابه كريستوفر : « أنا لا ألومك . أنت حسن السلوك . أنتم قتلتم معظم الهنود وانتزعتم منهم أراضيهم . والآن عندكم كل هؤلاء السود الذين يخدمونكم مقابل لا شيء ، أنتم لا تحبذون أن يتحدث رجل أسود من منطقة معينة مع رجل أسود من منطقة أخرى . فلو تحدث الرجلان مع بعضهما فلربما يتوصلان إلى طريقة لقطع رءوسكم والتخلص منكم » . ابتسم . « فهمت » . أخذ رشفة من كأسه . « وهكذا أعطيتمونا الدين المسيحي . وقلتم لنا إن إرادة اللّه هي التي تحرك البارجات وترفع البالات ، بينما تجلسون أنتم على مؤخراتكم الضخمة ، البدينة ، البيضاء وتزدادون ثراء » . أخذ رشفة أخرى من كأسه ، وأقعى على كعبيْ قدميه وسط الحجرة . « هذا هو الواقع ، والأمور باقية على ما هي عليه . أنتم لا تتغيرون مطلقًا ، إلا إلى الأسوأ . أتريد أن تقول لي شيئًا مختلفًا ؟ » . « لا أنوي أن أقول شيئًا » ، قال بينيت واستدار جهة النافذة . ثم قال : « لا أظنك ستصغى لي » .

« حاول معي » ، قال كريستوفر وغمز لي بعينه ثانية .

قالت أم بربارة وهي تربت بلطف على ركبة زوجها : « بني ، ليس من المفروض أن تكلمنا بهذه الطريقة . أنت لا تعرف كم هو عدد أصدقائنا الملونين في مدينتنا . إذا كنت قد تعرضت للإذلال بتلك الطريقة ، فلماذا شعرنا بالفرح حين رحبت بنا . ياه ، بربارة تستطيع أن تخبرك . نحن لا نبالي بلون بشرة الفرد .. ولم نبال من قبل !

لو سمع والدي بأنني أسيء معاملة فرد ملون وأنني أدعوه باسم غير اسمه لسلخ جلدي وأنا حية . لم أفعل شيئًا من هذا القبيل . أحببت والدي حبًا جمًا . كان والدي يردد يومًا : الله خلقنا جميعًا . كلنا جئنا من أجل هدف معين . (باربي) تقدر أن تخبرك قولي له ، باربي » كانت قد مالت إلى الأمام ، نحو كريستوفر . أما الآن فقد اعتدلت في جلستها . « ياه . باربي ترعرعت مع الملونين . ستخبرك هي بذلك » . حدقت بي وابتسمت وارتشفت مشروبها . « سوف يتعلم » أكدت لي . « هو ما يزال يافعًا » . تطلعت إلى زوجها وإلي كين ، وتطلعت إلى بربارة التي كانت في المطبخ ، في الجهة المقابلة للمشرب . « الآن ، لنغير الموضوع . سيد برودهامر .. أين تلقيت تعليمك ؟ » .

جرع كريستوفر كأسه دفعة واحدة ، لكن برقة ، ونهض من الأرض ، والتحق ببربارة في المطبخ . رنت ضحكته عبر الحجرة ، ثم رنت ضحكتها . نظر كين وبينيت ووالد بربارة إلى المطبخ ؛ إلا أنهم لم يتحركوا .

أجبت : « تلقيت تعليمي الثانوي هنا في نيويورك » .

« ألم تلتحق بالكلية ؟ ياه ! » .

سأل بينيت : « وقد نجحت في الثانوية ، أليس كذلك ؟ ياه ، أراهن أنك تكسب مالاً أكثر مما أكسبه أنا .. أعرف أنك تكسب ثروة أكثر مني » ، وقهقه . « وأنا على يقين أنك لم تسكبها وأنت جالس وتشعر بالأسف على نفسك ، أليس كذلك ؟ » .

أجاب كين : « لا ، البتة ، هو شق طريقه الخاص . بوسع كل إنسان أن يشق طريقه في هذا البلد ، بغض النظر عن لونه » .

فكرت مع نفسي ، لا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم ، لا أستطيع أن أتحمل أكثر من هذا ، حتى لو صدر من عائلة بربارة ، وخلال دقيقة سيرمي كريستوفر بكل شيء في المطبخ فوق هذه الرءوس التي لا يحميها شيء ، وستكون نهايتنا كلنا في السجن .

قالت بربارة : « هذا محض هراء ، يا كين ، وأنت تعرف ذلك . ما من أحد من الأولاد الذين يعملون عندك سيكون قادراً على أن يشق طريقه بنفسه ، عليك أن تفهم

هذا .. هم ، حتى لا يستطيعون الالتحاق بأى من الاتحادات . إذاً ، لا تجلس هنا وتتحدث إلى ليو وكأنك ساهمت فى إبقائه على قيد الحياة . أنت لم تفعل له شيئًا . ليو قوى الإرادة . هذا هو كل ما فى الأمر . وأنت ابن زنا سيئ وقد أخبرتك بذلك قبلاً » .

قال كين وقد احمر وجهه ونضح عرقًا : « وقد أوصيتك قبلاً أن تحفظى لسانك .. وأن تنتبهى إليه حين تتحدثين بحضرة أمك » .

فقالت بربارة : « كما تنتبه أنت إلى لسانك بحضرتى ؟ لا تلق علىّ محاضراتك السمجة ، كين ، أنا أعرفك حق المعرفة » .

قالت السيدة كنك : « كفى ، يا أولادى . نحن لم نأت إلى هنا للمشاجرة . لقد أحرجنا السيد برودهامر » . انتهت من احتساء كأسها ، ووضعته أمامها : العجوز ترغب بالمزيد من الشراب . نهضت كى أملأ كأسها . قلت : « أنتم لا تحرجوننى . ليس ثمة سبب للتظاهر بأن الزنوج تجرى معاملتهم أسوة بالبيض فى هذا البلد لأن واقع الحال هو غير ذلك . وكلنا يعرف هذه الحقيقة » .

قال كين : « لننظر إليك . أنا لا أعرف ما الذى تنوى عمله خلال عام ، إلا أننى أستطيع أن أخمن . ما الذى تشكو منه ؟ يبدو لى أن هذا البلد أحسن معاملتك . أنا أعرف أن عدداً كبيراً من البيض لا يستطيعون السكن فى هذه الشقة ، على سبيل المثال .. » .

قالت بربارة بخشونة : «بالطبع أنت تسكن فى شقة مثلها ، وعندك خدم أيضاً» .

ألقى نظرة غاضبة على المطبخ ، إلا أنه حافظ على رباطة جأشه ، وتطلع إلىّ . أدركت أننى بدأت أغضب ، إلا أننى أدركت أيضًا أنه غضب عديم الجدوى . لم يدهشنى كريستوفر ، لم تدهشنى بالمرة هذه الأسرة . إلا أن بربارة أدهشتنى قليلاً ، بربارة التى بدت لى وكأنها تنتقم من أحقاد قديمة . لم أبال بما كان يشعر به هؤلاء القوم أو يعتقدونه . إن الحديث معهم مضيعة للوقت . كل ما تمنيته هو أن يرتووا من قنانى « بلودى مارى » ، وأن ينصرفوا من شقتى . كنت غاضبًا بعض الشىء لأن بربارة

جلبتهم إلى هنا . كنت أدرك في الوقت نفسه ، أن بربارة تريني شيئًا ما – تريني ، ربما ، جزءاً من الثمن الذي ينبغي لها دفعه من أجلي ؟ – وقد كانت ، في الوقت ذاته ، تقدم أوراق اعتمادها إلى كريستوفر . وبدا عليها عدم الارتياح . أدهشتني بربارة بعد كل هذه السنوات .

كان السؤال موجهًا إليّ ، لذا توجب عليّ الإجابة عنه . ابتهلت إلى الباري ، وقتها ، أن تموت المسألة . قلت : « لا يمكنك أن تتخيل كيف قضيت سنوات حياتي ، ولن أناقشها الآن . أنا لم أكسب ثروة بالمقدار الذي تعتقده ، كما أنني لم أعمل يومًا بالقدر الذي كنت سأفعله لو كنت أبيض . هذه حقائق مجردة . القضية هي أن الزنوج في هذا البلد تتم معاملتهم بطريقة أسوأ من معاملة الكلاب أو القطط . ما حاول كريستوفر أن يقوله لك واقعي تمامًا . إذا لم تشأ أن تصدق ، طيب ، فهذه مشكلتك ، وإنني لا أرغب بالخوض في هذا الموضوع ، ولن أخوض فيه أبداً » . نظرت إلى كين . « هذه شقتي » .

بقوا جالسين ، دون أن يقولوا شيئًا ، غاضبين الآن ، قلقين ، وقعوا في الشرك . ووضعت شريط « فاكهة غريبة » لبيلي هوليدي في آلة التسجيل . نعم ، كنت حقوداً . ملأت كأسي ثانية وجلست . ألقت عليّ السيدة كنك نظرة توبيخ ، إلا أنني تجنبت نظراتها وأشعلت سيجارة . اتكأ كريستوفر ، الذي كان يحمل طبق بيض في يده ، على نضد المشرب ، وابتسم لي قائلاً : « ما قاله لك الرجل بالضبط هو أنك متمسك بأسطوانتك الإجرامية ، وأنه لن يكون شريكًا لك في الجريمة ، كما لن يجعلك تستحسن الأسطوانة . كيف تحبون أن تأكلوا بيضكم ؟ » .

مع ذلك ، بعد كل هذه الدهشة الكافية ، يبدو أن عصر هذا اليوم لن يكون سيئًا جداً . غطرسة كريستوفر جعلته يطلق العنان لنفسه ، وبصورة فضولية ، جعلتهم يطلقون العنان لأنفسهم . عينا بينيت الشاحبتان ، الحقودتان ، وشفتاه النديتان الشيطتان نقلتا بصورة مفعمة بالحيوية ما كان سيفعله بكريستوفر لو التقاه في موقع . هذه ليست هي القضية ، ربما أنه الآن مطوّق ، أخلاقيا على الأقل . فقد استرخى ، وحاول أن يتمتع بعصر ذلك اليوم وكأنه يشاهد مسرحية هزلية لن يقدَّر له

مشاهدتها ثانية . كين لا يشبه بربارة على الإطلاق ، ضمن حديثه قصصًا من طفولتيهما ، اعتبرتها بربارة فضيلة من الفضائل ، أما السيدة العجوز فقد راحت تجرع كئوس « بلودى مارى » وكأن ليس ثمة غد ، وشرعت تحكى قصصًا عن رؤساء وحكام ولايات زاروا دارها حين كانت فى ريعان الشباب ، اعترفت بأنها امتعضت للمسيرة التى اختارتها بربارة ، وقالت إن ابنتها اكتسبت عنادها من والدها – هذه القصة الواضحة بدت وكأنها أبهجت الرجل العجوز ذا الوجه الخالى من التعابير . راقبتُ كريستوفر وهو يتأملهم من أعالى الازدراء الذى لا يمكن الإغارة عليه ، حين ظهروا على حقيقتهم شيئًا فشيئًا ، حين تكشفت إنسانيتهم شيئًا فشيئًا . لم يعرفوا كم كشفوا أنفسهم ، كم كانوا مثيرين للشفقة ومبهرجين بطريقة تنم عن تباهٍ – هذا العرق السائد . إلا أنهم كانوا خطرين ، أيضًا ، وبصورة لا توصف . لم يكونوا يعرفون كنه نواتهم أبدًا . ساءلت نفسى – لكن دونما جدوى – كيف أصبحوا على هذه الحال . تساءلت ، لكن من مسافة نائية ، حيث أصبحت الشمس أكثر اصفراراً فى حجرتى : حيث أصبح كين أكثر مرضًا ، عديم الشكل أكثر ، وها هو ذا الآن يعض على غليون بين أسنانه بقوة إنسان يعانى سكرات الموت ، أصبحت زوجته أكثر غنجاً ، مع أنها لم تتصرف بغنج معه ، بالضبط ، وسكرت السيدة العجوز رويداً رويداً وأمست أكثر جنونًا ، بدا زوجها وكأنه ينتظر حدثًا مروعًا لا يعرفه إلا اللّه : ببنيت يلعق شفتيه العصبيتين كلما تطلع إلى كريستوفر ، دون أن يعرف أنه كان يمثل بحثًا فى الرغبة وشهوة القتل . بيد أنهم ما كانوا عائدين لى . كريستوفر هو الوحيد العائد لى . القضية هى كيف نمنع هؤلاء المسيحيين من أن يدمروا ثانية هذا الوثنى – بربارة تجلس بين أفراد أسرتها ، جافة وباردة ، تبدو فى ميعة الصبا ، تفكر بى كونى ضحية حية . فى الختام ، حين قاموا استعداداً للمغادرة ، وجمعوا الحقائب والقبعات والأشياء الأخرى الملحقة ، وحين غادر آخر ذكر « حجرة الأولاد الصغار » ووقفنا نثرثر فى الرواق ، كان قد أصابنى صداع شديد وكاد رأسى ينفجر . الآن قبلتنى بربارة فى خدى قائلة : « شكراً ، ليو . سأحدثك فيما بعد » . ثم ، بتعمد ، شكرت كريستوفر وقبلته ، أيضًا . قبلت السيدة العجوز لأنها أرادت ذلك ، وصافحت إيلينا والرجال الثلاثة ، وقلت إننى سأكون فى غاية السعادة إن حللت ضيفًا عليهم حين آتى إلى

كنتوكي – هتفت السيدة العجوز : « امنحنا فرصة ! سترى أننا أهل كنتوكي لسنا سيئين جدا كما يصفنا أهل الشمال ! » وسمحت لكريستوفر بمرافقتهم إلى المصعد . أغلقت الباب خلفهم وعدت إلى حجرة المعيشة وتمددت على الأرض .

بعدها مباشرة دخل كريستوفر بهدوء، وصفق الباب وراءه ، تمدد على الأرض ، إلى جانبي ، راح يدعك يده بقفا عنقي : « يا سلام ! حبيبي هل هم واقعيون ؟ » جلس وشبك كفيه حول ركبتيه وقال : « اللعنة . هم فعلاً . أبناء زنا . تلك السيدة العجوز ينبغي إرسالها إلى مأوى للعميان في مكان ما » . ضحك وأكمل قوله : «لا عجب أن تشي بهم بربارة .. ألقت عليهم نظرة وشرعت تكشف عيوبهم وجعلت ترد لهم الصاع صاعين » . قهقه من جديد وتمدد على الأرض ثانية . « يا سلام ! » وبعدها قال : « بربارة قوية . لم أكن لأعرف أن فتاة بيضاء يمكنها أن تصبح قوية جداً » .

أجبت : « نعم . هي قوية الشخصية » .

قال كريستوفر : « هي فعلاً فتاة واقعية . هي ذات شأن » تطلع إليّ . « يا أبانا الكبير ، أنت متعب حتماً . أتنوي أن تنام القيلولة ؟ » .

« لا أدري . ما الذي تنوي عمله ؟ » .

« لو لم يبقوا زمناً طويلاً لفكرت بالذهاب إلى السينما . ثمة فيلمان يعرضان في المدينة أود مشاهدتهما . لكن ، الآن ، أشعر أنني غير مستعد لذلك وأعرف أيضاً أنك ، أيضاً ، غير مستعد » .

قلت له : « لا أعتقد أنني غير مستعد » .

وضع رأسه على صدري . أبقيته على هذه الحال .

« كريستوفر .. ثمة شيء وددت أن أسألك عنه .. ماذا تنوي أن تفعل ؟ أقصد ، ماذا تفعل بحياتك ؟ » .

قهقه . شرع رأسه يهتز إلى أعلى وأسفل فوق صدري .

« سبق وأن أخبرتك . أريد أن أكون رائدَ فضاء » .

« هيا . كن جاداً » .

« أنا جاد . لعلي سأجتهد وأذهب إلى القمر .. أو المريخ .. وكما تعرف .. » .

« أنت تعرف حق المعرفة أن هذا الشيء لن يحدث في القريب العاجل . ستكون ملتصقًا بالأرض مدة من الزمن . إذًا ، قل لي ماذا ستفعل على الأرض طوال المدة التي سيفكرون بها ما إذا سيسمحون لك بالصعود إلى القمر أم لا ؟ » .

أجاب بعد تفكير عميق : « حسنًا أنا لا أروم أن أقضي بقية عمري في مخزن الأحذية ذلك » . كان يعمل في مخزن للأحذية في القسم الإسباني من هارلم . « لا أدري ماذا سأفعل . أنا راسب في الثانوية ، ليو .. هل سمعت بالشبان الراسبين في الثانوية مثلي ؟ بحوزتي شيء مدون يثبت هذا . ليس من السهل عليّ أن أخبرك بما أروم عمله » .

« طيب . علينا أن نتحقق من الأمور المنطقية . ما الذي تعتقد أنك تنوي عمله ؟ » .

لاذ بالصمت . « أستطيع أن أتعلم الكثير من خلال خدمتك » .

« هذا ممتاز . لكنه غير كاف » .

حل الصمت ثانية . كنت أشعر بأنفاسه ، شهيقه وزفيره ، على صدري .

« لم لا ؟ ألا تريدني أن أخدمك ؟ » .

« تابع حديثك ، لا تكن خجولاً » .

رفع رأسه إلى أعلى وابتسم . « ماذا تعني بقولك .. خجولاً ؟ » .

« أنت تعرف حق المعرفة أنني مسرور بأن تكون إلى جنبي طوال الوقت ، وأنت تريدني أن أعلن هذا ، هذا هو ما عنيته بقولي » .

ابتسم ابتسامة عريضة . « أوه ، شكراً » . أراح رأسه على صدري ثانية .

« لا أدري ، يا ليو ، أروم تعلم كل شيء قدر مستطاعي . قد يبدو هذا القول مضحكًا ، وبخاصة إذا كان صادراً مني . لكنني أعنيه . لكن » – رفع رأسه ،

ونظر إليَّ بجدية تامة - « هذا ليس تهرباً من الإجابة ، صدقني ، لكن .. يبدو لي أن الشيء الذي أود تعلمه لا يمكن أن يعلمني إياه أحد . أعني أنني أرغب بتعلم كل هذا الهراء الذي يلقنونك إياه هنا . هذا ليس غايتي . لا أحبذ أن أكون مثل هؤلاء القوم. أعرف أن ثمة أولاداً عاشوا في الشوارع لديهم معرفة تفوق معرفة كل طلبة المدارس . لا أعرف .. كنت أشعر دوماً أنهم يحاولون تجريدي من خصيتيْ . أفهمت ما أعنيه؟» .

قلت : « نعم ، فهمت » . وضعت يدي على جبيني .

« هل تشكو من الصداع ؟ » .

« صداع خفيف . سيزول » .

« هل أجلب لك حبة أسبرين ؟ » .

« لا . انتهيت من حديثك » .

« طيب . هذا ما وددت قوله . أنا مغرم بأناس الشوارع ، الشوارع فيها قدرٌ عال من الجمال ، ليو ، أنا أروم أن أقدم يد العون ، أود أن أعلِّم الآخرين ، إلا أنني أبغي أن أتعلم من شخص ما » .

تأملت وجهه . وجهه جعلني أرغب بالابتسام « طيب . أولاً بأول . سنحاول أن نجعلك مستعداً » .

خفض بصره ، ثم حدق في عيني ثانية : « أتعرف ؟ » .

« ماذا ؟ » .

« عيد ميلادي يصادف قريباً » .

ضحكت . « وماذا تود أن أهديك في عيد ميلادك ؟ » .

ضحك هو أيضاً . « هلا اشتريت لي كاميرا ؟ كاميرا بسيطة ، اعتيادية . أعتقد أنني أستطيع تزجية بعض الوقت بها .. لعلي ، على الأقل ، أسجل بالعدسة بعض ما يجري هنا . ويمكنني الوصول إلى أماكن لم تصل إليها عدسات المصورين » .

قلت وأنا أتأمله : « لي ثروة طائلة » .

« إذاً شراء كاميرا لا يعني تبذيراً لثروتك » .

سحبت رأسه إلى صدري ثانية . « لا تبـال ، يا حبيبي . كل شيء سيكون على ما يرام » .

« أنا أصدقك » . قال بعد لحظة . بعدها اضطجعنا بهدوء على الأرض ، وبقينا نائمين بعد غروب الشمس بوقت طويل ، وأضحت الحجرة معتمة . أضواء الشارع سقطت على نافذتي . كل شيء هادئ . أغفى كريستوفر بسرعة ، وراح يشخر ويصفر . كنت نائماً هناك ، ضربته على شعره المفتل وفكرت في أبي وأمي وأخي ، فكرت بكريستوفر ، وفجأة تذكرت سطراً ، طار إليَّ من ماضي حياتي ، من مسرحية « الذرة خضراء » . هذا السطر جعلني أقهقه وأكتم أنفاسي وكدت أجهش بالبكاء . كان ذلك السطر قد قاله (بوني) عند نهاية المشهد : « موفات ، يا فتاتي ، لا ينبغي لك أن تكوني خشنة هذه المرة ، لا ينبغي لك أن تكوني خشنة » . آه . إذاً ! ضحكتُ مع نفسي وضربت شعر كريستوفر ، ضحكت ربما بشيء من الحزن والسخرية لكن دونما هم .

« يمكنني أن أفسر الأمر ، بهذا الشكل ، أما أن أفسره بشكل آخر فهذا أمر لا أقدر عليه » ، كانت منتصبة القامة ، تذرع حجرة معيشتي جيئة وذهاباً . كان الوقت يقارب الثالثة صباحاً . الله أعلم أين كان كريستوفر . « لو أنني قدرت على تفسير الأمر قبل وقوعه ، فمن الجلي ، ما كان ليقع » .

قلت لها : « بربارة ، أنا لا أريد تفسيراً . أنا ، فعلاً ، لا أريد . لا أحس .. مهما كانت مشاعرك حين تحدث أمور كهذه . لا أحس أبداً . أنا لا أحس بأنني .. مخطئ » . تأملتها . تعابير وجهها المتنى . الواقع أنني لم أشعر بأنني مخطئ : ما الذي أحسست به ؟ أحسست بإعياء شديد ، استحوذ عليَّ شعور بأنني أرزح تحت عبء ثقيل لا أستطيع تحمله . « ألا تفهمين ما أعنيه ، أيتها الأميرة العجوز ؟ » .

تنحتْ عني ، وعادتْ إلى مشربي وصبتْ كأساً ثانية لها . التحقت بها عند المشرب . كانت حجرتي مضاءة بمصباح خافت ، وكان يصدر من الفونوغراف صوت ضعيف جدا لـ دينا واشنطن .

أعددتُ كأسًا لي ، ولمستُ وجهها . ابتسمت ، وقرعنا كأسينا . جلستُ على أحد مقاعد المشرب ، وأشعلت سيجارة .

قالت : «ذكرني هو بك . حين كنا في مقتبل العمر . تذكرت حالك في الماضي .. وتذكرت نفسي .. عدت عشرين عاماً إلى الوراء » . رشفتْ كأسها . ابتسمتْ ، ردتْ رأسها إلى الوراء ، وتنهدت . « كان هو في حالك نفسها قبل أن يتحدد اختيارنا . قبل أن نصبح .. ما أصبحنا عليه » تطلعتْ إليّ ، حاولتْ أن تستبطن أفكارى ومشاعرى ، كانت عيناي مفتوحتين على وسعهما . « أفهمت ما أعنيه ؟ » . « أعتقد نعم » . ثم قلت : « هل تعتقدين ، بربارة ، أن ما أصبحنا عليه بغيض جدا ؟ » .

« لا . أوه، أنا لا أعنى هذا . حالنا ليستْ كما نتصورها نحن .. أليس كذلك ؟ » .

وفي الختام قالت : « لا أتوقع أننا سنحيا فى عزلة تامة » .

« ولا أنا » قلت ثم ، وعلى مدى برهــة ، كان صوت (دينا) هو الصــوت الوحيد فى الحجرة .

« أعتقد أنه أراد » — توقفتْ عن الكلام ثم أضافت — : « أعتقد أنه أراد أن يكتشف إن كان الحب ممكنًا . هل هو ممكن حقًا . كان عليه أن يكتشف رأيي بجسده إذا ما امتلك جسدى » . سكتت عن الكلام لحظة . « لم يكن الأمر بيني وبينك على هذه الحال » .

« لا . لم نكن على هذه الحال » .

قالت بربارة : « أنا مسرورة بشيء واحد . أخشى أننى .. أغويت كريستوفر ، أو أننى سمحت لكريستوفر أن يغوينى ، لسبب واحد ، هو جرح مشاعرك . كنت خائفة جدا من أننى أتظاهر بكونى أعاني المرارة . هذا يعنى أننى كنت أعانى بمرارة طيلة هذا الوقت . لكن الأمر لم يكن هكذا . فقط .. أنت . هذا شيء رهيب ، لكنه حقيقى . لم أحاول جرح مشاعرك . كنت أجرب العودة إليك . وأدرك هو ذلك ، بسرعة فائقة . ثم عرف أن الحب ممكن . وما كنت لأعجب أبداً إذا لم يفزعه ذلك » .

قلت : « سيعود . سيعود حتمًا . وإلا سأذهب للبحث عنه في الشوارع . هو ليس مفقودًا . لا تبالي . لن أجعله يضيع » . لم تقل شيئًا . « انظري هذا هو الشيء المهم الآن . هو ألا يضيع الولد . أليس كذلك ؟ » .

قالت : « أتمنى ألا أكون قد هشمت كل شيء » .

« لا أظنك قد فعلت هذا . لكن إذا كنت قد فعلت هذا فعلينا أن نواجهه . أيضًا . لكنك لو فعلت . حسنًا . لا أدرى ماذا سيكون شعورى آنذاك . الآن عليك الذهاب إلى شقتك . انتهى كلامنا نحن الاثنين » .

قالت : « أنا أيضًا أعتقد هذا » . نهضت . كانت ما تزال منتصبة القامة ، نشيطة « حين غادر شقتى .. قال إنه آت إلى هنا » .

« هى ثلاثة أيام لا غير . لعله ذهب إلى شقة أخته . سيأتى حتمًا » .

قالت : « يلزمنى أن أخبرك . لم يكن ذلك بالشيء السهل بالنسبة لى . لم يكن بالشيء السهل بالنسبة لى أبدًا أن أعيش حياتي بالطريقة التى عشتها . وأن أعرف - أيًا كان أصحابى . ومهما كان مقدار حبى لهم أو رغبتى فى أن أحبهم . ومهما وهبونى - أنه لم يكن بالأمر الهين بالنسبة لى أن أكون إلى جنبك . حين صفرت . صحت . غنيت . تجشأت . التقطت سماعة الهاتف . حين أرسلت برقية . لم يكن أمامى خيار آخر . لم أستطع أن أتحمل نفسى . لم أكن حرة .. طوال هذه السنوات وبمرور الزمن .. الزمن يضر المرأة أكثر من الرجل . لا ، لم يكن ذلك بالأمر الهين . غالبًا كنت أكرهك وأكره نفسى وأكره حياتى وتمنيت أن أموت . أن أموت ! » .

رنت كلماتها ورن صوتها فى أذنى كدأبها دومًا . واشتعل وجهها فى عقلى .

قلت من أعماق إعيائى الشديد : « ما كان بوسعى أن أفعل غير الذى فعلته . ما كان بوسعى أن أفعل غير الذى فعلته .. عندئذ ! وحين انعطفنا تلك الانعطافة .. أكان بوسعنا أن نغير تلك الانعطافة فيما بعد ؟ أكان بوسعنا يا بربارة ؟ » .

قالت بربارة : « أعرف . أعرف » . جلستُ على مقعد المشرب ثانية . أخذت كأسها ورفعته فى نخب حزين ، مهيب ، ساخر . « فلنشرب نخب القدس الجديدة » .

انصرفت بربارة ، وأويت إلى فراشى . كنت أكثر قلقًا مما كنت عليه طوال حياتى . فى صبيحة ذلك اليوم حين كنت نائمًا جاء كريستوفر واندس فى فراشى . كان

جسده شديد البرودة كالمعدن الناضح عرقًا ، حين يكون لمسه شيئًا خطيرًا جدا . كانت تفوح منه رائحة نتنة أشبه برائحة كشك لبيع السمك . الله وحده يعلم أين كان . لم أسأله . اندس بين ذراعي ، تحسر كما تتحسر الأم ، عثر على موضع لرأسه . واستقر هناك . بعدها نمنا معًا .

في ليلتنا الأخيرة فقط في سان فرانسيسكو ، سمح لي بالمغادرة . وشاء القدر أن يكون مساء هادئًا جدا . على أن أعير أقل ما يمكن من الاهتمام للناس الذين ربما يتعرفون إليّ شخصيًا . كان علينا أن نأخذ بيتي وبربارة من المسرح ، بعد العرض . راح كريستوفر يقود سيارة بيتي ، وركبنا السيارة متجهين إلى مطعم صيني ، مزدحم ومن الطراز الحديث ، إلا أنه جيد جدا . كان شيئًا غريبًا جدا بالنسبة لي أن أغادر مسكني . أحسست أنني بصحة جيدة ، وأنني مرتاح ، ربما هذه هي الكلمة الوحيدة المناسبة التي تعبر عن حالتي ، أول مرة في حياتي أحس بأنني مرتاح . لم أكن أركض ، إذا صح التعبير ، بل كنت أتعلم طريقة المشي . عند باب المطعم ، فجأة ، لطمتني شهرتي وكأنها قفاز موضوع في الباب – لم تكن لطمة غير مستساغة ، بل لطمة محددة . كنت مبتهجًا ابتهاجًا شديدًا بمفخرة أن يعود إليّ بصري ثانية . سيكون بمستطاعي أن أرى العالم ثانية ، لأجل غير مسمى . لم أفكر بالعالم الذي براني . مع ذلك ، هنا كان العالم في وجه رئيس النُدُل ، في الوجوه التي التفتت إليّ ، في الهمهمة ، الغمغمة ، « الخشخشة » ، التي تجلت خلال مرورنا عبر الحجرة . كريستوفر يسير أمامي ، صارمًا ، أنيقًا ، طويل القامة مثل شيخ عشيرة أو أمير ، يؤدي دوره بجدية ضابطًا وحماية . وجدنا منضدتنا وجلسنا إليها : ابتسم الناس لنا ، كان شيئًا لطيفًا بعض الشيء ، في ذلك المساء ، أن تشعر أن الحياة تناديك ثانية . طلبنا قنينتي مارتيني غير حلو ، وقدمت لنا لوائح أطعمة أكبر من أكثر خرائط العالم شمولية . ابتسم كريستوفر ابتسامة عريضة ، قائلاً : « حتمًا هذا ليس التفكير في الصينيين الجياع[1] . أتعرفون ماذا سيقول عني بعض أصدقائي حين يرونني في مكان كهذا ؟ » .

« طيب ، إذًا ، اطلب طاستك المألوفة من الرز ، حبيبي ، وكلها في المطبخ . صدقني إن الريفيين الجياع سيبتهجون لأنك رفعت شأنهم » .

(١) ما يقصده المؤلف هو رواد المطعم الصيني ، وكأن كل من دخل هذا المطعم أصبح صينيًا . (المترجم)

« فيما بعد آكل طاستي في المطبخ . أعرف أنني أستطيع يوماً أن آكل في المطبخ . لكن دعني أرى ماذا أستطيع أن آكل هنا .. لنر الآن .. بعض الحلوى ولحم الخنزير البغيض . كيف يدهشك هذا ؟ أنت تعرف تمام المعرفة ، أنه ينبغي لنا ألا ننسى جذورنا . هم لم يستطيعوا الحصول على البرغل فما بالك بالبيض الطازج ؟ » .

واستمر في حديثه على هذا المنوال ، حتى اقترح نادلنا مستعطفاً إيانا أن نترك الأمر له وأن يطلب هو ألوان الطعام لنا . وافقنا على اقتراحه ولم يخيب ظننا . ربما لأنني لم أتناول هذه الأطعمة من زمن طويل ، إلا أن جميعها كانت شهية ، وأن الحجرة ، الناس ، الصعود والنزول ، الدوران المستمر الشبيه بدوران عجلة ، أو الأصوات العديدة ، الضحك ، قرع الزجاج والفضة ، الشعر المتوهج ، الفساتين اللامعة ، الخواتم والأقراط والقلائد واللمعات والخلاخل والأساور التي تلبسها النساء ، مشابك الأربطة وساعات اليد والخواتم التي يلبسها الرجال ، كلها ساهمت في خلق وهم مذهل بالأمان والنظام والحضارة . يبدو أن لا وجود للشر في هذا المكان ، لا وجود للحزن أو الألم الذي لا يطاق ، نحن هنا بعيدون عنه . كنت مبتهجاً لأن لي حساباً مصرفياً ، ولي مستقبل ، وأستطيع أن أجعل حياة كريستوفر مضمونة . كنا الملونين الوحيدين في ذلك المطعم . فقد عملت في المطبخ من زمن ليس بالبعيد ، وفي الخارج كانت هناك الملايين من الصينيين - الجياع . دأبتْ أمي على الغناء : « سأتناول طيب الطعام على مائدة المحتفى به » .. هل هذه هي مائدة المحتفى به ؟ كانت مائدة الأنين هذه عبئاً ثقيلاً على ظهور الملايين، الذين كان أنينهم لا يسمعه أحد. تحت هذه الطاولة ، في أعماق أحشاء الأرض ، في مكان قصي كالصين ، في مكان قريب جداً كالشارع الذي يقع فيه المطعم ، سوف تتحرك طاقة ما وتتجمع ، وسوف تقلب هذه الطاولة حتماً ، ذات يوم ، مثلما تدور الأرض ، ومثلما تشرق الشمس وتغيب . أين ستكون أنت حين يرن صوت أول بوق[1]؟ راقبت كريستوفر وهو يستخدم العودين[2]، كان باسماً ، هادئاً ، وفخوراً بنفسه . طيب . أتمنى أن أكون مع يسوع ، حين يرن صوت أول بوق . أتمنى أن أكون مع يسوع حين يلعلع صوت البوق .

(١) هنا إشارة إلى يوم الحساب . « يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ » كما ورد في القرآن الكريم . (المترجم)
(٢) هما العودان اللذان يتناول بهما الصينيون طعامهم . (المترجم)

وقعتُ في سجل المطعم الذهبي ، ووقعت لشخصين – كان الناس لطيفين جداً ، تذكروا أني كنت مريضاً – وغادرنا المطعم متجهين إلى سيارتنا . كانت ليلة جميلة ، باردة ، زرقاء ، معتمة . كنا فوق مرتفع ، تبدو سان فرانسيسكو تحتنا ، عند أقدامنا ، أشبه بورقة ملفوفة متعددة الألون . سأغادر عما قريب . تمنيت أن يكون بوسعي البقاء . عملت بجد ومثابرة ، حتماً يمكنني الآن أن أنعم بحياة مريحة ، هادئة ، آمنة ، حياة أكرسها لعملي ولأحبابي ، دون أن يهددني خطر الموت . غير أنني أدركت أن ذلك أمر مستحيل . من إحدى النواحي يمكننا القول إن جهدي كان بلا طائل . الواقع ، إني قهرت المدينة ، لكن المدينة فتك بها الطاعون . لن يزول الطاعون خلال سنوات حياتي . الآن ، كل ما أعتبره عزيزاً جدا على قلبي ، أثيراً إلى نفسي ، الخمر ، الكلام ، الضحك ، الحب ، معانقة صديق أو صديقة ، النور في حدقتي عشيقة ، لمسة عشيقة ، تلك الرائحة ، ذلك الصراع ، ذلك العذاب الجميل ، المرح الهائل ليوم عمل حافل – كلها ستسرق مني ، كل لحظة عشتها بدت لي وكأنها آخر اللحظات ، لأن موتي ليس أكثر حتمية من العاصفة التي ستهب وتبتلعنا كلنا .

أرحت رأسي على عنق كريستوفر . وقفنا برهة صامتين . دخلنا السيارة . اجتزنا شوارع سان فرانسيسكو . كنت أروم الحديث إلا أن كريستوفر قال لي بصراحة : « لا يجدر بك أن تتكلم ، سوف يتجمهر حولك الناس في ناصية كل شارع ويقلقون راحتك . لقد وعدت بربارة وبيتي بأن أرعاك رعاية حقيقية ، لذا لا تجعلني أواجه المصاعب ، واضح ؟ كن لطيفاً معي » .

قلت له : « الواقع أنني أود معرفة المزيد عما يدور في الشوارع » .

تطلع إليّ وقال : « أنت تعرف كل شيء . أنت ترغب بمعرفة ما إذا لا يزال الجمهور مغرماً بك .. أنت تود أن تعرف رأيهم بك » . تنهد . كان يقود السيارة ببطء شديد . « انظر عدد غفير من الناس يقدرونك ، وبعضهم مغرمون بك . لكنك ، يا ليو .. رجل بدين الآن . هذا رأي معظم الناس بك ، وأنت لا تقدر أن تلومهم . كيف يمكنهم أن يعتقدوا غير هذا ؟ نحن في حال يتوجب علينا فيها معرفة الناس الذين يمكننا أن نمحضهم الثقة . الناس الذين بوسعنا أن "نستخدمهم" .. هذا هو كل ما في الأمر .

حسناً . هؤلاء الناس ، يا ليو ، تضرب مؤخراتهم يوماً بالسياط . إذا ضربوا مؤخرتك بالسياط فسوف يتسرب الخبر إلى الصحف المحلية حالاً . لكن أحداً لا يبالي بما يجري لهؤلاء الأولاد .. لا أحد على الإطلاق ! وكل هذه القوانين والأحاديث المعسولة لا تعني شيئاً البتة ! هي لا تعني شيئاً أبداً . هي روح الناس ، حبيبي ، روح الناس ، هم لا يريدوننا ولا يحبوننا . وبإمكانك أن ترى هذه الروح في وجه كل شرطي أبيض ، هم يقرون هذه القوانين ، اللعنة ، هم كالمعاهدات التي وقعوها مع الهنود . لا شيء غير الأكاذيب . هم لا يتمسكون بتلك المعاهدات ، حبيبي ، هم أرادوا الأرض وأخذوها منهم وهم يصرون على التمسك بها ، ولا يتورعون عن وضع سود هذا البلد خلف الأسلاك الشائكة ، أو قتلهم كالكلاب . أنا أقول لك الحقيقة . خير لك ، يا ليو ، أن تصدّق هذه الحقيقة ، ما لم تود أن تصبح كأخيك ، وتؤمن بالأقاويل المعسولة فيما يتعلق بالمسيح الذي يغير أفئدة الناس . لا يجدر بنا أن نخدم المسيح ، فقد كان أول شخص تخلصوا منه من أجل وحدتهم ؟ هم لا يبغون أن تغير تعاليمه أفئدتهم ، بل استخدموه كي يغيروا الخارطة لصالحهم » . سكت عن الكلام . قال بنبرة مختلفة : « أنا أسعى لقول الحقيقة كما هي . لا يسعنا أن نثق بالبيض في هذا البلد .. ستكون مجانين حتماً إذا وثقنا بهم . لكن ، وهذا شيء طبيعي ، أعداداً غفيرة من السود يفكرون بأنك ربما تكون واحداً منهم ، وبهذا تكون في موقع خاسر ، بشكل من الأشكال ، بنفس القدر الذي يكون فيه البيض في موقع الخسارة » . سكت عن الكلام ثانية ، نظر إليّ ثانية وسألني بغضب جم : « هل فهمتني ؟ » هززت رأسي بالإيجاب ، وضع إحدى يديه فوق ركبتي : « ليو ، أنت إنسان لطيف ، أنا متيم بك ، أتصدقني ؟ » .

« نعم ، أصدقك » .

« إذاً لا تجعل الأشياء الأخرى تثبط عزيمتك ، هذه هي حالنا الآن ، وهكذا ستكون حالنا لأمد من الزمن » . حدق في ساعته . «هي، سنأخذك إلى مكان أعرفه» .

توقف السيارة في شارع مزدحم جداً ، يزدحم بالشبان ، السود والبيض ، بدوا لي يافعين جدا ، لا ريب بدوت لهم شيخاً هرماً جدا ، كانوا يتمتعون بجاذبية غريبة ، لعلهم ذكروني بحالي في الماضي البعيد ، لعلهم ذكروني ، بصورة غامضة ، بشيء ما افتقدناه ، لم ألبس مثل هذه الألبسة ، بالتأكيد ، الخرز ، الحبال ، الأحذية ذات الكعوب العالية ، الأقراط ، لم أكن في الأيام الخوالي أمشي الهوينى ،

أو أجرؤ على معانقة شخص آخر على مرأى من الناس ، أو أكون غير مبال بالمرة بوجود الشرطة ، الذين يجوبون الشوارع أزواجًا أزواجًا ، أو يقفون في مداخل العمارات والأبنية ، حاملين الهراوات ، بلا حراك ، يثبتون أنظارهم على شيء ما أمامهم ، شفاههم تستذكر طعمًا حامضيًا . كان ذلك في آخر الليل إلا أن نوافذ المخازن ما زالت مضاءة ، تبدو النوافذ غريبة المنظر ، تبدو المخازن مفتوحة - إلا أنه لم يسمح لي بالتحقق من الأمر ؛ فقد كان كريستوفر يسير على عجل ، واضعًا إحدى يديه تحت مرفقي . وقف زوجان ، حدقا بي ، ودلف بي كريستوفر إلى مدخل مكان كان فيما مضى صالة سينما . كان يتحتم عليه أن يقف كي يقطع بطاقتين ، فأحسست بحشد من الناس يتجمهرون خلفنا . أحسست بانزعاج شديد . التفت مرة ، لأرى من الذي يقف خلفي ، وابتسمت . فتى ملون ناداني باسمي ، وضحك قائلاً : « حذار يا رجل . أنت تحت المراقبة » .

أجبته : « أعرف » ، ثم دخلنا أنا وكريستوفر الصالة . سألت نفسي : أكان الفتى الملون يقصد أنني تحت مراقبة الشرطة أم مراقبة الناس . ومهما يكون قصده ، فقد كنت خاضعًا لمراقبة الاثنين معًا .

دخلنا مبنى معتمًا وضاجا بالأصوات . كانت جميع المقاعد قد أزيلت من مقدمة المسرح ، وكان المئات من الفتيان والفتيات يملأون هذا الحيز . كان بعضهم واقفين ، والبعض الآخر يقف إزاء الجدران ، منهم من يفترش الأرض ، ومنهم من يعانق صديقته أو خليلته ، ومنهم من يرقص . كان يقف فوق خشبة المسرح أربعة أو خمسة موسيقيين هم من أكثر الموسيقيين صخبًا في تاريخ العالم كله . لا يمكنك أن تحكم عليهم إن كانوا موسيقيين جيدين أم لا ، كانت موسيقاهم صاخبة جداً . لم يكن بالأمر الهام إن كانت موسيقاهم جيدة أم لا ، فهذه الموسيقى ، من الناحية الموضوعية ، لم تكن موجهة إلى مسمعي ، وأنا لا أستطيع الحكم عليها . كان ذلك طقسًا شهدته - شهدته ولم أشارك فيه . هذا الطقس جعلني أفكر بالطقوس الدينية التي شاهدتها في كنيسة كاليب ، في كنائس عدة، جعلني أفكر في الأقدام السود التي ترقص الإسطمب[1]

(١) الإسطمب : ضرب من رقص الجاز . (المترجم)

في طين حقل استقبال الصباح ، أفكر في طقوس أكثر قدمًا من ذلك الطقس ، تجري في غابات يتعفو تشذيبها. كانت الموسيقى تشق طريقها إلى الماضي - إلى المستقبل . بدت وكأنها تحاول إحداث ثقب هائل في العالم ، واستخراج ما هو مدفون . بدت الراقصات ، في الوميض الخاطف ، في الضوء الصارخ ، بخرزهن المتوهجة ، بشعرهن الطويل الطائر ، بأثوابهن الملتفة حول أجسادهن - أو بتنوراتهن الضيقة ، بسراويلهن الضيقة التي تبرز مفاتنهن - مع الموسيقى التي ترغمهم كالبوق الأخير على أن يرقصن بأكفانهن، بعد أن بعثن إلى الحياة. كانت على الحائط أربع شاشات ، وعلى هذه الشاشات تظهر صور خارجية ووجوه تتلوى بلا نهاية ، تتداخل فيما بينها ، في إيقاع جنسي هائل مما جعلني أفكر في كائنات بلا أسماء تتزاوج بصورة عشوائية في وحل العالم ، وفي قاع البحر ، وفي الهواء الذي نتنفسه ، وفي جسد كل منا . بين آن وآخر يميز الرائي وجهًا يظهر على هذه الشاشة . شاهدت وجه (بول برايتر) ، مثلاً ، وبعدها ، أعتقد أنني شاهدت وجهي . لمسني كريستوفر من كتفي .

« أتيت إلى هنا مرتين برفقة بيتي . إنها الجاز وثمة أناس حقيقيون هنا يقومون بأعمال لطيفة جداً . وددت أن أجعلك تشاهدها . لكن علينا أن نهرب بسرعة . بدأ الناس يشخصونك ، على أية حال ، الحفلة تكاد تنتهي » .

« جيد » .

بقيت هناك لحظات أخرى وحاولت أن أستوعب ما يجري بالضبط .

قال كريستوفر : « مسدسات ، نحن بحاجة إلى مسدسات » .

في اليوم التالي قدنا سيارتنا نازلين من هنترز بوينت .

لم أقل شيئًا .

قدنا سيارتنا عبر جولدن جيت (البوابة الذهبية) . لم يكن في بالنا مكان محدد نقصده . كان نهاراً ساطعًا عاصفًا ، أحببت أن أتأمل كريستوفر وهو يقود السيارة . كريستوفر مغرم بالسيارات - أما أنا فلا ، ربما سبب ذلك يعزى إلى أيام الورشة . اندفع الجسر نحونا بعنف ، بدت السماء وكأنها تكاد تهبط ، وكان الماء تحت أقدامنا . قهقه كريستوفر ، تطلع إليَّ ، ثم تطلع فيما حوله . قال : « سيكون يومنا هذا جميلاً » .

أجبته : « نعم » . ثم قلت : « جل ما أتمناه هو أن تحيا أنت » .

سألني : « وحيداً ؟ » .

لم أفهم ما عناه .

كرر سؤاله : « وحيداً ؟ أسير فوق جثث الموتى ؟ أهذا ما تتمناه لي يا ليو ؟ أهذا ما عنيته حين قلت إنك تتمنى لي أن أحيا ؟ » نظر إلى الخليج ثانية . « انظر ، أنا فتى يافع . كنت تحت حوافر الخيل وقد ضربوني بالسلاسل . طيب . أتريدني أن أبقى تحت حوافر الخيل » .

أجبته : « كلا » .

حدق بي . تركنا الجسر ، ووصلنا أخيراً إلى حي لصيد السمك ، لا أذكر اسمه . دخلنا الحي ببطء شديد . « إذا لم تكن تتمنى لي أن أبقى تحت حوافر الخيل » ، قال كريستوفر بوضوحه المرعب وإلحاحه المكبوت . « وأنا أعرف أنك تحبني ولا تود أن تتلطخ يداي بالدم – وهذه ملاحظة – لكنك إن أردتني ألا أبقى تحت حوافر الخيل ، عندئذ أحسب أنك ستوافق على حيازتنا المسدسات . صحيح ؟ » .

أجبته : « أجل . أنا أفهم ذلك » . أوقف السيارة . تطلعت من الأعلى إلى الماء . كان يجثم على فؤادي عبء ثقيل ، هيمن عليَّ الفزع من أن تصيبني نوبة قلبية جديدة . تأملت سحنته السوداء ، المزهوة . قلت له : « لكنهم يفوقوننا عدداً » .

قهقه كريستوفر ، أطفأ محرك السيارة وقال : « اللعنة . المسيحيون الأوائل كانوا أيضاً أقل عدداً » .

تلك الليلة ، بربارة وبيتي ، حجزا لنا في الطائرة المتجهة إلى نيويورك . التقى بنا عند سلم الطائرة كاليب ولويز وأحد أولادهما الذي أمسى كبيراً وقتذاك ، عائلة سوداء محترمة – كانت العائلة محترمة لأن اسمها هو اسمي . وكما دأبنا على القول في أمريكا ، لا شيء ينجح كالنجاح ، هذا الأمر ينطبق على السود أو البيض ، ينطبق على المحترمين من الناس ممن يهمهم النجاح . كريستوفر ووالدي وأنا أمضينا سوية نهاراً

كاملاً . تجولنا خلاله في حي هارلم . بدا والدي وكريستوفر شديدي الشبه ببعضهما . كلاهما ضخم . كلاهما أسود . كلاهما ضاحك . ثم سافرت إلى أوربا وحيداً . بعدها عدت إلى الوطن . أول شيء مثلته هو فيلم « مقدار كبير » . الواقع لم يكن الفيلم ناجحاً جداً . من ثم مثلت مسرحية جديدة . وهانذا . الآن . أجد نفسي واقفاً في الكواليس . منتظراً إشارة الدخول إلى المسرح .

المترجم فى سطور :

على عبد الأمير صالح

- ولد في محافظة واسط - العراق عام ١٩٥٥م .
- خريج كلية طب الأسنان - جامعة بغداد عام ١٩٧٨م ، يمارس الطب منذ عشرين عاماً .
- صدرت له عن دار الشئون الثقافية العامة ببغداد روايتان مترجمتان هما : «حفلة القنبلة» للكاتب البريطاني جراهام جرين عام ١٩٨٩م ، و «طبل من صفيح» للكاتب الألماني جونتر جراس (الحائز على نوبل للآداب) عام ٢٠٠٠م .
- صدرت له حديثاً عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق مجموعته القصصية الأولى : « الهولندى الطائر » .

المراجع فى سطور :

ماهر شفيق فريد

- ناقد ومترجم وقاص .
- ولد بالقاهرة فى ١٩٤٤م .
- تخرج فى كلية الآداب بجامعة القاهرة فى ١٩٦٥م .
- أستاذ مساعد الأدب الإنجليزى بجامعة القاهرة .
- ماجستير من جامعة كيل البريطانية ، ودكتوراه من جامعة القاهرة برسالة موضوعها « أثر ت.س. إليوت فى و.هـ. أودن » .

من مؤلفاته :

- « النقد الإنجليزى الحديث ١٩٧٠م » ، و« الشعر الإنجليزى الحديث ١٩٧١ » ، و «خريف الأزهارالحجرية (قصص قصيرة ١٩٨٤ / طبعة ثانية مزيدة ومنقحة ١٩٩٩م) » ، و« فسيفساء نقدية : تأملات فى العالم الروائى لمحمد جبريل ١٩٩٩م » و« أربعة نقاد معاصرون ١٩٩٩م » و« الرجل ذو الجيتار الأزرق : تأملات فى شعر أحمد تيمور ١٩٩٩م » .

من ترجماته إلى العربية :

- « قصائد ت.س . إليوت ١٩٩٦م » ، و« شذرات شعرية ومسرحية لإليوت ١٩٩٨م » ، و « المختار من نقد ت.س. إليوت (المشروع القومى للترجمة ، ٣ أجزاء ٢٠٠٠م) .

وله فى سلسلة آفاق الترجمة :

- « هبوط الليل : مختارات من شعر و.هـ. أدون ١٩٩٦م » .
- حرر عدداً من الكتب والمختارات الشعرية بالإنجليزية بالاشتراك مع الدكتور محمد عنانى ، ونقل إلى الإنجليزية - بالاشتراك مع سعاد نجيب - مختارات من شعر محمد إبراهيم أبو سنة .

المشروع القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنبًا إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١-	اللغة العليا	جون كوين	أحمد درويش
٢-	الوثنية والإسلام (ط١)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
٣-	التراث المسروق	جورج جيمس	شوقى جلال
٤-	كيف تتم كتابة السيناريو	إنجا كاريتنيكوفا	أحمد الحضرى
٥-	ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
٦-	اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	سعد مصلوح ووفاء كامل فايد
٧-	العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	يوسف الأنطكى
٨-	مشعلو الحرائق	ماكس فريش	مصطفى ماهر
٩-	التغيرات البيئية	أندرو. س. جودى	محمود محمد عاشور
١٠-	خطاب الحكاية	جيرار جينيت	محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١-	مختارات شعرية	فيسوافا شيمبوريسكا	هناء عبد الفتاح
١٢-	طريق الحرير	ديفيد براونيستون وأيرين فرانك	أحمد محمود
١٣-	ديانة الساميين	روبرتسن سميث	عبد الوهاب علوب
١٤-	التحليل النفسى للأدب	جان بيلمان نويل	حسن المودن
١٥-	الحركات الفنية منذ ١٩٤٥	إدوارد لوسى سميث	أشرف رفيق عفيفى
١٦-	أثينة السوداء (جـ١)	مارتن برنال	بإشراف: أحمد عثمان
١٧-	مختارات شعرية	فيليب لاركين	محمد مصطفى بدوى
١٨-	الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	طلعت شاهين
١٩-	الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	نعيم عطية
٢٠-	قصة العلم	ج. ج. كراوثر	يمنى طريف الخولى و بدوى عبد الفتاح
٢١-	خوخة وألف خوخة وقصص أخرى	صمد بهرنجى	ماجدة العنانى
٢٢-	مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	سيد أحمد على الناصرى
٢٣-	تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	سعيد توفيق
٢٤-	ظلال المستقبل	باتريك بارندر	بكر عباس
٢٥-	مثنوى (٦ أجزاء)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦-	دين مصر العام	محمد حسين هيكل	أحمد محمد حسين هيكل
٢٧-	التنوع البشرى الخلاق	مجموعة من المؤلفين	بإشراف: جابر عصفور
٢٨-	رسالة فى التسامح	جون لوك	منى أبو سنة
٢٩-	الموت والوجود	جيمس ب. كارس	بدر الديب
٣٠-	الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
٣١-	مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	عبد الستار الحلوجى وعبد الوهاب علوب
٣٢-	الانقراض	ديفيد روب	مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣-	التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	أحمد فؤاد بلبع
٣٤-	الرواية العربية	روجر آلن	حصة إبراهيم المنيف
٣٥-	الأسطورة والحداثة	بول ب. ديكسون	خليل كلفت
٣٦-	نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	حياة جاسم محمد

٣٧-	واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	جمال عبد الرحيم
٣٨-	نقد الحداثة	آلن تورين	أنور مغيث
٣٩-	الحسد والإغريق	بيتر والكوت	منيرة كروان
٤٠-	قصائد حب	آن سكستون	محمد عيد إبراهيم
٤١-	ما بعد المركزية الأوروبية	بيتر جران	عاطف أحمد وإبراهيم فتحي ومحمود ماجد
٤٢-	عالم ماك	بنجامين باربر	أحمد محمود
٤٣-	اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	المهدي أخريف
٤٤-	بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلي	مارلين تادرس
٤٥-	التراث المغدور	روبرت دينا وجون فاين	أحمد محمود
٤٦-	عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	محمود السيد على
٤٧-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (جـ١)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨-	حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ماهر جويجاتي
٤٩-	الإسلام في البلقان	هـ . ت . نوريس	عبد الوهاب علوب
٥٠-	ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	محمد برادة وعثماني الميلود ويوسف الأنطكي
٥١-	مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م. بينياليستي	محمد أبو العطا
٥٢-	العلاج النفسي التدعيمي	ب. نوفاليس وس. روجسيفيتز وروجر بيل	لطفي فطيم وعادل دمرداش
٥٣-	الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	مرسي سعد الدين
٥٤-	المفهوم الإغريقي للمسرح	ج . مايكل والتون	محسن مصيلحي
٥٥-	ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	علي يوسف علي
٥٦-	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ١)	فديريكو غرسية لوركا	محمود علي مكي
٥٧-	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ٢)	فديريكو غرسية لوركا	محمود السيد و ماهر البطوطي
٥٨-	مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	محمد أبو العطا
٥٩-	المحبرة (مسرحية)	كارلوس مونتييث	السيد السيد سهيم
٦٠-	التصميم والشكل	چوهانز إيتين	صبري محمد عبد الغني
٦١-	موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	بإشراف : محمد الجوهري
٦٢-	لذّة النّص	رولان بارت	محمد خير البقاعي
٦٣-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤-	برتراند راسل (سيرة حياة)	ألان وود	رمسيس عوض
٦٥-	في مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	رمسيس عوض
٦٦-	خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧-	مختارات شعرية	فرناندو بيسوا	المهدي أخريف
٦٨-	نتاشا العجوز وقصص أخرى	ڤالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
٦٩-	العالم الإسلامي في أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	أحمد فؤاد متولي وهويدا محمد فهمي
٧٠-	ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١-	السيدة لا تصلح إلا للرمي	داريو فو	حسين محمود
٧٢-	السياسي العجوز	ت . س . إليوت	فؤاد مجلي
٧٣-	نقد استجابة القارئ	چين ب . تومبكنز	حسن ناظم وعلي حاكم
٧٤-	صلاح الدين والمماليك في مصر	ل . ا . سيميونوفا	حسن بيومي

٧٥-	فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	أحمد درويش
٧٦-	جاك لاكان وإغواء التحليل النفسي	مجموعة من المؤلفين	عبد المقصود عبد الكريم
٧٧-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (جـ٣)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨-	العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	أحمد محمود ونورا أمين
٧٩-	شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكي	سعيد الغانمي وناصر حلاوي
٨٠-	بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	مكارم الغمري
٨١-	الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	محمد طارق الشرقاوي
٨٢-	مسرح ميجيل	ميجيل دي أونامونو	محمود السيد علي
٨٣-	مختارات شعرية	غوتفريد بن	خالد المعالي
٨٤-	موسوعة الأدب والنقد (جـ١)	مجموعة من المؤلفين	عبد الحميد شيحة
٨٥-	منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكي أقطاي	عبد الرازق بركات
٨٦-	طول الليل (رواية)	جمال مير صادقي	أحمد فتحي يوسف شتا
٨٧-	نون والقلم (رواية)	جلال آل أحمد	ماجدة العناني
٨٨-	الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	إبراهيم الدسوقي شتا
٨٩-	الطريق الثالث	أنتوني جيدنز	أحمد زايد ومحمد محيي الدين
٩٠-	وسم السيف وقصص أخرى	بورخيس وآخرون	محمد إبراهيم مبروك
٩١-	المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربرا لاسوتسكا - بشونباك	محمد هناء عبد الفتاح
٩٢-	أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكي المعاصر	كارلوس ميجيل	نادية جمال الدين
٩٣-	محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	عبد الوهاب علوب
٩٤-	مسرحيتا الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	فوزية العشماوي
٩٥-	مختارات من المسرح الإسباني	أنطونيو بويرو باييخو	سري محمد عبد اللطيف
٩٦-	ثلاث زنبقات ووردة وقصص أخرى	نخبة	إدوار الخراط
٩٧-	هوية فرنسا (مج١)	فرنان برودل	بشير السباعي
٩٨-	الهم الإنساني والابتزاز الصهيوني	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٩٩-	تاريخ السينما العالمية (١٨٩٥-١٩٨٠)	ديفيد روبنسون	إبراهيم قنديل
١٠٠-	مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	إبراهيم فتحي
١٠١-	النص الروائي: تقنيات ومناهج	بيرنار فاليط	رشيد بنحدو
١٠٢-	السياسة والتسامح	عبد الكبير الخطيبي	عز الدين الكتاني الإدريسي
١٠٣-	قبر ابن عربي يليه آياء (شعر)	عبد الوهاب المؤدب	محمد بنيس
١٠٤-	أوبرا ماهوجني (مسرحية)	برتولت بريشت	عبد الغفار مكاوي
١٠٥-	مدخل إلى النص الجامع	جيرارجينيت	عبد العزيز شبيل
١٠٦-	الأدب الأندلسي	ماريا خيسوس روبييرامثي	أشرف علي دعدور
١٠٧-	صورة الفدائي في الشعر الأمريكي اللاتيني المعاصر	نخبة من الشعراء	محمد عبد الله الجعيدي
١٠٨-	ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي	مجموعة من المؤلفين	محمود علي مكي
١٠٩-	حروب المياه	جون بولوك وعادل درويش	هاشم أحمد محمد
١١٠-	النساء في العالم النامي	حسنة بيجوم	منى قطان
١١١-	المرأة والجريمة	فرانسس هيدسون	ريهام حسين إبراهيم
١١٢-	الاحتجاج الهادئ	أرلين علوي ماكليود	إكرام يوسف

١١٣- راية التمرد	سادي پلانت	أحمد حسان
١١٤- مسرحيتا حصاد كونجي وسكان المستنقع	وول شوينكا	نسيم مجلي
١١٥- غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	سمية رمضان
١١٦- امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	نهاد أحمد سالم
١١٧- المرأة والجنوسة في الإسلام	ليلى أحمد	منى إبراهيم وهالة كمال
١١٨- النهضة النسائية في مصر	بث بارون	لبيس النقاش
١١٩- النساء والأسرة وقوانين الطلاق في التاريخ الإسلامي	أميرة الأزهري سنبل	بإشراف: رءوف عباس
١٢٠- الحركة النسائية والتطور في الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	مجموعة من المترجمين
١٢١- الدليل الصغير في كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	محمد الجندي وإيزابيل كمال
١٢٢- نظام العبودية القديم والنموذج المثالي للإنسان	چوزيف فوجت	منيرة كروان
١٢٣- الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	أنيتل ألكسندرو فنادوليتا	أنور محمد إبراهيم
١٢٤- الفجر الكاذب: أوهام الرأسمالية العالمية	چون جراي	أحمد فؤاد بلبع
١٢٥- التحليل الموسيقي	سيدرك ثورپ ديڤي	سمحة الخولي
١٢٦- فعل القراءة	ڤولفانج إيسر	عبد الوهاب علوب
١٢٧- إرهاب (مسرحية)	صفاء فتحي	بشير السباعي
١٢٨- الأدب المقارن	سوزان باسنيت	أميرة حسن نويرة
١٢٩- الرواية الإسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠- الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	شوقي جلال
١٣١- مصر القديمة: التاريخ الاجتماعي	مجموعة من المؤلفين	لويس بقطر
١٣٢- ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	عبد الوهاب علوب
١٣٣- الخوف من المرايا (رواية)	طارق علي	طلعت الشايب
١٣٤- تشريح حضارة	باري ج. كيمب	أحمد محمود
١٣٥- المختار من نقد ت. س. إليوت	ت. س. إليوت	ماهر شفيق فريد
١٣٦- فلاحو الباشا	كينيث كونو	سحر توفيق
١٣٧- مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية على مصر	چوزيف ماري مواريه	كاميليا صبحي
١٣٨- عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	أندريه جلوكسمان	وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩- پارسيڤال (مسرحية)	ريتشارد فاچنر	مصطفى ماهر
١٤٠- حيث تلتقي الأنهار	هربرت ميسن	أمل الجبوري
١٤١- اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	نعيم عطية
١٤٢- الإسكندرية: تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	حسن بيومي
١٤٣- قضايا التنظير في البحث الاجتماعي	ديرك لايدر	عدلي السمري
١٤٤- صاحبة اللوكاندة (مسرحية)	كارلو جولدوني	سلامة محمد سليمان
١٤٥- موت أرتيميو كروث (رواية)	كارلوس فوينتس	أحمد حسان
١٤٦- الورقة الحمراء (رواية)	ميجيل دي ليبس	علي عبدالرءوف البمبي
١٤٧- مسرحيتان	تانكريد دورست	عبدالغفار مكاوي
١٤٨- القصة القصيرة: النظرية والتقنية	إنريكي أندرسون إمبرت	علي إبراهيم منوفي
١٤٩- النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	أسامة إسبر
١٥٠- التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	منيرة كروان

١٥١- هوية فرنسا (مج ٢، جـ١)	فرنان بروديل	بشير السباعي
١٥٢- عدالة الهنود وقصص أخرى	مجموعة من المؤلفين	محمد محمد الخطابي
١٥٣- غرام الفراعنة	فيولين فانويك	فاطمة عبدالله محمود
١٥٤- مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	خليل كلفت
١٥٥- الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة من الشعراء	أحمد مرسي
١٥٦- المدارس الجمالية الكبرى	جي انبال والان وأوديت فيرمو	مي التلمساني
١٥٧- خسرو وشيرين	النظامي الكنجوي	عبدالعزيز بقوش
١٥٨- هوية فرنسا (مج ٢، جـ٢)	فرنان بروديل	بشير السباعي
١٥٩- الأيديولوجية	ديفيد هوكس	إبراهيم فتحي
١٦٠- آلة الطبيعة	بول إيرليش	حسين بيومي
١٦١- مسرحيتان من المسرح الإسباني	أليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	زيدان عبدالحليم زيدان
١٦٢- تاريخ الكنيسة	يوحنا الأسيوي	صلاح عبدالعزيز محجوب
١٦٣- موسوعة علم الاجتماع (جـ ١)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهري
١٦٤- شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	نبيل سعد
١٦٥- حكايات الثعلب (قصص أطفال)	أ. ن. أفاناسيفا	سهير المصادفة
١٦٦- العلاقات بين المتدينين والعلمانيين في إسرائيل	يشعياهو ليقمان	محمد محمود أبوغدير
١٦٧- في عالم طاغور	رابندرنات طاغور	شكري محمد عياد
١٦٨- دراسات في الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	شكري محمد عياد
١٦٩- إبداعات أدبية	مجموعة من المؤلفين	شكري محمد عياد
١٧٠- الطريق (رواية)	ميجيل دليبيس	بسام ياسين رشيد
١٧١- وضع حد (رواية)	فرانك بيجو	هدى حسين
١٧٢- حجر الشمس (شعر)	نخبة	محمد محمد الخطابي
١٧٣- معنى الجمال	ولتر ت. ستيس	إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤- صناعة الثقافة السوداء	إيليس كاشمور	أحمد محمود
١٧٥- التليفزيون في الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦- نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	جلال البنا
١٧٧- أنطون تشيخوف	هنري تروايا	حصة إبراهيم المنيف
١٧٨- مختارات من الشعر اليوناني الحديث	نخبة من الشعراء	محمد حمدي إبراهيم
١٧٩- حكايات أيسوب (قصص أطفال)	أيسوب	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠- قصة جاويد (رواية)	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
١٨١- النقد الأدبي الأمريكي من الثلاثينيات إلى الثمانينيات	فنسنت ب. ليتش	محمد يحيى
١٨٢- العنف والنبوءة (شعر)	و. ب. ييتس	ياسين طه حافظ
١٨٣- چان كوكتو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	فتحي العشري
١٨٤- القاهرة حالمة لا تنام	هانز إيندورفر	دسوقي سعيد
١٨٥- أسفار العهد القديم في التاريخ	توماس تومسن	عبد الوهاب علوب
١٨٦- معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل إنوود	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧- الأرضة (رواية)	بُزرج علوي	محمد علاء الدين منصور
١٨٨- موت الأدب	ألفين كرنان	بدر الديب

١٨٩-	العمى والبصيرة: مقالات في بلاغة النقد المعاصر	پول دي مان	سعيد الغانمي
١٩٠-	محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	محسن سيد فرجاني
١٩١-	الكلام رأسمال وقصص أخرى	الحاج أبو بكر إمام وآخرون	مصطفى حجازي السيد
١٩٢-	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ١)	زين العابدين المراغي	محمود علاوي
١٩٣-	عامل المنجم (رواية)	پيتر أبراهامز	محمد عبد الواحد محمد
١٩٤-	مختارات من النقد الأنجلو-أمريكي الحديث	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
١٩٥-	شتاء ٨٤ (رواية)	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
١٩٦-	المهلة الأخيرة (رواية)	ڤالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
١٩٧-	سيرة الفاروق	شمس العلماء شبلي النعماني	جلال السعيد الحفناوي
١٩٨-	الاتصال الجماهيري	إدوين إمري وآخرون	إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩-	تاريخ يهود مصر في الفترة العثمانية	يعقوب لانداو	جمال أحمد الرفاعي وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠-	قضايا التنمية: المقاومة والبدائل	چيرمي سيبروك	فخري لبيب
٢٠١-	الجانب الديني للفلسفة	جوزايا رويس	أحمد الأنصاري
٢٠٢-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (جـ٤)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣-	الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالي	جلال السعيد الحفناوي
٢٠٤-	تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	أحمد هويدي
٢٠٥-	الجينات والشعوب واللغات	لويجي لوقا كافاللي- سفورزا	أحمد مستجير
٢٠٦-	الهيولية تصنع علماً جديداً	چيمس چلايك	علي يوسف علي
٢٠٧-	ليل أفريقي (رواية)	رامون خوتاسندير	محمد أبو العطا
٢٠٨-	شخصية العربي في المسرح الإسرائيلي	دان أوريان	محمد أحمد صالح
٢٠٩-	السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٠-	مثنويات حكيم سنائي (شعر)	سنائي الغزنوي	يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١-	فرديناند دوسوسير	جوناثان كلر	محمود حمدي عبد الغني
٢١٢-	قصص الأمير مرزبان على لسان الحيوان	مرزبان بن رستم بن شروين	يوسف عبدالفتاح فرج
٢١٣-	مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبدالناصر	ريمون فلاور	سيد أحمد علي الناصري
٢١٤-	قواعد جديدة للمنهج في علم الاجتماع	أنتوني جيدنز	محمد محيي الدين
٢١٥-	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٢)	زين العابدين المراغي	محمود علاوي
٢١٦-	جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٧-	مسرحيتان طليعيتان	صمويل بيكيت وهارولد بينتر	نادية البنهاوي
٢١٨-	لعبة الحجلة (رواية)	خوليو كورتازار	علي إبراهيم منوفي
٢١٩-	بقايا اليوم (رواية)	كازو إيشجورو	طلعت الشايب
٢٢٠-	الهيولية في الكون	باري پاركر	علي يوسف علي
٢٢١-	[illegible]رية كافافي	جريجوري جوزدانيس	رفعت سلام
٢٢٢	كافكا	رونالد جراي	نسيم مجلي
٢٢٣	علم في مجتمع حر	پاول فيرابند	السيد محمد نفادي
٢٢٤-	دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	منى عبدالظاهر إبراهيم
٢٢٥-	حكاية غريق (رواية)	جابرييل جارثيا ماركيث	السيد عبدالظاهر السيد
٢٢٦-	أرض المساء وقصائد أخرى	ديڤيد هربت لورانس	طاهر محمد علي البربري

٢٢٧- المسرح الإسباني في القرن السابع عشر	خوسيه ماريا ديث بوركي	السيد عبدالظاهر عبدالله
٢٢٨- علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	ماري تيريز عبدالمسيح وخالد حسن
٢٢٩- مأزق البطل الوحيد	نورمان كيجان	أمير إبراهيم العمري
٢٣٠- عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	مصطفى إبراهيم فهمي
٢٣١- الدرافيل أو الجيل الجديد (مسرحية)	خايمي سالوم بيدال	جمال عبدالرحمن
٢٣٢- ما بعد المعلومات	توم ستونير	مصطفى إبراهيم فهمي
٢٣٣- فكرة الاضمحلال في التاريخ الغربي	آرثر هيرمان	طلعت الشايب
٢٣٤- الإسلام في السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	فؤاد محمد عكود
٢٣٥- ديوان شمس تبريزي (جـ١)	مولانا جلال الدين الرومي	إبراهيم الدسوقي شتا
٢٣٦- الولاية	ميشيل شودكيفيتش	أحمد الطيب
٢٣٧- مصر أرض الوادي	روبين فيدين	عنايات حسين طلعت
٢٣٨- العولمة والتحرير	تقرير لمنظمة الأنكتاد	ياسر محمد جادالله وعربي مدبولي أحمد
٢٣٩- العربي في الأدب الإسرائيلي	جيلا رامراز - رايوخ	نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠- الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كاي حافظ	صلاح محجوب إدريس
٢٤١- في انتظار البرابرة (رواية)	ج . م. كوتزي	ابتسام عبدالله
٢٤٢- سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	صبري محمد حسن
٢٤٣- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج١)	ليفي بروفنسال	بإشراف: صلاح فضل
٢٤٤- الغليان (رواية)	لاورا إسكيبيل	نادية جمال الدين محمد
٢٤٥- نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس وآخرون	توفيق علي منصور
٢٤٦- مختارات قصصية	جابرييل جارثيا ماركيث	علي إبراهيم منوفي
٢٤٧- الثقافة الجماهيرية والحداثة في مصر	والتر أرمبرست	محمد طارق الشرقاوي
٢٤٨- حقول عدن الخضراء (مسرحية)	أنطونيو جالا	عبداللطيف عبدالحليم
٢٤٩- لغة التمزق (شعر)	دراجو شتامبوك	رفعت سلام
٢٥٠- علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ماجدة محسن أباظة
٢٥١- موسوعة علم الاجتماع (جـ٢)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهري
٢٥٢- رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	علي بدران
٢٥٣- تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوفا	حسن بيومي
٢٥٤- أقدم لك: الفلسفة	ديف روبنسون وجودي جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥- أقدم لك: أفلاطون	ديف روبنسون وجودي جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٦- أقدم لك: ديكارت	ديف روبنسون وكريس جارات	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧- تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلي رايت	محمود سيد أحمد
٢٥٨- الغجر	سير أنجوس فريزر	عُبادة كُحيلة
٢٥٩- مختارات من الشعر الأرمني عبر العصور	نخبة	فاروجان كازانجيان
٢٦٠- موسوعة علم الاجتماع (جـ٣)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهري
٢٦١- رحلة في فكر زكي نجيب محمود	زكي نجيب محمود	إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢- مدينة المعجزات (رواية)	إدواردو مندوثا	محمد أبو العطا
٢٦٣- الكشف عن حافة الزمن	جون جريبن	علي يوسف علي
٢٦٤- إبداعات شعرية مترجمة	هوراس وشلي	لويس عوض

٢٦٥-	روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصمويل جونسون	لويس عوض
٢٦٦-	مدير المدرسة (رواية)	جلال آل أحمد	عادل عبدالمنعم على
٢٦٧-	فن الرواية	ميلان كونديرا	بدر الدين عرودكي
٢٦٨-	ديوان شمس تبريزي (جـ٢)	مولانا جلال الدين الرومي	إبراهيم الدسوقي شتا
٢٦٩-	وسط الجزيرة العربية وشرقها (جـ١)	وليم جيفور بالجريف	صبري محمد حسن
٢٧٠-	وسط الجزير العربية وشرقها (جـ٢)	وليم جيفور بالجريف	صبري محمد حسن
٢٧١-	الحضارة الغربية: الفكرة والتاريخ	توماس سي. باترسون	شوقي جلال
٢٧٢-	الأديرة الأثرية في مصر	سي. سي. والترز	إبراهيم سلامة إبراهيم
٢٧٣-	الأصول الاجتماعية والثقافية لحركة عرابي في مصر	جوان كول	عنان الشهاوي
٢٧٤-	السيدة باربارا (رواية)	رومولو جايجوس	محمود علي مكي
٢٧٥-	ت. س. إليوت شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
٢٧٦-	فنون السينما	مجموعة من المؤلفين	عبدالقادر التلمساني
٢٧٧-	الجينات والصراع من أجل الحياة	براين فورد	أحمد فوزي
٢٧٨-	البدايات	إسحاق عظيموف	ظريف عبدالله
٢٧٩-	الحرب الباردة الثقافية	ف. س. سوندرز	طلعت الشايب
٢٨٠-	الأم والنصيب وقصص أخرى	بريم شند وآخرون	سمير عبدالحميد إبراهيم
٢٨١-	الفردوس الأعلى (رواية)	عبد الحليم شرر	جلال الحفناوي
٢٨٢-	طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس وولبرت	سمير حنا صادق
٢٨٣-	السهل يحترق وقصص أخرى	خوان رولفو	على عبد الرءوف البمبي
٢٨٤-	هرقل مجنوناً (مسرحية)	يوريبيديس	أحمد عتمان
٢٨٥-	رحلة خواجة حسن نظامي الدهلوي	حسن نظامي الدهلوي	سمير عبد الحميد إبراهيم
٢٨٦-	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٣)	زين العابدين المراغي	محمود علاوي
٢٨٧-	الثقافة والعولمة والنظام العالمي	أنتوني كنج	محمد يحيى وآخرون
٢٨٨-	الفن الروائي	ديفيد لودج	ماهر البطوطي
٢٨٩-	ديوان منوجهري الدامغاني	أبو نجم أحمد بن قوص	محمد نور الدين عبدالمنعم
٢٩٠-	علم اللغة والترجمة	چورج مونان	أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١-	تاريخ المسرح الإسباني في القرن العشرين (جـ١)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٢-	تاريخ المسرح الإسباني في القرن العشرين (جـ٢)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٣-	مقدمة للأدب العربي	روجر آلن	مجدي توفيق وآخرون
٢٩٤-	فن الشعر	بوالو	رجاء ياقوت
٢٩٥-	سلطان الأسطورة	چوزيف كامبل وبيل مويرز	بدر الديب
٢٩٦-	مكبث (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوي
٢٩٧-	فن النحو بين اليونانية والسريانية	ديونيسيوس ثراكس ويوسف الأهوازي	ماجدة محمد أنور
٢٩٨-	مأساة العبيد وقصص أخرى	نخبة	مصطفى حجازي السيد
٢٩٩-	ثورة في التكنولوجيا الحيوية	چين ماركس	هاشم أحمد محمد
٣٠٠-	أسطورة بروميثيوس في الأدبين الإنجليزي والفرنسي (مج١)	لويس عوض	جمال الجزيري وبهاء چاهين وإيزابيل كمال
٣٠١-	أسطورة بروميثيوس في الأدبين الإنجليزي والفرنسي (مج٢)	لويس عوض	جمال الجزيري و محمد الجندي
٣٠٢-	أقدم لك: فتجنشتين	چون هيتون وچودي جروفز	إمام عبد الفتاح إمام

٣٠٣- أقدم لك: بوذا	جين هوب وبورن فان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤- أقدم لك: ماركس	ريوس	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥- الجلد (رواية)	كروزيو مالابارته	صلاح عبد الصبور
٣٠٦- الحماسة: النقد الكانطي للتاريخ	چان فرانسوا ليوتار	نبيل سعد
٣٠٧- أقدم لك: الشعور	ديڤيد بابينو وهوارد سلينا	محمود مكي
٣٠٨- أقدم لك: علم الوراثة	ستيف جونز وبورين فان لو	ممدوح عبد المنعم
٣٠٩- أقدم لك: الذهن والمخ	أنجوس جيلاتي وأوسكار زاريت	جمال الجزيري
٣١٠- أقدم لك: يونج	ماجي هايد ومايكل ماكجنس	محيي الدين مزيد
٣١١- مقال في المنهج الفلسفي	ر. ج كولنجوود	فاطمة إسماعيل
٣١٢- روح الشعب الأسود	وليم ديبويس	أسعد حليم
٣١٣- أمثال فلسطينية (شعر)	خايير بيان	محمد عبدالله الجعيدي
٣١٤- مارسيل دوشامب: الفن كعدم	چانيس مينيك	هويدا السباعي
٣١٥- جرامشي في العالم العربي	ميشيل بروندينو والطاهر لبيب	كاميليا صبحي
٣١٦- محاكمة سقراط	أي. ف. ستون	نسيم مجلي
٣١٧- بلا غد	س. شير لايموڤا- س. زنيكين	أشرف الصباغ
٣١٨- الأدب الروسي في السنوات العشر الأخيرة	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٣١٩- صور دريدا	جايتري سبيڤاك وكرستوفر نوريس	حسام نايل
٣٢٠- لمعة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	محمد علاء الدين منصور
٣٢١- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ١)	ليڤي برو ڤنسال	بإشراف: صلاح فضل
٣٢٢- وجهات نظر حديثة في تاريخ الفن الغربي	دبليو بوچين كلينباور	خالد مفلح حمزة
٣٢٣- فن الساتورا	تراث يوناني قديم	هانم محمد فوزي
٣٢٤- اللعب بالنار (رواية)	أشرف أسدي	محمود علاوي
٣٢٥- عالم الآثار (رواية)	فيليب بوسان	كرستين يوسف
٣٢٦- المعرفة والمصلحة	يورجين هابرماس	حسن صقر
٣٢٧- مختارات شعرية مترجمة (جـ١)	نخبة	توفيق علي منصور
٣٢٨- يوسف وزليخا (شعر)	نور الدين عبد الرحمن الجامي	عبد العزيز بقوش
٣٢٩- رسائل عيد الميلاد (شعر)	تد هيوز	محمد عيد إبراهيم
٣٣٠- كل شيء عن التمثيل الصامت	مارفن شيرد	سامي صلاح
٣٣١- عندما جاء السردين وقصص أخرى	ستيفن جراي	سامية دياب
٣٣٢- شهر العسل وقصص أخرى	نخبة	علي إبراهيم منوفي
٣٣٣- الإسلام في بريطانيا من ١٥٥٨-١٦٨٥	نبيل مطر	بكر عباس
٣٣٤- لقطات من المستقبل	آرثر كلارك	مصطفى إبراهيم فهمي
٣٣٥- عصر الشك: دراسات عن الرواية	ناتالي ساروت	فتحي العشري
٣٣٦- متون الأهرام	نصوص مصرية قديمة	حسن صابر
٣٣٧- فلسفة الولاء	چوزايا رويس	أحمد الأنصاري
٣٣٨- نظرات حائرة وقصص أخرى	نخبة	جلال الحفناوي
٣٣٩- تاريخ الأدب في إيران (جـ٣)	إدوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٣٤٠- اضطراب في الشرق الأوسط	بيرش بيربروجلو	فخري لبيب

٣٤١- قصائد من رلكه (شعر)	راينر ماريا ريلكه	حسن حلمى
٣٤٢- سلامان وأبسال (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامى	عبد العزيز بقوش
٣٤٣- العالم البرجوازى الزائل (رواية)	نادين جورديمر	سمير عبد ربه
٣٤٤- الموت فى الشمس (رواية)	بيتر بالانجيو	سمير عبد ربه
٣٤٥- الركض خلف الزمان (شعر)	يونه ندائى	يوسف عبد الفتاح فرج
٣٤٦- سحر مصر	رشاد رشدى	جمال الجزيرى
٣٤٧- الصبية الطائشون (رواية)	جان كوكتو	بكر الحلو
٣٤٨- المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ١)	محمد فؤاد كوبريلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٣٤٩- دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	ارثر والدهورن وآخرون	أحمد عمر شاهين
٣٥٠- بانوراما الحياة السياحية	مجموعة من المؤلفين	عطية شحاتة
٣٥١- مبادئ المنطق	جوزايا رويس	أحمد الانصارى
٣٥٢- قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	نعيم عطية
٣٥٣- الفن الإسلامى فى الأندلس: الزخرفة الهندسية	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٣٥٤- الفن الإسلامى فى الأندلس: الزخرفة النباتية	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٣٥٥- التيارات السياسية فى إيران المعاصرة	حجت مرتجى	محمود علاوى
٣٥٦- الميراث المر	بول سالم	بدر الرفاعى
٣٥٧- متون هرمس	تيموثى فريك وبيتر غاندى	عمر الفاروق عمر
٣٥٨- أمثال الهوسا العامية	نخبة	مصطفى حجازى السيد
٣٥٩- محاورة بارمنيدس	أفلاطون	حبيب الشارونى
٣٦٠- أنثروبولوجيا اللغة	أندريه جاكوب ونويلا باركان	ليلى الشربينى
٣٦١- التصحر: التهديد والمجابهة	الان جرينجر	عاطف معتمد وآمال شاور
٣٦٢- تلميذ بابنبرج (رواية)	هاينرش شبورل	سيد أحمد فتح الله
٣٦٣- حركات التحرير الأفريقية	ريتشارد جيبسون	صبرى محمد حسن
٣٦٤- حداثة شكسبير	إسماعيل سراج الدين	نجلاء أبو عجاج
٣٦٥- سأم باريس (شعر)	شارل بودلير	محمد أحمد حمد
٣٦٦- نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	مصطفى محمود محمد
٣٦٧- القلم الجرئ	مجموعة من المؤلفين	البرّاق عبدالهادى رضا
٣٦٨- المصطلح السردى: معجم مصطلحات	جيرالد برنس	عابد خزندار
٣٦٩- المرأة فى أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوى	فوزية العشماوى
٣٧٠- الفن والحياة فى مصر الفرعونية	كليرلا لويت	فاطمة عبدالله محمود
٣٧١- المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ٢)	محمد فؤاد كوبريلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٣٧٢- عاش الشباب (رواية)	وانغ مينغ	وحيد السعيد عبدالحميد
٣٧٣- كيف تعد رسالة دكتوراه	أومبرتو إيكو	على إبراهيم منوفى
٣٧٤- اليوم السادس (رواية)	أندريه شديد	حمادة إبراهيم
٣٧٥- الخلود (رواية)	ميلان كونديرا	خالد أبو اليزيد
٣٧٦- الغضب وأحلام السنين (مسرحيات)	جان أنوى وآخرون	إدوار الخراط
٣٧٧- تاريخ الأدب فى إيران (جـ١)	إدوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٣٧٨- المسافر (شعر)	محمد إقبال	يوسف عبدالفتاح فرج

٣٧٩-	ملك في الحديقة (رواية)	سنيل باث	جمال عبدالرحمن
٣٨٠-	حديث عن الخسارة	جونتر جراس	شيرين عبدالسلام
٣٨١-	أساسيات اللغة	ر. ل. تراسك	رانيا إبراهيم يوسف
٣٨٢-	تاريخ طبرستان	بهاء الدين محمد اسفنديار	أحمد محمد نادى
٣٨٣-	هدية الحجاز (شعر)	محمد إقبال	سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٨٤-	القصص التي يحكيها الأطفال	سوزان إنجيل	إيزابيل كمال
٣٨٥-	مشترى العشق (رواية)	محمد علي بهزادراد	يوسف عبدالفتاح فرج
٣٨٦-	دفاعاً عن التاريخ الأدبي النسوى	جانيت تود	ريهام حسين إبراهيم
٣٨٧-	أغنيات وسوناتات (شعر)	جون دن	بهاء چاهين
٣٨٨-	مواعظ سعدى الشيرازى (شعر)	سعدى الشيرازى	محمد علاء الدين منصور
٣٨٩-	تفاهم وقصص أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٩٠-	الأرشيفات والمدن الكبرى	إم. في. روبرتس	عثمان مصطفى عثمان
٣٩١-	الحافلة الليلكية (رواية)	مايف بينشي	منى الدروبى
٣٩٢-	مقامات ورسائل أندلسية	فرناندو دي لاجرانجا	عبداللطيف عبدالحليم
٣٩٣-	في قلب الشرق	ندوة لويس ماسينيون	زينب محمود الخضيرى
٣٩٤-	القوى الأربع الأساسية في الكون	بول ديفيز	هاشم أحمد محمد
٣٩٥-	آلام سياوش (رواية)	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
٣٩٦-	السافاك	تقي نجاري راد	محمود علاوى
٣٩٧-	أقدم لك: نيتشه	لورانس جين وكيتي شين	إمام عبدالفتاح إمام
٣٩٨-	أقدم لك: سارتر	فيليب تودي وهوارد ريد	إمام عبدالفتاح إمام
٣٩٩-	أقدم لك: كامى	ديفيد ميروفتش والن كوركس	إمام عبدالفتاح إمام
٤٠٠-	مومو (رواية)	ميشائيل إنده	باهر الجوهرى
٤٠١-	أقدم لك: علم الرياضيات	زياودن ساردر وآخرون	ممدوح عبد المنعم
٤٠٢-	أقدم لك: ستيفن هوكنج	ج. ب. ماك إيفوى وأوسكار زاريت	ممدوح عبدالمنعم
٤٠٣-	ربة المطر والملابس تصنع الناس (روايتان)	تودور شتورم وجوتفرد كولر	عماد حسن بكر
٤٠٤-	تعويذة الحسى	ديفيد إبرام	ظبية خميس
٤٠٥-	إيزابيل (رواية)	أندريه جيد	حمادة إبراهيم
٤٠٦-	المستعربون الإسبان في القرن ١٩	مانويلا مانتاناريس	جمال عبد الرحمن
٤٠٧-	الأدب الإسباني المعاصر بأقلام كتابه	مجموعة من المؤلفين	طلعت شاهين
٤٠٨-	معجم تاريخ مصر	جوان فوتشركنج	عنان الشهاوى
٤٠٩-	انتصار السعادة	برتراند راسل	إلهامى عمارة
٤١٠-	خلاصة القرن	كارل بوبر	الزواوى بغورة
٤١١-	همس من الماضى	جينيفر أكرمان	أحمد مستجير
٤١٢-	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، ج٢)	ليفي بروفنسال	بإشراف: صلاح فضل
٤١٣-	أغنيات المنفى (شعر)	ناظم حكمت	محمد البخارى
٤١٤-	الجمهورية العالمية للآداب	باسكال كازانوفا	أمل الصبان
٤١٥-	صورة كوكب (مسرحية)	فريدريش دورينمات	أحمد كامل عبدالرحيم
٤١٦-	مبادئ النقد الأدبي والعلم والشعر	أ. أ. رتشاردز	محمد مصطفى بدوى

٤١٧-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (جـ٥)	رينيه ويليك	مجاهد عبدالمنعم مجاهد
٤١٨-	سياسات الزمر الحاكمة في مصر العثمانية	جين هاثواي	عبد الرحمن الشيخ
٤١٩-	العصر الذهبي للإسكندرية	جون مارلو	نسيم مجلي
٤٢٠-	مكرو ميجاس (قصة فلسفية)	فولتير	الطيب بن رجب
٤٢١-	الولاء والقيادة في المجتمع الإسلامي الأول	روى متحدة	أشرف كيلاني
٤٢٢-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ١)	ثلاثة من الرحالة	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٤٢٣-	إسراءات الرجل الطيف	نخبة	وحيد النقاش
٤٢٤-	لوائح الحق ولوامع العشق (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامي	محمد علاء الدين منصور
٤٢٥-	من طاووس إلى فرح	محمود طلوعي	محمود علاوي
٤٢٦-	الخفافيش وقصص أخرى	نخبة	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧-	باندراس الطاغية (رواية)	باي إنكلان	ثريا شلبي
٤٢٨-	الخزانة الخفية	محمد هوتك بن داود خان	محمد أمان صافي
٤٢٩-	أقدم لك: هيجل	ليود سبنسر وأندزجي كروز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٠-	أقدم لك: كانط	كرستوفر وانت وأندزجي كليموفسكي	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣١-	أقدم لك: فوكو	كريس هوروكس وزوران جفتيك	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٢-	أقدم لك: ماكيافللي	باتريك كيري وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٣-	أقدم لك: جويس	ديفيد نوريس وكارل فلنت	حمدي الجابري
٤٣٤-	أقدم لك: الرومانسية	دونكان هيث وجودي بورهام	عصام حجازي
٤٣٥-	توجهات ما بعد الحداثة	نيكولاس زربرج	ناجي رشوان
٤٣٦-	تاريخ الفلسفة (مج١)	فردريك كوبلستون	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٧-	رحالة هندي في بلاد الشرق العربي	شبلي النعماني	جلال الحفناوي
٤٣٨-	بطلات وضحايا	إيمان ضياء الدين بيبرس	عايدة سيف الدولة
٤٣٩-	موت المرابي (رواية)	صدر الدين عيني	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٤٠-	قواعد اللهجات العربية الحديثة	كرستن بروستاد	محمد طارق الشرقاوي
٤٤١-	رب الأشياء الصغيرة (رواية)	أرونداتي روي	فخري لبيب
٤٤٢-	حتشبسوت: المرأة الفرعونية	فوزية أسعد	ماهر جويجاتي
٤٤٣-	اللغة العربية: تاريخها ومستوياتها وتأثيرها	كيس فرستيغ	محمد طارق الشرقاوي
٤٤٤-	أمريكا اللاتينية: الثقافات القديمة	لاوريت سيجورنه	صالح علماني
٤٤٥-	حول وزن الشعر	پرويز ناتل خانلري	محمد محمد يونس
٤٤٦-	التحالف الأسود	الكسندر كوكبرن وجيفري سانت كلير	أحمد محمود
٤٤٧-	ملحمة السِّيد	تراث شعبي إسباني	الطاهر أحمد مكي
٤٤٨-	الفلاحون (ميراث الترجمة)	الأب عيروط	محي الدين اللبان ووليم داوود مرقس
٤٤٩-	أقدم لك: الحركة النسوية	نخبة	جمال الجزيري
٤٥٠-	أقدم لك: ما بعد الحركة النسوية	صوفيا فوكا وريبيكا رايت	جمال الجزيري
٤٥١-	أقدم لك: الفلسفة الشرقية	ريتشارد أوزبورن وبورن ڤان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٢-	أقدم لك: لينين والثورة الروسية	ريتشارد إبجينانزي وأوسكار زاريت	محيي الدين مزيد
٤٥٣-	القاهرة: إقامة مدينة حديثة	جان لوك أرنو	حليم طوسون وفؤاد الدهان
٤٥٤-	خمسون عاماً من السينما الفرنسية	رينيه بريدال	سوزان خليل

٤٥٥-	تاريخ الفلسفة الحديثة (مج٥)	فردريك كوبلستون	محمود سيد أحمد
٤٥٦-	لا تنسني (رواية)	مريم جعفري	فوبدا عزت محمد
٤٥٧-	النساء في الفكر السياسي الغربي	سوزان مولر أوكين	إمام عبدالفتاح إمام
٤٥٨-	الموريسكيون الأندلسيون	مرثيديس غارثيا أرينال	جمال عبد الرحمن
٤٥٩-	نحو مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية	توم تيتنبرج	جلال البنا
٤٦٠-	أقدم لك: الفاشية والنازية	ستوارت هود وليتزا جانستز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦١-	أقدم لك: لكان	داريان ليدر وجودي جروفز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦٢-	طه حسين من الأزهر إلى السوربون	عبدالرشيد الصادق محمودي	عبدالرشيد الصادق محمودي
٤٦٣-	الدولة المارقة	ويليام بلوم	كمال السيد
٤٦٤-	ديمقراطية للقلة	مايكل بارنتي	حصة إبراهيم المنيف
٤٦٥-	قصص اليهود	لويس جنزبيرج	جمال الرفاعي
٤٦٦-	حكايات حب وبطولات فرعونية	فيولين فانويك	فاطمة عبد الله
٤٦٧-	التفكير السياسي والنظرية السياسية	ستيفين ديلو	ربيع وهبة
٤٦٨-	روح الفلسفة الحديثة	جوزايا رويس	أحمد الأنصاري
٤٦٩-	جلال الملوك	نصوص حبشية قديمة	مجدي عبدالرازق
٤٧٠-	الأراضي والجودة البيئية	جاري م. بيرزنسكي وآخرون	محمد السيد الننة
٤٧١-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ٢)	ثلاثة من الرحالة	عبد الله عبد الرازق إبراهيم
٤٧٢-	دون كيخوتي (القسم الأول)	ميجيل دي ثربانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٣-	دون كيخوتي (القسم الثاني)	ميجيل دي ثربانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٤-	الأدب والنسوية	بام موريس	سهام عبدالسلام
٤٧٥-	صوت مصر: أم كلثوم	فرجينيا دانيلسون	عادل هلال عناني
٤٧٦-	أرض الحبايب بعيدة: بيرم التونسي	ماريلين بوث	سحر توفيق
٤٧٧-	تاريخ الصين منذ ما قبل التاريخ حتى القرن العشرين	هيلدا هوخام	أشرف كيلاني
٤٧٨-	الصين والولايات المتحدة	ليوشيه شنج و لي شي دونج	عبد العزيز حمدي
٤٧٩-	المقهى (مسرحية)	لاو شه	عبد العزيز حمدي
٤٨٠-	تساي ون جي (مسرحية)	كو مو روا	عبد العزيز حمدي
٤٨١-	بردة النبي	روى متحدة	رضوان السيد
٤٨٢-	موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية	روبير جاك تيبو	فاطمة عبد الله
٤٨٣-	النسوية وما بعد النسوية	سارة جامبل	أحمد الشامي
٤٨٤-	جمالية التلقي	هانس روبيرت ياوس	رشيد بنحدو
٤٨٥-	التوبة (رواية)	نذير أحمد الدهلوي	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٦-	الذاكرة الحضارية	يان أسمن	عبدالحليم عبدالغني رجب
٤٨٧-	الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية	رفيع الدين المراد آبادي	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٨-	الحب الذي كان وقصائد أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٩-	هُسِرل: الفلسفة علماً دقيقاً	إدموند هُسِرل	محمود رجب
٤٩٠-	أسمار الببغاء	محمد قادري	عبد الوهاب علوب
٤٩١-	نصوص قصصية من روائع الأدب الأفريقي	نخبة	سمير عبد ربه
٤٩٢-	محمد علي مؤسس مصر الحديثة	جي فارجيت	محمد رفعت عواد

٤٩٣-	خطابات إلى طالب الصوتيات	هارولد بالمر	محمد صالح الضالع
٤٩٤-	كتاب الموتى: الخروج في النهار	نصوص مصرية قديمة	شريف الصيفي
٤٩٥-	اللوبي	إدوارد تيفان	حسن عبد ربه المصري
٤٩٦-	الحكم والسياسة في أفريقيا (جـ١)	إكوادو بانولي	مجموعة من المترجمين
٤٩٧-	العلمانية والنوع والدولة في الشرق الأوسط	نادية العلي	مصطفى رياض
٤٩٨-	النساء والنوع في الشرق الأوسط الحديث	جوديث تاكر ومارجريت مريويذر	أحمد علي بدوي
٤٩٩-	تقاطعات: الأمة والمجتمع والنوع	مجموعة من المؤلفين	فيصل بن خضراء
٥٠٠-	في طفولتي: دراسة في السيرة الذاتية العربية	تيتز رووكي	طلعت الشايب
٥٠١-	تاريخ النساء في الغرب (جـ١)	أرثر جولد هامر	سحر فراج
٥٠٢-	أصوات بديلة	مجموعة من المؤلفين	هالة كمال
٥٠٣-	مختارات من الشعر الفارسي الحديث	نخبة من الشعراء	محمد نور الدين عبدالمنعم
٥٠٤-	كتابات أساسية (جـ١)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
٥٠٥-	كتابات أساسية (جـ٢)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
٥٠٦-	ربما كان قديساً (رواية)	آن تيلر	عبدالحميد فهمي الجمال
٥٠٧-	سيدة الماضي الجميل (مسرحية)	بيتر شيفر	شوقي فهيم
٥٠٨-	المولوية بعد جلال الدين الرومي	عبدالباقي جلبنارلي	عبدالله أحمد إبراهيم
٥٠٩-	الفقر والإحسان في عصر سلاطين المماليك	آدم صبرة	قاسم عبده قاسم
٥١٠-	الأرملة الماكرة (مسرحية)	كارلو جولدوني	عبدالرازق عيد
٥١١-	كوكب مرقَّع (رواية)	آن تيلر	عبدالحميد فهمي الجمال
٥١٢-	كتابة النقد السينمائي	تيموثي كوريجان	جمال عبد الناصر
٥١٣-	العلم الجسور	تيد أنتون	مصطفى إبراهيم فهمي
٥١٤-	مدخل إلى النظرية الأدبية	جونثان كولر	مصطفى بيومي عبد السلام
٥١٥-	من التقليد إلى ما بعد الحداثة	فدوى مالطي دوجلاس	فدوى مالطي دوجلاس
٥١٦-	إرادة الإنسان في علاج الإدمان	أرنولد واشنطون ودونا باونذى	صبري محمد حسن
٥١٧-	نقش على الماء وقصص أخرى	نخبة	سمير عبد الحميد إبراهيم
٥١٨-	استكشاف الأرض والكون	إسحق عظيموف	هاشم أحمد محمد
٥١٩-	محاضرات في المثالية الحديثة	جوزايا رويس	أحمد الأنصاري
٥٢٠-	الولع الفرنسي بمصر من الحلم إلى المشروع	أحمد يوسف	أمل الصبان
٥٢١-	قاموس تراجم مصر الحديثة	آرثر جولد سميث	عبدالوهاب بكر
٥٢٢-	إسبانيا في تاريخها	أميركو كاسترو	علي إبراهيم منوفي
٥٢٣-	الفن الطليطلي الإسلامي والمدجن	باسيليو بابون مالدونادو	علي إبراهيم منوفي
٥٢٤-	الملك لير (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوي
٥٢٥-	موسم صيد في بيروت وقصص أخرى	دنيس جونسون	نادية رفعت
٥٢٦-	أقدم لك: السياسة البيئية	ستيفن كرول ووليم رانكين	محيي الدين مزيد
٥٢٧-	أقدم لك: كافكا	ديفيد زين ميروفتس وروبرت كرمب	جمال الجزيري
٥٢٨-	أقدم لك: تروتسكي والماركسية	طارق علي وفِلْ إيفانز	جمال الجزيري
٥٢٩-	بدائع العلامة إقبال في شعره الأردي	محمد إقبال	حازم محفوظ
٥٣٠-	مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية	رينيه جينو	عمر الفاروق عمر

٥٣١- ما الذي حدث في «حدث» ١١ سبتمبر؟	جاك دريدا	صفاء فتحي
٥٣٢- المقامر والمستشرق	هنري لورنس	بشير السباعي
٥٣٣- تعلُّم اللغة الثانية	سوزان جاس	محمد طارق الشرقاوي
٥٣٤- الإسلاميون الجزائريون	سيفرين لابا	حمادة إبراهيم
٥٣٥- مخزن الأسرار (شعر)	نظامي الكنجوي	عبدالعزيز بقوش
٥٣٦- الثقافات وقيم التقدم	صمويل هنتنجتون ولورانس هاريزون	شوقي جلال
٥٣٧- الحب والحرية (شعر)	نخبة	عبدالغفار مكاوي
٥٣٨- النفس والآخر في قصص يوسف الشاروني	كيت دانيلر	محمد الحديدى
٥٣٩- خمس مسرحيات قصيرة	كاريل تشرشل	محسن مصيلحي
٥٤٠- توجهات بريطانية - شرقية	السير رونالد ستورس	رءوف عباس
٥٤١- هي تتخيل وهلاوس أخرى	خوان خوسيه مياس	مروة رزق
٥٤٢- قصص مختارة من الأدب اليوناني الحديث	نخبة	نعيم عطية
٥٤٣- أقدم لك: السياسة الأمريكية	باتريك بروجان وكريس جرات	وفاء عبدالقادر
٥٤٤- أقدم لك: ميلاني كلاين	روبرت هنشل وآخرون	حمدي الجابري
٥٤٥- يا له من سباق محموم	فرانسيس كريك	عزت عامر
٥٤٦- ريموس	ت. ب. وايزمان	توفيق علي منصور
٥٤٧- أقدم لك: بارت	فيليب تودي وآن كورس	جمال الجزيري
٥٤٨- أقدم لك: علم الاجتماع	ريتشارد أوزبرن وبورن فان لون	حمدي الجابري
٥٤٩- أقدم لك: علم العلامات	بول كوبلي وليتاجانز	جمال الجزيري
٥٥٠- أقدم لك: شكسبير	نيك جروم وبيرو	حمدي الجابري
٥٥١- الموسيقى والعولمة	سايمون ماندي	سمحة الخولي
٥٥٢- قصص مثالية	ميجيل دي ثربانتس	على عبد الرءوف البمبي
٥٥٣- مدخل للشعر الفرنسي الحديث والمعاصر	دانيال لوفرس	رجاء ياقوت
٥٥٤- مصر في عهد محمد علي	عفاف لطفي السيد مارسوه	عبدالسميع عمر زين الدين
٥٥٥- الإستراتيجية الأمريكية للقرن الحادي والعشرين	أناتولي أوتكين	أنور محمد إبراهيم ومحمد نصرالدين الجبالي
٥٥٦- أقدم لك: جان بودريار	كريس هوروكس وزوران جيفتك	حمدي الجابري
٥٥٧- أقدم لك: الماركيز دي ساد	ستوارت هود وجراهام كرولي	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٨- أقدم لك: الدراسات الثقافية	زيودين ساردار وبورين فان لون	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٩- الماس الزائف (رواية)	تشا تشاجي	عبدالحي أحمد سالم
٥٦٠- صلصلة الجرس (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوي
٥٦١- جناح جبريل (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوي
٥٦٢- بلايين وبلايين	كارل ساجان	عزت عامر
٥٦٣- ورود الخريف (مسرحية)	خاثينتو بينابينتي	صبري محمدي التهامي
٥٦٤- عُش الغريب (مسرحية)	خاثينتو بينابينتي	صبري محمدي التهامي
٥٦٥- الشرق الأوسط المعاصر	ديبورا ج. جيرنر	أحمد عبدالحميد أحمد
٥٦٦- تاريخ أوروبا في العصور الوسطى	موريس بيشوب	على السيد على
٥٦٧- الوطن المغتصب	مايكل رايس	إبراهيم سلامة إبراهيم
٥٦٨- الأصولي في الرواية	عبد السلام حيدر	عبد السلام حيدر

٥٦٩- موقع الثقافة	هومي بابا	ثائر ديب
٥٧٠- دول الخليج الفارسي	سير رويرت هاي	يوسف الشاروني
٥٧١- تاريخ النقد الإسباني المعاصر	إيميليا دي ثوليتا	السيد عبد الظاهر
٥٧٢- الطب في زمن الفراعنة	برونو أليوا	كمال السيد
٥٧٣- أقدم لك: فرويد	ريتشارد ابيجناتس وأسكار زارتي	جمال الجزيري
٥٧٤- مصر القديمة في عيون الإيرانيين	حسن بيرنيا	علاء الدين السباعي
٥٧٥- الاقتصاد السياسي للعولمة	نجير وودز	أحمد محمود
٥٧٦- فكر ثربانتس	أمريكو كاسترو	ناهد العشري محمد
٥٧٧- مغامرات بينوكيو	كارلو كولودي	محمد قدري عمارة
٥٧٨- الجماليات عند كيتس وهنت	أيومي ميزوكوشي	محمد إبراهيم وعصام عبد الرءوف
٥٧٩- أقدم لك: تشومسكي	جون ماهر وجودي جروينز	محيي الدين مزيد
٥٨٠- دائرة المعارف الدولية (مج١)	جون فيزر وبول سيترجز	بإشراف: محمد فتحي عبدالهادي
٥٨١- الحمقى يموتون (رواية)	ماريو بوزو	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٢- مرايا على الذات (رواية)	هوشنك كلشيري	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٣- الجيران (رواية)	أحمد محمود	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٤- سفر (رواية)	محمود دولت آبادي	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٥- الأمير احتجاب (رواية)	هوشنك كلشيري	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٦- السينما العربية والأفريقية	ليزبيث مالكموس وروى أرمز	سهام عبد السلام
٥٨٧- تاريخ تطور الفكر الصيني	مجموعة من المؤلفين	عبدالعزيز حمدي
٥٨٨- أمنحوتب الثالث	أنييس كابرول	ماهر جويجاتي
٥٨٩- تمبكت العجيبة	فيلكس ديبوا	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٥٩٠- أساطير من الموروثات الشعبية الفنلندية	نخبة	محمود مهدي عبدالله
٥٩١- الشاعر والمفكر	هورانيوس	علي عبدالتواب علي وصلاح رمضان السيد
٥٩٢- الثورة المصرية (جـ١)	محمد صبري السوربوني	مجدي عبدالحافظ وعلي كورخان
٥٩٣- قصائد ساحرة	بول فاليري	بكر الحلو
٥٩٤- القلب السمين (قصة أطفال)	سوزانا تامارو	أماني فوزي
٥٩٥- الحكم والسياسة في أفريقيا (جـ٢)	إكوادو بانولي	مجموعة من المترجمين
٥٩٦- الصحة العقلية في العالم	روبرت ديجارليه وآخرون	إيهاب عبدالرحيم محمد
٥٩٧- مسلمو غرناطة	خوليو كارو باروخا	جمال عبدالرحمن
٥٩٨- مصر وكنعان وإسرائيل	دونالد ريدفورد	بيومي علي قنديل
٥٩٩- فلسفة الشرق	هرداد مهرين	محمود علاوي
٦٠٠- الإسلام في التاريخ	برنارد لويس	مدحت طه
٦٠١- النسوية والمواطنة	ريان فوت	أيمن بكر وسمر الشيشكلي
٦٠٢- ليوتار نحو فلسفة ما بعد حداثية	جيمس وليامز	إيمان عبدالعزيز
٦٠٣- النقد الثقافي	آرثر أيزابرجر	وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسي
٦٠٤- الكوارث الطبيعية (مج١)	باتريك ل. أبوت	توفيق علي منصور
٦٠٥- مخاطر كوكبنا المضطرب	إرنست زيبروسكي (الصغير)	مصطفى إبراهيم فهمي
٦٠٦- قصة البردي اليوناني في مصر	رينشارد هاريس	محمود إبراهيم السعدني

٦٠٧- قلب الجزيرة العربية (جـ١)	هاري سينت فيلبي	صبري محمد حسن
٦٠٨- قلب الجزيرة العربية (جـ٢)	هاري سينت فيلبي	صبري محمد حسن
٦٠٩- الانتخاب الثقافي	أجنر فوج	شوقي جلال
٦١٠- العمارة المدمجة	رافائيل لويت جوشمان	علي إبراهيم منوفي
٦١١- النقد والأيديولوجية	تيري إيجلتون	فخري صالح
٦١٢- رسالة النفسية	فضل الله بن حامد الحسيني	محمد محمد يونس
٦١٣- السياحة والسياسة	كولن مايكل هول	محمد فريد حجاب
٦١٤- بيت الأقصر الكبير (رواية)	فوزية أسعد	منى قطان
٦١٥- [illegible]	أكيس بسيريني	محمد رفعت عواد
٦١٦- أساطير بيضاء	روبرت يانج	أحمد محمود
٦١٧- الفولكلور والبحر	هوراس بيك	أحمد محمود
٦١٨- نحو مفهوم لاقتصاديات الصحة	تشارلز فيلبس	جلال البنا
٦١٩- مفاتيح أورشليم القدس	ريمون استانبولي	عايدة الباجوري
٦٢٠- السلام الصليبي	توماش ماستناك	بشير السباعي
٦٢١- رباعيات الخيام (ميراث الترجمة)	عمر الخيام	محمد السباعي
٦٢٢- أشعار من عالم اسمه الصين	آي تشينغ	أمير نبيه وعبدالرحمن حجازي
٦٢٣- نوادر جحا الإيراني	سعيد قانعي	يوسف عبدالفتاح
٦٢٤- شعر المرأة الأفريقية	نخبة	غادة الحلواني
٦٢٥- الجرح السري	جان جينيه	محمد برادة
٦٢٦- مختارات شعرية مترجمة (جـ٢)	نخبة	توفيق علي منصور
٦٢٧- حكايات إيرانية	نخبة	عبدالوهاب علوب
٦٢٨- أصل الأنواع	تشارلس داروين	مجدي محمود المليجي
٦٢٩- قرن آخر من الهيمنة الأمريكية	نيقولاس جويات	عزة الخميسي
٦٣٠- سيرتي الذاتية	أحمد بللو	صبري محمد حسن
٦٣١- مختارات من الشعر الأفريقي المعاصر	نخبة	بإشراف: حسن طلب
٦٣٢- المسلمون واليهود في مملكة فالنسيا	دولورس برامون	رانيا محمد
٦٣٣- الحب وفنونه (شعر)	نخبة	حمادة إبراهيم
٦٣٤- مكتبة الإسكندرية	روى ماكلويد وإسماعيل سراج الدين	مصطفى البهنساوي
٦٣٥- التثبيت والتكيف في مصر	جودة عبد الخالق	سمير كريم
٦٣٦- حج يولندة	جناب شهاب الدين	سامية محمد جلال
٦٣٧- مصر الخديوية	ف. روبرت هنتر	بدر الرفاعي
٦٣٨- الديمقراطية والشعر	روبرت بن وارين	فؤاد عبد المطلب
٦٣٩- فندق الأرق (شعر)	تشارلز سيميك	أحمد شافعي
٦٤٠- أفكسياد	الأميرة أناكومنينا	حسن حبشي
٦٤١- برتراند رسل (مختارات)	برتراند رسل	محمد قدري عمارة
٦٤٢- أقدم لك: داروين والتطور	جوناثان ميلر وبورين فان لون	ممدوح عبد المنعم
٦٤٣- سفرنامه حجاز (شعر)	عبد الماجد الدريابادي	سمير عبدالحميد إبراهيم
٦٤٤- العلوم عند المسلمين	هوارد د. تيرنر	فتح الله الشيخ

٦٤٥-	السياسة الخارجية الأمريكية ومصادرها الداخلية	تشارلز كجلي ويوجين ويتكوف	عبد الوهاب علوب
٦٤٦-	قصة الثورة الإيرانية	سبهر ذبيح	عبد الوهاب علوب
٦٤٧-	رسائل من مصر	چون نينيه	فتحي العشري
٦٤٨-	بورخيس	بياتريث سارلو	خليل كلفت
٦٤٩-	الخوف وقصص خرافية أخرى	جي دي موباسان	سحر يوسف
٦٥٠-	الدولة والسلطة والسياسة في الشرق الأوسط	روجر أوين	عبد الوهاب علوب
٦٥١-	ديليسبس الذي لا نعرفه	وثائق قديمة	أمل الصبان
٦٥٢-	آلهة مصر القديمة	كلود تروينكر	حسن نصر الدين
٦٥٣-	مدرسة الطغاة (مسرحية)	إيريش كستنر	سمير جريس
٦٥٤-	أساطير شعبية من أوزبكستان (جـ١)	نصوص قديمة	عبد الرحمن الخميسي
٦٥٥-	أساطير وآلهة	إيزابيل فرانكو	حليم طوسون ومحمود ماهر طه
٦٥٦-	خبز الشعب والأرض الحمراء (مسرحيتان)	ألفونسو ساستري	ممدوح البستاوي
٦٥٧-	محاكم التفتيش والموريسكيون	مرثيديس غارثيا أرينال	خالد عباس
٦٥٨-	حوارات مع خوان رامون خيمينيث	خوان رامون خيمينيث	صبري التهامي
٦٥٩-	قصائد من إسبانيا وأمريكا اللاتينية	نخبة	عبداللطيف عبدالحليم
٦٦٠-	نافذة على أحدث العلوم	ريتشارد فايفيلد	هاشم أحمد محمد
٦٦١-	روائع أندلسية إسلامية	نخبة	صبري التهامي
٦٦٢-	رحلة إلى الجذور	داسو سالديبار	صبري التهامي
٦٦٣-	امرأة عادية	ليوسيل كليفتون	أحمد شافعي
٦٦٤-	الرجل على الشاشة	ستيفن كوهان وإنا راى هارك	عصام زكريا
٦٦٥-	عوالم أخرى	بول دافيز	هاشم أحمد محمد
٦٦٦-	تطور الصورة الشعرية عند شكسبير	وولفجانج اتش كليمن	جمال عبد الناصر ومدحت الجيار وجمال جاد الرب
٦٦٧-	الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربي	ألفن جولدنر	علي ليلة
٦٦٨-	ثقافات العولمة	فريدريك جيمسون وماساو ميوشي	ليلى الجبالي
٦٦٩-	ثلاث مسرحيات	وول شوينكا	نسيم مجلي
٦٧٠-	أشعار جوستاف أدولفو	جوستاف أدولفو بكر	ماهر البطوطي
٦٧١-	قل لي كم مضى على رحيل القطار؟	جيمس بولدوين	علي عبدالأمير صالح

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٤٤٠٣ / ٢٠٠٣

«قل لى كم مضى على رحيل القطار» - بخيرها وشرها - رواية لا تحقق فى أن تترك فى نفس قارئها أثرًا باقيا لأنها تعالج قضية حقيقية من قضايا الوجود الإنسانى، ويرفدها تعاطف عميق مع أزمة الشخصية الرئيسية، دون جنوح إلى إضفاء الطابع المثالى عليها رغم ذلك. فهى صورة صادقة للطبيعة البشرية فى سياقها التاريخى والحضارى مع واقعية (تكاد تشفى على حد الناتورالية أحيانا) فى التصوير، ونقلات فعالة فى السرد، ورسم محكم للشخصيات (انظر شخصية كالب، مثلا، وما طرأ عليها من تغير وعلاقتها بالراوى)، وحوار نابض بالحياة، وابتعاث للمكان والزمان، وتناول لانهيار «الحلم الأمريكى» ذلك الذى بدأ فى ١٦٢٠ مع إبحار السفينة «ماى فلاور» من ميناء بليموث بإنجلترا حاملة على متنها مائة من «الآباء الحجاج» ورسوها، بعد رحلة دامت سنة وستين يومًا، على ساحل أمريكا الشمالية، لتبدأ بذلك التجربة الأمريكية - المستمرة حتى يومنا هذا - بكل ما فيها من ثراء وتعقد ونقائض.

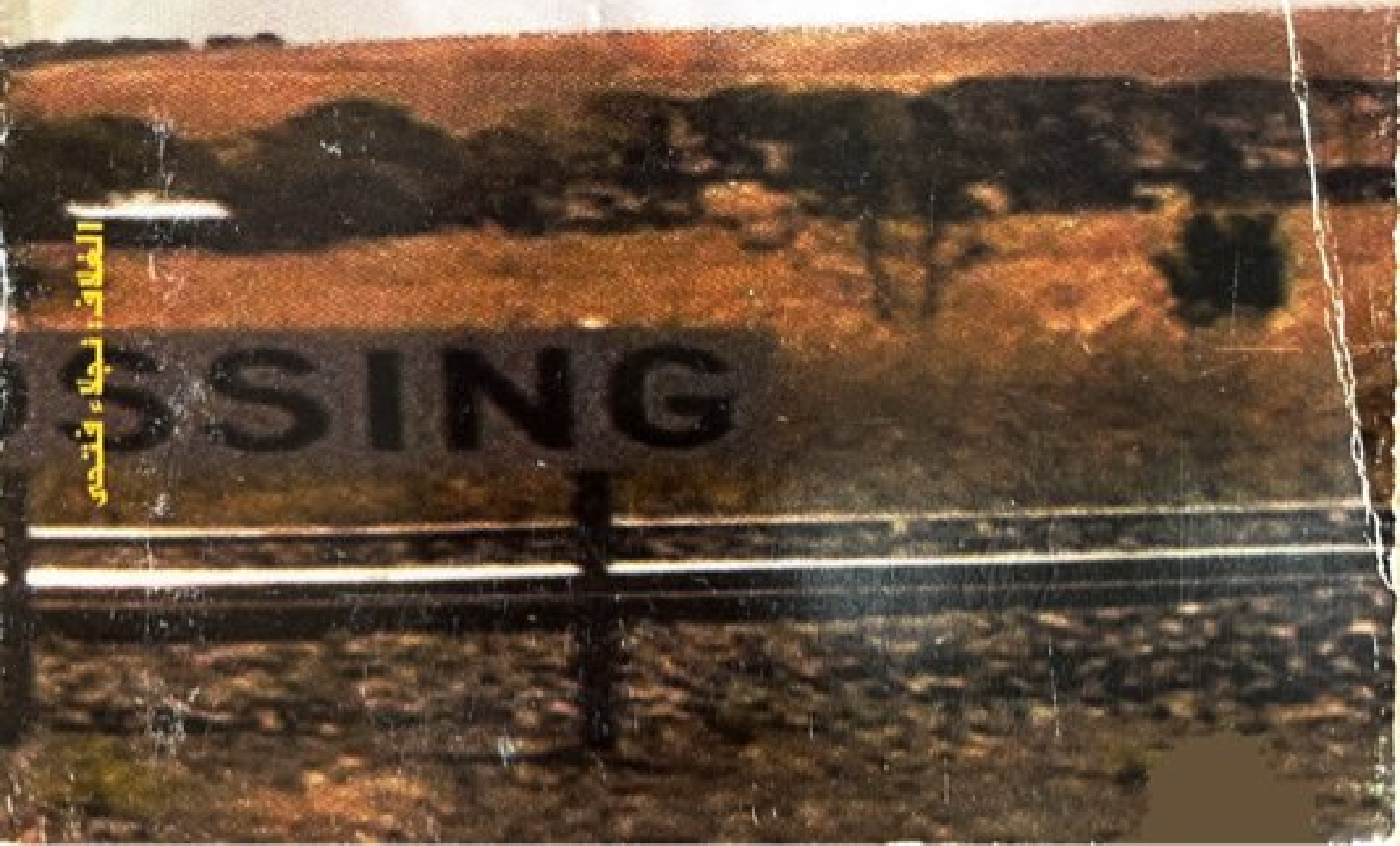

الغلاف: نجلاء فتحي